



صفوة السيرة النبوية

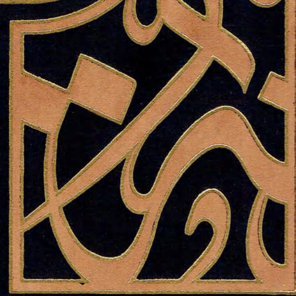
في ضوء المصادر الأصلية

تأليف

أ.د. مهدي رزق الله

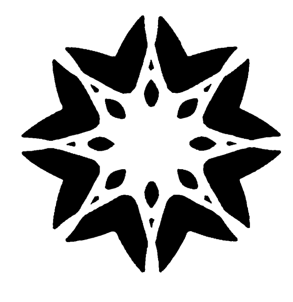
من إصدارات

مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي



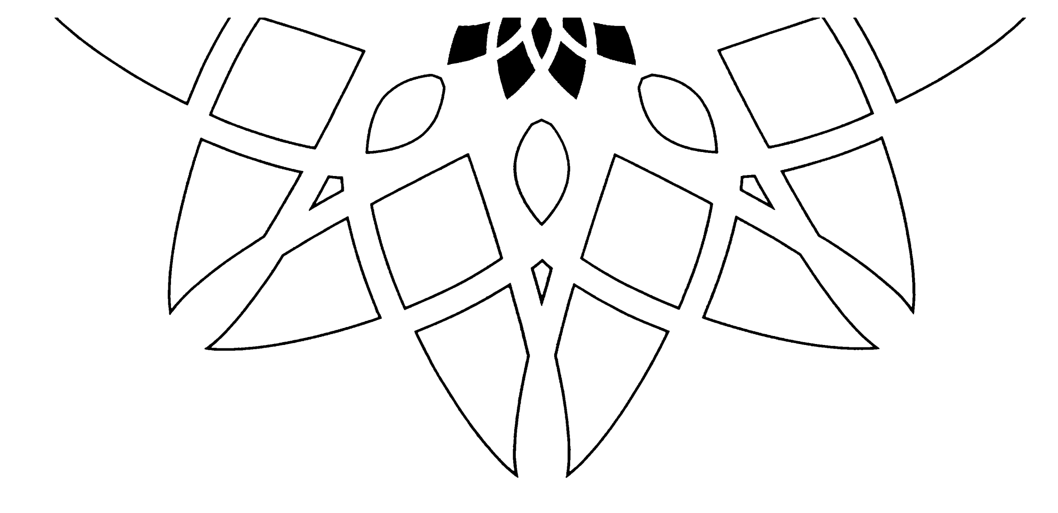






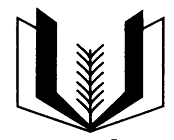
صفوة السيرة النبوية

في ضوء المصادر الأصلية

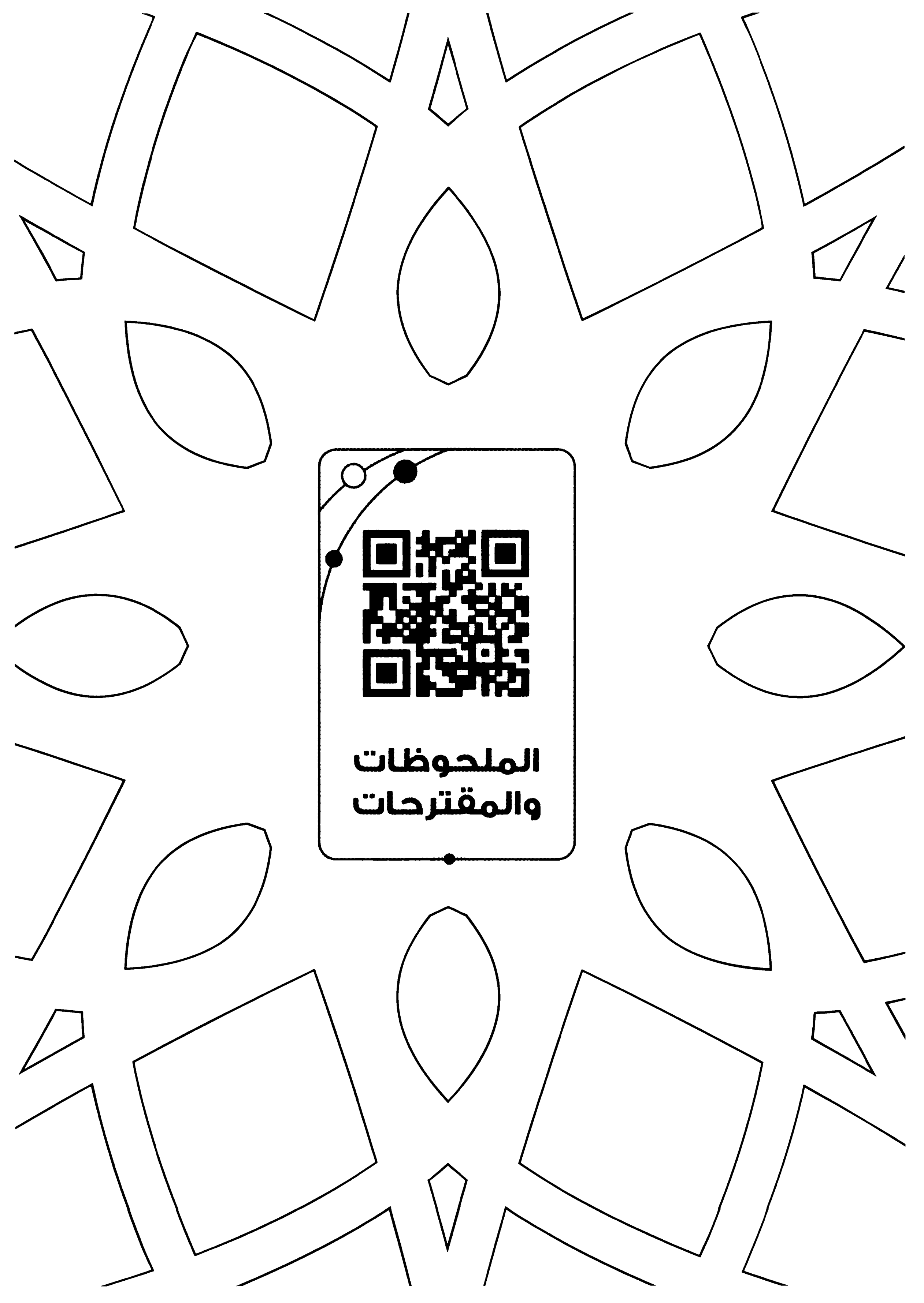


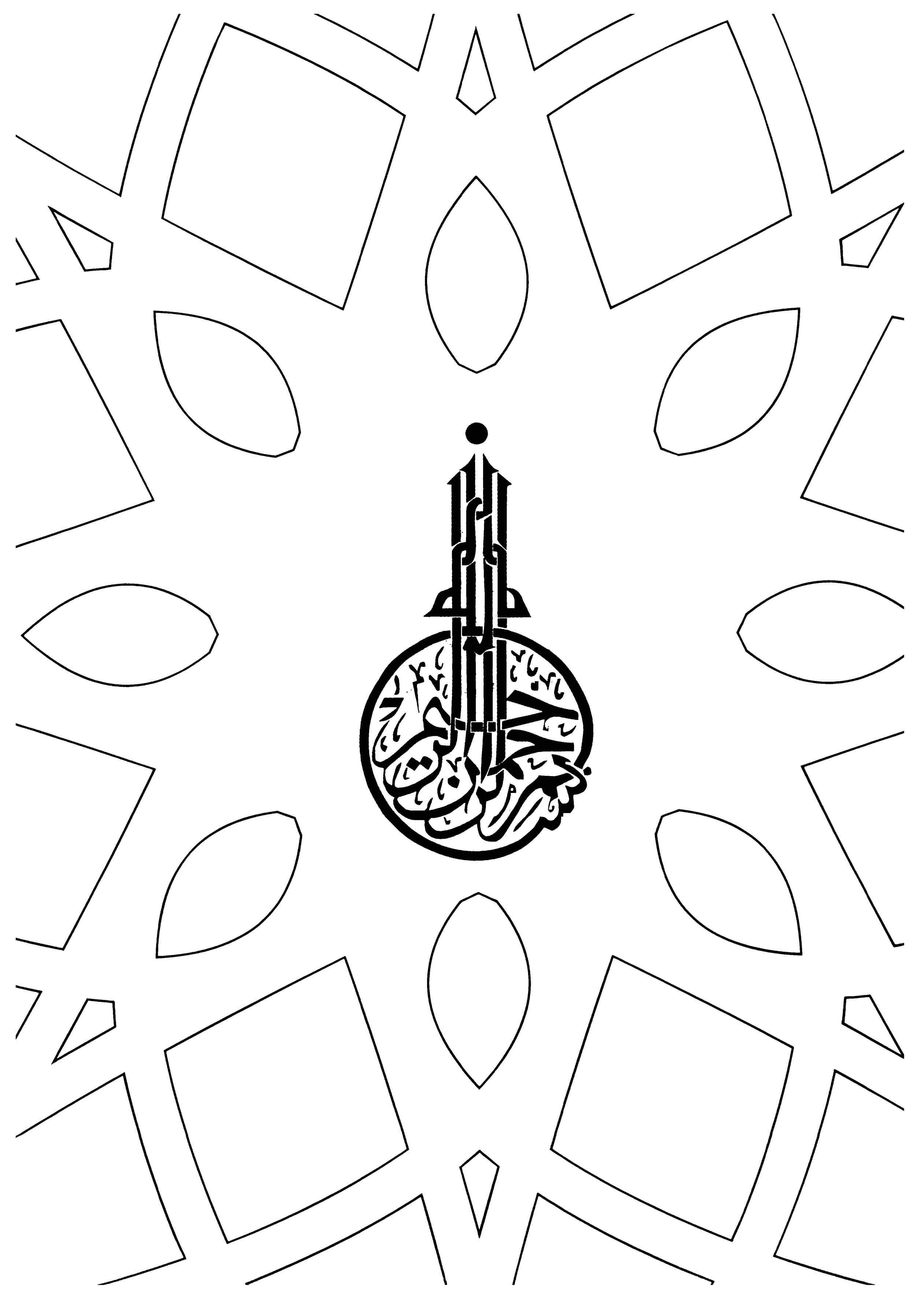
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
أحمد، مهدي رزق الله.
صفوة السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. / مهدي رزق الله أحمد – ط٣ - الرياض، ١٤٤٢هـ.
٨٢٤ ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦-٢-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨
١- السيرة النبوة أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ٣٤٠٣/ ١٤٤٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٤٠٣
ردمك: ٦-٢-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨



مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي
Almenhaj Center for Educational Supervision and Training
المملكة العربية السعودية - الرياض - هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٠٩٥٣
الموقع الإلكتروني: www.kholasah.com
البريد الإلكتروني: info@kholasah.com


الملحوظات
والمقترحات


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أشكر الله ﷻ أولًا الذي وفقني لتأليف هذا الكتاب، وأشكر كل من كان سببًا في جعل هذا الكتاب مقررًا دراسيًا في الجامعات والمعاهد العليا، خاصة بالمملكة العربية السعودية؛ أو جعله مرجعًا معرفيًا لحلقاته الإذاعية أو المسجدية في دراسة السيرة النبوية؛ أو جعله المرجع الوحيد في مسابقات السيرة النبوية.

وأشكر كل من أشاد بهذا العمل ووصفه بأكثر مما يستحق، وذلك عبر الفضائيات أو مجالس العلم أو الأشرطة التسجيلية وغيرها من الوسائل.

وأشكر القائمين على أمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتب الدمام، خاصة الأستاذ الدكتور محمد الجار الله، الذين بادروا إلى طلب ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وتم التعاقد على ترجمته إلى عدة لغات آسيوية وأوربية. وترجم فعلًا إلى الإنجليزية والأردية. كما أشكر الذين اتصلوا بي لترجمته إلى لغات عالمية حية.

وأشكر كل من أعانني بنصيحة أو بمشورة أو بتشجيع معنوي، أو بإعارته إياي بعض المصادر والمراجع؛ وذلك عملًا بقوله عليه الصلاة والسلام: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**».

وأشكر ابن أخي – يحي دفع الله – وابنة أخي – رحمة يوسف رزق الله – وأفراد أسرتها، الذين هيأوا الجو المناسب لنا للاستفادة من الوقت لإنجاز هذه الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، بالرياض.

المؤلف

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أساتذة السيرة النبويـة والتـاريخ الإسـلامي بصـفة خاصـة بالمؤسسات التعليمية المختلفة، وإلى الدعاة إلى الله وطلبة العلم الباحثين عـن الحقيقـة، وإلى عامة المسلمين وغير المسلمين الذين يرغبون في معرفة سيرة وسنّة الرسـول ﷺ في ضوء الروايات الموثقة، ووفق مناهج المحدثين رواية ودراية بصفة عامة. سـائلًا الله ﷻ أن ينفع به ويتقبله.

ونهديـه بصـفة أخـص إلى القـائمين عـلى أمـر التربيـة والتعلـيم بالمعاهـد العليـا والجامعات، وعلى رأسهم رؤساء الدول والوزراء، آملين أن يجعلوا سيرة الرسـول ﷺ متطلبًا دراسيًا إجباريًا على كل طلاب المؤسسات التعليمية.

وأسأل الله العلي القدير أن يوفّقهم في هذا الاتجاه، وهذا ما نملكه.

ونهديه إلى كل من أشاد بهذا العمـل ودعمنـا دعـمًا معنويًـا شـجعنا عـلى مواصـلة التنقيح والزيادة والاختصار.

ونهديه إلى أفراد أسرتي وعلى رأسـهم الزوجـة أم تمـاضر، لصـبرها عـلى ضرتهـا - مكتبتي - التي تأخذ معظم وقتي وتترك لهم فضول الوقت، وليس أدل على صبرها من أن زوجها لم يعرف في حياته ما يسمونه الإجازات أو العطل، حتى الجمعة والسبت .

ونهديه إلى أهلنا ببلدة الجابرية بمحلية الدبة بشمالي السودان، الـذين تعلمنـا مـنهم أهميـة العمل الدؤوب، وغرست حلق ذكرهم لقراءة البرزنجي في السيرة النبويـة ومـدح الرسـول ﷺ، خاصة سيرته في المعجزات والشمائل، غرست فينا حب الرسول ﷺ منذ نعومة الأظفار.

ونهديه إلى كل أهل السودان والسعودية الذين اشتهروا بحـب سـيرة خـير الأنـام، وأسهموا في ميلاد هذا العمل الذي بين أيديهم الآن.



المقدمة

منهج البحث ومميزات الطبعة الثالثة:

إن مرويات سيرة الرسول ﷺ كثيرة جدًا، ولذا يلحظ القارئ لكتابنا هذا أننا قد أهملنا طائفة من الروايات الضعيفة التي لا تنجبر، وإن أكثر من روايتها بعض أهل المغازي والسير والتاريخ والشمائل والخصائص، لأن هدف البحث ليس استقصاء جميع مرويات السيرة النبوية، بل الهدف رسم هيكل عام للسيرة العطرة يستوعب معظم الصحيح والحسن لذاته والحسن لغيره. وإذا استأنست بما دون ذلك من الروايات الضعيفة سندًا ولا تنجبر، اخترت منها ما لا يتعارض متنه مع الروايات التي يحتج بها.

تمتاز هذه الطبعة بأن الاختصار كان في الحواشي، ووضعها في المتن، باستثناء حواشي وصف النبي ﷺ الخَلْقي، وبقي أصل المادة العلمية لأهميتها لمعظم المستويات الثقافية.

واختصرت في ذكر عدد مصادر الروايات، واختصرت اسم المصدر، فمثلا: إذا قلت: أحمد، فيعني في المسند، وإذا قلت: ابن إسحاق، فيعني عند ابن هشام في السيرة، وإذا قلت: ابن إسحاق في السيرة، يعني السير والمغازي، وعلى القارئ - إذا أراد - أن يرجع إلى ثبت المصادر والمراجع ليقف على كامل العنوان. ومن أراد التفصيل في الحواشي فليرجع الى كتابنا: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

لقد حرصت أن تكون معلوماتي موثقة -أي منسوبة إلى مصادرها والحكم على أسانيدها ومتونها- ليتيسر للقارئ التأكد من صحة النقل أو الاستزادة من المعلومات التي وردت مختصرة. علمًا بأن المصادر ليست على درجة واحدة من الالتزام بإيراد

الروايات الصحيحة أو الحسنة أو المقبولة عند الاحتجاج بها حسبما فصله علماء الحديث، هذا مما لا يخفى على المبتدئين من طلاب هذا العلم الجليل.

ورأيت أن يعتمد هذا الكتاب في معلوماته على مصادر السيرة النبوية المختلفة الدرجات، وعلى رأسها كتاب الله - عز وجل - ثم الروايات المعتمدة عند المحدثين في كتب التفسير، وكتب الحديث، وعلى رأسها الصحيحان، والروايات المعتمدة في كتب المغازي والسير، وأن أذكر درجة إسناد ومتن الرواية باختصار - إذا لم تصدرها روايات الصحيحين -؛ ليعرف ما إن كانت مما يحتج بها أو لا، وذلك في ضوء آراء أهل الحديث ونقاده ومحققيه، وما سكت عنه فهو من باب الضعيف الذي لا ينجبر، ورأيت أن استنبط من كثير من أحداث السيرة بعض رؤوس المسائل الفقهية والحكم والدروس والعبر.

أما مميزات هذه الطبعة الثالثة فإضافة الأربعة فصول الأخيرة وتعديل طفيف في العنوان.

أهداف دراسة السيرة النبوية:

١- أن يقف الدارس للسيرة النبوية على التطبيق العملي من قبل الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لأحكام الإسلام التي تضمنتها آيات القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة في مجالات الحياة المختلفة.

٢- أن الاقتداء برسول الله ﷺ يقتضي معرفة شمائله وأحواله ودلائل نبوته وخصائصه، يقول الله عز وجل في هذا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب:٢١]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران:٣١].

٣- إن معرفة ما حفلت به السيرة من مواقف إيمانية عقدية، وقفها الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لإعلاء كلمة الله تعالى، تقوي من عزائم المؤمنين السائرين على درب الرسول ﷺ، وتثبتهم للدفاع عن الدين والحق، وتقذف في قلوبهم الطمأنينة.

٤- أن السيرة النبوية هي المثل الأعلى للإنسان شبه الكامل - والكمال لله عز وجل - في جميع الجوانب.

٥- أن يجد المرء في السيرة النبوية ما يعينه على فهم كتاب الله عز وجل في جميع الجوانب، ففي السيرة بيان لأسباب نزول القرآن الكريم.

٦- أن يحصل دارس السيرة النبوية على قدر كبير من المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة: من عقيدة وشريعة وأخلاق وتفسير وحديث وسياسة ودعوة وتربية واجتماع... إلخ.

٧- أن يتعرف الدارس للسيرة على تطور الدعوة الإسلامية، وما كابده الرسول ﷺ وأصحابه لإعلاء كلمة الله عز وجل، وما واجهه هو وأصحابه رضي الله عنهم من مشكلات، وكيفية التصرف في تذليل تلك العقبات، وحل تلك المشكلات.

٨- أن المعجزات التي أجراها الله عز وجل على يدي نبيه محمد ﷺ لا تفهم جيدًا إلا في ضوء معرفة وقائع أحداث السيرة النبوية التي حدثت من خلالها تلك المعجزات التي تقوي وتزيد إيمان المسلم.وأن ما وجدفي مصدر السيرة الاول -القرآن الكريم- من معجزات حسية تدل على وجود الله عز وجل وصدق رسالة النبي محمد ﷺ.

٩- أن يقف الدارس المحقق على الروايات الصحيحة التي يمكن الاحتجاج بها في مجالات الدراسات الإسلامية المختلفة، وهو مطلب ملح جدًا لطلاب العلم الأصيل.



تمهيد [١]

مكة قبل الإسلام:

نشأة مكة:

هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد، وكانت ترافقه زوجته سارة. وكانت امرأة جميلة، وكان من عادة ملك مصر آنذاك أن يستأثر لنفسه بكل امرأة جميلة. وشاء الله عز وجل أن يصرفه عن سارة. وتنقلب منه بجارية لتخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام [البخاري].

ولما كانت سارة عقيمًا، وطعن إبراهيم عليه السلام في السن، وابيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحة. وشاء الله عز وجل أن تلد له هاجر ابنه الأول، فسماه إسماعيل [فتوح مصر؛ الأزرقي].

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء [الفتح]. فاتخذت هاجر منطقًا له ذيل. فشدت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق مكان زمزم، في أعلى مكان المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء. ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل راجعًا، فتبعته هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارًا، وهو

لا يلتفت إليها، فقالت له أخيرًا: «آلله الذي أمرك بهذا؟» قال: «نعـم»، قالـت: «إذن لا يضيعنا». ثم رجعت. فانطلق إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتـى إذا كـان عنـد الثنيـة حيث لا يرى، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا الله عزوجل قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[إبراهيم:٣٧].

لم يلبث أن نفذ ما عند هاجر من ماء، فعطشت هـي وابنهـا، فكرهـت أن تنظـر إلى ابنها وهو يتلوى من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصـفا، ثم استقبلت الوادي لتنظر، هل ترى أحدًا. فلما لم تر أحدًا هبطت مـن الصـفا حتـى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسـان المجهـود حتـى جـاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحـدًا. فلـم تـر أحـدًا. ففعلـت ذلك سبع مرات، وذلك سعي الناس بينهما كما قال الرسول ﷺ. وفي نهاية المرة السابعة جاءها الملك جبريل عليه السلام وأخذ يبحث بعقبـه أو بجناحـه عنـد موضـع زمـزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لـو تركـت زمـزم**»، أو قـال: «**لـو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم اليوم عينًا معينًا**» [البخاري]. فشـربت وأرضعت ولـدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبـوه، وإن الله لا يضيع أهله» [البخاري].

وبينما هي على هذه الحال، مر بهم أهل بيت مـن قبيلـة جـرهم اليمنيـة القحطانيـة؛ وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشـرط أن لا يكـون لهـم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهليهم فنزلوا معهـم، وشـب الغـلام اسـماعيل بينهم، وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما كبر زوجـوه امـرأة مـنهم. [وقيل إن زوجته الأولى كانت من العماليق] [البداية].



وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجه أنه خرج في حاجتهم، وعندما سألها عن عيشهم، شكت إليه مر الشكوى مما يلاقيانه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام، وتقول له: أن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مرة أخرى فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجه عن عيشهم، فحمدت الله، وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بما حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجه.

ثم غاب إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنه من وراء زمزم يصلح نبلًا له، تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد - أي تعانقا -.

فطلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ابنه أن يعينه بما أمره الله تعالى به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم، ففعل، فكان إبراهيم عليه السلام يبني، ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاءه بحجر المقام فوضعه له، فقام عليه، وكانا يقولان وهما يبنيان-: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] [البخاري].

ليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل عليه السلام أباه على طاعة الله تعالى وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام عاد إلى مكة عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله تعالى إليه منامًا أن يذبحه قربانًا لله تعالى.

فاستشار إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل في ذلك قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[الصافات:١٠٢] فأجاب إسماعيل قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[الصافات:١٠٢] [انظر الصافات: ١٠٢ - ١٠٧].

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه، ولما تله للجبين - والسكين بيده - ناداه ربه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾. وفداه الله تعالى بذبح عظيم ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾[الصافات: ١٠٢-١٠٧]، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش، وفاز الوالد والولد برضا الله تعالى [زاد المسير].

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام من بناء البيت، أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾[الحج:٢٧]، فقيل: صعد عليه السلام جبل أبي قبيس أو الحِجر أو الصفا، ونادى باسم الله تعالى قائلًا: «**أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتًا فحجوه**». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله تعالى أنه يحج إلى يوم القيامة، فلبى قائلًا: «**لبيك اللهم لبيك**» [تفسير ابن كثير].

ودعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عزوجل بما حكاه عنهما القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة:١٢٩] [تفسير الطبري]. قال الطبري [التفسير]: (وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى...**»). وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرهم إلى أن بعثه الله رسولًا إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن [البداية]. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾﴾[مريم:٥٤].

وأنجب اثني عشر ولدًا ذكرًا. وقد سماهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير [في البداية]، وأولهما نابت وقيذار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء ما بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعًا بالحرم المكي، ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة.

وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده ما بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم. [ابن عساكر].

وعندما مات إسماعيل عليه السلام دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعًا وثلاثين سنة. وينتسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيذار [البداية].

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم عليه السلام كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد [أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ].

تعدد بناء الكعبة:

المرة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقي.

المرة الثانية: عمارة آدم عليه السلام كما روى البيهقي [الدلائل]، وغيره [السبل].

المرة الثالثة: عمارة أولاد آدم عليه السلام كما روى الأزرقي وغيره، عن وهب ابن منبه، وذكره السهيلي، أن الذي بناها شيث بن آدم عليه السلام.

المرة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي ذكرناها، وجزم ابن كثير [البداية] بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[الحج:٢٦] فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم

عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي معلقًا على كلام ابن كثير هذا: (... وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة).

المرة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي من رواية ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه. قال السهيلي: (وقد قيل: إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه، ولم يكن ذلك بنيانًا على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحًا لما وهى منه، وجدارًا بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر). [وانظر بناء العماليق في دلائل البيهقي (٢/ ٥٦-٥٧)؛ وأخرج الحاكم الرواية (١/ ٤٥٨) وصححها وأقره الذهبي].

المرة السابعة: عمارة قصي بن كلاب - جد النبي ﷺ - قال الشامي: (نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبو إسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية).

المرة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول ﷺ من العمر خمسة وثلاثون عامًا، كما سيأتي ذكره هنا في المبحث الخاص بمشاركة الرسول ﷺ في بناء الكعبة.

المرة التاسعة: عمارة عبد الله بن الزبير، كما روى الشيخان وغيرهما. وسيأتي ذكرها.

المرة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، كما روى الإمام مسلم. وعندما شكك عبد الملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة رضي الله عنها حديث الرسول ﷺ: **«لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لهدمتها وجعلت لها غلقًا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر»**، أكد له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - المعروف بالقباع، وأخو عمر بن أبي ربيعة، الشاعر المشهور - أنه سمعه منها، فندم على نقضه وإعادته. [مسلم].



وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزبير، فقال له مالك ابن أنس: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه. [البداية].

المرة الحادية عشر: بناء السلطان مراد خان العثماني، سنة ١٠٤٠هـ - ١٦٣٠م، ذكره محمد علي بن علان في رسالته التي بهذا الشأن، وسببه ما فعله السيل بالكعبة، حيث أسقط منها بعض الأجزاء. [إخبار الكرام للمكي].

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء، وبقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي والفاكهي وبعض المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مر بك قول ابن كثير: (ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام).

ويقول أبو شهبة [السيرة] بعد ترجيحه كلام ابن كثير-: (ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي: أنه ما من نبي إلا وقد حج البيت)، ما رواه أبو يعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي «عُسْفَان» قال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»، قال: هذا وادي عُسْفَان، قال: «لقد مَرَّ بهذا نوح وهود وإبراهيم

على بَكَرَاتٍ لهم حُمْرٍ، خَطْمُهُمُ اللِّيفُ، وأُزُرُهم العَبَاء، وأَرْدِيَتُهُم النِّمَار، يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: **«يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»**، قال: وادي عُسْفَان، قال: **«لقد مَرَّ به هود وصالح عليهما السلام على بَكَرَاتٍ لهم حُمْر، خَطْمُهَا اللِّيف، أُزُرُهم العَبَاءُ، وأَرْدِيَتُهُم النِّمَارُ، يلبون يحجون البيت العتيق»**، إسناده حسن. وقد تقدم في قصة نوح (١/ ٢٧٨) عليه السلام **«وفيه نوح وهود وإبراهيم»** وقال أبو شهبة: **لأن المقصود الحج إلى محله، وبقصته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء.** [بكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية؛ وخطم: جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة، والأزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط؛ والأردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. والنمار جمع نمرة، وهو الكساء المخطط].

عمل ابن الزبير رضي الله عنهما وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا عليها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى السماء عشرة أذرع، وجعلوا لها بابين من الشرق والغرب، أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه. وذلك استنادًا إلى قول الرسول ﷺ الذي رواه الشيخان: **«يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»**، أو في معنى هذا.

وذكر الأزرقي، أن إبراهيم ﷺ جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع، وطولها في الأرض اثنين وثلاثين ذراعًا، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام، زادوا فيه تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعًا،

ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في دَرَج أو سُلَّم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غَلَقًا هو تُبَّع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعًا وعشرين ذراعًا، وعلى ذلك هي الآن».

لم يكن للمسجد الحرام سور. وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها فوسَّعه وجعل له سورًا على قامة الرجل، وأناره [الأزرقي؛ السهيلي] وعندما رأى عثمان رضي الله عنه أن المسجد أيضًا قد ضاق بالحجاج والمعتمرين، اشترى دورًا أخرى فوسع بها الحرم [الأزرقي]، وكذلك فعل ابن الزبير [الأزرقي].

ولم يزل الخلفاء الأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة [الأزرقي] إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية، فجزاهم الله خيرًا.

وانظر في هذا بحثنا المشار إليه قبل صفحتين. [عمارة الكعبة...].

مقام إبراهيم عليه السلام:

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماه أثرًا فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وفي هذا يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

[البداية].

وقد روي أن المقام كان ملصقًا بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخَّره عن البيت قليلًا، توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة رضي الله عنهم على عمل الفاروق [عبد الرزاق، صحيح؛ البيهقي، صحيح].

وقد سبق وأن وافق الله تعالى على قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[البقرة:١٢٥] [البخاري، أحمد، صحيح].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم عليه السلام بنى أيضًا المسجد الأقصى، وقيل: إن يعقوب عليه السلام هو الذي أسسه. وقد كان بين البناءين أربعون عامًا، كما قال الرسول ﷺ [متفق عليه].

أما الحديث الذي رواه النسائي [السنن، صحيح]، وفيه أن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالمقصود بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي وابن القيم وابن حجر، واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبو شهبة.

[٢] حالة العالم حين بعث محمد ﷺ

لقد عاشت البشرية في ظلام من الجاهلية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، إذ سادت الوثنيات والخرافات والعصبيات والقبليات والطبقيات والمفاسد الاجتماعية والسياسية. وحرفت معظم الأفكار الإصلاحية السليمة، سواء التي جاء بها أنبياء الله تعالى المرسلون، أو الحكماء الذين استقامت فطرهم على الحق. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم جميعًا إلا بقايا من أهل الكتاب**» [مسلم].

وفي الصفحات القليلة التالية، نذكر باختصار، ما كانت عليه الجزيرة العربية في تلك الفترة، لبيان ضرورة رسالة النبي ﷺ وما تضمنته من أسس ومعايير، كانت وما زالت وستظل، عوامل رئيسة في بناء الحضارة الإنسانية.

١ - في الجزيرة العربية:

أولًا: الحالة السياسية:

أ - الملك باليمن:

إن من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم بأحد عشر قرنًا. وفي سنة ثلاثمائة الميلادية غلبت على ملكهم قبيلة حمير، ثم بدأت اليمن في دور الانحطاط، وأخذت القبائل القحطانية في الهجرة إلى البلاد المختلفة.

وتوالت عليهم الاضطرابات والحروب الأهلية في المئتين والسبعين سنة التي سبقت دخول الإسلام اليمن، مما أتاح للأجانب القضاء على استقلالهم. فدخلت الرومان عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة، سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن سلط الله تعالى عليهم سيل العرم سنة ٤٥٠ أو ٤٥١م فهدم سد مأرب الذي جعله الله تعالى مصدر نعمة ورخاء لهم [تاريخ اليعقوبي]. وكل ذلك بسبب عتوهم وفسادهم وانحرافهم. وهذه سنة الله تعالى في ذلك.

وفي سنة ٥٢٣م قام ملكهم ذو نواس بحملة ضد المسيحيين لصرفهم عن دينهم، فلما أبوا، حفر لهم أخدودًا، وأوقد فيه نارًا، فقذفهم فيها، وهم الذين حكى الله تعالى خبرهم في الآيات: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: ٤-٥]، وكان سببًا في تحريض الروم الأحباش ليحتلوا اليمن للمرة الثانية بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل حاكمًا على اليمن إلى أن اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم مكانه بعد أن نال رضى ملك الحبشة. وقام أبرهة بمحاولة هدم الكعبة بمكة، ولكن الله رده بقوته، كما حكى ذلك القرآن الكريم في سورة الفيل.

واستنجد اليمنيون بالفرس فأعانوهم على إجلاء الأحباش سنة ٥٧٥م، بقيادة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري، وملكوه عليهم. وكان قد أبقى جمعًا من الحبشة لخدمته، فاغتالوه، وبموته انقطع الملك عن بيته، وولى كسرى عاملًا فارسيًا على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية. وكان آخر ولاتهم باذان، الذي اعتنق الإسلام، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس في بلاد اليمن [نفسه]، وكان إسلام باذان في جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - ٦٢٨م [ابن سعد].

ب - الملك بالحيرة:

حكمت الفرس العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧-٥٢٩ق.م) ثم فرق شملهم الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ق.م عندما هزم ملكهم دارا الأول، ودخلت البلاد في حكم الطوائف إلى سنة ٢٣٠م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون وسكنوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين، فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

وجمع أردشير الفارسي - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م - شمل الفرس، وسيطر على العرب المقيمين على تخوم مملكته، وكان ذلك سببًا في رحيل قضاعة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، ولصعوبة حكم المناطق البعيدة رأى أن ينصب عليهم ملكًا منهم، اسمه جذيمة الوضاح، ويعينه بكتيبة من الفرس، ليقفوا جميعًا في وجه مطامع الروم وعرب الشام، الذين اصطنعهم الروم. واشتهر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر، وهو الذي خاض حربًا ضد ملك الفرس، وهزم جيش الفرس في موقعة ذي قار، بعد ميلاد الرسول ﷺ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقيل: إن الرسول ﷺ قال عنه: «**هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم، وبي نصروا**» [الطبري: التاريخ].

جـ - الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بني سليح بن حلوان، الذين منهم بنو ضجعم ابن سليح، المعروفون باسم الضجاعمة؛ فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم زمانًا إلى

أن غلبهم عليه الغساسنة. وظل الغساسنة في الملك من قِبَل الروم إلى أن كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ-٦٣٤م، ودخل في الإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، في عهد عمر رضي الله عنه [تاريخ اليعقوبي].

د - مكة:

إن مكة من بلدان الحجاز، ولم يقم بالحجاز كيان سياسي موحد يمكن أن يسمى بالدولة، وإنما قامت بها مدن، لكل منها نظامها السياسي الذي هو أقرب إلى المشيخة منه إلى نظام الملك. ومن أشهر المدن: مكة ويثرب والطائف.

تناولت فيما سبق طرفًا من تاريخ نشأة مكة، وذكرنا أصل سكانها، وهم جرهم، وقيل: كان قبلهم العماليق، الذين كانوا يسكنون خارجها، أي من حولها [الأزرقي].

لم تحافظ جرهم على حرمة الحرم بعد إسماعيل، فكثر في أيامهم البغي والفساد. واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذي كان يهدى إليها. ويقال: إن ماء زمزم نضب في عهدهم، كما أن البئر نفسها زالت معالمها، وعندما تفرق بعض عرب اليمن بعد سيل العرم، هاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر مع قومه إلى مكة، ولم تقبلهم جرهم، ودارت بينهم حرب انتهت بهزيمة جرهم.

وعندما مرض ثعلبة، رحل إلى الشام، وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو، وهو لحي، وعرف قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل ابن إبراهيم. وكانوا قد اعتزلوا الحرب التي دارت بين جرهم وثعلبة [الأزرقي].

ظلت خزاعة تلي أمر البيت الحرام نحوًا من ثلاثمئة سنة، وقيل: خمسمئة سنة. وكانت قريش إذ ذاك متفرقة في بني كنانة حتى تزعمها قُصَيٌّ بن كِلَاب ووحَّد بطونها، وخاض حربًا ضد خزاعة حول ولاية البيت. وأعانته قضاعة في حربة، وتدخلت قبائل العرب، وانتهت الحرب بالتحكيم الذي نتج عنه أحقية قصي بولاية الكعبة.

ومنذ ذلك اليوم ارتفعت مكانة قريش بين العرب [نفسه].

قام قصي بتقطيع مكة رِبَاعًا بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة، وكانت له جميع الرئاسات من حِجَابة وسِقَاية وسِدَانة ولِوَاء. وبنى دارًا لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات، سماها دار النَّدْوَة، وكان يرأس اجتماعاتها ويدير شؤونها. وفرض على قريش خرجًا سنويًا يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

وعندما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف والرئاسات إلى أكبر أبنائه عبد الدار، ولما مات عبد الدار وإخوته: عبد مَنَاف وعبد شَمس، وعبد العُزَّى، اختلف أبناؤهم في هذه الرئاسات، وافترقوا إلى فرقتين، ففرقة بايعت بني عبد الدار، وفرقة بايعت بني عبد مناف، ووضع حلف بني عبد مناف أيديهم عند الحلف في جَفْنَةٍ فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة، فسموا حلف المُطَيَّبين.

أما بنو عبد الدار ومن حالفهم. فقد أخرجوا جَفْنَةً مملوءة دمًا، وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة، وسموا الأحلاف.

ثم أخيرًا اصطلح الفريقان على أن تكون الرِّفَادَة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار [ابن إسحاق] وقسمت الرئاسات التي نالها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة لعبد شمس [الأزرقي].

وعندما علت مكانة هاشم بين قومه حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس، وحاول أن ينافسه في إطعام الحجاج فعجز، فشمت به بعض قومه فزاد حسده وحقده على عمه.

وولي السقاية والرِّفَادَة المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، ثم عندما مات المطلب خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، ثم عندما مات خلفه ابنه العباس بن عبد المطلب، وقد أبقاهما الرسول ﷺ في يده بعد فتح مكة.

أما بنو عبد الدار فقد توارثوا الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة. وقد أبقى الرسول ﷺ الحجابة بأيديهم عندما فتح مكة ودفع بمفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهي فيهم إلى اليوم، وقيل: إن الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النساء:٥٨]، قد نزلت بهذا الخصوص [تفسير الطبري]، ولم يستبعد الطبري ذلك، وساق أقوالًا أخرى في ذلك.

هـ - يثرب:

كان أول من سكنها العمالقة، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية، فأقاموا بها، خاصة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، إثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهودية بسورية، فتفرقوا في البلاد، فلجأت قبائلهم وعلى رأسهم بنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب. وأقاموا بها حتى نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج عندما تهدم سد مأرب [المقريزي: إمتاع الأسماع].

عاش اليهود والأوس والخزرج في وئام فترة من الزمان، وتحالفوا ليأمن بعضهم بعضًا، وعندما قويت شوكة الأوس والخزرج تنمَّر اليهود عليهم ونقضوا الحلف الذي بينهم، فاستنجد العرب ببني عمومتهم الغساسنة، فأنجدوهم أنفة من تسلط اليهود عليهم [صبح الأعشى].

وكذلك عاش الأوس والخزرج في وئام في بداية أمرهم، ثم وقعت بينهما حروب طويلة، كان النصر في أغلب الأحيان للخزرج، ولهذا حاولت الأوس محالفة قريش

ضد الخزرج، فلم تفلح، فلجؤوا إلى الحلف مع بني قريظة وبني النضير. وسمعت الخزرج بهذا فأرسلت تستوضح الموقف، فأفادتهم يهود بأنها لا ترغب في الحرب، فأرادت الخزرج أن تتأكد من هذا، فطلبت منهم أربعين غلامًا، ليتخذوهم رهائن لديهم، وعندما استجابوا لهم، خيروهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان، فآثروا الخروج من ديارهم، غير أن كعب بن أسد القرظي أقنعهم بالبقاء والتضحية بالرهائن، فقتل الخزرج الغلمان، فغضب يهود وجاهروا بحلفهم مع الأوس، ووقفوا معهم في موقعة بُعَاث، فانتصر الأوس، بعد أن أوقعوا في الخزرج مقتلة عظيمة، ثم تصالح الفريقان، واتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور بيثرب، برئاسة عبد الله ابن أُبَيّ بن سَلُول الخزرجي. [الوفا]، وبينما كانوا يستعدون لذلك قدم الرسول ﷺ المدينة مهاجرًا، فدان الجميع لسلطان الإسلام. ولم يجد ابن أبي بدًا من الدخول في الإسلام ظاهرًا بعد موقعة بدر، ودلت مواقفه بعد ذلك على نفاقه كما سيأتي بيانه. وهو ممن اتفق على نفاقه أهل الحديث والتفسير والمغازي والسير.

أما زعيم الأوس: أبو عامر بن صيفي بن النعمان، والد أبي حنظلة الغسيل، فقد أبى إلا الكفر فخرج إلى مكة، ثم إلى الطائف، ثم إلى الروم بالشام، محاولًا في كل أطوار حياته القضاء على الإسلام، وكان قد ترهب في الجاهلية، فسموه الراهب، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا الفاسق**» [ابن إسحاق]. وله قصة في أحداث غزوة أحد، سيأتي ذكرها في مكانها.

و- الطائف:

كانت الطائف تعرف باسم (وَجَّ)، نسبة إلى وَجِّ بن عبد الحي، أحد العمالقة الذين سكنوها. رحلت إليها قبيلة هوازن من وادي القُرَى، وتزوج زعيمها قسب بن منبه



ابن بكر بن هوازن بابنة زعيم وج عامر العدواني، واشتهر قسب باسم ثقيف فيما بعد...، وعندما تكاثروا بنوا سورًا ليكون حصنًا، وأطلقوا عليه الطائف، لإطافته بهم، ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف بدلًا من وج. [معجم ما استعجم؛ معجم البلدان].

وعندما ظهر الإسلام كانت ثقيف مقسمة إلى فرقتين: الفرقة الأولى: هم بنو مالك والثانية الأحلاف. وكانت بينهم شحناء أدت إلى حرب بينهما، انتصر فيها الأحلاف وأخرجوا بني مالك إلى واد وراء الطائف. ثم رأى بنو مالك أن يعززوا موقفهم العسكري بالتحالف مع بعض القبائل، فحالفوا دوسًا وخثعمًا وغيرهما على الأحلاف. ولكن لم تقع بينهم بعد ذلك حروب ذات بال [الكامل في التاريخ].

ثانيًا: الحالة الدينية عند العرب في الجزيرة العربية:

استمرت خزاعة على ولاية الكعبة نحوًا من ثلاثمئة سنة، وقيل: خمسمئة سنة. وكانوا قوم سوء في ولايتهم، وذلك لأنه كان في زمانهم أول عبادة الأوثان بالحجاز، بسبب رئيسهم عمرو بن لحي. [يأتي ذكره]، الذي زار الشام ووجد العماليق بمؤاب من أرض البلقاء (مكان بالأردن الآن) يعبدون الأصنام، وقالوا له إنهم يعبدونها لأنهم يستمطرونها فتمطرهم ويستنصرونها فتنصرهم، فطلب صنمًا فأعطوه صنم هُبَل، فجاء به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، لأنه كان سيدًا مطاعًا فيهم. وعندما بدأ بنو إسماعيل يتفرقون في البلاد أخذوا يحملون معهم من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالبيت، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، وخلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إبراهيم. [ابن هشام].

وكثرت فيهم الأصنام، فكان (وَدٌّ) لبني كَلْب بن وَبْرَةَ بدُوْمَـةِ الجَنْـدَل، و(سُـوَاع) لبني هُذَيل بمكان تسمى رُهَاط، على ثلاث ليال من مكة، و(يَغُـوْث) لبنـي أَنْعُـم مـن

طيء ولأهل جُرش من مَذْحِج اليمنية، وكان منصوبًا بجرش، و(يَعُوْق) لبني خَيْوَان الهمدانيين، و(نَسْرَ) لقبيلة ذي الكُلَاع الحِمْيَرِية. [ابن إسحاق].

وهذه الأصنام هي التي عبدها قوم نوح، وحكى خبرها القرآن الكريم، قائلًا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[نوح: ٢٣-٢٤]، فعندما فارق ولد إسماعيل وغيرهم دين إبراهيم ﷺ عبدوا هذه الأصنام. [انظر البخاري].

وكان لخولان صنم يدعى (عَمُّ أَنَس) وقيل: (عُمْيَانِسُ)، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله - فيما يزعمون - وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[الأنعام:١٣٦]. وكان لبني مِلْكَانَ بن كِنَانَة صنم يقال له: (سَعْد). وكان لدَوْسٍ صنم لعمرو بن حُمَمَة الدَّوْسِيُّ. وكان لقريش مع هبل صنما: (إِسَاف) و(نائلة)، على موضع زمزم، ينحرون عندهما، قالت عائشة ﵂: «ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله ﷿ حجرين» [ابن إسحاق، حسن لذاته].

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، وكان آخر ما يفعلونه عند الشروع في السفر وأول ما يفعلونه حين العودة منه، التمسح بالصنم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالتوحيد، عابوا عليه ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[ص:٥].

وفي الصحيح عن أبي الرجاء العطاردي، قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوَةً من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا به» [البخاري].

وروى ابن كثير [في البداية] عدة أحاديث صحيحة تدل على ما ابتدعه عمرو بن لحي في الدين واتبعه العرب في ذلك، فضلُّوا ضلالًا بعيدًا؛ من ذلك رواية الشيخين: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي** [أي عمرو بن لحي] **يجر قُصْبَهُ** [أي أمعاءه]

في النار، كان أول من سيَّب السوائب...»، ورواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] الأكثر تفصيلًا وبإسناد صحيح، ولفظها: «... **إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي**». وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك في أكثر من آية، فقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[النحل:١١٦].

قال ابن عباس [كما في تفسير الطبري]: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام...» ففيها خلاصة عبادة العرب وما نتج عن ذلك من ممارسات اجتماعية ضارة.

ولم يبق من دين إبراهيم إلا القليل، مثل تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف بعرفات والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم في هذا ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا بالحج أو العمرة قالوا: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده» [ابن إسحاق]. وكانوا يطوفون بالبيت عراة وهم يصرخون.

واتخذت العرب طواغيت مع الكعبة، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى لها، ويطاف بها، وينحر عندها. فكانت لقريش وبني كنانة (العُزَّى) بنَخْلَة، وكان سدنتها وحجابها من بني شَيْبَانَ، من سُلَيْمٍ، حلفاء بني هاشم، وكانت (اللّاتُ) لثقيف بالطائف. وكان سدنتها وحجابها من بني مُعَتِّبٍ، من ثقيف. وكانت (مَنَاةُ) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم، بناحية المُشَلَّل بقُدَيْدٍ. وهذه الطواغيت هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[النجم: ١٩-٢٠]. وكان (ذو الخَلَصَة) لدَوْسٍ وخَثْعَم وبَجِيْلَة ومن كان

ببلادهم من العرب بِتَبَالَةَ، وكان يقال له: (الكعبة اليمانية)، ويُقَالُ لبيت مكة: (الكعبة الشامية). وكان (فَلْسٌ) لطيء ومن يليها بَجَبَلَيْ طيء، يعني أَجَا وسَلْمَى. وكان (رِئَام) بيتًا لحمير وأهل اليمن. وكانت (رُضَاءُ) بيتًا لبني ربيعة بن كعب. وكان (ذو الكَعَبَات) لِبَكْرٍ وتغلب ابني وائل وإياد، بَسَنْدَادَ [يأتي ذكرها]. وكان للعرب أصنام أخرى غير التي ذكرنا، حفلت بذكرها المصادر المختلفة. [تاريخ اليعقوبي والأصنام لابن الكلبي].

وهناك روايات طريفة عن موقف بعض العرب من أصنامهم. من ذلك ما روي من أن السائب بن عبد الله كان له حجر نحته بيده ليعبده، فيجيء باللبن الخاثر الذي ينفسه على نفسه فيصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يَشْغر [يرفع إحدى رجليه] فيبول... الأثر. وما يروى من أن بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من حيس [الأقط - اللبن المجفف - يخلط بالتمر والسمن]، فعبدوه دهرًا طويلًا، ثم أصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال رجل من بني تميم يعيرهم بذلك:

أكلت ربها حنيفة من جو	ع قديم بها ومن إعواز

وقال فيهم آخر:

أكلت حنيفة ربها	زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم	سوء العواقب والتباعة

[المعارف]

وهناك قصة الرجل الذي قال شعرًا في صنمهم عندما رأى ثعلبين يبولان عليه [ابن سعد]، وقصة عمر بن الخطاب الذي أكل صنمه من العجوة عندما جاع... إلخ، وهي قصص وإن لم يثبت بعضها حديثيًا إلا أنها تصور الحالة التي كان عليها العرب في جاهليتهم.

ظهرت في بلاد العرب إلى جانب عبادة الأصنام، عبادة النجوم والكواكب، خاصة في حران والبحرين والبادية. ويقال: إنه كان بمكة رجل يدعى (أبو كبشة) عبد نجمًا



اسمه (الشعرى)، ودعا قريشًا إلى عبادته. وانتشرت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش. وعندما دعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده سموه ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في العبادة كما خالفهم في عبادتهم من قبله ابن أبي كبشة [بلوغ الأرب].

وعبدت الشمس في بلاد اليمن، وفي ذلك قال تعالى في قصة ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[النمل:٢٣-٢٤].

وتسربت بعض فرق المجوسية الفارسية إلى بلاد العرب. وفي ذلك يقول ابن قتيبة [في المعارف]: (وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة وحاجب بن زرارة... وكانت الزندقة في قريش، أخذوها من الحيرة). وكان الأقرع بن حابس وأبو سود - جد وكيع ابن حسان - ممن دان بالمجوسية [نفسه]، وتسربت إلى هجر [البخاري] من البحرين. وكانوا يقولون: إن قتل عدوهم على أرضهم ينجسها عليهم [الحاكم، صحيح].

ودخلت اليهودية بلاد العرب بصفة عامة والمدينة وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء [يأتي خبرهم] بصفة خاصة عندما نزح إليها اليهود. ووصلت إلى اليمن، ودان بها ذو نواس الملك الحميري، وحاول حمل النصارى على اعتناقها كما ذكرنا سابقًا. وانتشرت في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وربما وصلتهم من يهود يثرب وخيبر [بلوغ الأرب].

وتسربت المسيحية إلى الغساسنة والمناذرة، ومن أشهر الأديرة في الحيرة: (دير هند الأقدم، ودير اللج، ودير حارة مريم) (معجم ما استعجم).وتسربت إلى جنوبي الجزيرة العربية، وأنشئت كنيسة بظفار وأخرى بعدن [بلوغ الأرب]، ولنصارى نجران قصة مع الرسول ﷺ في مكة وأخرى بالمدينة. سيأتي ذكرها.

ودانت بعض قبائل قريش بالمسيحية، منها: بنو أسد بن عبد العزى. كما اعتنقها بنو امرئ القيس بن تميم، وبنو تغلب بن ربيعة، وبعض قبائل قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم [اليعقوبي]. وممن تنصر بنصرانية محرفة من العرب: عدي بن حاتم الطائي [البخاري.أحمد، حسن].

لم تنتشر اليهودية والنصرانية انتشارًا واسعًا في بلاد العرب كما هو واضح من تاريخهما وسيرتهما وسط القبائل والأفراد. ولم تندثر تمامًا ديانة إبراهيم عليه السلام بل تمسك بها نفر قليل جدًا وسط دياجير ظلام الجاهلية وعبادة الأوثان. وعرف هؤلاء النفر بالحنيفيين أو الحنفاء، فقد كانوا يؤمنون بالله تعالى ويوحدونه، توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية، وينتظرون النبوة [بلوغ الأرب].

وكان من مشاهير هؤلاء الحنفاء: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفَيل، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، وأبو قيس بن أبي أنس، وخالد بن سنان، والنابغة الذبياني، وزُهَير بن أبي سُلْمَى، وكعب بن لؤي بن غالب - أحد أجداد النبي ﷺ [البداية].

وقد سموا بالحنفاء نسبة إلى ما وصف به دين إبراهيم في القرآن الكريم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام:٧٩]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران:٦٧]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾[آل عمران:٩٥].

ولنقف وقفة قصيرة مع أشهر هؤلاء الحنفاء، لإلقاء بعض الضوء على سيرهم ومعتقداتهم:

١- محمد ﷺ:

من المعلوم بداهة أن الرسول ﷺ كان على رأس أشهر الحنفاء والشاهد سيرته.

٢- زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن إسحاق [كما في البداية، بسند حسن]، بإسناده إلى أسماء بنت أبي بكر، قالت: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة، يقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري». ثم يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم». ثم يسجد على راحلته. وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم».

وكان يحيي الموؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها»، فإذا ترعرعت قال لأبيها: «إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها» [صحيح البخاري].

وروى البخاري عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم، لعله يتبعه، فقال له اليهودي: (إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله). قال زيد: «وما أفر إلا من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئًا ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟» قال: (ما أعلمه إلا أن تكون حنيفًا). قال زيد: «وما الحنيف؟» قال: (دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله). فخرج زيد، فلقي عالمًا نصرانيًا، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم».

وكان زيد يرفض الأكل من ذبائح قريش، ويقول: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، ويعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟»، إنكارًا لذلك وإعظامًا له [البخاري].

ورويت أحاديث أخرى من طرق ضعيفة، لكنها تعتضد وتتقوى بعضها ببعض وبأحاديث البخاري، فترتفع إلى درجة الحسن لغيره، دلت على أن زيدًا كان يبحث عن الدين الصحيح، وأخيرًا استقر على دين إبراهيم عليه السلام [البداية؛ ابن سعد].

ولهذا قال عنه الرسول ﷺ: «**يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم**» [البداية؛ جيد حسن]. وقال: «**دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين**» [البداية، جيد].

لقد لقي زيد بن نفيل الرسول ﷺ ومات قبل أن يبعث الرسول ﷺ [البخاري].

٣- ورقة بن نوفل:

روي أنه خرج مع زيد بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه، وبعد البحث تنصَّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام [الطيالسي، يتقوى].

قال النبي ﷺ يومًا لخديجة رضي الله عنها إنه يرى ضوءًا ويخشى أن يكون به جنن، فطمأنته، ثم أتت به ورقة، وذكرت له ما يقع له، فقال ورقة: «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأؤمن به» [أحمد، مرسل حسن].

وسيأتي خبره والآثار الواردة في إسلامه عند الكلام عن بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل، وله أبيات شعرية رائعة في التوحيد والبعث [ابن إسحاق في السيرة].

٤- قسٌّ بن سَاعِدة الإيادي:

روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وغيره أنه عندما قدم وفد إياد على الرسول ﷺ سألهم عن قس بن ساعدة، فذكروا له أنه هلك. فقال النبي ﷺ: «**لقد شهدته يومًا بعكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام مُعْجِبٍ مُؤنِقٍ لا أجدني أحفظه**». فذكر أحد أفراد الوفد أنه يحفظه، فهو: «**يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيءٍ آت**

آت، ليلٌ دَاج وسماءٌ ذاتُ أبراج، وبحرٌ عَجَاجٌ، نُجُوم تَزْهَرُ، وجبالٌ مَرْسِيَّةٌ، وأنهارٌ مَجْرِيَّة، إن في السماء لَخَبَرًا، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرَضُوا بالإقامة فأقاموا، أم تُرِكُوا فناموا، أقسم قُسٌّ بالله قَسَمًا لا ريب فيه، إن لله دينًا هو أرْضَى من دينكم هذا» وأنشد في ذلك شعرًا.

وروى ابن عباس أنه عندما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألهم عن قس، فقالوا: «هلك». قال: «...» فذكر كلامًا بنحو ما جاء في رواية ابن الصامت [البداية].

وروى ابن كثير [البداية، يعتضد] والبيهقي [الدلائل] أحاديث أخرى بهذا المعنى في قصة قس وتعبده بالحنيفية وأقواله، وأشعاره في ذلك، دلت على أن لقصته أصلًا تاريخيًا، كما ذكر ابن كثير والبيهقي.

٥- أميّة بن أبي الصّلت:

هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» [متفق عليه]. وفي رواية: «**فلقد كاد أن يسلم في شعره**» [مسلم]. ويقال إنه ممن دخل في النصرانية وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة [ابن إسحاق، الفتح]، فقد كان من فحول الشعراء [ابن إسحاق، مسلم]، عاش إلى زمان البعثة ولم يؤمن تكبرًا على أن يكون تابعًا للرسول ﷺ [الطبري: التفسير]، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[الأعراف:١٧٥] [ابن مردويه، بسند قوي كما في الفتح].

قيل إنه مات سنة تسع، وقيل سنة اثنتين [ابن حجر]، وله شعر في رثاء قتلى قريش يوم بدر الكبرى [ابن إسحاق].

٦- لبيد بن ربيعة العامري ثم الكلابي ثم الجعفري:

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات. قال الرسول ﷺ عنه: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» [متفق عليه].

وله قصة مع عثمان بن مظعون، وسنذكرها عند الكلام عن أساليب حرب المشركين للدعوة - الأسلوب العاشر.

وقد أسلم لبيد، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، بعد أن عاش مائة وخمسين عامًا، وقيل أكثر [الفتح].

وممن ذكر من مشاهير الحنفاء غير هؤلاء: أرباب بن رئاب، والشاعر سويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن حيذب الجهني، وعدي بن زيد العبادي - تنصر -، وأبو قيس صرة ابن أبي أنس البخاري، وسيف بن ذي يزن الحميري، وعامر بن الظرب العدواني، والشاعر عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس ابن أمية الكناني، والشاعر زهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي أحد أجداد النبي ﷺ [بلوغ الأرب]، وعثمان بن الحويرث، الذي رحل في طلب الدين، فاستقر به المقام عند قيصر، فتنصر وأقام عنده بأحسن مقام [ابن إسحاق في السيرة]، وعمرو ابن عبسة السلمي، الذي أكرمه الله بالإسلام [تاريخ الطبري، صحيح]، وأكثم ابن صيفي بن رباح [البلوغ]، وعبد المطلب - جد النبي ﷺ [مروج الذهب، الملل والنحل]-.

ثالثًا: الحياة الاجتماعية عند العرب في الجزيرة العربية:

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية، ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق، فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي، الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل، مثل شرب الخمر ولعب الميسر، والزواج بغير عدد، وقتل بعضهم الأولاد

خشية الفقر أو بسبب الفقر، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى عنهم الله تعالى كل هذه الرذائل في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله، وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يحاربها طوال حياته كما هو معروف، ومثال ذلك: ما قاله ابن عباس. إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[التكوير:٨-٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾[الزخرف:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾[النحل: ٥٨-٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾[المائدة:٩٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾[الأنعام:١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[الإسراء:٣١].

وسادت في بعض أوساط غير الأشراف أنواع من الأنكحة التي لا تختلف عن الدعارة. فقد روى البخاري عن عائشة ﵂ أنها قالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم... ونكاح الاستبضاع، وهو أن يصيب الرجل الأجنبي امرأة غيره في طهر لم يجامعها فيه زوجها ولا يقربها زوجها حتى يتبين حملها، ونكاح الرهط، وهو أن يجتمع الرهط دون العشرة، فيصيب كل منهم المرأة، فعندما تضع حملها ترسل إليهم فيجتمعون عندها، فتلحق المولود بمن تريد منهم، ونكاح رابع، وهو أن يجتمع الرجال الكثير على المرأة التي تنصب راية في بيتها، فإذا حملت فوضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القَافَة (جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالآثار الخفية)، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرونه أكثر شَبَهًا به، وقد أبطل الإسلام

كل هذه الأنكحة ما عدا نكاح الناس اليوم»، ولم يكن يحس بعضهم بعار هذه الممارسات، فقد روى الشيخان أن رجلًا قام فقال: يا رسول الله: إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**لا دعوة في الإسلام. ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر**».

وسيأتي ذكر قصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - في فقه عمرة القضاء.

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقت أو ماتوا عنهن وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾[النساء:٢٣]، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء:٢٢].

ولم يكن للطلاق عدد معين [أبو داود، صحيح]، فحدده الإسلام بثلاث، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾[البقرة:٢٢٩].

وعلى الرغم من وجود هذه الأمراض الخلقية عند عرب الجاهلية إلا أن هناك جوانب مضيئة في حياتهم السياسية والاجتماعية لا يمكن إنكارها، ولعلها كانت سببًا في اختيار الله تعالى لهم لحمل رسالته إلى العالمين، ومثال ذلك أن جاهليتهم لم تكن مركبة تقوم على فلسفة معقدة يصعب إزالتها، كما كان الحال في المجتمعات الأخرى المجاورة، وكانوا أصحاب عزيمة قوية يصدقون عندما يؤمنون، وقد وصفهم القرآن بهذا في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾[الأحزاب:٢٣]، وكان كثير منهم يتمسك بالفضائل ويقدِّرون من يتصف بمكارم الأخلاق، كما كان موقفهم من الرسول ﷺ في هذا الجانب بالذات، وهو موقف عبر عنه أبو سيفان في حديثه المشهور لهرقل، كما سيأتي.

وكانوا من أصفى الناس ذهنًا، وتحكى في ذلك الحقائق والغرائب، فقد ذكر ابن عبد البر [جامع بيان العلم]، أن ابن شهاب الزهري كان يقول: (إني لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا (الكلام الفاحش) فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته).

وقال ابن عبد البر [نفسه] أيضًا: (كان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سمعه واحدة. وقد جاء أن ابن عباس رضي الله عنهما حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

في سمعة واحدة على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم...).

وليس بعد هذا يستغرب عدد الأحاديث التي رواها ابن عباس وأبو هريرة، وابن مسعود، وعائشة رضي الله عنهم. فقد روى أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعين حديثًا، وروى عبد الله بن عمر ألفي حديث وستمئة وثلاثين حديثًا... إلخ [ابن حزم: جوامع السيرة].

وكانوا يحبون الحرية، ولم يعرفوا الخضوع إلا لذوي الأسنان منهم، ممن تتوافر فيهم شروط النجدة، والبسالة، والرجولة، والصبر، والحلم، والأناة، وكل خصال الخير.

ومع عبادتهم الأوثان، فقد كانوا لا ينكرون وجود الله تعالى، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦٣].

ويعرف هذا بتوحيد الربوبية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء وخالقه ومليكه.

وكانوا أصحاب لغة واحدة، ذات سحر وبيان، عبرت عن الإسلام أحسن تعبير.

٢- في خارج الجزيرة العربية:

أ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل اليهودية:

أولًا: جوانب من الحياة الدينية:

لقد تعرضت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية إلى تحريف وتبديل، ومن ثم فقدتا الروح، ولم تَعُودا تمثلان دورهما الأساس في إصلاح الناس الذين جاءتا من أجلهم.

فاليهودية، بالإضافة إلى التحريف الذي حدث في أصولها، كانت ديانة أراد الله أن تكون لبني إسرائيل خاصة. غير أنها أصيبت في عقيدة التوحيد التي فضل الله بها بني إسرائيل على أهل زمانهم، إذ اقتبس اليهود كثيرًا من العقائد والتقاليد الوثنية الجاهلية للأمم التي جاوروها أو سيطروا عليها أو عاشوا وسطها. وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخو اليهود المنصفون. ومثال ذلك ما جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

(إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، وإن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة اليهود...).

هذا بالإضافة إلى أن توراتهم وتلمودهم قد طفحا بأوصاف ونعوت لا تليق بذات الله ووحيه وأنبيائه ورسالاتهم.

فتراهم في توراتهم المحرفة وعهدهم القديم - مثلًا - يذكرون أن الله قد تعب في اليوم السادس وهو يخلق الكون، واستراح في اليوم السابع، وبارك اليوم السابع وقدسه لأنه استراح فيه من جميع أعماله. ولذلك كان تحريم اليهود للعمل يوم السبت.

وجاء في عهدهم القديم في قصة آدم وزوجه حواء عليهما السلام: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة، عند هبوب رياح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب

الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟..).

وهكذا يصورون الله وكأنه بشر لا يعرف ما يحدث في حديقة منزله.

وقد أعقب هذا قولهم: إن آدم عندما أكل من شجرة المعرفة ارتفع بهذا العصيان إلى مراتب الآلهة، وأدرك الخير والشر، على الرغم من أن الرب عندما خلقه كان حريصًا على بقائه جاهلًا بهما. وعندما خشي الرب على ازدياد تمرد آدم واستفحال أمره، أخرجه وزوجه من الجنة حتى لا تمتد أيديهما إلى شجرة الحياة فيكتب لهما الخلود. ولم ترضه أيضًا سيرة آدم وأبنائه في الأرض، لأنه فوجئ بهم يملؤونها بالشرور والآثام، فحزن وتأسف على خلقهم.

والله في كتابهم المقدس يندم على إغراق الأرض بالطوفان. ويقبل ضيافة نبيه إبراهيم عليه السلام ويأتي إلى منزله بصحبة اثنين من ملائكته ويأكلون من مائدة إبراهيم عليه السلام الدسمة.

والله في توراتهم المحرفة يدخل في عراك ومصارعة مع عبده ونبيه يعقوب، دامت ليلة كاملة. وعندما أوشك يعقوب أن ينتصر عليه، لجأ إلى خدعة مكّنته من كسب الجولة والغلبة، وهي أنه ضرب حُقّ (النقرة التي فيهارأس الفخذ) فخذ يعقوب حتى انخلع. وعلى الرغم من ذلك لم يتركه يعقوب إلا بعد أن باركه ونال منه لقب إسرائيل.

والله عز وجل في توراتهم إله خاص بهم: لا يحب غيرهم، لأنهم شعبه المختار. وأمّا الأمم الأخرى فهي كالأغنام لا يأبه بها الإله. ويبنون كراهيتهم للأجناس الأخرى، وعلى رأسهم العرب، على أساس من دينهم المحرف. فتراهم يذكرون في توراتهم قصة

يزعمون فيها أن نوحًا - نبي الله تعالى - سكر حتى استلقى وانكشفت سوأته، ولما رآه ابنه حام - أبو كنعان - ضحك منه وفضحه عند أخويه سام ويافث، اللذين ستراه دون النظر إلى عورته. وعندما أفاق نوح من سكرته، وعلم بما حدث من ابنه الأصغر حام، استنزل عليه لعنة الله قائلًا: (ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم..). وظاهر في هذه القصة إرادة اليهود استعباد الكنعانيين أبناء حام - وهم لا ذنب لهم - وتزكية الإسرائيليين أبناء سام.

وكما صور اليهود نوحًا سكيرًا ليصلوا إلى أهداف معينة، تراهم أيضًا يصورون لوطًا عليه السلام سكيرًا وعاهرًا يزني بابنتيه في حالة سكر، وتحبلان منه وتلدان. وزعموا أن ابن البنت البكر عرف بـ(مؤاب)، أبو المؤابيين إلى اليوم، ليصلوا بذلك إلى هدف واضح أيضًا وهو تجريح أعدائهم المؤابيين، وكل ذلك باسم الوحي.

وصدق الله العظيم الذي قال في القرآن الكريم:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران:٧٨].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

وتدّعي توراتهم أن كل النساء غير اليهوديات مومسات. ويستحق القتل كل الجوييم - غير اليهود - أو العبيد أو الحمير حتى ذوو الفضل منهم. وأن من يقتل غير اليهودي يقدم قربانًا للرب [د. عويس: ثقافة المسلم...].

هل يمكن أن يكون هذا كتابًا إلهيًا مقدسًا لتعريف البشر بالله ﷻ وهدايتهم إلى طريقه؟!



إن هذا الاعتقاد الباطل هو الذي جعلهم لا يبالون بكل القيم في سبيل الوصول إلى أهدافهم كما هو واضح من بروتكولات حكماء صهيون. ولا يبالون في وصف أنبياء الله ﷺ بأوصاف لا تليق بهم كما قلنا. فها هم مثلًا - يصورون إبراهيم عليه السلام ديوثًا في سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيوية.

فيذكرون في توراتهم أنه أغرى زوجته سارة بالذهاب إلى بيت فرعون بصفتها أخت إبراهيم من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير، قال لها: «قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك..» [نفسه].

ويصورون يعقوب عليه السلام بأنه محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بأسلوب قذر.

ويصورون ابنة يعقوب عليه السلام المسماة (دينة) بأنها زانية، زنا بها ابن رئيس المدينة المجاورة.

ويقولون في تلمودهم بأن عيسى بن مريم عليه السلام ابن غير شرعي، حملته أمه سفاحًا وهي حائض، من العسكري (باندارا)، وإنه كذاب ومجنون ومضلل وساحر ومشعوذ ووثني. ووصف تلمودهم المسيحيين بأنهم ليسوا أكثر من خرق حيض المرأة التي تُرمَى في القاذورات، وأنهم وثنيون وقتلة وفسقة وحيوانات قذرة وحمير وخنازير وكلاب.

ويصورون نبيهم داود عليه السلام يزني بامرأة أحد ضباطه، وتحبل منه، وذلك عندما رآها على السطوح فأعجبه جمالها، وأرسل زوجها الضابط إلى ميادين القتال ليهلك، ثم يتزوجها.

أي بشاعة هذه؟ إن هذا الكلام لا يمكن أو يعقل أن يكون من عند الله ﷻ، وبالتالي لا يمكن أن يكون صالحًا لهداية البشرية.

لقد حكى القرآن الكريم عن جوانب كثيرة من تفكير اليهود الديني وموقفهم من كتابهم ورسلهم. ومن ذلك ما حكاه عن:

ميلهم إلى الوثنية على الرغم من وجود نبيهم موسى عليه السلام بينهم، فقد قالوا له: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[الأعراف:١٣٨].

وعندما عاد إليهم موسى بعد ملاقاة ربه، وجدهم عاكفين على عبادة عجل، قائلين: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾[طه:٩١].

وعدم تخليهم عن شغفهم بالوثنية بعد موسى عليه السلام كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾[البقرة:٩٢-٩٣].

وذكر القرآن نوعًا من تعنتهم مع موسى عليه السلام ويتمثل ذلك في قولهم له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾[النساء:١٥٣]. وذكر نوعًا من سوء أدبهم مع الله، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾[المائدة:٦٤].

ونسبهم بنوة البشر لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠].

وألهو أحبارهم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

وعدم تورعهم في تحريف كلام الله عز وجل كما حكى عنهم القرآن الكريم في الآية: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩]، وفي الآية: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].



ومما حكاه القرآن الكريم عن موقفهم من رسلهم قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[البقرة:٦١]، وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[البقرة:٩١].

ويتضح لك مما سقناه من أدلة من كتب اليهود ومن كتاب الله تعالى إلى أي درك وصلت هذه الديانة على أيدي هؤلاء البشر.

ثانيًا: جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات اليهودية:

إن الله تعالى لا يرضى لدينه أن يكون عنصريًا بعيدًا عن الإنسانية، ولكن اليهود بدلوا دين الله عز وجل وجعلوه عنصريًا لا يحمل للإنسانية رحمة، وافتروا على أنبياء الله تعالى ووصفوهم بكل النقائص والرذائل البشرية كما رأينا. ولهذا فلا غرابة أن يعيشوا في صراع وفتن مع الشعوب غير اليهودية إلى يومنا هذا.

ففي القرن السابع الميلادي بالذات، أوقعوا بين النصارى في أنطاكية والقائد الفارسي فوكاس، مما ترتب عليه وقوع مذابح فظيعة في نصارى أنطاكية. وساعدوا جيوش الفرس في محاربة نصارى الشام، وقتلوا بأنفسهم النصارى في الشام مثلما حدث في صور. وكان جزاؤهم أن عاقبهم هرقل ملك الروم عقوبة قاسية عندما علم بما ارتكبوه من مآسٍ في حق النصارى بالشام [خطط المقريزي].

لقد وصفهم القرآن الكريم وصفًا دقيقًا، يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع الميلاديين من تدهور خلقي وانحطاط نفسي وفساد اجتماعي، جعلهم غير أهل لإمامة الأمم وقيادتها. ومن ذلك قول الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[آل عمران:٧٥].

وقد ذاق العرب في يثرب (طيبة، المدينة، طابة) الويلات نتيجة لحرص اليهود على إثارة الفرقة والحروب بين الأوس والخزرج، واحتكارهم التجارة، وتسخير العرب في مصالحهم الاقتصادية. وعادوا الرسول ﷺ وكادوا له كيدًا عظيمًا، ومكروا به كثيرًا، ولكن الله عز وجل مكر بهم، وكانت مشيئة الله أن أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وأجلاهم عمر رضي الله عنه عن الجزيرة العربية تنظيفًا للمجتمع الإسلامي من شرورهم وآثامهم.

ب - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المسيحية:

أولاً: الحياة الدينية:

وكذلك المسيحية؛ فبالإضافة إلى ما لحق بها من تحريف، فقد شابتها ألوان شتى من الوثنية والخرافات اليونانية والرومانية، اضمحلت في جانبها تعاليم المسيح الميسرة، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية تحول بين الإنسان والعلم والفكر والمنطق.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما ذكره باكستر الأوروبي Rev.James Houstom Baxter: History of Chrisianity in the Light of Modern Knowledge Glasgo, ١٩٢٦, p.٤٠٧ [نقلًا عن د. الفرت في بحثه المشار إليه سابقا]، والذي ترجمته:

(لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيدًا من شهدائهم ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالًا. وهكذا انتقل الشرك وعبادة الأوثان إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسطًا بين الله والإنسان، ويحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين (يأتي شرحها في كتابه ﷺ إلى قيصر) وأصبحوا رمزًا

لقداسة القرون الوسطى ووعيها وطهرها. وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح).

وما ذكره الدكتور أبو الغيط في كلامه عن الوثنية في المسيحية ختمه بقوله:

(.. وهكذا كانت عبادة الأوثان في عصور الاضطهاد هذه يرتفع سوقها وينخفض تبعًا لتأييد النصارى للحكام الرومانيين وإقبالهم على تلبية رغباتهم في الولاء لتمثال القيصر، ومن يتباطأ عن ذلك كان مصيره الحرق والهدم والتدمير كما يقول بذلك التاريخ المسيحي كله، حتى طأطأت المسيحية رأسها أخيرًا للوثنية وغطرستها بعد طول التجاذب والصراع بينهما، فحيثما دخلت المسيحية بلدًا ووجدت أهلها مقيمين على الوثنية أقروهم على عبادتهم بالإضافة إلى المعتقدات المسيحية).

وابتدع النصارى الرهبانية، وأدخلوا في أناجيلهم ما لا تستسيغه الأفهام. فابن حزم [الفصل] - أحد رواد علم مقارنة الأديان - انتهى إلى نتائج خطيرة عندما درس المصادر الأصلية للمسيحية. ومن مناقشاته للنصارى في عقيدتهم قوله:

(.. وقالت (اليعقوبية): إن المسيح هو الله تعالى نفسه، وإن الله - تعالى عن كفرهم - مات وصلب وقتل، وإن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان. وإن الله تعالى عاد محدثًا، وإن المحدث عاد قديمًا، وإنه سبحانه تعالى هو كان في بطن مريم محمولًا به..).

(ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[المائدة:٧٢] وإذ يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[المائدة:٧٣]،وإذ يقول تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].



لولا ذلك لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف. وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلًا يسع هذا الجنون. ونعوذ بالله من الخذلان...).

ويقول في دحض هذا القول:

(.. ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التي كان فيها ميتًا... ثم يقال للقائلين بأن البارئ تعالى ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس. أخبرونا إذ هذه الأشياء لم تزل كلها وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأي معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى أبًا والثاني ابنًا وأنتم تقولون إن الثلاثة واحد، وإن كان منها هو الآخر فالأب هو الابن والابن هو الأب وهذا هو عين التخليط. وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه: (سأقعد عن يمين أبي)، وبقولهم: إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده،وإن الابن لا يعلمها، فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب... وإن كانت الثلاثة متغايرة - وهم لا يقولون بهذا - فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص، به وجب أن ينحط عن درجة الأب. والنقص ليس من صفة الذي لم يزل...).

وخلاصة قول ابن حزم في عقيدتهم التي جاءت في أناجيلهم: (فهذه سبعون فصلًا من أناجيلهم من كذب بحت ومناقضة لا حيلة فيها، ومنها فصول يجمع الفصل من ثلاث كذبات فأقل على قلة مقدار أناجيلهم.

وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله ومرة هو ابن يوسف وابن داود وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف الله، ومرة هو في الله والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته،

ومرة لا يحتكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي وغلام الله، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو وصار يولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل ويعطش ويشرب ويعرق من الخوف ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تينًا يأكله، ويفشل فيركب حماره ويأخذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصبة، ويبزق في وجهه ويضرب ظهره بالسياط ويميته الشرط، ويتهكمون به ويسقى الخل في الحنظل ويصلب بين سارقين ويسمر يداه ومات الساعة ودفن ثم يحيا بعد الموت ولم يكن له هم إذا حيي بعد الموت واجتمع بأصحابه إلا طلب ما يأكل فأطعموه الخبز والحوت المشوي، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله..).

ثم أخذ ابن حزم في بيان الكذب والكفر والهوس الذي جاء في كتبهم غير الأناجيل.

إن هذا المآل الذي آلت إليه المسيحية واليهودية، اقتضى أن يرسل الله ﷻ رسولًا آخر، هو محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، لإنقاذ البشرية من هذا الضلال، ويكون الدين الخاتم لكل البشرية بعد أن أعدت لتلقيه.

ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات النصرانية:

حل القرن السادس الميلادي والحرب قائمة بين نصارى الشام والدولة الرومانية وبين نصارى مصر، أو بين الملكانية - التي يمثلها حزب الدولة - والمنوفيسية - التي يمثلها حزب القبط - بعبارة أخرى، وذلك لاختلافهم حول حقيقة وطبيعة المسيح ﷺ، إذ يعتقد الملكانية في ازدواج طبيعة المسيح بينما يعتقد المنوفيسيون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة. وأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد والإصلاح ودعوة الأمم إلى الخير. وابتلي القبط بمصر لاعتقادهم المخالف لاعتقاد الدولة.

وفي الدولة الرومانية الشرقية - بالذات - ساءت أحوال الناس حتى فضلوا الحكومات الأجنبية على حكوماتهم. وقامت فتن وثورات.

وقد هلك في عام ٥٣٢م - مثلًا - في اضطراب واحد ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية. وأمعنوا في أساليب التسلية التي وصلت إلى حد الوحشية.

وفي مصر البيزنطية ساد الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والبؤس والفقر، إذ كانت شاتهم الحلوب التي يحسنون حلبها ويسيئون علفها. ولم ينقذ المصريين من هذا الحال إلا المسلمون، كما يعترف بذلك من ينتسبون إلى النصرانية، أمثال غوستاف لوبون [في حضارة العرب].

وفي سورية البيزنطية سادت المظالم إلى الحد الذي اضطر كثيرًا من السوريين لبيع أبنائهم ليوفوا ديونهم [خطط الشام].

أما الأمم الأوروبية في الغرب والشمال فكانت تعيش حروبًا دامية وجهلًا مطبقًا وغلوًا في الدين. وكانوا يبحثون في قضايا مثل: هل المرأة حيوان أم إنسان، وهل لها روح خالدة أم لا؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء؟.. إلخ.

جـ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

أولًا: الحياة الدينية:

لقد شاع في إيران قبل ظهور زرادشت - نبي قدماء الإيرانيين -، الاعتقاد بألوهية (ميثرا) و(بيما) و(آشاه)، وظل ذلك حتى بعد ظهور الزرادشتية، التي تأثرت بهذه الديانة الوثنية القديمة، التي تقدس بعض عناصر الطبيعة، مثل: النار والكواكب، ويعبد فيها آلهة متعددة.

أما الزرادشتية في أصلها فقد كانت حربًا على عقيدة ميثرا وبيما وآشاه، تلك العقيدة الوثنية [الشهرستاني]، إذ كان من أبرز مبادئ الزرادشتية دعوة الناس إلى عبادة إله واحد وهجر الوثنية والصابئية التي كانت تتمثل في عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية [نفسه]، والدعوة إلى تقديس عنصري الشمس والنار على أنهما رمزان لتلك

القوة الواحدة التي لا تفتأ تفيض رحمة ونورًا وعطفًا وطهورًا، وتعمل على إنقاذ الإنسان من البلاء [نفسه]، وتقديس التراب والماء والهواء لأهميتها في حياة الإنسان.

وبعد موت زرادشت، ظهرت فرقة المجوس الذين يعبدون النار ويرونها إلهًا ويستعملونها في شعائرهم الدينية، متناسين أنها كانت فقط رمزًا للضعفاء، حتى أصبحوا يعرفون بأنهم عبدة النار، وأحيانًا كهنة المجوسية. ومن الطقوس التي كانت موجودة من قبل زرادشت: عبادة الأصنام وتقديم القرابين، وبخاصة للإله (ميثرا) الذي أصبح أبرز الآلهة [آرثر].

ولما غزا الإسكندر المقدوني بلاد إيران في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، اختفت الزرادشتية ولم تظهر إلا بعد خمسة قرون عندما قامت الدولة الساسانية التي حاولت العودة إلى الزرادشتية باعتبارها جزءًا من تراث إيران، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد ظهر (ماني) بمذهبه الذي كان مزيجًا من الزرادشتية والمسيحية والديصانية، وعده الزرادشتيون ملحدًا خارجًا عن الزرادشتية الدين الحق - أي عدوه زنديقًا - لأن ديانته ثنوية صريحة، إذ تقول بوجود كائن ثنائي الطبيعة، وبوجود مبدأ أو كائنين يسيطران على العالم، هما: مبدأ النور ومبدأ الظلام. الأول مصدر الخير والثاني مصدر الشر، ولكل منهما قدرة على الإدراك [الملل]. وعند امتزاج هذين الكائنين نشأ الكون بما فيه من ظواهر وحوادث وأجسام كثيفة وكائنات حية [نفسه]..

ويرون أن كل من يساعد على إطالة أمد امتزاج النور بالظلام هو شر كله، وفي مقدمة ذلك: الزواج والتناسل، ولذلك رأوا أن من الواجب أن يسلك الإنسان مسلك العزلة والرهبنة وأن يقطع دابر التناسل حتى يفنى العالم المادي ويتخلص النور من الظلام.

وفي سنة ٢٧٦م، قتله الملك الإيراني (بهرام بن هرمز بن شابور)، وقال عنه: (إن هذا الرجل قد جاء يدعو الناس إلى تدمير الكون، فالواجب أن يبدأ بتدمير نفسه) [الملل].

ومع هذا الاضطهاد، استمرت المانوية وتحولت إلى حركة سرية، وبقيت كذلك في الفترة الإسلامية [نفسه].

وظهر مَزْدَكٌ في أواخر القرن الخامس الميلادي (٤٧٨م)، وسار على تعاليم مَانِي، معلنًا شيوعية المال والنساء [نفسه؛ الغلو].

وأخذ الملك الإيراني قباذ بآراء مزدك وطبقها في المجتمع في السنوات العشر الأولى من حكمه، وعندما وقف على بطلانها وحقيقتها تحول عنها وقتل مزدكًا وأوقع بأنصارها سنة ٥٢٩م، فتحولوا إلى العمل السري أيام الدولة الساسانية، ثم عادت إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية [الملل؛ الغلو].

وظهرت في إيران كذلك الديانة المرقونية - نسبة إلى واضع أسسها (مرقيون) [الملل، الغلو] وعقيدتها ثنوية، لزعمهم أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر [نفساهما]. وتأثرت بالزرادشتية والنصرانية

وكذلك ظهرت في إيران الديانة الديصانية [نسبة إلى واضع أسسها ابن ديصان]. وهي من الديانات الثنوية. وذهبت إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود عالم ثالث إضافة إلى النور والظلمة، مهمته أن يفصل بين عالم النور وعالم الظلمة، ولم توضح كيفية وجود هذا العالم الثالث [نفساهما].

وابن ديصان الذي تنسب إليه هذه النحلة أول من مهد لفكرة الحلول، حيث زعم أن نور الله قد حل في قلبه [نفساهما].

ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

لقد شاع الفساد في إيران في ظل دياناتها الوثنية القديمة التي سبقت الزرادشتية، خاصة سكان البادية، فقد كان بعضهم يتعدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح [زرادشت].

وعندما جاءت الزرادشتية حاولت القضاء على هذه المفاسد، ولكن إلى حين، وذلك لظهور عقائد أخرى مثل المانوية، والمزدكية.

وفي ظل المجوسية المنبثقة عن الزرادشتية، وفي ظل بقايا المانوية والمزدكية والديانات الإيرانية القديمة عاشت إيران في فوضى أخلاقية، وتشتت عقدي، وحروب دامية داخلية، وخارجية. فكثيرًا ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ويأسرون منهم. وأحيانًا كانت الدائرة تدور على الفرس - الإيرانيين - فيغلبهم الروم [تفسير ابن كثير].

وكان المجوس من الفرس لا يعبدون الإله الحق، ولم تتمكن الأخلاق الفاضلة في نفوسهم. وكان الأكاسرة يضطهدون الفرق الدينية المخالفة لهم في العقيدة.

ومن الممارسات الاجتماعية البارزة استحلال الزرادشتيين زواج المحارم، وقالوا: (الابن أحرى بتسكين شهوة أمه، وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة) [الغلو]، ولذلك تزوج ملكهم يزدجرد الثاني - حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي - ابنته، ثم قتلها. وتزوج بهرام جوبين - الذي ملك في القرن السادس الميلادي - بأخته [تاريخ الطبري].

وحظيت الدعوة المزدكية بتأييد الشباب والأغنياء والمترفين والطبقة العامة لما صادفته من هوى في نفوسهم، وحظيت بتأثير الحاكم كما قلنا لفترة، مما كان له أكبر الأثر في نشاطها. وانغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية [الملل].



وكان للإيرانيين اعتقاد في البويتات الروحية والأشراف من قومهم، إذ يرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويمنحونهم سلطة روحية لا حدَّ لها، ويخضعون لها خضوعًا كاملًا.

وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تمييزًا واضحًا. وكان لكل طبقة مركز محدد في المجتمع [ماذا خسر العالم؛ آرثر].

وكانوا يبالغون في تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلًا على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدًا. وكانوا ينظرون إلى الأمم من حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب تدل على هذه النظرة [تاريخ الطبري].

ولما كانت النار لا توحي إلى عبادها بشريعة، ولا ترسل رسلًا، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة المجرمين، فقد أصبحت الديانة عند المجوس - الذين حرفوا الزرادشتية الأصلية - عبارة عن طقوس وتقاليد تؤدى في أمكنة خاصة وفي ساعات خاصة. أما خارج المعابد، وفي دورهم وأماكن أعمالهم وفي الشارع وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك، فقد كانوا أحرارًا، يسيرون على هواهم شأن المشركين في كل عصر [الملل].

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها - في ظل المجوسية - دينًا عميقًا جامعًا يكون مربيًا ومهذبًا وحاثًا على عمل الخيرات، ويكون نظامًا لكل أنشطة الإنسان والمجتمع والدولة، وحائلًا بين الناس وطغيان الأحكام [ماذا خسر العالم]. وهو ما وجدوه في ظل الإسلام.

وحرمت حكمًا رشيدًا لقمع الفساد، بل كان ملوكها عنصرًا أساسيًا من عناصر الإفساد، لأنهم تألهوا عندما لم يعبد الناس الإله الحق. وتنافسوا على العرش حتى إن ستة

منهم تولوا العرش في أشهر قليلة، وبذلك تدهورت حتى قيمة العرش وأصبحت كل موارد البلاد ملكًا لملوكها الذين وصل بهم الترف والبذخ إلى حد خرافي، ومثال ذلك أن يزدجرد، آخر ملوكهم، عندما فر أمام الفتح الإسلامي، كان معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم على النمور وألف قيم على البزاة، وحاشية أخرى، ومع ذلك كان يعتبر نفسه لاجئًا حقيرًا في حالة يرثى لها من قلة الحاشية وفقدان أسباب التسلية. وعاش الشعب في بؤس وشقاء تثقل كاهله الضرائب والحروب [آرثر، الطبري في التاريخ].

د - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الصينية:

أولاً: الحياة الدينية:

كانت تسود الصين في القرن السادس الميلادي ثلاث ديانات: ديانة لاتسو وديانة كونفوشيوس، والبوذية. أما الأولى فقد كانت وثنية، تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات. وعاش أتباعها زاهدين رهبانًا، فانفض عنها إلى غيرها الذين جاءوا بعد مؤسسها [ماذا خسر العالم].

وأما كونفوشيوس فقد كان يعنى بالأمور العملية أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون الدنيا. وكان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، ويعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار [نفسه].

واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه، ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرابين ويركعون لها.

وشاعت في الصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح، وبخاصة عبادة أرواح الآباء والأجداد، إذ كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها [شلبي: الإسلام].

وأما البوذية الصينية فقد فقدت حتى القدر القليل جدًا من بساطتها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سادت، وتبني



الهياكل وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت. وغمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية [ماذا خسر العالم]. وتسربت إلى مناهج الحياة والعبادة السحر والأوهام، وبدأت تتقهقر وتنحط بعد أن سادت ألف سنة [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

ليس في الديانات الصينية، الكونفوشيوسية أو التي سبقتها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي يحلون به مشاكل العالم، وإنما هي حكم حكماء وتجارب خبراء، يستفيد بها الإنسان إذا شاء، ويرفضها إذا شاء [ماذا خسر العالم]. ونتج عن ذلك - مثلًا - تمجيد الذكور كما كان يفعل العرب في جاهليتهم، فعندما يبشر الصيني بالذكر يعلق القوس والنشاب على الباب، دليل مولد الذكر الذي يحمي العشيرة، أما إذا بشر بالأنثى علق على بابه مغزلًا، دليل الخنوع والضعف [شلبي الإسلام].

وفي ظل البوذية الصينية قامت دول تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل. وتغير محيط الروابط الأخوية البوذية وظهرت البدع والخزعبلات ولم تمنع الفلسفة الكونفوشيوسية وجود نظام طبقي اجتماعي، وإن كان أقل حدة من النظام الطبقي البوذي الذي ساد في الهند كما سنرى في الصفحات التالية [نفسه].

هـ - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الهندية:

أولًا: الحياة الدينية:

سادت في الهند الديانة البرهمية التي عبد أتباعها القوى المؤثرة في الكون، والتي جسدوها ثم اعتقدوا حلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها. وتعددت آلهتهم. ثم حل بعقائدهم التغيير والتبديل حتى انحصرت الآلهة في ثلاثة أقانيم: براهما، وسيفا أو سيو، ويشنو [الديانات القديمة لأبي زهرة].

ومن بعد البرهمية سادت البوذية في الهند. والبوذية لم تعن بالبحث عما وراء الطبيعة، بل كانت عنايتها تتجه إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق رياضة الإرادة على الحرمان، وتعويدها السيطرة والرغبة في الملاذ لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان [نفسه].

وبمرور الزمن، أظلت الأفكار العليلة تعاليم بوذا الخلقية، حتى توارت وراء التخيلات السقيمة بسبب الترقيعات الكلامية والتنطعات. وانحطت البوذية كما انحطت البرهمية ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما. لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها [ماذا خسر].

وسادت الوثنية المجتمع الهندي بأسره حتى وصل عدد الآلهة حدًّا خرافيًا، ووجدت في كل مرفق من كل نوع. فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله – حسب زعمهم – وجبال تجلس عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج وآلات الحرب والكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي. إذ انتشرت فيه المفاسد حتى في المعابد الدينية. وعبد بعض رجال الفرق الدينية النساء العاريات، وعبدت النساء الرجال العراة [نفسه]. ولم تعد للمرأة قيمة أو كرامة، حتى أن الرجل ليخسر امرأته في القمار، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها.

وانتشرت عادة إحراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن، خاصة في الطبقات العليا [نفسه]، وأنزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء [نفسه].



وقامت فلسفتهم الدينية على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، وهي:

١- البراهمة - الكهنة ورجال الدين.

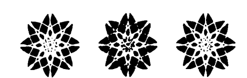
٢- شترى - رجال الحرب.

٣- ويش - رجال الزراعة والتجارة.

٤- شودر - رجال الخدمة - خدمة الطبقات الثلاث السابقة.

وهذه الطبقة الأخيرة تعد نجسة، لا تخالط ولا تتعلم حتى الكتب المقدسة [نفسه]. وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والغراب والبومة ورجل الطبقة المنبوذة سواء [نفسه]. أما البراهمة فهم فوق القانون ويحل لهم إبادة الآخرين [نفسه].

هذا الفساد والضياع الذي عاشه العالم في الجزيرة العربية وخارجها كان يقتضي إرسال رسول، فأرسل الله سبحانه محمدًا ﷺ للناس كافة عربهم وعجمهم لينقذهم من هذا الضياع والانحراف، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.



الفصل الأول
من المولد إلى المبعث

المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كِلَاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمَة ابن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان.

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري في صحيحه، وهو المجمع عليه بين العلماء، أما ما بعده إلى آدم عليه السلام فمختلف فيه كثيرًا، وليس فيه ما يعتمد عليه. ولكن مما لا خلاف فيه أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام

وأخواله من بني زهرة [نفسه]، لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم [الفتح]. ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة [ابن حبان: السيرة، ابن عساكر].

وشاء الله ﷻ أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسبًا وأشرفهم قومًا وقبيلةً وفخذًا. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[مسلم]. ويقول: «**إن الله ﷷ يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسبًا، وخيرهم بيتًا**» [الترمذي، حسن صحيح].

ولم يستطع أبو سفيان أن ينكر علو وسمو نسب الرسول ﷺ، على الرغم مما كان لـه من عداء للرسول ﷺ قبل إسلامه، فقال لهرقـل - ملـك الـروم بالشـام -: «هـو فينـا ذو نسب» [البخاري].

ذلكم هو نسب محمد ﷺ، الذي سماه جده عبد المطلب وأمه آمنة بهذا الاسم رغبـة مـنهما عـن أسـماء أهـل بيتـه، وأرادا أن يحمـده الله في السـماء وخلقـه في الأرض [البيهقي: الدلائل، مرسل].

حكم وفوائد من هذا الاصطفاء:

١ - ما دامت العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نبيه محمد ﷺ من أعلاهـم نسبًا، حتـى لا يكـون لأعـداء الإسـلام سلاح في أيديهم للصد عن سبيل الله، وحتى لا يتـوهم متـوهم أن رسـالته مـا هـي إلا وسيلة لغاية، وهي تغيير وضعه الاجتماعي.

٢ - إن اختيار الله تعالى لنبيه محمد ﷺ من العرب يقتضي من المسـلم أن يحـبهم مـن حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، لأن الأفراد قد ينحرفون عن الإسلام، فينبغي هنـا كره أفعالهم المنحرفة لا كره جنسهم العربي.

المبحث الثاني: الختان والتسمية

اختلف العلماء في أمر ختانه، فمنهم من قال (إنه ولد مختونًا)، ومـنهم مـن قـال: (ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسمّاه محمدًا) [الـذهبي: السـيرة]، والذي رجحه بعض كبار العلـماء القـدماء أنـه ولـد مختونًـا [أمثـال: أبـو نعـيم والطـبراني والبغدادي وابن عساكر والحاكم].

وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته، أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء ويحمده خلقه في الأرض.

وعرف الرسول ﷺ بأسماء أخرى، فقد قال [كما في الصحيحين]: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**». وقال الراوي - الزهري: (**والعاقب الذي ليس بعده نبي**). وزاد ابن سعد: «... **والخاتم**...»، وزاد مسلم أسماء أخرى، وهي المقفى ونبي الرحمة، وزاد الترمذي [في الشمائل] «...**نبي الملاحم**...». وقد وردت أخبار بأن أمه سمته أحمد. فقد روى ابن سعد بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سميت أحمد**». وثبت الاسم أحمد ومحمد بنصوص القرآن الكريم.

ولما كان والده قد توفي وهو في بطن أمه، فينصرف القائم بالتسمية إلى الأم. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من طريق الواقدي بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي، قال: «أمرت آمنة وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد»، ويشهد له أيضًا ما رواه أبو نعيم عن بريدة وابن عباس قالا: «رأتِ آمنة في منامها فقيل لها: إنك قد حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولدته فسميه أحمد ومحمدًا... إلخ». ويشهد له ما رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل، وقال: «وكانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها: فإذا وقع فسميه محمدًا، فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في القرآن محمد. فسمته بذلك. وفي آخر الرواية أنها أخبرت عبد المطلب بما أمرت أن تسميه. فقال شعرًا وفي آخره: «أحمد مكتوب على اللسان». وقد رواه ابن عساكر أيضًا.

وكني بأبي القاسم، [كما في البخاري وغيره]، وأمر أن نسمي باسمه ولا نكني بكنيته [كما في الصحيحين وغيرهما]. وكناه جبريل عليه السلام بأبي إبراهيم، ولكنه كره أن يحول كنيته التي عرف بها. واختلف العلماء في أمر التكني بكنيته، وفي أمر الجمع بين اسمه وكنيته، فقيل إنما نهى عن التكني بكنيته في حال حياته، وقيل إنما نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته فقط [ابن عساكر].

ولم يعرف اسم: أحمد قبله، وسمت بعض العرب باسم محمد لما شاع قبيل وجوده أن نبيًا سيبعث اسمه محمدٌ [السبل].

المبحث الثالث: اليتم ورعاية الجد ثم العم

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ وفاة والده. والذي قاله ابن إسحاق [في السيرة]، ورجحه ابن سعد، إن ذلك كان وهو في بطن أمه، وهو المشهور، الذي رجحه كثير من العلماء [البداية]، وجزمت الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦]، بأنه كان يتيمًا.

وقال السهيلي في الروض عن تحديد تاريخ وفاة والده: (وذكر أنه مات أبوه وهو حمل، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد، ذكره الدّوالبي وغيره، وقيل: ابن شهرين، ذكره ابن أبي خيثمة، وقيل: أكثر من ذلك،...، وقيل: مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرًا، وأنشدوا رجزًا لعبد المطلب يقول لابنه أبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمؤتم بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد

والمشهور أنه ولد بمكة يتيم الأب، في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في العام المشهور بعام الفيل [طرهوني].

وعندما مات والده كفله جده عبد المطلب، وهو تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب.

وكانت وفاة والده بالمدينة، عند أخواله - أي أخوال أبيه عبد المطلب - بني عـدي ابن النجار، عندما أرسله والـده عبـد المطلـب إليهـا ليشـتري منهـا تمـرًا [الاستيعاب؛ ابن سعد]. ودفن في دار النابغة، تحت عتبة البيت الثاني على يسار من يدخل دار النابغـة. [ابن شبة، ضعيف] وكانت وفاته عن خمس وعشرين سنة [ابن سعد، ضعيف].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه آمنة وكفالة جده عبد المطلب بعد أوبته من بادية بني سعد.

وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بـالأبواء، [والأبـواء قريـة بينهـا وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا، ومصـدر الخؤولـة أن هاشـم بـن عبـد منـاف تـزوج بالمدينة سلمى بنت عمرو النجارية، فولدت له عبد المطلب [شيبة]، وهي راجعة به إلى مكة مـن زيارة قامت بها معه إلى أخوال جده عبد المطلب بني عدي بـن النجـار بالمدينـة المنـورة [ابن إسحاق في السيرة، مرسل صحيح عبد الرزاق، مرسل صحيح].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة، فأخذ يحوطـه بعنايتـه إلى أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنوات من العمـر [ابـن إسـحاق، مرسـل صـحيح؛ الأزرقـي، حسن؛ الذهبي: السيرة]، فأوصى به إلى عمه أبي طالب [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الذهبي: السيرة].

وقد رويت أخبار في مدى عناية جده عبد المطلب به. من ذلك ما رواه أبو يعلى، أن عبد المطلب أرسل محمدًا ذات مرة في إثر إبل له ضلَّت، فاحتبس عليه حتى حزن حزنًـا شديدًا، وأخذ يطوف بالبيت وهو يقول مرتجزًا:

رَبِّ رُدَّ إليَّ راكبـــي محمــــدًا　　　يـا ربِّ رده واصـنع عنـدي يـدًا

وعندما عاد محمد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبدًا، ولا يفارقه بعد هذا أبدًا.

وكان يقربه ويدنيه منه، ولا يدع أحدًا يدخل عليه وهـو نـائم. وكـان لـه مجلـس لا يجلس عليه غيره. وكان له فراش في ظل الكعبة، يجلس حوله بنـوه ويجلـس النبـي ﷺ عليه مع جده.

وترى كتب السير أن أبا طالب كان شديد الاعتناء أيضًا بابن أخيه محمد ﷺ. فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصـه بالطعـام، ولا يأكـل إلا عنـدما يحضر محمد. وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين.

حكمة يُتم الرسول ﷺ:

١- لقد شاء الله عز وجل أن ينشأ الرسول ﷺ يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجـده، لأن والده قد توفي وهو في بطن أمه، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد، بعيدًا عن أسرته كلها، ثم ما لبث أن توفيت أمه، ولم يمكث معها سوى مدة يسـيرة، وبعـدها بمدة يسيرة توفي جده عبد المطلب. كـل ذلـك لحكـم، لعـل مـن أبرزهـا أن لا يكـون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب، أو إيهام الناس بأن محمدًا إنما رضـع لبـان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصـطناع النبوة. فقد كان لجده مكانة مرموقة في قومه، فلقـد كانـت إليـه الرفـادة والسـقاية، أي إطعام الحجاج وسقايتهم [ابن إسحاق].

٢- ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليـتم لـيس نقمـة، وإنه لا يجب أن يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمى المراتب.

المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده

وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالـة عـلى نبوتـه. ومـا ثبـت منهـا بطـرق صحيحة، [عند أحمد وابن إسـحاق]، قوله ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبـراهيم، وبشـرى عيسـى، رأت أمـي حـين حملـت بي كـأن نـورًا خـرج منهـا أضـاءت لـه قصـور بُصـرى مـن أرض الشام**». [والإرهاص: المقدمة للشيء والإيذان به، فالبرق - مثلًا - يؤذن بنزول المطر].

وجاء في رواية مرضعته حليمة السعدية عند ابـن إسـحاق [في السيرة] وابـن سـعد وأحمد [في المسند، بإسناد حسن، والحاكم، بإسناد صحيح]، أن والدته آمنة قالت: «ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافعًا رأسه إلى السـماء». وفي روايـة: أن أمـه عنـدما ولدته وضع تحت بُرْمةٍ، كعادة أهل الجاهلية، فلما أصبحت نظرت إليه فـإذا البرمـة قـد انفلقت ثنتين، وإذا هو قد شخص بصره إلى السماء.

وما لم يثبت بطرق صحيحة، ولكنه اشتهر، مثل قـولهم [كـما في دلائـل البيهقـي]: إنـه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التـي كـان يعبـدها المجوس، وغاصت بحيرة (ساوة)، وانهدمت المعابد التي كانت حولها.

المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ

اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليمة بنـت أبي ذؤيـب السـعدية، حين أخذته معها إلى بادية قومها، فأقام معها نحو أربع سنين، ثم ردته إلى أمه.

لقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر إرضاع حليمة الرسول ﷺ وإقامتـه معهـا ببادية بني سعد. وحكم محققا سيرة ابن هشـام (د.همـام وزميلـه) والشـيخ الألبـاني بضـعف إسناد هذا الخبر. ونص رواية ابن إسحاق:

(كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت به من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء [فيها قحط] لم تبق لنا شياءً فخرجت على أتان [أنثى الحمر] لي قمراء [بيضاء]، معنا شارف [الناقة المسنة] لنا، والله ما تَبِضُّ [تسيل] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديِّ ما يغنيه، وما في شَارِفِنا ما يغذّيه، ولكنّا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أَدَمْتُ [أطلت السفر] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعَجَفًا [هزالًا]، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي زوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه؛ قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، ولما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل [ممتلئة حليبًا]، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبعًا، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسَمةً مباركة. قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني، وحملت عليها معي. فوالله لقطعتْ بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا بنت أبي ذؤيب، ويحك! اربعي [انتظرينا] علينا، أليست هذه أتانك التي

كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأنًا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شِباعًا لُبَّنًا [غزيرات الحليب]، فنحلب ونشرب، وما يحلُب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسْرَحُوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته [فطمته]، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جَفْرًا [قويًا]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ على مكثه فينا، لِما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركتِ بُنَيَّ عندي حتى يغلُظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا).

ثم ذكرت حليمة قصة شق صدره وما فيها من معجزة.

ومع ما قيل في إسناد هذا الخبر إلا أن مما لا شك فيه ثبوت استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد، وذلك لأن رواية الصحيح [مسلم] تتفق مع رواية ابن إسحاق في أن حادثة شق الصدر قد وقعت للرسول ﷺ وهو صغير مسترضع في بادية بني سعد، وكذلك رواية الحاكم [صحيح]، وأحمد وابن إسحاق [في السيرة، جيد] في حديث: «**أنا دعوة أبي إبراهيم.... واسترضعت في بني سعد بن بكر....**»، وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، قال وفد هوازن للرسول ﷺ وهو بالجعرانة حين منصرفه من حنين: (إنما في الحظائر -أي: الأسْر- عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك...). في هذا الخبر إشارة إلى رضاعة النبي ﷺ في أهل مناطق الطائف، أي في هوازن، التي منها بنو سعد، قوم حليمة بنت أبي ذؤيب [ابن حبان: السيرة؛ ابن هشام].

وروى ابن سعد [برجال ثقات، مرسلًا] أن النبي ﷺ كان مسترضعًا في بني سعد بن بكر.

وفي رواية أخرى لابن سعد: أن أم النبي ﷺ دفعته إلى السعدية التي أرضعته فالروايات تعتضد.

ويضاف إلى هذا الآثار التي تدل على مجيء أبوَي الرسول ﷺ من الرضاعة إليه وتعرفه على الشيماء - أخته من الرضاعة - التي جيء بها ضمن أسرى غزوة حنين وسيأتي ذكرها في أحداث حنين.

وخلال حياته في رعاية حليمة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على بركته وعناية الله تعالى به، وحفظه له. وأشهر ما روي في ذلك حديث حليمة السعدية الطويل المشهور، الذي فيه أنه بحلول محمد ﷺ عليها، در ثديها اللبن، فارتوى منه محمد وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلأ ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابسًا، فشبعت منها مع زوجها وأضحت الراحلة نشطة قوية، تسير في مقدمة الركب، بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان. وحيثما حلَّت أغنام حليمة، تجد مرعى خصبًا، فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئًا، وكان ينمو نموًا سريعًا، لا يشبه نمو الغلمان [ابن هشام].

حكمة الرضاعة في البادية:

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعادًا بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويدًا وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، بعيدًا عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الأقارب، وتقويمًا لألسنتهم من اللحن وغيره من مفسِدات اللغة في المدن [البداية؛ الذهبي: السيرة، صحيح].



المبحث السادس: الرضاعة في بادية بني سعد وحادثة شق الصدر

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر، كما جاء ذلك صريحًا في رواية أبي نعيم عند ابن كثير [في البداية، بإسناد صحيح]، ونصها: قال رسول الله ﷺ: «... **كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْمٍ [صغار الغنم] لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء بَرَد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفًا من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليَّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت: أعيذك بالله، فرحَّلت بعيرًا لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام**».

وروى قصة هذا الشق مسلم، باختصار، ولم يصرح بمكان وقوعها، ونصه عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره - مرضعته) فقالوا: إن محمدًا قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

لقد سكتت بعض المصادر - منها مسلم - عن تحديد سنه ﷺ حين وقعت لـه هـذه الحادثة لأول مرة. أما البعض الذين حددوا سنه، فلم يتفقوا على سن محددة. فيفهم من رواية ابن إسحاق [في السيرة] أن ذلك كان وعمره ﷺ نحـو السـنتين إذ تقـول حليمـة: «فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا... فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيـه لفـي بهم لنا خلف بيوتنا...» وفي رواية ابن سعد أن القصة وقعت وللرسول ﷺ أربع سنين، وقال بهذا أبو نعيم مـن طريـق ضـعيفة أيضًـا. ويـذكر آخـرون أنـه كـان في الخامسـة [دلائل البيهقي] أو بعدها [المواهب].

ونحن نميل مع الزرقاني [في شرحه على المواهب] ونرجح رواية ابن سعد في أنه كـان في الرابعة، لأنها السن التي يمكن أن يمارس فيها رعي البهم، ويفهم شيئًا مما يدور حوله.

ولقد تكرر حادث شق صدر الرسول الله ﷺ مرات أخرى غير هذه التـي في باديـة بني سعد. فقد روى أحمد وغيره أن شق الصدر قد وقع له وهو ابن عشر سنين وأشهر. وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن شقًّا لصدره قد وقع له وقـد تجـاوز الخمسـين مـن العمر، حين أسري به إلى بيت المقدس. وذكر الذهبي [في السيرة]، الروايات الدالـة عـلى أن شق صدره كان مرتين: في صغره ووقت الإسراء به. وهناك من ذكـر وقوعهـا مـرة رابعة [دلائل البيهقي].

لقد ذهب بعض أصحاب المدرسة العقليـة مـن المستشـرقين والمتـأثرين بهـم مـن المسلمين إلى تأويل حادث شق الصدر. فمنهم من قال إنها أسطورة، ومنهم من قال إنها أمر معنوي، و... و... إلخ.

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول ابن حجر [في الفتح]: (إن جميع مـا ورد مـن شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم لـه دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك).

وينبغي على المسلم أن يعلم بأن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، فإذا صحت فلا يجدي البحث بعد هذا عن صرف الكلام إلى غير حقيقته أو تأويله تأويلًا عقليًا ممجوجًا كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية.

حكمة شق الصدر:

١ - يبدو أن هذه الحادثة كانت إعلانًا لرفعة شأن الرسول ﷺ والتهيئة للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذًا عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي برفعة الشأن بين أبصار الناس وأسماعهم - كما قال البوطي.

٢- فيها بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ لتلقي الوحي عنه.

٣- تشير الحادثة إلى تعهد الله عز وجل نبيه عن مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي حصانة أضفاها الله عز وجل على نبيه محمدًا ﷺ.

المبحث السابع: رحلته إلى الشام

روى الترمذي [بسند صحيح] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، أنه قال: «خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب - يعني بحيرى - هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخلَّلهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل -

قال: أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء - ظل - شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، ثم التفت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنّا أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه. قال: فقال الراهب: أنشدكم الله! أيكم وليُّه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبا بكر وبلالًا، وزوده الراهب من الكعك والزيت».

اختلف العلماء في هذا الأثر، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم، والألباني [في دفاع]، وابن حجر. وقال ابن حجر: (رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهمًا من أحد رواته). وقال ابن القيم [في زاد المعاد]: (إن هذه النقطة من الغلط الواضح).

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] القصة بنحو سياق الترمذي، وليس فيه ذكر أبي بكر وبلال، ولكنها بدون إسناد، فيستأنس بروايته لإمامته في المغازي، ويكاد يكون لكل رواياته غير المسندة أصل.

وروى الأموي [كما في البداية] أن الرسول ﷺ سافر مع عمه الزبير في تجارته إلى اليمن، عندما كان له من العمر بضع عشر سنة.

وذكروا أنهم رأوا منه آيات في تلك الرحلة، من ذلك: إن فَحْلًا من الإبل كان يقطع الطريق في واد يمرون عليه، فلما رأى الفحل رسول الله ﷺ برك حتى حك بكَلْكَلِهِ [صدره] الأرض، فركبه رسول الله ﷺ. وأنه اعترضهم سيل عرم فأيبسه الله تعالى حتى جَاوَزُوا الوادي.

الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة محمد ﷺ:

إن في قصة الراهب بَحِيْرَى مع الرسول ﷺ دليل على معرفة أهل الكتاب صفة رسول الله ﷺ وزمانه كما هي عندهم في كتبهم، وهي تفسير لنا قوله تعالى في اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[البقرة: ٨٩].

روى البخاري من حديث عطاء بن يسار، أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[الأحزاب: ٤٥]، هي في التوراة: (ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا).

ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي وغيره رضي الله عنه، تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من أحبار اليهود ورهبان النصارى.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب حاولوا طمس هذه الحقيقة فيما بعد، كما حكى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[البقرة: ٧٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾[الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[المائدة:١٥]. ولم يوفقوا في طمس كل الحقيقة كما هو واضح من عبارات وردت في بعض أناجيل النصارى - مثل برنابا - خاصة ببيان اسم النبي ﷺ المنتظر وصفته وزمانه ومكانه.

وممن كتب مباشرة في موضوع بشارات التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ:

(١) **الأستاذ إبراهيم خليل أحمد**، القس المصري - سابقًا - إبراهيم خليل فيلبس، الذي هداه الله إلى الإسلام منذ أكثر من أربعين سنة، بعد أن قام بدراسة مقارنة لما في الإسلام، وما في الديانات السماوية السابقة عليه. ونشرها في كتاب عنوانه: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن).

وقد مكنته معرفته العميقة بالعهد القديم [التوراة] والجديد [الإنجيل] من إجراء الدراسة الجادة التي قادته في النهاية إلى أن الإسلام هو الحق، فاعتنقه، وأصبح من دعاته.

ومما قاله في دراسته القيمة المذكورة: (نستطيع بعد هذه الدراسة التحليلية أن نضع الصورة الكاملة التي نستمدها من نصوص الكتاب المقدس، والتي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ولا تحريف، لأن الله شاء فحفظها حرصًا على نبيه محمد ﷺ.

ومن ثم إننا نحصل على تصور معين لصورة الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، هذا الرسول بدا شامخًا بشيمه الشماء، وهي من شقين:

(أ) أنه الرسول النبي الخاتم، ولا نبي بعده.

(ب) أنه رسول الله للعالمين كافة للأسباب التالية:

١- لأنه متمكن ورحيم.

٢- لأنه مؤسس لأمة على الحق والبر.

٣- لأنه بفضل الله نور للأمم.

٤- لأنه وثيق الصلة بسلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وهذه الحقائق مؤسسة على سفر أشعياء ٤٢: ١-١١:

٥- لأنه سليل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، فهو عم العبرانيين كافة.

٦- لأن فيه يتحقق مواعيد الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

٧- لأن فيه تتبارك كل شعوب الأرض.

٨- لأنه الوارث الحقيقي لإسماعيل، وإسماعيل هو بكر إبراهيم عليهما السلام فله النصيب المضاعف.

٩- لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله عز وجل.

وهذه الحقائق مؤسسة على سفر التكوين ١٧: ٢٠-٢٢: ١٦-١٨: وسفر التثنية ٢١: ١٥-١٧-١٨: ١٥-١٩:

- لأنه يأتي على أثر اختتام رسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

- لأنه يعزي ويرشد جماعة المؤمنين من أتباع المسيح (الباراقليط) Paraclete.



- لأن أفعاله وأقواله وخصاله تنبؤ أنه المحمد (The Praised one (Pericyte.

- لأنه الصادق الأمين، وشهرته ذائعة في العالمين بالصدق والأمانة.

- لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله ﷻ.

- لأن رسالته خالدة أبدية.

- لأنه يرشد إلى الحق... إلى جميع الخلق.

- لأنه يدافع عن المسيح عيسى بن مريم وأمه (ذاك يمجدني) ويدفع عنهما الشبهات.

هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٤: ١٦، ١٧-١٤: ٤٥ :٢٦ إنجيل يوحنا ١٥: ٢٦، ٢٧- إنجيل يوحنا ١٦: ١٣، ١٤.

ولتصفية هذه الشواهد في تركيز وإيجاز أوضح فإن هذا النبـي الخـاتم يختلـف عـن الآخرين من أنبياء العبرانيين في ثلاثة وجوه حيوية ورئيسة على الأقل:

١- أنه سيكون صاحب رسالة عالمية.

٢- أنه سيصبح خاتم النبيين ولا نبي بعده ولا نبوة بعده.

٣- أنه من ذرية إسماعيل ﷺ، الذي خلعت عليه بنو إسرائيل (العرب)، وأنه سليل قيدار بن إسماعيل.

هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٦: ١٢-١٤، وسفر إشعياء ٦٠: ١-٧).

وذكر الأستاذ إبراهيم في كتابه هذا أمثلة كثيرة لبشارات من التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ.

والكتاب جدير بالقراءة لأهميته في إجلاء الحقائق الغائبة عن الناس.

وصـدق الله العظـيم القائـل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾[البقـرة:١٤٦]، والقائـل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾[البقـرة:١٤٤].

(٢) **الدكتور الشفيع الماحي أحمد**، وعنوان كتابـه: (محمـد ﷺ في بشـارات التـوراة والإنجيل)، نشر مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سـعود، الريـاض، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٧٠ صفحة. هدف ببحثه إلى عرض بشارات أنبيـاء بنـي إسرائيل بمقدمه ﷺ، وكما وردت في التوراة والإنجيل، وذلك من حيث الـزمن الـذي سيظهر فيه، والأرض التي يبعث منهـا، واسـمه، وصـفاته وأحوالـه، ومـنهج رسـالته الخاتمة، وأمته، وأخيرًا دوام دولته.

(٣) **أحمد ديدات**: (ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ)، ترجمة إبراهيم خليل أحمد، القاهرة، دار المنار، ١٩٨٩م.

(٤) **محمود الشـرقاوي**: (محمـد ﷺ في بشـارات الأنبيـاء)، القـاهرة، مؤسسـة دار الشعب، ١٩٧٧م.

(٥) **رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي**: (إظهار الحق)، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م في (٤)مجلدات. تناول المسلك السادس من الباب السادس، الجزء الرابع (إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ)، [ص١١١٦- ١١٩٨]، وعد من البشارات ثمانية عشر بشارة، معتمدًا على نصوص من التوراة والإنجيل. وكان تحقيق الدكتور الملكاوي رسالة علمية حصل بها على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، وعمل معنا بقسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.

لم يكن أهل الكتاب وحدهم الذين كانوا يعرفون اسم وصفة النبي العـربي الخـاتم، بل شاركهم وسبقهم في هذا غير أهل الكتاب. فقد اطلعت عـلى بحـث موثـق، باللغـة الإنجليزية، ومن مصادر هندية أصيلة، للأستاذين: أنور حسين ووقار عظيم النـدوي، بعنوان: (محمد ﷺ في الكتـب الهنديـة المقدسـة)] Mohammad (P.B.U.H.) in Hindu, s Sacred Books وخلاصته:

أولًا: إن الاسم (محمد)، ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسـكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

.A) Riga Veda, Kand ٥, mandal ٢٧, mantra ١)

.B) Atherva Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٧, mantra ٣)

.c) Bhavishya purana, Kand ٣, Surg ٣ /٣, mantra ٥ and ١٢)

.D) Srimad Bhagawat, mahtampurana, chapter ٢, ShloK ٧٦)

.E) Tulas, s Ramacharitamanas, deriving from)

.Sangrampurana, Kand ١٢, chapter ٦

ثانيًا: ذكر الاسم (أحمد) ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغـة السنسـكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

.A) Riga Veda, madal ٨, mantra ١٠)

.B) Sama veda, prapathak ٢, dashti ٦, mantra ٨)

.c) Athara Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٦, mantra ١٤)

.D) Yajur Veda, Sukt ٣١, mantra ١٨)

ثالثًا: ذكرت هذه الكتب الهندية المقدسة السابقة للكتب السماوية أوصافًا للنبي محمد ﷺ وأحداثًا، طابقت سيرة النبي ﷺ، وهي:

(أ) إنه سيركب الجمل.

(ب) إنه سيتزوج اثنا عشرة امـرأة، ذكـرهن الباحثـان وهـن: خديجـة وسـودة وعائشـة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة وزينب بنـت جحـش وأم حبيبـة وصـفية وجويريـة وريحانة وميمونة. (جـ) سيكون مختونًا وملتحيًا. (د) سيلتقي بعدو تعـداده الكـلي في المواقـع الكبرى ٦٠.٠٩٠، ذكر المؤلفان تفاصيل ذلك. (هـ) سيصعد إلى السماء بسرعة خيالية ويعود إلى الأرض - يعني المعراج.

رابعًا: ذكرت هذه الكتب بعض فضـائل أصـحاب النبـي ﷺ والعـدد الحقيقـي لـبعض فئاتهم أو أصنافهم.

خامسًا: ذكرت هذه الكتب معاني اسم والد ووالدة النبي محمد ﷺ.

وفي ختام البحث ذكر المؤلفان خمسة مراجـع باللغـة الأرديـة لمزيـد مـن القـراءة في هذا الموضوع، وهي:

(١) Dr. Kamalakant Tiwari, Kali Yuga Ke Antima Rishi.

(٢) Pundit Dharam Veda Upadhyay, Antim I Shwer Doot.

(٣) Veda Prakash Upadhyay, Kalki Avatara.

(٤) Ibn Akbar Azmi, Mohammad Hindu Kitabon men.

ونبّه الباحثان إلى أن المعلومات الأساسـية لهـذا البحـث مـأخوذة مـن كتـاب ابـن أكـبر الأعظمي - رقم ٤ - (محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة)، وهو من منشورات دار الصـفة، براتي رابطة، رابطة دوكان رقم ١٤، الطابق الأول، مؤسسة بلازه ٤٠، لاهور.

المبحث الثامن: رعيه الغنم في صباه، والحكم من ذلك

روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قَرَارِيط لأهل مكة**».

[والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم، أو اسم موضع بمكة] (الفتح ١٠/ ٥).

وروى البخاري ومسلم من حديث جابر أن الرسول ﷺ رعى الغنم.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذا الرعي:

١- قال ابن حجر [في الفتح]: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...) ثم قال:

(وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء).

٢- يتجلى لنا في رعيه الغنم الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمل الله تعالى بهما نبيه محمدًا ﷺ. إذ أن الرسول ﷺ ما أن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب لرفع بعض ما يمكن رفع من مؤنة الإنفاق على عمه الذي وفر له وسائل العيش الكريم، على الرغم من أنه كان ذو عيال كثيرين.

٣- إن الله عز وجل لا يعجزه أن يهيّئ لمحمد ﷺ كل وسائل الرفاهية ويغنيه عن الكـدح سعيًا وراء القوت، ولكن اقتضت حكمة الله أن تعلمنا أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده، وأن قيمة الإنسان هي فيما يقدمه لمجتمعه من خدمات قدر طاقته.

٤- لن تكون لأصحاب الدعوات قيمة معتبرة عند الناس إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا فإن صاحب الدعوة أحرى الناس باعتماد على نفسه وجهده الشخصي في معيشته، والابتعاد عن الاستجداء، حتى لا يكون لأحد عليه منة أو فضل في دنياه، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه [البوطي: فقه السيرة].

المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من أمور الجاهلية

لقد شارك الرسول ﷺ في إعادة بناء الكعبة عندما تهدمت. فكان ينقل معهم الحجارة للبناء وعليه إزاره. فاقترح عليه عمه العباس أن يجعل إزاره على منكبيه ليقيه الحجارة. وعندما فعل ذلك، سقط مغشيًا عليه، فما رئي بعد ذلك عريانًا.

وكان يومًا ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وذلك عندما كان صغيرًا يلعب مع أترابه غلمان قريش، فأخذ إزاره فجعله على رقبته ليحمل عليه الحجارة، فتعرى، وحينها لكمه من لم يره لكمة موجعة، وقال له: «شد عليك إزارك»، فشده عليه، وذلك دون غيره من الغلمان الذين كانوا معه.

وروي أن الله تعالى عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر كما يسمر الشباب. ولكن اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر. فبينما صححه الحاكم والذهبي وغيرهما، ضعفه ابن كثير [في البداية] والألباني [في دفاع]، لعلل ذكروها، وحججهما قوية.

وخالف الرسول ﷺ قومه من أهل الحرم الذين عرفوا بـ(الحمْس)، إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حيث كانت الحمس تفيض من مزدلفة (جُمَع). وقد تعجب جُبَيْر

ابن مُطْعِم من الرسول ﷺ لهذا الفعل، كما روى الشيخان، وكان ذلك توفيقًا من الله تعالى له، كما قال جبير بن مطعم بعد إسلامه، وكما روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]. [والحُمْس: هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب؛ ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم بأن تركوا الوقوف بعرفات والإفاضة منها، وقيل: سمّوا حمسًا لأنهم اشتدوا في دينهم على زعمهم، مأخوذ من الحماسة، وهي الشدة].

وجاء الإسلام، فوضع الله تعالى أمر الحمس وما كانت قد ابتدعته قريش، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[البقرة:١٩٩].

وروى البيهقي [في الدلائل بسند حسن] أنّ الرسول ﷺ ما استلم صنمًا قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية. ورفض أن يمس صنم إِسَاف أو نَائِلَة عند طوافه، كما كانت عادة أهل الجاهلية.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن بَحِيْرَى الراهب عندما حلف باللات والعزى، متابعة لقريش في طريقة حلفهم، قال له النبي ﷺ: «**لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت بغضها شيئًا قط**».

وحفظه الله عز وجل من كيد الشياطين، في الجاهلية والإسلام.

ورفض الرسول ﷺ أن يعتكف عند صنم بوانة - حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام - فغضب منه عمه أبو طالب وعماته غضبًا شديدًا، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله تعالى من مس الأصنام، حيث تمثل له رجل أبيض طويل منعه من مسها، فلم يشارك في عيد لهم في حياته.

وروى البيهقي [في دلائله، بسند حسن، كما قال طرهوني]، أن ملكين منعاه أن يشهد مع المشركين مشاهدهم، فانتهى عن ذلك.

ومن أبرز الحكم والعبر من أخبار عناية الله وحفظه من أمور الجاهلية:

١- إن في هذه الأخبار دليلًا على أن الرسول ﷺ كان مصونًا عما يستقبح من أمور الجاهلية قبل البعثة وبعدها، وذلك من حماية الله تعالى له عما يسيء إلى شخصه ودعوته.

٢- إن من الأمور المستقبحة عند الله تعالى التعرِّي بحضرة الناس. وقد حرم الإسلام ذلك إلا للضرورة، مثل العلاج ونحوه كما قال ابن حجر في [الفتح].

٣- إن عصمة الله تعالى له من ممارسة أفعال الجاهلية لدليل عن تهيئة الله تعالى له لأمر جليل.

المبحث العاشر: حرب الفِجَار

سميت الحرب التي دارت بين كنانة وقريش من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى بحرب الفِجَار، لأنهم استحلوا المحارم بينهم كما ذكر ابن حجر [في الفتح]. وكان سببها تافهًا، لم يَعْدُ قتل رجل من قريش، تداعى بعده الأحلاف للقتال، كما ذكر ابن هشام [في السيرة].

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن هذه الحرب عندما هاجت كان لرسول الله ﷺ عشرون سنة. وقال ابن هشام إنها هاجت ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وأن رسول الله ﷺ شهد بعض أيامهم مع أعمامه، وقال: «كنت أنبل على أعمامي» - أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

ولما كانت حرب الفجار قد استمرت زمنًا طويلًا فيمكن الجمع بين قولي ابن إسحاق وابن هشام بأن عمر الرسول ﷺ كان في مبتدئها نحو خمس عشرة سنة، ولذا كان ينبل على أعمامه. وعند انتهائها كان عمره عشرين سنة.

ومما يلفت النظر أنه لم يرد ذكر لاشتراك الرسول ﷺ مباشرة في هذه الحرب وقد كان بلغ سن القتال، كما في رواية ابن إسحاق المذكورة. وعلل السهيلي ذلك لأنها

كانت حرب فجار بين كفار، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

قلت: لو صح حديث نبله على أعمامه، فهو دليل على اشتراكه في الحرب اشتراكًا رمزيًا غير مباشر، ويمكن تفسيره بأن الرسول ﷺ اشترك بهذه الكيفية في الدفاع عن المقدسات والمحارم، وخاصة أن قيس عيلان هي المعتدية، وهذا من القيم الإنسانية العليا التي اهتم بها الرسل والمصلحون، أي نصرة المظلوم.

المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول أو المطيبين

[المطيبون: هاشم، وزهرة، ومخزوم. قاله بعض رواة حديث أبي هريرة عند البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨)]. وقال البيهقي: (كذا روي هذا التفسير من رجال الحديث، ولا أدري قائله...) وقد سبق القول: إن ابن إسحاق [ابن هشام ١/ ١٧٩ - ١٨١]، أشار إلى حلف المطيبين، وهو اختلاف قريش بعد قصي: بني عبد مناف ومن حالفهم، وبني عبد الدار ومن حالفهم... فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا عند الكعبة... ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم فسموا بالمطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضًا لعدو، فسموا الأحلاف...

روى أحمد [في المسند بسند صحيح] أن الرسول ﷺ قال: «**شهدت حلف المُطَيَّبِين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أنَّ لي حمر النعم وأني أنكثه**». وقال في رواية البيهقي [في الدلائل بسند قوي]: «**ما شهدت حلفًا لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته**».

قال البيهقي [في دلائله] معلقًا على هذا الحـديث: (زعـم بعـض أهـل السـير أنـه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين». والراجح عندي قول أهل السير.

والبيهقي نفسه يقول في السنن الكبرى إن الرسول ﷺ لم يدرك حلف المطيبين).

ذكر ابن الأثير [في النهاية] أنه يمكن الجمع بين رواية أحمـد والبيهقـي وروايـة أهـل السير أن حلف المطيبين قد تجدد في حياة الرسول ﷺ وعرف باسـم آخـر هـو (حلـف الفضول)، والله أعلم.

وروى الحميدي [كما في البداية لابن كثير، بسند صحيح]، أن رسول الله ﷺ قـال: «**لقـد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت بـه في الإسـلام لأجبـت، تحـالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلومًا**». وروى ابن إسـحاق [في السـيرة، بسـند مرسل صحيح]، أن الرسول ﷺ قال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جـدعان حلفًـا مـا أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت**».

لقد عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، [كما روى ابن إسحاق في السيرة]. وكـان ذلـك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، منصرف قريش من حرب الفجـار، ولرسـول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة. وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وكان سببه، أن رجلًا من زبيد، قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائـل السهمي، وكان ذو شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحـلاف: عبـد الدار ومخزومًا وجمحًا وسهمًا، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيـدي الشر، رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حـول الكعبـة، فقال بأعلى صوته:

«يـا آل فهـر لمظلـوم بضـاعته — بـبطن مكـة نـائي الـدار والنفـر
ومحـرم أشـعث لم يقـض عمرتـه — يا للرجال وبـين الحِجْـر والحَجَـرِ
إن الحـرام لمـن تمـت مكارمـه — ولا حرام لثـوب الفـاجر الغـدر»

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: «ألهذا مترك؟» فاجتمعت قريش وزهرة وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام ليكونن يـدًا واحدة مع المظلوم على الظالم.

حتى يؤدي إليه حقه ما بلَّ بحر صوفة[1]، ومـا رسـا ثبـير وحـراء مكـانهما، وعـلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر. ثم مشـوا إلى العـاص بـن وائـل، فـانتزعوا منـه سـلعة الزبيـدي، فدفعوها إليه [رواه ابن سعد].

ومن أبرز الحكم والعبر من خبر شهوده حلف الفضول:

١- إذا كان بعض أهل الجاهلية يرفضون الظلم بدوافع فطرية أو انسانية فـأولى بأهـل الإسلام رفضه بدوافع عقدية، لأن الإسلام، جـاء حاثًـا عـلى عـدم الظلـم ومتمشـيًا مـع الفطرة ومقومًا لها من أي انحراف.

ولا غرابة أن يؤكد الرسول ﷺ على أهمية ذلك الحلف لأن مضمونه هو مضـمون مـا دعا إليه الإسلام في أمر إحقاق الحق وإبطال الظلم.

٢- إن الدور الذي قام به الزبير في هذا الحلـف لـدليل عـلى مـروءة رجـال البيـت الهاشمي، وبيان فضلهم على غيرهم في مثل هذه المواطن، وحسـبهم فضـلًا وشرفًـا أن الرسول ﷺ كان منهم.

---

(١) يعني إلى الأبد، أي: ما قام في البحر ماء ولو قطرة.



أ- زواجه من خديجة

روى ابن إسحاق أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصي بن كلاب كانت امرأة حازمة شريفة لبيبة، من أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا، وكان رجال قومها يحرصون على الزواج منها. وكانت تستأجر الرجال من مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى مَيْسَرَة. ومن خلال معاشرة ميسرة للرسول ﷺ رأى من الآيات والمعجزات ما حكاه لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.

ومن تلك الآيات أن الرسول ﷺ عندما قدم بُصرى من أرض الشام، نزل في ظل شجرة، فقال نسطورًا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: (أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء).

وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه إذا اشتدت الهاجرة. وتقول الرواية إن خديجة رأت ذلك عندما دخل محمد ﷺ مكة في ساعة الظهيرة. وفي القصة أنه وقع بين الرسول ﷺ ورجل تلاح في البيع، فقال الرجل للنبي ﷺ: احلِف باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «**ما حلفت بهما قط، وإني لأَمُرُّ فأعرض عنهما**».

وقال لميسرة: (هذا والله نبي تجده أخبارنا منعوتًا في كتبهم). وفي القصة أيضًا أن تجارة الرسول ﷺ ربحت ضعف ما كانوا يربحون، وأضعفت خديجة للنبي ﷺ ضعف ما سمَّت له من قبل، وهو أصلًا ضعف ما كانت تعطي لغيره من قريش.

وذكرت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل قول الراهب نسطورًا الذي سمعه منه ميسرة، وهو: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وما كان يرى ميسرة من إظلال

الملكين له، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقًا يا خديجة، إن محمدًا لنبـي هـذه الأمـة، وقـد عرفت إنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه» [رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن].

كان هذا الذي سمعته خديجة من ميسرة وورقة تأكيدًا لما كانت تعرفـه مـن أخلاقـه وعلو شأنه، لذا رغبت في الزواج منه، فأرسلت صديقتها نفيسة بنت منية تعرض عليـه ذلك، فوافق ﷺ على ذلك، فتم الزواج [رواه المحاملي كما ذكر الذهبي في السيرة].

وقد أخرج البزار والطبراني عن جابر، بسند حسن، أن أختًا لخديجة اسـتكرت رسـول الله ﷺ وشريكًـا لـه. فلـما قضـيا السـفر بقـي لهـما عليهـا شيء، فجعـل شريكـه يـأتيهم ويتقاضاهم، وعندما يطلب من محمد ﷺ أن يفعل مثله يعتذر بحجة أنه يستحي من ذلك. فذكرت ذلك لخديجة فأعجبت به وطلبت منه أن يخطبها إلى أبيها، فقال: «أبوك رجل كثـير المال وهو لا يفعل. قالت: انطلق فالقه وكلمه، ثم أنا أكفيك، وائت عند سكره».

روى ابن إسحاق في السير والمغازي، أن خديجة تزوجت قبل الرسـول ﷺ، عتيـق ابن عائذ المخزومي فولدت له امرأة، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن النبـاش التميمـي، وولدت منه ابنها هندًا وامرأة، ومات أبـو هالـة في الجاهليـة. [قالـه ابـن حجـر في الفـتح. وعند ابن سعد: ابن عابد].

وذكر ابن سعد أن أول من تزوجها هو أبو هالة، واسمه هند بن النباش بـن زرارة، فولدت له رجلًا يقال له هند ثم خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية يقال لها هند، فتزوجها صيفي بن أمية بن عابـد بـن عبـد الله. قلـت: ولمحمد بن صيفي ترجمة في الإصـابة والاسـتيعاب. أمـا الرسـول ﷺ فكـان أول مـن تزوجها هي خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، [كما في صحيح مسلم].

وكان ذلك سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، منهم ابن إسحاق.

واختلف العلماء في الذي تولى أمر زواجها. فقد ذكر البيهقي أن الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران، وفي نهاية الخبر يقول الراوي - المؤملي - عمر ابن أبي بكر: «والمجتمع أن عمها عمرو بن أسد الذي زوَّجها». وقد ضعف الهيثمي هذا الخبر لأن فيه عمر بن أبي بكر - المؤملي - وهو متروك. وذكر ابن إسحاق أن الذي زوَّجها هو أبوها خويلد، وقال السهيلي وابن كثير والشامي: إن ابن إسحاق ذكر في السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها، ولكن لم نجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق. وذكر الواقدي أن عمها عمرو بن أسد هو الذي ولي نكاحها، وخطأ من قال بغير هذا، لأن والدها - كما ذكر - مات قبل حرب الفجار، ووافقه على هذا السهيلي، وابن سيد الناس وابن عبد البر، والشامي.

قال طرهوني أنه إذا ثبت هلاك والدها قبل الفجار فيلزم أن يكون الذي تولى نكاحها هو عمها. والظاهر أن أحاديث ولاية أبيها لنكاحها أقوى، لأنها جاءت من عدة طرق تعتضد لترتقي إلى درجة الحسن لغيره، وعلى أقل تقدير تدل على أن للقصة أصلًا، والله أعلم.

وكان الذي ذهب مع الرسول ﷺ لخطبة خديجة، عمه حمزة. لقد كان لخديجة رضي الله عنها مكانة عظيمة عند الرسول ﷺ. ورويت في الصحيحين وغيرهما عدة أحاديث في مناقبها الكثيرة. ولا غرابة في ذلك، فهي ذات الخصال الحميدة التي ذكرنا طرفًا منها. وفوق ذلك فهي التي عرفت بين قومها بـ(الطاهرة العفيفة)، كما ذكر ابن عساكر [في تاريخه]. وهي التي رزق منها الرسول ﷺ جميع أبنائه ما عدا إبراهيم، فهو من مارية القبطية، كما ذكر ابن إسحاق وغيره. والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم - وبه كان يكنى - ومات صغيرًا قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم،

ثم فاطمة – وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة – ثم ولده عبد الله، الذي ولـد بعـد المبعث، وكان يقال له الطاهر والطيب، كما ذكر ابن عساكر ويقال هما أخوان له. ومات الأبناء الذكور صغارًا باتفاق. أما البنات فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام، وهـاجرن معه ﷺ، كما روى البيهقي [في الدلائل وابن كثير].

وماتت خديجة عن خمس وستين سنة كما روى الواقدي، كـما هـو المشـهور. وكـان عمرها عندما تزوجها الرسول ﷺ أربعين سنة، كما هو المشهور [الواقدي].

ب- حكم وفوائد من هذا المقطع:

١ – إن في إظلال الملكين له وشهادة الراهب له بالنبوة دليلًا على النبوة.

٢ – إن في رغبة خديجة الزواج منه دليلًا عـلى مـا كـان يتميـز بـه الرسـول ﷺ مـن أخلاق عالية.

٣- إن الأحاديث الصحيحة الـواردة في فضـل خديجـة دليـل عـلى شرفهـا وعلـو مكانتها عند الله تعالى ورسوله ﷺ والناس.

٤ – لا غضاضة في أن تبدي المرأة الصالحة رغبة الـزواج مـن الرجـل الصـالح كـما فعلت خديجة رضي الله عنها عندما خطبت محمدًا إلى نفسها، رغبة فيه لصلاحه.

٥ – إن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسـباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هـي أقل منه سنًا أو بمن ليست أكبر منه سنًا على أقل تقدير، أو بمن ليست ثيبًا. ويتجلى لنـا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها حتى إنها كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة. ولقد ظـل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا. وقد ناهز هو الخمسين من العمر، وفي تلك الفترة – من فترة الشباب إلى الخمسين – تكون رغبة الرجال في النساء

والميل إلى التعدد لدوافع الشهوة. ولكن الرسول ﷺ لم يفكر في ذلك، ولو شاء لوجد الكثير من النساء الراغبات أو الإماء، دون أن يخرج عن مألوف قومه.

٦- إن في التقاء العفيفة الطاهرة بالصادق الأمين، وإنجاب الذرية الصالحة من هذا الزواج، لمكرمة أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بها، ليظل في مكانة اجتماعية مرموقة لا مطعن فيها.

المبحث الثاني عشر: مشاركته في بناء الكعبة

أ- مشاركته في بناء الكعبة ووضعه الحجر الأسود في مكانه:

روى البيهقي [في الدلائل والحاكم والطبري في التفسير، بسند صحيح]: «أن الله أوحى إلى إبراهيم ﷺ أن ابن لي بيتًا في الأرض، فضاق به ذَرْعًا، فأرسل الله ﷻ إليه السَّكِينَة، وهي ريح [شديدة خَجُوج] لها رأس، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان يبني سَاقًا كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجرًا، فالتمس حجرًا حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل ﷺ من السماء فأتمه».

وروى البيهقي [في الدلائل والحاكم، بسند صحيح] من طريق آخر بمعناه، وزاد فيه، أنه عندما انهدم بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. وروى عبد الرزاق والذهبي بسند صحيح أنه عندما أرادوا هدمه إذ هم بحية على سور البيت فروعتهم، فلم يقدروا على هدمه. فاجتمعت قريش عند البيت، وتضرعوا إلى الله ليزيل عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائرًا فغرز مخالبه في قَفَا الحية، ثم انطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد، فتمكنت قريش من هدم الكعبة لإعادة البناء. وروى الحاكم بسند صحيح أنه عندما

أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه، اختصموا فيه. فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السِّكَّة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مِرْط، ثم ترفعه جميع القبائل.

وروى الإمام أحمد [في المسند بسند حسن]، وأهل السير أن قريشًا عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب.

ولولا حكمة الله عز وجل وهداية رسوله ﷺ إلى هذا الحل، لسفكت الدماء؛ فقد روى ابن إسحاق أن الخلاف في وضع الحجر الأسود قد وصل إلى أن قرَّبت بنو عبد الدار جَفْنَة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ.

وروى عبد الرزاق بسند صحيح، أنه عندما أكملوا البناء ساق الله إليهم سفينة من أرض الروم، فانكسرت قريبًا من جدة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميًا نجارًا عندها، فأخذوا الخشب بإذنه، وقدموا بالخشب والنجار الرومي، ليبني لهم به عرش الكعبة.

وقد جزم عبد الرزاق - وسنده صحيح - وابن إسحاق، أن عمر النبي ﷺ إذ ذاك كان خمسة وثلاثين عامًا، وهو المشهور.

ب- حكم وعبر من هذا المقطع:

١- إن قبول قريش تحكيم الرسول ﷺ في أمر وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام، ووصفهم له بالأمين، دليل على تربية الله ﷻ لنبيه صلى الله عليه على مكارم الأخلاق التي كان من بينها الصدق والأمانة.

٢- إن الاقتراح الذي توصل إليه الرسول ﷺ لحل هذه الأزمة كان بتوفيق من الله تعالى ليلفت أنظار الناس إلى ما سيختاره له الله من القيام بأمر أكبر من هذا لتوحيد الناس... وهو الإسلام.

٣- جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعًا شاملًا مغطيًا شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، وأن يسهم عاملًا في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعًا شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقًا أو يقيم عدلًا... وكان إسهامه في بناء الكعبة، وحل مشكلة وضع الحجر الأسود التي كادت تؤدي إلى فتنة، اثنين من بين عدة أنشطة متنوعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث [انظر: د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٤٨-٤٩].

المبحث الثالث عشر: من إرهاصات النبوة:

أ- من إرهاصات النبوة عند أهل الكتاب وكهان العرب عندما قارب زمن بعثة الرسول ﷺ:

عقد ابن إسحاق [في السيرة] فصلًا عن أخبار الكهان من العرب والأحبار من اليهود والرهبان من النصارى بقرب مبعث النبي ﷺ.

ومما روي في أمر كهان العرب بطرق صحيحة حديث ابن عباس - عند مسلم - في رمي الجن بالنجوم قطعًا لمصدر كهانة العرب في الجاهلية. وخبر سَوَاد بن قَارِب

الأزدي السدوسي الكاهن مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما روى البخاري وابن إسحاق، حيث كان سواد يقول: «إن الشياطين قد سكتت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي ﷺ»، وكان سبب إسلامه هو ما رواه من إرهاصات عن طريق ممارسته الكهانة والاستعانة بالجن في ذلك، كما جاء ذلك في خبره.

وفي القصة [عند أحمد في المسند والبيهقي في الدلائل]، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحدث الناس: «والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذَبَحَ له رجل من العرب عجلًا، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سَمِعْتُ من جوف العجل صوتًا ما سمعت صوتًا قَطُّ أَنْفَذَ مِنه، وذلك قُبَيلَ الإسلام بشهر أو شَيْعِهِ، يقول: يا ذُرَيْحُ، أَمْرُ بُجَيح، رجل يَصِيْحُ، يقول: لا إله إلا الله».

روى ابن إسحاق بسند حسن، في إخبار يهود برسول الله ﷺ أن يهوديًا كان من جيران بني عبد الأشهل، حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده جهة مكة واليمن.

وروى ابن إسحاق أن من أسباب إسلام ثَعْلَبَة بن سَعْيَة وأُسَيْد بن سَعْية وأسد ابن عُبَيْد من يهود بني هدل، إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له ابن الهَيَّبَان، قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين. قال لهم إن سبب قدومه المدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه وألا يسبقهم إليه أحد، وذكر لهم بعض صفاته. فعندما تأكدوا منها يوم حصار قريظة أسلموا.

وفي قصة سلمان الفارسي [عند البخاري وابن إسحاق]، وخروجه من بلاده بحثًا عن الدين الحق وتقلبه في الرق إلى أن جاء إلى المدينة، وقصة ورقة بن نوفل - عند البخاري

وأحمد في المسند والحاكم - وزيد بن عمرو بن نفيل وخروجهما من مكة بحثًا عن الدين الحق حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، قال الراهب لزيد: (إن الـذي تلـتمس يوشـك أن يظهر في أرضهما). في هذه القصـص وغيرهـا دليـل عـلى مـا كـان سـائدًا عـن اليهـود والنصارى في ذلك الوقت، من اعتقاد بقرب ظهور النبي ﷺ. وللصفات التي عرفـت من الأحبار والرهبان عن الرسول ﷺ أسلم سلمان الفارسي.

وجاء في صـحيح الأخبـار [مثـل الـذهبي في السـيرة وابـن حبـان في الصـحيح والطـبراني والحاكم] أن الله تعالى لما أراد هدي زيد بن سعنة - الحبر اليهودي - قال: «إنه لم يبق مـن علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتـين لم أخبرهمـا منه: يسبق حلمه جهلة، ولا يزيده شدة الجهـل عليـه إلا حلـمًا»، فخـالط الرسـول ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين.[يأتي تفصيل هذا الخبر في فصل الشمائل]

وجاء في الأخبار [كما عند ابن سعد وأبي نعيم في الدلائل، بسند مقبـول عنـد ابـن حجـر] أن سبب إسلام عامر بن ربيعة العدوي هو ما كان يقوله زيد بن عمرو بـن نفيـل مـن أنـه ينتظر نبيًا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب اسمه أحمد، ولا يرى أن يدركـه، وكـان ينعته للناس، لما عرفه عنه من أهل الكتاب.

وروى أبو نعيم [في دلائله، بإسناد حسن] أن قـس بـن سـاعدة الإيـادي كـان يقـول: «أقسمَ قس قسمًا برًا لا إثم فيه، ما لله على الأرض دين هو أحب إليه مـن ديـن أظلكـم إبّانه وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتَّبعه، وويل لمن أدركه ففارقه...».

وقال المفسرون - مثل الطبري - وأهل السير - مثل ابن إسحاق - إن الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا

جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة:٨٩] نزلت في اليهود الذين كانوا في صراع مع الأوس والخزرج. وإذا نال الأوس والخزرج منهم قالوا لهم إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما ظهر اتبعه الأوس والخزرج وكفرت به اليهود.

وقصة هرقل مع أبي سفيان [في الصحيحين] تدل على ذلك، خاصة قول هرقل لأبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين».

وجاءت الأحاديث النبوية مصرحة بأن محمدًا ﷺ قد كتب نبيًا منذ القدم. فقد روى الإمام أحمد [في مسنده بسند صحيح]، والترمذي [في سننه بسند صحيح]، قول الرسول ﷺ: إنه كان نبيًا «**وآدم بين الروح والجسد**». وعند أحمد من حديث العرباض بن سارية: «**وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته**». وعند أبي نعيم [في الدلائل]، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث**».

ب- بعض الحكم والعبر:

١- وخلاصة القول إن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون الرسول ﷺ قبل مبعثه مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات. [مثل الآية ١٤٦] من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[البقرة:١٤٦]، ولذلك أسلم بعض اليهود وفي مقدمتهم عبد الله بن سلام وبعض النصارى وفي مقدمتهم النجاشي ملك الحبشة. وإن ممن امتنع عن الدخول في الإسلام لأسباب مادية أو سياسية كما هو الحال في قصة حيي بن أخطب وهرقل ومقوقس مصر.

٢- ويضاف إلى هذا ما سبق أن قلناه عند الكلام عن رحلته ﷺ إلى الشام والحكم المستفادة من ذلك.

المبحث الرابع عشر: التحنث في غار حراء

كان رسول الله ﷺ ينفرد إلى نفسه متقربًا إلى الله عز وجل في غار معروف بغار حراء. وقد حبب الله إليه ذلك، لم يأمره بذلك أحد. فكان يبقى في هذا الغار الأيام والليالي إلى أن أتاه الوحي فيه [كما في البخاري]، وكانت سنه آنذاك أربعين سنة.

وكان يمكث في حراء شهرًا من كل سنة، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية، كما ذكر ابن إسحاق، ويطعم من جاءه من المساكين. وإذا قضى جواره من شهره هذا، كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة، وكان ذلك الشهر رمضان.

وقد اختلف العلماء في تعبده ﷺ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل شرع نوح، وقيل شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسبتها مواضع أخرى، مثل كتاب البداية. وذكر ابن حجر - في الفتح - عن بعض المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكر.

وذكر قول ابن أبي جمرة - في بهجة النفوس - أن الحكمة في تخصيصه بالتخلي في حراء أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت الحرام.

ولم تنازع قريش النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره، لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله. [الفتح].

المبحث الخامس عشر: الإرهاصات قبيل البعثة

أ- من إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيًا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء...» [متفق عليه].

وروى مسلم والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن**».

وروى ابن عساكر أن ملكين أتياه وهو ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما للآخر: «زنه برجل، فوزنه، فرجح به محمد ﷺ إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، ثم قال له: لو وزنته بأمته لرجحها. ثم قال أحدهما للآخر: شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فَعْمَ - حظ - الشيطان، وعَلَقَ الدم، فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبه، ثم قال أحدهما للآخر: خط بطنه، ففعل، وجعلا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأنما يعاين الأمر معاينة».

وروى البيهقي [في دلائله]، أنه خرج من عند خديجة، ثم عاد فأخبرها أنه رأى بطنه قد شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان، فقالت: «هذا والله خير فأبشر».

وقال النبي ﷺ لخديجة [كما روى أحمد في مسنده بسند حسن]: «**إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا وإني أخشى أن يكون بي جنن**». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله»؛ ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له، فقال: «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به».

ب- العبر والعظات:

١- إن الآيات والمعجزات التي وقعت للرسول ﷺ من قبيل الإرهاصات الدالة عـلى تميزه عن غيره من الحنيفيين الذين عاصروه، وأن الله ﷻ سيختاره هو بالذات لأمر عظيم.

٢- تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعـين جـزءًا مـن النبـوة، إذ إن فـترة الوحي كانت ثلاثًا وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت منامًا.

٣- استحباب العزلة لفترات تعين المسلم على التفكير في أحوال المجتمع إذا سادت فيه الجاهلية والفساد. أما الاعتزال الدائم للمجتمع والذي ابتدعته جماعة من الجماعات الدينية في زماننا هذا فهو مخالف لسنته ﷺ العملية والقولية. فلم يعـرف عـن الرسـول ﷺ أنه اعتزل المجتمع، وقال في نبذ مثل هذه الاتجاهات:

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخـالطهم ولا يصبر على أذاهم» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

«المؤمن يألف ويُؤلَف، ولا خير فيمن لا يـألف ولا يؤلـف، وخـير النـاس أنفعهـم للناس» [الدارقطني، بسند صحيح].

المبحث السادس عشر: الوحي

أ- نزول الوحي:

روى الشيخان أن أمين الوحي فجأ الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحـادي والعشرين من شهر رمضان، من العام الأربعـين لمـيلاده ﷺ، بيـنما كـان يتحنَّـث بغـار حراء. وقال له: اقرأ، قال في الحديث: «**فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتـى بلـغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلـغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطنـي الثالثـة حتـى**

بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق:١] **حتى بلـغ إلى قولـه: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾** [العلق:٥]». قالت عائشـة رضي الله عنها - راويـة الحـديث -: «**فرجـع بهـا تَرْجُـفُ بَوَادِرُهُ حتى دخل على خديجة، فقال زَمِّلُوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الـرَّوْعُ، فقـال: يـا خديجة، ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت لـه: كـلا، فـوالله لا يُخْزِيْكَ الله، إنك لَتِصِلُ الرَّحِمَ وتَصْدُقُ الحَـديثَ وتَحْمِـلُ الكَـلَّ** [الـذي لا يستقل بـأمره] **وَتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضَّيْفَ وتُعِيْنُ على نَوَائِبِ الحَقِّ، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، وكان امرأًتنصَّر في الجاهلية، وكان يكتـب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ. فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتنـي فيهـا جَـذَعًا أكـون حيًّـا حـين يخرجـك قومك، قال: أو مخرجِيّ هم؟ قال: نعم لم يأتِ أحد بما جئت به إلا عُـوْدِيَ أو أوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي**».

أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسـن] عـن كيفيـة بـدء الـوحي، والذي قال فيه: «**فجاءني جبريل وأنا نائم بِنَمَطٍ من دِيْبَاج فيه كتـاب، فقـال: اقـرأ...**» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي كان في حالة اليقظة، وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نـزول الـوحي، ولـذا قال السهيلي: (وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنـام قبـل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيرًا عليـه ورفقًـا بـه، لأن أمـر النبـوة عظـيم، وعبؤهـا ثقيل، والبشر ضعيف).

وقال ابن كثير [في البداية] بما قاله السهيلي، ثم زاد: (... وقد جـاء مصـرحًا بهـذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، إنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة»،

وقال في مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كـان بعـدما رآه في اليقظـة صـبيحة ليلتئـذ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم).

ب- العبر والعظات والدلائل:

١- دل تصرف خديجة إزاء مـا وقـع للرسـول ﷺ في الغـار عـلى رجاحـة عقلهـا، وحسن تصرفها، وفضلها، وسلامة فطرتها.

٢- دل تحليل ورقة لظاهرة ما حدث للرسول ﷺ في الغار على صحة علمه وفضله.

٣- يتبين من رؤية الرسول ﷺ جبريل بعينية، يقظة، أن ظاهرة الوحي ليست أمـرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد أو ما شابه ذلك من الـتمحلات، وإنـما هـي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه ثـم إرساله ثلاث مرات، قائلًا في كل مرة: «اقرأ...» يعتـبر تأكيـدًا لهـذا التلقـي الخـارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالًا داخليًا فقط.

٤- أ- يدل خوفه مما حدث له مع جبريل على أنه ﷺ لم يكن متوقعًا الرسـالة التـي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم. وبذلك يتضح لكل عاقل مفكر أن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أن يخطر في باله، وإنما طرأت طروءًا على حياته وفوجئ بها دون أي توقع سابق. ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التـدريجي المسـتمر - عقيـدة يـؤمن بالدعوة إليها!، كما يدعي بعض المستشرقين مثل كارادوفو الفرنسي.

ب- الله عز وجل قادر على أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمـئن نفسـه بـأن الـذي كلمـه لـيس إلا جبريـل - ملـك مـن ملائكـة الله عز وجل جـاء ليخـبره أنـه رسـول الله إلى الناس - ولكن الحكمـة الإلهيـة البـاهرة تريـد إظهـار الانفصـال التـام بـين شخصـية

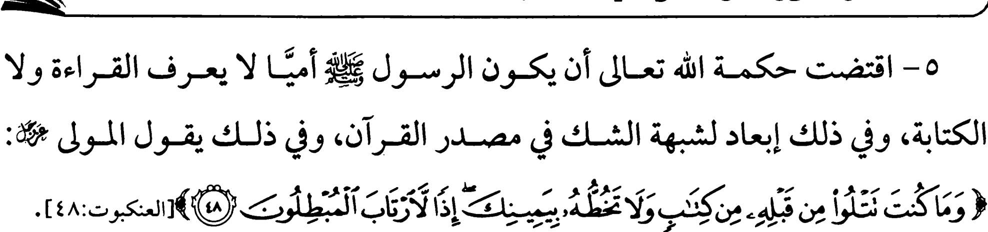
محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئًا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يكن في ذهن الرسول ﷺ مسبقًا ولم يتصور الدعوة إليه سلفًا.

جـ- إن فيما ألهم الله ﷻ به خديجة من الذهاب به ﷺ إلى ورقة، تأكيدًا من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به ﷺ إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه [البوطي].

د- لو كان الوحي أمرًا ذاتيًا لما جاءت آيات في القرآن تعتب عليه أو تلومه لبعض التصرفات. مثل: عتابه له حين أعرض عن صاحبه عبد الله بن أم مكتوم، حين حضر إليه ليعلمه مما علمه الله، وفي حضرته بعض كبار كفار قريش. وسميت سورة في القرآن بمضمون هذا الموقف. وهي سورة (عبس)، وعتابه له في أسرى بدر كما سيأتي ذكره، وفي زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها كما سيأتي ذكره، وعتابه له حين أذن لمن طلب منه التخلف عن غزوة تبوك: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[التوبة:٤٣]، وعتابه حين أراد أن يعطي كفار قريش ما أرادوا، حين طلبوا عدم الجلوس مع الموالي، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام:٥٢].

هـ- لو كان الوحي أمرًا ذاتيًا لما خاطب الله تعالى نبيه بقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾[يونس:٩٤]

و- لو كان الوحي أمرًا ذاتيًا لما كان الرسول ﷺ يسكت عن إجابات السائلين لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر، ولما عانى من نتائج بعض الأحداث، مثل حادث الإفك الذي استمرت محنته لشهر... إلخ.



٥- اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول ﷺ أميًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي ذلك إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن، وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[العنكبوت:٤٨].

المبحث السابع عشر: انقطاع الوحي

أ- فترة انقطاع الوحي ثم تتابعه:

انقطع جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ بعد هذا فترة من الزمان، اختلف العلماء في مدتها. قال البوطي: (والراجح ما رواه البيهقي من أنها كانت ستة أشهر). وقيل إن الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يومًا، وقيل إنها كانت أيامًا. وجزع الرسول ﷺ من هذا الانقطاع. [ولم يذكر البوطي مكان الشاهد من مؤلفي البيهقي: الدلائل والسنن الكبرى، أو غيرهما. والذي وقفنا عليه في السنن الكبرى (٩/ ٦) أن الوحي انقطع، ولم يذكر أنها ستة أشهر.]

بعد فترة الفتور أو الانقطاع المذكورة، نزل عليه الوحي مرة أخرى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله** عز وجل: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾** [المدثر:١-٥]، **فحمي الوحي وتواتر**» [متفق عليه].

ب- الحكمة من هذا الانقطاع:

١- ليحصل للرسول ﷺ التشوق إلى العود بعد أن تثبت لديه الحقيقة أنه أضحى نبيًا [ابن حجر: الفتح].

٢- إن في انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيدًا للحقيقة التي ذكرناها، وهي أن الوحي ظاهرة منفصلة عن ذات الرسول ﷺ.

المبحث الثامن عشر: مراتب الوحي

قال ابن القيم في زاد المعاد: إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة:

أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: **«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...»** [متفق عليه].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في رُوعي إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب،... الحديث»** [الحاكم وغيره، صحيح بشواهده].

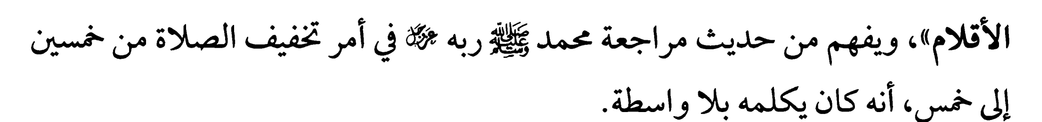
الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا [مسلم].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض... [متفق عليه].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم [مسلم].

السادسة: ما أوحاه الله ﷻ وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله عز وجل إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤] وثبوتها لنبينا ﷺ وهو في حديث الإسراء والمعراج، [من رواية مسلم]، الذي فيه قول الرسول ﷺ: **«.... ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف**



الأقلام»، ويفهم من حديث مراجعة محمد ﷺ ربه ﷻ في أمر تخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس، أنه كان يكلمه بلا واسطة.

المبحث التاسع عشر: مراتب الدعوة ومراحلها

أ- مراتب الدعوة:

ذكر لها ابن القيم [في زاد المعاد] خمس مراتب:

الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بَلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

ب- مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا، واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: الدعوة جهرًا والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرًا مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهرًا، مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة [البوطي والمباركفوري].

وقفة عند فقه هذه المراحل:

ربما يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل يجب على دعاة قيام الدولة الإسلامية - خاصة في العصر الحديث - التقيد بهذه المراحل بمداها الزمني كما وقعت للرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا السؤال، وهو أنه ليس عليهم التقيد بهذه المراحل ولا بالمدى الزمني الذي مرت به في حياة الرسول ﷺ. وذلك لأن المدى الزمني لتلك المراحل تقدير رباني وليس جهدًا بشريًا فقط. فالتقيد بهذه المراحل لا يتمشى مع مرونة الإسلام في معالجة الأمور ومواجهة الأحداث. والسيرة النبوية التي تمثل حركة

الإسلام تفتح أمام الدعاة نماذج للخيارات المتعددة التي يقدمها المنهج الإسلامي بحركته الفذة الفريدة... وما السرية، أو طلب النصرة، أو الهجرة إلا وسائل اتخذها رسول الله ﷺ لنشر دعوته، ضمن ظروف ومواصفات معينة...

فمثلًا نجد في زماننا هذا أن الدول الغربية الديمقراطية لا تحجر أي نشاط لرجال الأديان المختلفة، فلا ضرورة هنا للتقيد بمرحلة السرية في الدعوة. بينما نجد الدول الشيوعية لا تسمح للمسلم بممارسة أي نشاط دعوي أو سياسي، فيضطر أن يستخفي بدينه حتى يتمكن، وهنا تصبح السرية ضرورة اقتضتها ظروف معينة. وإذا اقتضت حكمة الدعوة أن يكون هناك عمل سريّ وآخر علنيٍّ فلا بأس، وذلك في مثل البلاد التي تسمح بنشاط المسلمين في حدود ضيقة جدًا.

وخلاصة القول: إن السرية تقدر بقدرها، حسب ظروف البيئة التي يعيشها المسلم [زهير سالم: عثرات وسقطات].

المبحث العشرون: بداية الدعوة

أ- المرحلة الأولى: الدعوة السرية:

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾[المدثر:١-٧].

لقد لخصت هذه الآيات الكريمات مضمون الدعوة التي أنيط به تبليغها إلى الناس. ولا تكاد الآيات القرآنية التي نزلت في مكة تخرج عن إطارها العام.

ففي قوله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾، إشارة إلى أن زمان التدثر والخلود إلى الراحة في المضجع بين الزوجة والأبناء قد ولى، وجاء زمان المجاهدة بكل أبعادها، المادية والمعنوية.

وفي قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، إشارة إلى تكليفه بأمر دعوة كل الناس إلى الإسلام. وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، إشارة إلى أن ليس في الوجود أكبر من الله تعالى خالق الوجود. ولذا عليه أن يُعلم الناس بهذه الحقيقة ليتواضع الناس كلهم لله الكبير المتعال. وهذا هو التوحيد المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، إشارة إلى أن الداعية إلى الله ﷻ لابد أن يبدأ بتطهير نفسه ظاهرًا وباطنًا حتى يكون المثل الأعلى لمن يدعوهم إلى الطهارة بكل معانيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾، إشارة إلى أن التوحيد الخالص يقتضي عدم تعظيم أو تقديس أي شيء سوى الله تعالى الخالق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾، إشارة إلى أن ما خص به من منع إعطاء الشيء ابتغاء شيء أكثر منه هو أنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب ليكون مثلًا أعلى للبشرية وهو يدعوها إلى مكارم الأخلاق.

وللقيام بهذه الأمور كان لابد من ختمها بحقيقة هامة للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذه الأوامر، هذه الحقيقة هي أن تَحَمُّلَ أمانة الدعوة في عناصرها المذكورة لابد له من الصبر على كل أصناف أذى المعارضين، والصبر على تربية الأتباع، والصبر على الإبتلاء، فال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.

نهض الرسول ﷺ من فراشه وأخذ يدعو إلى ما أمر به سرًا لمدة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق، ولفظه: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه». ومما يدل على السرية في الدعوة ما جاء في خبر إسلام عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه عند مسلم، حيث قال:

«أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعـث وهـو بمكـة وهـو حينئـذٍ مُسْـتَخفٍ...». وبـدأ بالدعوة إلى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك.

وكان تحركه في هذه الفترة [كما روى ابن هشام] وسط الذين تربطهم به صلات، مثـل زوجته وبناته ومولاه زيد بن حارثة وربيبـه عـلي بـن أبي طالـب وأصـدقائه وكـل مـن يطمئن إلى أنه يكتم السر. **ولهذا يلحظ أن من أوائل الذين دخلوا في الإسلام:**

١- **زوجته خديجة** ﵂ التي كانت أول من آمن بالله وبرسوله - كما هو مشهور - وهوَّنت عليه أمر الناس، وكانت بذلك أول مَنْ أُمِر الرسول ﷺ بتبشـيره بالجنـة، قـال رسول الله ﷺ [في الحديث المتفق عليه]: «**أمرت أن أبشـــر خديجـة ببيـت مـن قصـب، لا صخب فيه ولا نصب**». وقد جاءت الأحاديث الصحيحة كثيرة في فضائلها وأخبارها.

٢- **ابن عمه علي بن أبي طالب** الذي كان في حجره، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين على أصح الأقوال [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

٣- **مولاه زيد بن حارثة**، الذي قال له الرسول ﷺ عندما جـاء أبـوه يطلبـه [كـما في صحيح الترمـذي]: «**إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقـال: بـل أقـيم عندك**»، فأقام عنده وحرره وتبناه، وعرف بـ(زيد بن محمد) حتى نزلت آيـة: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب:٥]، وبذلك أبطلت عادة التبني.

٤- **أبو بكر الصديق** ﵁، وهو أول من صدق وأسـلم مـن الرجـال، وفيـه قـال الرسول ﷺ لعمر [مـن روايـة البخـاري]: «**إن الله بعثـني إلـيكم فقلـتم: كـذبت، وقـال أبـو بكـر: صـدق...**». وقـال [مـن روايـة ابـن إسـحاق في السـير والمغـازي بسـند منقطـع]: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبـا بكـر، مـا عَـتَمَ حين ذكرته وما تردد فيه**». وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسـلمين: «**أَلَسْـتُ أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟...**» [صحيح الترمذي].

وفي إطار هذه السرية تحرك أبو بكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه. فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف -[ابن إسحاق]-، وعثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنهم أجمعين. [ابن كثير: البداية].

ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة.

وممن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالي: بلال بن رباح وصهيب ابن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سمية بنت خباط [أحمد: فضائل الصحابة بسند حسن] [والخطأ المشهور (خياط)].

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفرًا، كما عدهم ابن هشام، وأكثر من خمسين كما عدهم اليعمري - ابن سيد الناس.

٥- وثبت، من رواية أحمد [في المستند بسند حسن؛ وابن سعد (٣/ ٢٣٣)، مرسلًا صحيحًا]، أن ورقة بن نوفل كان من المسلمين الأوائل، وذلك بدليل قول الرسول ﷺ: **«لقد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض»**. وقال ﷺ في رواية أخرى [عند أبي يعلى، بسند حسن]: **«قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة، وعليه السندس»**، وقال ﷺ [من رواية البزار بسند جيد، والحاكم بسند صحيح]: **«لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»**، وقال: **«يبعث يوم القيامة أمة وحدة»** [الطبراني، برجال الصحيح].

ويتضح من سجل أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام أنهم كانوا من خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يذكر بعض الكتاب المسلمين وغيرهم أنهم كانوا في

معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو كرامتهم.

والقول السديد في هذا هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنتهم على ملأ من الناس، ولذا انتشر أمرهم، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته.

ولذا لم ينتشر أمرهم، ولم يذكروا كثيرًا [الشامي: المعين].

وفي هذه المعاني رويت عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد [في الفضائل بسند حسن] عن ابن مسعود، قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...».

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] إن قريشًا عَدَتْ على من أسلم ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وذكر أن رجلًا من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد يستأذنونه في اتخاذ ما يرونه من وسائل لصده عن الدين هو ومن أسلم معه من فتية بني مخزوم، الذين كان منهم سلمة ابن هشام وعياش بن أبي ربيعة. فسمح لهم بما يريدون وحذرهم من قتله.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشًا منعت هشام بن العاص بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيدًا.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه وزوج اخته، ويكرهه ليرجع عن الإسلام. ولم يستطع الرسول ﷺ أن يفعل لهم شيئًا.

وحتى عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة لم يملك لهؤلاء غير الدعاء، حيث كان يقول: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف**» [متفق عليه؛ وأحمد في المسند].

وقد أوضح ابن حجر [في الفتح] معنى كلمتي (الضعفاء) و (الشرفاء) اللتين وردتا في حديث هرقل مع أبي سفيان. [يأتي ذكره]

فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغيًا وحسدًا، كأبي جهل وأتباعه. وفي معنى الثانية أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر. وهذا هو التفسير الذي ينبغي أن نفهم في ضوئه ما يرد من عبارات تتعلق بالشرفاء أو المستضعفين.

هذا ويلحظ أن من مجموع السبعة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم. فهم إذن الخمس من المجموع. وما كان كذلك لا يقال عنه (أكثرهم) ولا (معظمهم) ولا (عامتهم) [الشامي: من معين السيرة].

ب- العبر والعظات في هذا المقطع:

١- إن في إلهام الله تعالى لرسول الله ﷺ بأن يبدأ الدعوة سرًا، تعليمًا للدعاة في كل زمان ومكان، وإرشادًا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والحذر والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتكال على الله تعالى وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الاسباب مذهبًا يعطيها معنى

التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره. فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلًا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا [البوطي: فقه السيرة].

٢- أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا على حربهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة، وهي مصلحة حفظ الدين، موهومة أو منفية الوقوع، وهذا ما يقرره العز بن عبد السلام [في قواعد الأحكام]. ويقول الدكتور البوطي في تعليقه على هذا القول إنه من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى. وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضرارًا بالدين ذاته، وفسحًا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودًا أمامهم من السبل.

وهو بهذا يعني أن عدم القتال تقديم لمصلحة الدين المتيقنة على مصلحة الدين المرجوحة.

المبحث الحادي والعشرون: تطور الدعوة

أ- المرحلة الثانية: الجهر بالدعوة:

روى أحمد - في المسند، بسند حسن - عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشعراء: ٢١٤] قال: جمع النبي ﷺ أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: «**من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة**

ويكون خليفتي في أهلي؟»، فقال رجل: يـا رسـول الله، أنـت كنـت بحـرًا، مـن يقـوم بهذا؟... فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، بسند يتقوى بغيره]: أن الرسول ﷺ قال لهم في ذلك اللقاء: **«يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شـابًا مـن العـرب جـاء قومـه بأفضـل ممـا جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»**.

ثم خطا الرسول ﷺ خطوة أخرى لتنفيذ أمر الله تعالى. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال: «لمـا نزلـت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشعراء: ٢١٤]، ورهطـك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يـا صـباحاه، فقـالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سـفح هـذا الجبـل أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم». قال أبو لهب: تبًا لـك، مـا جمعتنـا إلا لهـذا؟ ثـم قـام، فنزلـت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وروى الشيخان عن أبي هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا. فاجتمعوا فعمَّ وخص، فقال: **«يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنـي عبـد شـمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هشـام!... يا بني عبد المطلب!... يا فاطمة!... فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غـير أن لكـم رَحِمًـا سَأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا»**. [أي: سأصلها، شبهت قطيعةُ الرحم بالحرارة، ووصـلها بإطفـاء الحـرارة بـبرودة الماء].

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية الـبلاغ. فقـد فاصـل الرسـول ﷺ قومـه عـلى دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهـذه الرسـالة هـو حيـاة الصـلة بينـه

وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هـذا الإنـذار الآتي من عند الله ﷻ [البوطي].

ب- دروس وعبر من هذا المقطع:

١- إن الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة والعرب القرشيين بصـفة عامة من الدعوة في هذه الفترة، فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمدًا ﷺ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمـال العرب ومطامحهم في ذلك الحين.

٢- إن في تباطؤ الناس عن الدخول في الإسلام، لـدليلًا عـلى مـدى قـوة وتغلغـل العادات والتقاليد في المجتمعات التـي تعـيش ردحًـا مـن الزمـان في الجاهليـة وفسـاد الفطرة. وهو وضـع يواجهـه الـدعاة في كثـير مـن المجتمعـات قـديمًا وحـديثًا، حتـى المجتمعات الإسلامية، عندما يخبو فيها صوت الدعوة المهتدية بسنة الرسـول ﷺ تجـد أثرًا كبيرًا للعادات والتقاليـد في تسـيير حركـة المجتمـع في المجـالات المختلفـة، وتجـد استنكارًا ممن وقعوا في أسر هـذه العـادات والتقاليـد، لصـوت العقـل المهتـدي بسـنة الرسول ﷺ والسلف الصالح، في فهم الإسلام.

٣- إن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة، إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عمومًا والدعاة منهم خصوصًا. فقد كـان الرسـول ﷺ يتحمـل المسـؤولية تجاه نفسه، بوصف كونه مكلفًا. ويتحملها تجاه أسرته وأهله، بوصـف كونـه رب أسرة وذا آصرة قربى، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيًا ورسـولًا من الله ﷻ.

ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى، كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، أو كـل فرد له عشيرة، وفي الثالثة العلماء والحكام [البوطي].

المبحث الثاني والعشرون: المشركون والدعوة

أ- أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية:

لم تـزل أصـداء تلـك الصـيحة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ مدويـة في جنبـات أم القرى، حتـى نـزل قولـه تعـالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[الحجر: ٩٤] فقـام الرسول ﷺ مشمرًا عن ساعد الجد، صادعًا بالحق، داعيًـا إلى هجـر الأوثـان، مسـفهًا عقول المؤمنين بها، مبينًا حقائق الإسلام، داحضًا الأباطيـل العقديـة التـي تعشـعش في عقول أهل الجاهلية.

عندما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدودًا كما كان الحال مع مـن دعـا إلى نبذ الأصنام قبل محمد ﷺ، أمثال زيد بن نفيل وورقة وابن صيفي، قامت في وجه محمد ﷺ ومن تبعه، وأخذت تمارس شتى أساليب ووسائل الترغيـب والترهيـب، لصـدهم عن هذا الطريق الذي هدد مصالحهم، التي يجنونها من وجود الحرم في أرضهم، وحـط مـن تكـبرهم عـلى غـيرهم، ووقـف أمـام شـهواتهم في السـيطرة واقـتراف السـيئات والموبقات. وقد كان أكثر هؤلاء من أصحاب النفوذ والمصالح.

ومن أبرز تلك الأساليب:

الأسلوب الأول: محاولة التأثير على عمه أبي طالب:

وهذا أول أسلوب لجأ إليه المشركون حتى يكفّ أبو طالب الرسول ﷺ عن الـدعوة أو تجريده من جواره - أي حمايته - فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكـه، فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا وردهم ردًا جميلًا فانصرفوا عنه [ابن إسحاق].

الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب:

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله ويدعو إليـه، غضـبت منـه قريش، وعادوه وحقدوا عليه وأكثروا من ذكره، وحض بعضهم بعضًا ومشوا إلى عمه مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلةً فينا،وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وأقسموا بأنهم لن يصبروا عـلى أفعالـه حتـى يكفـه عـنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، ولذا أبلـغ الرسول ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقي عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمـر مـا لا يطيق [ابن إسحاق].

وفي رواية ضعيفةلابن إسحاق:أن الرسول ﷺ ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته، ولذا قال له: «**يا عَمِّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري عـلى أن أتـرك هذا الأمر حتى يُظهِرُهُ الله أو أَهْلِكَ فيه، ما تَرَكْتُهُ**»، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولَّى ناداه عمه، فقال: «أقبل يا ابن أخي»، فلما أقبل قـال لـه: «اذهـب يـا ابـن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشيء أبـدًا». وفي روايـة أخـرى لابـن إسـحاق [بسند حسن] من حديث عقيل بن أبي طالب: أن أبا طالب أرسل عَقِـيْلًا إلى النبـي ﷺ، فلما حضر الرسول ﷺ قال له عمه: «إنَّ بنـي عمـك هـؤلاء قـد زعمـوا أن تـؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصـره إلى السـماء، فقـال: «**أَتَرَوْنَ هذه الشمس؟**» قالوا: نعم، قال: «**فما أنا بأقدر على أن أدع ذلـك مـنكم عـلى أن تستشعلوا منها شعلة**»، فقال أبو طالـب: والله مـا كَـذَبَنا ابـن أخي،فـارجعوا». وهـذه الرواية هي الصحيحة.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذين الأسلوبين، أن هذا الموقـف القـوي للرسـول ﷺ من قومه ينسجم مع ما أمر به من البلاغ. أما موقف أبي طالب فعجيـب حقًـا، ولم يجـد

ابن كثير [في البداية] تفسيرًا له سوى قوله: (إن الله تعالى قد امتحن قلبه بحب محمـد ﷺ حبًا طبيعيًا لا شرعيًا. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعـالى، وممـا صـنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولتجرؤوا عليه، ولمدوا أيـديهم وألسـنتهم بالسـوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وقد قسم خلقه أنواعًا وأجناسًا، فهذان العمان كافران: أبو طالب وأبو لهب. ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح من نار، [إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن العباس رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قـال: نعـم، هـو في ضحضاح من النـار، ولـولا أنـا لكـان في الـدرك الأسـفل مـن النـار». والتخفيـف عنـه بسـببه، والضحضاح: ما رق من الماء على جه الأرض، ما يبلغ الكعبين] وذلك أي أبـو لهـب في الـدرك الأسفل من النار، وأنزل الله عزوجل فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر وتقرأ في المواعظ والخطب تتضمن أنه سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب).

وظل أبو طالب طوال حياته ينهى الناس عن إيذاء الرسول ﷺ ويحميه وينأى عـن الدخول في الإسـلام. وقـد روي أن الآيـة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٦]، قـد نزلت فيه [تفسير الطبري وابن الجوزي].

الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه:

من تلك الاتهامات:

أ- اتهموه بالجنون. وفي ذلك نزل قـول الله تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾[الحجر: ٦]. وقـد أجـابهم الله في آيـة القلـم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢]. وحكى عنهم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾[القلم: ٥١].

ب- اتهموه بالسحر. وفي ذلك نزل قوله تعـالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾[ص:٤]، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾[الفرقان:٨].

وقد تَحيَّرَ الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقه من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بـأمر صـاحبكم هـذا، فـاجمعوا فيـه رأيًـا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا...». وعلى الرغم من استبعادهم أنه كـاهن أو شاعر أو ساحر إلا أنهم اتفقوا على أن يقولـوا للنـاس إنـه سـاحر، لأنـه يفـرق بـين الأقـارب، فـأنزل الله ﷻ في الوليـد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾[المدثر: ١١]، ثـم أخـذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر محمد ﷺ. وشاء الله تعالى أن تصدر العرب مـن ذلـك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [الطبري: التفسير].

وكان مثل هذه المواقف من أسباب إسلام النـاس في المواسـم. ومـا روي في قصـة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي الدليل على ذلك [ابن إسحاق].

وخلاصة قصته: أنه عندما قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، مشى إليه رجال من كفـار قريش، وكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنـا، وهذا الرجل الذي بـين أظهرنـا قـد أعضـل [اشتد أمره، ومنه الـداء المعضـل أو العضـال والمعضلة] بنا، وفرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفـرق بـين الرجـل وبـين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئًا. فما زالـوا بـه حتـى وضـع كُرْسَـفًا [قطنًا] في أذنيه، ولكن أراد الله ﷻ أن يسمع من النبي ﷺ عندما كان يصلي عند الكعبة، فيسلم، ويسلم قومه. إلخ.



جـ- واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

د- واتهموه بالإتيان بالأساطير. قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

هـ- وقالوا إن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من عند البشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

و- واتهموا المؤمنين بالضلالة... ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٣٢].

[من هؤلاء المؤمنين: عمّار، وبلال، وخبّاب، كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٠)].

الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين:

يقول الله تعالى عن سخريتهم من الذين آمنوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]. وروى البخاري: أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا!»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ١- ٣].

وروى البخاري أن أبا جهل قال مستهزئًا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فنزلت: «﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٢- ٣٤].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] حديث الإراشي الذي اشترى منه أبـو جهـل الإبـل، ومطله بأثمانها، ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل، استهزاء لما يعلمون من العداوة بينهما. وعندما جاء الإراشي إلى الرسول ﷺ شاكيًا، مشى معـه إلى أبي جهل، وأخذ له بحقه. وعندما سألت قريش عن صنيعه هذا، قال: (ويحكم والله مـا هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته، ملئت رعبًا، ثـم خرجـت إليـه، وإن فـوق رأسه لَفَحْلًا من الإبل، ما رأيت مثل هَامَتِهِ [رأسه] ولا قصْـرَتِهِ [أصـل عنقـه] ولا أنيابـه لَفَحْلٍ قَطُّ، والله لو أبيت لأكلني).

وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمـزهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾[المطففين: ٢٩- ٣١].

وثبت من طرق صحيحة [في مسند أحمد ومصنف ابـن أبي شـيبة وسـيرة ابـن إسـحاق] أن أشراف قريش اجتمعوا يومًا في الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به. وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القـول ثلاث مرات، فقال لهم: «**يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح...**»، وقد فزعوا من هذا الموقف.

ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي ﷺ: «لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء - يعنون صهيبًا وبلالًا وخبابًا - فاطردهم عنك»، فهمَّ النبي ﷺ بذلك طمعًا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الأنعام:٥٢]، [الطبري: التفسير، أثر ١٣٢٥٨، صحيح].

ومر الرسول ﷺ يومًا بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام:١٠]، [ابن إسحاق].

ومن كبار المستهزئين والساخرين: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، [ابـن إسـحاق]، الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، الوليد بن الغيرة المخزومي، العاص بن وائل السهمي، [ابن هشام]، الحارث بن الطلاطلة الخزاعي [ابن إسحاق]. وروى أبو نعيم، من حديث ابن إسحاق، أن الله تعالى أنـزل فـيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[الحجر: ٩٥]. وروي أن جبريل ﷺ رمى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي.

ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسـقى بطنـه [أي أصـابه مـرض الاستسقاء] فمات من ذلك. ومر به الوليد بـن المغـيرة فأشـار إلى جـرح بِأَسـفل كعـب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشـار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض بـه حمـاره عـلى نبـات خفيـف فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر بـه الحـارث بـن الطلاطلـة فأشـار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله [ابن إسحاق، مرسل صحيح].

والوليد بن المغيرة هو القائل: أينزل على محمد وأتـرك وأنـا كبـير قـريش وسـيدها؛ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين![يعني مكة والطـائف]، فـأنزل الله تعـالى فيـه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وللمفسرين أقـوال أخـرى في الـرجلين المعنيـين في الآيـة. [انظـر: تفسـير ابن كثير (٧/ ٢١٢- ٢١٣)].

ومن كبار المستهزئين الساخرين - أيضًا -: أبو جهـل وأميـة بـن خلـف والنضـر ابن الحارث والأخنس بن شريق وأبي بن خلف [ابن هشام، وغيره].

الأسلوب الخامس: التشويش:

كان المشركون يتواصون بينهم بافتعـال ضـجة عاليـة وصياح منكـر عنـدما يقـرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثرًا في عقل نقي وقلب طيب. وفي ذلك قال المـولى عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[فصلت:٢٦].

الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول ﷺ معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين:

مـن ذلـك قـولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[الفرقان:٧- ٨].

وقولهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[يونس:١٥].

ورد علـيهم الله تعـالى في الآيـة نفسـها: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾[يونس:١٥].

وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[الإسراء: ٩٠- ٩٣]، ولذا قال لهم الرسول ﷺ كما جاء في الآية نفسها: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[الإسراء: ٩٣- ٩٤].

وسألوه أن يسيِّر لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى، أمثال قصي، ليسألوه عن صدق محمد. ورد الله تعالى عليهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾[الرعد:٣١]، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شاء الله [الطبري: التفسير].

ولقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[الأنعام: ١٠٩- ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾[الإسراء:٥٩].

وروى أحمد، [في المسند، بسند جيد]، من حديث ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا - أي يزرعوا مكانها - فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم، قال: «لا، بل أستأني بهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾[الإسراء:٥٩].

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهبًا لينحتوا منها وتغنيهم عن رحلتي الشتاء والصيف. وروى مسلم أنهم طلبوا أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق.

الأسلوب السابع: المساومات:

لقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه. قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[القلم:٩].

وعندما قالوا له اعبُد آلهتنا يومًا ونعبد إلهك يومًا، أنزل الله تعالى سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[الكافرون: ١- ٦]، وحسم هذه المساومة الهزلية.

لقد ساوموا عمَّه فيه، حين اقترحوا على عمه بأن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلًا عن محمد ﷺ فيأخذوه ويقتلوه [ابن هشام].

وعندما اشتكى [مرض] أبو طالب وبلغ قريش ثقله [شدة مرضه] قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا. وعندما جاء وفدهم إلى أبي طالب، قال لمحمد ﷺ: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم -وفي رواية: تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية-» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة!قال: «نعم». فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم استنكارًا ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك لعجب!

ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا؛ فأنزل الله فيهم أول سورة (ص)...

[أحمد: المسند، بسند صحيح].

الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به:

روى البخاري ومسلم وغيرهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[الإسراء:١١٠]، أن ابن عباس قال: «نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون ذلك سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[الإسراء:١١٠]».

وروى ابن إسحاق [في السير]، أن رسول الله ﷺ كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، يسترق السمع دونهم فَرَقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم لم يسمعوا شيئًا من قراءته، وسمع من دونهم، التفت إليه يستمع، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إذا استمع إلى بعض ما يسمع فيقتنع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[الإسراء:١١٠].

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، أخذ المشركون يسبون الله عز وجل عدوًا بغير علم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨] [الطبري: التفسير].

وهذا النهي عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين [ابن كثير: التفسير].

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**». وقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة، ولجعلتها على أساس إبراهيم...». وكان هذا الحديث سندًا لابن الزبير في بناء الكعبة على قواعد إبراهيم [متفق عليه].

الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول ﷺ:

أوفدت قريش نفرًا منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي مُعَيْط، ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول ﷺ. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين والروح. ولكن الله تعالى أبطل كيدهم عندما أنزل قرآنًا في شأن الإجابة عن أسئلتهم. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

الأسلوب العاشر: الترغيب:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن النبي ﷺ لما فرغ من قوله تلا صدر سورة (فصلت) إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قـريش مخـبرًا إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قـريش أن تـدع محمـدًا وشـأنه. وفي روايـة البيهقـي [في الـدلائل]، وابـن أبي شـيبة [في مصـنفه] وابن حميد [في المنتخب، حسن] من حديث جابر، زادوا: «وإن كـان بـك البـاءة زوجنـاك عشـر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت».

وفي رواية [عند الحاكم والبيهقي في الدلائل، بأسانيد تعتضد]، إن الوليد بـن المغـيرة جـاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلـك أبـا جهـل، فأتـاه، فقـال: «يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا»، قال: «لم؟»، قال: «ليعطوك، فإنـك أتيـت محمدًا لتعرض لما قبله..»، ثم قال عن القـرآن الـذي سـمعه مـن محمـد ﷺ: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته...».

الأسلوب الحادي عشر: الترهيب:

كان أبو جهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنَّبـه وأخـزاه، وقـال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك! لَنُسَفِهَنَّ حُلُمَـكَ، ولَنَضُـعِفَنَّ رأيـك، ولنضـعن شرفك»، وإن كان تاجرًا قال له: «لَنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولنهلكن مالك»، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به [ابن إسحاق في السيرة].

الأسلوب الثاني عشر: الاعتداء الجسدي:

أ- الاعتداء الجسدي على الرسول ﷺ:

عندما لم تثمر كل الأساليب السابقة وغيرها في صـد الرسـول ﷺ وأصـحابه عـن دينهم، لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء الجسدي والتصفية الجسدية.

لقد استفحل إيذاؤهم للرسول ﷺ في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: «هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أَظْهُرِكُم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي- زعم ليطأ على رقبته - قال: فما فجأهم منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا وأجنحة». فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾[العلق: ٦- ١٩]. [ورواه البخاري مختصرًا].

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: «سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ، فقال: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟»».

وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَتْ جَزَورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سَلا جَزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فَاسْتَضْحَكُوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر

رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسـه، حتـى انطلـق إنسـان فـأخبر فاطمـة، فجاءت وهي جُوَيْرِيَةٌ، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضـى النبـي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.. فوالذي بعث محمـدًا ﷺ بـالحق لقـد رأيـت الـذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

قال ابن حجر [في الفتح]: (وقد أخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنـس، قـال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم، أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر...) [مسند أبي يعلى، برقم ٣٦٩١].

وتسلط عليه عتيبة بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصـه، وتفـل في وجهـه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذٍ دعا عليه النبي ﷺ، وقـال: «**اللهـم سـلط عليـه كلبًـا مـن كلابك**». واستجيب دعاؤه، فذبحه السبع وهو بالزرقـاء بالشـام. وحاولـت أم جميـل أروى أو العوراء بنت حرب، أخت أبي سـفيان - زوجـة أبي لهـب - أن تعتـدي عليـه بحجر، فحماه الله ﷻ منهـا - كـما روى البيهقـي [في الـدلائل]. وكانـت تحمـل الحطـب لتضعه في طريقه - كما حكاه القرآن الكريم [المسد: ٤] [وإسناد البيهقي حسن لغيره].

وروى أحمد [في المسند، بسند صـحيح]، أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدًا لقـد قمنـا إليـه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله... وأخبرته ابنته فاطمة بالـذي قـالوا، فجـاءهم وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافرًا.

وروى الإمام أحمد [في المسند، بسند صحيح] من حديث أنس، أن جبريل ﷺ جـاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزينًا قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكـة، فقـال لـه مَالَكَ؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر

إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: حسبي».

يرى ابن كثير [في البداية]، أن غالب ما وقع للرسول ﷺ من اعتداء جسدي وما يشبه ذلك، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

ب- الاعتداء الجسدي على الصحابة من قريش بمكة:

ونال أبو بكر رضي الله عنه نَصِيْبَهُ من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة - كما فعل آخرون غيره - فرارًا بدينه [البخاري].

وذات يوم قام أبو بكر خطيبًا في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضربًا شديدًا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة، حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم - قومه - يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة ابن ربيعة [ابن كثير: البداية].

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، على الرغم من تحذير المسلمين له من عدوان المشركين وخشيتهم عليه. فعندما فعل ذلك، ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه. وعندما قال له الصحابة: «هذا الذي خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غدًا. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون» [ابن إسحاق كما في السيرة].

وكان عمُّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته. وروي أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان رضي الله عنه على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه [ابن سعد].

ولما علمت أم مصعب بن عمير رضي الله عنه بإسلامه أجاعته وأخرجته مـن بيتـه. وكـان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية، حتى حمله أصـحابه عـلى قِسـيِّهِم؛ لشدة ما به من الجهد [ابن إسحاق: السيرة].

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحـاولوا قتلـه لـو لا أن أنقـذه الله عز وجل بالعاص بن وائل [ابن إسحاق: السير والمغازي].

وممن أوذي عثمان بن مظعون. فقـد روي أنـه عنـدما رجـع مـن الهجـرة الأولى إلى الحبشة، دخل في جوار[حماية] الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشـركين يـؤذون المسـلمين وهو آمن، رد جوار الوليد. وعندما قدم لبيد بن ربيعة إلى مكة، وكان في مجلس لقـريش ينشدهم شعره، قال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطـل»، قـال عـثمان بـن مظعـون: «صدقت، وعندما قال: وكل نعيم لا محالة زائل، قال له عثمان: «كذبت. نعـيم الجنـة لا يزول»، قال لبيد: «يا معشر قريش، والله ما كان يـؤذى جليسـكم، فمتـى حـدث هـذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم: «إن هذا أيضًا في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله»، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما، فقام إليه ذلك الرجـل، فلطـم عينه فَخَضَّرَها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله يـا ابـن أخي إن كانت عينك عما أصابت لغنيَّة، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عـثمان: «بـل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعـز منك وأقدر يا أبا عبد شمس»، فقال له الوليد: «هلم يـا ابـن أخـي، إن شـئت فعـد إلى جوارك»، فقال: «لا» [ابن إسحاق: السيرة، والبيهقي في الدلائل، والطبراني في الكبير].

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجـع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا» [الحاكم، وأبو نعيم في الحلية].

وكان أبو جهل قد حبس أخاه سلمة بن هشام بـن المغـيرة رضي الله عنه عنـدما عـاد مـن الحبشة، وأجاعه، ولكن تمكن من الانفلات واللحاق بالرسول ﷺ بالمدينة بعـد غـزوة الخندق [ابن سعد]. وكـان ممـن دعـا لهـم الرسـول ﷺ ربـه في القنـوت أن ينجـيهم الله من أعدائهم [البخاري].

جـ- الاعتداء الجسدي على المسلمين العرب من خارج مكة:

ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة، بل امتد إلى بعض الأفـراد الـذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة. فقد روى ابن سعد أن أم شَرِيْكٍ غَزِيَّة بنـت جـابر ابن حَكِيم عندما أسلمت هي وزوجها، وهـاجر زوجهـا مـع أبي هريـرة وجماعـة مـن قومها، جاءها أهل زوجها أبي العِكَرِ فسألوها إن كانت على دينـه، فـأقرت بإسـلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلـوا مـن مكـان إلى آخـر، حملوهـا عـلى شر ركـابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزًا وعسلًا ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهـب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالـث، طلبـوا منهـا ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد ولا تعي ما يقولون مـن شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله عز وجل بدلو من ماء شربت منـه، فكـان ذلـك سـببًا في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ.

وعندما سمع أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بخبر النبي ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسـأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العبـاس رضي الله عنه منهم [متفق عليه].

وروى قصة إسـلامه مطولـة مسـلم، وأحمـد [في المسـند]، وأبـو نعـيم [في الـدلائل]، والحاكم. وفيها أن أبا ذر أول من حيَّـا رسـول الله ﷺ بتحيـة أهـل الإسـلام، السـلام

عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال الرسول ﷺ في رده عليه: «**وعليك السلام ورحمة الله...**». [ابن سعد من طريق الواقدي] ولفظ أحمد: «**عليك ورحمة الله**»، ولفظ مسلم: «**وعليك ورحمة الله**» في رواية، وفي أخرى «**وعليك السلام**»؛ ولفظ أبي نعيم: «**وعليك ورحمة الله**».

د- الاعتداء الجسدي على الموالي:

لقد نفَّس الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه في أشخاص الموالي؛ لأنه لم تكن لهم منعة. فكان العذاب أقسى وأفظع.

وقد عذر الله عز وجل المعذبين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟»، قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولون له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده» [ابن إسحاق: السيرة]. قال ابن كثير في البداية: (وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾[النحل:١٠٦]).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالًا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

ومن أبرز من نالهم الاعتداء الجسدي من الموالي بمكة:

أ- آل ياسر رضي الله عنهم :

كانت هذه الأسرة ممن يضرب بها المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام. فقد كان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة وغطوا عمار في الماء [ابن إسحاق: في السيرة والسير والمغازي].

ومرَّ بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون، فقال لهم: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة**» [الحاكم، بسند صحيح].

وكان أول من استشهد في سبيل الله عز وجل من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار - سمية بنت خباط - فقد طعنها أبو جهل بحربة في قُبُلِهَا فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم [البيهقي: الدلائل، من مرسل مجاهد].

ومات ياسر في العذاب، ورمي ابنه عبد الله فسقط ميتا [ابن حجر: الفتح]. وتفننوا في إيذاء عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[النحل:١٠٦] هو موقف عمار بن ياسر هذا [ابن الجوزي والطبري].

قال ابن حجر [في الفتح (٩/ ٢٨١)]: (وكان عمار عربيًا عنسيًا، ما وقع عليه سبي، وإنما سكن أبوه ياسر مكة، وحالف بني مخزوم، فزوَّجوه سمية، وهي من مواليهم، فولدت له عمارًا، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عمارًا معاملة السبي لكون أمه من مواليهم). وقال ابن إسحاق [في السيرة، ص ١٩٢]: (إن ياسرًا كان عبدًا لبني بكر من بني الأشجع، فاشتروه منهم، فزوَّجوه سمية أم عمار، فولدت عمارًا، وكانت سمية أَمة لهم، فأعتقوا سمية وعمارًا).

ب- بلال ؓ:

كان بلال مولى لبعض بني جُمَح. وهو بلال بن رَبَاح، وأمه حَمَامَة. ذكر أنه كان حبشيًا، وهو المشهور، وقيل: كان نوبيًا [ابن حجر: الفتح].

كان طاهر القلب صادق الإسلام. وكان مولاه أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللّات والعزَّى»، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد» [ابن إسحاق: السيرة يعتضد].

وروى البلاذري [في أنساب الأشراف]، عن عمرو بن العاص قال: «مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى، وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذابًا، فيقبل عليه فيدغت في حلقه، فيغشى عليه ثم يفيق».

وروى البلاذري - كذلك - عن مجاهد، قال: «جعلوا في عنق بلال حبلًا، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة - يعني جبليها- ففعلوا ذلك وهو يقول: أحد أحد».

وقال البلاذري - أيضًا -: (وروي أن بلالًا قال: «أعطشوني يومًا وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار»).

وعندما رآه أبو بكر ؓ في هذه الحالة، ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه. فقد روى ابن أبي شيبة [كما قال ابن حجر في الفتح] بإسناد صحيح، والبلاذري بإسناد جيد، وابن عبد البر [في الاستيعاب، بسند قوي]: أن «أبا بكر اشترى بلالًا بخمس أواق وهو مدفون بالحجارة». وروى البخاري أن بلالًا قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله».

جـ- خباب بن الأَرتّ رضي الله عنه:

[سمي الأرت للكنة في لسانه العربي - البلاذري].

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة... بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي [ابن هشام]... سُبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قينًا - حدادًا - في صناعة الأسنَّة، وبخاصة السيوف. وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام [متفق عليه].

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفًا شتى من العذاب في المال والنفس، وضمن سائر المستضعفين [حلية الأولياء، بسند صحيح]. ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا حتى لا يستطيع أن يقوم [ابن الجوزي: التلقيح]. وأوقدوا له نارًا ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره وأرى أثر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه [الحلية، بسند حسن بشواهده]، وذكر أيضًا أنهم كانوا يضجعونه على الرَّضَف [الحجارة المحماة]، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا [الحلية، بسند صحيح].

وله قصة مشهورة مع العاص بن وائل، رواها البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث خباب نفسه قال: «كنت قينًا بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧- ٧٨].

وعندما اشـتد الـبلاء بخبـاب رضي الله عنه وإخوانـه المسـلمين المستضـعفين، شـكوا إلى الرسول ﷺ حالهم. فقد روى البخاري عن خباب قولـه: «شـكونا إلى رسـول الله ﷺ وهو متوسد بردًا له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصـرُ؟ ألا تـدعو لنـا؟ فقـال: «**كـان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضـع عـلى رأسـه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمـه وعظمـه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليـتمن هـذا الأمـر حتـى يسـير الراكـب مـن صـنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».

د- عامة الموالي المستضعفين:

منهم حمامة، والدة بلال، وعامر بن فُهَيْرَة، وأم عُبَيْس، وزِنِّيْرَة، والنَهْدِيَّـة، وابنتهـا، وجارية بني عَدِي، التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل أن يسلم [ابن كثير: الفصـول]، وجارية بني مُؤَمِّل وقد أعتقهم أبو بكر جميعًا [ابن إسحاق: السيرة، والسير].

وعندما رأى أبو قحافة ابنه أبا بكر يعتق هؤلاء المستضعفين، قال لـه: «يـا بنـي، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلـت أعتقـت رجـالًا جُلُـدًا يمنعونـك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: «يا أبت، إني إنما أريـد مـا أريـد لله عز وجل». فأنزلـت فيـه الآيــة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾[الليـل:٥- ٢١] [الحـاكم، وصـححه من حديث ابن إسحاق وسكت عنه الذهبي].

وقد أصيب بصر زنيرة حين أعتقها أبو بكر، فقالت قريش: «ما أذهب بصـرها إلا اللات والعزى»، فقالت: «كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعـزى ومـا تنفعـان». فرد الله بصرها [ابن إسحاق: السيرة، بإسناد حسن مرسل].

وكان أَفْلَح - أبو فُكَيْهَة - مولى لبني عبد الدار - كانوا يشدونه بالحبل من رجله ثم يجرونه على الأرض، ليفتنوه عن دينه [الإصابة، بدون إسناد].

العبر والعظات:

١ - ربما يتساءل المرء: فيم هذا العذاب الذي لقيه الرسول ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله تعالى منه وهم جنوده وفيهم رسوله؟ والجواب: أن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مكلف، وأمر بالدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى. وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات ألوهيته عز وجل، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦].

فقد استلزمت العبودية- إذًا - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الفتن والابتلاءات.

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[العنكبوت: ١ - ٣]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران:١٤٢].

وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس إذا ما عانى شيئًا من المشقة والمحنة. بل العكس هو المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أي إن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدًا من الضر والنكبات سعيًا إلى تحقيق أمر ربهم عز وجل، ويتجلى برهان ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة:٢١٤] [البوطي: فقه السيرة].

٢- المقرر عند علـماء المسـلمين أن الأخـذ بالعزيمـة في ميـدان الإكـراه أولى مـن الرخصة، وأن أخذ الأئمة والقادة بالعزيمة هو الأولى والأجمل. ويعتبر الفقهاء الإكـراه بمدى قدرة المكره على إيقاع ما هدد به [الموصلي: الاختيار لتعليل المختار].

وإن أخذ عامة المسلمين بالرخصة ليس دليلًا عـلى فسـاد في العقيـدة، بـدليل قـول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «إن عادوا فعد»، أي إذا عادوا وطلبـوا منـك ذكـر آلهـتهم بخير، فاذكرها، ما دام قلبك مطمئنًا بالإيمان [زهير سالم: عثرات].

يقول ابن كثير [في التفسير]، في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: (ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز لـه أن يسـتقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل،... وكذلك حبيب بـن زيد الأنصاري [رسول رسول الله ﷺ الى مسيلمة]، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أتشـهد أن محمدًا رسول؟» فيقول: «نعم» فيقول: «أتشهد أني رسـول الله؟» فيقـول: «لا أسـمع». فلم يزل يقطعه إربًا إربًا وهو ثابت على ذلك... والأفضل والأولى أن يثبت المسلم عـلى دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحـافظ ابـن عسـاكر، في ترجمـة عبـد الله بـن حذافـة السهمي...). فقد عرض على الموت مرتين ولم يتزعزع.

وفي تعليقه على الموقف ذاته قال ابن الجوزي [في تفسيره]: (الإكراه على كلمة الكفـر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية أن التخويف لا يكون إكراهًا حتى ينال بعذاب. وإذا ثبت جواز «التقية»، فالأفضل ألا يفعل...).

ويرى بعض السلف أمثال معاذ بن جبـل رضي الله عنه ومجاهـد رحمه الله أن مثـل هـذه التقيـة كانت في بدء الإسلام، قبل استحكام الدين وقوة المسـلمين، وأمـا اليـوم فقـد أعـز الله الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم [تفسير البغوي].

إن في مواقف المؤمنين - بمختلف قبائلهم - وثباتهم على دينهم ورضاهم بجوار ربهم، مثلًا عاليًا في التوكل على الله تعالى، ولن ينسى التاريخ تلك المواقف الإيمانية البطولية لهؤلاء المسلمين الأوائل، الذين كانوا قدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

إن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لم يكفوا ولن يكفوا عن استخدام كافة الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام ومحاربة دعاته، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين المستضعفين بمكة.

وسيطول بنا الشرح إذا وقفنا عند كل أسلوب، وذكرنا له أمثلة من واقع حركة الإسلام وسط المجتمعات والشراذم الرافضة لتحكيم شرع الله عز وجل.

كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المساومات مع الرسول ﷺ بعد أن صوَّروا في أنفسهم كل ما يمكن أن يظنوه سببًا أو هدفًا وراء دعوته، ورفض الرسول ﷺ قبول كل العروض التي قدموها له مقابل أن يتخلى عن دعوته ليثبت للتاريخ أن هدفه شيء واحد، وهو الإسلام، وليقطع الطريق أمام المتشككين في أهداف دعوته ﷺ، أو فهموا فهمًا مغايرًا لما كشفت عنه تلك اللقاءات بين الرسول ﷺ وبين مساوميه من الكفار، وكانت سيرته ﷺ فيما بعد تأكيدًا ودليلًا على أنه لم يكن يطلب شيئًا غير الإسلام [البوطي: السيرة].

الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم:

عندما هاجر بعض المسلمين إلى النجاشي، أرسلوا خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور إلى الحبشة، وعندما استقروا بالحبشة وكثر عددهم، أرسلوا في طلبهم، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة للوقيعة بين المسلمين والنجاشي، ولكنهم فشلوا في ذلك.

وسيأتي بيان ذلك في هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرة المدينة.

الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة: سيأتي ذكرها في مكانها من هذا الكتاب (مبحث ٢٨).

الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول ﷺ: يأتي ذكره مفصلًا.

الأسلوب السادس عشر: شن الحرب عليه: سيأتي ذكر ذلك من خلال أبحاث وفصول الكتاب.

المبحث الثالث والعشرون: مكان اللقاء

كان الرسول ﷺ يلتقي سرًا بالداخلين في الإسلام، ليعلمهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الدين. وفي السنة الخامسة من ابتداء الدعوة اختار الرسول ﷺ منزل أحد المسلمين، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقي بأكبر عدد منهم، وحافظوا على كتمان سرية هذا المكان [البداية]، لأن عامة الصحابة كانوا يخفون إسلامهم، ولذا فمن الحكمة اتباع السرية لما فيها من مصلحة للمسلمين وللإسلام، أما لماذا اختار الرسول ﷺ دار الأرقم بالذات؟ أجاب عن هذا السؤال - استنتاجًا - المباركفوري، فقال: (لأن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو، ولأنه كان فتىً صغيرًا عندما أسلم، في حدود الست عشرة سنة، إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة).

ويلحظ أن دار الأرقم [هي الدار التي تعرف الآن بدار الخيزران عند الصفا كما قال الشامي في السبل (٢/ ٤٣٠)] كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبعية، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار.

وعندما شك الكفار في وجود مكان يلتقي فيه المسلمون، كان كل الذي توصلوا إليه أنه يلتقي بهم في دار عند الصفا [ابن إسحاق].

إن مراعاة السرية والكتمان في حياته ﷺ واضحة في مواقف كثيرة منها هذا الموقف.

وهذامن باب أن اتخاذالأسباب لايتنا فى مع التوكل على الله عز وجل.

المبحث الرابع والعشرون: الهجرة إلى الحبشة

أ- الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فرارًا بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان [البخاري].

روى ابن إسحاق[في السير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة، قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا...».

روى ابن سعد أنهم خرجوا متسللين سرًا، وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعةَ جاؤوا سفينَتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدًا.

وذكر ابن سعد في رواية ثانية أسماء اثني عشر رجلًا وأربع نسوة،ووافقه في ذلك ابن سيد الناس، وزاد عليه امرأة خامسة، وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، زوجة

أبي سبرة. وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير] أنهم كانوا عشـرة مـن الرجـال وأربـع نسوة. إذ إنه لم يذكر فيهم ابن مسعود، وذكر حاطبًا بالشك: (ويقال...).

ووافق الذهبي [في السيرة]، ابن إسحاق في عدد الرجال والنساء ولكنه ذكر أبا سبرة ولم يذكر أبا حاطب أو حاطبًا، ولم يذكر ابن مسعود. وذكر عروة [في مغازيه]، أنهم كانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وذكر فيهم ابن مسعود ولم يذكر حاطبًا.

وكان ضمن هؤلاء المهاجرين: أبو سلمة بن عبـد الأسـد، وزوجـه أم سـملة بنـت أبي أمية، أم المؤمنين فيما بعد، وراوية الحـديث الطويـل في قصـة الهجـرة، وعـثمان بـن مظعون، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال الرسول ﷺ في عثمان ورقية رضي الله عنهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» [البيهقي: الدلائل].ولعل المعنى:من أول بيت نبي

وعرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وذكر ابـن هشـام أنـه كـان علـيهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلًا بالحبشة حتى بلغتهم الأخبار بأن أهـل مكـة قـد أسلموا، فلذا قرروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال من السنة نفسها.

وعندما اقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم كان مجـرد إشـاعة، وعرفـوا أن نـار العداوة ما زالت مشتعلة. فرجع منهم من رجـع إلى الحبشـة، ومـن دخـل مـنهم مكـة دخلها مستخفيًا أو في جوار رجل من قريش [ابن سعد وابن إسحاق].

ويزعم بعض الناس أن سبب رجوعهم كـان لوقـوع هدنـة حقيقيـة بـين الإسـلام والوثنية، أساسـها أن محمـدًا ﷺ تقـرب إلى المشـركين بمـدح أصـنامهم والاعـتراف بمنزلتها، إذ زعموا أنه قرأ على المشركين سورة النجم حتى وصل قولـة تعـالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾[النجم: ١٩- ٢٠]، ألقى الشيطان في آذان المشركين قوله: (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) فسجد وسجد معه كفار مكة. فلما بلغهم ذلك في الحبشة ظنوا أن القوم قد أسلموا لهذه القصة المزعومة.

وممن روى هذه القصة ابن سعد، والطبري [في التفسير]، والبيهقي [في الدلائل]، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير. وهي باطلة من حيث السند والمتن.

والذي ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعه من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ [النجم: ٥٣- ٦١]، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السن - أخذ كفًا من البطحاء وسجد عليه. فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمدًا ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير... [الغزالي: فقه السيرة].

ب- الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية، وكانوا هذه المرة نيفًا وثمانين رجلًا وتسع عشرة امرأة. [ابن إسحاق] وقيل غير ذلك.

فقد روى الإمام أحمد [في المسند، بسند حسن] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوًا من ثمانين رجلًا، فيهم جعفر، وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى،...» ولم يذكر عدد النساء. وذكر ابن سعد أن عدد الرجال ثلاثة وثمانين رجلًا وعدد النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أنهم كانوا نيفًا وثمانين رجلًا، وذكر أسماء ست عشرة امرأة، وذكر في السيرة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا، وإذا اعتبرنا من ولدت ريطة بنت الحارث، فيكون عدد النساء عنده عشرين امرأة، وقد ذكر ابن القيم [في الزاد، من حديث ابن إسحاق] أنهن تسع عشرة امرأة، والله أعلم. ويبدو أن الاختلاف في عدد النساء يرجع إلى أن البعض يعد فيهن بعض الفتيات الصغيرات.

ويشهد بقبول ما جاء عند أهل المغازي والسير في عدد المهاجرين هذه المرة، رواية أحمد المذكورة من حديث ابن مسعود.

جـ- قريش تسعى لإعادة المهاجرين:

روى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة رضي الله عنها في هجرة الحبشة، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جَاوَرْنا بها خَيْرَ جَارٍ النجاشيّ، أَمِنَّا على ديننا، وَعَبْدنا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدَين، وأن يَهْدُوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَمُ [الجلود]، فجمعوا له أَدَمًا [جلودًا] كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة [أحمد: المسند، بسند حسن] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي

هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجـاشي... فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديتـه قبـل أن يكلِّـما النجـاشي، وقـالا لكـل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك منـا غلـمان سـفهاء، فـارقوا ديـن قـومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...».

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم. ولكن النجاشي عندما أشير إليه بذلك رأى أن يـدعو المسـلمين ويسـتمع بنفسه إلى ما يقولونه. وعندما حضروا أمامه تكلـم نيابـة عـنهم جعفـر بـن أبي طالـب رضي الله عنه، فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وموقف قومهم منه.

وعندما طلب النجاشي شيئًا مما جاء به ﷺ قرأ عليه جعفر صدر سورة مريم. فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها.

ثم قال النجاشي مخاطبًا سفيري قريش: «إن هذا والذي جاء بـه عيسـى يخـرج مـن مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبدًا».

وعندما خرجا، قال عمرو لعبد الله: «والله لآتينه غدًا بما يبيد خضراءهم».

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي وقال له: «إن هـؤلاء يقولـون في عيسـى بـن مريم قولًا عظيمًا». فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض، وقال لجعفر: «ما عدا عيسى ما قلـت قـدر هـذا العود». ولم يأبه لا متعاض بطارقته، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش [ابن إسحاق: السير والمغازي، حديث أم سلمة].

أخفقت سفارة قريش في مهمتها، ولم تجد قريش أمامها غير التشفي ممن هم تحت أيديها.

أما الإسلام فقد كسب إلى جانبه النجاشي وعمرو بن العاص، كما سيأتي ذكره.

ومكث المسلمون ما شاء الله لهم، فعاد من عاد منهم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة وقبل وقعة بدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلًا وثماني نسوة [البخاري وغيره]. وعاد الباقون مع جعفر رضي الله عنه عندما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري [البخاري وغيره].

د- حكم وعظات وعبر من هذا المقطع:

١- إن في هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة دليلًا على مشروعية الهجرة، وهي الانتقال من بلد الكفر حيث يتعذر على العبد أن يعبد الله عز وجل، إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون فتنة. وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٢- إن من أسس ودعامات الدين التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيله، لأن الدين إذا فقد لم يغن من ورائه المال والوطن والنفس، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل، حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة. ولذا كانت الهجرة نفسها ضربًا من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة أقسى بأخرى أقل قسوة ريثما يأتي الفرج والنصر.

٣- يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي النصراني، والذي أسلم بعد ذلك، أو كان مشركًا كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم، وكأبي طالب الذي حمى الرسول ﷺ، والمطعم بن عدي الذي حمى النبي ﷺ عندما عاد من الطائف [البوطي].

٤ - إن في ارتداد عبيد الله بن جحش - إن صحت الرواية - عظه لمن يتعظ أو عبرة لمن يعتبر. فقد استكبر على المسلمين، لأنه كان أولًا من الحنفاء، ثـم أسـلم وهـاجر مـع زوجه أم حبيبة رضي الله عنها إلى الحبشة، ثم ارتد إلى النصرانية، وكان يقول للمسلمين: «فَقَّحْنَا وَصَأْصَأْتُم»، أي قد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تُبصِروا بعد. وذلك أن ولـد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صأصأ قبل ذلـك، فضـرب ذلـك لـه ولهـم مـثلًا [ابن هشام، بسند صحيح]، [يأتي تحقيق العوشن لهذه الرواية].

المبحث الخامس والعشرون: إسلام النجاشي

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] في رواية له أن النجاشي لما مات كان يُتحدثُ أنه لا يزال يُرى على قبره نور. ويفهم من هذه الرواية الصحيحة أنه قد أسلم.

وذكر في رواية أخرى أن قومه خرجوا عليه لأنـه أسـلم، وقبـل أن يخـوض حربًـا ضدهم هيأ للمسلمين سفنًا ليركبوها إذا انهزم، وكتب كتابًا يشهد فيه بإسلامه.. وبلـغ ذلك النبي ﷺ. فلما مات النجاشي استغفر له [والبخاري ومسلم].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق موافق في جوهره لما في الصحيحين فيما يتعلق بإسلام النجاشي. فقد روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع الهجري، وصلى بالمسلمين صلاة الغائـب عليـه. وروى البخـاري ومسلم أيضًا أن الرسول ﷺ قال: «**قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلُمَّ فصـلوا عليه**»، وهذا لفظ البخاري.

وهذا النوع من النعي هو الجائز لأنه لمجرد الإخبار ليدعوا له إخوته في الله ﷻ. أمـا النعي للمفاخرة والمكاثرة فمكروه، والنعي بصفات الميت فحـرام [انظر موطأ مالـك في تبويب هذه المسألة].

وفي رواية لمسلم، قال الرسول ﷺ: «**إن أخًا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليـه...**». وهذا الحديث صريح في أنه مات على الإسلام. واسمه أصحمة [مسلم برقم ٩٥٢].

ويفهم من عموم النصوص الواردة عن إسلام النجاشي في المصادر المختلفة أنه جهر بإسلامه أمام الصحابة رضي الله عنه وبمحضر من أساقفته، ولم يقبل البطارقة والأساقفة هذا التحول، فغضبوا منه وألَّبوا عليه الناس، وقامت ضده ثورة ولكن الله نصره عليهم، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن خدعهم تقية، «**والحرب خدعة**» كما صح عن الرسول ﷺ: «**وذلك أنه عمد إلى كتاب كتب فيه إقراره بالتوحيد ونبوة محمد ﷺ، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه** [ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه] **عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بكم؟ قالوا: فارقت ديننا!!! وزعمت أن عيسى عبده ورسوله، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله، فقال النجاشي: ووضع يده على صدره على قبائه: وهو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب، فرضوا، وانصرفوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له**» [البخاري وغيره].

المبحث السادس والعشرون: إسلام حمزة وعمر

أ- إسلام حمزة رضي الله عنه:

لم يوقف اضطهاد المشركين للمسلمين دخول صناديد قريش في الإسلام. ففي هذا الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة والرسول ﷺ خاصة، شاء الله تعالى أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سببًا في إسلام حمزة عم الرسول ﷺ وأحد أشداء

قريش. فقد روى ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أَمَةً لعبد الله بن جُدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد ﷺ إساءات بذيئة. فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشجه شجة منكرة، وقال له: «أتشتمه وأنا على دينه؟»... فكانت تلك بداية انشراح صدر حمزة للإسلام.

وعندما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [ابن إسحاق: السيرة].

وكان إسلام حمزة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة [ابن سعد].

ب- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لقد كان عمر رضي الله عنه من ألد خصوم الإسلام، وكان معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وكثيرًا ما لقي بعض المسلمين منه صنوفًا من الأذى والتنكيل.

قال سعيد بن زيد رضي الله عنه، قريبه وزوج أخته [من رواية أحمد في الفضائل، بسند صحيح]: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم...». وفي رواية: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم...» [البخاري].

وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن] أن ليلى - أم عبد الله - زوجة عامر ابن ربيعة، قالت: «والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء، فقال: أتنطلقون يا أم عبد الله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا. قالت: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا... قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»، وذلك لما كان يراه عامر من شدة عمر وغلظته على المسلمين.



وفي هذا الخبر دليل على نوازع الفطرة السليمة التي كانت تصطرع في نفسه مع غشاوات الجاهلية، إلى أن حانت ساعة جلاء هذه الغشاوة عن فطرته السليمة، فدخل في الإسلام، وتحولت شدته من شدة في الباطل إلى شدة في الحق.

وعندما شرح الله ﷻ صدره للإسلام قال: «أي قريش أَنْقَلُ للحديث؟» فقيل له: جَمِيل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ، فجاءه عمر فأخبره بإسلامه. فأسرع جميل إلى الكعبة، وصرخ في القوم بأعلى صوته، قائلًا: «ألا إن عمر صبأ»، وعمر خلفه يقول: «كذب، ولكن قد أسلمت...» ودخلوا معه في عراك طويل حتى أنقذه الله ﷻ منهم بالعاص بن وائل السهمي [أحمد: الفضائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير، بسند حسن].

أما القصة المشهورة في سبب إسلامه والتي تقول إنه كان في طريقه إلى محمد ﷺ لينال منه، فلقيه رجل علم منه ما يريد فتعجب منه لأن لا يعلم بإسلام أخته وزوجها. فغضب عمر وذهب إلى أخته وزوجها ووجد معهما خبَّابًا... فضربها حتى سال الدم منها، ثم وجد معهم آيات من سورة طه، فقرأها بعد أن أمرته أخته بالاغتسال إذا أراد مسَّها... ثم أسلم وذهب إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه... ورد جوار خاله العاصي ليَضرب ويُضرب كما هو حال المستضعفين من المسلمين إلى أن أعز الله الإسلام... هذه القصة لم ترد بإسناد صحيح مقبول عند المحدثين، وإن كان بعض أجزائها قد ورد بأسانيد حسنة. فقد ضعَّفها وصي الله [حاشية الفضائل لأحمد]، وهمام، وأبو صعيليك، [حاشية سيرة ابن هشام] وغيرهم.

لقد كان إسلام عمر استجابة من الله تعالى لدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به، وهو: «**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر ابن الخطاب**» [أحمد: المسند، بسند حسن].

فقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب. وفي هذا روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

ورويت آثار كثيرة في إعزازه الإسلام، دلت على دوره الكبير في نصرة الإسلام، من ذلك:

روى ابن إسحاق [في السيرة] عن عمر رضي الله عنه، قال: «لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليَّ، وقال: أهلًا وسهلًا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به».

وروى ابن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحًا وإن هجرته كانت نصرًا وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه» [ابن إسحاق: السيرة].

وروي عن صهيب الرومي أنه قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به» [ابن سعد].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا» [أحمد: فضائل الصحابة].

وروى ابن سعد من حديث محمد بن عبيد: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر، قاتلهم حتى تركونا نصلي».

وروي أن رسول الله ﷺ سماه الفاروق، أي الذي فرق بين الحق والباطل. [الـذهبي: السيرة؛ ابن سعد].

ومع أن هذه الآثار لا تقبل بميزان المحدثين إلا أنه لا بأس من الاستئناس بها فيما لا يترتب عليه حكم شرعي أو لا يمس العقيدة.

ومما لا خلاف فيه أن إسلام عمر كان إعزازًا للإسلام، لقول الرسول ﷺ: «**اللهـم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب**».

جـ- عظات وعبر وحكم من هذا المقطع:

١ - إن الرجال ذوي القوة والشكيمة في المجتمع الجـاهلي يمكـن أن يكونـوا سـندًا قويًا للدعوة الإسلامية إذا أسلموا... ولذا كان الرسول ﷺ حريصًا على إسلام رجـال أمثال أبي جهل وعمـر بـن الخطـاب، وقـال إن خيـار النـاس في الجاهليـة خيـارهم في الإسـلام إذا فقهـوا [البخـاري]... فليحـرص الـدعاة دائـمًا عـلى عـدم إهمـال دعـوة الشخصيات القوية والمؤثرة في مجتمعاتها، لأن إسلام هـذه الشخصـيات سـوف يزيـل الكثير من التردد الذي يقع فيه من يأتمرون بأمرهم أو يقتدون بهم، كما هو واقع في كـل زمان ومكان، وكما حكى عن ذلك القرآن، في مخاطبـة الكفـار الـذين أضـلهم الـزعماء والسادة والكـبراء: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. ولا تقتصر الدعوة على زعماء المشركين وآحادهم، بل لا بد أن تتعـدى إلى الزعامات المنحرفة عن الإسـلام والتـي تقـود شـعوبها أو أحزابهـا إلى غـير طريـق الإسلام في مجالات الحياة المختلفة.

٢- إن في نهوض الرسول ﷺ للقاء عمر بن الخطاب عندما جاء إلى المسلمين في دار الأرقم، وأخذه بِحُجْزَتِهِ [أي معقد السراويل والإزار] أو بمجمع ردائه، ثـم جبـذه جبـذة شديدة، ثم تهديده، إن في هذا مثالًا عاليًا للشجاعة في موطن الشدة. وهو مـا ستلمسـه يتكرر في مواطن أخرى كثيرة، مثل موقفه يوم أحد ويوم حنين.

المبحث السابع والعشرون: المقاطعة

أ- المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن عدد الـداخلين في الإسـلام قـد ازداد، وأن وسـائلها وأسـاليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تُجد شيئًا، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر، أعادت النظـر في تلك الأساليب والوسائل، ثم اتخذت أسلوبًا آخـر، أقسـى وأشـمل مـن الأسـاليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة.

قال ابن إسحاق [في السيرة والسير] وموسى بن عقبـة [كما في دلائـل البيهقـي] وعـروة ابن الزبير [في معازيه] وابن سعد وغيرهم من أصحاب المغـازي إنـه لمـا رأت قـريش أن الصحابة قد نزلوا أرضًا أصابوا بها أمنًا وأن عمر وحمـزة أسـلما، وأن الإسـلام فشـا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمـع بنـي هاشـم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فأجـابوه إلى ذلـك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية عـلى عـادة الجاهليـة. فلـما رأت قـريش ذلـك اجتمعـوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبنـي المطلـب، عـلى أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسـلموا إلـيهم رسـول الله ﷺ. ففعلـوا ذلـك وعلقـوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، الذي دعـا عليـه الرسـول ﷺ فشلت بعض أصابعه، ويقال النضـر بـن الحـارث، وقيـل طلحـة بـن أبي طلحـة. فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب. فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع

قريش. وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعـث. فأقـاموا عـلى ذلـك سنتين أو ثلاثًا. وجزم موسى بن عقبة [كما نقله عنه الذهبي في السيرة وابـن حجـر في الفـتح] بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكـن يـأتيهم شيء مـن الأقـوات إلا خفيـة، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئًا من الصـلات، إلى أن قام في نقـض الصـحيفة نفـر مـن أشـدهم في ذلـك ضـيقًا، وهـم: هشـام بـن عمـرو ابن الحارث، وزهير بن أبي أمية، والْمُطْعِم بن عَدَي، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو البَخْـتَرِيّ ابن هشام بن الحارث. وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلات الأرحام.

روى ابن أبي شيبة [في مغازيه]: «نادى منادي رسول الله ﷺ يوم بدر: ليس لأحد من القوم - يعني أمانًا - إلا أبا البختري، فمن كان أسره فليخل سبيله، فإن رسول الله ﷺ قد أمَّنه، فوجدوه قد قتل». قلت: وذلك للمعروف الذي أداه إلى المسلمين حين سـعى مع غيره لنقض صحيفة المقاطعة الجائرة.

وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأَرَضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق [في السيرة] وموسى بن عقبة [كما ذكر ابن حجر في الفـتح] وعـروة [في مغازيـه] فذكروا عكس ذلك.

قالوا إن الأرضة لم تدع اسمًا لله إلا أكلته، وبقي ما بها من الظلم والقطيعة. والمعنـى المقصود عندهم جميعًا واحد، وهو أنهم أرادوا أن يقولوا أن اسم الله تعالى لا يجتمع مـع عبارات الظلم والقطيعة.

قال السهيلي: (وفي الصحيح: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخَبَط وورق السَّـمُرِ، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، الذي روي أنـه قال: لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمـي ومـا أدري ما هو إلى الآن).

وفي رواية يونس بن بكير [ابن إسحاق في السير] أن سعدًا قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بـولي، فنظـرت فـإذا قطعـة جلـد بعـير، فأخـذتها فغسـلتها، ثـم أحرقتهـا [أي: شـواها]، فرضضـتها [أي سحنها] بين حجرين، ثم استففتها، فشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثًا».

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا مـن الطعـام لعيالـه، فيقوم أبو لهب - عدو الله - فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمد، حتـى لا يدركوا معكم شيئًا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار علـيكم»، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافًا حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون مـن الجـوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فـيما اشـتروا مـن الطعام واللبـاس، حتـى جهـد المؤمنـون، ومـن معهـم جوعًـا وعريًـا... وهلـك مـن المحاصرين من هلك كما قال ابن عباس [أبو نعيم: الدلائل].

ومع هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معانـاة لم يتوقـف الرسـول ﷺ عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين عـلى مكـة، ويعـرض علـيهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه [ابن هشام].

ولـما أفسـد الله عز وجل الصـحيفة، خـرج رسـول الله ﷺ ورهطـه وصـحابته رضي الله عنهم، وخالطوا الناس [عروة: والمغازي؛ الذهبي: السيرة، من حديث ابن عقبة].

ب- عظات وعبر من هذا المقطع:

إضافة إلى ما ذكرته عند الكلام عن العظات والعبر المستفادة من أساليب المشـركين فإنني أضيف إلى ذلك هنا:

١- لا يخلو زمان ولا مكـان مـن أهـل المـروءة، وعـلى الـدعاة أن يسـعوا دائـمًا إلى الاهتمام بمن يتوسم فيهم هذه الخصلة للاستفادة منهم في أوقات الشدائد والمحن.

٢- إن أعداء الله ﷻ في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه. وهو أسـلوب يتفـق عليـه المشـركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولـة تخالفهم فيما يدعون إليه، للجأت تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة مـن وسـائل الحـرب التي تتخذها ضدهم.

ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الزمان في هذا الميدان كانـت المقاطعـة العامـة بتلـك الكيفية التي وقفنا عليها. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة.

٣- إن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكـل مـؤمن فـيما يصـيبه في هـذه الحياة من بلاء ومصائب.

٤- لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو الحديثة من قيم يمكـن الاسـتفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضـحيات كبـيرة في سـبيل قـيمهم الجاهليـة الخاصـة بحمايـة القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات. وإذا وجدت قيم في مجتمعاتنـا المعـاصرة، مثل قوانين حقوق الإنسان أو اللجوء السياسي أو الحرية الفكرية، فلا ضـير في الاسـتفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب.

المبحث الثامن والعشرون: وفاة عمه

أ- وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير [كـما روى ابـن سـعد]. وقيـل تـوفي في رمضـان، قبـل خديجـة ﵂ بثلاثـة أيـام [كـما روى الحـاكم والبلاذري]، وقبل الهجرة بثلاث سنين، [كما روى ابن إسحاق في السيرة وابـن سـعد]. وقيـل كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام، [كما روى ابن سعد].

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافرًا على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: «**يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟». فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣] الآيتين، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

وروى مسلم أيضًا بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمِّه: «**قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**»، قال: «لو لا أن تعيرني قريش، يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص: ٥٦].

وروى مسلم وعبد بن حميد [في المنتخب] وأحمد [في المسند]، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه**»، واللفظ لابن حميد. ومن ألفاظ مسلم: «**... وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**»، وفي رواية أخرى له: «**... وهو منتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه**».

أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء. وما في الصحيح صريح على وفاته كافرًا، فلا يعارض. [ابن حجر: الفتح؛ والإصابة؛ الذهبي: السيرة].

ب- الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية:

١ – سبق القول إن موت أبي طالب كافرًا كان لحكمة يعلمها الله تعالى.

٢ – لقد شاء الله عز وجل أن لا يسلم أبو طالب، ويموت قبل الهجرة بنحـو ثـلاث سـنوات، حتى لا يتوهم أحد أن له مدخلًا في دعـوة الرسـول ﷺ، أو يظـن أن المسـألة قبيلـة أو أسرة وزعامة ومنصب [البوطي]. وربما هناك حكم يعلمها الله عز وجل ولم نتوصل إليها.

فائدة:

يروى أن أبا لهب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب ونـال مـن أبي الغَيْطَلَـة عندما سب رسول الله ﷺ، واحتالـت قـريش عليـه ليرفـع حمايتـه عـن الرسـول ﷺ، فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي لهب ليسأل الرسول ﷺ عن عبد المطلب، فقال له الرسول ﷺ: «مع قومه»، فخرج إليهما أبو لهب وقال: «قـد سـألته، فقـال: مـع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسـول الله ﷺ: «**ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقـال أبـو لهـب: والله لا برحت لك إلا عدوًا أبدًا، وأنت تـزعم أن عبـد المطلـب في النـار**»، واشـتد عنـد ذلـك أبو لهب وسائر قريش عليه. [البداية].

انظر كيف كان ﷺ صريحًا، لا يجامل ولا يميِّع قضية الإسلام مهما كانت النتائج.

المبحث التاسع والعشرون: وفاة خديجة رضي الله عنها

تباينت الروايات حول تاريخ وفاتها، فقيل: بعد وفاة أبي طالب بنحـو شـهرين، أو شهر وخمسة أيام، أو بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. وقيل: إن ذلـك كـان في رمضـان مـن السنة العاشرة من المبعث وقبل الهجرة بنحو ثـلاث سـنين، وهـو المشـهور [قلعـه جـي: حاشية دلائل البيهقي].

وعندما مات أبو طالب وخديجة في عام واحد وبينهما مدة يسيرة، تتابعت المصائب. فقد كان أبو طالب درعًا حصينًا للنبي ﷺ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسـلام، يسكن إليها عند الشدائد [كما روى ابن إسحاق في السيرة والسير]. وقـد وردت آثـار كثـيرة تدل على فضلها ومكانتها عند الله ورسوله [أحمد: فضائل الصحابة].

ومما يروى في ذلك أنه لما هلك أبو طالـب، نالـت قـريش مـن رسـول الله ﷺ مـن الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سـفهاء قـريش، فنثـر عـلى رأسه ترابًا [ابن إسحاق: السيرة]، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغسلته عنه إحدى بناته وهي تبكي، والرسول ﷺ يقول لها: «**لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أبـاك**»، ويقـول بين ذلك: «**ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**» [ابن هشام بسند مرسـل حسن]. وقد سبق القول إنهم تجرؤوا على وضع سلا الجزور بين كتفيه وهو ساجد.

ولتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام، فقد سماه بعض المؤرخين عام الحزن، ولم يـرو أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم، كما ذكر السيوطي وغيره [الألباني: دفاع].

ونميل إلى أن سبب حزنه كان لشدة ما كابد في هـذا العـام مـن الشـدائد في سـبيل الدعوة، وتضييق قريش الخناق عليه في محاولة منهم لإغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

المبحث الثلاثون: زواجه من سودة رضي الله عنها

ومع المحن والشدائد التي كان يعيشـها الرسـول ﷺ في هـذه الفـترة إلا أنـه لم يـألو جهدًا في مواساة أصحابه في مصائبهم.

ففي شوال من السنة العاشرة لمبعثه تزوج سودة بنت زمعة رضي الله عنها. لقد كانت سـودة من أوائل المسلمين، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو، فتوفي عنها، وتقديرًا لها تزوجها الرسول ﷺ. وسيأتي ذكـر حكمـة هـذا الـزواج عنـد الكلام عن أمهات المؤمنين.

المبحث الحادي والثلاثون: رحلة الطائف

أ- هجرته ﷺ إلى الطائف:

لما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن هشام].

روى ابن حبيت في (المحبر) أنه خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر وثمانية أيام. وعند مغلطاي [في السيرة] بثلاثة أشهر، في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من البعثة، ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه، كما روى ابن سعد.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى سادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عُمَيْر الثلاثة: عَبْدُ يالَيْل ومسعود وحبيب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم وبينه حتى لا يثيروا عليه الناس.

ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبِّه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُنِي؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن**

عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وَصَلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنْزِلَ بي غَضَبك، أو يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوةَ إلا بك».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرا غلامًا نصرانيًا يدعى عَدَّاسًا أن يقدم له عنبًا.

وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: «**بسم الله**» قبل أن يأكل. وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه. وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: «**لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه**».

وفي رواية موسى بن عقبة [في دلائل البيهقي]، أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صفَّين على طريقه، فلما مرَّ بين صفَّيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدُّوها، حتى أدموا رجليه. وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده.

وعندما لاقى الرسول ﷺ ما لاقى من الابتلاء والشدة في الطائف، عاد إلى مكة مهمومًا. وعندما بلغ قرن الثعالب - قرن المنازل - بعث الله ﷻ إليه جبريل ﷺ، ومعه ملك الجبال، وجعله رهن إشارته، إذا أراد أن يطبق الأَخْشَبَيْنِ على أهل الطائف، وكان ذلك دعمًا معنويًا كبيرًا له. [والأخشبان جبلا مكة: أو قُبَيْسٍ والذي يقابله، وهو قُعيقعان، وقيل: الأحمر وجبلا منى].

وكانت إقامته بالطائف عشرة أيام، كما روى ابن سعد. وذكر مغلطاي [في سيرته] أن إقامته كانت شهرًا.

وروى البخاري ومسلم في هذا أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أَسْتَفِق إلا وأنا بِقَرْنِ الثَّعَالِب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أضلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا**».

وجاءه دعم معنوي آخر قبل أن يصل مكة. ألا وهو إيمان بعض الجن برسالته. ففي وادي نخلة، قرب مكة، أقام الرسول ﷺ أيامًا. وخلال هذه الإقامة بعث الله عز وجل إليه نفرًا من الجن، استمعوا إلى القرآن، فآمنوا به. وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ - ١٥].

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول ﷺ في [الصحيحين] أيضًا. وذكر ابن حجر - في الفتح -، أدلة تؤيد ما ذهب إليه ابن إسحاق - في السيرة - وابن سعد، في أن ذلك كان عندما رجع الرسول ﷺ من الطائف.

لقد شد الله ﷻ أزر نبيه بهاتين الحادثتين، فقام نشطًا في الدعوة إلى الله ﷻ غير آبه بما يواجهه من أساليب الخصوم. فعندما عزم على دخول مكة في عودته من الطائف قال له زيد: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» فقال: «**يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه**».

وأرسل في طلب جوار الأَخْنَس بن شَرِيق، فَجَبُنَ، وتعلل بأنه حليف، والحليف لا يجير كما يقول. وطلب جوار سهيل بن عمرو فرفض بحجة أن بني عمرو لا تجير على بني كعب. وأخيرًا أرسل في طلب جوار المطعم بن عدي، فاستجاب لذلك، وتهيأ هو وبنوه لحماية الرسول ﷺ [ابن هشام؛ الفاكهي: أخبار مكة].

ومما قال حسان بن ثابت [ابن هشام] في رثائه له، يشيد بهذا الموقف النبيل:

«أَجَرْتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا ... عَبِيْدَكَ ما لَبَّى مُهلٌّ وأَحْرَمَا

فَلَو سُئِلَتْ عنه مَعْدُ بأَسْرِهَا ... وقحطانُ أو باقي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا

لقالوا هو المُوفِي بِخُفْرَةَ جارِه ... وذِمَّتِهِ يومًا إذا ما تَذَمَّمَا»

[والخفرة العهد. وتذمم: أي طلب الذمة والعهد والجوار. وذكر الفاكهي، بإسناد حسن، أن حسان بن ثابت رثى المطعم بن عدي لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ].

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم بن عدي هذا الصنيع، ومن قبله صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة، فقال يوم أسرى بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**» [البخاري].

[قال ابن حجر: (وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي). والنتنى: العفنين].

لم يقيد هذا الجوار حركة الرسول ﷺ وأصحابه في الدعوة إلى الإسلام. فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، خرج أبو بكر رضي الله عنه فيمن خرج مهاجرًا إليها، حتى

إذا بلغ بَرْكَ الغِمَادِ، لقيه ابنُ الدُّغُنَّة- سيد القارة، وعند ابن إسحاق - سـيد الأحـابيش - فرده إلى مكة، وأدخله في جِوَارِه، قائلًا له: «مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُجُ ولا يُخْـرَجُ...». واشترطت عليه قريش أن يأمر أبا بكر فيعبد الله في داخل داره، ففعل أبو بكر ما طلـب منه. وبنى مسجدًا في فناء داره ليصلي فيه. فكان إذا صلى وقرأ القرآن وقف عليـه نسـاء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه، لأنه كان يبكي، وهو يقرأ القرآن. فأفزع ذلك قريشًـا خشية إيمان الناس بالقرآن، فطلبوا من ابن الدَّغِنَةِ أن يطلب من أبي بكـر عبـادة ربـه في داخل داره من حيث لا يسمعه أحد، وليس في فناء الدار حيث يسمعه النـاس. وجـاءه ابن الدغنة وقال له: «فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد ذمتي...» فرد عليه أبـو بكـر قائلًا: «فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله» [البخاري؛ البيهقي: الدلائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير]. [ويقال: الدُّغُنَّة، واسمه: الحارث بن يزيد؛ والدغنة أمه].

وهذا الموقف يشبه موقف عمر بن الخطاب ﵁ عندما رد جوار خاله العاص، رغبة منه أن يكون في جوار الله ﷿ ورسوله ﷺ كسائر المستضعفين ممن يترفع الكفار عن إجارتهم.

ب- عظات وعبر:

١- إن اختيار الرسول ﷺ الثلاثة الذين كانوا سادة ثقيف يومذاك لدليل على أهمية دعوة الزعماء الذين ينساق وراءهم النـاس، وعنـدما رفضـوا دعوتـه علـم أن غـيرهم سيرفضها، فلذا لم يستغرق مقامه بالطائف وقتًا طويلًا.

٢- إن صبر الرسول ﷺ على معارضيه قد بلغ حدًا عظيمًا. فعلى الرغم مما واجهه به أهل الطائف من سوء في المعاملة إلا أنه لم يطلب من الله تعالى عقابهم، بل دعا الله ﷿ أن يهديهم، فاستجاب الله ﷻ لدعائه، وذلك بدليل قدوم ثقيف عليه مسـلمة بعـد حصـار الطائف ورجوعه إلى المدينة.



٣- إن لقاء بعض الجن بالرسول ﷺ بنخلة وإيمانهم به فيه عظة وعبرة للبشر الذين لا يؤمنون بالله ﷻ وبرسالة محمد ﷺ.

٤- لقد كان إيمان الجن برسول الله ﷺ بعد أن ناله ما ناله على أيـدي ثقيـف تسـلية من الله ﷻ له أنسته آلامه، وأكدت له أن الله تعالى لن يتركه. فإن تخلى عنه أهـل الأرض إلى حين ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة من يشـد أزره ويـؤمن بـه، وأن الله ﷻ الذي حول الجن إلى مؤمنين ودعاة إلى هذا الدين الجديد، لقادر على تحويل عتـاة كفـار قريش وثقيف إلى مؤمنين ودعاة بعد حين. وقد كان ذلك كذلك. [قلعة جي - رواس: قراءة جديدة للسيرة].

٥- إن من مآثر الجاهلية ذلك العرف الذي كانوا يحترمونه، ألا وهو الجوار، وهو ما يعد من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـ(حـق اللجـوء السـياسي)، بمصـطلح (الدبلوماسية) الحديثة. وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى الناس.

٦- إن إسلام عداس دليل على أن الرسول ﷺ لم يرجع من الطائف من دون نتـائج إيجابية، بل رجع بما هـو خـير مـن حُمُـر الـنَّعَمِ، فقـد هـدى الله ﷻ عداسًـا عـلى يديـه، والرسول ﷺ يقول: «**لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من حمر النعم**» [مسلم].

٧- إن في قصة هجرته ﷺ إلى الطائف وما لاقاه من أذى من سـفهاء ثقيـف لعظـة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرة الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لقي ما لقي مـن المشاق في سبيل إقامة الدين، فمن باب أولى أن يلقى الدعاة أشد من ذلـك، فعلـيهم أن يتهيؤوا لذلك، لأنـه طريـق الأنبيـاء والصـالحين، ولأن حكمـة الله ﷻ اقتضـت أن لا ينتصر هذا الدين بدون عمل وجهد البشر.

المبحث الثاني والثلاثون: التسلية الربانية

أ- الإسراء والمعراج:

تأتي هذه المعجزة تكريمًا وتثبيتًا للرسول ﷺ بعد وفاة عمه الذي كان يحميه وزوجته التي كانت تواسيه، وبعدما أصابه في الطائف ومكة ما أصابه من الأذى. فهي بعد العام العاشر من البعثة كما تدل على ذلك مجريات الأحداث، ولكن اختلف في تحديد زمانها بعد العام العاشر [ابن كثير: البداية (٣/ ١١٩)].

بعد دراسة الآثار الواردة في تحديد الشهر واليوم الذي حدث فيه الإسراء والمعراج، خلص الشيخ طرهوني [صحيح السيرة] إلى أنه يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول.

فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري [مغازي عروة] وعروة بن الزبير [مغازي عروة]، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة. ومما لا جدال فيه أن الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

فقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج في سورتي الإسراء والنجم. ففي السورة الأولى ذكر قصة الإسراء وحكمته، في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[الإسراء:١].

وذكر في السورة الثانية قصة المعراج وثمرته، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[النجم: ١٣-١٨].

إن من أكثر أحداث السيرة بمكة مرويات هي هذه الحادثة، فمجموع رواياتها عند البخاري عشرون رواية، عن ستة من الصحابة رضي الله عنهم.

وعند مسلم نحوًا من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة ﷺ. [عرجون: محمد رسول الله ﷺ].

ولا توجد رواية واحدة تجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة، وإنما هناك روايات أشارت كل واحدة منها إلى بعض الأحداث.

ومن خلال مجموع الروايات التي وردت عند البخاري ومسلم وغيرهما يمكن تلخيص مضمون تلك الروايات.

شق الصدر:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل ﷺ وفرج عن سقف بيت الرسول ﷺ بمكة، وشق صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدره، ثم أطبقه ثم أخذ بيده فعرج به [البخاري ومسلم وغيرهما].

الإسراء:

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي...**» [متفق عليه].

وفي رواية أخرى أنه صلى بالأنبياء قبل المعراج، ثم بُعِثَ له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام **فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة**. [البيهقي: الدلائل].

المعراج:

ثم عرج به إلى السماوات، وفي كل سماء يستفتح جبريل، ثم يسأل، ومن معك؟ فيقول: «محمد» فيرحب به. فرأى في السماء الدنيا آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة، موسى، وفي

السابعة إبراهيم، مستندًا إلى البيت المعمور، ثم ذهب إلى سدرة المنتهـى وفـرض الله ﷻ عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة. وفي طريق عودته من معراجه، انتهـى إلى موسى، فسأله موسى: «**ما فرض ربك على أمتـك؟**» فـأخبره، فطلـب منـه موسـى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، ففعل وخفف الله ﷷ عنه خمس صـلوات. ثـم مـا زال صاعدًا ونازلًا بين ربه وموسى، وفي كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع لربـه ليخفـف عنه، حتى خففها الله تعالى، فأصبحت خمـس صـلوات بـأجر خمسـين صـلاة. وعنـدما طلب منه موسى الرجوع بعد هذا، قال: «**قد سألت ربي حتى استحيت**»، فنادى منـاد: «**قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي**» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنس عن أبي ذر، قال بعد ذكر السماوات: «**ثم عـرج بي حتـى ظهـرت في مستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»، ثم ذكر فرض الصلاة، وقال: «**ثم انطلـق بي حتـى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلـت الجنـة فـإذا فيهـا حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**» [متفق عليه].

وتناول النووي [شارح مسلم] قضية رؤيـة محمـد ﷺ الله ﷷ في المعـراج واخـتلاف العلماء في ذلك، ثم رجح أن الرسول ﷺ رأى ربه، استنادًا إلى حديث ابن عباس ﭬ في هذا، الذي قال فيه: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين».

قلت: وهذا الشاهد يؤيد من يقول بعدم الرؤية.

العودة:

يتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس ثم إلى مكة. فقد روى الترمذي عن شَداد بن أَوس: «... **ثم انصرف بي فمررنا بعـير لقـريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرًا لهم، قد جَمَعَهُ فلان، فسلمت علـيهم فقـال بعضـهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة**» [دلائل البيهقي بسند صحيح].

كانت وسيلة الإسراء البراق، بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول «عُرِّجَ» فلم تبين الوسيلة، وفي بعضها: «نصب لي المعراج»، قال ابن كثير [في البداية]: (وهو السُّلَم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه البعض).

موقف قريش من الإسراء والمعراج:

خشي الرسول ﷺ أن يكذبه قومه، فأصبح في ذلك اليوم مهمومًا. فجلس إليه أبو جهل وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئًا، «هل كان من شيء؟» فأخبره النبي ﷺ بالإسراء. فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرأيت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما حدثتني؟»، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاؤوا إليه، وطلب منه أبو جهل أن يحدثهم فحدثهم. فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم. فرفعه الله ﷻ له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النَّعْتُ فقد والله أصاب» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنهم استنكروا أن يذهب الرسول ﷺ إلى الشام ثم يعود في جزء من ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين، ولذا ارتد ناس ممن كان قد أسلم [أحمد في المسند والحاكم بسند صحيح].

أما أبو بكر فعندما أخبر بالخبر، صدقه دون تردد، قائلًا: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئًا قال: صدقت. أشهد إنك رسول الله... فقال النبي ﷺ: «**وأنت يا أبا بكر الصدِّيق**»، فيومئذ سمَّاه الصديق. [الحاكم بسند صحيح].

الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معًا:

قال القاضي عياض [في الشفا]: (اختلف العلماء في الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ، فقيل إنما كان جميع ذلك في المنام، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين أنه أُسريَ بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل..).

وقال ابن حجر [في الفتح]: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل...).

ب- دلالات وعظات وعبر:

١- إن حديث الإسراء والمعراج متفق عليه بين أهل الحديث والمغازي، وثبت بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، فهو قطعي الثبوت. وهو بإجماع جماهير المسلمين من معجزاته ﷺ. وفي إنكاره إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٢- جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول ﷺ لتجدد عزيمة الرسول ﷺ ولتدلل على أن هذا الذي يلاقيه من قومه ليس سببه تخلي الله عز وجل عنه، وإنما هي سنة الله تعالى مع أحبائه في كل عصر ومصر؛ وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين، وما تمثل له من رموز لهذا المعنى؛ وبينت له أن الأرض إذا ضاقت في وقت، فإن السماء تفتح أبوابها لتستقبله، ولئن آذاه بعض أهل الأرض في وقت ما، فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين.

٣- إن الاقتران الزماني والمكاني بين إسرائه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضًا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى ومحمد ﷺ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به(١)؛ وفيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من مطامع أعداء الإسلام.

٤- ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هو أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام الله حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، على الرغم من أنها ظلت فيهم زمانًا طويلًا، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالًا بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال فيه احترام للإيمان الذي درج - قديمًا - في رحابه. [الغزالي ورواس].

٥- إن في اختيار رسول الله ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل ﷺ، دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة. لأن اللبن مادة لم تتغير طبيعتها، والخمر نتيجة تغيير كيماوي في طبيعة العنب وغيره من مصادر الخمر، إضافة إلى أن الخمر يغيِّر فطرة الإنسان؛ لأنه يذهب العقل.

٦- إن في جمع الله ﷻ المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها، ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة دل على أن النبوات يصدق بعضها بعضًا، وأن محمدًا هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين، وأبان مكانة محمد ﷺ عند ربه.

---

(١) إشارتي هنا إلى الحديث الصحيح: «...والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

٧- إن رؤية طرف من آيات الله ﷻ الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ومعرفة عقباهم، ورفـع لمعنويـات نبيـه ﷺ وأصـحابه ليواجهوا قوى الكفار المتألبة عليهم.

٨- إن وقوع مثل معجزة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد مضي اثني عشر عامًـا من مبعثه دَلَّ على أن الخوارق والمعجزات تأتي في طريق محمـد ﷺ ضربًـا مـن التكـريم والإيناس لشخصه، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي، وذلك عـلى عكـس ما وقع لبعض الأنبياء، مثلما وقع لموسى ﷺ، حيث إن الخـوارق في سـير هـذا الـبعض قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة.

وتأكيدًا لهذا، فعندما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء، جاء الجواب من الله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[الإسراء:٩٣].

فلما رقى في السماء بعـد ذلـك، لم يـذكر قـط أن ذلـك ردًا عـلى التحـدي أو إجابـة على الاقتراح السابق.

٩- إن فرض الصلوات الخمس في ليلة المعراج دليـل عـلى أهميـة هـذا الـركن مـن أركان الإسلام، الذي يجب أن يكون معراجًا يرقى بالنـاس كلـما تـدلت بهـم شـهوات النفوس وأغراض الدنيا [الغزالي].

المبحث الثالث والثلاثون: البحث عن وطن للدعوة

أ- عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله ﷻ فيه آمنًا، ولـذا كـان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وهجرتـه هـو إلى الطـائف، ثـم عـرض نفسـه عـلى القبائل. وكان عرض نفسه على القبائل بأمر من الله ﷻ، ودليـل هـذا قـول ابـن حجـر [في الفتح]: (وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي [كلاهما في الدلائل] بإسناد حسن عـن



ابن عباس: «حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب»...).

وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات هامة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين. وكان يطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم على دعوته.

ومما كان يقوله في هذه المواسم [كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والذهبي]: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي».

و: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به...» [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن إسحاق: السيرة].

وتقول الرواية نفسها إن عمه أبو لهب- عبد العزى بن عبد المطلب - كان يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديثه، قال: «هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم وأن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أُقَيْش إلى ما جاء به من البدعة والضلال...» وفي رواية عند ابن إسحاق في السير، بسند حسن، أنه كان يتبعه ويرميه بالحجارة، وقد أدمى قدميه.

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها ودعاها إلى الإسلام فأبوا: كندة، وفيهم سيدهم مُلَيح - أو فُلَيح [ابن إسحاق: السيرة والسير]، وبنو عبد الله من كلب [المصدران نفساهما]، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحًا [ابن إسحاق: السيرة]، وبنو عامر ابن صَعْصَعَة، وقال رجل منهم يدعى بَيْحَرَة بن فِرَاس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب،.. أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك،

أيكون لنا الأمر من بعدك؟» قـال: «الأمـر إلى الله يضـعه حيـث يشـاء»، قـال: «أفَنُهْـدِفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك؛ فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركتـه السـن، حتـى لا يقدر أن يُوَافِيَ معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلـك الموسـم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتىً مـن قـريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه ونخـرج بـه إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخُ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هـل لذُنابَاها [أي ذنبها] من مطلب، والذي نفسُ فلان بيده، ما تَقَوَّلَهـا إسـماعيلي قَـطّ، وإنهـا لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟»، ومُحَارِب بـن حَصَـفَة وفَـزَارة وغَسَّـان ومُـرَّة وسُـلَيم وعَبْس وبنو النضر وبنو البكاء، وعُذرةَ والحَضَارِمة، [ابـن سـعد] وربيعـة وبنـو شـيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة،والمثنى بن حارثـة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث إلى حين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حَـدَثًا ونـؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملـوك، فـإن أحببـت أن نؤيـدك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أسأتم في الـرد إذ أفصـحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه، أرأيـتم إن لم تلبثـوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشـكم نسـاءهم، أتسـبِّحون الله وتقدِّسونه؟»**، فقال النعمان بن شريك: «اللهـم! نعـم»، فـتلا رسـول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[الأحـــزاب: ٤٥- ٤٦].

وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم. [ابن حبان: السـيرة؛ البيهقـي: الـدلائل، بسـند حسـن؛ الحاكم وأبو نعيم، بسند حسن].

لقد كان أهل المدينة أكثر الناس تجاوبًا مع دعوة الرسول ﷺ عندما عـرض علـيهم الإسلام. فعندما عرض الرسول ﷺ الإسلام على سُوَيْد بن الصامت، لم يعلن الإسلام ولم يبعد عنه، واستحسن ما سمع من القرآن. وعندما عـاد إلى بـلاده، وقتـل في حـرب بُعَاث - بين الأوس والخـزرج -، كـان رجـال مـن قومـه يقولـون إنـه مـات مسـلمًا. [ابن إسحاق: السيرة].

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] **أن وفدًا من بني عبد الأَشْـهَل عـلى رأسـه** أبو الحَيْسَر، أنس بن رافع، وفيه إِياس بن مُعاذ، قدموا مكة يلتمسون الحلف مع قـريش ضد قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «**هل لكم خير مما جئتم له؟**»، فقالوا له: «وما ذاك؟»، قال: «**أنا رسول الله، بعثني إلى العبـاد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا بـه شـيئًا، وأنـزل علـيّ الكتـاب**». ثـم ذكـر لهـم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حدثًا: «**أي قـوم، هـذا والله خير مما جئتم له**». فزجره أبو الحيسر، فصمت، وسمعه قومه عنـد موتـه يهلـل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا.

لقد استشعر إياس الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من الرسول ﷺ ما سمع.

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر - قيل سـتة وقيـل ثمانيـة - من الخزرج، عند العقبة، فجلسـوا معـه. فـدعاهم إلى الإسـلام، وتـلا علـيهم القـرآن [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن كثير: البداية: من حديث ابن عقبة].

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كـانوا معهـم في بلادهـم، ومعلـوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال قـال لهـم اليهـود: «إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!».

فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله أنه للنبي الذي تدعوكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الوسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وهناك سبب آخر أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو يوم بُعاث. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان يوم بعاث يومًا قدمه الله لرسوله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهم وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ [خيارهم وأشرافهم] وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

ب- عظات وعبر:

١ - إن أمثال أبي لهب لا ينعدم في مجتمعات الكفر والانحراف العقدي الصريح، وهي نماذج من الناس مثل سلوك وتفكير أبي لهب، تقف في وجه الدعاة في كل زمان ومكان، بمثل موقف أبي لهب من ابن أخيه محمد ﷺ، ويصدون عن سبيل الحق ويبغونها عِوَجًا، بما يتاح لهم من وسائل، فيصفون دعاة الدين الحق بأنهم دعاة بدعة وضلالة، ودعاة دين جديد أو مذهب خامس، أي ليس من بين المذاهب الأربعة المشهورة. ولم يتأثر الرسول ﷺ لموقف عمه أبي لهب، بل استمر في دعوته. فعلى الدعاة أن يتأثروا بمواقف المغرضين.

٢- على الدعاة أن يطرقوا جميع الأبواب التي يمكن أن تقود إلى التمكين للـدين في الأرض، وعدم اليأس مهما تكررت محاولات الاتصـالات الفرديـة والجماعيـة، ومهـما كانت النتائج القريبة سلبية.

المبحث الرابع والثلاثون: البيعة

أ- بيعة العقبة الأولى:

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة، جاء إلى أداء مناسك الحـج اثنـا عشـر رجلًا من المسلمين من المدينة بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسـم السـابق وآمـن بـه، فلقوا الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتـى بـايعوه. وقـد روى البخـاري ومسـلم وغيرهما، من حديث عبادة بن الصامت الذي كان ضمن حجاج المسلمين مـن المدينـة، رووا صيغة هذه البيعة، وهي:

قال عبادة: إن الرسول ﷺ قال لهم: «**تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيـديكم وأرجلكـم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصـاب شـيئًا، فسـتره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه**»، فبايعوه على ذلك.

قال عبادة بن الصامت في رواية ابن إسحاق [في السيرة بسند حسـن] «**فبايعنـا رسـول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب**». [أي: على غرار بيعة النساء ثاني أيام فتح مكة، وليس فيها الجهاد].

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ **مُصْعَب بن عُمَيْر** ليقرئهم القـرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى (مقرئ المدينة). وكان منزلـه عـلى أَسْـعَد ابن زُرَارَة [رواه أئمة السيرة، وإسناده في الدلائل (٢/ ٤٣٨) مرسل حسن، ورجاله ثقات].

روى أبو داود وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، وغيرهما من طريق عبد الرحمن ابن كعب بن مالك أن أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة هو أسعد بن زرارة، وكانوا أربعين رجلًا أمَّهم مصعب بن عمير. فقد كتب إليه الرسول ليجمع بهم [الدار قطني: السنن].

أسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بمعاونة أسعد بن زرارة، وممن أسلم من أشرافهم [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل حسن]: أُسَيْد بن الحُضَيْر وسعد ابن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل الرجال والنساء، إلا أُصَيْرِم عمرو بن ثابت بن وَقَشٍ، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، وأسلم حينئذ وقاتل فقتل قبل أن يسجد لله سجدة واحدة، فأخبر عنه النبي ﷺ، فقال: **«عَمِلَ قليلًا، وأُجِرَ كثيرًا»** [البخاري وابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف (وتلك أوس الله)، وهم الأوس ابن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأَسْلَت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة [ابن إسحاق: السيرة، مرسلًا].

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب ابن عمير إلى مكة ليبشر الرسول ﷺ بنجاح مهمته، بتوفيق الله تعالى [ابن إسحاق: السيرة].

ب- بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة، قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعًا البَرَاء بن مَعْرُور [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف [أحمد: المسند، وسنده صحيح].



وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمـان ومكان اللقاء؛ لإبرام اتفاق من أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وقد روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] قصة هذا اللقاء عن كعب بـن مالـك، قال ﷺ: «... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسـول الله ﷺ العقبـة مـن أوسـط أيـام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعـدنا رسـول الله ﷺ لهـا... فنمنـا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنـا في الشِّعْب عنـد العقبـة، ونحـن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نَسِيبَةُ بنت كَعْب - أمُّ عُمارَة - وأسـماء بنت عمرو بن عدي... وهي أُمُّ مَنِيع.

«فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبـد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يـا معشــر الخـزرج - وكانـت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمـدًا منـا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيهم مثل رأينا فيه، فهو في عـز مـن قومـه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فـإذا كنـتم تـرون أنكـم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. فإنـه في عِـزٍّ وَمَنَعَةٍ من قومه وبلده». قال: فقلنا له: «قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسـول الله، فخـذ لنفسك ولربك ما أحببت».

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القـرآن، ودعـا إلى الله، ورغَّـب في الإسـلام، ثـم قـال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيـده

ثم قال: «والذي بعثك بالحق نبيًا لنمنعنك مما نمنع منه أُزْرَنَا، فَبَايِعْنَا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقَةِ[السلاح]، ورثناها كَابِرًا عن كابر». فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حِبَالًا، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا؟»، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ** [أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم]، **أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**».

بعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في مواسم حج عام إحدى عشرة واثنتي عشرة من المبعث، وهما: العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة وأسعد بن زرارة، أرادا أن يبينا لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبايعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد.

قال العباس بن نضلة: [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل] «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: «نعم»، قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالُكُم مُصِيبَةٌ، وأشرافُكُم قتلًا، أَسْلَمْتُمُوه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَةِ الأموال، وقَتْلِ الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»، قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إنْ نحن وفَّينا بذلك؟»، قال: «الجنة»، قالوا: «أبسط يدك»، فبسط يده فبايعوه».

وقال أسعد بن زرارة عندما قام الناس للبيعة: «رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة،

وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمَّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله»، فقالوا له: «يا أسعد، أَمِطْ عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد الرسول ﷺ - أي صافحه - مبايعًا، ثم تتابع القوم رجلًا رجلًا لمبايعة الرسول ﷺ، مبشرًا بالجنة من وفى بها [المصدر نفسه]. وذكر ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، أن أول من ضرب على يد الرسول ﷺ البراء بن معرور.

وأما عن كيفية مبايعة المرأتين فقد قال ابن إسحاق [في السيرة]: (يزعمون أنهما قد بايعتا - يعني صافحتا - وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: «اذهبن فقد بايعتكن»).

وعندما تمت البيعة قال لهم رسول الله ﷺ [كما روى ابن إسحاق في السيرة]: «**أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا، ليكونوا على قومهم بما فيهم**» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم:

عبادة بن الصامت، البراء بن معرور، عبد الله بن رواحة، سعد بن الربيع، أبو أمامة أسعد بن زرارة، سعد بن عبادة، المنذر بن عمرو، أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، عبد الله بن حَرَام، رَافع بن مالك، أبو الهيثم ابن التيهان. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] جميع من حضر البيعة.

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم**».

لقد روى البخاري ومسلم وابن إسحاق [في السيرة بسند حسـن] بنـود هـذه البيعـة. ولكن رواها أحمد [في المسند، بسند حسن] من حديث جابر، والبيهقي [في الدلائل بسند جيـد] من حديث جابر وعبيد بن رفاعة بتفصيل أكثر مما جاء عند البخاري ومسلم وابن إسحاق.

قال جابر: «قلنا يا رسول الله علام نبايعك؟ قال:

١- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢- وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- وعلى أن تقولوا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥- وعـلى أن تنصـــروني إذا قـدمت إلـيكم، وتمنعـوني ممـا تمنعـون منـه أنفسـكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»، وهو لفظ أحمد والبيهقي مع اختلاف يسير.

أما لفظ ابن إسحاق المشار إليه فهو، قال ابن الصامت: «بايعنا رسـول الله ﷺ عـلى السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وَأَثَرة علينا، وأن لا نُنازع الأمر أَهْلَهُ، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

بعد أن تمت البيعة وتعين النقباء، كان القوم على وشك مغادرة مكـان اللقـاء، فـإذا بالشيطان يكتشف هذا اللقاء. وليتمكن زعماء المشـركين مـن المجـيء والقـبض عـلى المسلمين قبل أن ينفضوا، صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سُمع، قائلًا: «يا أهل الجَباجِب [منازل منى]، هل لكم في مُـذَمَّم [المذموم] والصُّـباة معـه، قـد اجتمعـوا عـلى حربكم؟» فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أَزَبُّ** [اسم شيطان] **العقبة، هذا ابن أَزْيَـبِ، اسـمع أي عَدُوَّ الله، أما والله لَأَفْـرُغَنَّ لـك**». ثـم قـال رسـول الله ﷺ: «**أَرْفِضُـوا** [تفرقـوا] **إلى رحالكم**» [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن]. [ويقال: ابن أُزَيب].



وعند سماع صراخ وقول هذا الشيطان، قال العباس بن عبادة بـن نضـلة: «والـذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا». فقـال لهـم رسـول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**». فرجعوا وناموا حتى أصبحوا [المصدر نفسه].

قال كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتـى جاؤونـا في منازلنـا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صـاحبنا هـذا تسـتخرجونه مـن بـين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه - والله - ما من حي من العرب أبغض إلينـا إن نشـبت الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بـالله مـا كـان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظـر إلى بعـض... قال: ونفر الناس من منى فَتَنَطَّسَ [بالغوا في التحري عنه] القوم الخبر، فوجدوه قد كان».

وتقول الرواية: إنهم خرجوا في طلب القوم، ولم يدركوا غير سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فأفلت منهم المنذر وقبضوا على سعد، وعادوا به، مغلولة يداه إلى عنقه، ويجذبونـه من شعره، ويلكزونه، حتى أنقذه الله منهم بجبير بن مطعم والحارث بـن حـرب، إذ كـان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة المنورة في طريقها من الشام وإليها [المصدر نفسه].

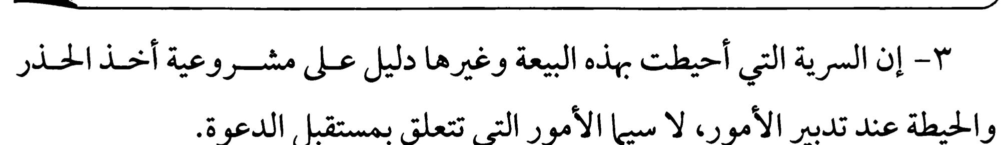
نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية:

لقد كان لهذه البيعة نتائج عظيمةقريبة وأخرى بعيدة. **فمن النتائج القريبة:**

١ - إن الأنصار قد فهموا أن حماية الرسول ﷺ سوف تعرضهم لعداوة واعتداء أعداء الرسول ﷺ من المشركين واليهود.

وهذا يعني الجهاد، على الرغم من أن بنود البيعة لم تنص صراحة على أبعد مـن ذلـك، أي التصدي لمن يقف في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ - إن سعي مشركي مكة للقبض على مسلمي المدينة عندما اتضح لهم أن هنـاك ثمـة تدبيرًا منهم لحماية رسول الله ﷺ، يدل على أن عداء الشرك والكفر للإيمان في كل مكان.



٣- إن السرية التي أحيطت بهذه البيعة وغيرها دليل على مشروعية أخذ الحذر والحيطة عند تدبير الأمور، لا سيما الأمور التي تتعلق بمستقبل الدعوة.

٤- لقد كانت هذه البيعة الأساس الذي هاجر عليه المسلمون - بمن فيهم الرسول ﷺ - إلى المدينة المنورة.

٥- أضحى الإسلام عزيزًا في المدينة، فاستعلن بإسلامه من كان قد استخفى به.

٦- ضيق كفار مكة الخناق على المسلمين عندما عرفوا خطورة اتصال الرسول ﷺ بمسلمي المدينة. وكان هذا التضييق سببًا في تعجيل الرسول ﷺ بأمر هجرتهم إلى المدينة.

٧- أما على المدى البعيد، فقد كانت هذه البيعة الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقها من هناك إلى أنحاء الدنيا [الشامي: المعين؛ البوطي: السيرة].

٨- ولأهمية هذه البيعة، ولما ترتب عليها من نتائج عظيمة قريبة وبعيدة، فقد كان للمبايعين فيها وفي التي قبلها فضل لا يكاد يقل عما لأهل بدر والهجرتين - هجرة الحبشة وهجرة المدينة - وبيعة الرضوان، من شرف وفضل.

٩- إن عداوة الشيطان للحق وتألمه من علو نجمه ظاهرة ماضية، فهو دائمًا ما يغري أعداء الإسلام بالمؤمنين من أهل المدينة والرسول ﷺ.

١٠- كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله ﷻ بشرعيته في مكة إلا أن الله ﷻ قد ألهم نبيه محمدًا ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب؛ والدليل على ذلك رد الرسول ﷺ على العباس بن عبادة الذي أبدى الاستعداد على حرب أهل منى، فقال له الرسول ﷺ: «**لم نؤمر بذلك...**».

ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في مشروعية الجهاد قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾[الحج:٣٩]، حيث نزلت عندما قال أبو بكر رضي الله عنه مستنكرًا إخراج قريش الرسول ﷺ من مكة: «أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن». وعندما نزلت الآية، قال أبو بكر: «فعرفت أن سيكون قتال» [الترمذي، وحسنه وصححه الألباني].

١١ - اقتضت رحمة الله عز وجل بعباده أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام [البوطي]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتربوا التربية التي تؤهلهم للجهاد.

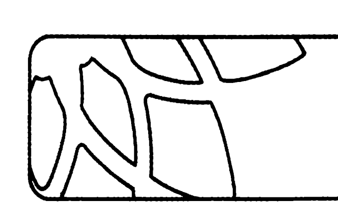
١٢ - ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته على الصحيح، وليس كما يفهم من كلام ابن إسحاق [في السيرة]، إنه إنما شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية [ابن هشام، بسند حسن]، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

فائدة:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]، أن البراء بن معرور رضي الله عنه، عندما جاء إلى مكة لمبايعة الرسول ﷺ في العقبة الثانية، كان يصلي - في تلك السفرة - إلى الكعبة، وعندما التقى بالرسول ﷺ قال: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّة مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلى رضي الله عنه إلى الشام...».

وبذلك يكون البراء أول من صلى إلى الكعبة في الإسلام.





الفصل الثاني
الهجرة إلى المدينة

المبحث الأول: أسبابها:

أولًا: الابتلاء والاضطهاد:

منذ أن أعلن الرسول ﷺ الدعوة ظل يتعرض لشتى أنواع المضايقات، هو ومن أسلم. وقد ذكرنا ذلك في المباحث السابقة، ولذا كان رسول الله ﷺ يفكر دائمًا في طلب الحماية خارج مكة، عندما استعصت عليه مكة. فكانت هجرة الحبشة وهجرة الطائف، وأخيرًا هجرة المدينة.

ومما يؤكد أن الابتلاء والاضطهاد كانا سببًا من أسباب الهجرة إلى المدينة قول بلال رضي الله عنه عندما هاجر: «... اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء...» [البخاري].

وقول عائشة رضي الله عنها في سبب هجرة أبيها إلى المدينة: «استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى...» [البخاري].

وكان ذلك هو السبب نفسه في محاولته الهجرة إلى الحبشة من قبل هو وسائر المسلمين كما قالت عائشة رضي الله عنها: «... فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة...» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن من أسباب الهجرة تعذيب المسلمين.

ثانيًا: وجود حماية للدعوة تمكنها من السير في طريقها:

يفهم ذلك من نصوص بيعة العقبة الثانية كما رواها الإمام أحمد عن جابر، وكما رواها غيره، وفي حديث ابن إسحاق.

ثالثًا: التكذيب والإخراج:

تكذيب كبار زعماء قريش ومعظم عامتهم الرسول ﷺ فأجبروه أن يفكر في قوم آخرين يصدقونه، كما رأينا. وقد عبر سعد بن معاذ عن هذا المعنى في قوله: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه». وفي رواية: «... من قوم كذبوا نبيك وأخرجوه من قريش» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] من بين ما ذكر من أسباب، أن تكذيب قريش الرسول ﷺ كان من أسباب الهجرة.

رابعًا: مخافة الفتنة في الدين:

وذلك واضح من قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن الهجرة: «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه...» [البخاري].

ومن قول ابن إسحاق [في السيرة]: (وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم...).

خامسًا: الإذن للمسلمين بالقتال:

ذكر ذلك ابن إسحاق [في السيرة] وقال إن الآيات ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾[الحج:٣٩] هي أول آيات أنزلت في إذنه له بالحرب لمن بغى عليهم.

وتابع في هذا ابن عباس [كما عند أحمد في المسند بسند صحيح]. وفي كل ذلك كان المسلمون يبتغون وجه الله تعالى، ويتحملون في سبيله كل ما يقع عليهم من الإيذاء الحسي والمعنوي ومفارقة الأهل والعشيرة والموطن.

وفي هذا يقول خباب ﵁: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله...» [البخاري].

وقد أفاضت الأحاديث في فضل الهجرة والمهاجرين [خاصة في الصحيحين]، لأن الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بدولة تحميه، ولا يتصور وجود دولة بدون أرض تقوم عليها ورعية تسمع وتطيع لحاكمها.

روى البخاري عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة: «**إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحَرَّتان - فهاجر من هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة...**».

أول المهاجرين:

ذكر البخاري أن أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أول من هاجر هو أبو سَلَمَة بن عبد الأسد، وجزم بذلك موسى بن عقبة [كما رواه الذهبي في السيرة]. وذكر ابن حجر [في الفتح] أنه يمكن الجمع بين حديث أهل المغازي والسير وحديث البخاري بحمل الأولوية على صفة خاصة، هي أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة، بخلاف مصعب، فكان عليه نية الإقامة بها، ليعلِّم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فلكل أولوية من جهة.

ما وقع للمسلمين في سبيل الهجرة:

ذكرت أم سلمة رضي الله عنها أن زوجها أبا سلمة عندما أراد الهجرة حملها مع ابنه سـلمة، فرآه أهلها، فلحقوا به، وقالوا له: «هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيـت صـاحبتك هـذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد»، وانتزعوها منه، وغضب عند ذلـك رهـط أبي سـلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجـاذبوا الطفـل بيـنهم حتى خلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحـده إلى المدينـة، فكانـت أم سـلمة - بعد هجرة زوجها وانتزاع ابنها منها - تخرج كل غداة فتجلس بـالأبطحَ، تبكـي حتـى تمسي، نحو سنة، فرق لها أحد ذويها، فقال لرهطـه: ألا تُخْرُجُـون مـن هـذه المسـكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: إن شـئت الحقـي بزوجـك، فاسـترجعت ابنها من آل سلمة، وهاجرت إلى المدينة بصحبة عثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه [ابن إسـحاق: السيرة، بسند حسن].

وعندما أراد صهيب الهجرة، قال له المشركون: «أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالـك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالـك ونفسـك، والله لا يكـون ذلـك»، فقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أَتُخَلُّون سـبيلي؟» قـالوا: «نعـم»، قـال: «فإني قد جعلت لكم مالي». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صـهيب..» [الحـاكم، من حديث ابن إسحاق بسند صـحيح] وفي رواية عنه أنه قال لهم عندما لحقوا به: «هل لكـم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أُسْكُفَّة الباب، فإن تحتها الأواقي. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُبَاءَ، قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: يا أبا يحيى، رَبِحَ البَيْعُ، ثم تـلا هـذه الآيـة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾»[البقرة:٢٠٧] [الحاكم، وصحح إسنادها]. [الأُسْكُفَّة والأَسْكُفَّة: عتبة الباب التي يوطأ عليها].

ورويـت عـدة روايـات مرسـلة في أن آيـة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ ﴾ قد نزلت فيه بمناسبة قصة هجرته. وعلق الطبري [في تفسيره] عـلى هـذه الروايات بعد أن أوردها، فقال في تعليقه: (وأما ما روي من نزول الآية في أمر صهيب، فـإن ذلـك غـير مسـتنكر، إذ كـان غـير مـدفوع جـواز نـزول آيـة مـن عنـد الله عـلى رسول الله ﷺ بسبب من الأسباب، والمعني بها كل من شمله ظاهرها). وقال ابن كثـير [في تفسيره] - بعد أن أورد الروايات في هذا الشأن -: (وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله...)، ولا تعارض بين ما ذكر الطبري وهـذا الـذي ذكره ابن كثير، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الفقهاء.

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «اتَّعدت لما أردنـا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بـن أبي ربيعـة، وهشـام بـن العـاص بـن وائـل السـهمي التَّنَاضُبَ من أَضَاةِ بني غِفَار، [وقال البلاذري: (التَّناضُب وأضاة بنـي غفـار، موضـع واحـد. الأضاة: أرض تمسك الماء فيتكون فيها الطين. والتناضب: شجرات في هذه الأضاة، وهـي لا زالـت مشاهدة على جانب وادي سرف الشمالي إلى جوار قبر أم المؤمنين ميمونة، وقام بجانبهـا الغـربي حـي على بعد ثلاثة عشر كيلًا من مكة، نحو الشمال)، وانظر محمد شراب: المعالم الأثيرة،مادة: التناضب.] فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبِسَ فلـيمض صـاحباه. فأصـبحت أنـا وعياش عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن». [وهذا الأثر أو الخبر الصـحيح في قصة هجرة عمر رضي الله عنه يخالف الأثر الضعيف المشهور عند كثير من الناس من أن عمـر رضي الله عنه أعلـن هجرته، وقال للمشركين: من أراد أن تثكله أمه، وترمل زوجتـه فليلقنـي وراء هـذا الـوادي ألأثـر، وأصل ألأثر عند ابن الأثير: أسد الغابة (٤/ ٥٨)، وقد خرجـه الألبـاني في دفـاع، ص ٤٣، وحكـم عليه الضعف. ورواه كذلك ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٢٧٨)].

وعندما نزلت الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر:٥٣- ٥٥]، كتبها عمر وأرسل [ابن إسحاق، بسند حسن] بها إلى هشام بن العاص بمكة، فوجد صعوبة في فهمها، فدعا الله أن يفهمه إياها، فألقى الله في قلبه أنها نزلت في أمثاله، فلحق برسول الله ﷺ بالمدينة. وعند ابن عبد البر [في الاستيعاب] أنه هاجر بعد الخندق.

وقد ثبت أنه ﷺ كان يقنت في صلاته بعد الركوع الأخير داعيًا: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة...**» الحديث، وفي رواية: «... **اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين...**» [البخاري]. وقد أنجا الله هؤلاء الثلاثة وغيرهم.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قدم مهاجرًا إلى المدينة في عشرين راكبًا من أصحاب النبي ﷺ. وقد سمَّى ابن إسحاق [في السيرة] جماعة منهم، وصدَّر الرواية بقوله: «ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه...»، وختمها بقوله: «... وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه حين قدما المدينة». قلت: فرواية ابن إسحاق تفسر رواية البخاري، وتدل على أن هؤلاء العشرين من أهل عمر، من غير عياش، لحقوا به ولم يرافقوه ابتداء، إذ أن من رافقه عياش. وبهذا يزول التعارض الظاهر بين الروايتين.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فعندما أراد أن يهاجر، استبقاه الرسول ﷺ ليصحبه في هجرته عندما يؤذن له بذلك. وظل يستعد لذلك اليوم، فاشترى راحلتين، وأخذ يعلفهما لمدة أربعة أشهر [ابن هشام].

وقد روى الحاكم [وصححه، وقال الذهبي: (صحيح غريب)]، أن الرسول ﷺ قال لجبريل ﷺ: «**من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق**».

وتتابعت مواكب المؤمنين إلى دار الهجرة، دار الإسلام، ولم يبق أحد في دار الكفر، دار الحرب، إلا مستضعف مغلوب على أمره، أو صاحب عذر.

وكان آخر من بقي ممن هاجر عبد الله بن جحش رضي الله عنه. وكان قد كف بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة، فهاجر بأهله وماله سرًا، حتى قدم المدينة، وسطا أبو سفيان على داره بمكة فباعها. ومر بها بعد ذلك أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعباس بن عبد المطلب وحويطب بن عبد العزى، وفيها أُهُبٌ [جلود غير مدبوغة] معطوبة، فذرفت عينا عتبة، وتمثل ببيت من شعر، هو:

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا سيدركها النكباء والحوب

وأقبل أبو جهل على العباس قائلًا: «هذا ما أدخلتم علينا» [الطبراني].

وروى هذه القصة ابن إسحاق [في السيرة] بنحو رواية الطبراني عند الهيثمي، ولكن في روايته أن الكفيف هو عبد بن جحش وكنيته (أبو أحمد)،وهو أخو عبد الله بن جحش، وأن زوجته هي الفرعة ابنة سفيان بن حرب، وأن أخاه عبد الله حمله معه عندما هاجر إلى المدينة مع أهله. ويبدو أن رواية ابن إسحاق هي الأقرب إلى الصواب، فقد ذكرها ابن حجر [في الإصابة]، ولم يذكر غيرها.

وفي هذه القصة وغيرها دليل على أن كثيرًا من الدور بمكة قد خلت من أصحابها.



المبحث الثاني: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

أولًا: تآمر قريش:

عندما علم المشركون بما تـم بـين الرسـول ﷺ والأنصـار في بيعـة العقبـة الثانيـة، وعندما رأوا المسلمين يهاجرون إلى المدينة زرافات ووحدانًا، خشوا من تجمع المسـلمين بالمدينة، وخروج الرسول ﷺ إليهم ليقودهم نحو تحقيق ما يريد، ولذا قرروا التخلص منه ﷺ.فعقد زعماؤهم اجتماعًا خطـيرًا في دار النـدوة، ليتشـاوروا في أنجـع الوسـائل للتخلص من الرسول ﷺ.

وقد ذكر القرآن الكريم مضمون الآراء التي طرحت في ذلك الاجتماع. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] [أحمد: المسند، وحسن ابن كثير في البداية إسناده. [ليثبتوك: ليسجنوك].

وجاءت الأحاديث والآثار مفصلة ما أجملته هذه الآيـة. فإضـافة عـلى مـا جـاء في رواية ابن عباس عند أحمد في سبب نزول الآيـة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾[الأنفال:٣٠] هنـاك روايـة أخرى عن ابن عباس عند ابن إسحاق [في السـيرة] فيها تفصيل أكثر عـن هـذه المـؤامرة [ورواه الطبري في تاريخه موصولًا من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

ففي هذه الرواية أنهم عندما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمـر رسـول الله ﷺ جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ، مدعيًا أنه من أهل نجـد، قـال إنـه سـمع بالـذي اجتمعوا له وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة فأذنوا له... [يـذكر السـهيلي في الـروض (٢/ ٢٢٩) أنه ادعى ذلك، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحـد مـن أهـل تهامـة، لأن هواهم مع محمد].

وعندما دارت المناقشة واقترح أحد المؤتمرين أن يحبسوا الرسول ﷺ، قال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم...».

ثم اقترح أحدهم أن ينفوه، فدحض النجدي الاقتراح مبينًا أن حسن حديث الرسول ﷺ ومنطقه الذي يأسره القلوب سيجذب الناس إليه ويغلب بهم قريشًا. وأخيرًا اقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا نسيبًا وسيطًا فيهم، ويعطى كل واحد منهم سيفًا صارمًا، فيضربون جميعًا بأسيافهم محمدًا ضربة رجل واحد، ليتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فيرضوا بالدية.

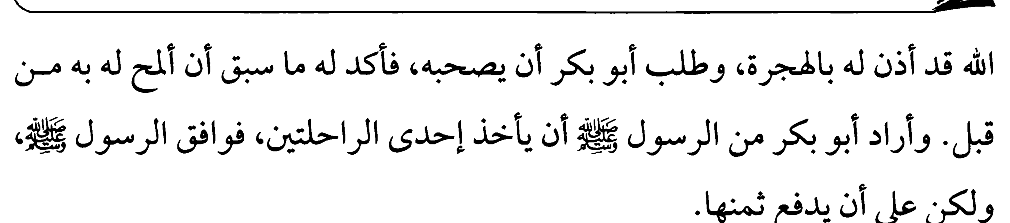
أيد النجدي هذا الاقتراح، ووافق عليه الجميع، وتفرقوا على ذلك ولم يبق إلا التنفيذ. [لم تحدد الرواية الساعة التي اجتمعوا فيها، هل كانت ليلًا أم نهارًا، ولم نقف على المدة الزمنية بين اتخاذ قرار القتل وبين الشروع في التنفيذ].

ثانيًا: الإذن بالهجرة، والتخطيط لها ثم الشروع فيها:

بعد اتخاذ هذا القرار، أتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ وأخبره به، وأمره بعدم المبيت على فراشه هذه الليلة، والهجرة.

روى البخاري والطبري [في التاريخ، بسند حسن]، من حديث ابن إسحاق أنه عندما أذن للرسول ﷺ وأمر بالهجرة جاء متقنعًا إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يعتد أن يزوره فيه، في نحر الظهر - أو النهار - وهو أشد ما يكون في حرارة النهار. وعندما أخبر أبو بكر بقدومه، علم أن قدومه في تلك الساعة وبتلك الكيفية، إنما هو لأمر خطير.

وعندما أذن له أبو بكر بالدخول، طلب أن يخرج من عنده حتى لا يعرف ما يقول له، وطمأنه أبو بكر بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ، ثم أخبر أبا بكر بأن



الله قد أذن له بالهجرة، وطلب أبو بكر أن يصحبه، فأكد له ما سبق أن ألمح له به من قبل. وأراد أبو بكر من الرسول ﷺ أن يأخذ إحدى الراحلتين، فوافق الرسول ﷺ، ولكن على أن يدفع ثمنها.

إن قول أبي بكر للرسول ﷺ بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ يريد بذلك عائشة وأسماء رضي الله عنهما، وهما مسلمتان، وعائشة رضي الله عنها قد عقد عليها الرسول ﷺ، فهي زوجته، فلا خوف منهما. وقد صرح بهذا المعنى موسى بن عقبة في روايته، [عند ابن حجر في الفتح]، فقال: «أخرج من عندك، قال: لا عين عليك، إنما هما ابنتاي»، وفي روايته عن ابن شهاب، قال: «قالت عائشة: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأسماء» - وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، ووصلها الطبري في تاريخه، بسند حسن]: «إنما هما ابنتاي».

عند لقاء الرسول ﷺ بأبي بكر أخذا في وضع خطة للهجرة تبطل كيد الكافرين. وكانت الخطة كالآتي، **كما ذكرها البخاري وابن إسحاق:**

١ - أن يخرجا ليلًا إلى غار ثَوْر [البخاري]، في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، وفي هذا تمويه على الكفار، لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن الرسول ﷺ في الجهة الشمالية - جهة المدينة.

٢ - أن يمكثا في الغار لمدة ثلاثة أيام [المصدر نفسه، وغيره]، حتى يخف الطلب عنهما.

٣- استأجرا دليلًا ماهرًا عارفًا بمسلك طرق الصحراء، ليقودهما إلى المدينة، وهو عبد الله بن أُرَيْقِد [و: أريقط تصحيف] الدِّيْلي، وكان مشركًا. واستكتماه الخبر. واتفقا معه على أن يلحق بهما في غَار ثور بعد ثلاثة أيام. ودفعا إليه بالراحلتين اللتين اشتراهما أبو بكر، وكان يعلفهما لهذا اليوم [البخاري].

٤ -أعدت لهما أسماء زادًا ووضعته في جراب، وقطعت من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، وفي رواية: ذات النطاقين [البخاري؛ ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد].

٥- وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس عنهما في النهار، فيأتيهما به بالليل في الغار، ثم يرجع إلى مكة في السَّحَر، ليصبح مع قريش. [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

٦- وأمر مولاه عامر بن فُهَيْرَة أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحَها عليهما في الغار إذا أمسى، ليطعما من ألبانها [البخاري]، ويذبحا منها للأكل، ويزيل بها آثار أقدام عبد الله ابن أبي بكر. [ابن إسحاق: السيرة].

٧- وأمر أسماء أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما في كل مساء [المصدر نفسه].

٨- وانطلق رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب،فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع والأمانات التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته. [ابن إسحاق في السير معلقًا، ووصله الطبري في تاريخه بسند حسن].

٩- وأمره أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الخضرمي الأخضر، الذي ينام فيه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه منهم شيء يكرهه، وذلك للتمويه [أحمد: المسند، بسند حسن؛ الحاكم؛ ابن إسحاق: السيرة، وهو حسن بشواهده].

١٠- وأمر أبو بكر عامر بن فُهَيْرَة أن يصحبهما في هجرتهما ليخدمهما ويعينهما في الطريق [البخاري].

لقد أمر الله الرسول ﷺ بهذه الهجرة بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه [البخاري]. وعندما أمره بالهجرة، أنزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾[الإسراء:٨٠] [أحمد: المسند، بسند

صحيح]. وكان ما أراده من الله له في هذا الدعاء الموجز المعبر، والذي اختاره له الله ليجعله مفتاحًا للطمأنينة.

أما في الجانب الآخر، فقد اختار زعماء قريش في ندوتهم أحد عشر زعيمًا يمثلون قبائل قريش المعادية للإسلام، فقضوا نهار يومهم ذاك في الإعداد لتنفيذ القرار الذي اتخذوه في دار الندوة.

ومع علم الرسول ﷺ بهذا القرار، لم ينس أن يقوم بعمل إيماني بطولي، يعد بمفهومنا المادي اليوم (مغامرة)، بل قال عنه الذهبي (منكر)، أي غير منطقي. وهو أنه ذهب في تلك الليلة مع علي إلى الكعبة، وأمره أن يصعد على منكبه إلى فوق الكعبة، ليرمي صنم قريش الذي كان من نحاس وموتد بأوتاد من حديد. وعندما كان علي يعالج الصنم ليفكه، كان الرسول ﷺ يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا**».

وتمكن علي من فكه ورميه وتكسيره، وانطلقا ولم يرهما أحد، ولم يرفع الصنم بعد ذلك [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي وأنكر متنه].

وهذا التصرف عندنا لمن المعجزات الدالة على عناية الله ﷻ برسوله ﷺ.

فلما كانت عَتْمَةٌ من الليل اجتمع القوم المنوط بهم تنفيذ الخطة على باب الرسول ﷺ يترقبون نومه، ليثبوا عليه، وكان معهم أبو جهل، ليطمئن على سير الخطة، ويشجعهم على التنفيذ. ومما كان يفعله بهذا الصدد: السخرية من محمد ﷺ والتشكيك في دعوته، فتراه يقول لهم: «إن محمدًا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها» [ابن إسحاق: السيرة، وسنده مرسل حسن].

وبينما هم على هذه الحالة خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد سمع كلام أبي جهل، فأخذ حفنة من تراب، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه، لأن الله قد أخذ على أبصارهم، وهو يتلو الآيات من سورة (يس): ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس:١-٩]. وتركهم على هذه الحالة، ثم خرج» [ابن إسحاق: السيرة].

قال السهيلي: (...فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم - أي الكفار - من التقحم عليه في الدار مع قصر الجدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسبة في العرب أن يتحدث عنا أنَّا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج..). وعبارة الشامي [في السبل]: (..أن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك مع قصر الجدار)، فذكر هنا أن المصدر هو أهل السير وليس أهل التفسير كما عند السهيلي.

وعندما خرج أبو بكر كان يحمل معه كل ماله، وقدره خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وفي طريقهما إلى الغار، وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار، نظر إليها الرسول ﷺ بعاطفة مشحونة بالذكريات، تدل على حبه لها لما بها من رموز في حياته. فكيف لا يحبها وقد أحبها الله ﷻ وجعل بها بيته المقدس، وفيها أرسله الله إلى العالمين.

وقف ينظر إليها وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت» [الألباني: صحيح الترمذي].

وقال عنها في رواية أخرى: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

أما المتآمرون، فعندما رآهم أحد الناس أمام البـاب، سـألهم عـن سـبب وجـودهم أمامه، فأخبروه الخبر، فأعلمهم أن النبي ﷺ قد خرج فلم يصدقوه، لأنهم يـرون عليًـا نائمًا على فراش النبي ﷺ، فظنوه محمدًا ﷺ. ولم يكتشفوا الحقيقة إلا عندما قام علي من الفراش في الصباح [ابن إسحاق: السيرة، مرسلًا، يعتضد بغيره].

وعند هذا أخذوا في وضع الخطط للعثور عليه، ومن ذلك:

١ - إلقاء القبض فورًا على علي وضربه وسحبه إلى الكعبة، ثـم اعتقالـه بعضًـا مـن الوقت، لحين التحقيق معه، للوصول إلى معلومات تفيدهم في العثور على الرسول ﷺ. ولكنهم فشلوا معه [المباركفوري والمنصورفوري ولم يحددا المصدر].

٢ - جاء نفر منهم إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه وفيهم أبو جهـل، لعلهـم يجدونـه هنـاك ويفعلون به مثلما فعلوا بعلي. فخرجت إليه ابنته أسماء، فسألوها عن والـدها، فقالـت: إنها لا تدري أين هو، فغضب أبو جهل لهذا الجواب، فلطمها لطمة طرح منهـا قُرْطَهـا [ابن إسحاق: السيرة].

٣- وضعوا جميع الطرق النافذة من مكة تحت المراقبة الدقيقة.

٤ - قرروا منح جائزة مقدارها دية كل من الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه لمن يعثـر علـيهما حيين أو ميتين [البخاري، ابن إسحاق: السيرة، وقال إن الجائزة مئة ناقة لمن يرد الرسول ﷺ إليهم].

٥ - استأجروا قصاص الآثار، ليتبعوا آثارهما حيـثما حـلا [ابـن حجـر: الفـتح. وقـال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٩٣): (ذكر أبو سعيد -في شرف المصطفى- أن المشركين كانوا استأجروا كُرْز ابن علقمة لما خرج النبي ﷺ مهاجرًا، فقفا أثره حتى انتهى إلى غار ثور، فرأى نسـج العنكبـوت على باب الغار، فقال: «إلى هنا انتهى أثره، ثم لا أدري أخذ يمينًا أو شمالًا أو صعد الجبل»)].

الطريق إلى الغار:

روى البيهقي [في الدلائل] وغيره [منهم الحاكم، مرسلًا على شرط الشيخين، وابن حجر في الفتح، ابن هشام، وابن كثير في البداية، يتقوى بشواهده] أنهما عندما انطلقا إلى الغار جعل أبو بكر يمشي ساعة بين يدي الرسول ﷺ وساعة خلفه، وعندما فطن له سأله عن السبب، قال يا رسول الله: «أذكر الطَلَبَ، فأمشي خلفك، ثم أذكر الرَّصَدَ فأمشي بين يديك»، فقال له الرسول ﷺ: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن تكون دوني؟»، قال: «نعم، والذي بعثك بالحق ما كان لتكون من ملمة إلا أحببت أن تكون لي دونك».

أما الخبر الذي يروى عن عمر وفيه أن رسول الله ﷺ عندما خرج من مكة ليلًا ومعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه يحرسه، وعندما حفيت قدما الرسول صلى الله عله وسلم حمله على كاهله إلى فم الغار، وسده أحجار الغار بقدمه، والحيات تلسعه، ودموعه تسيل على الرسول ﷺ...هذا الخبر قال عنه الذهبي [في السيرة]: (وهو منكر، سكت عنه البيهقي [في الدلائل]، وساقه من حديث يحيى بن أبي طالب، أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي.... وآفَتُهُ من هذا الراسبي، فإنه ليس بثقة، مع كونه مجهولًا، ذكره الخطيب في تاريخه فغمزه).

وقال ابن كثير [في البداية] عن هذا الحديث بعد أن ساقه من رواية البيهقي المشار إليها: (وفي هذا السياق غرابة ونكارة).

وزاد الدكتور السعود [رسالة الهجرة] بعد قول ابن كثير هذا: (نعم، لأنه أيضاً في سنده فرات بن السائب - ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة - وقال أبو حاتم: منكر الحديث. وقال البخاري: تركوه، منكر الحديث؛ فهذا الخبر ضعيف منكر).

في الغار:

وعندما انتهيا إلى الغار قال أبـو بكـر للرسـول ﷺ: «مكانـك يـا رسـول الله حتـى أستبرئ لك الغار»، فدخل فاستبرأه، ثم تذكر أنه لم يستبرئ الجحر الـذي فيـه، فقـال: «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ»، فدخل فاستبرأ، ثم قال: «انـزل يـا رسـول الله»، فنزل الرسول ﷺ إلى الغار [البيهقـي في الـدلائل، مرسـلًا؛ الحـاكم، مرسـلًا، صـححه ووافقـه الذهبي]. [والاستبراء: التأكد من سلامة المكان من الآفات الضارة].

ركبت قريش في كـل وجـه يطلبـون النبـي ﷺ. وبعثـوا إلى أهـل الميـاه يـأمرونهم، ويجعلون لهم الجعل العظيم، وأتوا على جبل ثور الذي فيه الغار، الذي فيـه النبـي ﷺ، وصعدوا فوقه، وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهم والخوف والحزن، وقال: «يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصـرنا تحت قدميه». فقال النبي ﷺ: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[متفق عليه]. وفي هذا نزل قـول الله تعـالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠] [متفق عليه].

وحمى الله نبيه في الغار من كل سوء. ومن أدلة حماية الله له ولصاحبه: ما روى أحمـد [في المسند، بسند حسـن] أن قريشًا اقتفوا أثرهما، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصـعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. وروي مثله عن الحسن البصري، وزاد فيه أن النبـي ﷺ كـان يصلي في تلك اللحظات وأبو بكر يرتقب [ابن كثير: البداية، حسن بشواهده].

ومرت أيام الغار بسلام، إلا ما ذكر من أن حجرًا أصاب يد رسول الله ﷺ فقال:

«هـل أنـت إلا أصـبع دميـت وفي سـبيل الله مـا لقيـت»

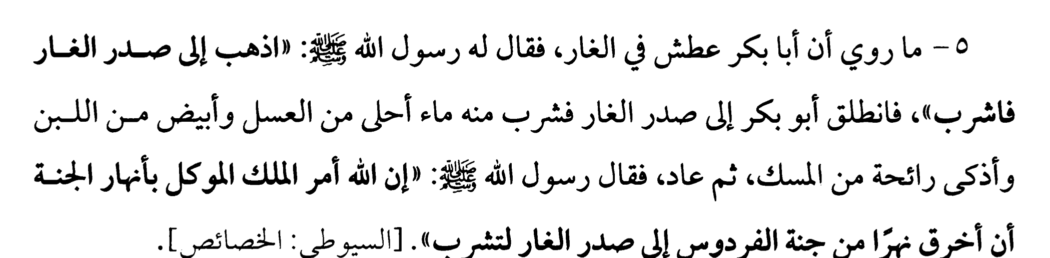
وقد رويت بعض الأخبار الواهية فيما يتعلق بفترة وجود النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بغار ثور، ومن أشهرها:

١- ما رواه ابن سعد والبزار [في كشف الأستار] من أن الله أمر شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن فتيان قريش عندما وصلوا إلى قدر أربعين ذراعًا من فم الغار، نظر أولهما فرأى الحمامتين، فرجع فقال له أصحابه: «مالك لم تنظر في الغار؟» قال: «رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد»، فسمع النبي ﷺ قوله، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فَسَمَّتَ [أي بارك بالدعاء] عليهن وفرض جزاءهن وانحدرتا في حرم الله فأفرختا، وأن نسل حمام الحرم منهما.

٢- روى بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال للرسول ﷺ: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه»،قال النبي ﷺ: «**لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من هنا**»، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه [ابن كثير: البداية].

٣- ما روي من أن أبا بكر قال لابنه عبد الله: «يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية [البزار، كما في البداية]».

٤- ما روي من أن رجلًا من المشركين جاء حتى استقبل رسول الله ﷺ بعورته يبول، فقال أبو بكر: «يا رسول الله: أليس الرجل يرانا؟» قال: «**لو رآنا لم يستقبلنا بعورته**». [الهيثمي: المجمع].



٥- ما روي أن أبا بكر عطش في الغار، فقال له رسول الله ﷺ: **«اذهب إلى صـدر الغـار فاشرب»**، فانطلق أبو بكر إلى صدر الغار فشرب منه ماء أحلى من العسل وأبيض مـن اللـبن وأذكى رائحة من المسك، ثم عاد، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنـة أن أخرق نهرًا من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب»**. [السيوطي: الخصائص].

التوجه إلى المدينة:

ولما انقطع الطلب عنهما، جاءهما الدليل - ابن أرقد - بعد ثلاث ليال من بقائهما في الغار ومعه الراحلتان. وكان معهما عامر بن فهيرة. انطلق الأربعة إلى المدينة، عن طريق الساحل [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

بعد أن اتخذ الرسول ﷺ جميع الأسباب التي في مقدور البشر لينجو مـن الأعـداء، كان مطمئنًا، ولسانه رطب بذكر الله، بالدعاء، بينما أبو بكر يكثر الالتفات؛ حرصًا منـه على سلامة الرسول ﷺ. [البخاري].

وعندما حانت ساعة المقيل في يـومهم ذاك، وخـلا الطريـق، رفـع الله لهـم صـخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس، فنزلوا عندها، وسوى أبو بكر بيده مكانًـا تحتهـا، وبسط عليها فروة، وطلب من الرسول ﷺ أن ينام، وخرج هو ليراقب المكان، فإذا هو براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل ما أرادوا. وتكلـم معـه أبـو بكـر ليعـرف أمره، فعرف أنه رجل من أهل مكة. ورضي أن يحلـب لهـم مـن شـاة لـه. وطلـب منـه أبو بكر أن ينظف الضرع قبل الحليب، وكره أن يوقظ الرسول ﷺ للشـرب، فـانتظره حتى استيقظ، فشرب حتى رضي أبو بكر، ثم أمر بالرحيل. [البخاري].

وكان الرسول ﷺ يردف أبا بكر معه على راحلته، وكان إذا سـأل أحـد أبـا بكـر في الطريق عن الرسول ﷺ، يقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه يعنـي الطريق، وإنما كان يعني سبيل الخير. [البخاري].

وروى البخاري ومسلم من حديث سُرَاقَة بن مالك المـدلجي أنهـم مـروا في طـريقهم بحي بني مُدْلج، فرآهم رجل منهم، فجاء إلى مجلس من مجالس قومـه وفـيهم سراقـة بـن مالك، فقال: «يا سراقة، إني قد رأيت آنفًا أَسْوِدَة بالساحل، أراها محمدًا وأصـحابه». قـال سراقة: «فعرفت أنهم هم: فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنَّك رأيت فلانًا وفلانًـا، انطلقـوا بأعيننا»، ثم لبث في المجلس ساعة، ثم قام فدخل داره، وأمر جاريته أن تخرج بفرسه إلى ما وراء الأَكَمَةِ، ثم تجهز هو وتسلل إلى مكان فرسه، فركبها وانطلق بها. وعندما دنا من محمد ﷺ وأصحابه، عثرت به فرسه، فنزل عنها وأخرج الأزلام، فاستقسم بهـا ليعـرف: هـل يضرهم أم لا؟ فخرج السهم الذي يكره، وهو ألا يضرهم، ولكنه عصـى فركـب فرسـه، وعندما انطلق إلى أن وصل مكانًا يسـمع منـه دعـاء الرسـول ﷺ سـاخت يـدا فرسـه في الأرض حتى بلغتا الركبتين. فنزل عنها ثم زجرها، فنهضت. وعندما انتزع الفـرس يديـه من الأرض، تبعهما دخان كالإعصار، فعرف حين رأى ذلـك أن رسـول الله ﷺ قـد منـع منه، وأن أمره سيظهر، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره، فناداهم بالأمـان، فوقفـوا، فركب فرسه حتى جاءهم، ووقع في نفسه حين لقي ما لقي من الحـبس عـنهم أن سـيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبر الرسول ﷺ أن قومه قد جعلوا فيه الدية، وأخـبرهم أخبـار مـا يريد الناس، وعرض عليهم الزاد و المتاع، ولكنهم لم يطلبوا منه شـيئًا سـوى أن الرسـول ﷺ طلب منه أن يخفي عنهم. وسأل سراقة أن يكتب له كتاب أمان، فأمر عامر بن فهـيرة، فكتب له ما أراد في رقعة من جلد، ثم مضوا.

روى البخاري بسنده إلى أبي بكر رضي الله عنه: «ارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جُعْشُم على فرس له، فقلت هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إن الله معنا».

وعندما رجع سراقة إلى قومه، جعل يقول لهم: «قد استبرأت لكم الخبر. قد كُفِيْـتُم ما ههنا». [البخاري].

وهكذا كان أول النهار جاهدًا عليهما وآخره حارسًا لهما.[البخاري].

وكان كتاب الأمان مع سراقة إلى أن جاء به الرسول ﷺ، عنـدما فـرغ مـن غـزوتي حنين والطائف، فوفاه له رسول الله ﷺ،وقال: «يوم وفاء وبر».ويومها أسـلم سراقـة. [ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن].

روى ابن حجر [في الإصابة] وابن عبد البر [في الاستيعاب] وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «**كيف بك إذا لبسـت سـواري كسـرى؟**» قـال: فلـما أتي عمـر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلًا أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفـع يـديك، فقـال: الله أكـبر، الحمـد الله الـذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بـن جُعْشُم، أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته».

وذكر ابن إسحاق [من رواية ابن بكـير كـما ذكـر البيهقـي في الـدلائل] أبياتًـا مـن الشـعر يحرض فيها أبو جهل قوم سراقة على سراقة، ورد عليه سراقة أيضًا بأبيات مـن الشـعر [ابن كثير: البداية].

ثم مر رسول الله ﷺ وصحبه في مسيره ذلك بخيمتي أم مَعْبَد الخُزَاعِيَّـة، فسـألوها إن كان عندها طعام، فاعتذرت بالجدب، فنظر رسـول الله ﷺ إلى شـاة قـرب الخيمـة، فسألها عنها، فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «هـل بهـا مـن لـبن؟» قالـت: «هي أجهد من ذلـك». فاسـتأذنها في حلبهـا، فأذنـت لـه قائلـة: «إن رأيـت بهـا حلبًـا فاحلبها». فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء لها، فحلب فيه، فسقاها حتى رويت، وسقى أصـحابه حتـى رووا، ثـم شرب وحلـب فيـه ثانيًا، حتى ملأ الإناء وتركه لها، ثم ارتحلوا.

وعندما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب من ذلك، فأخبرته بالـذي حـدث من محمد ﷺ، فقال: «والله إني لأراه صـاحب قـريش الـذي تطلبـه»، وطلـب منهـا أن تصفه له، فوصفته له، وعندما سمع وصفها، قـال: «والله هـذا صـاحب قـريش الـذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إنْ وجدت إلى ذلك سبيلًا»، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

سلوا أختكم عـن شـاتها وإنائهـا ... فـإنكم إن تسـألوا الشـاء تشـهد

[الحاكم، بسند حسن لغيره]. [ويأتي نص وصفها للنبي ﷺ في فصل الشمائل].

ومرَّ الركب في طريقه بعبد يرعى غنمًا، فطلبوا منه طعامًا، فاعتذر لهم بأن لا لـبن في شياهه، إلا شاة - أو عناقًا - جف لبنها قريبًا، فاستـأذنه الرسـول ﷺ، فمـس ضرعهـا فحلبت، ورووا منها جميعًا، وعندما رأى الراعي ذلك أسلم، وطلب أن يتابع الرسـول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ طلب منه أن يأتي عندما يسمع بظهـوره، يعنـي بعـد التمكـين [الحاكم؛ ابن كثير: البداية].

وروى أحمد [المسند، بسند حسـن]، عن ابن مسعود رضي الله عنه والطيالسـي [منحـة المعبـود، بسند صحيح]، قال: كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معـيط بمكـة، فـأتى علـيَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقد فرا من المشركين، فقال: أو فقالا: «عنـدك يـا غـلام لـبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما، فقال: «هل عندك من جذعـة لم يَنْـزُ عليهـا الفحل بعد؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها [أمسك بها]أبو بكـر، وأخـذ رسـول الله ﷺ الضرع، ودعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقياني،ثم قال للضرع: أقلص، فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب، يعني القـرآن، فقـال: «إنـك غـلام مُعَلَّـم»، فأخذت من فيه سبعين سورة، ما ينازعني فيها أحد».[ابن كثير: السيرة].

ويذكر ابن كثير أن هذه القصة وقعت قبل الهجرة بمدة طويلة .

ولقوا في طريقهم ركبًا من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فيهم الزبير ابن العوام رضي الله عنه، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه بثياب بيض. [البخاري].

وعندما وصلوا العرج، احتاجوا للاستفسار عن الطريق، فدلهم أحد القاطنين على الطريق وبين لهم أن الطريق القريب عليه لصان من قبيلة أسلم، يقال لهما: (المهانان)، ولم يبال الرسول ﷺ بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام، فأسلما، وسماهما (المكرمان)، وطلب منهما القدوم عليه في المدينة [عبد الله بن الإمام أحمد: الزوائد على المسند].

وروى البزار [كشف الأستار] وابن الأثير [أسد الغابة] يسنديهما إلى بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأَسْلَمِي، أن رسول الله ﷺ لما أقبل في مهاجره لقي ركبًا، فقال: **«يا أبا بكر: سل القوم فممن هم؟»** قالوا: من أسلم، قال: «سلمت يا أبا بكر، سلهم من أي أسلم؟» قالوا: من بني سهم، قال: **«ارم بسهمك يا أبا بكر»**.

وروي أنهم عندما وصلوا الجحفة وجدوا إبلًا، فقال رسول الله ﷺ: **«لمن هذه الإبل؟»** فقالوا: «لرجل من أسلم»، فتفاءل ﷺ: وقال لأبي بكر: **«سلمت إن شاء الله»**، وسأل الراعي عن اسمه، فقال: «مسعود»، فتفاءل ﷺ وقال لأبي بكر: **«سعدت إن شاء الله»** [البداية والمعرفة لأبي نعيم].

وقيل: إن إحدى راحلتيهما تخلفت عنهما، فعندما جاء صاحب الإبل، وهو أوس ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن حُجْر الأسلمي، فأعطاهما فحلًا، وطلب من غلامه مسعود أن يصحبهم إلى المكان الذي يريدونه، فوصل معهم إلى قباء.[الاستيعاب، بسند حسن].

وروي أن أوسًا بن عبد الله بن حجر الأسلمي مر برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر «بحدوات»، بين الجحفة وهرشى، وهما على جمل واحد متوجهين إلى المدينة، فحملهما

على فحل إبله «ابن الرداء»، وبعث معهما غلامه مسعود، وطلب منه أن يسلك بهما حيث يعلم من الطريق، ولا يفارقهما حتى يقضيا حاجتهما منه... فأوصلهما المدينة ثم عاد، وقد حمله وصية إلى سيده، وهي أن يسم إبله على أعناقها. [ابن هشام؛ ابن حجر: الإصابة؛ ابن عبد البر: الدرر، وحسنه].

ولقي ركب الهجرة عند الغميم بريدة بن الحصيب الأسلمي - زعيم قومه حينذاك - وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، أملًا في الفوز بالجائزة المعلنة من قبل قريش. وعندما التقى برسول الله ﷺ، وحدثه الرسول ﷺ في أمر الإسلام، أسلم وأسلم معه زهاء ثمانين بيتًا من قومه، وقيل: سبعين [أهل التراجم]. وبات بريدة مع الرسول ﷺ، وفي الصباح قال بريدة: «يا رسول الله: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فحمل عمامته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة. [الديار بكري].

الوصول إلى المدينة:

روى البخاري وابن إسحاق [في السيرة؛ بسند حسن] والحاكم [بسند صحيح] وغيرهم أنه عندما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم. فلما كان يوم الإثنين، ١٢/ ٣/ ١هـ، خرجوا على عادتهم، فلما حمي الحر رجعوا. وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون»، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وسمعت الرَّجَّة والتكبيرة في بني عمرو بن عوف، وكبَّر المسلمون فرحًا بقدومه وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيَّوه بتحية النبوة. وكان مَنْ لم ير الرسول ﷺ من قبل يحيي أبا بكر ظنًّا منهم أنه الرسول ﷺ. وعندما اشتد الحر، قام أبو بكر فأظل النبي بردائه، فعرفوا الرسول ﷺ فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة

تغشـاه والـوحي ينـزل عليـه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾[التحريم:٤]، وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء محمد، جـاء رسـول الله، الله أكبر، جاء محمد. [الحاكم، بسند صحيح]، وأنشد المستقبلون:

طلـــع البـــدر علينـــا	مـــن ثنيـــات الـــوداع
وجـــب الشـــكر علينـــا	مـــا دعـــا لله داع

[لقد وقف بعض العلماء عند هذا النشيد، وناقشوه من حيث السند والمتن، لوجـود إشـكال في روايته؛ إذ وردت فيه كلمة (ثنيات الوداع) التي اشتهر أنها من جهة الشـام، ولـيس مـن جهـة مكـة. ويرى عرجون صحة نسبة النشيد إلى حادثـة قدومـه إلى داخـل المدينـة، دار أبي أيـوب، ويوفـق بـين الروايات ويناقش هذا، ولا يستبعد تكرار إنشاد النشيد في زمن عودته من تبوك، فليراجـع عرجـون (٢/ ٦٠٢- ٦١١). ونحن نميل مع عرجون إلى تعدد إنشاء النشيد وإلى أن ثنيات الوداع ليست مـن جهة الشام فقط].

ثم سار حتى نزل قباء في بني عمرو بن عوف - من الأوس - على كُلْثُوم بن الهِـدْمِ، لمدة أربع عشرة ليلة، فيها أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد الهجرة.

وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسـل إلى بنـي النجـار أخواله، فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار نحـو المدينـة، فأدركتـه الجمعـة في بنـي سـالم ابن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل [ابن سعد، بسند صحيح؛ ابن إسحاق: السيرة]. وكانت أول جمعة للنبـي ﷺ داخـل المدينـة. [ابـن إسـحاق: السيرة، بسند حسن].وعرف هذا المسجد بـ : (مسجد الجمعة).

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الجمعة، في جو مشحون بالفرح والبهجة والسرور، وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخـذوا خطـام راحلتـه قـائلين: هلـم إلى العَـدَدِ والعُدَّةِ والسَلَامِ والمَنَعَةِ، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فلـم تـزل تسـير بـه

حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت فلم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها وذلك في بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري. وبادر أبو أيوب إلى الرحل فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**المرء مع رحله**»، وأخذ أسعد بن زرارة الراحلة. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن؛ البيهقي: الدلائل، وفيه الحديث: (المرء مع رحله)].

نزل رسول الله ﷺ في القسم الأسفل من دار أبي أيوب، وأبو أيوب في القسم العلوي. فانتبه أبو أيوب ذات ليلة، فقال: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!» فتنحوا إلى جانب. وفي الصباح طلب من الرسول ﷺ الانتقال إلى القسم العلوي، فقال النبي ﷺ: «**السفل أرفق**» ولكن أبا أيوب قال: «لا أعلو سقيفة أنت تحتها». فتحول الرسول ﷺ إلى القسم العلوي، ونزل أبو أيوب إلى القسم السفلي.

وكان أبو أيوب يصنع للنبي ﷺ طعامًا. فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع أصابعه، فصنع له طعامًا فيه ثوم. فلما رد إليه سأل موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل. ففزع وصعد إليه، فقال: «أحرام هو؟» فقال النبي ﷺ: «**لا، ولكني أكرهه**»، قال: «فإني أكره ما تكره...»؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كانت تأتيه الملائكة. [مسلم].

وعندما انكسرت جَرَّةُ ماء أبي أيوب ذات يوم، عندما كان بالعلوي، نشف هو وأم أيوب ماءها بقطيفتهما الوحيدة التي يلتحفان بها؛ تخوفًا من أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وروي أن أبا أيوب سأل الرسول ﷺ أن ينتقل إلى القسم العلوي من داره، بسبب هذه الحادثة، فاستجاب الرسول ﷺ لطلبه [ابن حجر: الإصابة]. وروى مسلم وأحمد



[أحمد: المسند] أن سبب الانتقال هو كراهـة أبي أيـوب وأم أيـوب أن يمشـيا فـوق رأس رسول الله ﷺ. كما سبق ذكره. وما في الصحيح أصح. وكانـت مـدة إقامتـه ﷺ في دار أبي أيوب شهرًا واحدًا [ابن حجر: التهذيب؛ ابن سعد] على الأرجح.

وما كانت تمر ليلـة إلَّا عـلى بـاب رسـول الله ﷺ الثلاثـة والأربعـة مـن الصـحابة الأنصار، يتناوبون في حمل طعامهم إلى رسول الله ﷺ، حتى تحول من منـزل أبي أيـوب إلى داره. [ابن سعد].

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على حبيب - ويقال خبيب - بن يساف، بالسنح، ويقال: نـزل على خارجة بن زيد.[ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

الأحكام والدروس المستفادة من أحداث الهجرة إلى المدينة:

١ - أوضح الرسول ﷺ في خطبة له أيام فتح مكة: أن لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية.[متفق عليه]، فلم تعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجبًا، وإن بقي حكمها مـن بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام واجبًا إلى يـوم القيامـة. [ابـن حجـر: الفـتح]. فقـد شرعـت الهجرة إلى المدينة ليعبد المسلمون ربهم بأمان ويقيموا كيان الدولة الإسـلامية ويحمـوه، ثم يوسعوا رقعة هذه الدولة بالدعوة إلى الله؛ والهجرة بعد فتح مكة لم تعد ضرورة؛ لأن كيان الإسلام قد قوي وصارت للمسلمين دولة، فأصبح وجـود المسـلمين في ديـارهم أجدى لإقامة شعائر الإسلام ونشر تعاليمه في سائر الأرجاء، أما الجهاد فماض إلى يـوم القيامة. ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيـمان والجهـاد، ولم يبايعهم على الهجرة. [البخاري]. وقد بين ابن عمر رضي الله عنهما ذلك بقوله: «انقطعت الهجـرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفـار»، أي مـا دام في الـدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم وخشي أن يفتن في دينه. [ابن حجر: الفتح].

ويستدل في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٧-٩٨] [الفتح].

وهكذا اقتضت ظروف قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وحاجتها إلى جنود يحمونها؛ أن تكون الهجرة إلى المدينة واجبة على كل مسلم قادر. قال الخطابي: (كانت الهجرة إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين).

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ﴾[الأنفال:٧٢] [الطبري: التفسير]، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل، سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب [ابن حجر: الفتح].

وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه إذا كان أي بلد من بلاد الكفر أعون للمسلم على ممارسة دينه والدعوة إليه، فهو أجدر بالإقامة فيه إذا تيسر سبيل ذلك للمسلم، ولا تجب عليه الهجرة، لأن هذه البلاد أصبحت مثل دار الإسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام. [ابن حجر: الفتح].

٢- استخدم الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي بها العقل البشري في مثل هذا العمل. وليس ذلك بسبب خوف على نفسه، أو شكٍّ في إمكان وقوعه في قبضة المشركين؛ وإنما هو تشريع للأمة ليتأسى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأن سنة الله أن السبب إذا وجد، وجد معه المسبب ما لم يبطل الله ذلك كما فعل في جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ﷺ، فعندها تكون هذه معجزة للنبي،

وإن كانت لغيره فهي كرامة للصالحين، واستدراج للطالحين من الناس؛ والدليل على ذلك أنه بعدما استنفد الأسباب المادية كلها كان مطمئنًا، وصاحبه أبو بكر كان خائفًا، وكان من مقتضى اعتماده على تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع؛ لقد كان كل ما فعله من الاحتياطات إذًا، وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطًا بالله ﷻ، معتمدًا على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلا على الله ﷻ، وأن ذلك لا ينافي اتخاذ الأسباب والتدبير للوصول إلى الأهداف [البوطي: السيرة].

٣- إن قبول علي بن أبي طالب النوم على فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة منقبة عظيمة لعلي، دلت على إيمانه وشجاعته، وهذا يدل على جواز خدع العدو والتمويه عليه عملًا بأسباب النجاة.

٤- إن العمل الذي قام به الشباب في تنفيذ خطة الرسول ﷺ للهجرة، مثل دور علي وأبناء أبي بكر، يعد دورًا نموذجيًا رائدًا لشباب الإسلام.

٥- إن المعجزات التي أجراها الله تعالى لحماية نبيه ﷺ في هذه الرحلة، جاءت كما جاء غيرها، كضرب من ضروب التكريم للرسول ﷺ وإشارة إلى أن الله ﷻ ناصره وممكن لدينه في أرضه، طال الزمن أم قصر.

٦- إن العمل الذي قام به أبو بكر رضي الله عنه في الهجرة يعد منقبة كبرى له، ويكفيه تكريمًا أن يذكر في القرآن بمناسبة هذا الدور، ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التوبة: ٤٠].

٧- يفهم من إرداف الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه على راحلته، حين دخولهما المدينة، على الرغم من وجود راحلة أخرى، أن الرسول ﷺ آثر عامر بن فهيرة وعبد الله ابن أرقد بركوب الراحلة الثانية، وذلك من كمال تواضعه.

٨- إذا تأملنا في قصة تبرك أبي أيوب الأنصاري وزوجه بآثار الرسول ﷺ، وإقرار الرسول ﷺ لذلك، تبين لنا مشروعية التماس البركة من آثار النبي ﷺ، إن وُجِدَتْ، وفي وجودها شك كبير جدًا. [الألباني: التوسل]

٩- دل تصرف أبي أيوب وأم أيوب على مدى محبة الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ وهي صورة متكررة في كل مقطع من مقاطع هذه السيرة.

١٠- إن في إعراض الرسول ﷺ عن أكل الثوم النيء دليل على أن ذلك من خصوصياته ﷺ، وقد أحله للمسلمين بشرط ألا يأكلوه ثم يرتادوا المساجد قبل أن تزول رائحته، وقد وجه الرسول ﷺ إلى من يريد أكل الثوم فليمته طبخًا. [مسلم وغيره].

فائدة:

روى ابن أبي شيبة [المغازي، بسند صحيح] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أنزل عليه وهو ابن أربعين سنة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين. هذا هو المشهور، وروى كذلك آثارًا أخرى صحيحة تخالف في بعض أجزائها هذه الرواية.



الفصل الثالث

أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية بالمدينة

المبحث الأول: بناء المسجد

كان رجال من المسلمين يصلون في ذلك المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ، وكان مِرْبَدًا للتمر لِسُهَيل وسَهْل، غلامين يتيمين من بني النجار، في حِجْر أسعد ابن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل». ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: «بل نهبه لك يا رسول الله». فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا. [البخاري]. وفي رواية أخرى [للبخاري]، أنه ﷺ عندما أمر ببناء المسجد، أرسل إلى ملأ بني النجار، وعندما جاؤوه، قال لهم: «يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا»، فقالوا: «لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله».

قال ابن حجر [في الفتح]: (واحتج من أجاز بيع غير المالك بهذه القصة لأن المساومة وقعت مع غير الغلامين، وأجيب باحتمال أنهما كانا من بني النجار، فساومهما وأشرك معهما في المساومة عمهما الذي كانا في حجره، كما تقدم في الحديث...).

وفي الصحيح أن مكان المسجد كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فَنُبِشَتْ، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عِضَادَتَيهِ حجارة، وجعلوا ينقلون ذلك الصخر [البخاري].



وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن لبنيانه، ويقول وهو ينقله:

هــذا الحِــمالُ لا حِمــالُ خيــبر   هـــذا أَبَـــرُّ رَبَّنَـــا وأَطْهَـــر

ويقول:

اللهــم إن الأَجْــرَ أَجْــرَ الآخــرة   فــارحم الأنصــارَ والمُهــاجِرَة

وفي رواية أنهم كانوا ينقلون الصخر ويرتجزون ورسول الله ﷺ معهم، يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خـير الآخـرة   فانصـــر الأنصـــار والمهـــاجرة

[البخاري]

وقال قائل من المسلمين في ذلك:

لــئن قعــدنا والرســول يعمــلْ   ذَاك إذًا لَلْعَمَـــلُ المُضَـــلَّلْ

[ابن حجر: الفتح]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لا يســتوي مــن يَعْمُــرُ المســاجدا   يَــدْأَبُ فيهــا قَــائِمًا وقاعِــدا

ومن يُرَى عن التراب حَائِدًا [البخاري]

وكان الرسول ﷺ يقدم في العمل من يجيد جانبًا منه. ففـي حـديث طَلْـقِ بـن عـلي اليمامي الحنفي أن الرسول ﷺ كان يقول للعاملين في بناء المسجد من الصحابة، «قربوا اليمامي من الطين، فإنه أحسنكم له مسًا، وأشـدكم لـه سَـبْكًا». وفي روايـة: «فأخـذت المسحاة فخلطت الطين فكأنه أعجبـه، فقـال: دعـوا الحنفـي والطـين، فإنـه أضبطكم للطين». [ابن حجر: الفتح]، وفي رواية البيهقي [في الدلائل، بسند صحيح]: «قربوا اليمامـي من الطين، فإنه من أحسنكم له بناء».

وكان عمار بن ياسر من أنشط العاملين في البناء، فبينما كان كل واحد يحمل لبنة، كان عمار يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن الرسول ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال: «**ابن سمية: للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية**». [مسلم وأحمد].

وهذا الحديث من دلائل النبوة، لأن عمارًا قتل في الفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وكان في جيش علي، فقتله جنود معاوية رضي الله عنه، ومات بالكيفية التي ذكرها الرسول ﷺ. وقد أجاد ابن كثير [في البداية] وابن حجر[في الفتح] في شرح هذا الحديث. وقتله أبو الغادية، كما في الإصابة.

واستغرق البناء اثني عشر يومًا [البيهقي: الدلائل]، وبعد الفراغ منه، بنيت حجر لأزواج النبي ﷺ بنفس كيفية بناء المسجد. وبعد اكتمالها انتقل الرسول ﷺ إليها من بيت أبي أيوب، فكان لسودة بنت زمعة بيت وآخر لعائشة رضي الله عنها: [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني]، وهما أول بيتين بنيا، ثم تتابع بناء حجر نسائه الأخريات كلما تزوج بواحدة منهن؛ وكانت قصيرة البناء قريبة الفناء. [البخاري المفرد، بسند صحيح وغيره]، بعضها مبنية من جريد وطين، وبعضها من حجارة مرصوصة، وسقفها من جريد. [ابن أبي الدنيا برقم ٢٤٤ صحيح، المفرد برقم ٤٥١ بسند صحيح، الشعب؛ الحلية]، وقيل: كانت من شعر - شجر - مربوطة بخشب من عرعر - شجر السرو [نفسها] - ولم يكن لأبوابها حلق. [نفسها]. وقد أضيفت هذه البيوت إلى المسجد بعد موت أزواج الرسول ﷺ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك [نفسها، والشامي في السبل]. [وانظر النت عن وصف مكونات حجر وبيوت زوجاته ﷺ].

وفرض الأذان بالكيفية التي عليها الآن، في السنة الأولى على الأرجح، وذلك عندما رأى عبد الله بن زيد رضي الله عنه في منامه صيغة الأذان، فأمر الرسول ﷺ بلالًا فأذن



بها، وعندما سمعه عمر رضي الله عنه جاء إلى الرسول ﷺ. وقال إنه رأى ما رأى عبد الله ابن زيد. [الألباني: صحيح الترمذي].

ظل المسجد على حاله الذي بناه عليه الرسول ﷺ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، وزاد فيه عمر بأن أعاد عمده وجعلها خشبًا، وحمى سقفه من المطر، ثم غيره عثمان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من ساج [البخاري. والساج نوع من الأخشاب الهندية].

وحذر عمر من تحمير وتصفير المسجد حتى لا يفتن الناس، وكره أنس المباهاة في تعمير المساجد بالتزيين، وعاب على الناس عدم تعميرها بالصلاة. [البخاري].

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بُني منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة عند مصلاه، فلما اتخذ للرسول ﷺ منبر وعدل إليه ليخطب عليه، خار ذلك الجذع وحن حنين النوق العِشَار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يُسَكَّت [البخاري]، وهذا من دلائل نبوته ﷺ. [والعشار: الناقة الحامل لعشرة أشهر].

وروى الدارمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن المسجد ارتج لخواره، وكثر بكاء الناس حتى وضع النبي ﷺ يده عليه فسكت، وقال: «**إن هذا بكى لما فقد من ذكر الله، والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة**»، ثم أمر به فدفن تحت المنبر.

وما أحسن ما قال التابعي الحسن البصري بعد رواية هذا الحديث عن أنس، قال باكيًا: (يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟). [البيهقي: الدلائل].

وأصبح المسجد منذ بنائه مكانًا للعبادة في المقام الأول، ثم بعد ذلك مكانًا لكل أمر يهم المسلمين، مثل:

١- إيواء بعض ضعفاء وفقراء المهاجرين الرجال العزاب الذين لم يتمكنوا من الحصول على منازل خاصة بهم، وعرفوا بأهل الصُّفَّة [البخاري].

٢- إيواء ضعفاء النساء اللائي أسلمن من أحياء العرب ولم يجدن مأوىً غير المسجد حين قدومهن المدينة، مثل الوليدة السوداء التي اتخذت خِباءً أو حَفَشًا في المسجد [البخاري].

٣- كان مكانًا لتعليم المسلمين أمور دينهم.

٤- كان مكانًا لإنشاد الشعر ذبًا عن الدعوة الإسلامية وقائدها محمد ﷺ وأصحابه [البخاري].

٥- كان مكانًا لاعتقال أسير الحرب المشرك، إذا كان في ذلك عظة لمن يراه من الناس، وعظة له عندما يرى الصلاة ويسمع القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، كما في قصة ثمامة بن أثال [البخاري]. [يأتي ذكرها في أخبار السرايا].

٦- نصب الخيمة فيه لعلاج جرحى المسلمين في الحرب، كما في قصة خيمة رفيدة، أيام غزوة الأحزاب [البخاري]. [يأتي ذكرها].

٧- كان مكانًا لاستقبال الرسل - السفراء - الذين يفدون على الرسول ﷺ.

٨- كان مكانًا لعقد ألوية جيوش وسرايا المجاهدين.

٩- كان مكانًا لاجتماع المسلمين بقائدهم، وفي هذا فائدة من وجهين:

أ- احتكاك القائد بالرعية عن قرب، ودراسة أحوالهم، وبث الرعية شجونهم لقائدهم.

ب- احتكاك المسلمين بعضهم مع بعض، وتألف قلوبهم، وقد غاب هذا الفهم عن كثير من قادة وأفراد في زماننا هذا، وفهموا أن المسجد مكان عبادة الصلاة فقط.

أحكام وحكم في قصة بناء المسجد النبوي الشريف:

١- استدل جمهور الفقهاء بحديث شراء الرسول ﷺ المربد من الغلامين بوساطة عمهما الذي كانا في حجره وكفالته، على عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد، ولهم دليل آخر من القرآن يؤكد صحة استدلالهم وهو الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[الأنعام:١٥٢، الإسراء: ٣٣].

أما الحديث الذي يشير إلى أن الشراء تم مباشرة بين الرسول ﷺ والغلامين فيوجه إلى أن للنبي ﷺ ولاية خاصة في مثل هذه الأمور، وأنه عليه الصلاة والسلام إنما اشترى الأرض منهما بوصف كونه وليًا عامًا لجميع المسلمين، لا بوصفه كونه فردًا منهم، ولا وجه في هذا الحديث لاستدلال الحنفية به على صحة تصرف غير البالغ، لأن الآية رجحت حديث ابن عيينة على هذا الحديث. [الزركشي: إعلام الساجد؛ البوطي: السيرة].

وللعلماء كلام فوق هذا عن تصرف غير البالغ إذ قالوا:

أ- إن تصرفاته النافعة نفعًا محضًا كقبوله الهبة لنفسه جائزة.

ب- إن تصرفاته الضارة ضررًا محضًا كهبته لغيره غير جائزة.

ج- إن تصرفاته الدائرة بين النفع والضرر كالبيع والشراء موقوفة على إجازة الولي أو الوصي.

٢- قال ابن حجر عند شرح حديث نبش قبور المشركين لبناء مسجد في مكانها: (فيه جواز التصرف في المقبرة المملوكة بالهبة والبيع وجواز نبش القبور الدارسة إذا لم تكن محترمة، وجواز الصلاة في مقابر المشركين بعد نبشها وإخراج ما فيها، وجواز بناء المساجد في أماكنها).

٣- كما أن الحديث يدل على أن الأرض التي دفن فيها الموتى ودرست، يجوز بيعها، وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده، إذا لم توقف [إعلام الساجد؛ ابن حجر: الفتح؛ السيوطي].

إن في تمثل الرسول ﷺ برجز أو شعر غيره دليل على جواز قول الشعر وأنواعه خصوصًا الرجز في الحرب، والتنشيط على سائر الأعمال الشاقة، لما فيه من تحريك الهمم وتشجيع النفوس وتحركها على معالجة الأمور الصعبة. [قاله ابن حجر في شرحه حديث الباب].

٤ - استنادًا إلى عدم التكلف المظهري في بناء الرسول ﷺ مسجده، واستنادًا إلى ما نبه إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: «أَكِنَّ الناس من المطر وإياك أن تحمِّر أو تصفِّر، فتفتن الناس» [إعلام الساجد]، كره عامة العلماء نقش وزخرفة المساجد، وقال بعضهم بحرمة ذلك. [ابن حجر: الفتح].

٥ - اختلف العلماء في كتابة آية من القرآن في قبلة المسجد، هل هي داخلة من النقش الممنوع أم لا؟ يقول الزركشي: (ويُكره أن يكتب في قبلة المسجد آية من القرآن أو شيئًا منه، قال مالك: وجوزه بعض العلماء، وقال: لا بأس به لما روي من فعل عثمان ذلك بمسجد رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك عليه).

المبحث الثاني: المؤاخاة والحكمة منها

أ- المؤاخاة:

لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة لم يكن بأيدي معظمهم شيء، لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، ولهذا، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا أهل زراعة، والأنصار أهل زراعة، فقد أعطتهم الأنصار كل ما يستطيعونه من فضل، أعطتهم النخل والأرض ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له مَنِيْحَة محضة، واستغنوا عنها عندما فتح الله عليهم خيبر [مسلم]. وقد رد النبي ﷺ نفسه ما أعطوه من نخل عندما فتحت عليهم قريظة والنضير [مسلم].

وكان ذلك الفعل من الأنصار دليلًا على مدى حبهم وإيثارهم المهاجرين. وقد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩] [البخاري].

ووصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا»، فقال لهم خيرًا، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أراضٍ ليست ملكًا لأحد. [البخاري؛ البلاذري].

وقالت الأنصار للرسول ﷺ: «اقسم بيننا وبينهم النخل»، قال: «**لا. قال: يكفونكم المؤونة ويشركونكم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا**». [البخاري].

وقال الرسول ﷺ للأنصار: «**إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم**»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «**أو غير ذلك؟**» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**هم قوم لا يعرفون العمل، فتكلفونهم وتقاسمونهم الثمر**» قالوا: نعم. [ابن كثير: البداية].

وروى البخاري عن أنس، قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، إنه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ».

ولم يتوانوا في استضافة ضيف رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ جائعًا، فلم يجد له رسول الله ﷺ شيئًا عند زوجاته، فطلب من أصحابه استضافته، فاستضافه أنصاري لم يكن عنده إلا عشاء أهله وصبيانه، فأنام صبيانه، وقدم طعام أهله إلى ضيفه، وجلس معه، فأطفأت المرأة السراج، وجعلا يريانه كأنهما يأكلان، ولكنهما باتا جائعين، وفيهما نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩].

ومع هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعًا يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة. [ابن حجر: الفتح].

وروى البعض أن إعلان المؤاخاة كان في دار أنس بن مالك [متفق عليه]. وذكر البعض أن المؤاخاة كانت في المسجد. [ابن حجر في الفتح عن شرف المصطفى] وقيل إن المؤاخاة كانت مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة، وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، وهي المقصودة هنا [ابن عبد البر: الدرر].

ذكر ابن سعد بأسانيد شيخه الواقدي إلى جماعة من التابعين، أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات، دون ذوي الأرحام. وكانوا تسعين رجلًا، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال: كانوا مائة، خمسين من كل فريق.

وروى البخاري عن ابن عباس: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي الرحم؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم».

وذكر ابن حجر [في الفتح] أن من أغراض المؤاخاة أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا، من قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة؛ لأن زيدًا مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما، وهما من المهاجرين. [ابن إسحاق: السيرة].

لقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب - كما ذكرنا - [الحاكم، بسند يعتضد]، وبين الزبير وابن مسعود [نفسه، وابن حجر في الفتح وحسن سناده]، وبين

عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع [البخاري]، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء [نفسه]، وبين أبي عبيدة وأبي طلحة [مسلم]، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك [ابن إسحاق في السيرة]، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد [ابن إسحاق في السيرة].

وقد ذكر ابن إسحاق [في السيرة] عددًا كبيرًا ممن آخى الرسول ﷺ بينهم. ونقل عنه ذلك ابن حجر [في الفتح]، وأجاب عن ما يمكن أن يكون فيه إشكال [الشامي: السبل].

ومما روي في أمر التطبيقات العملية لهذه المؤاخاة، قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع، حين قال سعد لعبد الرحمن: «إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زَوْجَتَيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: «لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟» وفي رواية أخرى عند البخاري أيضًا زيادة في قول عبد الرحمن: «... بارك الله لك في أهلك ومالك...» فَدُلَّ على سوق بني قينقاع؛ فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقْطٍ وسمن، ثم أخذ يتردد على السوق، يبيع ويشتري حتى استغنى بماله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، أمهرها بنواة من ذهب، وطلب منه الرسول ﷺ أن يولم ولو بشاة بهذه المناسبة. [البخاري].

آخى الرسول ﷺ بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، أبطل الله ﷻ التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة المؤمنين، وأنزل في ذلك: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٧٥] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾

[الأحزاب:٦] [ابن كثير: التفسير، بسند صحيح]. وكان ذلك حين وقعة بدر [ابن سعد]. وروي أنه كان بعد أحد. [ابن سعد؛ الحاكم، بسند صحيح].

وذكر ابن عباس [البخاري] أن ما أُلغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين، وإلى هذا المعنى ذهب النووي. [مسلم].

ومما يدل على بقاء واستمرارية المؤاخاة دون الإرث، مؤاخاة الرسول ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء؛ لأن سلمان أسلم بين أحد والخندق [الإصابة والاستيعاب]، ومؤاخاة معاوية بن أبي سفيان والحُتَات التميمي؛ لأن معاوية من مسلمي الفتح [الإصابة]، والحتات أسلم عندما جاء في وفد بني تميم في أوائل السنة التاسعة الهجرية - عام الوفود [الإصابة]، ومؤاخاة جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل؛ لأن جعفرًا قدم من الحبشة والرسول ﷺ قد فرغ من خيبر لتوه، في أول سنة سبع من الهجرة [يأتي في غزوة خيبر].

ب- حكم وعبر من المؤاخاة:

١- إن أي جماعة تسعى لهدف واحد لا بد من قيام العلاقات بين أفرادها على التآخي الذي يجعلهم يقفون بعضهم إلى جانب بعض في السراء والضراء. وإن هذا التآخي المنطلق من العقيدة هو أساس قوة هذه الجماعة، وهو الأساس الذي يمكنهم من تحقيق أهداف الدين في الحياة، ولذا كان حرص الرسول ﷺ على ذلك التآخي، الذي كان مضرب الأمثال في صدقه، والذي كان من ثماره رضا الله ﷻ عنهم والتمكين لهم في الأرض، وتحقيق النموذج العملي لمبادئ الإسلام في أشخاصهم.

٢- بناء على ما حدث في المؤاخاة، فبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة بين المؤمنين. [العمري: المجتمع المدني].

٣- إن في موقف عبد الرحمن بن عوف من أخيه سعد بن الربيع نموذجًا واضحًا على عفة المهاجرين واستعدادهم للعمل الذي يقدرون عليه.

المبحث الثالث: صحيفة المدينة

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة وأراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة، كتب كتابًا بهذا الشأن. عرف في المصادر القديمة باسم (الكتاب) و(الصحيفة)، وأسماه الكتاب المحدثون (الدستور) أو (الوثيقة).

ولأهمية هذه الوثيقة واعتماد الباحثين المعاصرين عليها، وجعلها أساسًا في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونظم الدولة الإسلامية، وعلاقاتها مع الدول والملل الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام، فقد تناولناها بالعرض والدراسة باختصار في الطبعة المطلولة.

أولًا: مضمون الصحيفة:

أ- بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين:

- المؤمنون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

- كل فريق من المؤمنين (المهاجرين، بني ساعدة، من الأوس...) على رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُون بينهم وهم يَفْدُون عَانِيَهُمُ بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل. [الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها؛ والعاني: الأسير؛ والمفرحُ: كثير العيال].

- المؤمنون المتقون على من بَغَى منهم، وإنّ أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

- ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.



- من تبع المؤمنين من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

ب- بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركين:

- لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على المؤمنين.
- لقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه، إلا من حارب منهم الإسلام.
- لا تجار قريش ولا من نصرها.

جـ- بنود الصحيفة المتعلقة باليهود:

- يتفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم... ولبقية اليهود من بني النجار، يهود بني الحارث... ما ليهود بني عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم.
- لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن محمد ﷺ.
- على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح... والنصر للمظلوم.

د- بنود الصحيفة المتعلقة بالقواعد العامة:

- يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مُضَار، ولا آثم، وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها.
- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.
- وإن بينهم - أهل الصحيفة - النصر على من دهم يثرب.
- من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

ثانيًا: إسناد الصحيفة:

ذكر هارون [في رسالته للماجستير] شواهد كثيرة على فقرات هذه الصحيفة... أما الآيات القرآنية، فقد أورد سبعًا وعشرين آية توافق فقرات جاءت في الصحيفة.

والخلاصة: إن جميع فقرات الصحيفة لها شواهد من صحيح السنة والقرآن الكريم. ولولا خشية الإطالة لذكرنا ولو طرفًا منها. جزى الله خيرًا الباحث هارون. ولذا حكم الباحثون على أن إسنادها عند ابن إسحاق يتقوى بالشواهد ليصل إلى درجة الحسن لغيره. [انظر الطبعات المطولة لكتابنا السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية].

أما ما جاء في الصحيفة عن الصلح مع اليهود والمشركين بغير الجزية فهو منسوخ بآية الجزية: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وكان ذلك في سنة تسع [ابن كثير: التفسير]، ومن المعروف أن سورة (التوبة) من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري.

ثالثًا: دلالات وأحكام وعبر من صحيفة المدينة:

١- إن هذه الوثيقة تعد أقدم دستور مكتوب في العالم.

٢- لم يذكر العلماء أن حكمًا من أحكامها قد نسخ، ما عدا قولهم: إن المعاهدة مع اليهود، أو مع غير المسلمين بدون الجزية، منسوخة بآية الجزية - الآية (٢٩) من سورة التوبة - كما ذكرنا قبل عدة أسطر.

٣- وقال بعض العلماء إن العلاقة مع اليهود، والتي تضمنتها الوثيقة، توافق حكم الآية: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[الممتحنة: ٨].

٤- نظمت الوثيقة جوانب مختلفة لحياة الناس.

٥- فيها مبادئ دستورية عديدة **على سبيل المثال:**

١- تشكيل الأمة من حيث العقيدة والدين تشتمل على كل المسلمين حيثما كانوا.

٢- تشكيل الأمة - أي الجماعة - من حيث المواطنة تشتمل على غير المسلمين في الدولة.

٣- المساواة في المعاملات العامة.

٤- منع إيواء المجرمين.

٥- منع خروج اليهود من دون إذن محمد ﷺ.

٦- منع الظلم والعدوان في المال والعرض وغيرهما.

٧- منع الصلح المنفرد مع العدو.

٨- منع إجارة قريش - أي منع إجارة العدو.

٩- القود من القاتل - أي حرمة الحياة.

١٠- الإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة والوطن.

١١- فداء الأسرى.

١٢- وفاء الدين عن الغارمين.

١٣- الإبقاء على الأعراف الصالحة.

١٤- حق الحرية في العقيدة والدين.

١٥- حقوق الجار.

١٦- حرمة المسلم - أي مبدأ لا يقتل مسلم بكافر.

١٧- تحريم المدينة.

١٨- عدم إعطاء حقوق الحرمة للآخرين في المدينة إلا بإذن أهلها.

١٩- مرجع حسم الخلاف حول بنود هذه الوثيقة الله عز وجل ورسوله محمد ﷺ.

وهناك مبادئ دستورية يمكن استنباطها من الوثيقة، والمبادئ المذكورة ينطوي كل واحد منها على أحكام شرعية، وما عدا المبادئ الخاصة بالمسلمين فإن المبادئ التي انطوت عليها توجد في أي دستور، حتى الدساتير الوضعية. [هارون رشيد محمد إسحاق: صحيفة المدينة].

٢٠- ومع هذا الموقف المتسامح تجاه اليهود، إلا أنهم ظلوا يكيدون للإسلام بشتى الوسائل والأساليب، كما سنرى في الأحداث القادمة. ومن الميادين التي نشطوا فيها ولم يولها المؤرخون المحدثون كبير اهتمام، نشاطهم في ميدان الجدال العقيم، رغبة منهم في الصد عن سبيل الله عز وجل، وليس بغرض الدخول في الإسلام.

وسجل القرآن الكريم كثيرًا من جدالهم وعنادهم، ومن أظهرهم في ذلك: رَافع ابن حُرَيْمِلَة، وسَلَّام بن مِشْكَم، ونعمان بن أوفى، ومحمود بن دِحْيَة، وشَاش بن قيس، ومالك ابن الصيف، وجَبَل بن أبي قُشَيْر، وشَمْوِيل ونعمان بن أحنا، وبحري بن عمرو، وشَاش بن عَدِي، ورافع بن حارثة، والنَّحَام بن زيد، وكردم بن كعب... [ابن هشام] إلخ.

المبحث الرابع: إنشاء السوق الإسلامية

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة بعد الهجرة كان من أوائل مشاريعه لأسلمة الحياة في جميع المجالات بعد بناء المسجد الجامع والمؤاخاة وكتابة صحيفة المدينة ، إنشاء سوق خاص بالمسلمين، ليتحرروا من سيطرة اليهود على الأسواق التجارية التي فرضوا عليها قيمهم في المعاملات التجارية القائمة على الربا والتدليس والغش وبيع الغرر

والاحتكار وفرض الخراج أو الأتاوات. وكان أكثر المتضررين من هذه الممارسات هم من المسلمين الذين يسمونهم (الأميين)، كما حكى القرآن: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران٧٥].

روى عمر بن شبة [بإسناد مرسل لابأس به] في كتابه: (أخبار المدينة)، عن عطاء ابن يسار، والطبراني [في الكبير من وجه آخر متصلاً]، أنّ الرسول ﷺ عندما أراد أن يقيم سوقًا خاصًا بالمسلمين أتى سوق يهود بني قينقاع، ثم جاء الى مكان اختاره لسوقه قريبًا من سوقهم، فضرب المكان برجله وقال: «هذا سوقكم، فلا يُضيق ولايؤخذ فيه خراج». وفي رواية أخرى لابن شبة عن صالح بن كيسان أنه ﷺ ضرب قبة [خيمة] في موضع بقيع الزبير، وقال: «**هذا سوقكم**»، فجاء كعب بن الأشرف -الزعيم اليهودي النضيري- مغتاظًا، فقطع أطناب [حبال] القبة. فقال ﷺ: «**لا جرم، لأنقلنها الى موضع هو أغيظ له من هذا**» فنقلها باقتراح من أحد الصحابة الى موضع سوق المدينة الذي عرف بسوق المناخة [نسبة إلى مكان مناخ أو مبرك جمال الحجاج والقوافل]، وقال: «**هذا سوقكم، لا تتحجروا** [أي :لا يضيق بعضكم على بعض، ولا حيازات للأماكن في السوق، أي: لا تقام فيه مبانٍ ثابتة]، **ولا يضرب عليه الخراج**». وموقعه غرب المسجد النبوي؛ وتبدأ حدوده من مسجد المصلى (الغمامة) جنوبا وحتى قلعة باب الشامي سابقًا، والتي كانت تقع على جبل سليع خلف مكتبة الملك عبد العزيز حاليًا. وأخيرًا دخلت ضمن مشاريع تحسين المناطق المحيطة بالمسجد النبوي. [ارجع إلى التفاصيل على النت].



الفصل الرابع
القسم الأول: متفرقات

المبحث الأول: تسمية يثرب بطَيْبة، وطابة والمدينة:

يلحظ أن المدينة المنورة سميت في الصحيفة بيثرب. ولكن فيما بعد كره الله عز وجل ورسوله ﷺ هذا الاسم، فاستبدلت بها أسماء طيبة وطابة والمدينة.

فقد روى مسلم عن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالى سمَّى المدينة: طابة**».

وروى - مسلم أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال: «**إنها طَيْبة - يعني المدينة - وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة**».

وروى الطيالسي [في مسنده] بطريق مسلم نفسها قائلًا: «كانوا يسمون المدينة بيثرب، فسماها رسول الله ﷺ طيبة».

وقال ابن حجر [في الفتح] إنه ورد من طريق أبي سهل بن مالك عن كعب الأحبار، قال: «نجد في كتاب الله الذي أنزل على موسى أن الله تعالى قال للمدينة: يا طيبة، ويا طابة...».

وردت في بعض أحاديث الرسول ﷺ باسم آخر هو: المدينة. فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**».

وروى أحمد [في المسند، بسند يعتضد] أن الرسول ﷺ قال: «**من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة**».

وذكر السيوطي [في الدر المنثور] أن الرسول ﷺ قال: «**لا تدعونها يثرب، فإنها طيبة - يعني المدينة - ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات، هي طيبة، هي طيبة، هي طيبة**».

وروى البخاري عن أبي حميد أنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «**هذه طابة**».

وروى ابن شبة [في تاريخ المدينة، بسند يعتضد] أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت بقرية تأكل القُرَى** [تغلبهم]، **يقولون يثربُ، وهي المدينة. تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد**».

وسماها القرآن الكريم المدينة في مواضع متعددة.

وقال ابن حجر [في الفتح] في سبب كراهة تسمية المدينة بيثرب، لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثرب، وهو الفساد، وكلاهما مستقبح. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ويكره القبيح.

المبحث الثاني: بعض المتاعب الصحية

لقد واجه المهاجرون حين مقدمهم من مكة إلى المدينة بعض المتاعب الصحية، إذ أصابتهم حمى يثرب [أحمد: المسند، بسند جيد]، حتى أنهم كانوا يصلون وهم قعود [أحمد: المسند، بسند صحيح]، وصرف الله ﷻ ذلك عن نبيه محمد ﷺ. [المصدر نفسه].

لقد وُعِكَ أبو بكر وبلال بالحمى. فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... والموتُ أدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أبيتن ليلةً ... بواد وحولي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ؟

وَهَلْ أَرِدَنْ يومًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ؟ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وَطَفِيلُ؟

وجاءت عائشة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ فأخبرته بما يقولان، فقال: «**اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، وصحِّحها وبارك في صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وانْقُلْ حُمَّاها فاجعلها في الجُحْفَةِ**». [البخاري].

ووعكت عائشة [البخاري] وابن فهيرة [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن]، وغير هؤلاء، لأن المدينة كانت مشهورة بالحمى، حتى قال مشركو مكة عن مسلمي المدينة في عمرة القضاء: «إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب»، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ليروا المشركين قوتهم، وأن الحمى لم تنهكهم كما يزعم الكفار.

واستجاب الله عز وجل دعاء نبيه فجعلها من أطيب البلاد بعد ذلك.

المبحث الثالث: قريش تهدد المهاجرين والأنصار

كان عبد الله بن أبي بن سلول أكبر زعماء المدينة. وعندما جاءها الرسول ﷺ مهاجرًا كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ملكًا عليهم، ولم يتم ذلك لأن الرسول ﷺ أصبح زعيمًا بتاج النبوة. ولذا تأخر في إسلامه؛ لأنه كان يرى أن الرسول ﷺ قد سلبه ملكه، فأخذ يناصبه العداء. وبعد أن أعلن إسلامه ظل على عدائه للرسول ﷺ، ولكن بأسلوب آخر، وهو أسلوب النفاق. وله مواقف تدل على نفاقه كما سيأتي.

ففي أحد هذه المواقف، روى البخاري ومسلم وأحمد [المسند، بسند صحيح]، ثلاثتهم من حديث الزهري بإسناده إلى أسامة بن زيد،أن سعد بن عبادة قال: «يا رسول الله، اعف عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرِةِ على أن يتوجوه فَيُعَصِّبُوهُ بالعِصَابَة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شَرِقَ بذلك، فلذلك فَعَلَ به ما رأيت...».



وفي رواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] قال سعد: «يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أنه قد سلبته ملكًا».

لقد وجد مشركو مكة ضالتهم في ابن سلول هذا، لأنه على ملتهم، فكاتبوه ليكيد للمسلمين ويقوم بالدور الذي كانوا يقومون به ضد الرسول ﷺ وأصحابه في مكة. قالوا له في كتبهم إليه: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم». [أبو داود، بسند صحيح].

وامتثل ابن أبي لأمر الكفار، فجمع كفار المدينة لمحاربة الرسول ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أمره، قال لهم: **«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»**، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا. [نفسه].

وأرسل كفار مكة إلى مسلمي المدينة يقولون لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم» [المنصورفوري: رحمة للعالمين، ولم يذكر مصدره].

واحترازًا من مكائد قريش حرص المسلمون على حراسة الرسول ﷺ ليلًا حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة:٦٧]، فقال لأصحابه: «يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله عز وجل». [الألباني: صحيح الترمذي، وحسنه].

وقد دعا رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما جاء يحرسه ذات ليلة، خوفًا عليه [متفق عليه].

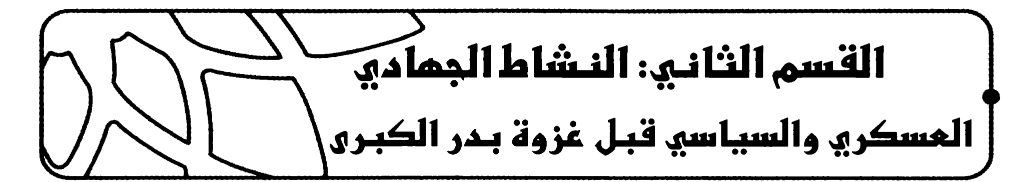
ولم يكن الخطر مقتصرًا على الرسول ﷺ فقط، بل تعداه إلى أصحابه. فقد قال أبي ابن كعب: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه». [الحاكم (٣/ ١٦٥-



١٦٦/ علوش)، وصححه، الشوكاني: الفتح (٤/ ٤٩)- وصححه، الطبراني في الأوسط مختصرًا- كما في المجمع (٧/ ٨٣)، ووثق رجاله وعزاه في الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لابن مردويه وابن المنذر في الضياء و(المختارة)، والبيهقي في الدلائل].

وكجزء من مخططات قريش وأساليبها للصد عن سبيل الله ﷻ، فقد حاولت صد الأنصار عن المسجد الحرام. وقد ظهر هذا جليًا في قصة سعد بن معاذ وأبي جهل. وخلاصتها عند البخاري، أن سعد بن معاذ جاء مكة معتمرًا، وطلب من مضيفه أمية ابن خلف أن ينظر له ساعة خلوة ليطوف بالبيت آمنًا. فأخذه أمية ليطوف في منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل وسأل عنه أمية، فأخبره به، فقال له: «تطوف بالكعبة آمنًا وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ وتشاجرا؛ ومما قاله سعد له: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام...» وهدده بأن الرسول ﷺ سيقتله، وقد كان أن قتله الله ﷻ ببدر [البخاري].





القسم الثاني: النشاط الجهادي العسكري والسياسي قبل غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول: الإذن بالقتال

روى الطبري [في التفسير] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال».

وزاد أحمد [التفسير، بسند صحيح] في روايته لهذا الخبر، أن ابن عباس قال: «وهي أول آية في القتال».

وقال العوفي عن ابن عباس: إن الآية نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة [الطبري وابن كثير في تفسيريهما].

لقد شرع الجهاد في الوقت الأنسب له، لأن المسلمين بمكة كانوا أقل من عشر المشركين، ولذا لم يأمرهم الله بالقتال. وعندما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من مكة وهموا بقتله، وشردوا أصحابه ما بين الحبشة والمدينة؛ وعندما استقر المسلمون بالمدينة وهاجر إليهم الرسول ﷺ وأصبحت المدينة دار إسلام ومعقلًا يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك. ولم يكن القتال هنا فرضًا عليهم وإنما أذن بالقتال لمن ظلم، ثم فرض عليهم فيما بعد قتال من يقاتلهم عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

وهكذا مر تشريع الجهاد بأربع مراحل رئيسة، وهي:

١- مرحلة الصبر دون القتال - بمكة.

٢- مرحلة الإذن بالقتال - بعد الهجرة.

٣- مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤- مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين الذين يقفون في طريق إبلاغ الدعوة.

[ابن القيم: زاد المعاد].

المبحث الثاني: الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر

[والغزوة: ما يخرج على رأسها الرسول ﷺ، والسرية: ما يكلف أحد الصحابة بقيادها]

أولًا: أهداف الغزوات والسرايا:

عندما أذن الله لنبيه والمؤمنين بالقتال، أخذوا في إعداد القوة لرد عدوان قريش، ومن على شاكلتها. فلما أرادت قريش أن تري المسلمين أن لها يدًا في داخل المدينة، أراد المسلمون أن يروا قريشًا أن المسلمين ليسوا بذلك الهوان الذي تتصوره قريش، وأنهم قادرون على كسر شوكة قريش، وحصارها سياسيًا واقتصاديًا، ورد حقوقهم المسلوبة.

وكانت أول خطوة في هذا الميدان أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طرق قريش التجارية، شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا.

واختار الرسول ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين متلازمتين:

الأولى: إرسال السرايا والبعوث لمهاجمة قوافل قريش التجارية.

الثانية: السعي إلى عزل قريش بالدخول في معاهدات دفاعية وعدم اعتداء مع القبائل المحيطة بالمدينة، والتي تخترق قوافل قريش أراضيها وهي في طريقها إلى الشام،

فكسب إلى جانبه في السنوات الأولى من الهجرة: بني ضَمْرَة وجُهَينة، وخُزاعة وغِفَار وأَسْلَم. وسيأتي ذكر هذا من خلال الكلام عن السرايا. وكسب غيرها بعدها خلال سني حياته بالمدينة كما سنرى إن شاء الله تعالى.

ولقد نجحت هذه السرايا في كل أهدافها، لا سيما إرباك قريش وحلفائها وإضعاف معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري في جميع الاتجاهات، والحصول على مورد للتموين والتسليح. ونجحت في إنذار الأعداء بأن للمسلمين المقدرة على التصدي والردع. واكتسبت القوات الإسلامية مزيد خبرة في مجال التدريب العسكري، والمناورة وجس نبض الأعداء، ومعرفة دروب الصحراء وأحوال الأعداء.

ثانيًا: الغزوات والسرايا والأحلاف والأحداث الهامة:

١- غزوة الأبْوَاء (وَدّان):

غزاها رسول الله ﷺ في صفر على رأس أحد عشر شهرًا من الهجرة، كما عند الواقدي، وفي صفر على رأس اثني عشر شهرًا، كما عند ابن سعد، يريد الاعتراض على عير لقريش ويريد بني ضمرة. فسار حتى بلغ الأبواء من ديار بني ضمرة، فلم يلق حربًا، وكانت فرصة لموادعة بني ضمرة من كنانة، على أن لا يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحدًا. وكتب في ذلك كتابًا لزعيمهم مَخْشِيّ بن عمرو الضمري.[ابن سعد]. وكانت أول غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه. [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ ابن عقبة كما في الفتح؛ الطبراني كما في المجمع وبسند حسن].

وقال ابن حجر في الفتح (١٥/ ١٤٢): (وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة ابن الحارث في ستين رجلًا فلقوا جمعًا من قريش فتراموا بالنبل، فرمى سعد ابن أبي وقاص بسهم، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله).

٢- غزوة بُوَاط من ناحية رَضْوَى:

خرج الرسول ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواط، وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رضوى، ثم رجع حين لم يعثر على القافلة، ولم يلق حربًا. وكان ذلك في ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

٣- غزوة سَفَوَان (بدر الأولى - بدر الصغرى):

عندما أغار كُرْزُ بن جابر الفهري على سرح المدينة في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له سفوان، من ناحية بدر، فلم يدركه، فعاد إلى المدينة. وعند ابن إسحاق [في السيرة] أنها بعد غزوة ذي العُشَيْرَة.[ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

٤- غزوة العُشَيْرَة:

خرج الرسول ﷺ في خمسين ومائة - ويقال في مائتين- من أصحابه، يعترض قافلة كبيرة لقريش في طريقها إلى الشام، وبلغ العشيرة وهي لبني مدلج، بناحية ينبع. ففاتته العير. وهي التي خرج يريدها حين عادت، ولكنها أيضًا أفلتت، وكان لقاء بدر الكبرى بسببها. ووادع في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلق حربًا.

وكان ذلك في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة.[المصادر نفسها].

وقد ثبت في الصحيح وقوع هذه الغزوة، ولكن بدون ذكر لأي تفاصيل عنها. [البخاري].

وتفيدنا المصادر أن الرسول ﷺ عقد معاهدات دفاع مشترك وأمان مع غير من ذكرنا، في وقت مبكر من حياته بالمدينة، ولم يرتبط وقوع ذلك بخروج المسلمين في غزوة أو سرية معينة. مثال ذلك:

كتاب الرسول ﷺ إلى بُدَيْل بن ورقاء وبُسْر وسَرَوَات بني عمرو الخزاعيين، يفيدهم فيه أنه لم يخنهم منذ أن سالمهم، وأكد لهم الأمان من جانبه. [أسد الغابة؛ ابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى أسلم من خزاعة، وفيه الإقرار بالمناصرة. [ابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى بني غفار، وفيه اتفاقية دفاع مشترك ضد من يحاربهم أو يحارب المسلمين في دينهم [نفسه].

وكتاب النبي ﷺ إلى نُعَيْمِ بن مسعود بن رُخَيْلَة الأشجعي، وفيه المحالفة على النصر والنصيحة. [نفسه].

٥- سرية نخلة:

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة ومعه ثمانية رهط [أي دون العشرة] من المهاجرين. وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وذلك إمعانًا في السرية، وحتى لا يعلم أحد أين الاتجاه.

وفعل ما أمر به. وعندما فض الكتاب وجد فيه الأمر بأن يمضي حتى ينزل نخلة، بين مكة والطائف، ليرصد بها قريشًا ويعلم له من أخبارهم، وألا يستكره أحدًا من أصحابه. وعندما أخبر أصحابه بأمر الرسول ﷺ مضوا معه جميعًا إلى وجهته.

وعندما نزلوا نخلة، مرت عير لقريش فيها ابن الحضرمي وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة، وأخوه نَوْفَل، والحَكَم بن كَيْسَان مولى هشام بن المغيرة.

وتشاور الصحابة في أمر الاستيلاء على هذه العير، لأن ذلك كان في آخر يوم من رجب، وهو شهر حرام، فخشوا أن يترتب على هذا القرار نتائج غير مرضية. وعندما وجدوا أنهم لو تركوهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن به منهم، تشجعوا وأجمعوا أمرهم على قتل من يقدرون عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي

عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل. وأقبل ابن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة.

وقال لهم الرسول ﷺ إنه لم يأمرهم بقتال في الشهر الحرام، وأبى أن يأخذ العير والأسيرين. وظن القوم أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون فيما فعلوا.

وقالت قريش: إن محمدًا وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فلما أكثر الناس في ذلك، أنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[البقرة: ٢١٧-٢١٨]. وبها فرج الله ﷻ على المسلمين ما كانوا فيه من الهم، وقبض الرسول ﷺ العير والأسيرين.

وعندما أرسلت قريش في فداء الأسيرين، اشترط الرسول ﷺ أن يكون ذلك بعد مجيء سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، خشية منه عليهما من قريش. وكانا قد تخلفا عن القوم قبل وصولهم نخلة، بحثًا عن بعيرهم الذي أضلاه. [الطبراني، بإسناد حسن كما قال الهيثمي في المجمع].

أحكام وعبر في قصة سرية نخلة:

١ - لقد بينت هاتان الآيتان اللتان نزلتا في التعليق على ما حدث في هذه السرية أن الذي فعله المشركون بالمسلمين من صد عن سبيل الله ﷻ وكفر به، وصد عن المسجد

الحرام وإخراج المسلمين من بلدهم وسلب أموالهم وفتنتهم عن دينهم، بينت الآيـة أن كل هذا أكبر عند الله عز وجل مما فعله المسلمون، أي القتال في الشهر الحرام.

فإذا كان المشركون يرتكبون هذه الجرائم الكبرى كلها في حق المسلمين فـلا تثريـب على المسلمين من قتالهم في الشهر الحرام، وإنما التثريب أن لا يقاتل في الشهر الحرام من يرتكب تلك الجرائم، إذا دعت الضرورة.

وفي هذا التعليق بيان لسياسة الإسـلام في تقـدير القـيم الدينيـة والخلقيـة وسـموه بالمعاني الروحية والإنسانية، وعدم إغفاله للبواعث النبيلة التي دعـت رجـال السـرية للقتال في الشهر الحرام، دون الوقوف عند الظواهر والرسوم، ومـا التزمـه النـاس مـن تقاليد كريمة مشروعة أو موروثة.

٢- وبينت الآية أن بعض الناس يقدس ويشيد بالقوانين عندما تكون في مصلحته. فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقصها، هدم القوانين والدساتير جميعًا.

٣- وبينت الآية أن لا هـوادة مـع المشـركين المعتـدين، ممـا كـان لـه أثـره البعيـد لدى المسلمين وأعدائهم.

٤- إن استخدام الرسول ﷺ أسلوب الرسائل السرية، دل على مشـروعية الأخـذ بالأسباب، ودل على سبق الإسلام في استخدام هذا الأسلوب، الذي لم يعرفـه الغـرب إلا في الحرب العالمية الثانية.

٥- لقد كانت سرية نخلة أول عملية توغل قريبًا من مكة، مركـز العـدو. ولـذا فهـي عملية فدائية، قامت على الطواعية، إذ لم يكره عبد الله أحدًا من أفراد السرية عـلى المضـي في الخطة المرسومة في رسالة النبي ﷺ السرية. [وانظر: أبي شهبة والغزالي، والشامي في المعين].

وهذه السرية تدل على أن خطة المسلمين في ملاحظة قوافل قريش لم تكن خاصة المنطقة الشمالية من الحجاز، بل تعدت ذلك إلى المنطقة الجنوبية من طريق قوافل قريش إلى اليمن.

- تحويل القبلة:

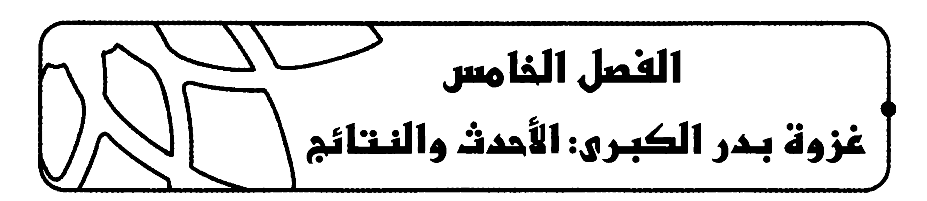
قال الجمهور: إنه في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة أمر الله عز وجل بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، بعد أن صلى إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا. وكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة، قبلة إبراهيم، وكان يكثر الدعاء والتضرع، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فكان أول صلاة صلاها إلى المسجد الحرام صلاة العصر، وبلغ الخبر أهل قباء في اليوم التالي وهم يصلون الصبح، فتحولوا إلى المسجد الحرام [متفق عليه؛ البداية].

- فريضة صيام رمضان:

قال الطبري [في تاريخه] في حوادث السنة الثانية الهجرية: (... وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان، وقد قيل: إنه فرض في شعبان منها...).

وثبت في الصحيحين، أن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فصامه، وأمر بصيامه، فلما نزل الأمر بصيام شهر رمضان، كان رمضان الفريضة، وخير الناس في صيام عاشوراء.





الفصل الخامس
غزوة بدر الكبرى: الأحداث والنتائج

عندما سمع الرسول ﷺ بأبي سفيان مقبلًا من الشام في تجارة لقريش، ندب المسلمين إليه، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يَنفِلْكُمُوها». [ابن إسحاق: السيرة، حسن].

وفي رواية عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَلَ هذه العير، لعل الله يَغْنَمْنَاها؟ قلنا: نعم. فخرج وخرجنا معه» [الهيثمي: المجمع، وعزاه إلى الطبري، وسنده حسن].

والمخبر في رواية مسلم (١٩٠١): بُسَيسَة، وعند أهل السير والمغازي: بَسْبَس ابن عمرو، ويقال: ابن بشر.

ولم يستنفر الرسول ﷺ كل الناس، بل طلب أن يخرج معه من كان ظهره [راحلته] حاضرًا، ولم يأذن لمن أراد أن يأتي بظهره من علو المدينة [مسلم]، ولذا لم يعاتب أحدًا تخلف عنها. [البخاري]. وكان عددهم ما بين الـ٣١٣ والـ٣١٩ رجلًا [متفق عليه، وعند مسلم: ٣١٩ رجلاً، وهو ما نعتمده]، منهم ما بين الـ٨٢ والـ٨٦ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج [البخاري؛ ابن إسحاق في السيرة]، معهم سبعون بعيرًا، [فاعتقبوها - أي تعاقبوا على ركوبها، وفرسان فقط] [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وكان أبو لُبَابَة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، فعندما جاء دوره في المشي، قالا له: «نحن نمشي عنك». فقال لهما: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما». [نفسه].



وفي الطريق، وعندما بلغوا الرَّوحاء، رد الرسول ﷺ أبا لبابة وَأَمَّرَهُ على المدينة، وسبق ذلك أن جعل عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة. [الحاكم]، وأصبح مكانه في زمالة الرسول ﷺ على البعير مَرْثَد [ابن إسحاق، حسن] بن أبي مرثد. ولذلك فلا خلاف بين رواية ابن إسحاق ورواية أحمد.

وعندما علم أبو سفيان بالخطر المُحْدِق بقافلته، أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَارِيِّ إلى مكة يستنجد بقريش.

وجاء ضمضم مسرعًا إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره، وقد جدع أنفه، وحول رحله وشق قميصه، وهو يصيح: «يا معشر قريش، اللَّطِيمَة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغَوْثَ، الغَوْثَ». [نفسه].

وخرجت قريش مسرعة لإنقاذ عيرها ورجالها، ولتلتقي بالمسلمين في حرب تراها قاضية على قوة المسلمين التي ظلت تهدد تجارتهم. ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب، فإنه أرسل مكانه العاص بن هشام، مقابل دين كان عليه، مقداره أربعة آلاف درهم. [نفسه]. ولم يتخلف من بطون قريش سوى بني عدي. [نفسه].

وبلغ عددهم في بداية مسيرهم نحو ألف وثلاثمائة محارب، معهم مائة فرس وستمائة درع وجمال كثيرة، بقيادة أبي جهل [البداية، من حديث الأموي بإسناد مرسل، وفيه أنه كان مع المشركين ستون فرسًا].

وعندما خشوا أن تعذر بهم بنو بكر لعداوتها معهم، كادوا أن يرجعوا عما أرادوا. [ابن إسحاق، حسن مرسل]، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي، سيد بني كنانة، وقال لهم: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه». [نفسه]. فخرجوا من ديارهم كما حكى عنهم القرآن: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٤٧][تفسير الطبري، مرسل صحيح].

رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بخبر أبي سفيان بثلاث ليال، فقالت: رأيت رجلًا أقبل على بعير له فوقف بالأبطح، فقال: انفروا يا آل بدر لمصارعكم في ثلاث، فذكرت المنام، وفيه: ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت تهوي حتى ترضضت، فما بقيت دار ولا بنية إلا ودخل فيها بعضها. وفي القصة إنكار العباس على أبي جهل قوله: «حتى حدثت فيكم هذه النبية»، وإرادة العباس أن يشاتمه، واشتغال أبي جهل عنه بمجيء ضمضم يستنفر قريشًا لصد المسلمين عن عيرهم، فتجهزوا وخرجوا إلى بدر، فصدق الله ﷻ رؤيا عاتكة. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

لقد كان أبو سفيان متيقظًا للخطر المتكرر من جانب المسلمين. ولذا عندما اقترب من بدر لقي مجدي بن عمرو وسأله عن جيش الرسول ﷺ، فأفاده مجدي بأنه رأى راكبين أناخا إلى تل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففته، فعرف منه أنه من علائف المدينة، فأسرع تاركًا الطريق الرئيس الذي يمر على يسار بدر، واتجه إلى طريق الساحل غربًا، ونجا من الخطر. ثم أرسل رسالة أخرى إلى جيش قريش، وهم بالجحفة، يخبرهم فيها بنجاته، ويطلب منهم الرجوع إلى مكة. [ابن إسحاق، حسن].

وهَمَّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلًا: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا». [الطبري: التفسير، حسن]. [وبدر: اسم لبئر حفرها بدر بن قريش بن الحارث بن مخلد ابن النضير بن كنانة، فنسبت له].

فأطاعه القوم ما عدا الأخنس بن شَرِيق، حيث رجع بقومه بني زهرة، وطالب ابن أبي طالب، لأن قريشًا في حوارها معه، اتهمت بني هاشم بأن هواهم مع محمد ﷺ.

وساروا حتى نزلوا قريبًا من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى، على حدود وادي بدر [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ خبر ذلك الرسول ﷺ، فاستشار أصحابه. [متفق عليه]. وخشي فريق منهم المواجهة في وقت لم يتوقعوا فيه حربًا كبيرة، ولم يستعدوا لها بكامل عدتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ ليقنعوه بوجهة نظرهم. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: ٥-٧] [المجمع، حسن، والطائفتان: عير أبي سفيان وجيش قريش].

وتكلم قادة المهاجرين، وأيدوا الرأي القائل بالسير لملاقاة العدو، منهم أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو. ومما قاله المقداد: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» [ابن إسحاق، حسن]. وفي رواية قال: «لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»، وسر النبي ﷺ من قوله [البخاري وأحمد].

وبعد سماعه كلام قادة المهاجرين، قال: «أشيروا علي أيها الناس»، وكان بذلك يريد أن يسمع رأي قادة الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن نصوص بيعة العقبة الكبرى لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة [مسلم]، وأدرك سعد ابن معاذ - حامل لواء الأنصار - مراد الرسول ﷺ، فنهض قائلًا: «والله لكأنك تريدنا

يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك فصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله». [ابن إسحاق، حسن].

فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. [ابن إسحاق، حسن بشواهده].

ورد الرسول ﷺ عمير بن أبي وقاص لصغر سنه (١٦ سنة)، فبكى، فأجازه، فاستشهد يوم بدر. [الطبراني، برجال الصحيح كما قال الهيثمي].

وفي الطريق وعند حَرَّة الوَبَرَة [موضع على ٤ ميل من المدينة] أدركه رجل من المشركين، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، أراد أن يحارب معه، فقال له الرسول ﷺ: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**»، ثم عرض له مرة ثانية بالشجرة، ومرة ثالثة بالبَيْدَاء، والرسول ﷺ يقول له ما قاله أول مرة، وأخيرًا أقر بالإسلام، فقبله الرسول ﷺ. [مسلم].

وعندما وصل قريبًا من الصَّفْرَاء، بعث بسبس بن الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وعيره. [ابن إسحاق، حسن].

ويروى أنه خرج هو وأبو بكر لهذا الغرض، ولقيا شيخًا فسألاه عن جيش قريش، فاشترط عليهما أن يخبراه ممن هما، فوافقا، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولًا، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم

بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا- للمكان الذي به جيش قريش.

ولما فرغ من كلامه قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»، ثم انصرفا عنه، وتركاه يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن إسحاق].

وفي مساء ذلك اليوم أرسل عليًا والزبير وسعدًا بن أبي وقاص في نفر من أصحابه لجمع المعلومات عن العدو، فوجدوا على ماء بدر غلامين يستقيان لجيش مكة، فأتوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو يصلي، وأخذوا في استجوابهما. فأفادا أنهما سقاة جيش قريش، فلم يصدقوهما، وكرهوا هذا الجواب، ظنًا منهم أنهما لأبي سفيان، إذ لا يزال الأمل يحدوهم في الحصول على العير. وضربوهما حتى قالا إنهما لأبي سفيان.

وعندما فرغ الرسول ﷺ من صلاته عاتب أصحابه لأنهم يضربونهما إذا صدقا، ويتركونهما إذا كذبا. ثم سألهما الرسول ﷺ عن مكان الجيش المكي، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

وعندما سألهما عن عدد جيش مكة وعدته لم يستطيعا تحديد ذلك، ولكنهما حددا عدد الجزور التي تنحر يوميًا بأنها ما بين التسعة والعشرة، فاستنتج الرسول ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف، وذكرا له من بالجيش من أشراف مكة. [مسلم وأحمد بسند صحيح]، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**». [ابن إسحاق]. وأشار إلى مكان مصارع جماعة من زعماء قريش، فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ. [مسلم].

وأنزل الله تعالى في هذه الليلة مطرًا طهر به المؤمنين وثبت به الأرض تحت أقدامهم، وجعله وبالًا شديدًا على المشركين. [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ ابن إسحاق]. وفي هذا قال



تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[الأنفال:١١].

ومن نعمه على المسلمين يوم بدر أيضًا أن غشيهم النُّعَاسُ أمنة منه، كما في صدر آية نعمة إنزال المطر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[الأنفال:١١]. [أحمد: المسند، بسند صحيح] الآية.

وروى في ذلك أحمد بسنده إلى أنس بن مالك: أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر، فكنت فيمن غشيه النعاس يومئذ فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه».

وزاد الله ﷻ المؤمنين فضلًا بأن أوقع الخلاف في صفوف عدوهم. فقد روى أحمد أن عُتْبَة بن ربيعة أخذ يثني قومه عن القتال محذرًا من مغبته، لأنه علم أن المسلمين سوف يستميتون، فاتهمه أبو جهل بالخوف. [ابن إسحاق، حسن]. وروى البزار أن عتبة قال لقومه يومذاك: «إن الأقارب سوف تقتل بعضهم بعضًا، مما يورث في القلوب مرارة لن تزول. فاتهمه أبو جهل بالخوف، وليريه شجاعته، دعا أخاه وابنه وخرج بينهما داعيًا إلى المبارزة». [المجمع، ورجاله ثقات؛ الطبري: التاريخ، مرسل حسن؛ البداية، بسند صحيح].

وكان الرسول ﷺ قد رأى عتبة على جمل أحمر، فقال: «**إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يَرْشُدُوا**». [أحمد: المسند، بسند صحيح]. وشاء الله أن يعصوه، وضاع رأيه وسط إثارة أبي جهل الثارات القديمة.

سبق الرسول ﷺ المشركين إلى ماء بدر، ليحول بينهم وبين الماء. وهنا أبدى الحُبَابُ ابن المُنْذِرِ رأيه قائلًا: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم [قريش] فننزله ونغوِّر [نخرب] ما وراءه من القُلُب [الآبار] ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون»، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد أشرت بالرأي»**. وفعل ما أشار به الحباب بن المنذر رضي الله عنه. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

وعندما استقروا في المكان، قال سعد بن معاذ مقترحًا: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك»، فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

ويفهم من النصوص الواردة في شأن القتال ببدر أن الرسول ﷺ شارك في القتال، ولم يمض كل وقته داخل هذا العريش أو في الدعاء، كما فهم بعض كتاب السيرة.

فقد روى أحمد [في المسند، بسند صحيح] عن علي، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»، وفي موضع آخر بالسند نفسه: «لما حضر البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه». [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: **«لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»**.



وقال ابن كثير [في البداية]: (وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالًا شديدًا ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدون بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا وحثا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعًا بين المقامين الشريفين).

وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية، بات ليلته تلك يتضرع إلى الله ﷻ أن ينصره، ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**» وتقول الرواية: «فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾[الأنفال:٩] فأمده الله بالملائكة».

ومما رواه البخاري من دعائه في ذلك اليوم: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم»، وتقول الرواية: «فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾[القمر:٤٥]».

وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة أنه قال: لما نزلت: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قال عمر: «أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾، فعرفت تأويلها يومئذ».

[البخاري، النسائي، ابن كثير: التفسير، أحمد، صحيح].

وفي صباح يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان - السنة الثانية من الهجرة. [ابن حجر: التلخيص الحبير، ومتفق عليه عند أئمة المغازي]. وعندما تراءى الجمعان، دعا



رسول الله ﷺ ربه قائلًا: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائِها وفَخْرِها تُحادِّك وتكذب رسولك، اللهم فَنَصْرَكَ الذي وعدتني، اللهم أَحِنْهُم الغداةَ**». [رواه ابن إسحاق معلقًا كما في (ابن هشام ٢/ ٣١٤)]، وقد ثبت أن أبا جهل قال حين التقى القوم: «اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرفه فأحنه [أي أهلكه] الغداة». فكان هو المستفتح، أي الحاكم على نفسه بهذا الدعاء، والفتاح الحاكم. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[الأنفال:١٩] [وقد روى الخبر بإسناد صحيح أحمد: الرباني (٢١/ ٤٤)، والطبري في التفسير (١٣/ ٤٥٤، شاكر) بإسناد صحيح، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه. والدعاء إلى قول الراوي: (فكان هو المستفتح)، رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل، ابن هشام (٢/ ٣٢٣). والخُيلاء: التكبر والإعجاب، وتحادك: تعاديك، أحنهم: أهلكهم الآن].

وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال، أخذ الرسول ﷺ في تعديل صفوفهم وفي يده قِدْح [سهم بلا ريش] فطعن به سَوَاد بن غَزِيَّة في بطنه، لأنه كان مستنتلًا [متقدمًا] من الصف عمدًا، وقال له: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق، فأقدني [أي أعطني القود من نفسك، أو القصاص]، فكشف عن بطنه وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال النبي ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك جلدي»، فدعا له رسول الله ﷺ بخير. [ابن إسحاق؛ عبد الرزاق، مرسلًا يتقوى بغير؛ الهيثمي برجال ثقات].

وشهد سواد المشاهد كلها بعد هذا، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب [من حديث ابن عقبة].

ثم أخذ في توجيههم في أمر الحرب، قائلًا: إذا أَكْثَبُوكُم [قربوا منكم] فارموهم واستبقوا نبلكم [البخاري]. ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم [أبو داود]. وحرضهم

على القتال، قائلًا: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». [ابن إسحاق]، وفي رواية عند مسلم أنه عندما دنا المشركون قال النبي ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**». وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمَام الأنصاري، قال: «يا رسول الله! أجنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: نعم. قال: بَخٍ بَخٍ. فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟**». قال: لا، والله! يا رسول الله! إلا رجاءه أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قَرَنِهِ [جعبة النشاب]، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بها كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل». [ابن إسحاق].

وقال عوف بن الحارث - بن عفراء -: «يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال: «غمسه يده في العدو حاسرًا»، فنزع درعًا كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل. [نفسه].

وطلب الرسول ﷺ من أصحابه، قبل بدء المعركة، ألا يقتلوا نفرًا من بني هاشم وغيرهم لأنهم خرجوا مكرهين، وسمى منهم أبا البختري بن هشام - الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة ولم يؤذ النبي ﷺ - والعباس بن عبد المطلب. وعندما سمع أبو حذيفة ذلك قال: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه - أو لألجمنه - بالسيف»، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص؟ أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: «يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». فكان أبو حذيفة يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة»، فقتل يوم اليمامة شهيدًا. [ابن إسحاق، حسن].

وقبل ابتداء القتال خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه»، وتصدى له حمزة، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجًا بدمائه ليبر قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. [نفسه، حسن].

المبارزة:

بعد هذا خرج ثلاثة من فرسان قريش يطلبون المبارزة، وهم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، والوليد بن عتبة. فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة. فلم يقبل فرسان قريش بغير بني أعمامهم من المهاجرين، فأمر الرسول ﷺ عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي أن يبارزوهم. وكان حمزة لعتبة، وعبيدة للوليد، وعلي لشيبة، وقتل علي وحمزة صاحبيهما وأعانا عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة الذي أثخنه الوليد بالجراح. [أبو داود، وقال ابن حجر في الفتح إنها أصح الروايات].

وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾[الحج:١٩].

ثم طلب الرسول ﷺ من علي أن يناوله كفًا من حصى، فناوله ذلك، فرمى به وجه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[الأنفال:١٧]. [المجمع، موصولًا، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

الملائكة تشهد بدرًا:

ونزل المسلمون ساحة المعركة بقوة إيمانية كبيرة، وشدوا على المشركين، وأخذوا في اقتطاف رؤوسهم، وأمدهم الله بالملائكة لينصرهم على عدوهم، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران:١٢٣] الآيات، و ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[الأنفال:٩] و﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[الأنفال:١٢].

وكما روي من الأحاديث في هذا الشأن. فقد روى مسلم في هذا: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فنظر إلى المشرك أمامه، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت. ذلك من مَدَدِ السماءِ الثالثة». [وخطم: أصيب بضربه، وتركت الضربة أثرًا].

وروى أحمد أن رجلًا من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيرًا، فقال العباس: «يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ من أحسن الناس وجهًا، على فرس أَبْلَق، ما أراه في القوم»، فقال الأنصاري: «أنا أسرته يا رسول الله. فقال: اسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم». [المسند، بسند صحيح].

وروى الأموي أن الرسول ﷺ خفق خفقة في العريش ثم انتبه، فقال: «أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة، آخذًا بِعَنَانِ فرسه يقوده على ثَنَايَاه النَّقْعُ، أتاك نصر الله وعدته». [ابن إسحاق، حسنه الألباني في حاشية سيرة الغزالي].

ورويت أحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين يوم بدر ولم تصرح بالقتال. فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»، وقال في رواية أخرى: «**جاء جبريل النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل من المسلمين - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**». [البخاري].

وروى الحاكم [بسند حسن] أنه كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجر بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر، على سيماء الزبير. وروى ذلك كذلك ابن سعد. [وصححه ابن حجر في الإصابة].

لقد أكرم الله عباده المؤمنين يوم بدر ببعض الكرامات. فقد روي أن عُكَّاشَة ابن مِحْصَن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع يده، فأعطاه الرسول ﷺ جذلًا من حطب ليقاتل به، فإذا هو في يده سيفًا طويلًا شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به يوم ذاك وفي المعارك الأخرى التي شهدها بعد ذلك، وآخرها يوم اليمامة - أحد أيام حروب الردة - حين قتل شهيدًا. [ابن إسحاق، الواقدي؛ ابن سعد].

وعندما رأى إبليس - وكان في صورة سراقة بن مالك - ما تفعل الملائكة والمؤمنون بالمشركين، فر ناكصًا على عَقِبَيْهِ، حتى ألقى بنفسه في البحر. [الطبري: التفسير، بطرق تعتضد].

مصرع الطغاة:

أبي جهل وأمية بن خلف والعاص بن المغيرة:

أ- أبو جهل:

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا

إلى رسول الله ﷺ فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح [لأن الثاني استشهد]، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عَفْرَاء» واستشهد معاذ في المعركة.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] من حديث معاذ بن الجموح أنه قال: «سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحَرَجَة، وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه... وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وأني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ ابن عفراء - فضربه حتى ثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل».

وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: عندما انجلت المعركة: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَدَ، قال: أنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته، قال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو رجل قتله قومه؟**».

وفي رواية أحمد أن الرسول ﷺ ذهب مع ابن مسعود ليرى جسد أبي جهل، وقال: «**كان هذا فرعون هذه الأمة**». [المسند].

وفي رواية ابن إسحاق أن أبا جهل قال لابن مسعود عندما جثا عليه: «لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم».

ب- أمية بن خلف:

تمكن عبد الرحمن بن عوف من أسر أمية، وعندما رآه بلال معه، قال: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا»، وحاول عبد الرحمن أن يثنيه عن عزمه فلم يستطع،

بل استنفر بلال الأنصار، فلحقوا به معه وقتلوه، مع أن ابن عوف ألقى عليه نفسه وأمية بارك. فكان عبد الرحمن يقول: «يرحم الله بلالًا، ذهبت أدرعي، وفجعني بأسيري». [البخاري؛ ابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما طرح قتلى المشركين في القَلِيب، لم يطرح معهم، لأنه انتفخ في درعه فملأها، وعندما ذهبوا ليحركوه تفرقت أعضاؤه، فتركوه في مكانه، وألقوا عليه ما غيبه من الحجارة والتراب [ابن إسحاق، حسن].

ج- العاص بن هشام بن المغيرة:

كان العاص بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولذا حرص عمر على قتله، فقتله حتى يعلم أن ليس في قلبه ولاء إلا لله وحده. [ابن هشام].

لقد انجلت معركة بدر عن نصر كبير للمسلمين، إذ قتلوا سبعين من المشركين، وأسروا سبعين [مسلم؛ أحمد في المسند بسند صحيح]، ولم يقتل من المسلمين سوى أربعة عشر رجلًا، ستة من قريش وثمانية من الأنصار. [البداية من حديث ابن عقبة].

لقد كان جزاء الله عادلًا في هؤلاء ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩] [البخاري].

• دفن قتلى المشركين في القليب [البئر التي لم تطوى]:

• روى البخاري ومسلم وأحمد وابن إسحاق والطبراني وغيرهم أن الرسول ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش [كان مجموع قتلى المشركين سبعين كما سبق ذكره، وكما سيأتي ذكره، فلعل الآخرين دفنوا في أماكن أخرى كما في الفتح] فقذفوا في طَوِيٍّ من أَطْوَاءِ بدر خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليومَ الثالثَ أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى

ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِيَّة فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟» فقال عمر: «يا رسول الله، ما تُكَلِّمُ من أجسادٍ لا أرواح لها»، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**». [وإسناد أحمد وابن إسحاق والطبراني صحيح].

وعندما ألقوا في القليب، وفيهم عتبة بن ربيعة، نظر رسول الله ﷺ إلى وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال له النبي ﷺ: «**لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟**» فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيرًا». [ابن إسحاق، حسن].

وبعد نهاية المعركة وانتصار المسلمين وأخذ الأسرى، قيل للرسول ﷺ: «**عليك بالعير، ليس دونها شيء**». فناداه العباس أن ذلك لا يصلح له، قال: ولم؟ قال: «لأن الله ﷻ إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك». [مسند أحمد، وصححه شاكر، وجوده ابن كثير في التفسير، وحسنه الترمذي].

وكانت وقعة بدر الكبرى يوم الجمعة صبيحة سبع عشر من رمضان، العام التالي للهجرة. [ابن إسحاق، ابن سعد].

الغنائم:

وقع خلاف بين المسلمين حول الغنائم، لأن حكمها لم يكن قد شرع يومذاك. وقد حكى عبادة بن الصامت ما حدث قائلًا: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا. فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون

ويقتلون، وأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[الأنفال: ١] [تفسير الطبري، بأسانيد بعضها صحيح، ابن إسحاق، حسن]، فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاق بين المسلمين» أي بالتساوي، أو بسرعة قدر فواق ناقة، والفواق ما بين حلبتي الناقة. وقيل أراد التفضيل في الغنيمة كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائمهم وبلائهم. [أحمد: المسند، جيد].

ومما يدل على أن الغنائم قد خمست ووزعت على المشاركين فيها ما رواه البخاري عن علي أن الرسول ﷺ أعطاه مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذٍ.

وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدرًا لأعمال كلفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة، منهم عثمان بن عفان، لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد توفيت ودفنت يوم عودة الرسول ﷺ وأصحابه من بدر. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وكان تقسيم الغنائم في منطقة الصَّفَراء في طريق العودة إلى المدينة [ابن إسحاق]. وأخذت الأسرى إلى المدينة. وقد أُرسل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ليزفا البشرى إلى أهل المدينة. وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكدًا، قال أسامة بن زيد: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى». [البداية، من رواية البيهقي، بسند صحيح، الحاكم، صحيح؛ ابن أبي شيبة؛ ابن إسحاق].

ودهشت سودة ﵂ عندما رأت سُهَيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل فقالت: «أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا متم كرامًا!!، فقال رسول الله ﷺ: **«أعلى الله وعلى رسوله؟!!»** - أي تؤلبين - فقالت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت». [الحاكم من حديث ابن إسحاق، وصححه هو والذهبي].

الأسرى:

استشار الرسول ﷺ الصحابة في أمر الأسرى. فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. ورأى عمر قتلهم، لأنهم أئمة الكفر. ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر. فنزل القرآن موافقًا لرأي عمر، وهو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[الأنفال:٦٧-٦٨] [تفسير الطبري، بسند حسن] إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾[الأنفال:٦٩] [مسلم].

وكان أخذ الفداء حلالًا في أول الإسلام، ثم جعل فيها بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء حلالًا في أول الإسلام، ثم جعل فيها بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء أو المن ما عدا الأطفال والنساء، إذ لا يجوز قتلهم، ما داموا غير محاربين [المغني].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾[محمد:٤].

وقد تباين فداء الأسرى. فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم. وممن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو وَدَاعَة. [الطبراني في المجمع، عبد الرزاق؛ أبو داود؛ ابن هشام،



وأسانيدهم تعتضد]. وأخذوا من العباس مائة أوقية، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، دفعها عنه العباس، وأخذوا من آخرين أربعين أوقية فقط. [دلائل أبو نعيم، حسن ابن حجر في الفتح].

وأطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد ابن النعمان بن أكال، الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر. [ابن إسحاق].

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداؤهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة. فقد روى أحمد عن ابن عباس، قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يومًا يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بِذَحْلِ [ثأر] بدر! والله لا تأتيه أبدًا». [المسند، بسند صحيح].

وكانوا يقبلون من بعض الأسارى ما عندهم إذا تعذر المفروض، فقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة لها لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع، الذي فرق بينهما الإسلام، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها عند والدها محمد ﷺ [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ ابن إسحاق بسند صحيح]، وبهذا كان ابن الربيع ممن أطلق بدون فداء، وأطلق الرسول ﷺ ممن لم يقدر على الفداء بأي شكل من الأشكال، منهم: المطلب بن حنطب المخزومي، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الشاعر. [ابن إسحاق].

ومما يدل على أنه كان بالإمكان إطلاق سراحهم جميعًا بدون فداء، قول الرسول ﷺ: **«لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى [العفنين] لأطلقتهم له»** [البخاري]. وذلك لما قام به من حماية للرسول ﷺ عندما عاد من هجرته إلى الطائف، ودوره في تمزيق صحيفة المقاطعة.

وعندما استأذن رجال من الأنصار النبي ﷺ في ترك فداء العباس، قال: «والله لا تذرون منه درهمًا»، [البخاري]، وذلك على الرغم من أن العباس ذكر أنه كان مسلمًا، وأنه خرج مستكرهًا. [تفسير الطبري، بسند حسن].

وأخبر الرسول ﷺ عمه العباس - وهو أسير هنا - بما دفن هو وزوجته أم الفضل من المال تحت عتبة بابهم، فأقر له العباس بذلك [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وفي طريق العودة إلى المدينة، قتل النضر بن الحارث بمنطقة الصفراء - قتله علي -، وقتل عقبة بن أبي مُعَيْط بمنطقة عرق الظبية - قتله عاصم بن ثابت [ابن إسحاق]، ويقال: قتله علي، [ابن هشام (٢/ ٣٤٧) بإسناد منقطع]، وروي أن الآية: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾[الفرقان:٢٧-٢٨] قد نزلت فيه. أخرج ابن جرير عن ابن عباس [(١٩/ ٦)]: «كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾[الفرقان:٢٩] قال: ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عقبة، و﴿فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ أبي بن خلف». [انظر: ابن كثير: التفسير (٦/ ١١٦)، حاشية رقم (٥)].

وقال ابن كثير هنا: (وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره، فإنها عامة في كل ظالم). وذلك لعداوتهما الشديدة لدعوة الرسول ﷺ، وتلك نهاية الجبروت والشجاعة الزائفة. فقد رأينا عقبة، لصيق قريش، واليهودي الأصل، يعود إلى حقيقته عندما قال للرسول ﷺ مسترحمًا: «من للصبية يا رسول الله؟ فأجابه: **النار**». [الطبراني: الكبير، والأوسط، برجال الصحيح].

وروى الطبراني [كما في سبل الشامي] بسنده إلى ابن عباس، وابن زنجويه في كتاب الأموال [بسند مرسل صحيح]: أن الرسول ﷺ قتل صبرًا كذلك طُعَيْمَة بن عَديٍّ.

أما بقية الأسرى فقد استوصى بهم الرسول ﷺ خيرًا [الطبراني، كما في المجمع بسند حسن]، فقد حكى أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير - وهو بين رهط من آسريه الأنصار- أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحيي فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسها. [ابن إسحاق].

وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى على فترات مختلفة قبل فتح مكة وبعدها، منهم: العباس، عقيل بن أبي طالب، نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، خالد بن هشام، عبد الله بن السائب، المطلب بن حنطب بن الحارث، أبو وَدَاعَة الحارث بن صبيرة، الحجاج ابن الحارث بن قيس، عبد الله بن أبي بن خلف، وهب بن عمير، سهيل بن عمرو، عبد ابن زمعة، قيس بن السائب، نَسْطَاس مولى أمية بن خلف،... [السهيلي]. ولسهيل بن عمرو هنا قصة، فقد روى ابن أبي شيبة [في المغازي بسند مرسل صحيح] من حديث عطاء قال: كان سهيل بن عمرو رجلًا أَعْلَم [مشقوق] من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يوم أسر ببدر: يا رسول الله! أنزع ثَنِيَّتَيْهِ السفليين، فَيَدلع لسانه [أي يخرج لسانه عند الكلام]، فلا يقوم عليك خطيبًا بموطن أبدًا، فقال: «لا أمثِّل فيمثِّل الله بي». [يلدغ: يخرج لسانه حين الكلام].

وزاد ابن إسحاق [مرسل متصل ورجاله ثقات] في روايته: «... وإن كنت نبيًا»، ثم قال ابن إسحاق: (وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لعمر في هذا الحديث: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تَذُمُّهُ». وقال الشامي [في السبل]: (روى الحاكم والبيهقي... عن محمد ابن الحنفية، قال: قال عمر:... فقال رسول الله ﷺ: «دعه، فلعله أن يَسُرُّكَ يومًا»، وقال الراوي -سفيان بن عيينة-: فلما مات النبي ﷺ نفر منه أهل مكة، فقام سهيل

ابن عمرو عند الكعبة، فقال: «من كان محمد إلاهه فإن محمدًا قد مات، والله حي لا يموت») [المستدرك؛ ابن هشام؛ الخصائص].

وروى ابن سعد - كما ذكر الشامي [في السبل] - بسنده إلى أبي عمرو بن عدي بن الحمراء الخزاعي، قال: نظرت إلى سهيل بن عمرو يوم جاء نعي النبي ﷺ إلى مكة وقد خطبنا بخطبة أبي بكر التي خطبت بالمدينة، كأنه سمعها، فلما بلغ ذلك عمر قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق، هذا هو المقام الذي عَنِيَ رسول الله ﷺ حين قال لي: «لعله يقوم مقامًا لا تكرهه».

مكانة غزوة بدر في التاريخ:

كانت موقعة بدر ذات أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام، ولذا سميت في القرآن بيوم الفرقان. وأوضحت الأحاديث فضل البدريين وعلو مقامهم في الجنة. فقد عقد البخاري بابًا في فضل من شهدها. وفيه قصة حارثة بن سراقة الذي أصابه سهم طائش يوم بدر، وهو غلام، وجاءت أمه تسأل عن مصيره يوم القيامة، فبشرها الرسول ﷺ بأن له جنانًا كثيرة وأنه في جنة الفردوس.

وفي قصة حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة الذي أرسل إلى قريش يخبرهم بنيَّة الرسول ﷺ فتح مكة، فكشفه الوحي، وعفا عنه الرسول ﷺ، وقال لعمر حين طالب بقتله: **«لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم»**. [مسلم].

ولما قال عبد من عبيد حاطب: «يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار». قال رسول الله ﷺ: **«كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرًا والحديبية»**. [المصدر مسلم].

وكانت لبدر الأثر العميق في المدينة وبقية حواضر وبوادي الجزيرة العربية، فقد استعلى المؤمنون في المدينة على اليهود وبقايا المشركين. فانخذل اليهود، وجاهروا بالعداوة مما كان سببًا في إجلاء بني قينقاع عن المدينة - كما سيأتي.

وأسلم من زالت الغشاوة عن عينيه، ونافق من أضله الله حفاظًا على مصالحه الخاصة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، الذي قال حينذاك: «هذا أمر قد تَوَجَّه -أي: استقر- فلا مطمع في إزالته». [البخاري].

ومن بين من عرف بالنفاق من أحبار اليهود بالمدينة: زيد بن اللَّصيت - رافع ابن حريملة - رفاعة بن زيد بن التابوت - سويد بن الحارث - سعد بن حنيف - نعمان بن أوفى بن عمرو - وأخوه عثمان بن أوفى - سلسلة بن برهام - كنانة بن صوريا.

ومن بين من عرفوا بالنفاق من مشركي المدينة، إضافة إلى عبد الله بن أبي بن سلول: زوى بن الحارث - جلاس بن سويد - وأخوه الحارث بن سويد - نبتل بن الحارث - مربع بن قيظي - وأخوه أوس بن قيظي - حاطب بن أمية بن رافع - بشير بن أبيرق أبو طعمة - قُزمان.

وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم، وستأتي أخبار كثير منهم ومواقفهم من الإسلام من خلال أحداث السيرة.

أحكام وحكم من غزوة بدر:

لقد تضمنت أحداث غزوة بدر أحكامًا وحِكَمًا كثيرة، من أهمها:

١- جواز النكاية بالعدو، بقتل رجالهم وأخذ أموالهم وإخافة طرقهم التي يسلكونها، لما في ذلك من إضعافهم معنويًا واقتصاديًا.

٢- جواز استخدام العيون لكشف أحوال العدو وإفشال خططه.

٣- تأكيد الرسول ﷺ على مبدأ الشورى لأهل الحل والعقد وعامة المسلمين، وقد وردت أدلة على حجية الشورى في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسنة الخلفاء الراشدين.

فالأدلة من القرآن، قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩]، و﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الشورى:٣٨]؛ ومن السنة استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد، وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة، وغير ذلك كثير مما سنقف عليه في هذا الكتاب. وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». [الترمذي، ومعناه صحيح].

أما أدلة حجيتها من سنة الخلفاء الراشدين قول ابن الخطاب في الشورى عند اختيار الحاكم: «الإمارة شورى»، «من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم إلا أن تقتلوه»، «فمن بايع أميرًا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا الذي بايعه». [البخاري؛ عبد الرزاق، بأسانيد صحيحة].

٤- جواز المبارزة بإذن الأمير، وهذا قول عامة أهل العلم [ابن قدامة].

٥- المساواة بين الجندي وقائده في السلم والحرب سواء، وقد اتضح ذلك من قصة سواد بن غزية مع الرسول ﷺ، إذ كشف الرسول ﷺ عن بطنه ليقتاد منه سواد. وهو فعل الخلفاء من بعده: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

٦- جواز فداء الأسارى أو المن عليهم.

٧- لا حرج من قتل الأسير قبل أن يصل إلى يد الإمام، كما فعل بلال ومن معه من الأنصار عندما قتلوا أمية بن خلف وهو في أسر عبد الرحمن بن عوف.

٨- أحلت الغنيمة لهذه الأمة، وقسمتها على المقاتلين بعد تخميسها.

٩- من قتل قتيلًا فله سلبه، على شرط: أن يكون المقتول من المقاتلة وليس ممن نهى الرسول ﷺ عن قتلهم، وهم النساء والصبيان والشيوخ الفانون... إلخ، وأن يكون في

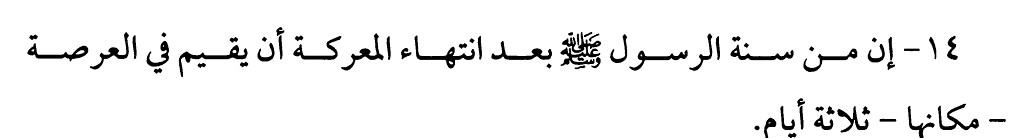
المقتول منفعة وغير مثخن بالجراح، أن يقتله أو يثخنه بجراح تجعله في حكم المقتول، وأن يقرر بنفسه في قتله، فأما إن رماه بسهم من صف المسلمين فقتله فلا سلب له. [ابن قدامة: المغني].

١٠- دلت واقعة قضية الأسرى على أن الرسول ﷺ كان له أن يجتهد، والذين ذهبوا إلى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول ﷺ أن يجتهد، صح منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب. غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد من أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على صحة اجتهاده ﷺ.

١١- الأصل أن يبذل المسلمون كافة جهودهم في الإعداد للمعركة وفي مجابهة العدو، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[الأنفال:٦٠]، ومع ذلك فإن الله يؤيد جنده بخوارق لتعينهم على النصر، إذا كانوا أهلًا له، كما حصل بإمداد الملائكة في بدر، وبأن غشى الله النعاس عيون المؤمنين، وأنزل عليهم المطر.

١٢- نبه الله المؤمنين إلى حقيقة هامة وهي أن لا يجعلوا حب المال يسيطر عليهم عند النظر في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها، مهما كانت الحال والظروف، ولذا عالج الله تجربة رؤية الغنائم مع الحاجة والفقر واختلافهم فيها، ومسألة الأسرى، بوسائل تربوية دقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الأنفال:٦٠] و﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ﴾[الأنفال:٦٧]... ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[الأنفال:٦٧][البوطي: السيرة].

١٣- إن أهل بدر مغفور لهم يوم القيامة، أما أحكام الدنيا فإنها تؤخذ منهم، ويعاقبون عليها إن أتوها كما وقع لقدامة بن مظعون، عندما حد في الخمر.



١٤- إن من سنة الرسول ﷺ بعد انتهاء المعركة أن يقيم في العرصة - مكانها - ثلاثة أيام.

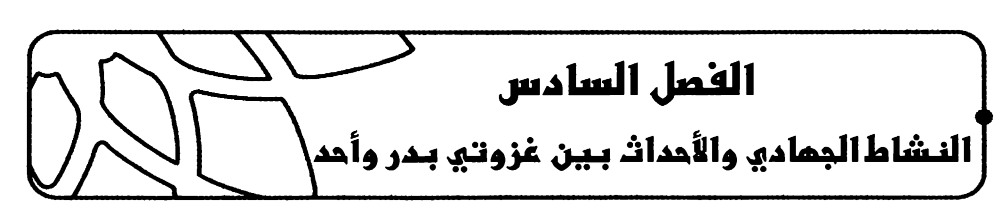
١٥- السنة في الشهداء أن يدفنوا في مضاجعهم، كما حدث لشهداء بدر وأحد، ولا يصلى عليهم كما ثبت بالنسبة لشهداء أحد، ولم يذكر أنه صلى على شهداء بدر. [انظر في هذا كله: مرويات بدر لباوزير].

١٦- لقد تجلت في بدر بطولات إيمانية كثيرة، على سبيل المثال: ما روي من أن أبا عبيدة عامر بن الجراح قتل والده الجراح يوم بدر. فقد جعل والد أبي عبيدة يتصدى لابنه أبي عبيدة يومذاك فيحيد عنه الابن، فلما أكثر قصده فقتله، فنزلت الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢] [الطبراني، بسند جيد كما ذكر في الإصابة والحبير].

وروى ابن إسحاق من حديث أبي عزيز بن عمير قال: «مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدَّ يديك به فإن أمَّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك!..».

وزاد ابن هشام على هذه الرواية فقال: «فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليَسَر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وَصاتُك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك..».





الفصل السادس

النشاط الجهادي والأحداث بين غزوتي بدر وأحد

المبحث الأول: سرية قتل عَصْمَاء بنت مَرْوَان

كانت عَصْمَاء بنت مروان ممن يؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام وتحرض على النبي ﷺ. وقالت في ذلك شعرًا. فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «ألا آخِذٌ لي من ابنة مروان؟» فسمع ذلك عُمَيْر بن عَدِيٍّ الخَطْمِي - من قوم زوجها - فجاءها في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها منهم من ترضعه في صدرها، فجسها بيده، لأنه كان أعمى، ونحى الصبي عنها ثم قتلها، ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ، فقال له: «أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم، فقال له النبي ﷺ: نصرت الله ورسوله يا عمير [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره]، فقال عمير: هل علي في ذلك شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان». [أبو داود، صححه ابن حجر في بلوغ المرام، وغيره]. فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله ﷺ «عميرًا البَصِيْر». وكان ذلك في الخامس والعشرين من رمضان، على رأس تسعة عشر شهرًا من الهجرة، بعد عودته من بدر مباشرة.

وأسلم يومئذٍ رجال من بني خطمة لما رأوا من عز الإسلام، وجهر بإسلامه من كان يستخفي به. [ابن إسحاق، بسند يتقوى بغيره].

المبحث الثاني: مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ

تذاكر عمير بن وهب - قتل ابنه وهب يوم بدر - وصفوان بن أمية - قتل والده وأخوه - مصابهم في بدر. فأسرَّ عمير بن وهب إلى صفوان بأن لولا دين عليه وعيال

يخشى عليهم الضيعة لركب إلى محمد حتى يقتله، فاغتنم صفوان الفرصة، فالتزم له بقضاء دينه وضم عياله إلى عياله إن هو قتل محمدًا وأصابه شر. واستكتمه الخبر.

وعندما جاء المدينة رآه عمر فتوجس منه خيفة، فاقتاده إلى الرسول ﷺ، ودار بينهما حوار، جاء فيه أن الرسول ﷺ طلب منه أن يصدقه القول في سبب مجيئه، فذكر أنه جاء ليفتدي ابنه وَهْبًا. وعندما أصر على الكذب، كشف له الرسول ﷺ عما دار بينه وبين صفوان، وهما بمكة، وهو بالمدينة فتعجب عمير من هذا، وكان ذلك سببًا في إسلامه. فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يفقهوه في الدين ويطلقوا له أسيره.

وأذن له الرسول ﷺ في أن يعود إلى مكة ليدعو إلى الإسلام بالحماسة نفسها التي كان يدعو بها إلى الكفر. فأسلم على يديه خلق كثير. [رواها ابن إسحاق، ابن عقبة والأسود، وابن منده والطبراني، كما ذكر ابن حجر في الفتح].

المبحث الثالث: سرية سالم بن عُمَيْر لقتل أبي عَفَك

لقد نجم نفاق أبي عفك، أحد بني عمرو بن عوف، حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن صامت، وقال في ذلك شعرًا. فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟». فخرج سالم بن عمير، فقتله. وكان ذلك في شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

المبحث الرابع: غزوة بني قَيْنُقَاع

أ- تاريخ الغزوة:

ذكر معظم أهل المغازي والسير أنها وقعت بعد بدر، ورجح ذلك ابن حجر [في الفتح]، مستندًا إلى رواية ابن عباس في سنن أبي داود، وحكم عليها بالحسن، وقواه

برواية عبادة بن الوليد في مغازي بن إسحاق. وقد حدد الزهري [في تاريخ الطبري] أنها كانت في شوال من السنة الثانية الهجرية، ويضيف الواقدي وابن سعد: أنها كانت يوم السبت للنصف من شوال. [وأسانيدهم تعتضد].

ب - أسبابها:

تذكر كتب السيرة سببين لهذه الغزوة، الأول: أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر، ويظهر ذلك في موقفهم من الرسول ﷺ عندما جمعهم في سوقهم بعد بدر، وقال لهم: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا في قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾[آل عمران:١٢-١٣][أبو داود، وحسنها ابن حجر في الفتح].

والسبب الثاني: هو أن أحدهم عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، فلما قامت انكشفت، فصاحت مستنجدة، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي، وتواثب عليه اليهود فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. [ابن هشام، برواية يستأنس بها كما ذكر الألباني في دفاع].

وإذا قبلنا تحسين ابن حجر لرواية ابن إسحاق في السبب الأول، فهذا لا يعني أن سبب إجلائهم يعود إلى رفضهم الدخول في الإسلام، لأن الإسلام في هذه المرحلة كان يقبل التعايش السلمي معهم، وأن نصوص صحيفة المدينة تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة، وإنما يعود سبب الإجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية ضد

المسلمين، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينـة، ومـن ذلـك قصـة المـرأة المسـلمة معهم. [د. العمري: المجتمع المدني].

وكذلك قصة شاس بن قيس القينقاعي الذي مر على نفر مـن أصـحاب الرسـول ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، فغاظه مـا رأى مـن ألفـتهم في الإسـلام، بعـد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر أحد شباب اليهود ليجلس معهم ويذكرهم بحروبهم في الجاهلية، مثل يوم بعاث. [ابن إسحاق؛ الطبري: التفسير، وأسانيدهم تعتضد].

ج- الحصار والإجلاء:

إن خبر إجلاء بني قينقاع ثابت في الصحيحين، وأما تفاصـيل الحصـار فقـد أورده ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وتابعهم المؤرخون في ذلـك. وإسـناد ابـن إسـحاق يتقوى مع المتابعة.

وقد ورد في تفاصيل خبر حصارهم أنهم كانوا صاغة وحلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول، وكانوا أشجع اليهود. فلما أظهروا العداوة والبغضاء، خشي الرسول ﷺ خيانتهم، فنبذ إليهم على سواء كما أمره الله ﷻ في مثل هذه الحالات، إذ يقول الله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾. وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وعندما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول ﷺ على أن لهم أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا، ثم كلمه فيهم حليفهم ابن سلول، وألح في ذلك قائلًا: «أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة؟»، فقال رسول الله ﷺ: «**هم لك** [ابن إسحاق، من مرسل عاصم وعبادة، يعتضدان]، **وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة. وتولى أمر ذلك عبادة ابن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة، فقسمت بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ**». [ابن سعد].

وكان عبادة بن الصامت قد تبرأ من حلفهم عندما حاربوا الرسول ﷺ، وفيه وفي ابن سلول نزل قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٢] [ابن إسحاق، مرسلًا، يعتضد].

د- أحكام وعبر:

١- دلت هذه الحادثة على حقد وعداوة اليهود واتخاذ ما يستطيعون من وسائل للغدر بالمسلمين وإمامهم.

٢- هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله بن أبي بن سلول عن اليهود بالكيفية التي علمنا، ودوره في كثير من أحداث الفتن، والتخذيل والترويج للإشاعات المغرضة في صفوف المسلمين، دليل قاطع على نفاقه. ومع ذلك عامله الرسول ﷺ على أنه مسلم. وهذا يدل -كما أجمع العلماء- على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، ويتولى الله أمر باطنه يوم القيامة. ومن الأدلة على ذلك قول عمر رضي الله عنه: «إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة» [البخاري].

والحكمة من معاملة الناس للمنافقين بحسب الظاهر، أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب، إذ ربما اتخذ بعض الحكام من حجية الأدلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون وجه حق. [البوطي: السيرة].

٣- لا يجوز موالاة غير المسلمين، بل يجب البراءة منهم، إلا إذا كان المسلمون في حالة ضعف يضطرهم إلى الموالاة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[آل عمران:٢٨].

المبحث الخامس: سرية قتل كَعب بن الأشرف

ينتسب كعب إلى بني نبهان، وهم عشيرة من طيء، وكان أبوه قد أصاب دمًا في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بني النضير، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعب بن الأشرف. [ابن إسحاق، مرسلًا صحيحًا؛ الطبري: التاريخ؛ ابن حجر: الفتح].

كان كعب شاعرًا. وقد غاظه انتصار المسلمين ببدر، فسافر إلى مكة ليواسي المشركين في قتلاهم ويحرضهم على أخذ الثأر، ويهجو الرسول ﷺ. وعندما سأله أبو سفيان قائلًا: «أناشدك الله! أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق؟ قال كعب: أنتم أهدى منهم سبيلًا»، فأنزل الله على رسوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[النساء:٥١].

وعندما عاد إلى المدينة أخذ يقرض الشعر متشببًا بنساء المسلمين، فأهدر الرسول ﷺ دمه. وتصدى لمهمة إنزال العقاب الرادع به: محمد بن مَسْلَمَة وأبو نائلة، أخو كعب من الرضاع! ووضع ابن مسلمة خطة محكمة لذلك. فاستأذن الرسول ﷺ أن يقول فيه ما يطمئن اليهودي، أي يبدي تبرمه بمحمد ﷺ. وعندما جاءه طلب منه أن يقرضه تمرًا ليدفعه للرسول ﷺ، مبديًا تذمره منه لما يكلفهم به، فطلب كعب رهينة من النساء أو الأبناء، فاعتذر ابن مسلمة، لما يجر عليهم ذلك من عار، واقترح عليه أن يرهن عنده بدل هذا سلاحًا، فرضي كعب. فجاءه ابن مسلمة ليلًا ومعه أبو نائلة - سَلْكَان

ابن سَلَامة بن وَقْش - وعَبَّاد بن بِشْر والحارث بـن بشـر وأبـو عـبس بـن جـبر، مـن الأوس، فنادوه، فنزل، إليهم، على الرغم من تحذير امرأته له مـن مغبـة ذلـك، ومشـى معهم، فاحتالوا لقتله، متظاهرين بشم عطر شعره، فاستمكنوا منه ثم قتلـوه، حتـى إن أحدهم أصيب بسيوف أصحابه. [البخاري].

وعندما احتجت اليهود على هذا الفعل، بين لهم الرسول ﷺ ما صدر من كعب من أفعال. وعندما فزعت يهود وبقايا المشركين مما حـدث وخـافوا عـلى أنفسـهم، دعـاهم الرسول ﷺ إلى كتابة معاهدة بينهم، فكتب صحيفة عامة كـما تـذكر روايـة لأبي داود. والراجح أن كتابة هذه الصحيفة جاء تأكيدًا لما في المعاهدة التـي كتبـت قبـل بـدر بـين المسلمين واليهود، والمشهورة بصحيفة المدينة. [د. العمري: المجتمع المدني].

وكان مقتله بعد بدر وقبل غزوة بني النضير، وحدده الواقدي بالسنة الثالثة لأربـع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرًا من الهجرة.

عظات وعبر:

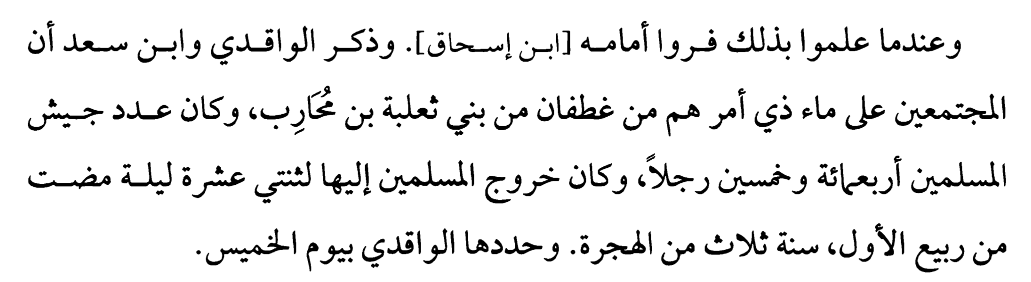
١- إن في قتل ابن الأشرف دليلًا على مشـروعية الاحتيـال عـلى قتـل مـن وجـب قتله لغدره وخيانته.

٢- جواز الكذب على الأعداء وخداعهم، لأن الحرب خدعة.

٣- إن في قتل الغادر الخائن تخويفًا لمـن وراءه حتـى لا يسـلك مسـلكه غـيره ممـن هم على شاكلته.

المبحث السادس: غزوة ذي أَمَر

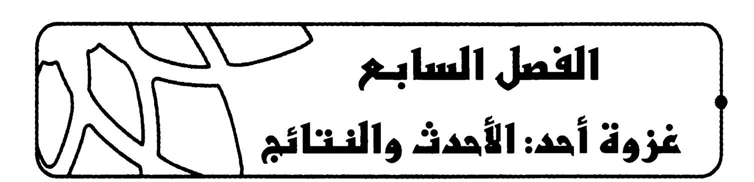
بلغ الرسول ﷺ أن غطفان قد تجمعت في ذي أمر من نجد، فسار إليهم.



وعندما علموا بذلك فـروا أمامـه [ابـن إسـحاق]. وذكـر الواقـدي وابـن سـعد أن المجتمعين على ماء ذي أمر هم من غطفان من بني ثعلبة بن مُحَارِب، وكان عـدد جـيش المسلمين أربعمائة وخمسين رجلاً، وكان خروج المسلمين إليها لثنتي عشرة ليلـة مضـت من ربيع الأول، سنة ثلاث من الهجرة. وحددها الواقدي بيوم الخميس.

وذكر الواقدي وابن سعد وقوع قصة دَعْثُور المحاربي في هذه الغـزوة. وخلاصـتها أن المسلمين قد أصابهم مطر في طريق عودتهم، فابتل ثوب الرسول ﷺ، فجعـل وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها على شجرة لتجف، ثم اضـطجع تحـت الشجرة، والأعداء ينظرون إلى كل ذلك خلسة، فأغروا سيدهم الفاتك دعثـور ليفتـك بالرسول ﷺ وهو على هذه الحال. وعندما وقف بالسيف على رأس الرسول ﷺ قـال: «**من يمنعك مني اليوم؟**»، قال رسول الله ﷺ: «**الله**»، ودفعه جبريل ﷺ عنه حتى وقـع السيف من يده، فأخذه الرسول ﷺ ووقف على رأسه قائلاً: من يمنعـك منـي اليـوم؟ قال: لا أحد». فأسلم وعاد وحكى لقومه ما حدث، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ونزل في ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[المائدة:١١]. [قصـة دعثـور المحـاربي ثابتـة في الصحيحين، ولكن بغير هذا السياق، وفي غير هذه الغزوة، وبغير هـذا الاسـم، بـل اسـمه: غـورث ابن الحارث، وأنه لم يسلم، والمتفق عليه بين أهل السير والصحيحين هو أن الله ﷻ عصمه منـه، ومـا في الصحيح أصح. وسيأتي ذكـر القصـة في غـزوة ذات الرقـاع مـن روايـة البخـاري ومسـلم وابـن إسحاق، إن شاء الله].





الفصل السابع
غزوة أحد: الأحداث والنتائج

تاريخ الغزوة:

اتفق كتاب السيرة على أنها كانت في شوال من السنة الثالثة الهجرية، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه. وأشهر الأقوال إنه السبت [الواقدي؛ ابن سعيد؛ البلاذري]، للنصف من شوال [الطبري: التفسير، وروايته أصح ما في الباب؛ ابن إسحاق في السير، وابن حبان].

أسبابها:

لقد كان السبب المباشر لها، كما أجمع على ذلك أهل السير، هو أن قريشاً أرادت أن تنتقم لقتلاها في بدر، وتستعيد مكانتها التي تزعزعت بين العرب بعد هزيمتها في بدر. [ابن إسحاق في السيرة والسير، مرسلاً].

أما من بين الأسباب الأخرى الهامة التي يمكن استنتاجها من مجريات الأحداث، فهي أن قريشاً تريد أن تضع حداً لتهديد المسلمين طرق تجارتهم إلى الشام، والقضاء على المسلمين قبل أن يصبحوا قوة تهدد وجودهم.

عدّة المشركين:

خصصت قريش أرباح قافلة أبي سفيان التي نجت من المسلمين [ابن إسحاق في السيرة والسير]، لتجهيز جيشهم لغزوة أحد [الواقدي]، وجمعت ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مئتا فرس، وسبعمائة دارع. وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وخرجت معهم مجموعة من النساء لإثارة حماسهم وخوفهم من العار إذا فروا.

وذكر ابن إسحاق أنهن كن ثمانياً، وقال الواقدي: إنهن كن أربع عشرة، وقد سمَّياهن. وقال ابن سعد: إنهن كن خمس عشرة امرأة.

وأري الرسول ﷺ في منامه ما سيحدث في أحد، وذكره لأصحابه، قائلاً: **«رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً - والله خير - فإذا هم المؤمنون يوم أحد»**. [متفق عليه]. وفي رواية أخرى: **«ورأيت أني في درع حصينة فأوَّلتها المدينة»**. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وفسر الرسول ﷺ هذه الرؤيا بأن هزيمة وقتلاً سيقعان في أصحابه. [المصدر نفسه].

عندما علم الرسول ﷺ بمجيء جيش مكة لحرب المسلمين، شاور أصحابه، بين أن يبقوا داخل المدينة أو أن يخرجوا لملاقاة العدو خارجها. فقال جماعة من الأنصار: «يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته. فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل للنبي ﷺ: **«أمرنا لأمرك تبع»**، فأتى حمزة فقال: «يا نبي الله، إن القوم قد تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تَبَع. فقال رسول الله ﷺ: **«إنه ليس لنبي إذا لبس لَامَتَهُ أن يضعها حتى يُنَاجِزَ»**. [البيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ الحاكم، وصححه هو والذهبي] [اللأمة: الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب. وقد تترك الهمزة للتخفيف].

إن ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أن عبد الله بن أبي كان موافقاً لرأي رسول الله ﷺ في البقاء داخل المدينة، فقد روى الطبري في التفسير عن السدي خلاف ذلك، وهو أثر إسناده صحيح ورجاله ثقات ولكنه مرسل، وفيه من يَهِم ويكثر الخطأ، ولذلك رجح الباكري [مرويات أحد] رواية ابن إسحاق لصحتها ولإجماع أهل السير على ذلك، وأن حجة ابن سلول في الرجوع عن أحد أن الرسول ﷺ لم يطعه.

ومما ذكره أهل السير أن من دوافـع الـراغبين في الخـروج، إظهـار الشـجاعة أمـام الأعداء والرغبة في المشاركة في الجهاد لما فاتهم من فضل الاشتراك في بدر.

أما دوافع الرسول ﷺ ومن كان على رأيه في البقاء داخل المدينة فهو الاستفادة مـن حصون المدينة وطاقات كل المواطنين، مما يرجح فرصة دحـر المهـاجمين. [ابـن إسـحاق، الواقدي؛ ابن سعد].

- وبعد أن حسم الرسول ﷺ أمر الخروج رفعت راية سوداء [ابن خياط، مـن مرسـل ابن المسيب، ومراسيله قويـة] وثلاثة ألوية: لواء للمهاجرين، حمله مصعب بن عمير وحملـه بعد استشهاده علي بن أبي طالـب، ولواء للأوس حمله أسيد بن حضير، ولواء للخـزرج، حمله الحباب بن المنذر [الواقدي]. وبلغ عددَ مـن سـار تحتهـا ألفـاً مـن المسـلمين ومـن ظاهرهم، وكان معهم فرسان ومائة دارع [ابن سعد؛ الطبري في التـاريخ]. وكـان الرسـول ﷺ يرتدي درعين. [الحاكم، ووافقه الذهبي على تصحيحه؛ الواقدي].

وعندما تجاوز الرسول ﷺ في مسيره إلى أحد ثنية الوداع رأى كتيبـة خَشْـنَاء [كثـيرة السلاح]، فقال: «من هؤلاء؟ قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة مـن مواليـه من اليهود من أهل قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سَلَّام. قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» [ابن سعد، يعتضد]. وإذا صح هذا الخبر يكـون جـلاء قينقـاع بعـد أحـد. وعنـدما وصـل جـيش المسلمين الشَّوْط [مكان ملعب التعليم الآن]، انسـحب المنـافق ابـن سـلول بثلاثمائـة مـن المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: «أطـاع الوِلْـدَان ومـن لا رأي لـه، أطـاعهم وعصـاني، عَـلَامَ نَقْتُـلُ أنفسـنا؟».

[البخاري؛ البيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة، ابن إسحاق].

ورأت فرقة من الصحابة قتال هؤلاء المنافقين، ورأت الفرقة الأخرى عـدم ذلـك، فنزلـت الآيــة الكريمــة: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾[النساء:٨٨] [البخاري، وأركسهم: بددهم].

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام عند انسحابهم، وأخذ يقول لهم: «أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه»، وقد أشار القرآن إلى هذا الحوار في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[آل عمران:١٦٦-١٦٧]. [ابن إسحاق، مرسلاً].

وكادت بنو سَلَمَة - من الخـزرج - وبنـو حَارِثـة - مـن الأوس - أن تنخـذل مـع المنافقين لولا أن الله ثبتهم مع المؤمنين، وفيهم قال الله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ ﴾[آل عمران:١٢٢] [متفق عليه].

ورد الرسول ﷺ في معسكره بشيخان جماعة من الفتيان لصغر أسنانهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك، منهم: عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة ابن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري،.. بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وقد ذكرهم ابن سيد الناس، وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم [متفق عليه]، وأجاز منهم رافع بن خَديج لما قيل له: إنه رام، وسمرة بن جندب؛ لأنه احتج بأنه أقوى من رافع، ويصرعه [ابن هشام]. وفي تلك الليلة قام ذكوان بن عبد القيس بحراسة الجيش، ويقال: كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه [الواقدي].

وعندما تحرك الجيش في صباح السبت لملاقاة العدو مروا بحائط مِرْبَع بـن قيظـي، وكان أعمى البصر منافقاً، فأخذ يحثو التراب في وجـوه المسـلمين، ويقـول: «إن كنـت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي، والله لو أعلم أني لا أصيب بهـا غـيرك - يا محمد - لضربت بهـا وجهـك، فابتـدره القـوم ليقتلـوه»، فقـال رسـول الله ﷺ: «**لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر**»، وقد شجه سعد بـن زيـد قبـل هـذا النهي [ابن إسحاق، الواقدي].

وفي الطريق إلى ميدان المعركة طلب عمر من أخيه زيد أن يأخذ درعه، فقال له زيد: «إني أريد من الشهادة مثل الذي تريد»، فتركه كلاهما [الطبراني، كما في المجمع، وصححه الباكري في مرويات أحد].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبـل ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير، ووضـعهم فوق تل عينين المقابل جبل أحد، خشية أن يطوق المشركون المسلمين، وأصـدر أوامـره إليهم قائلاً: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتـى أرسـل إلـيكم». [البخاري]. وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجـه أُحداً، وظهره إلى المدينة.

وعند التحام الجيشين نادى أبو عامر - عبد عمرو بن صـيفي - قومـه مـن الأوس لينضموا معه للحرب في صفوف المشركين، الذين انضم إليهم في مكة، وحرضهم عـلى الغزو، ولكنهم أغلظوا له في الرد قائلين له: «فَلا أَنْعَمَ اللهُ بك عَيْنًا يا فاسق»، ولم يملك أن قال: «لقد أصـاب قـومي بعـدي شر». وأخـذ في قتـالهم بالحجـارة. [ابـن إسـحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي، عرف بـ«الراهب»].

وبدأ القتال بمبارزة بين علي وطَلْحَة بن عثمان، حامل لـواء المشـركين، فقتـل عـلي طلحة [الطبري: التفسير، من مرسل السدي، صحيح]. ثـم الـتحم الجيشـان واشـتد القتـال، واستبسل المسلمون حتى تمكنوا من دحر المشركين إلى معسكرهم، وأخـذ الرسـول ﷺ في زيادة رفع روحهم المعنوية بأن أخذ سيفًا وقال: «من يأخذ مني هذا؟ فَبَسَطُوا أيديهم، كـل إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال أبو دُجَانَة: - سَـمَاك بن خَرَشَة - وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخـذه بحقه، فأخذه بحقه. فأخذه فَفَلَقَ به هَامَ المشركين». [مسلم وغيره].

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد: أَمِتْ، أَمِتْ. [الحاكم، أبو داود، أحمد في المسند؛ الدارمي، ابن هشام، الواقدي، وإسناد أحمد وأبو داود والحاكم حسـن] فقد استماتوا تحـت هذا الشعار، وسجل التاريخ استماتة حمزة وبسالته في القتـال. فقـد تصـدى في المبـارزة لسِبَاع بن عبد العزى فقتله [البخاري]، وتصدى لغيره من عتاة المشركين [الواقدي] أمثال عثمان بن أبي طلحة، أبي شيبة، أحد حملة لواء المشركين يومذاك.

وكان وَحْشِيٌّ، مولى جُبَيْر بن مُطْعِم، قد اشترط عليـه مـولاه أن يعتقـه إن هـو قتـل حمزة، ثأرًا لعمه طُعَيْمَة بن عدي، الذي قتله حمزة يوم بدر، فكمن لحمزة تحت صـخرة، فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غَدْرًا. [البخاري].

روى الواقدي أن وحشيًا عندما أيقن بموت حمزة تذكر هندًا وما لقيـت عـلى أبيهـا وعمها وأخيها حين مصرعهم يوم بدر، ذهب خلسة إلى جثة حمزة فأخرج كبـده وجـاء بها إلى هند ليدلل على قتل حمزة، فمضغتها ثم لفظتها، ونزعت ثيابهـا وحليهـا فأعطتهـا وحشي ووعدتـه بـدنانير حـين الرجـوع إلى مكـة، وأراهـا جثتـه، فقطعـت مـذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، وجعلت منها أسورة وخَلاخِل.

وقاتل مُصْعَب بن عُمَيْر حتى استشهد، وأخذ الراية بعده علي [ابن خياط، من مرسل ابن المسيب]. وصدق المسلمون في اللقاء، فأوقعوا في المشركين القتل، وقتلوا أصحاب اللواء، حتى تركه المشركون وما يدنو منه أحد منهم [ابن إسحاق، بسند حسن]. وانتصروا عليهم في هذه الجولة الأولى من القتال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾[آل عمران:١٥٢] [البخاري، والحس: القتل].

وعندما انهزم المشركون بنسائهم - وقد بدت سوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن - قال أصحاب ابن جبير: «الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»، ثم هرعوا إلى جمع الغنائم.

وكانت هذه فرصة مواتية لابن الوليد ليلتف حول المسلمين، فيراه المشركون فيعودوا إلى ميدان القتال مرة أخرى [الطبري: التفسير، من مرسل السدي، ابن إسحاق بسند حسن] محيطين بالمسلمين. وارتبك المسلمون إلى الحد الذي لم يقدر أن يميز بعضهم المسلم من الكافر. وفي هذه اللحظات قتل المسلمون اليمان - والد حذيفة - وابنه حذيفة يصرخ فيهم: «أي عباد الله، أبي، ثم قال لهم عندما قتلوه: يغفر الله لكم» [البخاري وغيره]. واستشهد من المسلمين جماعة كثيرة، وغاب الرسول ﷺ عن أعينهم، وشاع أنه قد قتل. [ابن إسحاق، حسن؛ ورواه غيره].

وفر جمع من المسلمين من الميدان. وجلس بعضهم دون قتال، وتصدى آخرون للمشركين، وحرضوا المؤمنين على القتال حتى نالوا الشهادة. ومن هؤلاء أنس ابن النَّضْر، الذي كان يتشوق لتعويض ما فاته من فضل بدر. فقال عندما رأى بعض المسلمين قُعُودًا: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما



صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معـاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع أنس». وعندما انجلت الغمة وجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربـة ورميـة وطعنة، ولم يعرفه أحـد إلا أختـه الرُّبَيِّـع، عرفتـه ببنانـه. ونزلـت فيـه وفي أمثالـه مـن المجاهدين الصـادقين الآيـة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[الأحزاب:٢٣]. [متفق عليه].

وكان الفارُّون لا يلوون على شيء على الرغم من دعـوة الرسـول ﷺ لهـم بالثبـات معه. وفي ذلك نزل قول الله تعـالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[آل عمران:١٥٣].

وقد عفا الله عن الذين فروا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾[آل عمران:١٥٥] [أحمد وأبو يعلى والطبري في التفسير، بسند حسن]. وذكر ابن الجوزي في التفسير أن أحد سببي فرارهم هو سماعهم إشاعة مقتل النبي ﷺ.

وكان أول من علم بأن الرسول ﷺ حي بعد الانتكاسة، هو كعب بن مالك، فنادى مبشرًا بذلك، فأسكته الرسول ﷺ حتى لا ينتبه المشركون لـه. [الحـاكم، وصـححه وأقـره الذهبي؛ أبو نعيم: الدلائل، حسن].

وتمكن بعض المشركين من الوصول إلى الرسول ﷺ وقد أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قـال: «مـن يـردهم عنـا ولـه الجنـةُ، أو هـو رفيقـي في الجنة؟». فتقدم الواحد تلو الآخر للدفاع عنه حتـى استشـهد الأنصـار السـبعة، فقـال النبي ﷺ لصاحبيه القرشيين: «**ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا**». [مسلم].

وممن قاتل دون الرسول ﷺ قتالًا عظيمًا سجله التاريخ: طلحة بن عُبَيْدِ الله، حتى شلت يده التي وقى بها النبي ﷺ [البخاري، وابن إسحاق، حسن]، وسعد بن أبي وقاص، الذي كان الرسول ﷺ يناوله السهام ويقول له: «**يا سعد، إرْمِ فِدَاكَ أبي وأمي**» [البخاري]، ولم يجمع النبي ﷺ أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك بن أبي وقاص كما قال علي رضي الله عنه [نفسه]، وكما قال هو عن نفسه [نفسه]، وأبو طلحة الأنصاري، أمهر الرماة، والذي كان الرسول ﷺ إذا مر به أحد بجعبته نبل يقول له: «انثرها لأبي طلحة»، وعندما يَشْرِفُ النبي ﷺ على القوم يقول له أبو طلحة: «بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك» [نفسه]، وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ معجبًا به: «**لصوتُ أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة**» [أحمد: المسند، حسن]، وأبو دُجَانَة الذي كان يحمي الرسول ﷺ بظهره، حتى كثر النبل فيه وهو مُنْحِنٍ عليه. [ابن إسحاق].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت طرفها فأخذها قَتَادَة ابن النعمان، فكانت عنده.

وأصيبت يومئذٍ عين قتادة حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما. [ابن إسحاق، حسن، وغيره، بأسانيد تعتضد].

وفي هذه الظروف العصيبة اضطرت أم عُمَارَة - نَسِيْبَة بنت كعب المَازِنِية - أن تدافع عن الرسول ﷺ، حتى جرحها ابن قَمِئَة جرحًا أجوف له غور على عاتقها. [ابن هشام، الواقدي].

وقاوم الرسول ﷺ مقاومة شديدة، فأصيب إصابات كثيرة، فكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وشُجَّ في وجهه، وسال دمه، فجعل يمسحه ويقول: «كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو

يدعوهم إلى الإسـلام؟ فـأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[آل عمران:١٢٨] [مسلم]. فقـال رسـول الله ﷺ لما طمـع في إسـلامهم: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [مسلم]. وفي روايـات عنـد البخـاري: أن الرسـول ﷺ كسر رباعيته يومئذٍ وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه.

وقال ﷺ عندما فعل به المشركون ذلك: «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا بنبيه، - يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله**»، وفي رواية: «**اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمُّوا وجه نبي الله ﷺ** [ابن إسحاق]. وكانت فاطمة ابنتـه تغسـل دمـاءه وعـلي يسـكب المـاء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيـد الـدم إلا كثـرة، أخـذت قطعـة مـن حصـير، وأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم». [البخاري].

وقد ظهرت بطولات إيمانية كثيرة في هذه الغزوة، ومن ذلك:

قال رجل للنبي ﷺ: «**أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة**». فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى نال الشهادة. [البخاري].

وقال عبد الله بن جحش، قبل المعركة: «إني أقسم أن نلقى العدو، فـإذا لقينـا العـدو، أن يقتلوني ثم يبقروا بطني، ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني: فيم هذا؟ فأقول: فيك»، وعنـدما لقي العدو، وفعل بهم ما فعل، وجدوه بالحالة التي وصفها. [الحاكم، مرسل صحيح].

وشهد عمرو بن الجَمُوح القتال مع أبنائه الأربعة، على الرغم مـن محـاولتهم إثنـاءَه عن الخروج بحجة أن الله يعذره لشدة عَرَجِه، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يَـدَعُوه مـا دام راغبًا في الشهادة، ومما قاله للرسول ﷺ: «أرأيت إن قتلت اليوم أَأَطأُ بعرجتي هـذه الجنة؟ قال نعم. قال: فوالذي بعثك بالحق لَأَطَأَنَّ بها الجنة اليوم إن شـاء الله. ثـم قاتـل حتى نال ما أراد من الشهادة». [أحمد: المسند، حسن].

وروى أهل المغازي والسير [الحاكم، من حـديث ابـن إسـحاق بسـند حسـن، وغـيره] أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن الربيع: «من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟ فإني قد رأيته - وأشار بيده إلى ناحية من الوادي- وقد شُرِع فيه اثنا عشر سِنانًا، قال: فخرج محمد بن مسلمة - ويقال أُبي بن كعب - فخرج نحـو تلـك الناحيـة، قـال: وأنـا وسـط القتلى أتعرفهم، إذ مررت به صريعًا في الوادي، فناديته فلم يُجب، ثم قلت: إن رسـول الله ﷺ أرسلني إليك! فتنفس كما يتنفس الكير، ثم قال: وإن رسول الله لحيٌّ؟ قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنانًا. قال: طُعنت اثنتي عشرة طعنة، كلها أجافتني - أي وصلت إلى جوفه -؛ أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله، الله! وما عاهدتم عليـه رسول الله ليلة العقبة! والله ما لكـم عـذرٌ عنـد الله إن خَلُـصَ إلى نبـيكم ومـنكم عـين تطرف! ولم أَرِم من عنده حتى مات. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرتـه. قـال: فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة رافعًا يديـه يقـول: «**اللهـم الـقَ سـعد بـن الربيـع وأنت عنه راض!**».

هذا نص رواية الواقدي، أما رواية ابن إسحاق فقد أبهم مـن أرسـله الرسـول ﷺ لينظر له ما فعل سعد، ولفظه: «.. من رجـل ينظـر لي مـا فعـل سـعد بـن الربيـع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعـل سعد، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمـق. فقلـت لـه: إن رسـول الله ﷺ أمـرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، أبلغ رسـول الله ﷺ عنـي السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عنـد الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف. قـال: ثـم لم أبـرح حتـى مـات؛ قـال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره».



ومع أن الله قد عذر الشيوخ الضعفاء إلا أن اليمان وثابت بن وَقْش أبيا البقاء مع الذرية في الحصون، فلحقا بالميدان طلبًا للشهادة، وقد استشهد ثابت على يد الكفار، وقتل المسلمون اليمان خطأً، وَوَدَاهُ الرسول ﷺ، ولكن ابنه حذيفة تصدق بدية أبيه، مما زاده عند الرسول ﷺ خيرًا. [ابن إسحاق، بإسناد حسن].

وكان حَنْظَلَة بن أبي عامر عَرُوسًا ليلة أحد، فعندما سمع النداء، عجل بالخروج ولم يغتسل، وقاتل حتى استُشهد. وعندما رآه الرسول ﷺ قال: «**إن صاحبكم لتغسله الملائكة**»، ولذا عرف بعد ذلك بـ: (غَسِيلُ الملائكة) أو (الغسيل) [الحاكم، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وقاتل مُخَيْرِيق مع رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان مثالًا وقدوة حسنة لليهود الذين أسلموا. وحين خرج إلى المعركة قال: «إن أصبت فمالي لمحمد ﷺ، يصنع فيه ما يشاء» [ابن إسحاق]. فقال رسول الله ﷺ: «**مخيريق خير يهود**». [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

وكان أُصَيْرِم بني عبد الأشهل - عمرو بن أُقَيْش- كارهًا للإسلام حتى كان يوم أحد، أسلم ولحق بالمسلمين في أحد، فقاتل حتى نال الشهادة، وما صلَّى لله صلاة واحدة. [ابن إسحاق، بسند حسن].

وإن كان قد فات حسان بن ثابت رضي الله عنه شرف الجهاد بالسيف في هذه الغزوة وغيرها، إلا أنه لم يفته شرف الكلمة القوية في تخليد ذكرى بطولات المسلمين في هذه الغزوة وغيرها.

لقد كان حسان من أصحاب الأعذار. فقد ذكر الكلبي [كما في تاريخ دمشق] أن الجبن لم يكن من عادة حسان، بل كان شجاعًا لَسِنًا، فأصابته علة منعته من شهود القتال. وأوضح الواقدي هذه العلة، وهي: أن أكحله [عرق في اليد] كان قد قطع، فلم يكن

يستطيع الضرب بيد. وهذا يفسر لنا الروايات التي وردت في تخلفه عن القتال، مثل رواية الطبراني [في المجمع] التي فيها أنه كان مع الذرية في حصن فَارع يوم أحد، فجاء يهودي وأخذ يطل على الحصن، فطلبت صفية بنت عبد المطلب من حسان أن يقوم إليه فيقتله، فقال: «ما ذاك فيَّ ولو كان لكنت مع رسول الله ﷺ»، فقتلته صفية وطلبت من حسان أن يرميَ برأسه إلى اليهود أسفل الحصن، فاعتذر أيضًا، فرمته إليهم، فتفرقوا لأنهم ظنوا أن بالحصن رجالًا محاربين.

وذكر البلاذري [في الأنساب] واليعقوبي [في تاريخه] كذلك أن القصة كانت يوم أحد. والذي ذكره ابن إسحاق وغيره أنها كانت يوم الخندق.

ولم تأت قصة حسان مع صفية بطريق يحتج بها، ومما يجعلنا نقبل رواية الواقدي والكلبي - على ما بهما من علل - لأننا نعلم أن حسانًا كان يهاجي الشعراء في الجاهلية والإسلام، ولم يرمه أحد منهم بجبن، ولو كان مثل حديث الطبراني صحيحًا لكان مما يذكر في الشعر ويذم به كما ذم هو غير واحد، وهجاه بالفرار من القتال والجبن، إضافة إلى أن عدم شهود حسان القتال كان لكبر سنه كما ذكر محققا سيرة ابن هشام. وزاد ابن عبد البر [في الدرر] ما قيل في تفسير تخلف حسان عن المواقع، فقال: «... وَلهُجِيَ بذلك ابنه عبد الرحمن، فإنه كان كثيرًا ما يهاجي الشعراء العرب مثل النجاشي وغيره».

قلت: ولو كان الجبن من طبع حسان لما عاب الجبن في الرجال، كما في قوله:

وإنا لقوم ما نُسَوِّدُ غادرًا ... ولا نَاكِلًا عند الحمالة زُمَّلَا

ولا مانعًا للمال فيما يَنُوبُه ... ولا عاجزًا في الحرب جِبْسًا مغفلًا

وأصيد نَهَّاضًا إلى السيف صارمًا ... إذا ما دعا داعٍ إلى الموت أرقلا

[انظر: شرح ديوان حسان، لعبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٤٠٣- ٤٠٦. والناكل عند الحمالة: الذي ينكص على عقبيه عند تحمل الديات.

والزمل: الضعيف الجبان الرذل. والجبس: الثقيل الذي لا يجيب إلى خير. وأصيد: من معانيها اصطياد الأقران في الحرب. وأرقل: أسرع].

ومعظم أبيات هذه القصيدة اللامية في الفخر بالشجاعة، فانظرها. بل لا تخلو قصيدة من قصائده في الفخر والهجاء من هذه المعاني، فانظر ديوانه كله.

وممن قاتل يوم أحد، وليس بنية الجهاد في سبيل الله، ولكن بنية حماية الأحساب، فكان من أهل النار: قُزْمَان، الذي قتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان الرسول ﷺ إذا ذكر له يقول: «**إنه لمن أهل النار**»، ولما كان يوم أحد قتل نفسه عندما أثخنته الجراح. وكان هذا من دلائل نبوة محمد ﷺ ودليل على أن النية في الجهاد هي الأساس. [هذا مضمون رواية الشيخين وأبو يعلى كما في المجمع وأحمد في المسند والواقدي].

لقد رافقت بعض النسوة جيش المسلمين ليسقين العطشى، ذكر منهن أم عمارة [ابن هشام والواقدي]، وحَمْنَة بنت جَحْش الأَسدية [الطبراني كما في المجمع، وسنده حسن] وأم سُلَيْط [البخاري]، وأم سُلَيْم، وعائشة أم المؤمنين. [متفق عليه].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ كان يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى.

وقد أرسل الله تعالى جبريل وميكائيل ليقاتلا دفاعًا عن الرسول ﷺ [متفق عليه].

وكان الله قد وعد المؤمنين إن هم صبروا واتقوا وأتوا الأعداء من فورهم، فسيمدهم بالملائكة، ولما لم يحصل ذلك منهم فلم يتحقق الوعد، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥] [الطبري: التفسير؛ الطبراني].

وأنزل الله تعالى النعاس على طائفة المؤمنين الـذين اغتنمـوا بـها وقـع للرسـول ﷺ وإخوانهم يوم أحد فناموا يسيرًا ثم أفاقوا، وقـد قـذف الله في قلـوبهم الطمأنينـة، التـي أعادت لهم بعض نشاطهم ليواصلوا الدفاع عن نبيهم. وكـان أبـو طلحـة الأنصـاري فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفه من يده مـرارًا فيأخـذه [البخـاري]. وفي ذلك نزل قول الله تعـالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، أمـا طائفة المنافقين، سواء التي انسحبت مع ابن سلول أو فلولهم التي سارت مـع المـؤمنين فقد قال الله عـنهم في الآيـة نفسـها: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾[آل عمران:١٥٤] [الطبري: التفسير؛ منها آثار صحيحة].

لقد حاول المشركون جهد طاقتهم قتل الرسول ﷺ ولكن الله عصـمه مـنهم. فقـد روي أن أبي بن خلف كان يتوعـد الرسـول ﷺ بمكـة بأنـه سـيقتله يومًـا مـا، فيقـول الرسول ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وغـيره]، فلما كـان يوم أحد لحق بالنبي ﷺ في الشعب وهو يقول: «أي محمد، لا نجوت إن نجوت، فقـال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة مال منهـا على فرسه مرارًا [ابن إسحاق]، ورجع إلى قريش وبه خدش غـير كبـير، فـاحتقن الـدم، فقال: «قتلني والله محمد!»، وطمأنه قومه بأن ليس به بأس، فقال لهم ما قـال لـه محمـد ﷺ بمكة، ثم قال: «فوالله لو بصق عليَّ لقتلني». فمات عدو الله بسَرِف، وهم قافلون به إلى مكة [ابن إسحاق]. وهذا من علامات ودلائل نبوة محمد ﷺ.

وعندما صمد المسلمون واستماتوا دفاعًا عن النبي ﷺ فشل المشركون في محـاولات الاختراق إليه، وأعيتهم المجالدة، ولم يملك أبو سفيان إلا أن يتوعد المسـلمين بحـرب

أخرى في العام القادم، فوافق الرسول ﷺ على ذلك [ابن إسحاق، والواقدي]. وقد ثبت أن أبا سفيان أشرف على المسلمين وقال: «أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. وتجدون مُثلة لم آمر بها ولم تسؤني» [البخاري].

وفي رواية عند أحمد وابن إسحاق قال عمر: «لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». [ورواية أحمد في المسند حسنة].

وعندما انصرف المشركون مكتفين بما نالوه من المسلمين، بعث رسول الله ﷺ عليًا بن أبي طالب، وقال له: «أخرج آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون بمكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم»، وفعل علي ما أمر به، فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة. [البخاري؛ ابن إسحاق؛ الواقدي].

وانجلت المعركة عن سبعين شهيدًا من المسلمين [البخاري]، واثنين وعشرين قتيلًا من المشركين. [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي].

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه [ابن إسحاق]. وقال رسول الله ﷺ حين رأى ما به: «**لولا أن تحزن صفية ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم**»، فلما رأى المسلمون

حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لَنُمَثلنَّ بهم مُثْلَة لم يمثلها أحد من العرب. [ابن إسحاق، وسنده يعتضد].

ونزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[النحل:١٢٦]، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلَةِ. [أحمد؛ ابن إسحاق؛ الترمذي؛ الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

وعن قصة التمثيل بجثة حمزة ؓ، فقد روى موسى بن عقبة [في البداية] أن وحشيًا بقر عن كبد حمزة وحملها إلى هند بنت عقبة فلاكتها فلم تستطع أن تستسيغها.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن هندًا هي التي بقرت عن كبد حمزة، وزاد أن هندًا اتخذت من آذان الرجال وأنفهم خَدَمًا (أي خلاخل) وقلائد، وأعطت خَدَمَها وقلائدها وقِرَطها وحشيًا. [والقرط: حلي الأذن]. وروى الواقدي: أن وحشيًا عندما قتل حمزة حمل كبده إلى مكة ليراها سيده جبير بن مطعم.

وذكر الشامي [في السبل] أن الواقدي والمقريزي -في الإمتاع- رويا أن وحشيًا شق بطن حمزة وأخرج كبده وجاء بها إلى هند فمضغتها ثم لفظتها، ثم جاءت معه إلى حيث جثة حمزة، فقطعت من كبده وجَدَعت أَنْفَهُ وقطعت أُذُنَيْهِ، ثم جعلت مَسَكَتين ومِعْضَدَيْن وخَدَمَتَيْن، حتى قَدِمَتْ بذلك مكةَ.

وروى ابن أبي شيبة [في المغازي، بسند متصل رجاله ثقات] وأحمد [في المسند، بسند صحيح]: «... فنظروا، فإذا حمزة قد بُقر بطنه، وأخذت هند كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تأكلها...».

ولعل رواية الواقدي والمقريزي التي أشار إليها الشامي تفيد الجمع بين روايتي ابن عقبة وابن إسحاق، وتوافقهما في المضمون. أما التمثيل بجثة حمزة فقد ثبت بطرق

صحيحة كما ذكرنا، مما يدل على أن قصة بقر كبد حمزة -التي ذكرها بعض أهل المغازي والسير- لها أصل، ويضاف إلى هذا رواية ابن أبي شيبة.

وسجلت لبعض النساء المسلمات مواقف إيمانية رائعة في تقبلهن مصابهن في أهليهن وفرحهن بحياة الرسول ﷺ. ومن أمثلة ذلك أن الرسول ﷺ مرَّ هو وأصحابه بامرأة من بني دينار [الواقدي؛ واسمها عنده: السميراء بنت قيس]، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: «فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل» - أي صغيرة. [ابن كثير: التاريخ، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما أقبلت صفية - أخت حمزة - لتنظر إليه، طلب الرسول ﷺ من ابنها الزبير أن يرجعها حتى لا ترى ما بأخيها من مُثلة، فقالت: «ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لاحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله». وعندما أخبر الزبير النبي ﷺ بقولها، أمره بأن يخلي سبيلها، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به فدفن. [ابن إسحاق؛ أحمد؛ البزار؛ أبو يعلى البيهقي في الدلائل، وأسانيدهم صحيحة بمجموع طرقها].

وعندما انصرف رسول الله ﷺ راجعًا من أحد إلى المدينة. لقيته حَمْنَة بنت جحش، فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت. فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان، لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها. [ابن إسحاق، ابن ماجه].



وقد روى البخاري وأبو داود أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشير لأحد قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا...، ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد [الترمذي، صحيح]، وأمر الرسول ﷺ أن يدفنوا حيث صرعوا، فأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة، منهم عبدالله بن حرام -والد جابر- [أحمد: المسند، وإسناده ضعيف (١٥٢٥٨)].

وبعد الدفن، صف الرسول ﷺ أصحابه، وأثنى على ربه، ثم دعا الله أن يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة، وأن يقتل الكفرة المكذبين. [الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي].

وكان يتمنى أن يمضي شهيدًا مع أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد، وقد أثنى عليهم عندما سمع عليًا يقول لفاطمة: «هاكِ السيف فإنها قد شفتني»، فقال له: «لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاد سَهْل بن حَنِيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأَقْلَح والحارث بن الصِّمَّة.» [الحاكم، وصححه، وأقره الذهبي].

وبشر الرسول ﷺ المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقد قال عندما سمع بكاء فاطمة بنت عبد الله بن عمرو والد جابر: «ولم تبكي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ [مسلم]، وفي رواية قال عن بكائها: «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه». [متفق عليه].

ونزل في شهداء أحد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[آل عمران:١٦٩] [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي]. فقد روى مسلم أن الصحابة ﷺ سألوا ابن مسعود عن هذه الآية، فقال: «أَمَا إِنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: أَرْوَاحُهُم في جَوْف طَيْرٍ خُضْرٍ لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيثُ

شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل...»، ولذا قال العلماء إن حياة الشهداء حياة محققة حسبما جاء في هذا الحديث [فتح القدير للشوكاني، في ضوء حديث للترمذي].

وعندما عاد الرسول ﷺ من أحد سمع بكاء نساء الأنصار - من بني عبد الأشهل وظَفَر- على من استشهد من أزواجهن، فقال: «**ولكن حمزة لا بواكي له**»، وعندما استيقظ من نومه سمع بكاءهن ونَدْبِهِنَّ بحمزة [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ وغيره]، ونهى يومئذٍ عن النَّوْحِ. [ابن هشام؛ ابن سعد].

لقد نزلت حول موضوع هذه المعركة ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]، وتترك في نهايتها تعليقًا جامعًا على نتائج المعركة وحكمتها: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾[آل عمران:١٧٩].

ب- أحكام وحكم وعظات وعبر من غزوة أحد:

عقد ابن القيم [في الزاد] فصلًا فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية، ننقلها هنا باختصار لتعميم الفائدة: [ما بين المعكوفتين من كلامي]:

١- إن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن استعد له وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن ذلك حتى يقاتل عدوه.

٢- إنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

٣- جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قيظي مع الرسول ﷺ وجيشه.

٤- إنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

٥- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن فيما دون القتال مثل السقي والتطبيب، [إذا أُمِنَتِ الفتنة].

قلت: أخرج ابن أبي شيبة [في المصنف، بسند ضعيف كما حققه د. خالد الدريس]، بسنده إلى سعيد بن عمرو القرشي، أن أم كبشة، امرأة من بني عذرة - عذرة قضاعة - قالت: يا رسول الله! إني لستُ أُريدُ أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض أو أسقي المريض، فقال: «**لولا أن تكون سنة، ويقال فلانة خرجت، لأذنت لك، ولكن اجلسي**».

ذكرت هذا الحديث لأن بعض طلاب العلم يحتج به على أن الرسول ﷺ نهى في آخر حياته عن خروج النساء في الغزو. وقد علمت درجته، ولكن إذا ترجح احتمال وقوع نساء المسلمين في أسر الكفار وتعرضهن للاغتصاب، فالذي أميل إليه الاحتجاج بحديث أم كبشة على الرغم من ضعفه، لأن الاحتجاج بالضعيف في فضائل الأعمال قال به بعض العلماء، وعلى رأسهم الإمام أحمد رحمه الله، خاصة أن حديث أم كبشة كان بعد الفتح وحنين، وهما آخر غزوتين خرجن فيهما بعض النساء كما علمت من أحداثهما وأحداث ما بعدهما من غزوات.

٦- جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره. [ولابن تيمية كتاب في هذا].

٧- إن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بأصحابه قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا كما فعل رسول الله ﷺ واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته [المغني والمحلى ونيل الأوطار].

٨- جواز دعاء الرجل وتمنيه أن يقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمني الموت المنهي عنه، كما فعل عبد الله بن جحش.

٩- إن المسلم، إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، كما في حال قزمان.

١٠- السنة في الشهيد أن لا يغسل ولا يكفن في غير ثيابه، بل يدفن فيهـا بدمـه، إلا أن يسلبها العدو، فيكفن في غيرها. والحكمة في ذلك كما روى الترمذي: «**حتـى يلقـوا ربهم بكُلُومِهِم - جُروحهم-، ريح دمهم ريح المسك، واستغنوا بإكرام الله لهـم**». وكـما روى ابن إسحاق [بسند حسن] أن الرسول ﷺ قال عن شهداء أحـد: «**أنـا شـهيد عـلى هؤلاء، ما من جريح يُجرَح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جرحه، اللون لون دم والريح ريح مسك...**».

١١- أما الصلاة على الشهيد فقد اختلف فيها العلـماء، وقـد رجـح ابـن القـيم أن الإمام مخير بين الصلاة عليه وتركها لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين.

وقد خَرَّجَ محققا الزاد تلك الآثار وبيَّنا درجتها من الصـحة، ثـم قـالا: «ففـي هـذه الأحاديث مشروعية الصلاة عـلى الشـهداء، لا عـلى سـبيل الإيجـاب، لأن كثـيرًا مـن الصحابة استشهد في غزوة بدر وغيرها، ولم ينقل أن النبي ﷺ صلى عليهم، ولـو فعـل لنقل عنه، وقد جنح المؤلف ؒ في [تهذيب السنن: (٤/ ٢٩٥)] إلى هذا.

١٢- السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم.

١٣- إن من عذره الله في التخلف عن الجهاد، لمرض أو عرج [شديد أو شيخوخة]، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح وهو أعرج، [واليَمان والد حُذَيْفَة، وثابت بن وَقْش، وهما شيخان كبيران].

١٤- إن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافرًا، فعـلى الإمـام دفـع ديته من بيت المال، كما في واقعة قتل اليمان.

وذكر ابن القيم بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في غزوة أحد.

وقد أشار الله ﷻ إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران، حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران:١٢١] إلى تمام نحو ستين آية من هذه السورة.

نذكر هنا باختصار ما ذكره ابن القيم:

١- تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم هو لذلك السبب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[آل عمران:١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

٢- إن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدالوا مرة ويُدالُ عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة، خاصة وإن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سِجَالٌ، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة» [متفق عليه].

٣- ميزت محنة أُحد بين المؤمن والمنافق الذي دخل الإسلام ظاهرًا بعد انتصار المسلمين ببدر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[آل عمران:١٧٩].

٤- استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

٥- لا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، فهو (سبحانه) إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولًا، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

وهذا ما وقع للمسلمين ببدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران:١٢٣]، وبحنين: ﴿كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾[التوبة:٢٥].

٦- إنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

٧- إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والآخرة، فإذا أراد الله بها الرحمة والكرامة قيض لها من الابتلاء ما فيه دواء وشفاء لذلك المرض.

٨- إن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو وغيره.

٩- إن في الابتلاء من الله تمحيص وتكفير لذنوب عباده وفرصة لهم لنيل الشهادة، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[آل عمران:١٤٠-١٤١].

١٠- إن الأنبياء عليهم السلام إذا أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام - تعظيمًا لأجرهم - تأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره والعاقبة للمتقين، وهذه سنة الله فيهم. [الباكري].

١١- إن اشتراك الرسول ﷺ في القتال مثله كأي فرد من أفراد جيشه دليل على حرصه ﷺ على عدم تميزه عن جنده ومساواة نفسه بهم. وفيه دليل على شجاعته وصبره وتحمله الأذى في سبيل دعوته.





الفصل الثامن

الغزوات والسرايا والأحداث بين أحد والمُرَيْسِيع

المبحث الأول: غزوة حَمْرَاء الأَسَد

أ- معالم غزوة حمْرَاء الأسَد

فكر المشركون في الكرة مرة أخرى على المسلمين ليقضوا عليهم قضاء مبرمًا، وعندما علم الرسول ﷺ بنيتهم ندب الناس إلى المسير إلى لقائهم، وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال» فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا سمعًا وطاعة، وأذن لجابر بن عبد الله بالمسير معه لأنه لم يشهد أحدًا، إذ كان أبوه قد خلفه على بناته، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد.

وعندما أقبل مَعْبَد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، أمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فخذله وأخبره بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد ونصحهم بالعودة إلى مكة. [ابن إسحاق].

وقال الله تعالى في هذه الغزوة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾[آل عمران:١٧٢] [متفق عليه وفي البخاري أن الزبير وأبا بكر كانا من هؤلاء].

روى ابن إسحاق أنهم في طريق عودتهم من حمراء الأسد أسروا مُعاوية بن المُغِيرة، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وأبا عَزَّة الجُمَحِيّ الذي مَنَّ الرسول ﷺ عليه بغير فداء من بين أسرى بدر، فقال: «يا رسول الله! أَقِلْنِيْ»، فقال رسول الله ﷺ: **«والله لا تَمْسَحُ عارِضَيْكَ بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ محمدًا مرتين»**. وضرب الزبير عنقه بأمر الرسول ﷺ.



وروي أن الرسول ﷺ قال لأبي عزة: «إنَّ المؤمن لا يُلْدَغُ من جحر مـرتين»، وأمـر عاصم بن ثابت فضرب عنقه. [أصله في الصحيحين؛ ابن هشام، بلاغًا عن ابن المسيب].

لقد كانت هذه الغزوة في الثامن من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة وقيل غير ذلك [الواقدي، وابن سعد]، إذ قال ابن إسحاق: (إنها في يـوم الأحـد لست عشرة ليلة مضت من شوال).

ب - عبر في هذه الغزوة:

١- إن خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد، يُعَدُّ مظهرًا من مظاهر الكمال المحمدي من: شجاعة وتحمل وصبر وعدم الاستسلام لأي مظهر من مظاهر الهزيمة، وحسن سياسة، وبيانًا لفضل أصحاب محمد ﷺ وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران:١٧٢-١٧٤]. [تفسير الطبري، وفيه طرق صحيحة].

المبحث الثاني: سرية الرَّجِيع

روى البخاري أن الرسول ﷺ بعث بسـرية عَيْنًـا وأَمَّـرَ علـيهم عَاصِـم بـن ثابـت فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَان ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لِحْيَان، فتبعـوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلًا نزلـوه، فوجـدوا فيـه نـوى تمـر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعـوا آثـارهم حتـى لحقـوهم، فلـما انتهـى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فَرْفَد - مرتفع مـن الأرض- وجـاء القـوم فأحـاطوا بهـم،

فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا لا نقتل منكم رجلًا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذِمَّةِ كافر، اللهم اخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل. وبقي خُبَيْبٌ وزيدٌ ورجل آخر. فأعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم. فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهِم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب وزيد حتى باعوهما بمكة.

فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله، استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، وقالت: «فغفلت عن صبي لي، فَدَرَجَ إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قِطْفِ عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله» [ابن إسحاق].

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: «دعوني أصَلِّ ركعتين»، ثم انصرف إليهم فقال: «لولا أنِ تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت». فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: «اللهم أَحْصِهِم عَدَدًا واقتلهم بَدَدًا ولا تُبْقِ منهم أحدًا، ثم قال:

ما إن أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا ... على أي شَقٍّ كان في الله مصرعي

[وفي رواية: فلست أبالي..].

وذلك في ذات الإله وإن يَشأ ... يُبارك على أَوْصَال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

[البخاري، الفتح (١٥/ ٢٥٩-٢٦٥، ح٤٠٨٦)، وقال ابن حجر في شرحه لحديث الباب (١٥/ ٢٦٥)]: وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر، ثم ذكر البيتين الآتيين:

لقد أَجْمَعَ الأحزاب حولي وألَّبوا   قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي   وما أَرْصَدَ الأحزابُ لي عند مَصْرَعِي

وروى أبو الأسود من حديث عروة: «وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جَمَعَ الأحزاب حولي وألَّبوا   قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم   وَقُرِّبْتُ من جِذْعٍ طويل مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غُرْبَتِي ثم كُرْبَتِي   وما أَرْصَدَ الأحزاب لي عندَ مَصْرَعِي
فذا العرش صَبِّرْنِي على ما يُرادُ بي   فقد بَضَّعُوا لَحمِي وقد يَاسَ مَطْمعِي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شِلْو مُمَزَّعِ
لَعَمْرِي ما أَحْفَل إذا مِتُّ مسلمًا   على أي حَال كان لله مَضْجَعِي

وقال ابن حجر: إن ابن إسحاق ساقها ثلاثة عشر بيتًا، والذي وقفنا عليه لابن إسحاق في سيرة ابن هشام عشرة أبيات، والأبيات الزيادة على ما ذكرناه هنا عن عروة، وهي:

وكُلُّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ   عليَّ لأني في وِثَاقٍ مُضيَّعِ
وقد خَيَّرُوني الكُفْرَ والموتُ دونه   وقد هَمَلَتْ عَيْنَايَ من غير مَجْزَعِ
وما بي حِذَارُ الموتِ إني لَمَيِّتٌ   ولكنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلَفَّعِ
فَوَالله ما أرجُو إذا مِتُّ مسلمًا   على أي جنب كان في الله مَصْرَعِي
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ للعدو تَخَشُّعًا   ولا جَزَعًا إني إلى الله مَرْجِعِي

[انظر: مغازي عروة، ص١٧٧، وقال ابن هشام (٣/ ٢٥٠)]: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له، أي لخبيب.

ثم قام إليه عقبة بن الحارث [وفي رواية ثانية عند البخاري أن الذي قتله هو أبو سَرْوَعَة (الفتح ١٥/ ٢٦٦) وفي رواية ثالثة أنه أبو سروعة عقبة بن الحارث، الفتح (١٥/ ١٧٧) وقال ابن حجر: إن أبا سروعة هو أخو عقبة، وليس أبو سروعة وعقبة اسمًا واحدًا. وفي رواية لابن إسحاق بإسناد حسن صحيح أن عقبة بن الحارث لم يقتل خبيبًا لأنه كان صغيرًا، وأن الذي قتله هو أبو ميسرة العبدري، أخذ الحربة فجعلها في يده، ثم أخذ بيده وبالحربة ثم طعن بها خبيبًا حتى قتله]. وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قد قتل عظيمًا [هو عقبة بن أبي معيط، الذي أسر ببدر وقتله عاصم صبرًا بأمر الرسول ﷺ كما مر بنا]. من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبُر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. [عند ابن إسحاق أن هذيلًا أرادت أخذ رأسه ليبيعوه من سُلَافَة بنت سعد بن شُهَيْد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قِحْفِهِ الخمر...].

وقال حسان بن ثابت شعرًا رائعًا في رثاء خبيب ورفقائه الكرام، [انظره عند ابن إسحاق: ابن هشام (٣/ ٢٥٠- ٢٦٠)، وعروة: المغازي، ص١٧٧، قال الأعظمي: (رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف)] ومثاله قوله:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعُهَا ... سَحًّا على الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤلُؤِ القَلِقِ
على خُبَيْبٍ فتى الفتيان قد علموا ... لا فَشِلٍ حين تَلْقَاهُ ولا نَزِقِ

[لا ترقى مدامعها، أي: لا تنقطع. والسَّحُّ: الصَّبُّ. والقلق: المتحرك الساقط. الفشل: الجبان، والنزق: السَّيئ الخُلُقِ].

وقوله:

يَا عَيْنُ جُوْدِيْ بدمع منك مُنْسَكِبِ ... وَابْكي خبيبًا مع الفتيانِ لم يَؤُبِ
صقرًا توسط في الأنصار منصبه ... سَمْحَ السجية محضًا غَيْرَ مُؤْتَسِبِ
قَدْ هَاجَ عيني على عِلَّاتِ عَبْرَتِهَا ... إذا قيل: نُصَّ إلى جِذْعٍ من الخشب

[السَّجِيَّة: الطبيعة، والمحض: الخالص النسب، والمؤتسب: المُخْتَلِط. العِلَّات: المشقات، والعَبْرَةُ: الدمعة، ونص: رفع].

وهجا كذلك هذيلًا وبني لحيان - بطن من هذيل.

وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صَفْوَان بن أمية ليقتله بأبيه، أمية بن خَلَف. وعندما أخرجوه من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه، اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقتل: «أَنْشُدُكَ الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نَضْرِبُ عنقه، وأَنَّك في أَهْلِكَ؟» قال: «والله ما أُحِبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيبُهُ شَوكةٌ تُؤذيه وإني جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أحدًا يُحِبُّ أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا». ثم قتله نِسْطَاسُ مولى صَفْوَان. [ابن إسحاق؛ ابن سعد، من طريق ابن إسحاق مرسلًا].

لما قُتل أصحاب الرجيع، قال ناس من المنافقين: «يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله فيهم آية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤] وما بعدها، وأنزل في أصحاب السرية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٧] [ابن إسحاق، منقطعًا، ووصله ابن كثير في البداية بسند ضعيف].

بعث الرسول ﷺ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ وحده إلى قريش، قال: «فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها، فحللت خبيبًا، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت فلم أر خبيبًا، ولكأنما ابتلعته الأرض، فلم ير لخبيب أثر حتى الساعة». [أحمد في المسند وابن أبي شيبة].

كانت هذه السرية في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا من الهجرة [الواقدي؛ ابن سعد].

المبحث الثالث: سرية بئر مَعُونَة

وفي الشهر ذاته الذي أرسل فيه الرسول ﷺ سرية الرجيع، أرسل الرسول ﷺ سرية بئر معونة [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة رضي الله عنهم عُرِفُوا بالقراء، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل [البخاري]، وينفقون ثمن حطبهم على أهل الصُّفَّة [مسلم].

وذكر مسلم: أن سبب إرسالهم هو أن أناسًا جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالًا يعلِّمونهم القرآن والسنة.

وذكر البخاري سببًا آخر لا يختلف عن هذا في جوهره، وهو: أن بطونًا من بني سُلَيم، هم: رِعْل وذَكْوان وعُصَيَّة وبني لِحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بأولئك السبعين، وقد وافق البخاري ابن سعد في هذا السبب.

وذكر بعض أئمة المغازي [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الواقدي]: أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو «مُلَاعِبُ الأَسِنَّة» قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: «يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم».

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يكون كلا من الأمرين قد وقعا، أي إرسال الرسول ﷺ هؤلاء السبعين بناء على طلب أبي براء وبني سليم.

عندما نزلوا ببئر معونة بين أرض عامر وحرة بني سُلَيم، بعثوا حرام بن مِلْحَان - أخا سليم - بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيل، فلم ينظر فيه، وأمر

رجلًا - إيماءً - فطعن حرامًا بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حـرام: «الله أكبر، فُزْتُ وَرَبِّ الكعبة» [هنا يتفق أهل المغازي مع رواية الصحيحين].

وعندما خرج الدم من حرام رضي الله عنه نَضَحَهُ على وجهه ورأسه [البخاري]، وكأنه يريد أن يلقى ربه وكل جسمه ملطخ بدم الشهادة، فيزيده الله من الأجر.

ثم استنفر ابن الطفيل بني عامر إلى قتال المسلمين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سُلَيم فأجابته عُصَيَّة ورِعل وذَكْوَان، وخاضوا مع المسلمين معركة ضارية، قتل فيها المسلمون جميعًا، إلا كعب بن زيد بن النجار، الذي ترك وبه رَمَق، فعاش حتى استشهد في غزوة الخندق، وعمرو بن أمية، الذي كان قد تأخر عنهم هو والمُنْذِر عُقْبَـة ابن عامر، وعندما وجدا أصحابهما قد صرعوا قاتلا المشـركين، فقتلـوا المنـذر وأسروا عمرًا، ثم أعتقه عامر عن رقبة كانت على أمه.

وعاد عمرو بن أمية بالخبر الأليم إلى الرسول ﷺ بالمدينة، وفي الطريق فتك برجلين من بني كِلَاب، هو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ، لم يعلم به، ولذا التزم الرسول ﷺ بأداء ديتهما، فأخـذ في تحصـيل الديـة مـن المسـلمين وأهل الصحيفة من اليهود.

وعندما ذهب إلى اليهود للإعانة في دية الكلابيين حاولوا قتله، مما كان مـن أسـباب غزوة بني النضير - كما سنرى.

وقد تألم الرسول ﷺ لهاتين الفاجعتين - معونة والرجيع - فأخـذ يـدعو في صـلاة الصبح ثلاثين صباحًا على الذين قتلوا أصحابه ببئـر معونـة والرجيـع: رعـل وذكـوان ولحيان وعصية. [خلاصة البخاري ومسلم].

وظهرت لعامر بن فُهَيْرَة كرامة في هذه الموقعة. فقد روى البخاري أنه لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو الضمري، قال له ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال: «لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنّي لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع». وكان الذي قتله جَبَّار بن سَلْمَى الكِلابي، وقد أسلم نتيجة ما رأى من حال عامر بن فهيرة رضي الله عنه [الواقدي؛ ابن سعد]. ولم نقف على كيفية نجاة كعب بن زيد رضي الله عنه . تقول المصادر إنه ارْتُثَّ من بين القتلى. وارتُثَّ: أي حُمل رثيثًا - أي جريحًا - وبه رمق.

حكم وأحكام وعبر ودروس من سريتي الرجيع ومعونة

١- تدل هاتان الحادثتان على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه. فليس أمر الدعوة موكولًا إلى الأنبياء والرسل وحدهم أو خلفائهم والعلماء دون غيرهم.

وعلى الرغم من استشعار الرسول ﷺ الخوف على القراء نتيجة لما وقل لأهل الرجيع، إلا أنه لم يتوقف عن إرسال بعث القراء، ومن بعده أرسل بعوثًا أخرى حتى تاريخ وفاته، لأنه كان يرى أن القيام بأعباء تبليغ الدعوة أهم من كل شيء، ليكن ما يريد الله في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته.

٢- إن معجزة التربية الإسلامية تتجلى في موقف خبيب بن عدي عندما لم يمس طفل آل الحارث بسوء، على الرغم من مواتاة فرصة الانتقام لنفسه من المشركين الذين حبسوه ليقتلوه، وتتجلى نذالة الكافرين في الغدر بأصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، ولم يشفع لخبيب عندهم موقفه النبيل من طفل آل الحارث. والغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.

٣- إن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن نفسه ولو قتل، ترفُّعًا عن أن يجري عليه حكم الكافر، كما فعل عاصم ﷺ، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن، مترقبًا الفرصة للخلاص، كما فعل زيد وخبيب رضي الله عنهما.

٤- إن ما ظهر من أمر خارق للعادة لخبيب عندما كان أسيرًا، دل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

٥- مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيبًا هو الذي سنها، وأقر ذلك الرسول ﷺ.

٦- تتجلى قوة إيمان ابن الدثنة في حبه لرسول الله ﷺ ورضائه بالموت ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه، وهو آمن في أهله، وكذا كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له، وذلك واجبهم وواجب كل مؤمن ومؤمنة، وإن ذلك من دلائل إيمان العبد.

٧- إن أصحاب رسول الله ﷺ هم أحب الخلق إلى الله ﷻ ورسوله، ممن يضعهم الله تعالى في محك الامتحان.

٨- مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.

[ملخصًا عن: فقه السيرة للبوطي؛ هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، فقه السيرة للغزالي].

المبحث الرابع: غزوة بني النَّضِيْر

أولًا: تاريخ غزوة بني النضير:

روى عبد الرزاق من حديث الزهري، والحاكم، من حديث عروة، إنها كانت بعد غزوة بدر الكبرى. وذكر البخاري في رواية معلقة من الترجمة عن عروة بأنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر، قبل وقعة أحد. وذكر ابن حجر [في الفتح]، أن عبد الرزاق قد وصلها في مصنفه عن معمر عن الزهري بأتم مما عند البخاري، وقد رواه البيهقي من هذا الطريق. وروى البيهقي [في الدلائل]، رواية عن الزهري عن عقيل بمثل رواية البخاري وعبد الرزاق.

ثانيًا: سبب الغزوة:

تشير المصادر إلى ثلاثة أسباب لهذه الغزوة:

الأول: أرادت بنو النضير قتل الرسول ﷺ بعد بـدر الكـبرى عنـدما حرضـتهم قريش على ذلك.

الثاني: محاولتهم قتل الرسول ﷺ عنـدما جـاءهم ليسـتعين بهـم في ديـة الكلابيـين اللذين قتلهما الضمري.

الثالث: حضهم قريش على قتال الرسول ﷺ، ودلوهم على العورة.

تقول المصادر عن السبب الأول، إن قريشًا أرسلت إلى اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لذلك، ووضعوا خطة يقتلون بها الرسول ﷺ غدرًا. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلًا من أصحابه ليلتقي بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدثهم، فإن صدقوه آمنـت يهـود. فلـما جـاءوا قريبًـا مـن المكان، اقترحوا على النبي ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة مـن أحبـارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكن امـرأة مـنهم أفشـت سرهـم لأخ لهـا مسلم، فأخبر النبي ﷺ، فرجع عنهم، ثم استعد وحاصرهم بجنوده حتـى نزلـوا عـلى الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. [عبد الرزاق، بإسناد صحيح].

أما السبب الثـاني فتقـول عنـه المصـادر إن النبـي ﷺ عنـدما ذهـب إلـيهم في ديـة الكلابيين، لما كان بينه وبينهم من الحلف، جلس إلى جدار لهـم في انتظـارهم ليـأتوا بـما وعدوا به من المساهمة في الدية، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجـدوا الرجـل على مثل حاله هذه، فاتفقوا على أن يعلو عمرو بن جِحَاش ذلك الجدار، فيلقي صـخرة على الرسول ﷺ فيقتله. فأخبر الله رسوله بما أرادوا، فخرج راجعًا إلى المدينـة. وعنـدما



تأخر عن أصحابه الذين كانوا معـه، سـألوا عنـه، فعلمـوا رجوعـه إلى المدينـة، فـأتوه فأخبرهم الخبر، ثم أمر بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، ومحاصرتهم، فنزلوا على الصـلح بعد حصار دام ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل. [ابن إسحاق، مرسلًا، يتقوى بغيره].

أما السبب الثالث فقد انفرد به موسى بـن عقبـة [ابـن حجـر: الفـتح]، حيـث قـال: (كانت [بنو] النضير قد دسوا إلى قريش وحضُّوهم على قتـال رسـول الله ﷺ ودلُّـوهم على العورة). وقال إن ذلك كان عنـدما نزلـوا بأُحـد لقتـال رسـول الله ﷺ. [البيهقـي: الدلائل، من حديث ابن عقبة مرسلًا].

ولعل الدكتور العمري [في المجتمع المدني] لم يطلع على الرواية التي عند البيهقي ومـا فيها من الزيادة عن رواية موسى بن عقبة عند ابن حجـر، وهـذه الزيـادة هـي: «حـين نزلوا بأحد...»، ولذا قال العمري: (إن رواية موسى بن عقبة لم تحدد وقتًا للأعمال التي ارتكبها اليهود ضد المسلمين) ولعله يقصد أعمالًا معينة.

ومن المعروف أنهم حرَّضوا المشركين على قتال المسلمين فكانت أُحد، وأعـانوا أبـا سفيان في إغارته على أطراف المدينة مما أدى إلى مطاردة المسلمين له فيما عرف بـ(غـزوة السويق)، وأنّ كعبًا بن الأشرف كان يقرض الشعر في هجاء المسلمين وتحريض قـريش عليهم. كل هذا يدل على حالهم مع المسلمين إلى أن كانت محاولتهم قتله، وتسبب ذلـك في قرار لوضع حد لممارساتهم الإجرامية، فكان القرار طردهم من المدينة. [نفسه].

ثالثًا: الإنذار:

عندما صدر منهم ما صدر طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضربت عنقه.

وعندما استعدوا للخروج حرضهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول على عدم الخضوع، ومناهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصرهم المسلمون [ابن إسحاق،

ابن سعد؛ الواقدي]، وقد أشارت آيات في سورة الحشر إلى هذا، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١] [الطبري: التفسير؛ ابن إسحاق؛ بأسانيد تتقوى بالمتابعة].

رابعًا: الجلاء وشروطه:

ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير عندما حاربوا، وفصلت الكتب الأخرى، وخاصة كتب المغازي والسير، كيفية هذا الجلاء ونوعية الحرب التي حاربوها.

وصح أن الرسول ﷺ حاصرهم بالكتائب، وقال لهم: «**إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلْقة - السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها**». [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ البيهقي في الدلائل].

وقد ثبت بنص القرآن ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ روى البخاري أنها نزلت عندما حرق وقطع الرسول ﷺ نخل بني النضير، [وهي البويرة]. أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار، وثبت في الحديث الشريف [أحاديث البخاري في باب بني النضير، المصدر نفسه، وسنن الترمذي (٥/ ١٥٧ - ١٥٨/ تحفة الأحوذي)، وسنن ابن ماجه] أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار.

وتذكر بعض الروايات أنهم أُجْلُوا إلى الشام [عبد الرزاق، بسند صحيح] والبعض الآخر يذكر أنهم توجهوا إلى خيبر [ابن هشام]. وفي رواية ابن إسحاق ما يجمع بين هذه الروايات، حيث قال: «فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر: سَلَّام بن أبي الحُقَيْق وكِنَانَة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق وحُيَيّ ابن أَخْطَب. فلما نزلوها دان لهم أهلها». ويؤيده في ذلك الأحداث اللاحقة الثابتة بالمرويات القوية، مثل أخبار قتالهم في غزوة خيبر، وقتل كنانة وأسر صفية، وخبر سلام ابن أبي الحقيق. [انظر د. العمري: المجتمع المدني].

وقد أسلم منهم اثنان، هما: يَامِين بن كعب وأبو سعد بن وهب، ولذا أحرزا أموالهما. [ابن إسحاق].

أما الأموال والنخيل فكانت لرسول الله ﷺ وذلك بنص الآية: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[الحشر:٦] ونزول سورة الحشر في بني النضير [كما روى البخاري]، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُرَاع عُدَّة في سبيل الله. [البخاري].

وقسم الرسول ﷺ أرضهم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار أحدًا سوى سهل ابن حَنِيف وأبي دُجَانَة، وذلك لفقرهما. [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ ابن إسحاق].

ولم يتوقف زعماء بني النضير عن مكائدهم بعد كل هذا، فقد حرضوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق. [يأتي ذكره].

خامسًا: حكم وعبر من غزوة بني النضير:

١- إن في إخبار الله نبيه بما يبيته اليهود للغدر به دليلًا على تكرار الغدر من اليهـود، والوفاء من الله تعالى بوعـده القـاطع لرسـوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، وفي هذه المعجزة وغيرها ما يجب أن يحمل الناس على الإيمان بنبوة محمد ﷺ.

٢- إن قطع وإحراق الرسول ﷺ لبعض نخيل بني النضير، دليـل عـلى أن الحكـم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة في النكاية بالأعداء. وأن ذلك من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية، وهو مـذهب نـافع ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

ورُوِيَ عن الليث وأبي ثـور والأوزاعـي القـول بعـدم جـواز قطـع شـجر الكفـار وإحراقه. [شرح النووي على مسلم].

٢- اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم من دون قتال، وهو (الفيء) يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كـما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتـال وحـرب، مسـتدلين عـلى ذلـك بسياسـته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، ونزول القرآن الكريم مصوبًا ذلك. [البوطي: فقه السيرة].

٤- في موقف الرسول ﷺ من بني النضير تقرير لمبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد

خرج رسول الله ﷺ في شعبان [عند ابن إسحاق] سنة أربع من الهجرة لموعـده الـذي التزم به لأبي سفيان يوم أحد. وكان معه ألف وخمسمائة من الصحابة وعشـرة أفـراس، ووصل إلى بدر، وانتظر بها المشركين ثمانية أيام.

أما المشركون فقد خرج بهم أبو سفيان حتى وصل إلى مر الظهران، ونـزل بميـاه مجنـة على بعد أربعين كيلا من مكة، ثم عاد بهم بحجة أن العام عام جدب، وكان لهـذا الموقـف منه أثر كبير في استعادة هيبة المسلمين بعد انتكاسة أحد. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

المبحث السادس: غزوة ذات الرِّقَاع

[اختلف في تسميتها، والراجح ما ذكره أبو موسى الأشعري في الصحيح مـن أنهـا سـميت بذلك لأنهم لفوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، إذ كان لكل ستة بعير يتعاقبون عـلى ركوبه، [انظر: البخاري].

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغـزوة، وقـد جـنح البخـاري إلى أنهـا كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعـد الخنـدق سنة أربع، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس، وجزم أبو معشـر [كما ذكر ابن حجر في الفتح] أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح عند ابـن حجـر ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر، لأن أبا موسـى الأشـعري شـهدها وقـد قـدم مـن الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة، وشهدها أبو هريرة وقد أسلم حـين فـتح خيـبر، وصـلى فيها رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعـت في عسـفان أيام الحديبية، والحديبية سنة ست.

ومال الدكتور الحكمي [مرويات الحديبية]، والدكتور العمري [المجتمع المدني]، إلى مـا ذهب إليه البخاري وابن حجر، والذي نميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور البوطي أنها قبل الخندق لأن حجته الخاصة بزواج جابر قبل الخندق لا تدفع وهي في الصـحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقًا، وحجته فقط مجيء أبي موسى من الحبشة بعد خيبر، وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة.

لم يقع في هذه الغزوة قتال بين المسلمين وغطفان، ولكنهم أخافوا بعضهم بعضًا، فصلى المسلمون صلاة الخوف.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين. [البخاري].

لقد وقعت في هذه الغزوة أحداث ذات دلالات ومغزًى كبير، منها:

١- قصة الأعرابي:

روى البخاري ومسلم عن جابر - وغيرهما - عندما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله، فها هو ذا جالس...**» لم يعاقبه رسول الله ﷺ. واسم الأعرابي: غَوْرَث بن الحارث».

ويذكر قتادة [في تفسير الطبري بسند صحيح]، وابن إسحاق، أن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[المائدة:١١] قد نزلت في هذا الأعرابي.

وفي رواية مسدد [عن ابن حجر في الفتح] عن جابر أن الأعرابي غورث عاهد الرسول ﷺ أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: «جئتكم من عند خير الناس».

دروس وعبر من هذه القصة:

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ، وفرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال. وفيها جواز تفرق العسكر في النزول، ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه. [ابن حجر في الفتح].

٢- قصة الحراسة:

وفي مرجعهم من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة مـن المشـركين، فنـذر زوجهـا ألا يرجع حتى يَهْرِيقَ دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلًا وقد جعل الرسول ﷺ رجلـين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عَبَّاد بن بِشْر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا بسـهم وهـو قائم يصلي، فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منهـا حتـى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: «سبحان الله، هلا نبهتني، فقال كنت في سورة اقرؤها فلـم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذَنْتُكَ، وايْـمُ الله، لـولا أن أُضَيِّع ثَغْـرًا أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بحفظه، لَقُطِعَ نفسي قبل أن أقطعها أو أُنْفِـذَها». [البخـاري معلقًـا؛ ابن إسحاق، حسن].

دروس وعبر في هذا المقطع من السيرة:

في قصة هذين الصحابيين الجليلين كشف لطبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كـان يمارسـه ويفهمه أصحاب رسول الله ﷺ. فعباد ؓ أراد أن يشغل شطرًا من زمن حراسـته الليليـة بركعات خاشعة، يقف فيهـا أمـام الله تعـالى ولم يقطـع صـلاته لألم يشـعر بـه، وإنـما قطعهـا استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كلف بها. وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهـاد عنـد سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!!. [البوطي: السيرة].

٣- قصة جمل جابر:

روى البخاري ومسلم وغيرهما من أهل الحديث، وابن إسحاق [بسند حسن] وغيره من أهل السير عن جابر أنه عندما أبطأ في السير، وهم في طريق العودة مـن غـزوة ذات الرقاع، سأله الرسول ﷺ عن السبب فقـال إن جملـه قـد أعيـاه، فنـزل رسـول الله ﷺ يحجنه بمحجنه، ثم دعاه فركب، فأصبح الجمل يسابق جمل رسول الله ﷺ وجابر يكفه

عن ذلك. ثم سأله عن حالته الاجتماعية، فذكر أنه تزوج ثيبًا، فقال له الرسول ﷺ: «**أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟**»، فعلل سبب زواجه من الثيب بأن له أخوات فأحب أن يتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن. وطلب منه الرسول ﷺ إذا قدم المدينة أن يعمل عملًا كَيِّسًا، ثم قال له: «أتبيع جملك؟» فوافق جابر، فاشتراه منه بأوقية، وعندما أتى بالجمل من الغد إلى الرسول ﷺ أمر الرسول بلالًا أن يعطيه الأوقية. فوزن له بلال فأرجح له في الميزان، وعندما ولَّى دعاه الرسول ﷺ ورد عليه جمله.

وفي رواية ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال لجابر عندما علل سبب زواجه من ثيب: «**أصبت إن شاء الله**»، وفيها أنه قال له: «... أما أنا لو قد جئنا صِرَارًا أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها».

فقال جابر: «والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، فقال النبي ﷺ: إنها ستكون... وفيها قول جابر عن الأوقية التي أعطيت له: فوالله ما زال ينمي عندي، ويرى مكانه من بيتنا...».

درس وعبرة في هذه القصة:

في هذه القصة صورة كاملة ودقيقة لخُلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث اللطف في المعاشرة ورقة الحديث، وفكاهة في المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية ماديًا ومعنويًا. فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيدًا في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق، فأراد الرسول ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة ليواسيه ويقدم له ما يستطيع من مال مبارك. [البوطي: السيرة].

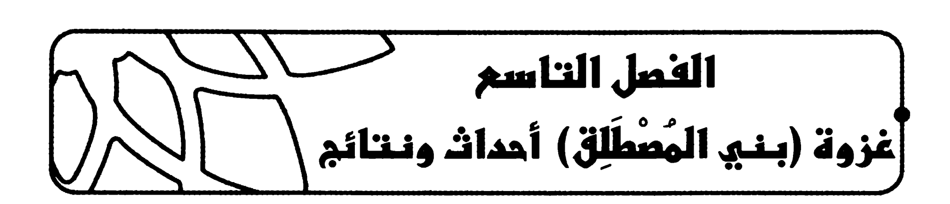
المبحث السابع: غزوة دُوْمَة الجَنْدَل

يتفق جمهور أهل المغازي والسير أنها كانت في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، وبالتحديد لخمس ليال بقين من ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

لم يذكر ابن إسحاق سببها، بل الذي ذكره الواقدي وابن سعد، وخلاصته: بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا، وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة [جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن. وكانوا يومئذ قومًا من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت]، وكان بها سوق عظيم وتجار، وضَوَى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عُذْرَة يسمى مَذْكُور، وقبل وصول دومة الجندل بيوم أو ليلة هجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب. وعندما وصل الخبر دومة الجندل، تفرقوا. وعندما وصلهم لم يجد أحدًا في المكان، فأقام بها أيامًا، وبث السرايا التي كانت ترجع بالإبل فقط، إلا سرية محمد بن مسلمة، فقد أخذ رجلًا منهم، وعرض عليه الإسلام، فأسلم. ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة.

وزاد الواقدي سببًا آخر لهذه الغزوة، وهو أن الرسول ﷺ أراد أن يدنو من الشام ليفزع قيصر.





الفصل التاسع
غزوة (بـنـي المُصْطَلِق) أحداث ونتائج

عندما أصابت قريش ما أصابت من المسلمين في أحد تجرأ فيمن تجرأ من الأعـراب على المسلمين بنو المصطلق. فقد أخذ زعيمهم الحـارث بـن أبي ضِرَار في جمـع السـلاح والرجال وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم على المدينة.

وعندما شعر الرسول ﷺ بهذه الحركة المريبة، أرسل بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسـلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم، فتأكد من نيتهم، فأخبر الرسول ﷺ بذلك. [ابن سعد].

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السـنة الخامسـة للهجـرة [البداية؛ البيهقي: السنن الكبرى، من حديث ابن عقبة] خرج الرسول ﷺ من المدينة في سبعمائة مقاتل [الذهبي: المغازي] وثلاثين فرسًا [الواقدي] متوجهًا إلى بني المصطلق.

ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسـلام، واشـتركوا مـع الكفـار في غـزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم، أن الرسول ﷺ أغار عليهم وهم غَارُّون -أي غافلون - وأنعامهم تُسْقَى على الماء، فقتـل مقـاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذٍ جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضِرَار.

ويروي ابن إسحاق - بإسناد ضعيف - أن ثمة قتالًا قد وقع على ماء المريسيع، ثـم انهزم بنو المصطلق، وقتل بعضهم وأخذ المسلمون أبناءهم ونساءهم وأمـوالهم، فتمـت قسمة ذلك بينهم. وما في الصحيح أصح وأولى بالاحتجاج به.

ويذكر الواقدي أن المسلمين قتلوا عشرة من بنـي المصـطلق وأسروا سـائرهم ممـن وجدوه على الماء، وهم مائتا أهل بيت، وغنموا ألفي بعـير وخمسـة آلاف شـاة. ويـذكر ابن إسحاق أن الأسرى كانوا مائة أهل بيت، وهو الصحيح. ويذكر الزرقاني أنهم أكثر من سبعمائة، ولا تعارض بين القولين كما قال، لأن أهل البيت الواحد يمكن أن يكونوا أكثر من واحد. [أسد الغابة].

أصيب رجل من المسلمين من بني كلب بن عوف يـدعى هشـام بـن صُـبَابَة، أخـو مقيس بن صُبَابَة، وذلك أثناء المعركة، أصـابه رجـل مـن الأنصـار، مـن رهـط عُبَـادَة ابن الصامت، وهو يرى أنه من العـدو، فقتلـه خطـأً. وقـدم مقـيس مـن مكـة مظهـرًا الإسلام، وطالب بدية أخيه، فأعطي الدية، ولكنه لم يكتف بهذا، بل عدا على قاتل أخيه فقتله، وفر إلى مكة مرتدًا. وقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، فقتله نُمَيْلَةُ بـن عبـد الله، وكان من قومه. [أسد الغابة؛ الإصابة، ابن إسحاق؛ الواقدي].

وخرج في هذه الغزوة جماعة من المنافقين، وقد سجل لهم التـاريخ مـوقفين آخـرين من مواقف الخزي في هذه الغزوة، أولهما: محاولتهم إثارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار. وثانيهما: السعي لإيذاء الرسول ﷺ بـالطعن في عرضـه، حـين افـتروا عـلى عائشة رضي الله عنها في ما يعرف بحديث الإفك.

الموقف الأول:

حكى زيد بن أرقم رضي الله عنه وجابر بن عبد الله هذا الموقف. قال زيد: «كنت في غَـزَاةٍ، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ، حتى ينفضوا مـن حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت لعمـي - أو لعمـر- فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه،

فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصـابني هـم لم يصـبني مثلـه قـط، فجلست في البيت، فقال لي عمـي: مـا أردت إلى أن كـذبك رسـول الله ﷺ، ومقتـك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[المنافقون:١] فبعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله قد صَدَّقَكَ يا زيد**» [البخاري]، ولهذا قال رسول الله ﷺ عن زيد: «**هذا الـذي أوفى الله بِأُذُنِـهِ**» [نفسه]، وفي رواية: «**وَفَّتْ أُذُنُكَ يا غُلام**». [ابن حجر: الفتح، من مرسل البصري].

أما رواية جابر رضي الله عنه فهي أكثر تفصيلًا، وقد أشارت إلى سبب ما قاله ابن أُبي. قال جابر: «كنا في غزاة فَكَسَعَ [المشـهور فيـه: ضرب الـدبر باليـد أو بالرجـل] رجـل مـن المهاجرين رجلًا من الأنصـار، فقـال الأنصـاري: يـا للأنصـار، وقـال المهـاجري: يـا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسـول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقـال: دعوهـا فإنهـا منتنـة. فسـمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام عمـر فقـال: يـا رسـول الله دعنـي أضرب عنـق هـذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه. وكانـت الأنصـار أكثـر مـن المهـاجرين حـين قـدموا المدينـة، ثـم إن المهـاجرين كثـروا بعـد**». [متفـق عليـه]. [والمهاجري: جهجاه بن مسعود الغفاري – أجير عمر، وقيل: والأنصاري: سـنان بـن وبـر الجهنـي ابن قيس و: ابن سعيد. انظر الفتح].

وقد وردت روايات قوية [عند الترمذي والنسائي] أخرى تفيـد أن ابـن أُبي قـال هـذا الكلام في غزوة تبوك، وهو وهم، والصـحيح أنـه لم يشـهد تبـوك. [ابـن كثـير: التفسـير؛ ابن حجر: الفتح].

وأراد الرسول ﷺ أن يعالج هذا الموقف علاجًا عمليًا، فلـذا أمـر بالرحيـل فـورًا، وسار بهم بقية يومهم ذلك والليل كله، ثم نهار اليوم التالي، حتى آذتهـم الشـمس، ثـم

نزلوا، وناموا من فورهم من شدة الإجهاد، وكل ذلك ليشغل النـاس عـن الخـوض في حديث يمكن أن يؤدي إلى فتنة. [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره].

وعندما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ما قاله والده، أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنـه، فـإن كنـت لا بـد فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها مـن رجـل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسـي أنظـر إلى قاتـل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا [ابن إسحاق وغيره]. ومنـع عبـد الله أبـاه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها. [الترمذي، بسند صحيح].

وجعل بعد ذلك إذا أحـدث الحـدث كـان قومـه هـم الـذين يعاتبونـه ويأخذونـه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت، لَأَرْعَدَتْ له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلتـه. قـال عمـر: قـد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري». [ابن إسحاق؛ الواقدي].

الموقف الثاني: حديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، وخلاصتها:

كان قدر عائشة رضي الله عنها أن تخرج في هذه الغزوة مع الرسول ﷺ [البزار، بسند حسن كما في المجمع]. وفي طريق العـودة، وقـرب المدينـة، نـزل المسـلمون للراحـة، فنزلـت مـن هَوْدَجِهَا لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقدًا لهـا، فرجعـت تبحـث عنـه. وعنـدما عادت وجدت الرجال قد حملوا هودجها ووضعوه على بعيرها وهم يحسـبونها داخلـه، لأنها كانت حينذاك خفيفة الوزن. فانتظرت في مكانهـا، فمـر بهـا صَـفْوَان بـن المُعَطَّـل

السُّلَمِي، [كان ثقيل النوم، ولذا تأخر في الرحيل مع الجيش] وعرفها، لأنـه كـان رآهـا قبل أن يفرض الحجـاب، فحملهـا عـلى بعـيره وانطلـق بهـا إلى المدينـة ودخلهـا بعـد دخول الرسول ﷺ.

لقد استغل المنافقون هذه الحالة ونسـجوا حولهـا قصـة الإفـك، وتـولى كـبر ذلـك عبدالله بن أبي بن سلول. وأغرى بالخوض فيه رجالاً ونساء أمثـال: مِسْـطَح بـن أُثَاثَـة وحَمْنَة بنت جَحْش وحسان بن ثابت.

واغتم الرسول ﷺ بهذه الإشاعة، وأعلن على الملأ وفي المسجد ثقته بزوجته وبصاحبه ابن المعطل، وأبدى سعد بن معاذ استعداده لقتل من يخوض في هذا الافـتراء إن كـان مـن الأوس، ولم يرض سعد بن عبادة الخزرجي هذا القول من سعد، لأن أصابع الاتهام كانت تشير إلى واحد من قوم عبادة، فكادت تقع الفتنة بين الحيين، كما يريدها المنـافقون. ولكـن الرسول ﷺ فوت عليهم الفرصة مرة أخرى وأطفأ نيران الفتنة.

واستأذنت عائشة النبي ﷺ لتمرض في بيت أبيها عندما لحظت فتور العلاقـة بينهـا وبين الرسول ﷺ، وهناك علمت بخبر الإفك، ففارقها النوم، وهـي تنتظـر إعـلام الله نبيه ببراءتها برؤيا صادقة، وترى أنها أقل شأنًا من أن ينزل في أمرها وحي.

وبعد شهر من معاناتها ومعاناة الرسول ﷺ من هذا الحديث، نزل الوحي بآيات في براءتها وموقف الناس من هذه الفرية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[النور:١١].

وكان أبو بكر ينفق على قريبه مِسْطَح بن أُثَاثَة - ابن خال أبي بكر- فعندما خاض في تلويث سمعة عائشة أقسم ألا ينفق عليه، فنزلت الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى﴾[النور:٢٢] إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، فعاد أبو بكر إلى النفقة عليه، رغبة في المغفرة. [متفق عليه].

وعاتب القرآن أولئك النفر الذين وقعوا في حبائل المنافقين: حمنة ومسطح وحسانًا، فقال: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[النور:١٢].

وسجل القرآن ذلك الموقف الرائع لأولئك النفر من المؤمنين الذين وقفوا من هـذا الإفك موقف المؤمن اليقظ والواثق ثقة كبيرة بآل بيت النبوة الذين طهروا مـن الـدنس والأرجاس، منهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيـوب، فقـد نـزل في هـؤلاء قولـه تعـالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور:١٦].

روى الواحدي [وابن الجوزي في تفسيريهما] بإسناد متصـل إلى عائشـة رضي الله عنها في سـبب نزول هذه الآية: «كان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته وقالت: يا أبـا أيـوب ألم تسمع بما تحدث الناس؟ قال: وما يتحدثون؟ فأخبرته بقـول أهـل الإفـك، فقـال: مـا يكون لنا أن نتكلم بهذا سـبحانك هـذا بهتـان عظـيم، قالـت: فـأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وروى البخاري أن رجلًا من الأنصار عندما سمع هذه الفرية، قال: «سبحانك مـا يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم».

وقال ابن حجر في الشرح: (وقـع عنـد ابـن إسـحاق أنـه أبـو أيـوب الأنصـاري، وأخرجه الحاكم من طريقه، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين، وأبو بكر الآجري في طرق الإفك من طريق عطاء الخراساني عن الزهري عن عروة عن عائشة... ويلحظ أن الآية التي أشار إليها ابن إسحاق هي التي فيها: سبحانك ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[النور:١٢]، وليست التي فيها: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور:١٦]. وعمومًا فالمعنى واحد، وقد نزلتـا في وقت واحد وبمناسبة واحدة، فليس ببعيد أن من بين أسباب نزولها موقـف أبي أيـوب وأم أيوب. وقد وافق الواقدي ابن إسحاق، وزاد بصـيغة التمـريض أنهـا نزلـت في أم الطفيل وزوجها أُبَي بن كعب.

وفي تفسير سُنَيد من مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمـر عائشة، قال: «﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور:١٦]» [ابن حجر: الفتح].

وخلاصة الأمر أن رواية الواحدي تتقوى برواية الآجري وابن إسحاق والواقدي، ويكون الخبر على أقل تقدير حسنًا لغيره [قريبي: مرويات غزوة بني المصطلق].

وأقـام الرسـول ﷺ حـد القـذف عـلى حسـان ومسـطح وحمنـة، أمـا عبـد الله بـن أبي ابن سلول الذي تولى كبر الإفك فلم يقم عليه الحد، لأنه لم يترك دليلًا ضده، إذا كان يستوشـيه - أي يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه، ولا يدعه يخمد. [مسلم].

وعندما عاد الرسول ﷺ جاءته جويرية بنت الحـارث بـن أبي ضرار، وذكـرت لـه مكانتها في قومها، وطلبت منه أن يعينها في قضاء كتابها لعتق رقبتها من ثابت بن قـيس ابن الشَّمَّاس، الذي وقعـت في سـهمه. فعـرض عليهـا الرسـول ﷺ أن يقضـي عنهـا كتابتها ويتزوجها فقبلت.

فلما علم الناس بذلك أعتقوا من بأيديهم من السبي، وهم مائة أهـل بيـت، إكرامًـا لإصهار الرسول ﷺ فيهم، «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها» [ابـن إسـحاق؛ بسند حسن]. وكان عتقها صداقها، كما هو واضح من الخبر.

وقدم والدها الحارث إلى المدينة وطلب من الرسول ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فاختارت البقاء مع رسول الله ﷺ. [تاريخ ابن خياط، بسند مرسل رجاله ثقات].

وأسلم الحارث بـن أبي ضرار وقومـه، وولاه الرسـول ﷺ عـلى صـدقات قومـه. [أحمد: المسند، بسند حسن].

أحكام وعبر في غزوة المريسيع:

١- مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين بعد استثناء السلب والخمس من الغنيمة.

٢- دلت معالجة الرسول ﷺ للمشكلة التي حاول ابن سلول استغلالها على حسن سياسة الرسول ﷺ في تدبير الأمور وتجنب المشاكل وتفويت الفـرص عـلى المغرضـين

المندسِّين بين صفوف المؤمنين. وكان نتيجة ذلك أن جافى ابن سلول قَوْمُهُ، فكـانوا هـم الذين يعنفونه ويفضحون دسائسه.

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسـول الله ﷺ من أعـداء الـدين. وكـان مـن لطـف الله تعـالى بنبيـه وبـالمؤمنين أن كشـف الله زيفهـا وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفريـة، لا سـيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بهـا المؤمنـون عنـدما تعـرض لهـم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس التي تركهـا لنـا لنسـتفيد منها ونقوم بها المواقف المماثلة.

٤- جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبـي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملًا. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشـرية الرسـول ﷺ ونبوتـه. فعنـدما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها عـادت الميـاه إلى مجاريهـا بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عنـد الله تعـالى لبقيـت رواسـب المحنـة في نفس الرسول ﷺ بصفة خاصة، ولا نعكس ذلك عـلى تصـرفاته مـع زوجتـه عائشـة رضي الله عنها . وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلًا كبيرًا على نبوة محمد ﷺ.

٥- بينت هذه القصة مشروعية حد القذف الذي أقيم على من ثبتت إدانته، وبينـت حرمة قذف المحصنات المؤمنات، وكـذا المحصـن المـؤمن، وإنـه مـن كبـائر الـذنوب، وعقوبته ثمانون جلدة.

٦- بيان مشروعية الاقتراع والأخذ بنتائجه بدل التخيير لما فيه من تطييب النفوس، كما في خبر اقتراع الرسول ﷺ بين نسائه عند السفر.

٧- مشروعية أخذ المجاهد امرأته للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.

٨- إن نزول ست عشرة آية من سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾[النور:١١] وتنتهي بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[النور:٢٦] وهي في تكذيب من قذف عائشة، ومن أبرز الأدلة على فضل عائشة ولم يقع في القرآن الكريم التغليظ في معصية مثلما وقع في قصة الإفك [انظر ابن حجر: الفتح (١٨/ ٨٦)].





الفصل العاشر
غزوة الخندق (الأحزاب) أحداث ونتائج

تاريخ الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس كما قال ابن إسحاق ومن تابعه، وهو قول الجمهور، وقال الواقدي إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد إن الله استجاب لدعاء الرسول ﷺ فهزم الأحزاب يوم أربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهري ومالك ابن أنس وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية. [البخاري].

سبب الغزوة:

لم تضع الحرب أوزارها بين مشركي مكة والمسلمين إلا بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري، ولذا فمن البدهي أن تحاول قريش في كل مرة القضاء على قوة المسلمين التي ترى فيها تهديدًا مستمرًا لطرق قوافلها وخطرًا على مكانتها بين العرب.

أرادت قريش في هذه المرة أن تحسم هذا الصراع مع المسلمين لصالحها، فحشدت له أكبر قوة ممكنة، حيث لجأت إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين. ووجدوا أكبر ضالة لهم في يهود بني النضير الذين أجلوا عن المدينة، ووجد اليهود ضالتهم في قريش، فقد التقت أهداف الفريقين، وهو القضاء على المسلمين.

كان أول ما فكر فيه زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر أن يتصلوا بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والطمع في العودة إلى ديارهم وأملاكهم في المدينة. فخرج وفد منهم إلى مكة، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب،

وكنانة بن أبي الحقيق النضريون، وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فدعوا قريشًا إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بالقتال معهم، حتى يستأصلوه، وأفتوهم بأن دينهم خير من دين محمد ﷺ، وأنهم أولى بالحق منه، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[النساء:٥١] [ابن إسحاق، والبداية وتفسير الطبري]. ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى، وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين [ابن كثير في التفسير من حديث ابن إسحاق بسند حسن]، على أن يكون لهم نصف ثمر خيبر، إذا اشتركت معهم في الحرب، [الواقدي]. وكان وافدهم إلى غطفان كِنَانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيق، فأجابه عُيَيْنَة ابن حِصْن الفَزَاري إلى ذلك. [البيهقي في الدلائل، وابن حجر في الفتح من حديث ابن عقبة].

وكتب المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب، فنزلوا بمر الظهران؛ فجاءهم من أجابهم من بني سليم مددًا لهم بقيادة سفيان بن عبد شمس، والد أبي الأعور [المصدرين نفساهما]، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مِسْعَر بن رُخَيْلَة [ابن إسحاق]. وسارت مع قريش الأحابيش [قبائل تحالفت عند جبل حبشي] ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة [نفسه]، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب [ابن هشام]، وذكر ابن إسحاق أن عدتهم عشرة آلاف بينما كان المسلمون ثلاثة آلاف.

تحرك هذا الجيش العرمرم من مر الظهران في طريقه إلى المدينة. فنزلت قريش ومن سار معها بمجتمع الأَسْيَال من رُومة، بين الجُرُف وزُغابة. ونزلت غطفان بذَنب نَقْمِي إلى جانب أحد [ابن إسحاق]، ونزل معهم بنو أسد. [البيهقي في الدلائل وابن حجر في الفتح من حديث ابن عقبة].



فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار الصحابة، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق [ابن سعد؛ الواقدي، ابن حجر: الفتح من حديث أبي معشر] في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحَرَّات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها. [البيهقي: الدلائل؛ ابن حجر: الفتح من حديث ابن عقبة مرسلًا].

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقًا حتى المَذاذ غربًا، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعًا [تفسير الطبري؛ المجمع، فتح الباري، تعتضد]. حفر المهاجرون من ناحية حِصْن رَاتِج في الشرق إلى حصن ذُباب، والأنصار من حصن ذُباب إلى جبل بني عُبَيْد في الغرب. [أحمد: المسند؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وكان طعامهم أثناء الحفر القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المُنْتِنَة، وذلك لشدة جوعهم [البخاري]. وحتى هذا لا يجدونه أحيانًا فيأكلون التمر [ابن إسحاق]، وأحيانًا لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي ﷺ بطنه بحجر من شدة الجوع [البخاري].

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول ﷺ الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه وواری التراب جلده؛ وكان الصحابة يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم ويعجزون عنها، فيفتتها لهم [متفق عليه].

ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل، فيقول:

«اللهـم لـولا أنـت مـا اهتـدينا ... ولا تصـــدقنا ولا صـــلَّينا

فـــأنزلَن ســـكينة علينـــا ... وثبِّـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

إن الأُلى قـــد بغـــوا علينـــا ... وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا»

وكان يمد بها صوته بآخرها [متفق عليه].

ويرتجز المسلمون وهم يعملون:

«نحـــن الـــذين بـــايعوا محمـــدا ... عـــلى الإســـلام مـــا بقينـــا أبـــدا»

فيجيبهم بقوله:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة» [متفق عليه]. وربـما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم. [نفسه].

من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق:

أجرى الله ﷻ على يدي نبيه محمد ﷺ عدة معجزات أثناء حفر الخندق، ومن ذلك:

١ - عندما لحظ جابر بن عبد الله رضي الله عنه ما يعانيه الرسول ﷺ مـن الجـوع، اسـتأذنه وذهب إلى زوجته وأخبرها بما رأى من المَخْمَصَة[الجوع] على الرسول ﷺ وطلب منها أن تصنع له طعامًا، فذبح عَنَاقًا له وطحنت زوجه صاعًا من شعير بقي لهـما، وصـنعت بُرْمَة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام وساره بكمية الطعام، وأنه طُعَيم يكفـي لرجل أو رجلين، فدعا النبي ﷺ كل من كـان حـاضرًا وعـددهم ألـف، وتحير جـابر وزوجته، لكن الله ﷻ بارك في البرمة، فأكل منها كل الناس حتى شـبعوا وتركـوا فيهـا الكثير الذي أكل منه أهل جابر وأهدوا. [متفق عليه].[وانظر التفاصيل في المصدرين].

٢- أخبر عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين، وكان في جيش علي [مسلم].

٣- وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة؛ ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض؛ ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة». [أحمد: المسند وضعفه محققو الموسوعة الحديثية (١٨٦٩٤)؛ النسائي، بسند حسن وأصله عند البخاري (٤٠٩٨) ومسلم (١٨٠٣)].

وفي هذا الحديث بشارة بأن هذه المناطق سيفتحها المسلمون مستقبلًا، وهو ما حدث فعلاً، وكان موقف المؤمنين من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[الأحزاب:٢٢]، وموقف المنافقين الذين سخروا من البشارة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب: ١٢] [قال الواحدي: (وزعم ابن السائب أن القائل مُعَتِّب بن قُشَيْر)].

وصورت الآيات من [١٣ إلى ٢٠] من سورة الأحزاب نفسية المنافقين تصويرًا دقيقًا، وحكت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل، وأساليبهم في التهرب من العمل في حفر الخندق وجهاد العدو.

ومع تخذيل المنافقين وقلة الطعام وشدة البرد، فقد تم حفر الخندق ليكون خط دفاع متين؛ ثم جمع النساء والأطفال وأصحاب الأعذار في حصن فَارع [مسلم]، وهو لبني حارثة، لأنه كان أمنع حصون المسلمين آنذاك. [ابن إسحاق؛ الطبراني، برجال ثقات كما في المجمع؛ الواقدي].

وكانت خطة المسلمين أن يكون ظهرهم إلى جبل سَلْعٍ داخل المدينـة [ابـن إسـحاق] ووجوههم إلى الخندق الذي يحجز بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومـة بـين الجـرف والغابة ونقمى. [الطبري: التفسير، من مرسل عروة].

وعندما نظر الرسول ﷺ في حال العدو وحـال المسـلمين ورأى ضـعف المسـلمين وقوة المشركين، أراد أن يكسر شوكة المشركين، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمي الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضـته عليـه قبيلـة غطفـان، وهـو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام كي ينصرفوا عن قتال المسـلمين، ولم يبـق إلا التوقيـع عـلى صحيفة الصلح، فقالا له: «لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيـف وقـد جاء الله بالإسلام». وفي رواية الطبراني أنهما قـالا: «يـا رسـول الله: أوحـي مـن السـماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريـد الإبقاء علينا، فو الله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى». فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائـد بني مُرَّة. [البزار والطبراني، بإسنادين حسنين؛ ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ ابن أبي شيبة في المصنف].

وفي الجانب الآخر أراد يهود بني النضير أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب. فأوفدوا حييًا بن أخطب للقيام بهذه المهمة. فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمـتهم. [ابـن إسـحاق؛ البيهقـي: الدلائل، من حديث ابن عقبة].

وكان يومًا عصيبًا من الدهر، ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظـة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الـذي يمكـنهم مـن

تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف. فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور. [الحموي: معجم البلدان].

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول ﷺ: «**فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حواريًا، وحواريِّي الزبير**» [متفق عليه]. ولزيادة الحيطة والحذر والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جُبَيْر، فجاءوا إلى بني قريظة وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول ﷺ إلا بني سَعْيَة [ابن إسحاق]، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد. وعاد رسل المسلمين إلى الرسول ﷺ بالخبر اليقين. [ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي، من حديث ابن عقبة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة [نفسه]، ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم. ونزل القرآن واصفًا هذه الحالة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾[الأحزاب: ١٠-١١]. [ابن إسحاق؛ الطبري: التفسير، والأسانيد تعتضد].

فالذين جاؤوهم من فوقهم هم الأحزاب، وبنو قريظة من أسفل منهم، والذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون. أما المؤمنون فقد صمدوا لهذا الامتحان. واتخذوا كل الوسائل الممكنة لاجتياز الامتحان، فنظموا فرقًا للحراسة، فكان سلمة بن أسلم الأوسي أميرًا لمائتي فارس وزيد بن حارثة أميرًا لثلاثمئة فارس، يطوفون المدينة ويكبرون لإشعار بني قريظة باليقظة حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن يغدروا بالذرية التي في الحصون. [ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما وصلت الأحزاب المدينة فوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا لأن المسلمين كانوا يمطرونهم بوابل سهامهم كلما هموا بذلك، ولذا استمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة. [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وهو قوي].

وذكر ابن إسحاق وابن سعد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وعد ابن إسحاق منهم: عَمُرو بن عبد وُدّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَة بن أبي وهب، وضِرَار ابن الخَطَّاب الشاعر بن مِرْدَاس، وزاد ابن سعد واحدًا على هؤلاء وهو: نَوْفَل ابن عبد الله. وذكر أن عليًا بارز عمرو بن عبد ود - فارس قريش- وقتله، وأن الزبير قتل نوفلًا المخزومي، وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم.

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار، حتى إنهم شغلوا المسلمين يومًا عن أداء صلاة العصر، فصلوها بعد الغروب [البخاري]. وذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف، حيث شرعت في غزوة ذات الرقاع [البخاري] على رأي من يرى أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق.

وقتل في هذه المناوشات ثلاثة من المشركين واستشهد ستة من المسلمين [ابن إسحاق؛ ابن سعد، الواقدي] منهم سعد بن معاذ، الذي أصيب في أَكْحَلِهِ- عِرْقٌ في وسط الذراع- رماه حِبَّان بن العَرِقَة. وقد نصبت له خيمة في المسجد ليعوده الرسول ﷺ من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حين انتقض جرحه [البخاري]. وكانت تقوم على تمريضه رُفَيدة الأسلمية [ابن إسحاق]. وكان قد دعا الله أن يبقيه لحرب قريش إن كان قد بقي منها شيء ليجاهد فيهم وأن يفجر جرحه فيموت إن كان الله قد وضع الحرب بين قريش والمسلمين - إشارة - إلى هذه الحرب. فانفجر جرحه، فكان سبب موته [البخاري] وزاد ابن إسحاق أنه دعا الله قائلًا: «ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة».

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم، لا ينصـــرون» [ابن إسحاق؛ أبو داود؛ الترمذي؛ أحمد: المسند؛ الحاكم؛ ويصح الخبر بشواهده ومتابعته].

لقد كفى الله المؤمنين القتال فهـزم الأحـزاب بوسـيلتين: الأولى: تسـخير الله نُعَـيْم ابن مسعود ليخذِّل الأحزاب، والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

١- دور نُعَيْم بن مسعود:

روى ابن إسحاق والواقدي وعبد الرزاق وموسى بن عقبة [البيهقي: الدلائل، مرسلًا عن الزهري] أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي ﷺ مسلمًا وعـرض عليـه أن يقـوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي ﷺ فقال له ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنـا إن استطعت. فإن الحرب خُدْعَة**». [والحرب خدعة حديث متفق عليه].

وقبل أن يُعرف إسلام نعيم، أتى بني قريظة، فأقنعهم بعدم التـورط مـع قـريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولـوا الأدبـار، ويتركـوهم وحـدهم يواجهـون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة. ثم أتى قريشًا فأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا عـلى مـا فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سرًا مع رسول الله ﷺ على أن يختطفوا عددًا من أشراف قـريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم دليلًا على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسـلت إلـيكم يهـود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجـلًا مـنكم. ثـم أتـى غطفـان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش. وبذلك زرع بذور الشك بينهم. وأخذ كل فريق يـتهم الفريق الآخر بالخيانة.

٢- معجزة الرياح والبرد:

هبت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فقلبت قدور المشركين، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، ودفنت رحالهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعًا فنادى

في الأحزاب بالرحيل [ابن سعد؛ البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة]. وكانت هذه الريح من جنود الله عز وجل الذين أرسلهم على المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾[الأحزاب:٩].

وروى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفًا مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدةٌ وَقُـرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا فلم يجبه منا أحد،... (ردد ذلك ثلاثًا) ثم قال: قم يا حذيفة فَأْتِنا بخبر القوم، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَـذْعَرْهُمْ علـيَّ. فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حَمَّام، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كَبِدِ القوس، فأردت أن أَرْمِيَهُ، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تَذْعَرْهُمْ عليَّ**»، ولو رَمَيْتُهُ لأصبته، فرجعت، وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفَرَغْتُ، قُرِرْتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فَضْلِ عَبَاءَةٍ كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قُمْ يا نَوْمَانُ».

وزاد ابن إسحاق [من مرسل القرظي] في روايته لهذا الخبر: «... فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُقِرُّ لهم قِدْرًا ولا نارًا ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون... فارتحلوا فإني مرتحل».

وفي رواية الحاكم [صححها ووافقه الذهبي] والبزار [برجال ثقات، كما في المجمع]: «... فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عُصْبَة حوله، قد تفرق الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على الذي يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هُنَيهة، ثم قمت فأتيت رسول الله ﷺ... قلت: يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلا عصبة توقد النار قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجوا من الله ما لا يرجون».

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنَّب المسلمين شر القتال، قال تعالى معلقًا على هذه الخاتمة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي ﷺ إلى الله أثناء محنة الحصار: «**اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**». [مسلم].

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ﷻ ردهم خائبين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا في المستقبل، ولذا قال الرسول ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**». [البخاري] وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة، لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول ﷺ.

حكم وعبر في غزوة الخندق:

١- إن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

٢- لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنبًا إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ.

٣- أعطى الرسول ﷺ مثلًا آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طُعَيم جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[التوبة:١٢٨].

٤- إن مجموعة المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق أو تكثير طعيم جابر أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، لهي مجموعة أخرى في سلسة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه، ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين. وقد أفردنا فصلًا لها.

٥- إن الحكمة في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في الصلح الذي اقترحته غطفان على الرسول ﷺ، هو أن الرسول ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله ﷻ وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين ونقض مواثيقهم معهم.

٦- وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم

لهم. إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابه العزيز.

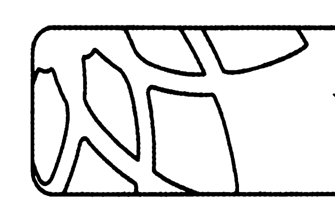
وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذا ألجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التربص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب.

[انظر: البوطي: السيرة].

٧- عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة العصر، صلوها قضاء بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة.



الفصل الحادي عشر
غزوة بني قُرَيْظَة



وقعت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية [ابن سعد؛ ابن إسحاق].

وواضح من سير الأحداث أن سبب الغزوة كان نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ، بتحريض من حُيَيِّ بن أَخْطَب النَضْرِي [عبد الرزاق]. وقد سبق أن ذكرنا من رواية الصحيحين أن الرسول ﷺ أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين [ابن معاذ وابن عبادة] وابن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم.

ولأن هذا النقض وهذه الخيانة قد جاءت في وقت عصيب، فقد أمر الله تعالى نبيه بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح [البخاري]. وامتثالًا لأمر الله ﷻ أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وتوكيدًا لطلب السرعة أوصاهم قائلًا: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**»، كما في رواية البخاري، أو- الظهر- كما في رواية مسلم.

وعندما أدركهم الوقت في الطريق، قال بعضهم: «لا نصلي حتى نأتي قريظة؛ وقال البعض الآخر: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك، فَذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعَنِّفْ واحدًا منهم» [متفق عليه]. وهذا اجتهاد منهم في مراد الرسول ﷺ. [ابن إسحاق، مرسلًا].

قال ابن حجر [في الفتح]: (... وقد جمع بعض العلماء بين الروايتين- البخاري ومسلم- باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر. وجمع

بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة فقيل للطائفـة الأولى: الظهـر، وقيل للطائفة التي بعدها: العصر، وكلاهما جمع لا بأس به...).

خرج الرسول ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتـل معهـم سـتة وثلاثـون فرسًـا [ابـن سـعد]، وضرب الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح [أحمد: المسند، بسند جيد]، وضيق عليهم الخناق حتى عظم علـيهم الـبلاء، فرغبـوا أخـيرًا في الاستسـلام، وقبول حكم الرسول ﷺ فيهم. واستشاروا في ذلك حليفهم أبـا لبابـة بـن عبـد المنـذر رضي الله عنه، فأشار إلى أن ذلك يعني الذبح. وندم على هذه الإشارة، فربط نفسـه إلى إحـدى سواري المسجد النبوي، حتى قبل الله توبته. [نفسه].

وعندما نزلوا على حكم الرسول ﷺ أحب أن يكـل الحكـم علـيهم إلى واحـد مـن رؤساء الأوس، لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سـعد بـن معـاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول ﷺ للأنصـار: «**قومـوا إلى سـيدكم، أو خـيركم، ثـم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمـك. قـال: تقتـل مقـاتلتهم، وتسـبى ذراريهـم، وتقسـم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله تعالى**». [متفق عليه].

ونفذ الرسول ﷺ حكم الله عز وجل فيهم. وكانوا أربعمائـة عـلى الأرجـح. ولم يـنج إلا بعضهم [متفق عليه]، وهم ثلاثة، لأنهم أسلموا، فأحرزوا أمـوالهم [ابـن إسـحاق، حسـن لغيره]، وربما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان مـن بعـض الصـحابة، أو لمـا أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار [ابن إسحاق]. وربما نجا آخرون لا يتجاوزون عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يفهم من رواية عند ابن إسحاق وغيره [مثل أبي عبيد في الأموال] أن الرسـول ﷺ وهـب لثابـت بـن قـيس بـن الشَـمَّاس ولـد الـزُّبَيْر بـن بَاطَـا القُرَظِـي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير، الذي أسلم، وله صحبة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأستاذ الدكتور محمد بن فارس الجميل قام بدراسة الروايات الخاصة بالعدد المقتول، في كتابه: (النبي ﷺ ويهود المدينة)، ومال إلى قبول رواية الإمام الزهري التي تقول بأن القتلى كانوا أربعين فقط. والدراسة ممتازة، ونؤيده وجزاه الله خيراً.

وجمعت الأسرى في دار بنت الحارث النجارية [ابن إسحاق، الواقدي]، ودار أسامة ابن زيد [مغازي عروة؛ الواقدي]، وحفرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها [أحمد: المسند، حسن؛ الترمذي صحيح]. وقتلت امرأة واحدة منهم [ابن إسحاق؛ حسن لذاته]، لقتلها خَلَّاد بن سُوَيد رضي الله عنه حيث ألقت عليه برحى [أحمد: المسند، من حديث ابن إسحاق بسند حسن]. ولم يقتل الغلمان ممن لم يبلغوا سن البلوغ. [ابن إسحاق، بسند حسن].

ثم قسم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين.

مصير بعض سبي بني قريظة:

ذكر ابن إسحاق وغيره [مثل الواقدي] أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلًا وسلاحًا.

وذكر الواقدي في شأن بيع سبايا بني قريظة قولين آخرين إضافة إلى ما ذكره ابن إسحاق، والقولان هما:

١- بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا ليبيعهم ويشتري بهم سلاحًا وخيلًا.

٢- اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جملة من السبايا... إلخ.

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بأن ذلك كله قد حدث.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رَيْحَانَة بنت عمرو بن خُنَافَة، وأسلمت. وقد توفي عنها رسول الله ﷺ وهي في ملك يمينه، وكان ذلك باختيارها. [ابـن إسـحاق. بسند مرسل يعتضد].

أحكام وحكم ودروس وعبر من غزوة بني قريظة:

١- جواز قتل من نقض العهد. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا. وهو ما يسمى بالخيانة العظمى.

٢- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم. كما في تحكيم ابن معاذ.

٣- مشروعية الاجتهاد في الفروع، ورفع الحرج إذا وقع الخلاف فيها. فقد اجتهد الصحابة في تفسير قول الرسول ﷺ: «**ألا لا يصلين أحد العصر - أو الظهر - إلا في بني قريظة**»، ولم يُخَطِّئ الرسول ﷺ أحدًا منهم.

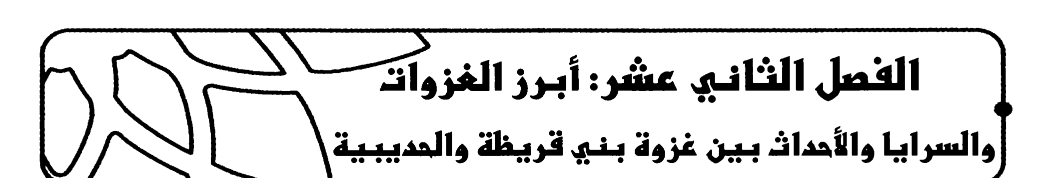
٤- ذكر النووي [في شرحه على صحيح مسلم] أن جماهير العلماء احتجوا بقول الرسول ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم أو خيركم...**» وغيره على استحباب القيام لأهل الفضل، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قيامًا طوال جلوسه، وقد وافق النووي جماهير العلماء في هذا، ثم قال: (القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح. وقد جمعت كل ذلك مع كلام العلماء عليه في جزء [مطبوع] وأجبت فيه عما توهم النهي عنه...).

٥- قال الدكتور البوطي [في فقه السيرة]: (واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»، لأن مشروعية إكرام الفضلاء لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك، أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل

إن من أبرز صـفات الصـالحين أن يكونـوا متواضـعين لإخـوانهم، زهـادًا في طلـب هـذا الشيء... غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدودًا إذا تجاوزها، انقلب الأمر محرمًا، واشترك في الإثم كل من مقترفه والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقـوف المريـدين علـيهم وهـم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسار وذل... ومنه ما يفعلـه بعضـهم مـن السجود على ركبة الشيخ أو يده عند قدومه عليه، أو ما يفعلـه مـن الحَبْـوِ إليـه عنـدما يغشى المجلس... فالإسلام قد شرح منـاهج للتربيـة وحظـر عـلى المسـلمين الخـروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوي في التربية من أسلوب يقر).





الفصل الثاني عشر: أبرز الغزوات والسرايا والأحداث بين غزوة بني قريظة والحديبية

المبحث الأول: سرية عبد الله بن عَتِيْك لقتل سَلاّم بن أبي الحُقَيْق (أبي رافع)

لقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه [البخاري]. فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ. [ابن حجر: الفتح، عن أبي الأسود].

رغبت الخزرج في قتل أبي رافع مساواة للأوس في قتل كعب بن الأشرف، وذلك بعد الفراغ من بني قريظة. وكان الله ﷻ قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة. [ابن إسحاق، مرسلًا].[ووصية الرسول ﷺ في عدم قتل الأطفال والنساء والأجراء والرهبان وكبار السن وكل من ليس طرفًا في القتال فثابتة]

فخرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى حصن أبي رافع بخيبر من أرض الحجاز للقضاء عليه. وقد أمر الرسول ﷺ عليهم عبد الله بن عتيك.

فلما دنوا، وقد غربت الشمس، وراح الناس بِسَرْحِهِمْ، قال عبد الله لأصحابه: «اجلسوا مكانكم فإني منطلق فَمُتَلَطِّفٌ للبواب لعلي أدخل». «فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته. وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل لأغلق، فدخل، فكمن، فأغلق البواب الباب، وعلق الأَقَالِيد على وَتَد، فقام ابن عتيك ففتح الباب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وأخذ في فتح الأبواب التي توصل إليه، وكلما فتح بابًا أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في

بيت مظلم وسط عياله. فلم يمكنه تمييزه، فنادى: يـا أبـا رافـع، فقـال: مـن؟ فـأهوى بالسيف نحو الصوت، فلم يغن شيئًا، فعاد عبد الله يناديه، وفي كـل مـرة يغـير صـوته، حتى استمكن منه وقتله دون أن يؤذي أحدًا من ولده أو زوجته.

ثم خرج من البيت، وكان بصره ضعيفًا، فوقع من فوق السلم، فانخلعت رجلـه، فعصبها بعمامته، وتحامل على نفسه حتى جاء إخوانه فأخبرهم، فعادوا إلى الرسول ﷺ، فلما رآهم قال: «أفلحت الوجـوه»، وحـدثوه بـما حـدث، ثـم قـال لعبـد الله: «أبسـط رجلك»، فمسحها ﷺ فكأنه لم يشتكها قط [البخاري].

وقد اختلف أهل السير في تاريخ هذه السرية: فعند الواقدي أنهم خرجوا ليلة الاثنين في السحر لأربع خلون من ذي الحجة، على رأس ستة وأربعين شـهرًا مـن الهجرة وغابوا عشرة أيام، وعند ابن سعد أنها في رمضان سـنة سـت مـن الهجـرة وعند الطبري أنها في النصف من جمادى الآخرة من السنة الثالثة الهجريـة، وقيـل في ذي الحجـة سـنة خمـس، وقيـل في سـنة أربـع، وقيـل في رجـب سـنة ثـلاث [ابن حجر: الفتح].

والراجح أنه بعد الخندق وقريظة، لأنه ممن ألب الأحزاب على المسلمين. فـإذا كـان الرسول ﷺ قد فرغ من بني قريظة في منتصف ذي القعدة فتكون هذه السرية بعد هـذا التاريخ بقليل. وعمومًا فإن كل ذلك لم ترد فيه روايات صحيحة من الناحية الحديثيـة، حسب علمي المحدود.

المبحث الثاني: سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى القُرْطَاء

أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبًا لشن الغـارة عـلى القرطـاء، وهـم بطن من بني بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من المحرم من السنة السادسة، على رأس

تسعة وخمسين شهرًا من الهجرة [ابن سعد؛ الواقدي]. فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم على غِرَّة، فقتلوا منهم عشرة، وفر الباقون. واستاقوا الإبل والشاء.

ولقيهم ثُمَامَة بن أُثَال الحنفي، سيد بن حنيفة، وهم في طريق عودتهم إلى المدينة، فأسروه، وهم لا يعرفونه. فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «ما عندك؟ قال: عندي يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد قال له ما قال بالأمس، فأجابه ثمامة بمثل ما أجاب. فأمر رسول الله ﷺ بإطلاقه. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد وتلفظ بالشهادتين، وذكر للرسول ﷺ أن وجهه أصبح أحب الوجوه إليه، وأن دينه أصبح أحب الدين كله إليه، وأن بلده أصبحت أحب البلاد كلها إليه، بعد أن كان ذلك كله أبغض الأشياء إليه. وقال إنه كان في طريقه إلى العمرة عندما أسر، فبشره رسول الله ﷺ وأذن له بالعمرة. فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت يا ثمامة. قال: لا، ولكن أسلمت، وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ [البخاري]. وأبر بقسمه. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام، فأذن النبي ﷺ في ذلك». [ابن هشام].

وكان له دور إيجابي في حركة الردة حين ثبت على الإسلام مع قومه بني سُحَيم، وكانوا ثلاثمئة رجلًا كما ذكر السهيلي.

فوائد من قصة ثمامة:

١- قال ابن حجر [في الفتح]: (وفي قصة ثمامة من الفوائد: ربط الكافر في المسجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه



انقلب حبًا في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل. وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير. وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسرى، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه. وفيه بعث السرايا إلى بلاد الكفار، وأسر من وجد منهم، والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه).

المبحث الثالث: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرَنِيِّين:

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكَل وعُرَيْنَة، في شوال من العام السادس الهجري [ابن سعد؛ الواقدي]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بِذَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها ويتمسَّحوا بأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذَّوْد. [والذود: الإبل إذا كانت ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة، وهي من الإناث دون الذكور].

فبلغ النبي ﷺ خبرهم فبعث الطَّلَبَ في آثارهم، فقبضوا عليهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث-: (بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المُثْلَة) [البخاري]، وقال في رواية أخرى: (إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود) [نفسه].

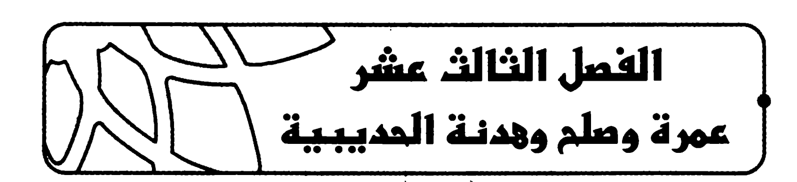
وقال أبو قلابة في حديثه: «**هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله**». [متفق عليه].

قال الجمهور إن آية الحرابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ

يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[المائدة:٣٣] قد نزلت في هؤلاء العرنيين [فقه السنة]. وقيلت أسباب أخرى في نزولها. [الطبري: التفسير].

ومما يستفاد من أحداث هذه السرية أيضًا، أن العلم الحديث قد كشف عن الفائـدة الطبية العلاجية لأبوال الإبل وألبانها، مثلما قاله الرسول ﷺ، وفي ذلك لأولي الألبـاب دليل آخر من بين مئات الأدلة على نبوة محمد ﷺ. وسنذكر هذا الكشف في مكانـه مـن فضل المعجزات النبوية.





الفصل الثالث عشر
عمرة وصلح وهدنة الحديبية

[الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلًا شمالي غربي مكة، وتعرف اليوم بالشميسي، وبها حدائق الحديبية ومسجد الرضوان، انظر: نسب حرب، ص ٣٥٠]

المبحث الأول: أحداث الحُدَيْبِيَة

خرج الرسول ﷺ وأصحابه لأداء العمرة [البخاري] في يوم الاثنين هلال ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية. [البخاري؛ الواقدي؛ ابن سعد؛ البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة].

وكان الرسول ﷺ يخشى أن تعرض له قريش بحرب أو يصدوه عن البيت الحرام، لذلك استنفر العرب المسلمين ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، فأبطؤوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من العرب [ابن إسحاق]. وقد كشف القرآن عن حقيقة نوايا الأعراب، فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١١- ١٢].

وقد ذكر مجاهد [تفسير الطبري، مرسل حسن] أن الأعراب الذين عنتهم الآية هم أعراب جهينة ومزينة؛ وذكر الواقدي أن الأعراب الذين تشاغلوا بأموالهم وأولادهم وذراريهم هم بنو بكر ومزينة وجهينة.

ويفهم من رواية البخاري أن المسلمين كانوا يحملون أسـلحتهم اسـتعدادًا للـدفاع عن أنفسهم في حالة الاعتداء عليهم.

لقد اتفق خمسة من الذين كانوا في هذه الغزوة على أن عدد من خرج فيها كانوا ألفًـا وأربعمائة رجل. [متفق عليه].

صلى المسلمون وأحرموا بالعمرة عندما وصـلوا إلى ذي الحليفـة [البخـاري]، وقلـد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وعددها سبعون بدنة [أحمد: المسـند، حسـن، ابـن إسـحاق، حسـن]، وبعثها مع نَاجِية بن جُنْدُب بن عمير الخزاعي الأسـلمي [أحمـد: المسـند، حسـن؛ ابن إسحاق]. وبعث بين يديه بشر بن سفيان الخزاعي الكعبي عينًـا لـه إلى قـريش ليأتيـه بخبرهم. [البخاري؛ ابن إسحاق، حسن].

وعندما وصل المسلمون الرَّوحاء [على بعد ٧٣ كيلًا من المدينة] جاءه نبـأ عـدو بغَيْقَـة، [موقع بين مكة والمدينة] فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، فيهم أبو قتـادة الأنصـاري، ولم يكن محرمًا، فرأى حمارًا وحشيًا، فحمل عليه فطعنه، ورفض أصحابه أن يعينـوه عليـه، ولكنهم أكلوا منه وهم حرم، ثم شكوا في حل ذلـك، فعنـدما التقـوا بالرسـول ﷺ في السقيا [على بعد ٨٠ كيلًا من المدينة]، استفتوه في الأمر، فأذن لأصحابه بأكل ما جاؤوه بـه من بقية اللحم ما داموا لم يعينوا على صيده. [البخاري].

وعندما وصلوا عسفان [على بعد ٨٠ كيلًا من المدينة] جاءهم بسر بن سـفيان الكعبـي بخبر قريش فقال: «يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العُوذُ المطافيل[العوذ: جمع عائذ وهو من الإبل الحديثة النتاج. والمطافيل: جمـع مطفـل: التـي معها أولادها والمراد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم، وهـو عـلى الستعارة] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم

أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا كُرَاع الغَمِيم». فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يغيروا على ديار الذين ناصروا قريشًا واجتمعوا معها ليدعوا قريشًا ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه». فقال رسول الله ﷺ: **«امضوا على اسم الله»**. [البخاري].

وعندما علم الرسول ﷺ بقرب خيل المشركين منهم صلى بأصحابه صلاة الخوف بِعسْفان. [أبو داود، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولتفادي الاشتباك مع المشركين، سلك الرسول ﷺ طريقًا وعرة عبر ثَنِيَّة المِرَار، وهي مهبط الحديبية، وقال عندما وصلها: «من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل»، فكان أول من صعدها خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس. [مسلم].

وخرجت قريش للقاء المسلمين، فعسكرت ببَلْدَح، [واد بمكة من جهة المغرب، أعلاه في وادي العشر، وأوسطه منطقة الزاهر اليوم، ومصبه في مر الظهران شمالي الحديبية، (البلادي: ص ٤٩، معجم البلدان (١/ ٤٨٠)] وسبقوا المسلمين إلى الماء هنا. [دلائل البيهقي، من مرسل عروة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: «خَلَأَتِ [بركت وحرنت بغير علة ظاهرة] القصواء»، فقال النبي ﷺ: **«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل»**. ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةٍ يُعَظِّمُون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زَجَرَهَا فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ- بئر- قَلِيلِ الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كَنَانِتِهِ ثم أمرهم أن



يجعلوه فيه، فَجَاس لهم بِالرِّيِّ فارتووا جميعًا [البخاري]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر [نفسه]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر [نفسه]. ويؤيده ما ذكره الواقدي وعروة [في الفتح من رواية أبي الأسود] من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر ونزع سهمًا من كِنَانَتِهِ فألقاه فيها ودعا ففارت.

ولخصائص قريش ومكانتها بين العرب، حرص الرسول ﷺ على إسلامهم، وتحسر على عنادهم وخسارة أرواحها في الحروب مع المسلمين، فها هو يعبر عن هذه الحسرة بقوله: «يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافِرُون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السَّالِفَة [صفحة العنق]...» [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

بذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا ألجئوا إليه، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة.

فأتاه بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَة نصح رسول الله ﷺ من أهل تِهامة، وبينوا أن قريشًا تعتزم صد المسلمين عند دخول مكة، فأوضح لهم الرسول ﷺ سبب مجيئه، وذكر لهم الضرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أَبَوْا فلا مناص

من الحرب ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش [البخاري]، وقالوا لهم: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ولا تتحدث بذلك العرب». [أحمد: حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وأراد الرسول ﷺ أن يؤكد هدفه من هذه الزيارة، ويشهد على ذلك كل العرب، ولذا أرسل إلى قريش خِرَاش بن أُمَيَّة الخُزَاعي على جمله «الثَعْلَب»، ولكنهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعته الأحَابِيش [ابن إسحاق، حسن]، لأنهم من قومه. [ابن سعد].

ثم دعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: «يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان». فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إليهم. فنزل عثمان في حماية وجوار أَبَان بن سعيد بن العاص الأموي، حتى أدى رسالته، وأذنوا له بالطواف بالبيت، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ». واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا أصحابه للبيعة تحت شجر سَمُرة، فبايعوه جميعًا على الموت [البخاري]، سوى الجَدُّ بن قَيْس، وذلك لنفاقه. وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر [البخاري]، وفي رواية على عدم الفرار [مسلم]، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر عند اللقاء وعدم الفرار. [ابن حجر: الفتح].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سِنَان عبد الله بن وهب الأسدي [ابن هشام، من مرسل الشعبي؛ ابن حجر: الإصابة، من مرسلين حسنين]، فخرج الناس بعده يبايعون على



بيعته، فأثنى عليهم الرسـول ﷺ فقـال: «**أنـتم خـير أهـل الأرض**» [البخـاري]، وقـال: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها**». [مسلم].

وأشار رسول الله ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: «**هذه يد عثمان**»، فضرب بها عـلى يـده اليسرى، وقال: «**هذه لعثمان**» [البخاري]. فنال عثمان بذلك فضل البيعة.

وقبل أن تتطور الأمور عاد عثمان رضي الله عنه بعد البيعة مباشرة.

وعرفت هذه البيعة بـ (بيعة الرضوان)، لأن الله تعالى أخبر بأنه رضي عن أصحابها، كـــما في قولـــه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفـتح: ١٨]. [الطبري: التفسير، يعتضد؛ الترمذي، حسن لغيره، وأصله عند مسلم].

أرسلت قريش عددًا من السفراء للتفاوض مـع المسـلمين، بعـد سـفارة بُـدَيْل بـن وَرْقَاء. فقد أرسلوا عُرْوَة بن مسعود الثقفـي، وقبـل أن يتحـرك خشـي أن ينالـه مـن التعنيف وسوء المقالة ما نالَ من سبقه، فبين لهم موقفه منهم، وأقروا له بأنه غـير مـتهم عندهم، وذكر لهم أن الذي عرضه عليهم محمد هـو خطـة رشـد. ودعـاهم إلى قبولهـا، فوافقوا على رأيه.

وعندما جاء إلى الرسول ﷺ قال له ما قـال لبـديل، فقـال عـروة عنـد ذلـك: «أَيْ محمد، أَرَأَيْتَ إنْ استأصلت أَمْرَ قومك، هل سـمعت بأحـد مـن العـرب اجتـاح أهلـه قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فـإني والله لا أرى وجُوهًـا، وإني لأَرَى أَشْـوَابًا مـن النـاس خَلِيْقًا أنْ يَفِرُّوا وَيَدعُوك». فقال له أبو بكـر: «امْصـصْ بَظْـرَ الـلَّاتِ، أَنَحْـنُ نَفِـرُّ عنـه وَنَدَعُه؟...»، وكان كلما تكلم كلمة أخذ بلحية الرسول ﷺ، والمُغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، فيضربه بِنَعْلِ السيف، ويقول: «أَخِّرْ عن لحية رسـول الله ﷺ...»، ولحظ عروة تعظيم الصحابة للرسول ﷺ وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلـما

رجع إلى قريش، قال لهم: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا». [البخاري].

ثم بعثوا الحُلَيْس بن عَلْقَمَة الكِنَاني سيد الأَحَابِيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه**»؛ فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، وذلك إعظامًا لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَت، فما أرى أن يصدوا عن البيت» [البخاري]، فقالوا: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك». فغضب وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاءه معظمًا له!! والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لَأَنْفِرَّنَ بالأحابيش نَفْرَةَ رجل واحد»، قالوا: «مَهْ، كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هذا مِكْرَزُ وهو رجل فاجر**»... فجعل يكلم الرسول ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو رسولًا من قبل قريش، فقال النبي ﷺ متفائلًا: «**لقد سهل لكم أمركم**» [أحمد، حسن]. وقال: «**قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**» [ابن إسحاق، حسن]، وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: «ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هذا، فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عَنْوَة أبدًا». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح [نفسه].

وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة [متفق عليه]، اعترض سهيل على كتابة كلمة «الرحمن» في البسملة، وأراد بدلًا

عنها أن يكتب «باسمك اللهم»، لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺ وافق على اعتراض سهيل. ثم اعترض سهيل على عبارة «محمد رسول الله»، وأراد بدلًا عنها عبارة: «محمد بن عبد الله»، فوافقه أيضًا على هذا الاعتراض.

وحجة سهيل هنا في قوله: (والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا نَاتَلْنَاكَ [أي تقدمنا لخصومتك]..).

وعندما قال الرسول ﷺ: «**على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به**» اعترض سُهَيْل قائلًا: «لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضَغْطَةً- قهرًا- ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك، فأقمت فيها ثلاثًا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القُرُبِ»؛ فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط. ثم قال سُهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، قال المسلمون: «سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟!» فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جَنْدَل بن سُهَيل ابن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: والله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا.

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستثني أبا جندل، فرفض على الرغم من موافقة مكرز على طلب الرسول ﷺ، ولم يجد الرسول ﷺ بُدًّا من إمضاء ذلك لسهيل. [البخاري].

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي:

«على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عَيْبَة[أي صدر صاف من الغل والخداع، مطوي على نية الوفاء بالصلح]،

مَكْفُوفة، فلا إسْلَال – سرقة – ولا إغْلَال – خِيَانَة – وأن من أحب أن يـدخل في عقـد محمد وعهده دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسـول الله ﷺ وعهـده. وتواثبـت بنـو بكـر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. [ابن إسحاق، حسن].

لقد تبرم كثير من الصحابة من معظم هذه الشروط. ومن الأدلة على ذلك أن عليًـا اعتذر عن محو كلمة «رسول الله» التي اعترض عليها سهيل بن عمرو، فقال له رسـول الله ﷺ: «أرني مكانها»، فأراه مكانهـا، فمحاهـا رسـول الله ﷺ. وكتـب (عـلي مكانهـا) «ابن عبـد الله» [متفـق عليـه]. وغضـبوا لشـــرط رد المسـلمين الفـارِّين مـن قـريش إلى المشـركين، فقالوا: «يا رسول الله، نكتب هذا؟»، قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا». [مسلم].

ويحكي عمر بن الخطاب مجيئه إلى رسول الله ﷺ غاضبًا عند كتابـة ذلـك الصـلح، قال: «فأتيت نبي الله، فقلت: ألستَ نبي الله حقًا؟ قال: بـلى. قلـت: ألسـنا عـلى الحـق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سـنأتي البيـت فنطـوف بـه؟ قال: بلى. أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قـال: فإنـك آتيـه ومطـوف بـه». وأتى عمر أبا بكر وقال له مثل ما قال للرسول ﷺ، فقال له أبو بكر: «إنـه لرسـول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِهِ[طريقـه]، فَـوَالله إنـه عـلى الحـق» [مسلم]. وقال عمر: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صـنعت مخافـة كلامـي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا». [ابـن إسـحاق، حسـن]. ولم تطـب نفس عمر إلا عندما نزل القرآن مبشرًا بالفتح. [مسلم].

وعندما كان أبو جَنْدَل يستنجد بالمسلمين قائلًا: «يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟» والرسول ﷺ يقول: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**». [أحمد وابن إسحاق، حسن] كان عمر يمشي بجنب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه، لكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [نفسه]. وذلك لحكمة تجلت للناس فيما بعد، يوم كان أبو جندل وأصحابه سببًا في إلغاء شرط رد المسلمين إلى الكفار، وفي إسلام سهيل وموقفه يوم كاد أهل مكة أن يرتدوا عندما مات الرسول ﷺ فثبتهم على الإسلام بكلام بليغ. [ابن حجر: الإصابة- ترجمته].

وقال سَهْل بن حَنِيف يوم صفين: «اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته». [البخاري].

وعندما أمرهم الرسول ﷺ بأن ينحروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم، لم يقم منهم أحد إلى ذلك، فكرر الأمر ثلاث مرات، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، وحكى لها ما حدث من المسلمين، فأشارت إليه بأن يبدأ هو بما يريد، ففعل، فقاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا. [البخاري].

فدعا الرسول ﷺ لمن حلق منهم ثلاثًا ولمن قصر مرة واحدة [أحمد، حسن].

وكان عدد ما نحروه سبعين بدنة [أحمد، حسن]، كل بدنة عن سبعة أشخاص. [مسلم].

وكان هدي رسول الله ﷺ يومئذ جملًا لأبي جهل من غنائم بدر، نحره ليغيظ بذلك المشركين [أحمد، حسن]. ونحروا بعض الهدي في الحديبية في الحل [البخاري]، والبعض الآخر نحره نَاجِية بن جُنْدُب داخل منطقة الحرم [الطحاوي: شرح معاني الآثار، صحيح].

ولا شك أن هذا التصرف من عمر وغيره من المسلمين ما هو إلا اجتهاد منهم ورغبة في إذلال المشركين [أحمد، حسن].

ولم تتوقف قريش عن التحرش بالمسلمين واستفزازهم خلال مفاوضات كتابة الصلح وبعد كتابته، وقد تصرف الرسول ﷺ والصحابة بانضباط شديد إزاء هذه الأفعال. فعندما حاول ثمانون من رجال مكة مهاجمة معسكر المسلمين على غِرَّة، أسرهم المسلمون، وعفا عنهم الرسول ﷺ [مسلم، أحمد]. وكرر المحاولة ثلاثون آخرون من قريش أثناء إبرام الصلح، فأسروا، وأطلق الرسول ﷺ أيضًا سراحهم. [أحمد، صحيح؛ الحاكم صحيح].

وبعد إبرام الصلح حاول سبعون من المشركين استفزاز المسلمين، فأسروهم.

وقبض سَلَمَة بن الأَكْوَع على أربعة من المشركين أساءوا إلى الرسول ﷺ، بعد إبرام الصلح، فعفا عنهم الرسول ﷺ. وقد نزلت في ذلك الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ٢٤]. [مسلم].

ثم رجع المسلمون إلى المدينة بعد أن غابوا عنها شهرًا ونصف الشهر [عيون الأثر، من حديث ابن عائذ]، منها بضعة عشر يومًا، ويقال عشرين يومًا، مكثوها بالحديبية. [ابن سعد، الواقدي].

وفي طريق العودة تكررت معجزة النبي ﷺ في تكثير الطعام والماء، مثلما حدث في طعام جابر يوم الخندق، وتكثير ماء بئر الحديبية، فقد ذكر سلمة بن الأكوع أنهم عندما أصابهم الجوع وكادوا أن يذبحوا رواحلهم دعا الرسول ﷺ بأزواد الجيش، فلم يتجاوز رَبْضَةَ العَنْزِ، وهم أربعة عشرة مائة، فأكلوا حتى شبعوا جميعًا وحشوا جربهم، ثم جيء له بإِدَاوَةٍ وضوء فيها نطفة ماء فأفرغها في قَدَحٍ، فتوضأ منها كل الجيش».

[متفق عليه- وربضة العنز: قدرها وهي رابضة].

ونزلت سورة الفتح، وهم في طريق العودة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[الفتح:١]. وقال عنها الرسول ﷺ: «**لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**» [البخاري]. وقال عمر متعجبًا: «أو فتح هو؟» فقال له الرسول ﷺ: «**نعم**»، فطابت نفسه ورجع [مسلم]، وفي رواية: «**نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح**» [البخاري؛ الحاكم، صحيح]. وفرح المسلمون بذلك فرحًا غامرًا، وانجلت تلك السحابة من الغم، وأدركوا قصورهم عن إدراك كل الأسباب والنتائج، وأن الخير في التسليم لأمر الله ورسوله.

وعندما جاءته أم كُلْثُوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة لم يردها إلى أهلها عندما طلبوها لما أنزل الله في النساء: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾... ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[الممتحنة:١٠] [البخاري]. فكان الرسول ﷺ لهذا يختبرهن، فإن كن خرجن بسبب الإسلام استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات. [البيهقي: السنن الكبرى؛ ابن إسحاق].

وهذه الآية الواردة في عدم رد المهاجرات المسلمات إلى الكفار هي التي استثنت من شرط الرد، وحَرَّمَتِ المسلمات على المشركين ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة:١٠]. [البخاري].

المبحث الثاني: فقه وحكم ودروس في صلح وهدنة الحديبية

١- عندما وجد سبب مانع من أداء المسلمين لعمرتهم التي أحرموا لها تحللوا، وبذلك شرع التحلل للمعتمر وأنه لا يلزمه القضاء [كتب فقه: أبوب الأحصار].

٢- أذن الرسول ﷺ لكعب بن عُجْرَة أن يحلق رأسه وهو محرم، لأذى أصابه، على أن يذبح شاة فدية أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين. ونزلت الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة:١٩٦]. [متفق عليه].



٣- أذن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر. [ابن ماجه، صحيح].

٤- وقعت تطبيقات عملية لمبدأ الشورى في الإسلام، حيث استشارهم في الإغارة على ذراري المشركين الذين يساندون قريشًا، كما ذكرنا. واستشار أم سلمة في أمر الناس عندما أبطؤوا في التحلل، وأخذ برأيها، كما ذكرنا.

٥- ويستنتج من مدة الصلح أن الحد الأعلى لمهادنة الكفار عشر سنين، لأن أصل العلاقة معهم الحرب وليس الهدنة. ولكن في الأمر سعة حسب الأحوال.

٦- جواز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلمًا. إذا دعت الضرورة.

٧- استحباب التفاؤل لقوله ﷺ: «**سهل أمركم**»، وذلك عندما قدم عليهم سهيل ابن عمرو مفاوضًا.

٨- كفر من يقول: «مطرنا بنَوْءِ كذا وكذا» والصواب أن يقول: «**مطرنا بفضل الله ورحمته**». قال ذلك الرسول ﷺ للصحابة عندما صلى بهم الصبح إثر مطر هطل ليلًا. [البخاري].

٩- جواز التبرك بآثار النبي ﷺ مثل التوضؤ بماء وضوئه ﷺ [نفسه]، وهو خاص به، خلافًا لآثار الصالحين من أمته. [الشاطبي: الاعتصام].

١٠- السنة لمن نام عن صلاته أو نسيها أن يصليها وإن خرج وقتها، وذلك لأن المسلمين ناموا عن صلاة الصبح وهم في طريق عودتهم من الحديبية ولم يوقظهم إلا حر الشمس، ونام حارسهم بلال، فصلوها حين استيقظوا. [النسائي: الكبرى، صحيح].

١١- في الصلح اعتراف من قريش بكيان المسلمين لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند.

١٢- ذهاب هيبة قريش، بدليل مبادرة خزاعة الانضمام إلى حلف المسلمين دون خشية من قريش كما كان في السابق.

١٣- أتاح الصلح للمسلمين التفرغ ليهود خيبر خاصة ويهود تيماء وفدك بصفة عامة.

١٤- أتيح للمسلمين مضاعفة جهودهم لنشـر الإسـلام، وفي ذلـك قـال الزهـري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى النـاس، فلـما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وآمـن النـاس بعضـهم بعضًـا، والتقـوا فتفاوضـوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقـد دخـل في تينـك السـنتين [وهـي مـدة سريـان الهدنـة] مثـل مـن كـان في الإسـلام قبـل ذلـك) [ابن إسحاق، حسن].

وعلق ابن هشام على هذا قائلًا: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسـنتين في عشرة آلاف). [نفسه].

١٥- جاءت نتائج بعض الشروط في صالح المسلمين من ذلك أن أبا بَصِـير عنـدما فر من المشركين ولجأ إلى المسـلمين رده الرسـول ﷺ إلـيهم عنـدما طلبـوه، فعـدا عـلى حَارِسَيْهِ فقتل أحدهما، وفر الآخر، وعاد أبو بصير إلى المدينة، وقال للرسول ﷺ: «قـد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم». فقال النبي ﷺ: **«وَيْـلُ أُمِّـهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد»**، ففهم أبو بصـير نيـة الرسـول ﷺ في رده إلى المشــركين، فلجأ إلى سِيفِ البحر...». [البخاري]. وفهـم المستضـعفون المسـلمون في مكـة إشـارة الرسول ﷺ: **«مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد»**، ففروا من مكة، ولحقوا بأبي بصير، وعـلى رأسهم أبو جندل. وتكونت منهم عصابة، أخذت تتعرض لقوافـل قـريش، فأرسـلت قريش إلى الرسول ﷺ تناشده أن يعطيهم الأمان بالمدينة، فأرسل إلـيهم [نفسـه]، وهـم بناحية العِيص، فجاؤوا، وكانوا قريبًـا مـن السـتين أو السـبعين رجـلًا. [ابـن إسـحاق، حسن]. [وساقه البيهقي في الدلائل من رواية الزهري مرسلًا، وعنده أنهم صاروا بالعيص ثلاثمائـة،

وأن كتاب الرسول ﷺ قد جاء إلى أبي بصير وهو يحتضر، فمات والكتاب في يده، فدفنه أبـو جنـدل، وعاد ببقية الرجال إلى المدينة، وروى نحوه من مرسل عروة].

١٦- في قصة أبي بصير وأبي جنـدل ورفقـائهم في العِـيص، نمـوذج يقتـدى بـه في الثبات على العقيدة، وبذل الجهد في نصرتها، وعدم الاستكانة للطغاة.



الفصل الرابع عشر
غزوة خيبر

لم يبد يهود خيبر عداء سافرًا للمسلمين حتى لحق بهم زعماء بني النضير عندما أُجْلُوا عن المدينة. وكما سبق وأن ذكرنا، فقد كان أبرز زعماء بني النضير الذين غادروا المدينة ونزلوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي ابن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها. [ابن إسحاق].

لقد نزلوها بأحقادهم ضد المسلمين، ولذا كانوا كلما وجدوا فرصة للانتقام من المسلمين انتهزوها، ووجدوا في قوة قريش وبعض قبائل العرب الوسيلة التي سيدخلون بها المدينة مرة أخرى، فألبوهم ضد المسلمين، ثم جروهم إلى غزوة الخندق [ابن إسحاق، مرسلًا]، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين [ابن إسحاق]. ولذا كانت تلك العقوبة الرادعة التي أنزلها المسلمون بهم عندما صرف الله الأحزاب، وأرسل الرسول ﷺ سرية عبد الله بن عتيك للقضاء على رأس من رؤوسهم أفلت من العقاب يوم قريظة، وهو سلام بن أبي الحقيق، فقتلوه.

وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا هزموا يهود خيبر، وإلى ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح:١٨-٢١] [ابن كثير: التفسير؛ ابن حجر: الفتح، من حديث ابن إسحاق في المغازي من حديث المسور ومروان].

تاريخ الغزوة:

ذكر ابن إسحاق أنها كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في المحرم من السنة السادسة [ابن عساكر: تاريخ دمشق]. وظاهر أن الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك. وقد رجح ابن حجر [الفتح] قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادهم الحربي. وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلًا: **«إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»** [البخاري]. وسلكوا طريقًا بين خيبر وغطفان ليحولوا بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، لأنهم كانوا أعداء للمسلمين. [ابن إسحاق].

ونزل المسلمون بساحة اليهود قبل بزوغ الفجر، وقد صلى المسلمون الفجر قرب خيبر، ثم هجموا عليها بعد بزوغ الشمس، وفوجئ أهلها بهم وهم في طريقهم إلى أعمالهم، فقالوا: «محمد والخميس!!» فقال الرسول ﷺ: **«الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صَبَاحُ المُنْذَرِين»**. [متفق عليه].

وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون. وقد حاولت غطفان نجدة حلفائهم يهود خيبر، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسًّا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر

[ابن إسحاق؛ الواقدي]، فأخذ المسلمون في افتتاح حصونهم واحدًا تلو الآخر. وكان أول ما سقط من حصونهم نَاعِم والصَّعْب بمنطقة النَّطَاة، وأبي النِّزَار بمنقطة الشِّقِّ، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطِيح والسُّلالِم. [ابن إسحاق، الواقدي].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مَسْلَمَة الأنصاري، حيث ألقى عليه مَرْحَب رحًى من أعلى الحصن [ابن إسحاق، حسن]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام [الواقدي]؛ فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ: «إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يُفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دفع اللواء إلى علي، ففتح الله على يديه». [أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح وأصل الرواية عند مسلم].

وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرئ. [مسلم].

وأوصى الرسول ﷺ عليًا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [مسلم]. وعندما سأله عليٌّ: «يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟» قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». [نفسه].

وعند حصار المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مَرْحَب، وكان سببًا في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله [ابن هشام]، مما أثر سلبيًا في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

وقد أبلى عليٌّ بلاء حسنًا في هذه الحرب. ومن دلائل ذلك: روى ابن إسحاق من حديث أبي رافع -مولى رسول الله ﷺ -: «أن عليًا عندما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي بابًا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. قال الراوي- أبو رافع: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه».

وروى البيهقي [في الدلائل] من طريقين مرفوعين إلى جابر ﷺ قصة علي والباب ويوم خيبر. ففي الطريق الأولى: «أن عليًا ﷺ حمل الباب حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها، ولم يستطع أربعون رجلًا أن يحملوا هذا الباب» [تتقوى بالمتابعة]. وفي الطريق الثانية: «أنه اجتمع عليه سبعون رجلًا، فأعادوه إلى مكانه بعد أن أجهدهم». [ضعفها السخاوي في المقاصد الحسنة].

توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحُبَاب بن المنذر بلاءً حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطَاة التي كان فيها أشد اليهود.

ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق، وبدأوا بحصن أُبَيّ، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزَار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوَطِيح وحصن السُّلَالِم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح. [الواقدي].

وهكذا فتحت خيبر عنوة، استنادًا إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري ومسلم وأبو داود من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلًا [الواقدي]. وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية، حيث وقعت في سهمه، فأعتقها وتزوجها [متفق عليه]. وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري. [الحاكم، صحيح].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلًا فيما ذكر ابن إسحاق، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي. وممن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيرًا لرجل من يهود.

وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتاه في أمر الغنم، فطلب منه الرسول ﷺ أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها وجوهها، فرجعت إلى أصحابها، وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسُجِّي بشمله، فالتفت إليه الرسول ﷺ ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين». [ابن إسحاق؛ الحاكم؛ البيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة وعروة].



واستُشهد أعرابي له قصة دلت على وجـود نـماذج فريـدة مـن المجاهـدين. وخلاصـة قصته أنه جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسـول ﷺ. فلـما كانـت غـزوة خيبر – وقيل حنين – غنم رسول الله ﷺ وأخرج له سـهمه، وكـان غائبًـا حـين القسـمة، ويرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ وقال: «ما هذا يا محمد؟»، قال النبي ﷺ: «**قسم قسمته لك**»، قال: «ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك عـلى أن أُرْمَى هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة»، قال: «إن تصدق الله يصدقك»، ولم يلبث قليلًا حتى جيء به وقد أصابه سهم حيث أشـار، فقـال الرسـول ﷺ: «**صـدق الله فصدقه**»، فكفنه الرسول ﷺ في جبة للنبي ﷺ ودفنه. [عبد الرزاق، صحيح].

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم. فقد أهدته امرأة – زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشـكم، ابنـة أخ مرحـب – مـنهم شـاة مشـوية مسمومة، وأكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبه، فلما أكل الذراع، أخبرتـه الذراع أنه مسموم، فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها، فلـم يعاقبهـا في حينها، ولكنه قتلها عندما مات بِشْر بن البَراء بن مَعْـرور مـن أثـر السـم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ [الحاكم، عبد الرزاق؛ البيهقي: الدلائل]. [متفق عليه] واختلف العلماء في هذا.

وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الشروط الآتية:

– بالنسبة للأراضي والنخيل- أي الأموال الثابتة: دفعها لهم الرسـول ﷺ عـلى أن يعملوا عليها ولهم شطر ما يخرج منها. [متفق عليه].

– أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض [مسلم].

– أما بالنسبة لوضعهم القانوني، فقد تم الاتفـاق عـلى أن بقـاءهم بخيـبر مرهـون بمشيئة المسلمين، فمتى شاؤوا أخرجوهم منها.

وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحاء [متفق عليه]، استنادًا إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**» [أحمد، صحيح؛ ابن سعد، صحيح؛ ابن إسحاق مرسلًا، عبد الرزاق، صحيح]. وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله ﷺ من عنده [متفق عليه]. وفي هذه المرة الثانية التي أكدت الأولى- كما أشار عمر- أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه. [أحمد: صحيح؛ ابن إسحاق، حسن].

- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي ﷺ إلى أهل خيبر ليخرص [يخمن أو يُقَدِّر] ويقبض حصة المسلمين. [أحمد، صحيح].

وأما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئًا، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكًا لحيي بن أخطب، وقد كان قتل قبل غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت. وعندما سأل الرسول ﷺ سعية - عم حيي - عن المسك، قال: «أذهبته الحروب والنفقات»، فقال النبي ﷺ: «**العهد قريب والمال أكثر من ذلك**»، فدفعه النبي ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، فاعترف بأنه رأى حييًا يطوف في خربة هاهنا، فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبي الحقيق، وسبي نساءهم وذراريهم، وقتل محمد بن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دل على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة. [أبو داود، صحيح].

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس ما دام قليلًا [متفق عليه] وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية

من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[الفتح:١٥] [الطبري: التفسير].

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أعطي سهمًا مثل من حضر الغزوة - غزوة الحديبية. [البخاري؛ معلقًا؛ ابن إسحاق؛ أبو داود].

وأعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، أعطاهم من الغنائم. وكانوا ثلاثة وخمسين رجلًا وامرأة، بقيادة جعفر ابن أبي طالب. وتقول الرواية إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم [متفق عليه]. وهم الذين فرح الرسول ﷺ بقدومهم، وقبل جعفر بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أو بقدوم جعفر». [الحاكم، مرسلًا حسنًا؛ أبو داود، مرسلًا حسنًا؛ الطبراني: الكبير، حسن بشواهده كسابقيه].

وربما يرجع سبب استثنائهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب الهجرتين. [عوض الشهري: مرويان غزوة خيبر].

وأعطى الرسول ﷺ أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر. [عبد الرزاق].

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء مسلمات فأعطاهن من الفيء ولم يضرب لهن بسهم. [ابن إسحاق؛ الترمذي، صحيح مقطوع].

وكذلك أعطى من شهدها من العبيد، فقد أعطى عُمَيْرًا، مولى أبي اللحم، شيئًا من الأثاث. [أبو داود].

وأوصى ﷺ من مال خيبر لنفر من الداريين، سماهم ابن إسحاق [ابن هشام].

وكان كفار قريش يتحسسون أخبار الرسول ﷺ مع يهود خيبر، ويسألون الركبان عن نتيجة المعركة، وقد فرحوا عندما خدعهم الحجاج بن عِلَاط السُّلَمِي وقال لهم إن المسلمين قد هزموا شر هزيمة، وإن اليهود أسرت محمدًا، وستأتي به ليقتل بين ظهراني أهل مكة ثأرًا لمن كان أصيب من رجالهم، وما لبثوا قليلًا حتى علموا بأن الأمر خدعة من الحجاج بن علاط ليحرز ماله الذي بمكة ويهاجر مسلمًا. فحزنوا لتلك النتيجة التي كانوا يراهنون على عكسها. [عبد الرزاق، صحيح].

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليصالحوه على النصف من فدك، فقدمت عليه بخيبر، أو بعدما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. [ابن إسحاق: السيرة معلقًا؛ وأبو داود برقم (٣٠١٦)، مرسلًا ضعيفًا، وغيرهما بأسانيد لم تثبت].

وبعد الفراغ من أمر خيبر توجه رسول الله ﷺ نحو وادي القُرى، وحاصرهم، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، ثم بزر آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، ثم قاتلهم حتى أمسوا، وفي الصباح استسلموا، ففتحت عنوة. وأقام فيها ثلاثة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما حدث لأهل فدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان عهد عمر أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام. [الواقدي].

وثبت في الصحيح أن مِدْعَمًا -مولى رسـول الله ﷺ- أصـابه سـهم فقتلـه، وذلـك حين كان يحط رحل رسول الله ﷺ عندما وصلوا وادي القرى. فقال الناس: «هنيئًا لـه بالجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نـارًا**». فجـاء رجـل حين سـمع ذلـك مـن النبي ﷺ بِشِرَاك أو بِشِرَاكَين، فقال: «هذا شيء كنت أصبته»، فقـال رسـول الله ﷺ: «**شراك أو شراكان من نار**». [متفق عليه].

بعض فقه وحكم وعبر ودروس غزوة خيبر:

١- نهى رسول الله ﷺ عن الغَلُول [الأخـذ مـن الغنـائم قبـل قسـمتها]، وأن مـن يموت وهو غالٌّ يدخل النار.

وقد جاء ذلك في خبر الرجل الذي قال عنه الصحابة إنه شهيد، فقال لهم الرسـول ﷺ: «**كلا! إني رأيته في النار في بُرْدَةٍ غَلَّهَا أو عَبَاءَةٍ...**». [مسلم] ولعلماء العقيدة تفصيل في خبر مدعم مع الشملة.

٢- نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحُمُر [الحمير] الإِنْسِيَّة. [البخاري].

٣- نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم البِغَال. [أحمد].

٤- النهي عن أكل كل ذي نَابٍ من السباع وعن أكل كـل ذي مِخْلَب مـن الطـير. [مسلم؛ أبو داود، حسن؛ ابن ماجه، حسن].

٥- النهي عن وطء الحُبَالَى من السبايا حتى يضعن. [ابن الجارود: المنتقى، صحيح].

٦- النهي عن ركوب الجَلَالـة وشرب لبنهـا. [الجلالـة: حيـوان يأكـل العَـذِرَة، [وهـي الغائط]، من الإبل والغنم والدجاج وغيرها حتى يتغير ريحها والنهي عـن أكـل لحمهـا [أبو داود، حسن]. [قال سيد سابق في فقه السنة (٣/ ٢٨٥): «فإن حبست بعيدة عـن العـذرة زمنًـا وعلفت طاهرًا فطاب لحمها وهب اسم الجلالة عنها حلت؛ لأن علة النهي التغير، وقد زالت»].

٧- النهي عن النهبة من الغنيمة قبل قسمتها. [أحمد، صحيح].

٨- وأجرى الله على نبيه بعض المعجزات دليلًا على نبوته وعبرة لمن يعتبر، فإضافة إلى ما ذكرنا من قصة بصقه على عيني علي فصحًّتا، وإخبار ذراع الشاة المسمومة إياه بأنها مسمومة، فقد ثبت أنه نفث ثلاث نفثات في موضع ضربة أصابت ركبة سلمة بن الأكوع يوم خيبر، فما اشتكى بعدها. [البخاري].

٩- وفي خبر الإسهام لأهل السفينة أنه إذا لحق مدد بالجيش بعد انقضاء الحرب، فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاه. [ابن حجر: الفتح؛ ابن القيم: الزاد].

١٠- جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من تمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك، وهو من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين. [ابن القيم: الزاد].

١١- عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض، لأن الرسول ﷺ دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من مالهم.

١٢- خَرْصُ الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعًا، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.

١٣- جواز عقد المهادنة عقدًا جائزًا للإمام فسخه متى شاء.

١٤- جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط ألا يغيِّبوا ولا يكتموا، كما في قصة مسك حيي.

١٥- الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات كما قال النبي ﷺ لكنانة: «**المال كثير والعهد قريب**»، فاستدل بذلك على كذبه في قوله: «أذهبته الحروب والنفقة». وفي المسألة تفصيل واختلاف، مكانه كتب الفقه.

١٦- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، وقد أجلاهم عمر رضي الله عنه بعد موت النبي ﷺ.

١٧- لم يكن عدم أخذ الجزية من يهود خيبر لأنهم ليسوا أهل ذمة، بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد. [نفسه].

١٨- سريان نقض العهد في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساكت والمقر حكم الناقض والمحارب، كما في حالة كنانة وابني ابن الحقيق، على أن يكون الناقضون طائفة لهم شوكة ومنعة، أما إذا كان الناقض واحدًا من طائفة لم يوافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده. [نفسه].

١٩- جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقتها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ نكاح ولا تزويج، وجواز البناء بالأهل في السفر، كما فعل ﷺ بصفية.

٢٠- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب.

٢١- إن من قتل غيره بسُم يقتل مثله قصاصًا، كما قُتِلت اليهودية ببشر بن البراء.

٢٢- جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب، وحل طعامهم، وقبول هديتهم، كما في حادثة الشاة المسمومة.

٣٢- الإمام مخير في الأرض التي تفتح عنوة، إن شاء قسمها، وإن شاء وقفها، وإن شاء قسم البعض ووقف البعض الآخر، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة، فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطرًا من خيبر وترك شطرها الآخر. [الشهري: مرويات خيبر؛ ابن القيم: الزاد؛ ابن حجر: الفتح].

٢٤- جواز قتل الكفار في الأشهر الحرم، والإغارة على من بلغته الدعوة بغير إنذار.

٢٥- قسمة الغنيمة على السهام.

٢٦- أكل الطعام الذي يصاب من المشركين قبل القسمة لمن يحتاج إليه بشرط أن لا يدخره ولا يحوله.





الفصل الخامس عشر
رسائل النبـي ﷺ إلى الملوك والأمراء والزعماء

تمهيد:

أتيحت الفرصة للرسول ﷺ بعد صلح الحديبية لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، لأن الإسلام رسالة عالمية غير محدودة المكان، كما جاء التصريح بذلك في بعض الآيات القرآنية الكريمة، مثل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾[سبأ:٢٨]، و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧]. ولذا كان من البدهي أن يقوم الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم المعاصرين له.

المبحث الأول: كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

روى مسلم - كما سبق ذكره - أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي - أصحمة - ملك الحبشة، الذي أسلم.

وروي أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي غير الذي أسلم وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب، قائلًا: «تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينك أن لا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فآمن ومن كان عنده، وأرسل إلى رسول الله ﷺ بهدية حُلَّة، فقال رسول الله ﷺ: «**اتركوه ما تركوكم**». [ممن رواه النسائي بسند حسن؛ أبو داود؛ أحمد].

وكان الذي حمل الرسالة إلى النجاشي، عمرو بن أمية الضمري. [أسد الغابة؛ ابن هشام؛ ابن سعد].

وذكر الزيلعي [نصب الراية] وغيره عن الواقدي أن الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وذكر البيهقي [الدلائل] رواية أتم من هذه، من حديث ابن إسحاق -معلقًا-. ومن زياداته قوله: «إلى النجاشي الأصحم...»، و: «وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين...»، وهي رواية فيها نظر. وانظر ما قلناه في معرض الحديث عن إسلام النجاشي.

وذكر أبو موسى المديني في التتمة لكتاب ابن منده في الصحابة، بإسناد معلق، أن النجاشي كتب مع ولده كتابًا جوابًا لكتاب النبي ﷺ وأورد نصه، وفيه إقراره بالإسلام، وإن شاء الرسول ﷺ أن يأتيه بالمدينة المنورة لأتاه، وأنه بعث إليه بابنه أَرها بن الأَصْحَم، وأن ابنه خرج في ستين نفسًا من الحبشة فغرقت بهم سفينتهم في البحر. [ابن طولون- إعلام السائلين؛ الزيلعي؛ تاريخ الطبري].

وقد ثبت أن الرسول ﷺ صلى صلاة الغائب عندما أخبره جبريل بوفاة النجاشي، وذلك في العام التاسع الهجري [نصب الراية؛ تاريخ الطبري].

المبحث الثاني: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس: «بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حُذَافَة السَّهْمِي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى. فلما قرأه مزقه، قال الراوي- الزهري-: فحسبت أن ابن المسيب قال: «فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق».

وكتب كسرى إلى بَاذَان عامله باليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره، فبعث باذان قهرمانه [اسمه بابوية، وهو الحاسب، اسم الرجل الآخر خُرُّ خُسْرَة، كما عند الطبري في تاريخه (٢/ ٦٥٥)]ورجلًا آخر، وكتب معهما كتابًا، فقدما المدينة، فدفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام وفرائصهما ترعد، وقال: «ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد». فجاءاه من الغد، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة»، لسبع ساعات مضت منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شِيرَوَيه، فقتله، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأَبناء [اصطلاح يطلق على الفرس الذين كانوا يحكمون اليمن حينها].الذين باليمن. [ابن سعد؛ الطبري؛ مرسلاً].

ويذكر أن كسرى المعني هو إِبْرويز بن هُرْمز [الزرقاني]، ويؤكد بتلر [فتح مصر] أن موت كسرى إِبْرويز حدث في مارس عام ٦٢٨م، مما يجعل وصول الرسالة قبل موته بشهور توكيدًا لرواية الواقدي.

وروى الطبري نص رسالة النبي ﷺ إلى كسرى، وكذلك رواها ابن طولون، وغيرهما، وهو:



«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك».

المبحث الثالث: كتاب النبي ﷺ إلى قيصر

ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قد كتب إلى هرقل مع دِحْيَة بن خَلِيفَة الكَلْبِي يدعوه إلى الإسلام. وذلك في مدة هدنة الحديبية، وهو النص الثاني الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الزعماء، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأَرِيسيين. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران:٦٤]. ولعل في إيراد البخاري ومسلم لنص خطاب الرسول ﷺ إلى قيصر ما يشير إلى ترجيحهما للروايات القائلة بتقدم نزول الآية المذكورة، أي قبل تاريخ إرسال هذه الرسالة، وليس في العام التاسع كما ورد في روايات ضعيفة [دبلوماسية محمد؛ المجتمع المدني].

وعندما قرأ قيصر رسالة النبي ﷺ أرسل يبحث عن بعض المتصلين بالنبي ﷺ، وفضل أن يكونوا من قومه وعشيرته، فعلم بوجود جماعة من التجار فيهم أبو سفيان، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان، فقال: «أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟»، فقال أبو سفيان: «أنا أقربهم نسبًا»، فأدناه منه وقرب أصحابه منه لئلا يستحيوا

أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، **فأخذ يسأله عن جميع أحوال النبي ﷺ** كما في الحديث الطويل المشهور، حديث هرقل مع أبي سفيان، المروي في الصحيحين، واستنتج من أجوبة أبي سفيان أن محمدًا ﷺ نبي، وقال في ختام كلامه مع أبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه».

ثم قال للرسول (دحية الكلبي): «إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، والذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته»، ثم صرفه إلى ضَغَاطِرَ الأُسْقُف صاحب الفتوى عندهم بحجة أنه أعلم الروم بهذا الشأن.

وروى ابن حبان [في صحيحه: موارد الظمآن، بسند صحيح] أن دحية عندما جاء وافى قيصر ببيت المقدس، فرمى بالكتاب على بساطه وتنحى، فلما انتهى قيصر من الكتاب، أخذه، وأمَّن من جاء به فظهر له دحية، فطلب من دحية أن يأتيه في عاصمته، فلما جاءه أمر بأبواب قصره فغلِّقت، ثم أمر مناديًا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمدًا وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسلَّحوا حتى أطافوا به، فقال لرسول رسول الله ﷺ: «قد ترى أني خائف على مملكتي»، ثم أمر مناديه فنادى: «ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما اختبركم لينظر كيف صبركم على دينكم، فارجعوا»، فانصرفوا، وكتب إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ: **«كذب عدو الله، وهو على دين النصرانية»**، وقسم الدنانير.

وفي عدم إسلام قيصر دليل على أنه قد شح بالملك وطلب الرئاسة وآثرهما على الإسلام، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي، فإنه لما أسلم ما زالت عنه الرياسة. [النووي بشرح مسلم].

المبحث الرابع: كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغساني

روى الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب كتابًا إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِرٍ الغساني، مع شُجاع بن وَهْب، وأورد نصه. وقد امتعض الحارث ولم يوافق على الإسلام، وحشد قواته للزحف على المدينة، ولكن هرقل تدخل ودعاه إلى إيلياء (بيت المقدس).

وقد بعث رسول الله ﷺ شجاعًا إليه حين مرجعه من الحديبية، ومن خلال رواية شجاع في قصته معه يظهر أنه كتب إليه في نفس الوقت الذي كتب فيه إلى هرقل مع دحية، لأن شجاعًا عندما جاء إلى الحارث وجد دحية مع القيصر في إيلياء. [ابن سعد؛ ابن هشام].

وتقول رواية شجاع: إن حاجب الحارث - وهو رومي اسمه مُرِي - أسلم عندما أخبره شجاع بالرسول ﷺ والإسلام.

المبحث الخامس: كتاب النبي ﷺ إلى هَوْذَة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة

كتب إليه مع سَلِيطِ بن عمرو العامري، أحد النفر الستة الذين تحركوا في وقت واحد حين مقدم الرسول ﷺ من الحديبية، وعندما قرأ هوذة الرسالة اشترط على النبي ﷺ أن يجعل له بعض الأمر معه، فلم يقبل الرسول ﷺ بذلك، ومات حين منصرف الرسول ﷺ من فتح مكة. [ابن سعد].

المبحث السادس: كتاب النبي ﷺ إلى المُقَوْقِس

بعث الرسول ﷺ كتابه إلى المقوقس - جُرَيج بن مينَا - ملك الإسكندرية وعظيم القبط، مع حاطب بن أبي بلتعة، فقال خيرًا، وقارب الأمر ولم يُسلم، وأهدى إلى النبي ﷺ مارية وأختها سِيرين وقَيسَرَى، فتسرى بمارية القبطية، وهي أم ولده

إبراهيم، ووهب سيرين لحسان بن ثابت، فهي أم ولده عبد الرحمن، وأهداه ألف مثقال ذهب، وبغلة، اسمها دُلْدُل، وجارية أخرى سوداء اسمها بَرِيرَة، وغلامًا خصيًا اسمه مَأبُور، وحمارًا أشهب يقال له يَعْفُور وفرسًا هو اللزاز، وعسلًا وأشياء أخرى.

وعندما جاءت رسالة المقوقس إلى الرسول ﷺ قال: «**ضن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه**». [ابن سعد؛ ابن هشام].

المبحث السابع: كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى العَبْدِي

روى ابن سيد الناس أن النبي ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين، مع أبي العلاء الحضرمي، بعد انصرافه من غزوة الحديبية، ثم قال: ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة، قال: (وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس، بعد موته، فنسخته، فإذا فيه...).

وخلاصة ما ذكره ابن سيد الناس عن كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر ردًا على كتابه الأول إليه، أن المنذر قبل الإسلام ومعه آخرون من أهل البحرين، ولم يورد نص رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر.

وهناك روايات أخرى تشير إلى رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر، ولكنها في رجب سنة تسع هجرية، منصرفه من تبوك. [ابن طولون؛ الزيلعي؛ الأموال].

المبحث الثامن: كتاب النبي ﷺ إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدَى

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان بكتابة إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بُعمان، فأسلما، وصدَّقا، وخلَّيا بين عمرو بن العاص والصدقة، وترك أمر الحكم لهما. [عيون الأثر؛ نصب الراية؛ ابن طولون].



المبحث التاسع: رسائل أخرى متفرقة

٩- وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى أهل دَمَا، وهي قرية من قرى عُمان، وكان عليها رجل من أساورة كسرى، يقال له: بستجان. وروى الكتاب ابن طولون بسنده إلى أبي شـداد، رجل من أهل دما، ونصه:

«من محمد رسول الله إلى أهل عُمان، سلام، أما بعد: فأقروا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأدُّوا الزكاة، وخُطُّوا المساجد، كذا وكذا، وإلا غزوتكم».

١٠- وكتب رسول الله ﷺ إلى رَعِيَّة السُّحَيمي اليمامي الحنفي، فأخذ الكتاب ورقع به دلوه، فبعث إليه الرسول ﷺ سرية فأخذت ماله وأهله. فجاء المدينة نادمًا، فبايع على الإسلام، وأحرز أهله. [الإصابة، مغازي ابن أبي شيبة، من مرسل الشعبي؛ أحمد].

١١- وكتب إلى مسيلمة الكذاب - زعيم اليمامة - يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري [ابن سعد]. فكتب إليه مسيلمة جوابًا عـلى كتابـه، ونصـه «مـن مسـيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد: فإني أُشْرِكْتُ معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض ولكن قريشًا قوم يعتدون. [ابن هشام].

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب، فعندما قرئ عليه قال لهما: «فما تقولان أنتما؟ قالا: «نقول كما قال»، فقال ﷺ: «**أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما**». [أحمد؛ أبو داود، بسند صحيح].

ثم كتب إليه الرسول ﷺ: «بسـم الله الـرحمن الـرحيم، مـن محمـد رسـول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبـع الهـدى، أمـا بعـد: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾[الأعراف:١٢٨] [ابن إسحاق].

ثم كان ما كان من أمر مسيلمة، وفتنته في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقضاء أبي بكر عليهما بعد خسارة فادحة في الأرواح بين الطرفين.

١٢- وكتب الرسول ﷺ كتابًا إلى عظيم بُصرَى وأرسله مع الحارث بن عُمَير الأزدي. فعرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني بمؤتة، فأوثقه رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. [الواقدي].

١٣- وكتب النبي ﷺ إلى بَكْر بن وائل [ابن حبان في صحيحه].

١٤- وكتب إلى بني عمرو من حِمْيَر، يدعوهم إلى الإسلام [ابن سعد].

١٥- وكتب إلى جَبَلَة بن الأَيْهَم، ملك غسان، يدعوه إلى الإسلام [نفسه].

١٦- وبعث رسول الله ﷺ جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ بكتابه إلى ذي الكُلاع ابن نَاكُور وإلى ذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، وأسلمت امرأة ذي الكلاع. [نفسه، وأصله في البخاري].

١٧- وكتب إلى معدي كرب بن أبرهة، وأن له ما أسلم عليه من أرض خولان. [نفسه].

١٨- وكتب إلى أسقف بني الحارث بن كعب وأساقفه نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم. [نفسه].

١٩- وكتب إلى يحنة بن روبة صاحب أيلة. [نفسه].

٢٠- وإلى أبي ظبيان الأزدي من غامد، فأجابه في نفر من قومه بمكة [نفسه].

٢١- وإلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كُلال من حمير. وبعث الكتاب مع عَيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي. [نفسه].

٢٢- وإلى نُفَاثَة بن فَروة الدئلي ملك السَّماوَة. [نفسه].

وكتب إلى غير هؤلاء ممن ذكرهم ابن سعد في طبقاته وغيره من المؤرخين.

المبحث العاشر: فوائد وحكم وعبر في هذا المقطع من السيرة:

١- تؤكد هذه الرسائل على حقيقة معلومة ذكرناها في أول هذا الفصل، وهي أن الإسلام دين عالمي، لذا كان واجب الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة إلى كل من يعرف من الناس وبكل الوسائل المتاحة في ذلك الزمان.

٢- إن رفض بعض الحكام لدعوة الإسلام نابع من حبهم لسلطتهم وتكبرهم وتجبرهم وليس لعدم قناعتهم بالإسلام.

٣- دل اتخاذ الرسول ﷺ خاتمًا من فضة يختم به رسائله على مشروعية اتخاذ الخاتم، كما دل على مشروعية نقش اسم صاحبه عليه. وقد استدل كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع خاتم من فضة في الأصبع التي كان الرسول ﷺ يضع خاتمه فيها، وهي أصبع الخنصر.

٤- إن جعله ﷺ اسم الله أعلى في الخاتم واسمه الأدنى، فيه تعظيم كبير لله ﷻ واسمه تعالى.

٥- إن إقراره ﷺ لمن كتب إليهم بأن يبقوا على ملكهم نابع من سياسته الرشيدة وتدبيره الحسن للأمور.



الفصل السادس عشر
عمرة القضاء

خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة في ذي القعدة من العام السابع الهجري، لأداء العمرة، حسب الشروط التي تمت في صلح وهدنة الحديبية. [ابن إسحاق، دلائل البيهقي من حديث ابن عقبة وعروة؛ والفسوي، بسند حسن، كما ذكر ابن حجر في الفتح].

فقد روى البيهقي [الدلائل، من حديث ابن عقبة عن الزهري]، وابن سعد، أن المسلمين صحبوا معهم أسلحتهم، ووضعوها بِيأْجِج، خارج الحرم، ودخلوا بسلاح الراكب، السيوف، كما هو الشرط.

لقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، منهم الذين شهدوا الحديبية. [ابن حجر: الفتح، عن الحاكم في الإكليل].

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة، كان عبد الله بن رَوَاحَة ينشد بين يديه:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

[الترمذي، حسن غريب]

وعندما أشاعت قريش أن المسلمين ضعفاء بسبب حمى يثرب، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يرملوا ويسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم، وأن يسعوا بين الصفا والمروة مهرولين، ليرى المشركون قوتهم [متفق عليه]. ففعلوا ما أمروا به، فرأتهم قريش وهي مُصْطَفَّة على جبل قُعيقُعان، في مواجهة ما بين الركنين، فتعجبوا من قوتهم [البخاري، أحمد بسند صحيح]، وقالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أَجْلَد من كذا وكذا. [مسلم].



وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أداء مناسك العمرة، أمر جماعة من الصحابة أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يَأْجِج فيقيموا على السلاح ويأتي الآخرون الذين كانوا في حراسة السلاح ليقضوا نسكهم، ففعلوا، ثم دخل ﷺ الكعبة ومكث بها إلى الظهر، ثم أمر بلالًا فأذن على ظهر الكعبة. [ابن سعد].

وعندما انقضت الأيام الثلاثة، جاءت قريش في صباح اليوم الرابع إلى علي رضي الله عنه، فقالوا: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل». فخرج النبي ﷺ [البخاري] ونزل بِسَرف، فأقام بها إلى أن تتامَّ الناس، ثم انصرف إلى المدينة المنورة في ذي الحجة. [نفسه].

وفي هذه العمرة تزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية - أخت أم الفضل زوج عمه العباس - فبنى بها ﷺ بسرف [نفسه]. والراجح أن هذا الزواج كان بعد أن تحلل الرسول ﷺ من إحرامه. [مسلم وغيره].

وكانت ميمونة تحت أبي رِهْم بن عبد العزى، وقيل: تحت أخيه حُوَيطِب، وقيل سَخْبُرة بن رِهْم. [نفسه].

ولما أراد الرسول ﷺ الخروج من مكة، تبعتهم الطفلة عمارة ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فأخذها علي ودفعها لفاطمة، وهي ابنة عمه، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلقي وخُلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [البخاري؛ أبو داود]، وكان هذا القضاء لأن جعفر محرم لها، إذ لا يجمع الرجل بين المرأة وخالتها في الزواج. [الفتح].

وفي هذه القصة من الفقه: أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين.... وفيها حجة لمن قدم الخالة على العمة، وقرابة الأم على قرابة الأب، لأن

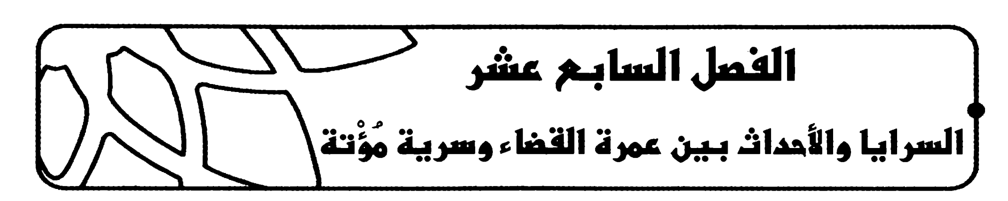


الرسول ﷺ عندما قضى بعمارة لخالتها فقد كانت صفية عمتها موجـودة إذ ذاك، وهـذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وفي الروايـة الثانيـة: إن العمة مقدمة على الخالة، وهو اختيار الشيخ ابن القيم [الزاد].

عرفت هذه العمرة بعدة أسماء، كل واحد منها يشير إلى جـزء منهـا مـن أحـداثها، فكونها عرفت بعمرة القَضَاء أو القَضِيَّة نسبة للمقاضاة التي وقعت بين المسلمين وكفار قريش بنص كتاب صلح وهدنة الحديبية، أو بعمرة القضـاء، لأنهـا كانـت قضـاء عـن العمرة التي تحللوا منها لِما حبسهم من حابس في صـلح الحديبيـة، وعمـرة القصـاص.

[انظر في هذا كله: سيرة مغلطاي].





الفصل السابع عشر
السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وسرية مُؤْتة

المبحث الأول: سرية الأَخْرَم بن أبي العَوْجَاء السُّلَمي

عندما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء، بعث ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارسًا، وكان معهم عين لبني سليم، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فأخبرهم، فجمعوا جمعًا غفيرًا واستعدوا للقاء المسلمين. وعندما جاءهم المسلمون دعوهم إلى الإسلام فرفضوا، وأَحْدَقُوا بالمسلمين، فقتلوا عامتهم، وأصابوا ابن أبي العوجاء، وتركوه جريحًا بين القتلى، ثم تحامل حتى بلغوا المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة. [البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة عن الزهري؛ الواقدي، ابن سعد].

المبحث الثاني: إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

روى أحمد [المسند، حسن] وابن إسحاق [السيرة، حسن]، أن عمرو بن العاص عندما رأى علو شأن الرسول ﷺ تحدث مع من يسمعون له من رجال قريش في أمر محمد ﷺ وأقنعهم بالخروج معه إلى النجاشي، فهو أحب إليهم أن يكونوا عنده من أن يكونوا تحت يدي محمد إذا ظهر، وإن ظهر قومهم فلن يأتيهم منهم إلا الخير لمعرفتهم بهم. وجمعوا جلودًا ليهدوها إلى النجاشي، لأن ذلك أحب ما يهدي إليه من أرض الحجاز. واتفق أن جاؤوا النجاشي وعنده عمرو بن أمية الضمري رسولًا من النبي ﷺ، فعندما خرج من عند النجاشي دخل عليه عمرو وطلب منه أن يعطيه إياه ليقتله لأنه من عدوه، فغضب منه النجاشي وضربه على أنفه، فخاف واعتذر، ثم قذف الله في قلبه الإسلام لما رأى حماسة الناس حتى العجم في الإيمان بمحمد والدفاع عنه. ولم يتردد

عمرو في مبايعة النجاشي على الإسلام عندما اقترح عليه النجاشي ذلك، ثم خرج وكتم إسلامه عن أصحابه وعاد إلى بلاده.

وخرج عمرو بن العاص قُبيل الفتح [الواقدي] عامدًا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ليسلم، فلقيه خالد بن الوليد يريد ما يريد عمرو، فقدما سويًا على الرسول ﷺ، فبايعا على الإسلام.

ومما يؤكد أن إسلام عمرو وخالد كان في التاريخ الذي ذكره ابن إسحاق والواقدي أن اسم خالد ظهر في سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، وأن اسم عمرو ابن العاص ظهر في سرية ذات السلاسل في جمادى الثانية سنة ثمان من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بهما.

أما قصة إسلام خالد فقد رواها الواقدي، وخلاصتها أن خالدًا عندما أراد الله به ما أراد من الخير وقذف في قلبه الإيمان، كان ينصرف بعد كل موطن شهده ضد رسول الله ﷺ ويفكر، فيرى في نفسه أنه في موضع غير موضعه، وأن محمدًا سيظهر، وفي غزوة الحديبية بالذات، تأكد له أن الرسول ﷺ، لأنه عندما هم أن يغير بخيله على رسول الله ﷺ بعسفان، أطلع الله رسوله ﷺ على ما في أنفسهم، فصلى بأصحابه صلاة الخوف، ولم يترك لهم فرصة. وعندما تم الصلح بالحديبية، رأى أنه لم يبق شيء، ففكر في الذهاب إلى النجاشي وهرقل، وبينما هو يقلِّب هذا الأمر في ذهنه، دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، فتغيب، ودخل أخوه الوليد في الإسلام في هذه العمرة، وطلبه فلم يجده، فكتب إليه كتابًا فيه تعجبه من مثله في ذهاب عقله عن الإسلام، وذكر له سؤال الرسول ﷺ عنه وقوله عنه: «ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له ولقدَّمناه على غيره...». فلما جاءه كتاب أخيه نشط للهجرة، وزاده رغبة في الإسلام أنه رأى في المنام كأنه في بلاد ضيقة جدبة، فخرج منها

إلى بلاد خضراء واسعة، فقال: إن هذه لرؤيا، ذكرها لأبي بكر عندما قدم المدينة، فقال: هو مَخْرُجُكَ الذي هداك الله للإسلام والضيق هو الشرك.

وعندما أجمع الهجرة أراد أن يرافقه رجال في مكانته، فاتصل بصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، فرفضا، فتركهما فخرج، وعند خروجه التقى بصديقه عثمان بن أبي طلحة، فذكر له ما يريد، فعلم منه أنه يريد ما يريد، فاتَّعدا بيأجج، وخرجا سَحَرًا والتقيا عند الفجر بيأجج وسارا حتى انتهيا إلى الهَدَّة، فوجدا عمرو بن العاص بها، فتعارفوا، ثم ساروا سويًا إلى المدينة فأسلموا، وكان ذلك في صفر سنة ثمان من الهجرة.

المبحث الثالث: سرية غالب بن عبد الله إلى الكَدِيد

أمره رسول الله ﷺ أن يشن الغارة على بني المُلَوِّح، وهم بالكديد، وفي طريقه إليهم، وفي منطقة قُدَيْد لقوا الحارث بن مالك، وهو ابن البَرْصَاء الليثي، فأخذوه، فأخبرهم أنه في طريقه إلى الرسول ﷺ ليسلم، فلم يطمئنوا إليه، فأوثقوه، واعتذروا إليه بأن رباط ليلة لن يُضِيْرَه، وتركوه مع رجل أسود من أصحابهم، وأوصوه أن يقتله إذا غالبه. وأتوا الكديد عند الغروب، فكمنوا وأرسلوا جُنْدُبَ بن مَكِيث الجهني طَلِيعةً لهم، فأتى تلًّا مشرفا على الحاضر، فرأى رجل من الأعداء أن هناك شيئًا مريبًا فأصابه بسهم فلم يتحرك، حتى لا يكشف أمر أصحابه، ونزع السهم من جسده ووضعه، وفي السحر شنوا الغارة على الأعداء واستاقوا النعم، ومضوا بها، ومروا بابن البرصاء وصاحبه فاحتملوهما معهم، وفي هذه الأثناء استغاث القوم فجاءهم جمع غفير لا قِبل للمسلمين به، فساروا في إثرهم حتى قربوا منهم، ولم يكن بينهم وبين المسلمين إلا وادي قديد، فأرسل الله الوادي بالسيل من غير سحاب ولا مطر، فلم يستطيعوا تجاوزه، ونجا المسلمون منهم [ابن إسحاق، في السيرة، بسند جيد]. وكانت هذه السرية في صفر سنة ثمان من الهجرة، وكانوا بضعة عشر رجلًا. [الواقدي].

المبحث الرابع: دروس وعبر من أحداث هذه السرية

١- إن إرسال الله تعالى الوادي بالسيل ليمنع الأعداء من الإيقاع بالمسلمين كرامة لهم.

٢- وفي خبر إصابة جندب بسهم في جسده ومع ذلك لم يتحرك، لدليل على تفاني المسلمين الأوائل وتحملهم أشد أنواع الأذى في سبيل هذه الدعوة.

٣- إن في خبر ربط المسلمين ابن البرصاء دليلًا على أهمية أخذ الحذر من الأعداء.

٤- وفي إرسال الطلائع للتجسس على أخبار الأعداء دليل على أهمية اتخاذ العيون أخذًا بالأسباب في المحافظة على أرواحهم والإيقاع بالعدو، وأخذه على حين غرة ما دامت قد بلغته الدعوة، وأخذ في تهديد أمن المسلمين.



الفصل الثامن عشر
سرية مُؤْتة

[ومؤتة الآن قرية عامرة بالسكان، شرقي الأردن، على بعد أحد عشر ميلًا جنوب الكرك].

إن من أسباب هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث بكتاب مع الحارث بن عمـير إلى ملك بُصْرَى، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني فقتله صـبرًا، وكانـت الرسل لا تقتـل. فغضـب رسـول الله ﷺ وأرسـل هـذه السـرية إلى مؤتـة [الواقـدي، ابن سعد]، في جمادى الأولى من سنة ثمانٍ الهجرية. [متفق عليه بين أئمة المغازي: ابـن إسـحاق بإسناد مرسل حسن، ابن سعد، عوة، ابن هشام].

وكان عدة هذه السرية ثلاثـة آلاف مقاتـل [ابـن إسـحاق، مرسـلًا حسـنًا؛ مغـازي ابـن أبي شيبة؛ ابن سعد؛ الواقدي] وأمر عليها زيد بن حارثة، ثم قـال: «إن قتـل زيـد فجعفـر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» [البخاري]، وزاد الواقدي وابن سعد: «فإن أصـيب عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فيجعلوه عليهم».

وعندما تهيأ الجيش وتجهزوا للخروج ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وحينها بكى ابن رواحة، فسألوه عن السبب، فقال: «أما والله مـا بي حـب الـدنيا ولا صـبابة بكـم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية مـن كتـاب الله يـذكر فيهـا النـار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم:٧١] فلست أدري كيف لي بالصـدر بعـد الـورود»، فقال المسلمون: «صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم صالحين».

فقال ابن رواحة:

«لكننـي أسـألُ الـرحمنَ مغفـرةً ... وضربـةً ذاتَ فَـرْغ تقـذفُ الزَّبَـدا
أو طعنــةً بيــدي حَـرَّان مجهــزة ... بحربـة تنفـذ الأحشـاء والكَبِـدَا
حتى يقـال إذا مـروا عـلى جَـدَثي ... أرشده اللهُ مـن غـازٍ وقـد رَشِـدا»

[ابن إسحاق، مرسلًا حسنًا]

ثم مضوا حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نـزل مـآب، مـن أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَـيْن وبَهْـرَاء وبَـلِّي مائة ألف، عليهم رجل من بلِّي، يقال له: مالك بن رَافِلة. فلما بلـغ ذلـك المسـلمين أقـاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فشجع ابن رواحة الناس، وقـال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي كرمنـا الله بـه، فـانطلقوا فـإنما هـي إحـدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة». فقال الناس: «قد والله صـدق ابـن رواحـة». فمضـى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيهم جموع هرقل، من الروم والعرب، بقرية مَشَارِف من قرى البلقاء، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قريـة مؤتـة، وعبـؤوا أنفسـهم فيهـا، جعلوا على الميمنة قُطْبَة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عباد بن مالك الأنصاري. ثم التقى الناس واقتتلوا، فاستشهد زيد، وأخذ الراية جعفـر، فـاقتحم عـن فـرس لـه شـقراء، ثـم عقرها، ثم قاتل حتى أكرمه الله بالشهادة، وهو ينشد:

«يـا حَبَّـذَا الجنَّــةُ واقترابهـا ... طيبـــةً وبـــاردًا شرابُهـــا
والـرومُ روم قـد دنـا عَـذابُها ... كـــافرةً بعيـــدةً أنســـابُهَا
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابُها»

[ابن إسحاق، مرة مرسلًا حسنًا، ومرة متصل حسن]

وروى ابن هشام أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينـه فقطعـت، فأخـذه بشـماله فقطعـت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جنـاحين في الجنة يطير بهما حيث شاء. [المجمع، من حديث ابن إسحاق، حسن].

ثم قال ابن هشام: (ويقال إن رجلًا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعـه نصـفين). وقد ذكر الواقدي وابن سعد عـدة روايـات في الحالـة التـي وجـد عليهـا جعفـر بعـد استشهاده. ففي رواية أنه وجد في أحد نصفيه ثلاثون أو بضـعة وثلاثـون جرحًـا، وفي رواية ثالثة أنه وجد في بدنه أكثر من ستين جرحًا وطعنة، قد أنفذته. وثبت في الصحيح [البخاري]، أنه قد وجد في جسده بضع وتسعون من طعنة ورمية.

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] وغيره أنه لما قتل جعفر أخـذ ابـن رواحـة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، ثم تردد بعض التردد، ثم قال مرتجزًا:

«أقسـمتُ يـا نفـسُ لتنزلنَّـه ... لتنـــزلن أو لتكرهنَّـــه
إن أجلـبَ النـاسُ وشـدوا الرَّنَّة ... مـا لي أراك تكـرهين الجنـة
قـد طـال مـا قـد كنـت مطمئنة ... هـل أنـت إلا نطفـةٌ في شَـنَّة

[أجلب: أي صاحوا واجتمعوا؛ والرنة: صوت فيه تـرجيح شـبه البكـاء؛ النطفـة: المـاء القليـل الصافي؛ شنة: القبة القديمة].

وقال أيضًا:

يـا نفـسُ إلّا تُقْـتَلِي تمـوتي ... هـذا حِمـام المـوت قـد صُـلِيْتِ
ومـا تمنيـت فقـد أعطيـت ... إن تفعـلي فعلهـما هُـديتِ

[يعني زيدًا وجعفرًا]

ثم نزل ساحة الوغى. فلما نَزل أتاه ابن عم له بعظم عليه بعض اللحم، وطلب منـه أن يشد به صلبه لما لاقاه من أيامه تلك من الشدة، فلما أخذ من هذا العظم شيئًا يسيرًا، سـمع



الكسرة من ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، فنال الشهادة التي كان يتمناها. وقد ظهر ذلك في موقفه عندما حث النـاس عـلى لقـاء العـدو، على الرغم من كثرته، وعندما ترجم مشاعره في أشعاره التي ذكرنا، وفي قوله لربيبه الـذي كان في حجره ورديفه إلى مؤتة، زيد بن أرقم، الذي سمعه يترنم بأبيات من الشعر، يشتهي فيها الشهادة، فبكى زيد، فخفقه ابن روحة بالدرة، وقال له: «ما عليك يا لُكَع أن يرزقنـي الله شهادة وترجع بين شُعْبَتي الرحل». [ابن إسحاق، ولُكَع: الصغير].

ثم أخذ الراية بعده ثابت بن أَقْرَم، وطلب من المسلمين أن يصـطلحوا عـلى رجـل منهم، فرشحوه، فـرفض، فاصـطلحوا عـلى ابـن الوليـد. فأخـذ الرايـة، وتمكـن مـن الانسحاب. [ابن إسحاق، حسن].

روي أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد، فلما أصبح غـدًا، وقـد جعـل مقدمتـه ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسـرته، وميسـرته ميمنتـه، أنكـر الأعـداء مـا كـانوا يعرفون من رايات وهيئـة المسـلمين، وقـالوا: قـد جـاءهم مـدد، فرعبـوا، فانكشـفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم [الواقـدي]. وانكسرت يومئذ في يد خالد بن الوليـد تسعة أسياف [البخاري]، مما يدل على شدة القتال قبل أن ينسحب من ميدان القتال.

ومما يؤكد مباشرة المسلمين القتال قبل الانسحاب، ما رواه مسلم وغيره من حديث عَوْف بن مالك أن رجلًا من أهل اليمن رافقه في هذه السرية، فقتل روميًا وأخذ سَـلَبَه، فاستكثره خالد، فشكاه اليمني إلى رسول الله ﷺ.

ومما ظهر من معجزات الرسول ﷺ في أمر هذه السرية أنه ﷺ نعـى زيـدًا وجعفـرًا وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم، وعيناه تذرفان الدموع، وأخبرهم بأخذ خالد للرايـة وبشرهم بالفتح على يديه، وسماه يومئذ سيف الله [البخاري]. وحزن رسـول الله ﷺ لمـا وقع لهم [نفسه]. ثم بعد ذلك قدم بخبرهم يَعْلَى بن أمية، ولم يـزد مـا جـاء بـه عـما قالـه

الرسول ﷺ لأصحابه [البداية، من حديث ابن عقبة]. وفي رواية أن عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي ﷺ بمصابهم. [الطبراني].

ومع ضراوة هذه المعركة، وكثرة أعداد جيش العدو، إلا أنه لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلًا [ابن إسحاق، ابن هشام الواقدي] كحد أقصى، أما الأعداء، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن وصف المعركة يدل على كثرتهم.

وكان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله تعالى، ولذا قال الرسول ﷺ: «**ما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا**». [البخاري].

أما ما روى ابن إسحاق [من مرسل عروة] من أن الناس قالوا لجيش مؤتة: «يا فرار، فررتم في سبيل الله...»، فقد قال ابن كثير[البداية] عن هذه الرواية: (وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق، فظن أن هذا الجمهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا، بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين، وهو على المنبر في قوله: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه»، فما كان المسلمون ليسموهم فرارًا بعد ذلك، وإنما تلقوهم إكرامًا وإعظامًا، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هناك، وكان فيهم عبدالله بن عمر رضي الله عنهما).

وساق ابن كثير أدلة على أن جمهور المسلمين لم يفروا، بل فرت مجموعة من المسلمين، من ذلك حديث عبد الله بن عمر عند أحمد [المسند، حسن]، الذي فيه أنه كان ممن فر وخشوا القتل إن هم دخلوا المدينة، فهموا أن يركبوا البحر، ثم أخيرًا قرروا عرض أنفسهم على الرسول ﷺ، واعترفوا بفرارهم، فقال لهم: «لا بل أنتم العكارون، أنا فيئتكم، وأنا فيئة المسلمين»، وفي رواية قال لهم: «لا بل أنتم الكرارون».

وجيء بأبناء جعفر رضي الله عنه، فداعبهم رسول الله ﷺ، وأمر بحلق رؤوسهم، ودعا لهم، وقال لأمهم عندما جاءته تذكر يتمهم: «العَيْلَةَ تخافين عليهم أنا وليهم في الدنيا

والآخرة؟» [أحمد: المسند، صحيح؛ ابن ماجه، حسن]. ولما جاء نعي جعفر، قال رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم». [أحمد: المسند، صحيح].

أحكام وحكم ودروس وعبر من أحداث هذه السرية:

١- إن في تعيين الرسول ﷺ لثلاثة أمراء على جيش سرية مؤتة، لدليل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب. [ابن حجر: الفتح].

٢- في نعي الرسول ﷺ الأمراء الثلاثة قبل مجيء خبرهم، فيه جواز الإعلام بموت الميت ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة. [نفسه].

٣- في تأمير المسلمين لخالد بعد استشهاد الأمراء الثلاثة دليل على جواز الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ. [نفسه].

٤- إن ظهور الحزن على رسول الله ﷺ عندما جاءه خبر استشهاد الأمراء الثلاثة لدليل على ما جعله الله فيه من الرحمة ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء.

ويؤخذ منه ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابرًا راضيًا إذا كان قلبه مطمئنًا، بل قد يقال إن من كان ينزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلًا [نفسه].

٥- أفاد المسلمون دروسًا وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم، حيث تعرفوا على عددهم وعدتهم وخططهم العسكرية وطبيعة أرضهم التي وقع فيها القتال. [العمري: المجتمع].

٦- إن في مواقف الأمراء الثلاثة دليل على مدى قوة الإيمان الذي يحرك الصحابة رضي الله عنهم نحو ميادين الجهاد.

❊ ❊ ❊



الفصل التاسع عشر
أبرز السرايا بين سرية مُؤْتة وغزوة فتح مكة

المبحث الأول: سرية ذات السلاسل

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية كما ذكر ابن سعد، بلغ الرسول ﷺ أن قضاعة بدأت تتجمع مرة أخرى تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «... إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلِّمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: «يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ »، فقال يا عمرو: «نِعم المال الصالح للمرء الصالح» [أحمد: المسند؛ صحيح؛ البخاري: الأدب، صحيح]. ثم بعثه في ثلاثمئة من المهاجرين والأنصار ليقضى عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بَلِّي وعذرة وبَلْقَيْن على ذلك العدو، لأن أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلك استئلاف لهم. وعندما وصل في مسيره إلى ماء بأرض جذام، يقال له السَّلسَل - وبه سميت السرية - بلغه كبر جمعهم، فأرسل رافع بن مَكِيث الجُهَنِي إلى الرسول ﷺ، فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار، عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطاوعا. وعندما أصر عمرو على تولي الإمامة في الصلاة، لم يرد أبو عبيدة أن يخالفه في هذا، امتثالًا لوصية الرسول ﷺ. [ابن إسحاق؛ عروة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

في حديث أحمد [المسند، من مرسل الشعبي] أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين وعمرو بن العاص على الأعراب، وأمرهم بالإغارة على بكر، فانطلق عمرو

فأغار على قضاعة لأن بكرًا أخواله، فأطاعه أبو عبيدة، ولم يخالفه أبو عبيدة في ذلك لأنه لم يرد الخلاف. ويستبعد هذا التعليل الذي ساقه الشعبي.

وسار عمرو بالناس حتى وطئ بلاد بَلِّي ودوخها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عُذْرَة وبَلْقِين، ولقي في آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا، فعاد بعد هذا إلى المدينة. [ابن سعد، الواقدي].

وفي طريق العودة احتلم عمرو في ليلة باردة فتيمم ولم يغتسل غسله للجنابة، خشية البرد، مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[النساء:٢٩]. ثم صلى بالناس، وقد أقر الرسول ﷺ هذا الاجتهاد منه. [أبو داود، صحيح؛ البيهقي: الدلائل والسنن، بسند قوي؛ البخاري، معلقًا].

وعندما أصابهم برد أمرهم عمرو بألَّا يوقدوا نارًا ولا يتبعوا العدو، واعترض بعض المسلمين على ذلك، وعندما شكوه إلى رسول الله ﷺ [ابن عساكر؛ ابن حبان في صحيحه] قال عمرو: «كان في أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلَّتهم عندما يوقدون النار، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين»، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ.

فوائد فقهية في أحداث هذه السرية:

١- إن في خبر تأمير عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه دليلًا على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول على الفاضل بصفة تتعلق بتلك الإمارة أو الولاية [ابن حجر: الفتح]. فعمرو خبير حرب.

٢- وفي حديث تيمم عمرو جواز التيمم لمن يتوقع الهلاك من استعمال الماء البارد.

٣- وفيه جواز صلاة المتيمم بالمتوضئين.

٤- جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ كما في خبر تيمم عمرو وصلاته وهو جنب. [زاد المعاد].

المبحث الثاني: سرية أبي قتادة إلى بَطْن إضَم

[بين ذي خشب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد]

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضم فيها أبو قتادة ومُحَلِّم بن جَثَّامَة بن قيس، حتى إذا كانوا ببطن إضم مر بهم عامر بن الأَضْبَط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينهما، وأخذ بعيره ومتاعه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾[النساء:٩٤] [ابن إسحاق، حسن]. وقيل إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك وهم بحنين. [ابن إسحاق، حسن].

وقالوا إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه فلفظته الأرض مرتين فما كان من قومه إلا أن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال الرسول ﷺ عندما بلغه ذلك: «**والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه**». [الطبري: التفسير، حسن لغيره].

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري أنها نزلت في مسلمين مر بهم رجل في غُنَيْمَتِهِ، وألقى إليهم السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد [المسند، صحيح]، والترمذي [حسن]، والحاكم [حسن].

وروى البزار [في البداية] بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت في المقداد بن الأسود، عندما بعث في سرية وتفرق العدو وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله

المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «**كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل**».

ويبدو من هذه التفاسير أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد. [تفسير ابن كثير].

وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة. [ابن إسحاق؛ حسن؛ ابن سعد، الواقدي].

وذكر الواقدي عن سبب بعث هذه السرية أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية إلى بطن إضم، ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار.

فائدة ودروس في هذه السرية:

١ - إن في قول رسول الله ﷺ للمقداد: «**كذلك كنت تخفي إيمانك قبل**» لفتة كريمة إلى أنه لا ينبغي للإنسان إذا اجتمعت له أسباب القوة أن ينسى أيام ضعفه، فإنه إن فعل استبد به الغرور، وملكه الأشر والبطر. [حاشية محققي تفسير ابن كثير].



الفصل العشرون
غزوة فتح مكة

كان من ضمن شروط صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلًا بماء يقال له (الوَتير)، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فأعانوهم على خزاعة بالكُراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ. فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأنشد أبياتًا من الشعر أمام رسول الله ﷺ يستنصره، فقال رسول الله ﷺ: **«نصرت يا عمرو ابن سالم»**. فما برح حتى مرت بهم سحابة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»**. [ابن إسحاق، حسن لذاته].

ويذكر ابن إسحاق أن بني بكر لم يتركوا مطاردة خزاعة وقتلهم حتى داخل الحرم، وبلغ عدد قتلى خزاعة عشرين رجلًا. [الواقدي].

وذكر موسى بن عقبة [في البداية] أن الذين أعانوا بني بكر على خزاعة من أشراف قريش: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإغاثة كانت بالسلاح والرقيق.

وفي رواية لابن حجر في المطالب العالية وأخرى في الفتح إشارة إلى رسول الله ﷺ أرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بني بكر أو الحرب، فاختارت قريش الحرب.



ولأن هذا التصرف من قريش يعد نقضًا لمعاهدة وصلح الحديبية، فقد ندمت قريش على فعلتها، ولذا عندما انصرف ضمرة، أرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد المعاهدة [ابن حجر: الفتح، من حديث ابن عائذ]. والمشهور أن قريشًا عندما خافت من نتائج فعلتها، كانت هي التي بادرت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، وعندما جاء إلى المدينة لم يتصل بالرسول ﷺ مباشرة، بل ذهب إلى أبي بكر ثم عمر ثم فاطمة ثم علي فردوه جميعًا، وأغلظ عليه عمر فعاد إلى مكة خائبًا [ابن إسحاق، حسن]. ونص قول عمر رضي الله عنه: «أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به» [البيهقي، الدلائل، حسن]. وفي رواية الواقدي: «والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم، قال أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شرًا». [والذر: صغار النمل].

وكان أبو سفيان عندما قدم إلى المدينة، دخل على ابنته أم حبيبة، زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: «يا بُنَيَّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ». قال: «والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر». ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا. [ابن إسحاق، حسن].

وأمر رسول الله ﷺ أهله بالجهاز، ولم يسم لهم الجهة التي يقصدها، ثم أعلمهم بعد ذلك أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**»، فتجهز الناس، وقال حسان في ذلك شعرًا يحرض الناس ويذكر مصاب خزاعة. [ابن إسحاق، حسن].

واستنفر الرسول ﷺ القبائل التي حول المدينة: سُلَيمًا وأشجع ومزينة وأسلم وغفارًا. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق إلى مكة، حتى بلغ جيش

المسلمين عشرة آلاف مقاتل [البخاري، ابن إسحاق حسن]، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار. [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ ما حشدته مزينة من رجالها ألف مقاتل، وسليم كذلك ألفًا أو سبعمائة [نفسه].

ولما تهيأ الرسول ﷺ إلى الخروج، أرسل حاطب بن أبي بلتعة البدري كتابًا مع امرأة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فبعث النبي ﷺ عليًا والزبير والمقداد في أثرها، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خَاخ فإن بها ظَعِيْنَة معها كتاب فخذوه منها**». وعندما أدركوها في المكان المشار إليه، طلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت وجوده معها، فقالوا لها: «لَتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لنلقين بالثياب»، فأخرجته من عِقَاصِها [ضفائر شعرها]. فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب، فقال له: يا حاطب، ما هذا؟»، قال: «يا رسول الله، **لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا مُلْصَقًا في قريش حليفًا، ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين ممن لهم قرابات يحمون أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قَرَابتي**، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام». فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه قد صَدَقَكُم**»، فقال عمر: «يا رسول الله، **دعني أضرب عنق هذا المنافق**»، فقال النبي ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، فأنزل الله الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١] [متفق عليه]، وفي رواية: فدمعت عينا عمر، وقال: «الله ورسوله أعلم». [البخاري].

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى مكة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وكانوا صيامًا، حتى بلغوا كُدَيْدًا، فأفطر، وأفطر الناس. [متفق عليه].

والذي اتفق عليه أهل السير والمغازي أنه خـرج في عـاشر رمضـان، ودخـل مكـة لتسع عشرة ليلة خلت منه [ابن إسحاق، حسن].

واختلفوا في تاريخ الفتح ما بين ثنتي عشرة وثلاث عشرة وست عشرة وسبع عشرة وثمان عشرة وتسع عشرة، من رمضان، واتفقوا على أنه في رمضان سنة ثمان، كما جاءت بذلك الروايات عند مسلم. [مسلم؛ ابن سعد].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رُهْم، كُلثوم بن حصين بن عتبة بن خلـف الغفاري. [ابن إسحاق، حسن].

وقبل دخول الرسول ﷺ مكة جاءه بعض زعماء قريش فـأعلنوا إسـلامهم، مـنهم ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو الرسول ﷺ مـن الرضـاعة، وقـد جاءه بالأبواء، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وقد جاءه بين السقيا والعَرْج. وكانا من ألد خصوم الإسلام خاصة أبو سفيان الذي ظل على مدى عشرين سنة يهجو المسـلمين ويقاتلهم في كافة الحروب، ولكنه عندما أسلم كانت له مواقف بطولية في الـدفاع عـن الرسول ﷺ، لا سيما موقفه يوم حنين، حين فر الناس، فصمد مع الرسول ﷺ صمودًا مشهودًا [ابن إسحاق، حسن]، وسيأتي خبر ذلك في مكانه. أما عبد الله بن أمية، أخـو أم المـؤمنين أم سـلمة رضي الله عنها لأبيهـا، فقـد دافـع عـن الإسـلام بقـوة واستشـهد في حصار الطائف. [الاستيعاب].

ولقيه ببعض الطريق عمه العباس [ابن إسحاق، حسن]، وذكـر ابـن هشـام أن ذلـك كان بالجُحْفَة، وهو مهاجر بعياله إلى المدينة.

وقيل إن العباس أسلم قبل بدر [ابن سعد]، بل قيل قبل الهجـرة إلى المدينـة [نفسـه]. قال ابن حجر [في الفتح]: (وكان إسلامه على المشهور قبل فـتح مكـة - يعنـي حـين سـار

الرسول ﷺ إلى مكة فاتحًا -، وقيل قبل ذلك، وليس ببعيـد، فـإن حـديث أنـس في قصـة الحجاج بن علاط ما يؤيد ذلك). ففي القصة أن العباس عندما سمع برواية الحجـاج عـن انهزام المسلمين يوم خيبر واستباحتهم وأسر الرسول ﷺ، قعد ولم يستطع القيام من هـول الخبر على نفسه، وأخذ ابنًا له يشبه الرسول ﷺ يقال له قَثَم، فاستلقى ووضعه على صدره، وهو يقول: «حبي قثم شبيه ذي الأنف الأشم، نبي رب ذي النعم، برغم أنف من رغـم». وأرسل غلامًا له إلى الحجاج بن علاط يستعلمه الخبر، فطمـأن الحجـاج الغـلام. وعنـدما جاء الغلام وبشر العباس، وثب فرحًا، حتى قبل بين عينيه. وعندما أخبره بما قال الحجاج أعتقه، وعندما جاء المسلمون أخبرهم الخبر، وسروا بـذلك سرورًا عظـيمًا وزالـت عـنهم الكآبة [عبد الرزاق؛ أحمد؛ ابن حبان؛ البزار؛ النسائي، وأسانيدهم صحيحة].

وقد جزم ابن عبـد الـبر [في الاستيعاب] بإسـلامه قبـل خيـبر، اسـتنادًا إلى حـديث الحجاج بن علاط هذا.

ويقول ابن حجر [في الفتح] في ترجيحه إسلام العباس قبل فتح مكة (....وأما قـول أبي رافع في قصة بدر: كان الإسلام دخل علينا أهل البيت فلا يدل على إسلام العبـاس حينئذ، فإنه كان ممن أسر يوم بدر ففدى نفسه وعقيلًا ابن أخيه أبي طالب، ولأجل أنه لم يهاجر قبل الفتح لم يدخله عمر في أهل الشورى مع معرفته بفضله واستسقائه به...).

والذي أرجحه هو ما ذهب إليه ابن عبد البر أن العباس أسلم قبل فـتح خيـبر، وكـان يكتم إسلامه بأمر الرسول ﷺ لمصلحة الدعوة وخاصة تزويد الرسول ﷺ بأخبار قريش.

تجمعت جيوش المسلمين بمَر الظَهران - مكان بين مكة والمدينة - ولم تكن الأنبـاء قد وصلت قريشًا بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرًا بسبب فشـل سـفارة أبي سـفيان إلى المدينة حين أعانوا بني بكر على خزاعة، فأرسلوا أبا سفيان وحَكـيم بـن حِـزام وبُـدَيل

ابن وَرْقَاء ليتحسسوا الأخبار عن الرسول ﷺ، فالتقى بهم العباس راكبًا بغلة الرسـول ﷺ وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولًا يطلب مـنهم أن يخرجـوا لمصـالحة الرسـول ﷺ، قبل أن يدخل عليهم مكة، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون في أمر الجيش المعسكر بمـر الظهران وكثرة نيرانه، وقد ظن بديل أنها خزاعة، وعارضه أبو سفيان في هذا، فأخبرهم العباس بأنه جيش المسلمين، فوافقه، وأردفه على البغلة، ولما رآه عمر أراد قتله، ولكـن الرسول ﷺ صرفه عن هذا، وعندما أدخل العباس أبا سفيان على الرسـول ﷺ، أخـذ يدعوه إلى الإِسلام شطرًا كبيرًا من تلك الليلة، فألان القول وتردد، فطلب الرسول ﷺ من العباس أن يأخذه معه إلى خيمته، ويأتي به في صباح اليوم التالي.

وفي الصباح قبل أبو سفيان الإسلام بعد تردد، وطلب العباس من الرسـول ﷺ أن يجعل لأبي سفيان شيئًا، لأنه يحب الفخر، فوافق، وقال في إعلانه لأهل مكة: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.....»**.

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الجبل حتى تمر بـه جنـود الله فيراها، ففعل، حيث أوقفه على عدة وعدد المسلمين عندما كانـت تمـر بهـما كتائـب المسلمين بمر الظهران، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار، وفـيهم رسـول الله ﷺ، قال أبو سفيان للعباس: «والله لقد أصبح ملك ابـن أخيـك اليـوم عظـيمًا»، فقـال العباس: «ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة»، قال أبو سفيان: «فنعم إذًا».

وعندما رأى أبو سفيان ما رأى، جاء إلى قومه وصرخ فيهم محذرًا لهـم بـأن لا قبـل لهم بما جاء به محمد، وقال لهم ما قاله الرسول ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهـو آمـن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق النـاس إلى دورهـم وإلى المسجد. [ابن راهويه: المطالب العالية، صحيح؛ ابن إسحاق، حسن].

أما بديل وحكيم، رفيقا أبي سفيان، فقد أسلما بمجرد دخولهما على رسـول الله ﷺ. [ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان، قال سعد بن عبادة، حامل رايتهم: «اليـوم يوم الملحمة اليوم تُستحل الكعبة» [البخاري]، فاحتج أبو سفيان على هذا القـول، فقـال له الرسول ﷺ: **«كذب سعد - أي: أخطأ - ولكن هذا يوم يعظم فيه الله الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة»**. وأخذ الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدًا طلب منـه أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يُقدم على شيء يكرهه، فصـرفه عـن ذلك [ابن حجر في الفتح ومختصر روائد البزار، بسند صحيح]، وقيل: إنه دفع الراية إلى الـزبير بن العوام، فدخل الزبير مكة بلوائين [ابن حجر: المطالب؛ المجمع]، وجزم موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري بأنه دفعها إلى الزبير. [ابن حجر: الفتح، البداية].

لقد ذكـر الواقـدي تفصـيلًا دقيقًـا لتوزيـع الرايـات والألويـة عـلى قـادة الجـيش الإسلامي، وأسماء الرسل الذين أوفـدهم النبـي ﷺ لاسـتنفار القبائـل، وعـدد أفـراد الجيش الإسلامي وعدة كل قبيلة. وقد ثبت أن الرسول ﷺ عندما وصل مـر الظهـران عين القادة وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان ابن الوليد على المجنبة اليمنـى والزبير على المجنبة اليسرى وأبو عبيدة على الرجالة [مسلم]. وكانت رايـة الرسـول ﷺ سوداء ولواؤه أبيض. [ابن ماجه، حسن، أبو داود، حسن].

وقد جمعت قريش جموعًا من قبائل شتى ومن أتباعها لحرب المسلمين، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سـئلنا. فـأمر رسـول الله ﷺ بقتالهم، وسارت جيوشه حتى انتهت إلى الصـفا، مـا يعـرض لهـم أحـد إلا قتلـوه [مسلم]. وقاد هذا الجمع صفوان بن أمية وعكرمة بـن أبي جهـل وسـهيل بـن عمـرو، واختاروا الخَنْدَمَة ليقاتلوا فيها [ابن إسحاق، مرسلًا حسنًا؛ والخندمة: اسم جبل بمكة].



ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها من جهة كَدَاءٍ [البخاري] خاشـعًا شـاكرًا يقـرأ سورة الفتح ويرجع في قراءتها وهو عـلى راحلتـه [البخـاري]، ودخـل ابـن الوليـد مـن أسفلها [الفتح]. والتحم خالد عند الخَنْدَمَة مع بعـض المشــركين فاستشـهد اثنـان مـن فرسان المسلمين [البخاري]، وقيل: ثلاثة [ابن إسـحاق، مرسـلًا حسـنًا]، وقيـل: قتـل مـن المشركين اثنا عشر رجلًا أو ثلاثة عشــر رجـلًا - بالشـك [مسـلم]، وقيـل قريـب مـن عشرين رجلًا، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة [البيهقي: السنن الكبرى، مـن مرسـل ابـن عقبـة]، وقيل أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل [الواقدي؛ ابن سـعد]، وقيـل سـبعون قتيلًا [الطبراني، حسن لغيره]. ومن القرائن التي ترجح رواية موسى بـن عقبـة - باعتبـار أنه من رجال الجماعة وأوثق من ابن إسحاق وابن سعد والواقدي - قـول أبي سـفيان: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم». [مسلم].

والظاهر من الأحاديث أن هذا القتل الذي حدث لم يكن ليحـدث لـو احـترم كـل المشركين الأمان الذي أعلنه الرسول ﷺ لأهل مكة، ذلك الأمان الذي فســره بعـض الأنصار، بأنه رغبـة النبـي ﷺ في قريتـه ورأفـة بعشـيرته، فـأخبره الـوحي بـما قـالوا، فخاطبهم قائلًا: «**كلَّا، إني عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإلـيكم، والمحيـا محيـاكم والمات مماتكم**»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله! ما قلنا الـذي قلنـا إلا الظَـنَّ بـالله وبرسوله، فقال لهم: «إن اللهَ ورسولَه يُصَدِّقَانِكُم ويَعْذِرَانِكُم»، فأقبل بعـض النـاس إلى دار أبي سفيان والبعض الآخر أغلقوا عليهم أبوابهم. [مسلم].

لقد استثنى الرسول ﷺ من ذلك الإِعلان أربعة رجـال وامـرأتين إذ أعلـن إهـدار دمائهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، والرجال هم: عكرمة بن أبي جهل [الواقدي]، وعبد الله بن خَطَل، [كان مسلمًا، فأرسله الرسول ﷺ مع أحد الأنصار مصدقًا، وكان معهما مـولى له مسلم يخدمه، فعدا على مولاه فقتله؛ لأنه لم يصنع له طعامًا، ثم ارتد مشركًا، ابن إسـحاق، معلقًـا، وكان يهجو رسول الله ﷺ بالشعر، ابن حجر: الفـتح)] ومِقْيَس بن صُـبَابَة [قَتَـلَ أنصـاريٌ أخـاه

خطأ يوم المريسيع، فأُعْطِيَ الدية، ثم عدا على الأنصاري فقتله وهرب إلى مكة مرتدًا، ابـن إسـحاق، معلقًـا، والبـزار في الكشـف، والطـبراني في الأوسـط، وعبـد الـرزاق، وابـن أبي شـيبة في المصـنف؛ والنسائي والحديث حسن لغيره]، **وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح** [كان قد أسلم وكتب الوحي، ثم ارتد: ابن سـعد، والطـبراني في الأوسـط، وعبـد الـرزاق في المصـنف والنسـائي: انظـر: الحاشـية السابقة، وفيها بقية المعلومات، وابن إسحاق، معلقًا، وأبو داود، والحديث حسنًا لغيره.]، **وقد قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة** [متفق عليه]، **وقتل مقيس في سوق مكـة، واختفـى عكرمة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، حتى ضمنا الأمان مـن الرسـول ﷺ، فجـاءا مسلمين وحقنا دمهما** [النسائي؛ حسن لغيره]. **والمرأتان هما: فَرْتَنَى وسـارة وقيـل فَرْتَنَـى وأخرى كانتا جارتين لابن خطل** [ابن إسحاق، حسن لغيره]، **وأن سارة كانت لعكرمة بن أبي جهل** [ابن إسحاق]. **وأما قينتا ابن خطل فقتلـت إحـداهما وهربـت الأخـرى حتـى استؤمن لها، فأمَّنها رسـول الله ﷺ. وأمـا سـارة فكـذلك هربـت حتـى اسـتؤمن لهـا، وعاشت إلى زمان عمر فوطئها رجل بفرس فقتلها.** [الفتح؛ ابن إسحاق، ابن هشام].

ويذكر ابن حجر أن عدد الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم تسعة من الرجال وست أو ثمانٍ من النساء، وذلك للاختلاف في القينتين، إذ يحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان. وممن ذكرهم من غير ما ذكرنا: الحُوَيْرِث بن نُقَيْذ، نخس بعير ابنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، يوم هجرتهما، فرمى بهما إلى الأرض فقتله علي، وهَبَّار بن الأسود الذي عَرَضَ لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بعيرهـا حتـى سـقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر يوم فتح مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه، والحـارث ابن طَلاطِل الخزاعي، فقتله علي، وكعب بن زهير، وقد جاء بعد ذلك وأسلم، ووحشي ابن حرب، قاتل حمزة، هرب إلى الطـائف، ثـم جـاء في وفـد ثقيـف، وأسـلم وحسـن إسلامه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد أسلمت.

وذكر الواقدي أن الرسول ﷺ أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة وهبار وابن سعد ومقيس والحويرث وابن خطل وهند بنت عتبة وسارة مولاة عمرو بن هشام وقينتين لابن خطل.

وسبب إهدار النبي ﷺ دم هؤلاء كما هو واضح من سيرتهم، ما ألحقوه من أذى شديد وتنكيل بالمسلمين، وكان في إهدار دمهم عبرة للطغاة والمستهزئين بأرواح الأبرياء في كل زمان ومكان.

أحل الرسول ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر، وذلك لما كان منهم بالوتير. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بني بكر، وَبَيَّنَ حرمة مكة، وعندما قتلت خزاعة رجلًا من بني بكر في اليوم التالي بمزدلفة غضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، ودفع دية البكرى، وقال: إن من يقتل بعد ذلك قتيلًا فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية. [أحمد، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وذكر ابن إسحاق تفاصيل مقتل هذا البكري، واسمه ابن الأشوع الهذلي، وقتله خِراش بن أمية، ولقتله أحد فرسان خزاعة، واسمه أحمر.

وأعلن الرسول ﷺ العفو عن عامة أهل مكة، عندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فقال لهم: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**» فقالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم». فقال: «**لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم**» [الأموال، مرسلًا حسنًا؛ ابن إسحاق، يتقوى بغيره]. وفي رواية، أنه قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [ابن إسحاق]، ولذا عرفوا في التاريخ بـ(الطلقاء).

وكان هذا الموقف من الرسول ﷺ لما نزل من القرآن: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦]، وقال: «نصبر



ولا نعاقب»، مختارًا العفو والصبر، تَفَضُّلًا واحتسابًا. [أحمد، حسن؛ الترمذي، حسن صحيح؛ الحاكم، صحيح].

وبيّن الرسول ﷺ للناس حرمة مكة وأنها لا تُغْزَى بعد الفتح، وأعلى من مكانة قريش، وأمر ألا يقتل قرشي صبرًا بعد يوم الفتح إلى يوم القيامة. [مسلم؛ أحمد، حسن].

واستثنى الرسول ﷺ مكة من معاملة البلاد التي تفتح عَنْوَة، وذلك لقدسيتها، فحرم القتل أو السبي فيها، وأبقى الأموال الثابتة والمنقولة في أيدي أصحابها، ولم يفرض عليها خراجًا، ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها، يسكن أهلها فيما يحتاجون إليه من دورها، وما زاد عن حاجتهم فهو لسكنى الحجاج والمعتمرين والقاصدين المسجد الحرام، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضيها وإجارة منازلها، واستدلوا في ذلك بآثار قوية، بينما أدلة المانعين لذلك آثار مرسلة وموقوفة. [الزاد].

ونزل رسول الله ﷺ بقبة ضربت له بِالحَجُون، في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وهو خَيْف بني كِنَانَة، ويعرف بالمُحَصَّب، لأن داره قد أخذها عقيل بن أبي طالب، وهو لا يرثه لأنه كافر [متفق عليه]، ولم يرث علي وجعفر شيئًا من الدور، لأنهما مسلمان، وقد مات أبوهما كافرًا. إضافة إلى أن عقيلًا وطالبًا باعا كل الدور. [البخاري].

وأمر الرسول ﷺ بتطهير البيت الحرام بإزالة الأصنام عنه، وشارك بيده في تكسيرها، وهو يقرأ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[سبأ:٤٩] و﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[الإسراء:٨١] [متفق عليه]، وكان عددها ستين وثلاثمئة [متفق عليه]. وكان بداخل الكعبة صُوَرٌ لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم يستقسمون بالأزلام، فلطخت بالزعفران، ولم يدخل الكعبة إلا بعد إخراجها منها وقال: «قاتلهم



الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام» [البخاري، أحمد، صحيح]، وفي رواية قال: «هذا إبراهيم مصور، فما له يستقسم؟ [البخاري]، وفي رواية أن صورة مريم أيضًا كانت داخل الكعبة [نفسه]. ووجد حمامة من عيدان فكسرها، ورمى بها خارج الكعبة [ابن إسحاق، حسن]. وعندما طهرت الكعبة دخلها وصلى بها ركعتين [البخاري]، ثم خرج فأعطى مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، وأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية [عبد الرزاق، الفتح، والأسانيد تعتضد]. ثم استلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت من غير إحرام، وكان على رأسه المغفر يوم دخل مكة، ثم لبس عمامة سوداء [متفق عليه]. وكان يستلم الركن بمحجنه [متفق عليه]، كراهة أن يزاحم الناس في طوافهم، وتعليمًا للأمة الإسلامية.

وأمر بلالًا أن يؤذن، فعلا بلال على ظهر الكعبة فأذن عليها، فقال بعض بني سعيد ابن العاص: «لقد أكرم الله سعيدًا إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة» [الذهبي: المغازي؛ البيهقي: الدلائل، صحيح]. وقال بعض زعماء قريش بنحو هذا. [الواقدي؛ ابن هشام].

وعندما تم تطهير البيت الحرام من الأصنام أرسل الرسول ﷺ بعوثًا إلى مناطق مختلفة لإزالة أكبر الأصنام التي بها. فقد أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين رجلًا إلى بطن نخلة من ديار ثقيف لهدم العزى، صنم مضر وقريش وكنانة، فهدمها [ابن إسحاق، ابن سعد، الواقدي]. وكان ذلك لخمس ليال بقين من رمضان [ابن سعد، الواقدي]. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا إلى صنم مناة بالمُشَلَّل من ناحية قديد - وهو القديدية الآن - وهو صنم يعظمه العرب وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم، فهدمها [ابن سعد]، وذلك لست بقين من رمضان [نفسه]. وأرسل عمرو

ابن العاص إلى سُواَع، صنم هُذَيل، فهدمها [نفسه]. وهذه الأصنام هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[النجم: ١٩-٢٠].

واجتمع الناس لمبايعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. واجتمع إليه نساء قريش فيهن هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة ﵁ يوم أحد، فلما دنون منه ليبايعنه، قال رسول الله ﷺ: «تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئًا، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما أخذته على الرجال سنؤتيكه، قال: ولا تسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلًّا لي أم لا؟ فقال أبو سفيان وكان شاهدًا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال ﷺ: وإنك لهند بنت عتبة؟، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: ولا تزنين، قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر من قولها حتى اسْتَغْرَب [استلقى على قفاه - السبل]، قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينني في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن، واستغفرِ لهن رسول الله ﷺ، فبايعهن عمر. وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه، إلا امرأة أحلها الله له».
[الطبري: التاريخ من بلاغات قتادة السدوسي؛ ابن سعد، بسند صحيح من مرسل الشعبي وميمون بن مهران - كما قال ابن حجر في الإصابة، ترجمة هند بنت عتبة - وقالت بالمعنى أختها فاطمة بنت عتبة، كما روى ذلك الحاكم (٢/ ٤٨٦)، بسند صححه ووافقه الذهبي].

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ كان يبايع النساء بالكلام، بالآية: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[الممتحنة:١٢]، وما مست يده يد امرأة أجنبية. [متفق عليه].

ذكرنا في فصل الشمائل، مبحث: (تواضعه ﷺ) حديث البخاري الذي فيه: «وكانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»، قول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: (والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف)، وقوله: (والمقصود من الأخذ باليد هو الرفق والانقياد).

وروي في غير الصحيحين قوله ﷺ: «**إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة**» [أحمد؛ الترمذي؛ النسائي؛ ابن ماجه، الموطأ، صحيح].

وكان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش. فقد روى البخاري، من حديث عمرو بن سَلَمَة الجَرْمي، قوله: «وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامِهِمْ الفَتْحَ، فيقولون: اتركوه وَقَوْمَهُ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم...». وكانت هذه النظرة لقريش لأنها كانت زعيمة العرب وحامية البيت وصريح ولد إسماعيل وناصبة الحرب لرسول ﷺ فلما افتتحت مكة، ودانت قريش لرسول الله ﷺ ودوخها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجًا، كما قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[النصر:١-٣] [ابن إسحاق].

وخطب الرسول ﷺ أثناء إقامته بمكة عدة خطب، بيّن فيها أمورًا وأحكامًا مختلفة، ففي الخطبة الأولى، التي كانت على باب الكعبة، بيّن دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها، واستثنى من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت. [أحمد، حسن؛ أبو داود، صحيح].

وأعلن في الخطبة الثانية: «ألا إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة. والمؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، يرد سراياهم على قعيدتهم. لا يقتل مؤمن بكافر. دية الكافر نصف دية المسلم. لا جلب ولا خبب ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم» [مسلم؛ أحمد صحيح الترمذي، صحيح]. [والجلب: أن يأتي الرجل بمن يصيح على فرسه ويزجره حثًا له على الجري حتى يسبق، والخبب: أن يسابق الرجل على فرسين يركب الأول فإذا فتر تحول إلى الثاني].

وأعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة، وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولُقَطَتُها وتحريم القتال فيها، وقال إن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار، وهو وقت الفتح [متفق عليه]. وقال: لا هجرة بعد الفتح، ويبقى الجهاد والنية، ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة. [متفق عليه].

وبين في الخطبة الرابعة أن من قتل له قتيل فهو بخير النظيرين، إما أن يودى وإما أن يقاد. [متفق عليه].

ومما يروى من أحداث الفتح أن أبا بكر جاء بأبيه إلى رسول الله ﷺ ورأسه ولحيته كالثَّغَامة [شجرة بيضاء الثمر والزهر، ينبت غالبًا بالجبال] بياضًا، فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما وجنبوه السواد». [مسلم؛ أحمد، وغيرهما].

الأحكام والدروس والعظات والعبر المستفادة من غزوة الفتح:

١- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، فقد أفطر الرسول ﷺ عندما بلغ كديدًا، كما ذكرنا.

٢- صلى النبي ﷺ صلاة الضحى ثمان ركعات خفيفات [متفق عليه]، فاستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة. [البخاري].

٣- إن أحق المصلين بالإمامة أكثرهم حفظًا للقرآن، كما في حديث عمرو بن سلمة. [البخاري].

٤- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة. [متفق عليه].

٥- إقرار أمان وجواز النساء، حيث أمضى الرسول ﷺ جوار أم هانئ لرجلين من أحمائها. [متفق عليه].

٦- تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام [مسلم]. ويرى النووي أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالًا قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم [في الزاد] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح. والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح.

٧- قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة بن زمعة. فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة، فقضى فيه رسول الله ﷺ لعبد بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه [البخاري].

٨- اعتبار عقد النكاح قائمًا بين الزوج المشرك والزوجة المسلمة، إذا أسلم الزوج قبل انقضاء عدة الزوجة، وذلك من خلال قصة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إذ أسلمت زوجتاهما قبلهما، ثم أسلما قبل انقضاء عدتيهما. [الموطأ؛ ابن عساكر؛ ابن إسحاق، من مرسل الزهري،والحديث مشهور].

٩- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه واستشاره الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث [البخاري؛ الترمذي، صحيح].

١٠- يجوز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها لنفقتها ونفقة عياله بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة، كما في خبر هند بنت عتبة. [متفق عليه].

١١- تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام.[البخاري].

١٢- جواز خضاب الشيب بالحناء أو الصفرة وتحريم خضابه بالسواد كما في قصة أبي قُحَافَة - والد أبي بكر الصديق ﷺ - حين أمر الرسول ﷺ بتغيير شيبه [مسلم؛ أحمد، ابن إسحاق، بأسانيد صحيحة]. ومن حكمة ذلك أنه مخالفة لليهود والنصارى.

١٣- النهي عن الشفاعة في حدود الله بعد رفعها للإمام كما في قصة المرأة المخزومية التي سرقت فتشفع فيها أسامة بن زيد، فغضب الرسول ﷺ منه، ثم قال: «إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». [متفق عليه].

١٤- نهى رسول الله ﷺ عن قتل المرأة ما دامت لا تقاتل كما جاء مبينًا في قصة مروره بامرأة مقتولة يوم الفتح، فقال: «ما كانت هذه تقاتل...» [أحمد، يعتضد؛ الطبراني: الأوسط]، وجاء النهي عن قتل النساء والصبيان مطلقًا من غير مقيد بغزوة أو سرية معينة. [متفق عليه].

١٥- إبداء الرسول ﷺ تقديره لأبي بكر ﷺ وذلك عندما أتى أبو بكر بأبيه يقوده، وهو كفيف، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟** فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، ثم أجلسه بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم، فأسلم» [ابن إسحاق، حسن]. ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه. [الذهبي: المغازي، مرسلًا].

١٦- جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لا يريد العمرة أو الحج، لأن الرسول ﷺ دخل مكة يوم الفتح محاربًا وعليه عمامة سوداء بغير إحرام. [متفق عليه].

١٧- إن أهل العهد إذا حـاربوا - بعضـهم أو جميعهم - مـن هـم في ذمـة الإِمـام وجواره وعهده صاروا حربًا له بـذلك، ولم يبـق بيـنهم وبينـه عهـد، فلـه أن يبيـتهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء، وإنما يكون الإِعلام إذا خاف مـنهم الخيانـة، فإذا تحققها، صاروا نابذين لعهده. [الزاد].

١٨- إن قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإِمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصح، أو وجدت علة مانعـة، اسـتبقاه كـما في قصـة حاطـب. [نفسه].

١٩- جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة كما في قصة المـرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب، وموقف علي والمقداد منها. [متفق عليه].

٢٠- إن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولًا وغضـبًا لله ورسـوله ﷺ ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفر بذلك، بل لا يأثم به، بل يثـاب عـلى نيتـه وقصـده. [نفسه].

٢١- جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته، ومن غير استتابة، كـما في قصـة عبـد الله ابن أبي السرح.

٢٢- أما ما يتعلق بأحكام الهجرة، فقد سبق ذكرها في فصـل هجـرة الرسـول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وفي فصل هجرة المسلمين إلى الحبشة.





الفصل الحادي والعشرون
غزوتا حنين والطائف

المبحث الأول: غزوة حُنين

أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح (تسعة عشر يومًا) [البخاري]، حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي ﷺ، وكانوا قد جمعوا له قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أخذوا في الاستعداد وحشد القوات لمواجهته [تاريخ الطبري، من مرسل عروة، الذهبي: المغازي، حسن]، وقبل أن يهاجمها، وقد أرادوها موقعة حاسمة، ولذا حشدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك ابن عَوف النصري، واستنفروا معهم غطفان وغيرها [متفق عليه]. وممن جمعهم ابن عوف: بنو نصر - قومه - وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر وجماعات متفرقة من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر، وثقيف كلها في أحلافها، وبنو مالك [الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح]، وتخلف عنهم من هوازن كعب وكلاب. [الذهبي، حسن؛ ابن إسحاق].

وخرج على رأس بني جُشَم يومذاك دُرَيْد بن الصِّمَّة، وكان شيخًا كبيرًا، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه، لأنه كان شيخًا مجربًا عارفًا بالحرب، فأنكر على مالك النصري الخروج بالنساء والأطفال والأموال، إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأي دريد. وقال دريد في شأن غياب كعب وكلاب: «غَابَ الحَدُّ والجد ولو كان يَوْمَ عَلاءٍ ورِفْعَة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، وَلَوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعب



وكلاب...» وذكرت له أقوال أخرى تدل على تجربته في الحروب وتوقعه الهزيمة لقومه، لأن الرأي كان لمالك، وهو صغير السن - ٣٠سنة - غير مجرب، بل اتهم مالك دريدًا بأنه كبر وقل علمه، وأقسم على هوازن بأن تطيعه هو وإلا انتحر، فأطاعوه، فأمرهم أن يكسروا جفون سيوفهم إذا رأوا المسلمين، ثم يشدوا شدة رجل واحد. [نفسه].

وكانت خطة مالك في الحرب أن رتب جيشه في صفوف حسنة، وقدم الخيل ثم الرجالة ثم النساء ثم الأغنام ثم الإبل [مسلم]، وقد بلغ جيشه عشرين ألفًا [الواقدي]، فسار بهم إلى الرسول ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي ليأتيهم ويدخل فيهم ويعلمه خبرهم، فجاءهم ومكث فيهم يومًا أو اثنين، ونقل خبرهم إلى الرسول ﷺ [مغازي الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولعل هذا الخبر الذي نقله ابن أبي حدرد إلى الرسول ﷺ هو الذي تبسم له الرسول ﷺ وعلق عليه بقوله: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا - إن شاء الله**». وذلك عندما اقتربوا من العدو. [أبو داود، حسن].

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة استعد الرسول ﷺ لمواجهتهم، فاستعار من يَعْلى بن أمية ثلاثين بعيرًا وثلاثين درعًا واستعار مائة درع من صَفْوَان بن أمية وأعادها إليه بعد غزوة حنين، وشكره على ذلك [الذهبي: المغازي، حسن؛ الحاكم، صحيح]. ويروى أنه استقرض من حُوَيْطِبَ عبد العُزَّى أربعين ألف درهم [الاستيعاب]، وتقبل معونة قدرها ثلاثة آلاف رمح من نَوْفَل بن الحارث بن عبد المطلب [نفسه].

وبعد أن أقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا [البخاري]، خرج إلى حنين لستٍّ خلت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في

أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره [البيهقي السنن الكبرى، النسائي، ابن حجر: الفتح] واستعمل عَتَّاب بـن أَسِـيْد بـن أبي العِـيْص أمـيرًا عـلى مكـة. [البخاري: التاريخ الكبير، حسب؛ ابن هشام، يعتضد؛ الإصابة].

وقد ثبت في الصحيحين أن الطلقاء قد خرجوا معه إلى حنين، دون تحديد لعددهم، وقال أهل المغازي إنه خرج معه ألفان من أهل مكة - الطلقاء - مع عشـرة آلاف، من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة، فأصبحوا اثني عشـر ألفًا [الذهبي: المغازي، حسن]، وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة الرسول ﷺ إلى ذلك الحين، ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا من قلة، وعبر أحدهم [الواقدي، ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي] عن هذا الشعور جهرة، وشق ذلك على رسول ﷺ، فعاتبهم القرآن وذكرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم، ولقنهم درسًا بليغًا في هذا الشأن، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[التوبة:٢٥] [دلائل البيهقي؛ له أصل] وحكى لهم الرسول ﷺ قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلَّط الله عليهم الموت. [الدارمي؛ أحمد ، صحيح].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من حُنين وحضرتهم صلاة العشاء، أمر أحد الصـحابة بمراقبة العدو من فوق أحد الجبال المطلة عـلى وادي حنـين، فـأدى الصـحابي المهمـة، ونقل إلى الرسول ﷺ خبرهم، وأنهم قد خرجوا بظعنهم ونعمهم وشـائهم واجتمعـوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا - إن شاء الله تعـالى**»، وعندما حانت ساعة النوم تطوع أنس بن أبي مَرْثَد الغَنَوي بحراستهم إلى الفجر، فأثنى عليه النبي ﷺ ووعده بالجنة. [أبو داود، صحيح].

وفي الطريق إلى حنين رأى بعض الطلقاء شجرة يعلق عليها المشـركون أسـلحتهم تعرف بذات أَنْوَاط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كـما لهـم ذات أنـواط؟

فقال: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾[الأعراف:١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم» [ابن إسحاق، حسن؛ أحمد، ابن حبان] وفي هذا دليل على أن قلوب هؤلاء لم تشرب الإسلام بعد، لحداثة عهدهم به، بل روي أن ثمانين من الطلقاء قد خرجوا وهم على الكفر [مواهب القسطلاني، وشرحه للزرقاني]، وإذا كان الحال كذلك فلا غرابة من أن يعبر كَلَدة بن الحَنْبَل، أخو صفوان بن أمية لأمه، وهو أحد الطلقاء، عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، قائلًا: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له أخوه صفوان - وهو على شركه آنذاك - اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني [أي: ربًا لي أو ملكًا] رجل من قريش أحب إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن [أبو يعلى، حسن؛ ابن حبان]!!، وكان يقف زعماء مكة خلف الجيش ينظرون لمن تكون الدائرة، منهم: أبو سفيان وصفوان بن أمية وحكيم بن حزام [البداية، من حديث ابن عطية وعروة]. وكان صفوان في المؤخرة، ويرسل غلامًا له ليأتيه بالأخبار من المقدمة. [نفسه، من حديث عروة].

وعندما انهزم المسلمون في الجولة الأولى، كان أبو سفيان ينظر إليهم، وهو يحمل الأزلام، ويقول: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». [ابن إسحاق، الواقدي].

بادرت هوازن إلى حنين، فأدخلوا جيشهم بالليل في الوادي، وفرقوا كُمَنَاءَهم في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم قائدهم أمره بأن يرشقوا المسلمين بالسهام عند دخولهم وادي حنين المنحدر، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد [ابن إسحاق، حسن]، وشجعهم زاعمًا بأن المسلمين لم يلقوا من قبل مثلهم في الشجاعة والعدة والعدد والدراية بالحرب. [الواقدي].

وعبأ رسول الله ﷺ جيشه بالسحر، وعقد الألوية والرايات، ورتب الجند في هيئة صفوف منتظمة [الواقدي]، واستقبل بجيشه وادي حنين في عَمَايَةِ الصبح، أو غَلَسِهِ،

وانحدروا فيه [ابن إسحاق، حسن]، تتقدمهم على المجنبة الخيالة بقيادة خالـد بـن الوليـد [مسلم] وفي طليعتها بنو سليم منذ خروجه من مكة. [الواقدي].

وعند دخول المسلمين الوادي حملوا على هَوَازِن فانكشفوا، فأكب المسلمون على مـا تركوه من غنائم، وبينما هم على هذه الحال، اسـتقبلتهم هـوازن وأمطـرتهم بوابـل مـن السهام التي لا تكاد تخطئُ أحدًا. [متفق عليه].

ولم يكـن المسـلمون يتوقعـون هـذا، فضـاقت علـيهم الأرض بـما رَحُبَتْ، فولـوا مدبرين، لا يلوي أحد على أحد [متفق عليه، ابن إسـحاق، حسـن]، وانحـاز الرسـول ﷺ ذات اليمين وهو يقول: «أين الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» [ابن إسحاق، حسن]. ومما يدل على عدم توقع المسلمين لمثل هذه الخدعة، أن بعضهم قد خرجوا خِفَافًا عَجِلِين دون استعداد حربي كامـل، لا سـيما بعـض الشـباب الذين خرجوا حاسري الرؤوس، وليس معهم السلاح الكافي. [متفق عليه].

وكان أول من أدبر خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفر معهم الطلقـاء والأعـراب، ثـم بقية الجيش، حتى أنه لم يثبت مع الرسول ﷺ أحد سوى أبي سفيان بن الحـارث [متفـق عليه] وجماعة قليلة. [ابن إسحاق، حسن].

ومما يدل على الدور الكبير للطلقاء في هذه الهزيمة أن أم سُلَيم بنت مِلْحَـان طلبـت من الرسول ﷺ أن يقتلهم بحجة، أنهم انهزموا عنـه، فقـال لهـا رسـول الله ﷺ: «**يـا أم سليم. إن الله قد كفى وأحسن**». [مسلم].

كان الرسول ﷺ يمتطي بغلة له بيضاء - أو شهباء - تسمى دلدل، وهـو يركضـها وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ وعمه العباس آخـذ بلجـام البغلـة، يكفانها عن الإِسراع نحو العدو [مسلم]. وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه

في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح للكرِّ ولا للفرِّ ولا للهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من يعرفه، وما هذا إلا ثقة بالله وتوكلٌ عليه وعلم منه بأنه سينتصر ويظهر دينه على سائر الأديان. [تفسير ابن كثير].

وأمر الرسول ﷺ عمه العباس - وكان قوي الصوت - أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك لبيك، ودارت المعركة قوية ضد هوازن [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، عبد الرزاق، صحيح]، ونزل الرسول ﷺ عن بغلته وهو يدعو [أحمد، حسن] الله أن ينصرهم، وقال: «**أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب**» [متفق عليه]، وأخذ يقاتل والصحابة يقاتلون معه ويتقون به لشجاعته وثباته كعادتهم في مثل هذه المواقف العصيبة [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]. وعندما رأى الفارون موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم جاؤوا مسرعين ملبين الدعوة قائلين لبيك لبيك، حتى إن من لم يستطع أن يثني بعيره يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ويجالد الأعداء. قال الرسول ﷺ عندما رأى المعركة تشتد: «**هذا حين حَمِيَ الوَطِيسُ**» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]، ثم أخذ حَصَيَات، أو ترابًا، فرمى به وجوه الكفار، وهو يقول: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينه.ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول ﷺ يقول: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ محمد**»، وفي رواية أخرى: «**انهزموا ورب الكعبة**» مرتين. [مسلم].

وفي ضوء هذه الكيفية التي انهزم بها المشركون والمعجزة التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ يفهم قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾[التوبة:٢٦][الطبري وابن كثير في التفسير]. فقد حكى أحد

أفراد جيش هوازن أنهم عندما أرادوا الوصول إلى الرسـول حـال بيـنهم وبينـه رجـال حسـان الوجـوه، فقـالوا: شـاهت الوجـوه، فـارجعوا، فهزمـوا مـن ذلـك الكـلام. [الذهبي: المغازي، جيد].

وحكى شيبة بن عثمان أنه عندما أراد قتـل الرسـول ﷺ ثـأرًا لأبيـه وعمـه اللـذين قتلهما علي يوم بدر، رفع له شواظ من نار حال بينـه وبـين الرسـول ﷺ، كأنـه الـبرق، فخاف أن يحرقه، فوضع يده على بصره وتقهقر، والتفت إليه الرسول ﷺ وطلـب منـه أن يدنو منه، فدنا منه، فقال: اللهم أذهب عنـه الشـيطان، فقـذف الله الإيـمان في قلبـه، وطلب منه الرسول ﷺ أن يقاتل الكفار [مغازي الذهبي، له أصـل]. وفي رواية أخرى: أن شيبة قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إني أرى خيلًا بُلْغًا، فقال له الرسـول: «يـا شـيبة، إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب على صدره ثم قال: «اللهم اهد شـيبة - ثلاثـًا، فانقلـب بغض الرسول حبًا عظيمًا». [الذهبي: المغازي].

وروى ابن إسحاق من حديث جُبير بن مُطْعِم أنه رأى قبل هزيمـة القـوم والنـاس يقتلون مثل الكِسَاءِ الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بينهم وبين القـوم، فنظـر فـإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم يشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم.

سَريّة أوْطاس:

لم يثبت المشركون طويلًا في هذه الجولة الثانيـة مـن القتـال، ففـروا في نهايـة اليـوم مخلفين وراءهم كثيرًا من القتلى والأموال [ابن إسحاق، حسن]، وكان الرسول ﷺ قد أمر بتعقب الفارين وجزِّهم [البزار، برجال ثقات] لكسر شوكتهم حتى لا يجتمعـوا للحـرب مرة أخرى، ولذا عندما فرغ من حنين بعث أبـا عـامر - عُبَيْـد بـن سـليم بـن حضـار الأسلمي - على جيش إلى أَوْطَاس [واد في بلاد هوازن] لقتال الكفار الذين علـيهم دريـد

ابن الصمة، فجالدهم أبو عامر الأشعري حتى استُشهد، وطلب من أبي موسى الأشعري، الذي خلفه في القيادة أن يبلغ الرسول ﷺ سلامه، وأن يطلب منه أن يستغفر له، فأكمل الأشعري المهمة وهزم الله على يديه الأعداء، وبلغ رسالة أبي عامر، فدعا الرسول ﷺ لأبي عامر. [متفق عليه].

وفي رواية أنه عندما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ستمئة نفس إلى جبيل أو أكمة، فلحق بهم الزبير بن العوام وجماعة من المسلمين فقضوا على ثلاثمئة منهم، منهم دريد بن الصمة نفسه. [البزار، حسن].

والذي نرجِّحه أن الزبير بن العوام كان في جماعة أبي عامر، فباشر قتل ابن الصمة، لأن رواية البخاري لم تبين القاتل، وقيل: إن الذي قتله رَبِيْعة بن رُفَيْع [ابن إسحاق]، وقيل عبد الله بن قُنَيْع بن أُهْبَان بن ثَعْلَبَة بن رَبِيعَة. [نفسه].

لقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير هوازن وثقيف. فقد روي أن قتلى بني مالك من ثقيف لوحدها قد بلغ سبعين قتيلًا [البيهقي، الدلائل]، ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من بني غِيَرَة والآخر من بني كُبَّة [ابن إسحاق]. وقتل بأوطاس من بني مالك ثلاثمئة، ومعهم دريد بن الصمة، كما ذكرنا، وقتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية ثم من بني رِئاب، حيث استحر فيهم القتل، حتى قال عبد الله بن قيس - وكان مسلمًا-: يا رسول الله، هَلَكَتْ بنو رِئَاب، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم اجبر مُصِيْبَتَهُم»**. [ابن إسحاق، ابن سعد].

وعندما لجأ المشركون إلى أوطاس ولحق بهم المسلمون، قتل أبو عامر وحده تسعة إخوة منهم قبل أن يستشهد، وقتل أبو موسى الأشعري أخوين من بني جُشَم ابن معاوية [ابن هشام]. وقتل أبو طلحة وحده يوم حنين عشرين رجلًا من المشركين وأخذ سلبهم، لأن رسول الله ﷺ قد أباح سلب المشرك لقاتله. [أبو داود، حسن].

ونهى رسول الله ﷺ يومذاك عن قتل النساء والأطفال والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، وذلك عندما مرَّ بامرأة قتلها خالد بن الوليد [ابن إسحاق] والناس متزاحمون عليها، وقال: «ما كانت هذه تقاتل». [الحاكم صحيح، أحمد، صحيح، أبو داود، صحيح].

أما بالنسبة للسبي والغنائم، فقد روي أن سبي حنين قد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء [عبد الرزاق؛ ابن سعد؛ الطبري: التاريخ]، وأن الأموال كانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأن الإبل كانت أربعة وعشرين ألفًا، وأن الشياه أكثر من أربعين ألف شاه. [ابن إسحاق، ابن سعد].

وحبس الرسول ﷺ هذا السبي والغنائم بالجِعْرَانَة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف، كما سنرى.

وروي أن الشَّيماء بنت الحارث كان ممن وقع في الأسر، فادعت أنها أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، فقال لها الرسول ﷺ: «وما علامة ذلك؟»، قالت: عَضَّة عَضِضْتَنيها في ظهري وأنا مُتَوَرِّكَتُكَ، فعرف الرسول ﷺ العلامة، فمتعها وردها إلى أهلها كما طلبت. [ابن إسحاق، الذهبي: المغازي، من مرسل قتادة - حسن].

وروي أن أمه من الرضاعة - حليمة السعدية - جاءته، فأكرمها وبسط لها ثوبه لتجلس عليه [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة - حسن، من مرسل عطاء].

وكانت خسارة المسلين طفيفة جدًا، فقد استشهد أربعة منهم، هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عُبَيد، ويزيد بن زمْعَة بن الأسود، وسُرَاقَة بن الحارث [ابن إسحاق]. وجرح عدد منهم، منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي [البزار، حسن]، وعبدالله ابن أبي أوفى [البخاري]، وخالد بن الوليد. [الحميدي: المسند، حسن].



عندما انهزمت هوازن وثقيف وأحلافهم تفرقوا في الأودية والجبال، فلجأت ثقيف بقيادة مالك بن عوف إلى حصونها بالطائف، ولجأ آخرون إلى وادي أوطـاس، وانحـاز بنو غيرة إلى نخلة. وقد تبعت خيل المسلمين من سلك إلى نخلة، ولم تتبع من سـلك إلى الثنايا. [ابن إسحاق].

المبحث الثاني: غزوة الطائف

بعد أن تعقب المسلمون فلول الهـاربين مـن هـوازن في أوطـاس ونخلـة، توجهـوا للقضاء على ثقيـف التـي فـرت مـن حنـين وأوطـاس وتحصـنت بحصـونها المنيعـة في الطائف، وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود لمدة عـام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مـدة طويلـة، ورممـت حصـونها وأوفـدت عُرْوَة بن مسعود وغَـيْلَان بـن سَـلَمَة إلى جُـرَش ليـتعلما صـنعة الـدَّبَّابَات والمَجـانيق، والضُّبُور، ولذا لم يحضرا حنينًا مع قومهما. [ابن إسحاق، ابن سعد]..[الدبابات: آلات تصـنع من خشب وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، ويتصلون بحائط فينقبـون عـن أهلـه؛ والضـبور: شيء يُتَّقى به عند الانصراف].

ووصل المسلمون إلى حصون الطائف في نحو نهاية الأسبوع من شوال كما يسـتنتج من وقائع الأحداث، ونزلوا قريبًا من حصونهم، ثم تحولـوا إلى منطقـة أكثـر بعـدًا مـن مدى سهام ثقيف، التي تسببت في استشـهاد اثنـي عشــر مسـلمًا وجـرح عـدد مـنهم [ابن إسحاق، ابن سعد]، وبنوا فيها مسجدًا، يعرف اليـوم بمسـجد عبـد الله بـن عبـاس، وكانت الطائف آنذاك جنوبي غربي المسجد.

ولما كان القتال تراشقًا بالسهام على بُعد، استخدم المسلمون (الدبابة) ليحتمـوا بهـا من السهام، حتى يصلوا إلى الحصن فيثقبوه، وعندما رأتهم ثقيف، ألقت علـيهم قطعًـا

من حديد محماة فأحرقت (الدبابة)، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بالسهام، فقتلوا منهم رجالًا. [ابن إسحاق].

واستخدم المسلمون المجانيق في رمي أهل الطائف، وهم أول من رمى في الإسلام المجانيق [ابن إسحاق، أبو داود: المراسيل، حسن]. وقد بذلوا الوسع في الرمي به، لا سيما وقد وعدهم الرسول ﷺ درجة في الجنة عندما قال لهم: «**مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ في سبيل الله فَلَهُ درجةٌ في الجنة، ومن رَمَى بِسهم في سبيل الله عز وجل فَهُوَ له عَدْلُ مُحَرَّر** [أي مثل ثواب تحرير رقبة]، **ومن أصابه شيب في سبيل الله عز وجل فهو له نور يوم القيامة**» [أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ النسائي].

وقد تباينت الروايات الضعيفة فيمن جلب المجانيق أو صنعها، فهناك من يذكر أنه خالد بن سعيد، ومن يذكر أنه سلمان الفارسي، ومن يذكر أنه الطفيل بن عمرو. [الواقدي].

وفي محاولة لإضعاف معنويات ثقيف شرع المسلمون في حرق بساتين نخيلهم وعنبهم، فناشدوه أن يدعها لله وَلِلرَّحِمِ، فاستجاب لهم، بعد أن حققت المحاولة أهدافها [البيهقي: السنن من مرسل ابن عقبة وعروة، ابن إسحاق، من مرسل عمرو بن شعيب].

ونادى منادي رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم أبو بَكْرَة - نُفَيع بن مَسْرُوح - الثقفي، فأسلموا، فأعتقهم النبي ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم. [البخاري؛ عبد الرزاق؛ الطبراني برجال الصحيح، وسمي بأبي بكرة لنزوله من الحصن ببكرة].

وعندما استعصى الحصن على المسلمين واستشهد اثنا عشر رجلًا [ابن إسحاق، أحمد]، بينما لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة [ابن إسحاق]، دعا رسول الله ﷺ إلى فك الحصار، فثقل ذلك على المسلمين واستنكروه، وعندما كثرت فيهم الجراحات،

ودعاهم الرسول ﷺ إلى فك الحصار مرة أخرى، أعجبهم ذلك، فتبسم الرسـول ﷺ، فارتحلوا [متفق عليه]، والرسول ﷺ يطمع في هدايتهم ويرفض طلب بعض المسلمين في الدعاء عليهم ويدعو لهم قـائلًا: «**اللهـم اهـد ثقيفًـا**» [الترمـذي؛ صـحيح؛ ابـن إسـحاق؛ ابن سعد]، ويروى **أن الله لم يأذن له في أهل الطائف**. [الـذهبي: المغـازي، مـن مرسـل عـروة وابن عقبة؛ ابن سعد، من مرسل البقري؛ ابن إسحاق].

تباينت الروايات حول المدة التي قضـاها الرسـول ﷺ في حصـار الطـائف. فـيرى عروة وابن عقبة أنها كانت بضع عشرة ليلة، وفي رواية عن عروة أنها كانت نصف شهر [الطبري: التاريخ، مرسل حسـن]. ويـذكر ابـن إسـحاق [السـيرة مرسـلًا] مـرة أنهـا بضـع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائـل البيهقـي؛ مرسـل حسـن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلًا] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن هشام أنهـا سـبع عشـرة ليلـة، ويروي مسلم وأحمد [المسند] أنها أربعون يومًا.

والذي يكاد يتفق مع مجريات الأحـداث هـو مـا ذكـره موسـى بـن عقبـة وعـروة ابن الزبير وابن هشام، وما في الصحيح أصح.

عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى الجعرانة حيث تـرك غنـائم حنـين قبـل أن يتحـرك لحصار الطـائف. وعنـدما عـاد لم يقسـم هـذه الغنـائم سـوى بعـض الفضـة [الحـاكم، وصححه]، واستأنى بها بضع عشرة ليلة، آملًا في قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام [البخاري]، ثم وزعها بعد ذلك على المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصـار شـيئًا. فقـد أعطى مائة من الإبـل لكـل مـن عُيَينـة بـن حِصْـن - مـن زعـماء غطفـان - والأقـرع ابن حَابس - من زعماء تميم - وعَلْقَمَة بن عُلَاثة والعباس بن أمية - من زعـماء قـريش

[متفق عليه]. وقد أحصى ابن إسحاق اثنى عشر رجلًا ممن نال مائة من الإبل، ستة منهم ذكـرهم البخـاري ومسـلم. وممـن زادهـم عـلى مـا في البخـاري ومسـلم: معاويـة ابن أبي سفيان، والحارث بن الحارث، ومالك بن عوف، والعلاء بن جَارِيَة، والحـارث ابن هشام، وحُويطِب بن عبد العزى، ولم يذكر مـن قائمـة البخـاري ومسـلم: عَلْقَمـة ابن عُلَاثَة والعباس بن مِرْدَاس، وذكر خمسة من أعطوا أقل من مائة.

وأورد ابن هشام قائمة بأسماء تسعة وعشرين رجلًا من المؤلفة قلـوبهم ممـن أعطـوا من غنائم حنين، ولم يحدد عدد الإبل التي نالها كـل واحـد مـنهم. وهنـاك مـن أوصـل عددهم إلى سبعة وخمسين رجلًا. [قريبي: مرويات حنين].

وكان هذا الموقف تجاه المؤلفة قلوبهم لحكمة وضحها الرسول ﷺ للأنصار عنـدما غضبوا من هذا التوزيع وحرمانهم من الغنيمة، وبلغ الرسول ﷺ قول بعض أحداثهم: «إذا كانت الشدة نُدْعَى، وتُعطى الغنائمُ غَيْرَنا»، أو «يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًـا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!» [متفق عليه]، فجمعهم وقال لهم: «**أمـا ترضـون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبوا برسول الله ﷺ تحُوزُنَه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى، يا رسـول الله رضينا. فقال: «**لو سلك الناس واديًا، وسـلكت الأنصـار شِـعْبًا، لأخـذت شِـعْب الأنصار**» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن]، وقال في رواية: «**ألا ترضون أن يذهب النـاس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ الأنصار شِعَار[الثوب الـذي يـلي الجسد] والناس دِثَار،[ثوب فوق الشعار] ولولا الهجرة لكنـت امـرأً مـن الأنصـار...**» [مسـلم]، وقال: «**إني أعطي قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعـل الله في قلوبهم من الخير والغناء، منهم عمرو بن تَغْلِب**»، فقال عمرو بن تغلب: «مـا أحـب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرُ النَّعَم» [البخاري]، وقـال: «**إني لأعطـي رجـالًا حَـدِيثٌ**

عهدهم بكفر» [متفق عليه]، وفي رواية: «**إن قريشًا حديثو عهـد بجاهليـة ومصـيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم**». [متفـق عليـه]، وقـال: «**أَوَجـدْتُم يـا معشـــر الأنصـار في أنفسكم في لُعَاعَة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم،... اللهـم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن، أحمـد، حسن]، وقـال: «**إني لأعطـي الرجـل وغـيره أحـب إليَّ منـه، خشـية أن يُكَـبَّ في النـار على وجهه**». [مسلم].

وعندما سمع الأنصار ما قاله لهم الرسول ﷺ، عرفوا الحكمة من ذلـك التقسـيم، وبكوا حتى ابتلت لحاهم بـدموعهم، وقـالوا: «رضـينا برسـول الله ﷺ قَسْـمًا وحَظًّـا» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، وأصله في البخاري ومسلم].

واتضحت لهم الحكمة عمليًا عندما رغب هؤلاء المؤلفة قلوبهم في الإسلام وحسن إسلامهم وانخرطوا في الجهاد، إلا القليل جدًا منهم، مثل عيينـة بـن حصـن الفـزاري والأقرع بن حابس. وقد عبر عن هذه الظاهرة الإمام مالك بن أنس [مسلم] قـائلًا: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الـدنيا وما عليها». وعبر صفوان بن أمية عن التحول الذي حدث نتيجة لهذا الموقـف الكـريم من الرسول ﷺ فقال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لَأَبْغَضُ الناسِ إليّ، ما بَرِحَ يُعْطِينِي حتى إنه لَأَحَبُّ الناس إليّ» [مسلم]. وكـان حَكِـيم بـن حِـزَام كلـما أعطاه سأله المزيد، فوعظه الرسول ﷺ قائلًا: «**يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ، فمن أخذه بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُوْرِكَ له فيه، ومن أخـذه بِـإِشْرَاف نفـس لم يُبَـارِكْ لـه فيـه، وكـان كالذي يأكل وَلَا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»، فقال حكيم: «والذي بعثـك بالحق لا أَرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا»، فلم يأخذ عطاءه من بيت المال حتى توفي. [متفق عليه].

وعندما لم تتضح حكمة هذا التقسيم لدى بعـض جُفَـاةِ الأعـراب - أيضًـا - قـال أحدهم للرسول ﷺ: «يا محمد! اعدل» فقال له الرسول: «**ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**». فاستأذن عمر النبي ﷺ في ضرب عنقـه، فقال له النبي ﷺ: معاذ الله أن يتحدث النـاس أني أقتـل أصـحابي! إن هـذا وأصـحابه يقرأون القرآن لا يُجَاوِزُ حناجرهم، يَمْرُقُون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّـة»، واللفـظ لمسلم. وفي رواية ثانية له زاد: «... **إن من ضِئْضِئِ** [أصل] **هذا قومًـا يقـرأون القـرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان... لأن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**». وجاء وصف هيئته في هذه الرواية: كـث اللحيـة، مشرـف [غليظهـا]، غـائر العَينَين، ناتئ [بارز] الجبـين، محلـوق الـرأس. وزاد مسـلم في روايـة ثالثـة: «...**مُشَـمَّرُ الإزار**». وازدحموا على الرسول ﷺ وهو يقسم الغنائم، حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاه - شجر الشوك - نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**» [البخـاري]. وجبـذه أحـدهم جبـذة شـديدة أثرت في عاتقه لخشونة البرد الذي كان عليه، وقال: «مر لي من مال الله الـذي عنـدك»، فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك، ثم أمـر لـه بعطـاء [نفسـه]. ودل هـذا الموقـف مـن الأعراب على أن معظمهم إنما خرج للمغنم، ودل موقف الرسول ﷺ مـن تصـرفاتهم على صبره وحكمته في تربية أمثال هؤلاء الأعراب.

بعدما فرغ الرسول من توزيع الغنـائم، قـدم عليـه وفـد هـوازن يعلـن إسـلامهم، ويطلب رد الأموال والسبي إلـيهم، فخـيرهم بـين المـال والسـبي، فاختـاروا السـبي، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأمر، ومما قال لهم: «من أحـب أن يُطَيِّـبَ فليفعـل، ومن أحب منكم أن يكون على حَظِّهِ حتى نُعْطِيَهُ إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل،

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم. فقال: «**إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يَرْفَعَ إلينا عُرَفَاؤُكم أمركم**»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا فأذنوا [نفسه]، سوى الأقرع بن حابس، الذي تكلم باسم قبيلته تميم، وعيينة بن حصن الذي تكلم باسم قبيلته فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها. [ابن إسحاق، حسن].

وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه إن أتاه مسلمًا رد عليه أهله وماله ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك احتال في الخروج من الطائف، خشية أن يقتله قومه ثقيف، ولحق بالرسول الله ﷺ بالجِعْرَانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم، وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا. [ابن إسحاق، يعتضد].

ومال بعض زعماء ثقيف للإسلام، منهم عُروة بن مسعود الثقفي، فلحق بالرسول ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أداء العمرة، فأعلن إسلامه، وعاد داعيًا إلى الإسلام في قومه، فقتلوه، ودفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف حسب وصيته. [ابن إسحاق].

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في رمضان من العام التاسع، جاء وفد ثقيف معلنًا إسلامهم، كما سنرى في خبر الوفود.

المبحث الثالث: أهم الأحكام المستنبطة من غزوتي حنين والطائف:

١ - جواز وطء المسبية بعد الاستبراء، جاء ذلك عندما سأل الصحابة الرسول ﷺ في سبي أوطاس فنزلت الآية: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾[النساء:٢٤] [مسلم؛ تفسير الطبري وابن كثير].

٢ - النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين [أحمد، حسن؛ الحاكم، صحيح؛ أبو داود]. وقد تكرر هذا النهي في عدة مناسبات.

٣- إقامة الحد في دار الحرب، فقد فعل ذلك النبـي ﷺ بشـارب الخمـر في حنـين. [أحمد؛ أبو داود؛ الدارقطني: السنن، حسن لغيره].

٤- منـع المخنثـين مـن الـدخول عـلى النسـاء الأجنبيـات، وذلـك عنـدما سـمع الرسول ﷺ أحد المخنثين - في بيت أم سلمة - يصف بَادِيَة بنت غَيْلان الثقفي لأخيها عبد الله، ويطلـب منـه أن يحصـل عليهـا، وذلـك قبيـل حصـار الطـائف، فقـال ﷺ: «**لا يَدْخُلَنَّ هؤلاء عليكن**». [متفق عليه].

٥- جواز إعطـاء المؤلفـة قلـوبهم مـن الغنـائم، إذا رأى الإمـام أن في ذلـك سـببًا لدخولهم في الإسلام، أو كف أذاهم، أو فيه مصلحة للمسلمين.

٦- تشريع العمرة من الجعرانة للداخل إلى مكة، كما فعل الرسول ﷺ بعـد الفـراغ من توزيع غنائم حنين [متفق عليـه]. أما الخروج من مكة إلى الجعرانة للإحرام منها فهـو ما يفعله العوام وليس بسنة. [الزاد].

٧- التأكيد على إباحة سَلَب المشرك لقاتله.

٨- جـواز الاسـتفادة مـن أدوات الحـرب التـي يمتلكهـا المشـركون، كـما فعـل الرسول ﷺ عندما استعار دروعًا من صفوان بن أمية مع ضمانه لها، على أن لا يكون في ذلك أي تأثير على صبغة الحرب.

٩- جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية. [نفسه].

١٠- جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى لهم.

١١- من كمال رأفته ورحمته ﷺ أن يدعو بالهداية لمـن حـاربوه وقتلـوا جماعـة مـن أصحابه، كما فعل الرسول ﷺ مع أهل الطائف - ثقيف. [نفسه].



١٢- لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا بعد يوم، فإنها شعائر الكفر، وهي أعظم المنكرات [نفسه]، كما فعل الرسول ﷺ مع ذي الكَفَّين وإرسال أبي موسى الأشعري لهدمه - سيأتي ذكره في أول الفصل التالي.

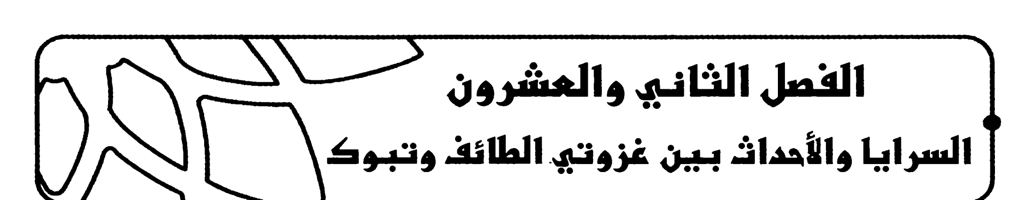
١٣- إن وادي وَجّ - هو واد بالطائف - ليس بحرم، وإن الأحاديث الواردة في أنه حرم ضعيفة. [د. العمري: المجتمع المدني].

١٤- جواز خروج بعض النساء مع أزواجهن في الغزو، لعلاج الجرحى وسقيهم، بدليل خروج أم سُلَيم بنت ملحان مع زوجها أبي طلحة إلى غزوتي فتح مكة وحنين، [كما ثبت في صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢/ ح١٠٨٩)].

ولا يعارضه حديث أم كَبْشَة العُذْرية القُضَاعية التي روى ابن أبي شيبة وغيره أنها قالت: يا رسول الله، إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض أو أسقي المريض. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ولكن اجلسي**».

فالحديث كما حققه الدكتور خالد الدريس، فيه انقطاع، لعدم ثبوت اللقاء بين سعيد بن عمرو وأم كبشة، ورجاله ثقات.





الفصل الثاني والعشرون
السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك

المبحث الأول: سرية الطُّفَيل بن عمرو إلى ذِي الكَفَّين

عندما أراد الرسول ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفـين: صنم عمرو بن حُمَمَة الدوسي ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف. فخـرج سريعًا إلى قومه، فهدم ذا الكفـين، وحرقـه وانحـدر معـه مـن قومـه أربعمائـة، فوافـوا النبــي ﷺ بالطــائف بعــد مقدمــه إليهــا بأربعــة أيــام، ومعــه دبابــة ومنجنيــق. [ابن سعد؛ الواقدي].

المبحث الثاني: إسلام كَعب بن زُهير عند منصرف الرسول ﷺ من الطائف

كان كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى المُزَنيّ من الشعراء المخضـرمين المرموقين، وأبـوه زهير بن أبي سلمى صاحب إحدى المعلقات السبع المعروفة. وكان ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه. وروى قصته وقصّة أخيـه بُجَـير بـن إسـحاق والبيهقـي [في الـدلائل]، بإسـناد متصل إليه، وفيها أنه خرج مع أخيه بُجَير حتى أتيا أَبْرَقَ العَزَّافِ، طلب بجير من أخيه كعب أن يبقى في هذا المكان حتى يأتي محمد ﷺ ويسمع ما يقول، فعنـدما جـاء عـرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأسلم، فبلغ ذلك كعبًا فأنشد قائلًا:

ألا إبلِغَـا عنـي بجيـرًا رسـالة ... عـلى أي شيء غـير ذلـك دَلَّكَـا
عـلى خُلُـقٍ لم أَلْـفِ أُمًّـا ولا أَبـًا ... عليـه ولم تـدرك عليـه أَخـًا لَكـا
سـقاك أبـو بكـرَ بكـأس رَوِيَّـةٍ ... وأنهلـك المـأمون منهـا وعَلَّكَـا

فلما بلغت الأبيات رسول الله ﷺ أهدر دمـه، فكتـب إليـه أخـوه بجـير يخـبره بـذلك وينصحه بالنجاء، ثم كتب إليه بعد ذلك وأعلمه أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد مسلمًا إلا قبل ذلك منه، وطلب منه أن يُسلم ويُقبل على النبي ﷺ، فأسـلم، ونظـم قصـيدته التـي يمتدح فيها رسول الله ﷺ وقدم على الرسول ﷺ فأمَّنه، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

بَانَتْ سُـعاد فقلبـي اليـوم مَتْبُـولُ   مُتَـيَّمٌ عنـدها لم يُفـد مَكْبُـول

[نيل الأوطار؛ ابن إسحاق]

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه [البيهقي الدلائل] أن كعب بن زهير أنشد النبـي ﷺ قصيدته (بانت سعاد) في المسجد، فلما بلغ قوله:

إن الرسـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بـه   مُهَنَّـدٌ مـن سـيوف الله مسـلول

في فتيـة مـن قـريش قـال قـائلهم   بـبطن مكـة لمـا أسـلموا زُولـوا

أشار رسول الله ﷺ بكمه إلى الخلق ليأتوا فيسمعوا منه.

قال الساعاتي: (وفي المواهب اللدنية، قال أبو بكر بن الأنباري، إنه لما وصل إلى قوله:

إن الرسـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بـه   مُهَنَّـدٌ مـن سـيوف الله مسـلول

رمى عليه النبي بردة كانت عليه، وإن معاوية رضي الله عنه بذل فيها عشـرة آلاف، فقـال كعب: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا». فلما مـات كعـب بعـث معاويـة إلى ورثته عشرين ألفًا، فأخذها منهم، قال: «وهي البردة التي عند السـلاطين إلى اليـوم»).

[انظر: العقبة عند الحاكم؛ ابن إسحاق؛ الذهبي: المغازي].

المبحث الثالث: المصدقون

شرع رسول الله ﷺ في بعث المصَّدِّقين إلى المناطق المختلفة في مطلع المحرم من العام التاسع الهجري. فبعث: بُرَيْدَة بن الحُصَيْب إلى أسلم وَغِفَار، ويقال كعـب بـن مالـك،

وعَبَّاد بن بِشر الأشهلي إلى سُلَيم ومُزَيْنَة، ورافع بن مَكِيْث إلى جُهَيْنَة، وعمرو ابن العاص إلى فَزارة، والضَّحَّاك بن سُفيان الكِلابي إلى بني كِلاب، وبُسْر بن سفيان الكَعْبي إلى بني كعب، ويقال: نُعَيم بن عبد الله النَّحام العَدَوي، وابن اللُّتْبِيَّة الأَزْدي إلى بني ذُبيان، ورجلًا من بني سعد بن هُذَيْم إليهم [الواقدي؛ ابن سعد]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لَبِيد إلى حَضْرَمَوت، وعَدِيّ بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد، ومالك بن نُوَيرة إلى بني حَنْظَلَة، والزِّبرِقَان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد، كل منهما على ناحية، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي ابن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم [ابن إسحاق].

المبحث الرابع: سرية عبد الله بن حُذَافَة السَهْمِيّ

روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ استعمل رجلًا من الأنصار على سرية وأمرهم أن يطيعوه. فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوه، وأمرهم فأوقدوه، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فسكن غضبه، وطفئت النار. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ذلك فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

والراجح عندي أن أمير هذه السرية هو عبد الله بن حذافة السهمي. فقد روى الشيخان وبقية الجماعة، أن الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[النساء:٥٩] نزلت فيه عندما أرسله الرسول ﷺ في سرية. وصرح به في رواية أحمد وابن ماجه [صحيح]. وذكر القصة بمثل مضمون رواية البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة.



أما الرواية المرجوحة فهي التي رواها ابن كثير [التفسير] والطبري [التفسير]، وفيها أنها نزلت في خالد بن الوليد عندما بعثه الرسول ﷺ في سرية فيها عمار بن ياسر، فعندما سمع بهم العدو هرب إلا رجلًا واحدًا، جاء إلى معسكر المسلمين في جنح الليل، وسأل عن عمار بن ياسر، فدلوه عليه، فأخبره أنه مسلم، واستفتاه إن كان ذلك ينفع وإلا هرب مع قومه، فطلب منه عمار البقاء، وفي الصباح أغار خالد على مكان العدو فلم يجد إلا هذا الرجل، فأخذه وماله، فاعترض عمار على هذا الإجراء، فتلاحا واستبَّا، ولام الرسول ﷺ خالدًا، فاعتذر إلى عمار، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وخلاصة رأيهما أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء. وقد استشكل العلماء وصف أمير هذه السرية بأنه أنصاري، لأن ابن حذافة مهاجري، ولذا قال ابن حجر [في الفتح]: (ويحتمل الحمل على المعنى الأعم: أي أنه نصر رسول الله ﷺ في الجملة). وجنح إلى تعدد القصة لاختلاف سياقي القصة واسم أميرها. وأما ابن الجوزي [كما ذكر ابن حجر] فقال: (قومه من الأنصار، وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي). ولعلي أرجح تعليل ابن الجوزي.

وذكر الواقدي وابن سعد في سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من الحبشة تراءاهم أهل جُدَّة، فبعث إليهم عَلْقَمَة بن مُجَزِّز، في ربيع الآخر من سنة تسع، في ثلاثمئة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمَّر عبد الله بن حذافة على من تعجل.

وذكر ابن إسحاق في سببها أن وقاص بن مجزز كان قد قتل يوم ذي قرد، فأراد علقمة بن مجزز أن يأخذ بثأره، فأرسله رسول الله ﷺ في هذه السرية. ويمكن الجمع بين الأمرين. [ابن حجر: الفتح].

المبحث السابع: من فوائد هذا المقطع

إن الحكم في حالة الغضب يُنَفَّذ منه ما لا يخالف الشرع، وإن الأمـر المطلـق لا يعـم بالأحوال، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور عـلى مـا كان منه في غير معصية.

المبحث الثـامن: سرية علي بـن أبـي طـالـب إلى الفُلْس وإسلام عـدِيٍّ ابن حاتم الطائي

في ربيع الآخر من العام التاسع الهجري أرسل الرسول ﷺ عـلي بـن أبي طالـب في خمسين ومائة رجل إلى الفلس - صنم طيء ليهدمه -، فشنوا الغارة على محلـة آل حـاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفلس وخربوه وأخذوا ما به، وملـؤوا أيـديهم مـن السـبي والنعم والشاء. وهرب عدي إلى الشام. [ابن سعد؛ الواقدي].

روى أحمد [المسند، حسن] والترمذي [حسن] من حديث سماك بن حـرب بإسـناد إلى عدي بن حاتم أنه عندما جاءت خيل رسول الله ﷺ كان هـو بعَقْـرُب، فأخـذوا عمتـه وناسًا، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله نأى الوافد وانقطع الوالد، وأنـا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ مَنَّ الله عليـك، فسـألها عـن وافـدها، فقالـت: عدي بن حاتم، فقال: «الذي فر من الله ورسوله؟»، فمَنَّ عليها رسول الله ﷺ وجهزها فأتت ابن أخيها عديًّا وهو هارب بالشام، وأخبرته خـبر الرسـول ﷺ وطلبـت منـه أن يأتي الرسول ﷺ راغبًا أو راهبًا، فأتاه فأسـلم، فسُـرَّ بـذلك النبـي ﷺ. [وروى القصـة بتفاصيل أكثر ابن إسحاق، معلقة].





الفصل الثالث والعشرون
غزوة تبوك (أو العُسْرَة)

أصل التسمية (تبوك):

روى مسلم، بسنده إلى معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**». فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوكًا قبل أن يأتيها أحد، فلا وجه لقول غير هذا، كما قال أكرم السندي: [الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك].

التسمية بغزوة العسرة:

جاءت تسميتها بغزوة جيش العسرة من الحديث الذي رواه البخاري، بسنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُمْلَان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...»، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة». وحديث الأشعري واضح الدلالة على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العسر الشديد في المال والزاد والركائب.

وروى مسلم، بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى وشربوا عليه الماء. وفي رواية أخرى له أنهم استأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا.

ودل على هذه الضائقة الاقتصادية الآية الكريمة: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[التوبة:١١٧] [انظر: تفسيرها عند الطبري].

تاريخ الغزوة:

خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري [ابن إسحاق، ابن سعد]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر. [الفتح].

سبب الغزوة:

ذكر الواقدي وابن سعد أن هرقل جمع جموعًا من الروم وقبائل العرب الموالية لها، فعلم بهم الرسول ﷺ فخرج إليهم. وذكر اليعقوبي أن سببها أخذ الثأر لجعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه.

وروى ابن عساكر في سبب الخروج إلى تبوك أن اليهود أتوا الرسول ﷺ وقالوا له إن كنت صادقًا بأنك نبي فالحق بالشام فإنها أرض المحشر والأنبياء، تغريرًا بالمسلمين ليخرجوهم من المدينة، ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وعندما وصل تبوكًا نزلت عليه آيات من سورة بني إسرائيل، منها ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[الإسراء:٧٦]، تفضح موقف اليهود، وأمره الله بالرجوع إلى المدينة حيث المهات والمحشر.

وقال ابن كثير [البداية]: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[التوبة:١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب. إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بما فيهم أهل الكتاب، الذين وقفوا في طريق الدعوة، وظهر تحرشهم بالمسلمين، كما روى أهل السير والمغازي.

الإنفاق في هذه الغزوة:

حث الرسول ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغـزوة لبعـدها وكثـرة المشـتركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ﷻ. فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عـثمان ابن عفان أكثر المنفقين. ووردت في ذلك عدة أحاديث وآثار، منها:

روى البخاري: وقال النبي ﷺ: «... **من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجهزه عثمان. وروى من حديث أبي عبد الرحمن السُّـلَمِيِّ أن عـثمان رضي الله عنه قـال لمحاصريـه أيـام الـدار: «ألستم تعلمون أنه قال: من جهز العسرة فله الجنة؟ فجهزته»، فصـدَّقوه بـما قـال، وروى من هذا الطريق وبنحوه الترمذي، ولفظه: «أذكركم بالله، هل تعلمـون أن رسـول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسـرون، فجهـزت ذلـك الجيش؟ قالوا: نعم...». ومن طريق آخر له من حديث ثُمامة بـن حَـزْنٍ: «...أنشـدكم الله وبالإِسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم».

وبلغت هذه المشاركة من عثمان ألف دينار. وعندما نثرها في حجر النبـي ﷺ أخـذ يقلبها ويقول مرارًا: «**ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم**». [نفسه].

وقيل إن عثمان رضي الله عنه قدم أشياء عينية كالإِبل وعدتها، وأنه تصـدق بثلاثمئـة بعـير بأحلاسها وأقتابها [والأحلاس جمع حلس: وهو مايوضع تحت السرج، والأقتـاب: جمـع قتـب: وهو الرحل] [الحاكم]، وليس هناك ما يمنع ذلك، ما دام قد ثبت أن الصحابة قد أقروا له بتجهيز جيش العسرة، كما هو ظاهر الأحاديث والآثار التي ذكرناها.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهـم، وهـي نصـف أموالـه، لتجهيـز جيش العسرة [تفسير الطبري]، وفي أنه تصدق بأربعة آلاف دينار، وهي أيضًا نصف ماله [نفسه]. وأن عمر تصدق بمائة أوقية. [ابن عساكر].

وتصدق العباس وطلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسـلمة وعاصـم بـن عـدي، كما ذكر الواقدي.

وتصدقت النساء بكل ما قدرن عليه من الأسورة والخلاخل والختم والأقراط، كنّ يضعنه على ثوب مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة ﵂. [الواقدي].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولـذلك تعرضـوا لسـخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عُقَيل بنصف صاع من تمـر، وجـاء آخـر بـأكثر منـه، فلمزوهما قائلين: «إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا ريـاء» فنزلـت الآيـة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾[التوبة:٧٩] [البخاري].

وجاء أبو خَيثَمَة الأنصاري بصاع تمر فلمزوه أيضًا [مسلم]، ولعله هو المعنـي أيضًـا في حديث الطبري [التفسير] في إنفاق ابن عوف، وفيه أن رجلًا من الأنصـار قـال: «... وإن عندي صاعين من تمر: صاعًا لربي، وصاعًا لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقـالوا: «مـا أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أو لم يكن الله غنيًا عن صاع هـذا؟» فـأنزل الله الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء.

وروي أن عُلْبَة بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به، جـاء إلى الرسـول ﷺ فقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بِعِرْضِي على من ناله مـن خلقك»، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى أين المتصدق بعرضه البارحـة، فقـام علبـة، فقال الرسول ﷺ: «قد قُبِلَتْ صَدَقَتُكَ». [الإصابة - وعلبـة المـذكور لـيس مـن ولـد زيـد مولى النبي ﷺ].

لقد كان علبة بن زيد [الحارثي الأنصاري] واحدًا من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بـ(بالبكَّائِيْن)، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون. [ابن إسحاق].

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منه ما يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزينًا. وبعد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالًا إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه ستة أبعرة ابتاعهن من سعد ليركبها مع أصحابه الأشعريين [البخاري]، وفي رواية أنه أعطاهم خمس ذَوْد عندما أُتِيَ بِنَهْبِ إبل. [نفسه].

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأَشْعَرِيِّين قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[التوبة:٩١-٩٢] [تفسير الطبري].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ عندما قال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر**». [البخاري].

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلم الرسـول ﷺ النفـير ودعـا إلى الإنفـاق في تجهيـز هـذه الغـزوة، أخـذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهـم: لا تنفـروا في الحـر، فـأنزل الله تعـالى فـيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾[التوبة:٨١] [ابـن إسـحاق، تفسـير الطبري والشوكاني؛ الدر المنثور].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو في جهازه لتبوك - لِلجَدِّ بن قَيْس: «**يـا جَـدُّ! هل لك العام في جِلَادِ بني الأَصْفَر؟**» فقال: «يا رسول الله أَوَ تَأْذَنُ لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «**قد أذنت لك**»، ففيه نزلـت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[التوبة:٤٩] [ابن إسحاق، الطبري في التفسير؛ الإصابة بأسانيد ضعيفة].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارًا كاذبة، ليأذن لهم بالتخلف، فـأذن لهـم، فعاتبه الله بقوله تعـالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[التوبة:٤٣] [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد بسند صحيح].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهودي يثبطون أنـاس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم [ابن هشام].

ووصلت بهم الجرأة على الله ورسوله أن يبنوا مسجدًا قُبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه ويديروا حلقات تآمرهم على المسلمين، ويأملوا في مجيء أبي عامر الفاسق من عند الروم بجيش يغزو المدينة. وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد الرسول ﷺ للصلاة فيه، وطلبوا من الرسول



ﷺ أن يصلي فيه خداعًا للناس، ولكن الله فضح حقيقة نواياهم عندما أنزل في هذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[التوبة:١٠٧-١٠٨] [الطبري: التفسير، صحيح]. فامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، ثم أحرقه عندما عاد من تبوك ومنعه الله من الصلاة على أمواتهم بعد أن صلى على عبد الله بن أبي بن سلول عقب عودته من تبوك، وذلك في قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾[التوبة:٨٤] [متفق عليه].

وقد تخلف منه جماعة كما ثبت في حديث كعب بن مالك في قوله: «فكنت إذا خرجت في الناس... أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا بنفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء...». [متفق عليه].

وخرج بعضهم مع الرسول ﷺ لعلهم يتحينون الفرص للتخذيل، كما سترى.

لقد استنفر الرسول ﷺ المسلمين للخروج في هذه الغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[التوبة:٣٨]، وكان تثاقلهم بسبب مجيء وقت جني التمر وطيب ثمره واشتهاء الظل لشدة الحر [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد]، وبعد المسافة ومشقة السفر، كما ذكرت الآية: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة:٤٢] [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة، حسن].

وتخلف عن الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهـل الأعذار، وثلاثة ممن لم يكن لهم عذر عن الجهاد، وسيأتي ذكرهم.

موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك:

عندما كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته خلافًا لما كان يفعل في مثل هـذه الغزوات الكبيرة، ليتهيأ المسلون إلى الجهاد [البخاري]، سارع المؤمنون إلى مرافقة الرسول ﷺ ولم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقة، ولم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا بالمدينة، فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول وهو نَازِلٌ بالجُرْفِ ويقول: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟» فقال له الرسول ﷺ: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي**». [متفق عليه].

وها هو أبو خيثمة الأنصاري وقد سارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج رغبة في ما عند الله ﷻ، وفي ذلك يقول: «تخلَّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطًا لي - بستانًا - فرأيت عَرِيْشًا قد رُشَّ بالماء، ورأيت زَوْجَتَيَّ فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السَّموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: «**كن أبا خيثمة**»، فجئت فدعا لي. [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني؛ ابن إسحاق، مرسلًا؛ الواقدي].

ويروى أن أبا ذر عندما أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، رأى أحد المسلمين رجلًا يمشي وحده، فأخبر الرسول ﷺ فقال: «**كُنْ أبا ذر**»، فعندما وصل كان هو أبا ذر، فقال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ**» [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي؛ البيهقي: الدلائل؛ ابن كثير: البداية، وحسنه].



وعندما أقام أبو ذر بالرَّبَذَة في عهد عثمان رضي الله عنه لم يكن معه أحد إلا امرأتـه وغلامـه، فأوصاهما بأن يغسلاه ويكفناه إذا مات، ثم يضعاه على قارعة الطريق ويطلبا الإعانـة عـلى دفنه من أول ركب يمر بهما، ففعلا، ويومها أقبـل ابـن مسـعود رضي الله عنه في رهـط مـن أهـل العراق عُمَّارًا، وكادت إبلهم أن تطـأ الجنـازة، وقـام إلـيهم الغـلام، فقـال: هـذا أبـو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فبكى ابـن مسـعود وقـال: «صـدق رسـول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نـزل هـو وأصـحابه فـدفنوه، ثـم حدثهم حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك. [الحاشية نفسها، حسن بطرقه].

وهذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة في هذه الغـزوة وغيرهـا، كـما هـو معلوم. وأفردنا لذلك فصلًا فيما بعد.

عدد الصحابة في جيش تبوك:

تباينت الروايات في ذلك. ففي رواية معقل عن كعب بن مالك، عند مسلم قال: «وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ». وفي رواية أخرى له عنه: «المسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان». وقال ابن حجر [في الفتح]: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفًا، وبهذا العدد جزم ابن إسحاق». وروى الواقدي عن زيد بن ثابت أنهم كانوا ثلاثين ألفًا، وفي رواية أخرى له: «وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفًا ومن الخيل عشرة آلاف فرس»، وقد نقل عن أبي زُرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفًا [الفتح]، وقال ابن حجر [الفتح] في تعليقه على بعض هذه الروايات: «فتحمل رواية معقل عن كعب على إرادة عدد الفرسان». وقال أبو زرعة الرازي: «وكانوا سبعين ألفًا». وجمع بعض الأئمة بين قوله وقول ابن إسحاق بأن أبا زرعة عد التابع والمتبوع، وابن إسحاق عد المتبوع فقط [تاريخ ابن أبي خيثمة].

والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفًا، وهو ما اتفق عليه أئمة المغـازي والسير: ابن إسحاق والواقـدي وابـن سـعد، ولـيس هنـاك تعـارض مـع مـا جـاء في الصحيح، والله أعلم.

المتخلفون عن غزوة تبوك:

لقد تخلف عن غزوة تبـوك، مـن غـير ذوي الأعـذار والمنـافقين، ثلاثـة مـن خيـار الصحابة، وهم: كَعْبٌ بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع العَمْرِي، وهِلَال بن أُمَيَّة الـواقِفِيُّ، فقد غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وروى كعب رضي الله عنه قصته في هـذا التخلـف، في حديث طويل، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وجاء فيه:

«كان من خبري أني لم أكن قـط أقـوى ولا أيسـر منـه حـين تخلفـت عنـه في تلـك الغزاة... وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسـلمين، فـأرجع ولم أقـض شـيئًا، فـأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئًا. ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو - أي فاتوا - وهممـت أن أرتحل فأدركهم. فيا ليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنـت إذا خرجـت في النـاس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا بنفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء.. ولما بلغني أنه توجه قـافلًا حضـرني همـي، فطفقـت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غدًا؟!... واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيـل إن رسـول الله ﷺ قـد أقبـل، زاح عنـي الباطـل وأجمعـت أن أَصْدُقَهُ، فجئته، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعـال، فجئـت أمشـي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بـلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سـخطه بعـذر، ولقـد



أُعْطِيْتُ جَدَلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا، لي فيهما أسوة... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أي الثلاثة - فَاجْتَنَبَنَا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه أسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. وبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يَدُلُّنِي على كعب بن مالك؟ فَطَفِقَ الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غَسَّان، فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بَلَغَنِي أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله في دار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نُوَاسِك»، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجرته بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل

ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشرونا، وذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشرون.. ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: يا رسول الله، إنما نجَّاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾[التوبة:١١٧-١١٩]... وكنا تَخَلَّفْنَا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾[التوبة:١١٨]، وليس الذي ذَكَرَ الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيانا وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عمن حَلَفَ له واعتذر إليه فَقَبِلَ منه».

وجاء في حديث كعب هذا أن الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كانوا بضعة وثمانين رجلًا، اعتذروا للرسول ﷺ عن تخلفهم فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، ويتطابق هذا العدد مع ما ذكره الواقدي، وقد زاد الواقدي، بأن المُعَذِّرِيْنَ من الأَعْرَابِ كانوا أيضًا اثنين وثمانين رجلًا من بني غِفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي سلول ومن تابعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عددًا كثيرًا،

وروى هو وابن سعد وابن إسحاق أن ابن أبي خرج حتى وصل جبل ذُبَاب - وفي رواية عند ثنية الوداع - بالمدينة ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين، فلما سار الرسول ﷺ تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين، وكل هذه لم يثبت بطرق صحيحة.

وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يتفقده لكثرة أفراد الجيش، ولكن الرسول ﷺ تفقد وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف، فقد سأل أبا رِهْم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وعندما وصل تبوك سأل عن كعب بن مالك. [البخاري].

المسلمون في تبوك:

قيل إن الرسول ﷺ خطب الناس خطبة طويلة في تبوك، قال فيها: **«أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهُدَى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب...»**. [أحمد؛ الأموال؛ البداية، وفي الروايات مطعن].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بـن الوليـد عـلى رأس سريـة إلى أُكَيْـدِر دُوْمَـة الجنـدل فأخذوه، فأتوا به النبي ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية. [ابن إسحاق، يعتضد].

وعندما أخذوه كان يصيد البقر خارج حصنه، وهي الهيئة التي ذكرها الرسـول ﷺ لخالد - أنهم سيجدونه عليها [ابن إسحاق، حسن]. وقد تعجب المسلمون من قَبَـاء كـان يلبسه أكيدر، واستلبه منه خالد وأرسله إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسـن مـن هـذا» [متفـق عليـه، ابن إسحاق؛ عروة؛ الترمذي؛ النسائي].

وفي الصحيح أن أكيدر أهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير [متفـق عليـه]، فعجـب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده...» الحديث بمثـل مـا عنـد ابـن إسـحاق. والراجح أن حصول الرسول ﷺ على الحلة كان عن طريـق الإهـداء كـما في الصـحيح وليس عن طريق الاستلاب كما ذكر ابن إسحاق. ويؤيد ذلك ما رواه أبو يعـلى بإسـناد قوي، أنه لما قدم أكيدر، أخرج قباء من ديباج منسوجًا بالذهب، فرده النبـي ﷺ عليـه، ثم إنه وجد في نفسه من رد هديته فرجـع بـه، فقـال لـه النبـي ﷺ: «**ادفعـه إلى عمـر**»، الحديث [ابن حجر: الفتح؛ الذهبي: المغازي]. وفي رواية عنـد البخـاري أن الرسـول ﷺ لم يعطها عمر ليلبسها، ولذا كساها عمر لأخ له كان بمكة مشـركًا [البخـاري]. وفي روايـة عن علي أنه أهدي إلى النبي ﷺ حُلَّةٌ سِيراءَ فلبسها، فرأى الغضب في وجـه النبـي ﷺ، فشقها بين نسائه. [البخاري].

ويفهم من مجموع هذه الأحاديث أن الحلـة التـي أهـديت إلى الرسـول ﷺ ليسـت واحدة [البخاري]، وأن الرسول ﷺ والصحابة لم يكونوا يلبسون الحرير، لأن ذلك محرم بالأحاديث الصحيحة كما هو معروف.

وقيل إن الرسول ﷺ أرسل خالدًا إلى أكيدر في أربعمائة وعشرين فارسًا، وأن غنائمه كانت ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح. [عروة، مرسلًا].

روى البخاري أن الرسول ﷺ عندما كان بتبوك جاءته هدية ملك أَيْلَة، وهي بغلة بيضاء، وكساه بردًا، وصالحه على الجزية.

وأتاه أهل جَرْبَاء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتابًا، فهو عندهم. [ابن إسحاق].

وفي ذات يوم من أيام تبوك تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين، كانوا قد قدموا عبد الرحمن بن عوف إمامًا لهم وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف، ثم أكمل صلاته. [مسلم؛ أحمد؛ أبو داود].

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل دِحْيَة بن خَليفة الكَلبي إلى هرقل، وهو بتبوك، وأن هرقل أرسل التَّنُوخِي ليتعرف على بعض علامات نبوة محمد ﷺ. ولو ثبت هذا فيكون إرسال دحية للمرة الثانية.

وتوفي حين مقام الرسول ﷺ بتبوك ذو البِجَادَيْنِ [البجادين: مفردها البجاد، وهو الكساء الغليظ الجافي أو المِسْح - كساء من أشعر أسود. وذكر ابن هشام (٤/ ٢٣٤) سبب هذه التسمية، فقال: (لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد واحد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبًا منه شق بجاده باثنتين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقيل له: ذو البجادين لذلك)] عبد الله بن عبد نهم بن عفيف المزني، فنزل رسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. فلما هيأه لشقه قال: «**اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه**». وقال الراوي - عبدالله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة». [ابن هشام، بسند مرسل جيد].

الرجوع إلى المدينة:

لم يلق الرسول ﷺ حربًا من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصرًا، بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وفي الطريق أتوا على الحِجْر من ديار ثَمُود، الذين غضب الله عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح [متفق عليه]، وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسول ﷺ [أحمد، حسن]، وقال لهم: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي [متفق عليه]، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل وَيُهْرِيقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [متفق عليه].

وعندما اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الإِجهاد، دعا الله أن ينشطها، فنشطت بهم حتى بلغوا المدينة [أحمد، حسن، الموارد].

وحاول جماعة من المنافقين الملثمين أن يطرحوا الرسول ﷺ عن راحلته من رأس عَقَبة بالطريق، في عَتَمةٍ من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه [أحمد، حسن].

فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لتلقيه [البخاري]، ومعهم النساء والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وكان أول ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة اعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم لله ﷻ. [متفق عليه]، وجاء الثلاثة المخلفون، وكان من خبرهم ما سبق ذكره.

وقفة مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة - التوبة - حول موضوع هذه الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج وهو مسافر، وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة. وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين.

١ - قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[التوبة:١٠٢].

قال الطبري [التفسير]: (وقد اختلف أهل التأويل في المعني بهذه الآية، والسبب الذي من أجله أنزلت فيه. فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد عند مقدم النبي ﷺ من تبوك، توبة منهم من ذنبهم... وقال آخرون: الذين ربطوا أنفسهم كانوا ثمانية... وقال آخرون: كانوا سبعة... وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة بسبب تخلفه عن تبوك. وقال بعضهم: عنى بهذه الآية الأعراب...)، وذكر الطبري المرويات فيمن قال بكل قول من الأقوال المذكورة... وكلها روايات لا تقوم بها الحجة حسب دراسة الدكتور السندي [الذهب] لها، ولذا قال الطبري [في التفسير]: (وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة... قد تبين أن هذه الصفة لم تكن إلا لجماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك... منهم أبو لبابة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك).

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[التوبة:٦٥]

روى الطبري [بسند صحيح] عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر صحيح عن ابن عمر مضمونه أن رجلًا قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن؛ قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبُهُ [تصيبه] الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**». واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء ولا خلاف بين الأئمة في ذلك. [زاد المسير].

[وحَقَب: حبل يشد به الرحل على بطن البعير].

ويقول الله تعالى تعقيبًا على ما صدر من هذا الرجل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[التوبة:٦٦].

ومما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُفِيَ عنه هو وحشي بن حمير الأشجعي، وذلك لأنه أنكر منهم بعض ما سمع. [الدر المنثور، من حديث ابن إسحاق وابن المنذر بسند حسن].

معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك:

• شكا الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ ما برواحلهم من جهد، فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها ويقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتها، فقال الراوي - فُضَالة بن عُبيد الأنصاري: «هذه دعوة النبي

ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليـابس، فلـما قـدمنا الشـام غزونـا غـزوة قبرص في البحر، فلـما رأينـا السـفن في البحـر ومـا يـدخل فيهـا عرفـت دعـوة النبـي ﷺ » [أحمد، حسن].

روى الواقدي عدة آثار عن معجزات وقعت للرسـول ﷺ ضـمن أحـداث غـزوة تبوك، ولكن كلها ضعيفة، لانفراده بها، مثل الحية التـي اعترضـت سـبيل المسـلمين في غزوة تبوك، ومعجزة نبع الماء من أصابعه، ومعجزة تكثير الطعام.

وكذلك روى السيوطي [في الخصائص الكبرى] آثارًا عن معجزات وقعـت للرسـول ﷺ وكلها ضعيفة، مثل نزول المطر بدعاء الرسول ﷺ في غزوة تبوك، ولقاء إلياس ﷺ بالرسول ﷺ في هذه الغزوة، وكل هذه المعجزات التي وردت عند الواقدي والسيوطي بأسانيد ضعيفة، وقع مثلها بأسانيد صحيحة، جاء ذكرها في ثنايا هـذا الكتـاب، اللهـم إلا قصة إلياس ﷺ والحية، فهي لم ترد من قبل بإسناد صـحيح أو سـقيم. وقـد أفردنـا فصلًا خاصًا للكلام عن معجزات النبي ﷺ.

الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من غزوة تبوك:

١- إن في صـلاة النبـي ﷺ خلـف عبـد الـرحمن بـن عـوف رضي الله عنه تكـريمًا لأحـد أصحابه، ودليلًا على جواز إمامة المفضول وصلاة الأفضل أو الفاضل خلفه.

٢- سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنـة، وهـم في طريـق العودة من تبوك، فأجابه الرسول ﷺ بأن رأس هـذا الأمـر الشـهادة، وقوامـه الصـلاة والزكاة، وذروة سَنَامِه الجهاد [أحمد، حسن].

٣- كان الرسول ﷺ يجمع بـين صـلاتي الظهـر والعصـر، وبـين صـلاتي المغـرب والعشاء [الزرقاني: شرح الموطأ]. وأصبحت سنة لأصحاب الأعذار.

٤ – سئل النبي ﷺ عن سترة المصلي، فأجاب بأنها مثل مُؤخرة الرحل [النسائي، صحيح].

٥ – أقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وبهذا استدل بعض العلماء على جواز القصر ما دام المرء في حالة سفر ولم ينو الإقامة، وانظر الفقرة ١٧ بعد قليل.

٦ – قال ﷺ عن جِلْدِ الميتة: «دِبَاغُها طهورها»، وذلك عندما طلب ماء من بيت بتبوك فأتي له به في قربة من جلد فشرب. [أبو داود، حسن].

٧– أهدر الرسول ﷺ ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة ومعها الثنية. [متفق عليه].

٨– جواز الهجر أكثر من ثلاث ليالٍ لسبب شرعي، كما في أمر الرسول الله ﷺ بمقاطعة الذين خُلِّفوا لمدة خمسين ليلة.

٩– إن من يمر بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لا ينبغي له أن يدخلها، [إلا لضرورة]، ولا أن يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا، كما فعل الرسول ﷺ وأمر به عندما مر بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله ﷻ فيه الفيل وأصحابه. [الزاد].

١٠ – تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في أمر الإعلام بوجهته حين عزم على غزوة تبوك. [نفسه].

١١ – إذا استنفر الإمام الناس للجهاد لزمهم النفير جميعًا، ولا يشترط في وجوب ذلك تعيين كل واحد منهم بعينه، وهو أحد المواضع الثلاثة التي يصبح فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين. [أي حين لقاء العدو].

١٢ - وجوب الجهاد بالمال كما يجب بـالنفس، وهـذه إحـدى روايتـي أحمـد، قـال ابن القيم [الزاد]: (وهو الصواب الذي لا ريب فيه).

١٣ - إن في قول الرسول ﷺ لعثمان رضي الله عنه عندما رأى سخاء بذله: «**مـا ضرَّ عـثمان ما فعل بعد اليوم**»، منقبة كبرى لعثمان رضي الله عنه، تضاف إلى مناقبه الأخرى الكثيرة، والتي أعظمها البشرى له بالجنة.

١٤ - إن العاجز عن الجهاد والذي لا حرج عليه إذا تخلـف عنـه هـو الـذي يبـذل جهده ويتحقق عجزه، كما في حالة الذين جاءوا يسألون الحملان فلم يجد الرسـول ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا يبكون لما فاتهم من شرف وأجر الجهاد.

١٥ - مشروعية استخلاف الإمام، إذا سافر، رجلًا من الرعية على الضعفاء والنساء والذرية، كما في حالة علي رضي الله عنه، ويكون نائبه من المجاهدين، وهي خلافة خاصة، أمـا الاستخلاف العام والخاص بالشؤون الأخرى فكان لمحمد بن مسلمة. [نفسه].

١٦ - لا يجوز شرب ماء آبار ثمود ولا الطبخ منه ولا العجن بـه، ولا الطهـارة بـه، ويجوز أن يسقى منه البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة، فيجـوز الاسـتفادة مـن مائهـا في كل شيء. [نفسه].

١٧ - أقام النبي ﷺ عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصـر الرجـل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكـم السـفر، سواء طالت المدة أم قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع، وكان ذلك عمل بعض أئمة السـلف، مثـل سـعد بـن أبي وقـاص وابـن عمـر وأنـس ابن مالك وعبد الرحمن بن سَمُرة، وهو الصواب كما قال ابن القيم [في الزاد].

١٨ - إن من مراتب الجهاد الأربعة: الجهاد بالقلـب، كـما في حـال الـذين حبسـهم العذر، وقال عنهم الرسول ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًـا... الحـديث**» والمراتـب الأخـرى:

اللسان، والمـال، والبـدن، كـما في الحـديث: جاهـدوا المشـــركين بألسـنتكم وقلـوبكم وأموالكم» [أبو داود؛ أحمد، النسائي؛ الدارمي؛ الحاكم (صحيح)؛ ابن حبان].

١٩- جواز إحراق وهدم أمكنة المعصية، كما فعل الرسول ﷺ بمسجد الضِّرَار.

٢٠- جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، كما في رواية كعب لقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٢١- جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن ذلك على سـبيل الفخـر والترفع، كما فعل كعب رضي الله عنه.

٢٢- إن بيعة العقبة الكبرى كانت من أفضـل مشـاهد الصـحابة رضي الله عنهم، حتـى إن كعبًا رضي الله عنه كان لا يراها دون مشهد بدر.

٢٣- لا ينبغي للإمام أو المطاع أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يـذكره ليراجع الطاعة ويتوب، كما فعل الرسول ﷺ عندما سأل عن كعب وغيره بتبوك.

٢٤- إن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسـلام مـن المنـافقين، ويكـل سريرته إلى الله ﷻ، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره، كـما فعـل الرسول ﷺ مع الذين جاؤوه يعتذرون له عن تخلفهم.

٢٥- إن في سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليلًا ظاهرًا على أن تلـك كانـت عادة الصحابة، وهو سجود الشكر عند حدوث النعم المتجددة، والنقم المندفعـة، وقـد سجد أبو بكر رضي الله عنه لما جاءه خبر مقتل مسيلمة الكذاب [البيهقي: السنن]، وسـجد عـلي عندما وجد ذا الثُّدَيَّةِ أو المُخْدَجَ مقتولًا في الخوارج [أحمد، صـحيح] وهم في هذا يقتدون بالرسول ﷺ. فقد سجد رسـول الله ﷺ عدة مرات لأحداث سارة، وقـال أبـو بكْـرَة: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خرَّ لله ساجدًا» [أبو داود، صحيح؛ الترمـذي، حسـن؛

ابن ماجه، حسن]، ومن أمثلة ذلك سجوده عندما أتاه خبر إسلام همدان على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. [البخاري].

٢٦- استحباب الصدقة عند التوبة بما قُدِرَ عليه من المال، كما جاء في موقف كعب رضي الله عنه وحواره مع الرسول ﷺ عندما أراد التصدق بكل ماله، ولكن الرسول ﷺ استحب له الثلث، فأمسك فقط سهمه الذي بخيبر. [أبو داود، صحيح].

٢٧- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم، فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا خوفًا من مواجهة رسول الله ﷺ حينما وصل تبوك، وجاءه نصارى العرب فصالحوه على الجزية.

٢٨- إن موقف كعب رضي الله عنه من رسالة ملك غسان وتعليقه على طلبه، فيه صورة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه إيمان المسلم بربه تعالى، وإن الابتلاء لا بد أن يكشف عن المزيد من الإيمان وشدة الإخلاص.

٢٩- لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها الرسول ﷺ بإعداد جيش أسامة رضي الله عنه قبيل وفاته، فأنفذه أبو بكر، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى التي انساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية.





الفصل الرابـع والعشرون
الـوفــود

عندما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعـت، قـدمت إليه وفود العرب من كل وجه [ابن إسحاق]، حتى إن سنة تسع كانت تسمى سنة الوفود [ابن هشام]. وقد سبق القول إن أبرز نتائج فتح مكة أن أخذت قبائل العـرب وأفرادهـا يبادرون بإسلامهم؛ لأنهـم كـانوا ينتظـرون نتيجـة الصـراع بـين المسـلمين وقـريش. [انظر: نتائج فتح مكة].

وذكر البخاري وابن إسحاق والواقدي وابن سعد والبيهقـي وفـودًا تقـدم تـاريخ قدومهم على سنة تسع، بل وعلى فتح مكة [البداية]. وهو أمر ستراه ظاهرًا عند الوقوف على أخبار الوفود في المصادر المختلفة، ومن خلال تناولي لها في هـذا الكتـاب؛ عـلى أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود لم يستقصوها جميعها، ولذا استدرك عليهم ابن كثير، وذكر ما أهملوه [نفسه]، مستفيدًا في هذا من المصادر الأخرى التي ضاع معظمها، ولكن وجدت منها روايات مبثوثة في كتب الذين جاؤوا من بعدهم. وقد تكلمنـا عـن هذا في المباحث الخاصة بمصادر السيرة.

وبلغ مجموع ما ذكره هؤلاء الأئمة ما يزيد على الستين وفدًا، وقد سردهـم الشـامي في سيرته، فزادوا على مائة، فلعل هؤلاء الأئمة اقتصـروا عـلى ذكـر المشـهور مـنهم أو الذين أتوا لترتيب مصالحهم [الظاهري: وفود الإسلام]. وكان ابـن سـعد صـاحب أكـبر إسهام في إيراد أخبار تلك الوفود، ويعاب عليه وعلى شـيخه الواقـدي وابـن إسـحاق إهمال الإسناد إلا نادرًا، وحتى معظم هذه الأسانيد النادرة لا يخلو معظمها من مطعـن من حيث ضعف الرجال أو الإرسال.

وسأشير في كتابي هذا إلى أسماء أبرز الوفود التي قدمت على الرسول ﷺ، دون الدخول في تفاصيل أخبارها، لأن ذلك مما يطول الكلام فيه، وقد أفرد لها أبو تراب الظاهري كتابًا مفيدًا. [نفسه]. وهاكها:

١- وفد مُزَينة: قدموا على الرسول ﷺ في رجب سنة خمس [ابن سعد] وكان عددهم أربعمائة. وانظر خبرهم في المسند [حسن]. ففيه معجزة تكثير التمر.

٢- وفد بني تميم: ذكر البخاري قدوم هذا الوفد، كما حكت سورة الحجرات عنهم من تصرفات مجافية لآداب الاستئذان والمخاطبة، حيث آذوا الرسول ﷺ بصياحهم له من وراء حجراته، طالبين منه أن يخرج إليهم ليفاخروه، ولم يستأذنوا عليه. [البخاري].

وكان قدومهم على الرسول ﷺ في أول السنة التاسعة الهجرية [الدياربكري].

٣- وفد عبد القيس: ممن ذكر خبرهم البخاري ومسلم وغيرهما. وفيه خبر أشج عبد القيس وثناء الرسول ﷺ على حلمه.

٤- وفد بني حنيفة: روى البخاري من حديث ابن عباس أن مسيلمة الكذاب قدم على النبي ﷺ في بشر كثير من قومه بني حنيفة، فجعل يقول: «إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته»، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مُسَيْلِمَة في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت في ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني»، ثم انصرف عنه.

وقد سأل ابن عباس أبا هريرة عن قوله ﷺ: **«وإني لأراك الذي أُرِيْتَ في ما أريت»**، فأخبره أن رسول الله ﷺ قال: **«بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام، أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»**.

واسم العنسي عَبْهَلَة أو عَيهَلَة بن كعب، والعَنْسِيّ نسبة إلى قبيلة عنس - بطن من مذحج - ادعى النبوة في عهد النبي ﷺ، باليمن، وحاربه الذين ثبتوا على الإسلام باليمن وقتلوه هو وزوجته، وقضوا على فتنته قبل وصول جيوش الخليفة أبي بكر رضي الله عنه. وقد فصلنا القول في فتنته بكتابنا: (الثابتون على الإسلام).

٥- وفد نجران: ثبت في الصحيح أن العاقب والسيد صاحبي نجران جاءا إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه - أي يباهلانه -، فقال أحدهما لصاحبه: «لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا». وقالا: «إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا». فقال: «لأبعثن رجلًا أمينًا حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ: **«هذا أمين هذه الأمة»**. [متفق عليه]، فخرج معهم أبو عبيدة ليقضي بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه. [ابن إسحاق].

٦- وفد الأشعريين: ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري أنه عندما بلغهم مخرج النبي ﷺ وهم باليمن خرجوا مهاجرين إليه ومعهم أخوان له، هو أصغرهم، أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رِهم، وهم في بضعة أو في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلًا من قومه، فركبوا سفينة، فألقتهم إلى النجاشي بالحبشة، ووافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فطلب منهم جعفر أن يقيموا معهم لأن رسول الله ﷺ بعثهم إلى هاهنا وأمرهم بالإقامة، فأقاموا معه، حتى قدموا جميعًا، فوافقوا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لهم. [متفق عليه].

٧- وفد الحِمْيَريين من أهل اليمن: وهؤلاء الحميريون هم الذين جاء ذكرهم في الصحيح، وذلك عندما جاءت بنو تميم إلى الرسول ﷺ فقال: **«أبشروا يا بني تميم»**، فقالوا: «أما إذا بشرتنا فأعطنا». فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن، فقال النبي ﷺ: **«اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم»**، قالوا: «قد قبلنا يا رسول الله». [البخاري].

وكان ذلك في العام التاسع، عام الوفود. [ابن حجر: الفتح].

٨- وفـد طـيِّء: قـدموا عـلى رسـول الله ﷺ، وفـيهم زيـد الخيـل، الـذي سـمَّاه الرسول ﷺ زيد الخير، وهو سيدهم، فأسلموا وحسن إسلامهم، وأقطع الرسـول ﷺ زيدًا أرضًا، وكتب له كتابًا بذلك، ومات بالحمى في طريق عودته. ولما مـات أحرقـت زوجته ما كان معه من كتب لجهلها. [ابن إسحاق، ابن سعد].

٩- وفد بني عامر: ثبت في الصحيح أن عـامر بـن الطفيـل أتـى النبـي ﷺ فقـال: أخيِّرك بين خصال ثلاث: «يكون لك أَهْلُ السَّهْلِ وَلِيَ أهل المَدَرِ، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان، بألف أشقر وألف شـقراء»، فَطُعِـنَ في بيـت امـرأة، فقـال: **«أَغُدَّةٌ كغدة البعير، في بيت امرأة مـن آل بنـي فـلان، ائتـوني بفـرسي»**، فركـب، فـمات على فرسه. [البخاري].

وروى الطبراني في الكبير [كما في تاريخ وتفسير ابن كثير] تآمر ابـن الطفيـل وإِرْبِـد عـلى قتل النبي ﷺ، وكانت خطتهما أن يشغل ابن الطفيل الرسول ﷺ بالحديث فيضـربه إربـد فيقتله، فلا تكون إلا الدية، لأن الناس ستكره الحرب، ولكـن الله ﷻ عصـمه مـنهما، إذ لم يستطع إربد أن يفعل شيئًا، وأهلك الله عامرًا بالغدة وإربدًا بالصـاعقة، فـأنزل الله فـيهما: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[الرعد:٨] - إلى قولـه - ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني محمدًا، و﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[الرعد:١٣].

١٠- وفد جُذَام: قدم رفاعة بن زيد الجذامي في عشرة من قومه على رسول الله ﷺ في زمن هدنة الحديبية وقبل خيبر، فأسـلم وحسـن إسـلامه، وأهـدى لرسـول الله ﷺ غلامًا، وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا وبعثه إلى قومه، فدعاهم إلى الإسـلام، فأسـلموا. [ابن إسحاق، يتقوى بغيره].

١١- وافد دوس -الطفيل بن عمرو- وقصته: روى ابن إسحاق من حديث الطفيل بن عمرو الدوسي أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، لأنه كان رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، وأرادوا أن يصرفوه عن الاستماع إلى الرسول ﷺ وحاولوا إقناعه بشتى الحجج حتى أجمع ألا يسمع من الرسول ﷺ، وحشا أذنيه قطنًا ثم أتى المسجد، وأقام قريبًا من الرسول ﷺ وأبى الله إلا أن يسمع منه بعض قوله، فسمع كلامًا حسنًا ثم قال في نفسه إنه ما دام رجلًا لبيبًا شاعرًا ما يخفى عليه الحسن من القبيح فلماذا لا يسمع من الرسول ﷺ. فمكث حتى انصرف الرسول ﷺ إلى بيته فجاءه وحكى له ما حدث من قريش، وسمع منه، فأعجبه ما قال فأسلم، وطلب أن يدعو الرسول ﷺ الله ليجعل له آية تكون عونًا له على دعوة قومه. فكان أن جعل الله له نورًا في رأس سوطه. وعندما عاد كان أول من أسلم على يديه والده وأمه، وأبطأت عليه دوس، فعاد إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو الله عليهم، ولكن الرسول ﷺ قال: «**اللهم اهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم**». فرجع وأخذ يدعو إلى الإسلام إلى ما بعد غزوة الخندق، ثم قدم بمن أسلم من قومه على رسول الله ﷺ وهو بخيبر، وهم نحو سبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقوا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لهم مع المسلمين [سبق ذكر القصة]، فلم يزل مع الرسول ﷺ حتى إذا فتح مكة طلب أن يبعثه إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة، فأحرقه. [سبق ذكرها].

أما حديث الرسول ﷺ: «**اللهم اهد دوسًا...**» فأصله في الصحيح من رواية البخاري ومسلم. ومما يثبت أن الطفيل قد قدم على الرسول ﷺ وهو بمكة ما رواه مسلم من حديث جابر أن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! هل لك في حصن حصين ومنعة؟ حصن كان لدوس في الجاهلية - فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل وهاجر معه رجل من قومه...» الحديث.

١٢ - قدوم جَرِير بن عبد الله البَجَلِيِّ: كان رسول الله ﷺ يخطب في المسـجد عنـدما دخل جرير المدينة، وذكره الرسول ﷺ في خطبته قبل أن يدخل عليهم المسجد، فقـال: «**يدخل عليكم من هذا الباب - أو من هذا الفج - من خير ذي يمن، إلا أن على وجهـه مسحة ملك**». [أحمد والطبراني برجال ثقات؛ الطيالسي، صحيح]. فأسلم على يـدي الرسـول ﷺ وبايعه [متفق عليه]. وأكرمه الرسول ﷺ بأن ألبسه حلته، وقـال: «**إذا أتـاكم كـريم قوم فأكرموه**». [البيهقي، الدلائل].

والظاهر أن إسلامه كان متـأخرًا عـن الفـتح، فـإن الإمـام أحمـد روى عنـه قولـه: «أسلمت بعدما أنزلت المائـدة، وأنـا رأيـت رسـول الله ﷺ يمسـح بعـدما أسـلمت». [البداية، من رواية أحمد].

وذكر ابن سعد أن إسلامه وإسلام من كان معه في الوفد وعـددهم مائـة وخمسـون رجلًا [البخاري]، كان في العام العاشر، في رمضان.

١٣ - وفد ثقيف: أرسـلت ثقيـف وفـدًا إلى رسـول الله ﷺ في رمضـان مـن العـام التاسع بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، برئاسة عَبْد يَالَيل بن عمرو ومعه ثلاثة من بني مالك واثنان من الأحلاف، فأعلنوا إسلامهم وإسلام قومهم، وطلبوا من الرسول ﷺ تأخير هدم صنمهم اللَّات لمدة ثلاث سنين، مخافة غضب قومهم، فرفض ذلك الطلب، وما زالوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرًا واحدًا، فأبى أن يدعها شيئًا مسمى كما يروي ابن إسحاق، ولكنه أعفاهم من القيام بذلك، وأوكل أمر ذلك إلى أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، وطلبوا إعفاءهم من الصلاة بحجة عدم استساغتهم الركـوع والسجود، فأبى عليهم ذلـك قـائلًا: «**لا خـير في ديـن لا صـلاة فيـه**». [ابـن إسـحاق]، واشترطوا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، فوافقهم على ذلك، وهو يقـول: «**سيتصـدقون**

ويجاهدون إذا أسلموا» [أبو داود، حسن]. وسألوه أن يعفيهم من الوضوء بحجة أن بلادهم باردة، وأن ينتبذوا في القرع، وأن يعيد إليهم أبا بكرة الثقفي، فأبى عليهم هذا كله. [أحمد، صحيح].

وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، لكنه كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين. [مسلم؛ أحمد؛ ابن ماجه].

١٤ - وافد فَرْوة بن عمرو الجُذَامي - صاحب بلاد مُعَان: قدم على رسول الله ﷺ مسعود بن سعد وافدًا من قبل فروة بن عمرو الجذامي، عامل الروم على معان. وبعث معه فروة هدايا، منها بغلة بيضاء وفرس وحمار، وكتب إليه الرسول ﷺ يبلغه وصول رسوله بخبر إسلامه، وأهدى إليه هدايا. وعندما بلغ ملك الروم خبر إسلام فروة أرسل إليه وأمره بالرجوع عن الإسلام، فرفض فروة، فحبسه ثم صلبه وضرب عنقه. [ابن إسحاق، ابن سعد].

١٥ - وفد بني أسد: ذكر ابن سعد أنهم قدموا في أول السنة التاسعة، وكانوا عشرة، منهم ضِرَار بن الأزور، ووابِصَة بن معبد، وطُلَيحة بن خويلد الأسدي. وقال رئيسهم - حَضْرَمِيَ بن عامر -: «يا رسول الله! أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثًا»، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

وروى البزار [ابن كثير: التفسير، صحيح] بإسناده إلى ابن عباس، قال: «جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك». فقال رسول الله ﷺ: «**إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم**»، ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية.

ومن بين الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ غير ما ذكرنا:

جُعْفِيّ، زُبَيْد، الصَّدِف، خشبين، سَعْد هُذَيْم، بَلِّيّ، عـذرة، سَـلَامان، بَهْراء، جهينـة، كلب، جرم، غسان، سعد العشيرة، عنس، الرهاويين من مذحج، غامد، النخع، أزد عمان، خثعم، غافق، بارق، ثمالة والحدان، أسلم، جـذام، مهـرة، جيشـان، جماعـة جبـل تهامـة، وكانوا جماعة من العبيد من كنانة ومزينة والحكـم والقـارة ومـن اتـبعهم، غصـبوا المـارة، وكتب إليهم الرسول ﷺ كتابًا أمنهم فيه، وقال فيه: «**فعبدهم حر ومولاهم محمد، ومـن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها...**»، مذحج، بني نهدى من غور تهامة، بني نمير، السباع، الجن، الذين قدموا عليه بمكة، هوازن، الذي قدم على الرسول ﷺ بالجعرانة حين منصرفه عن الطائف، ثعلبة، أسيد بن أبي أناس، وفد جاء النبي ﷺ تائبًـا بعـد أن أهـدر النبـي ﷺ دمه، بني سحيم، بني سدوس، أبي صفرة، عَنَزَة، وفـيهم سـلمة بـن سـعد، وقـال عـنهم رسول الله ﷺ ذات يوم: «... **حي ههنا مبغي عليهم منصورون**»، ربيعة بن رواء العنسي، وفادة قيس بن عاصم، نصارى الحبشة، وقد قدموا إليه وهو بمكة، وكانوا عشرين رجـلًا أو قريبًا من ذلك: بني سعد بن بكر، وفادة فروة بن مسيك المـزدي، كنـدة، زبيـد، الأزد، وافد ملوك حمير، وافد حضرموت، بني المنتفف، صاء، وافد بكر، وفادة تميم الداري، بنـي قشير، بني الحارث بن كعب، وفادتا همدان، وفـادة الحكـم بـن حـزن الكلفـي التميمـي، عبس، بني فزارة، بني مرة، بني ثعلبة، بني كلاب، بني عقيل بن كعب، جعدة، بني البكاء، وافد كنانة، بني عبد بن عدي، أشجع، بني سليم، بني هلال بن عامر، بني بكر بن وائـل، تغلب، بني العنر، تجيب، خولان.

وهكذا يصل عدد هذه الوفود قرابة المئة، ذكر معظمهم ابن سعد في الطبقات. وقد حذفنا الإشارة إلى المصادر والحكم على الأسانيد من بـاب الاختصـار، ولمـن يريـد مـا اختصرناه فليرجع إلى الكتاب المطول. فقد وقفنا عند (٥٣) وفدًا.

أحكام وعبر وفوائد من أخبار الوفود:

١- إن في أخبار وفود هذه القبائل على الرسول ﷺ لدليلًا واضحًا على مدى انتشار الإِسلام في الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ، وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية واحدة هي راية الإِسلام والدولة الإِسلامية بالمدينة المنورة.

٢- إن في تدفق هذه الوفود على المدينة لدليلًا على وفاء الله ﷻ بوعده النصر الذي وعده نبيه.

٣- إن من حسن السياسة وأدب الإِسلام وأخلاقه احترام ممثلي الشعوب أو القبائل وإكرامهم، وذلك بدليل ما كان يفعله الرسول ﷺ مع الوفود من الضيافة وحسن الاستقبال وإجزال العطاء.

٤- جواز إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه وهدايته، فقد علمنا أن النبي ﷺ كان يستقبل وفد ثقيف في مسجده لمحادثتهم وتعليمهم، وإذا كان هذا جائزًا للمشرك، فجوازه للكتابي أولى. وقد استقبل النبي ﷺ وفد نصارى نجران بالمسجد. قال الزركشي: (واعلم أن الرافعي والنووي -رحمها الله- أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم بإذن المسلم، بقيود:

أولها: أن لا يكون قد شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول.

ثانيها: أن يكون المسلم الذي أذن له مكلفًا، كامل الأهلية.

ثالثها: أن يكون دخوله لسماع القرآن أو علم ورجي إسلامه، أو دخل لإِصلاح بنيان ونحوه).



الفصل الخامس والعشرون
الأحداث والسرايا والبعوث بين تبوك والوفاة

المبحث الأول: حجة أبي بكر رضي الله عنه

أَمَّرَ الرسول ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة [متفق عليه]، ومعه ثلاثمئة من الصحابة. [ابن سعد].

وعندما فَصَلَ رَكْبُ الحجاج عن المدينة نزلت سورة براءة، فبعث النبي ﷺ عليًا بن أبي طالب بصدرها ليعلنها على الناس في يوم النحر بمنى، وقال: «**لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي**». [ابن إسحاق، مسل حسن].

وعندما رأى أبو بكر عليًا قال له: «أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور»، ثم مضيا [ابن إسحاق، حسن مرسل]. وكان رهط من الصحابة، منهم أبو هريرة، يساعد عليًا في النداء بآيات براءة المطلوب تبليغها للناس، ويعلنون في الناس أمر الرسول ﷺ: «**أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج البيت بعد العام مشرك**». [متفق عليه].

وقد ذكر الإمام البغوي [في التفسير] قول العلماء في سبب بعث النبي ﷺ عليًا ليقرأ صدر سورة براءة على الناس في الحج ويعلمهم بأمر الرسول ﷺ في ذلك، هو أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث عليًا دفعًا للعلة ولئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فينا في إلغاء العهد.

المبحث الثاني : بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، كل منهما عـلى جهة، وأوصاهما قائلًا: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا**» [متفق عليه]، وقال لمعاذ: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات، في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض علـيهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإيـاك وكـرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**». [البخاري وبقية الجماعة].

وعندما خرج معاذ، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «**يا معاذ، عسى أن لا تلقاني بعد عامي هـذا، ولعلـك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري**»، فبكى معاذ جزعًـا لفـراق رسـول الله ﷺ، وفي لفـظ، فقال النبي ﷺ: «**لا تبك يا معاذ، للبكاء أوان، إن البكاء من الشيطان**»، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إن أولى بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» [أحمد، جيد]، وبين له أنصبة الزكاة. [الترمذي، حسن؛ وغيره].

وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**كيف تصنع إذا عرض لـك قضـاء؟**» قال: «أقضي بما في كتاب الله»، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**»، قال: «فبسنة رسول الله ﷺ »، قال: «**فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟**» قال: «اجتهد وإني لا آلو»، فضـــرب رسول الله ﷺ صدره ثم قال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يـرضي رسـول الله ﷺ** ». [أبو داود؛ الترمذي، والراجح صحته].

المبحث الثالث: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن

بعث الرسول ﷺ خالدًا بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث عليًا بعد ذلك مكانه. وكـان من ضمن مهامه أن يقبض الخمس. وعندما أخبر النبي ﷺ عليًا بما يريد قال علـي: «يـا رسول الله، إنك تبعثني إلى قوم هم أسن مني لأقضي بينهم»، فقال النبي ﷺ: «**اذهـب، فإن الله تعالى سيثبت لسانك ويهدي قلبك**» [أبو داود، أحمد، صحيح]، ثـم أوصـاه قـائلًا: «إذا تقدم إليك خصمان فلا تسمع كلام الأول حتى تسمع كلام الآخـر، فسـوف تـرى كيف تقضي، فقال علي: فما زلت بعد ذلك قاضيًا» [أحمد، صحيح].

ثم قال النبي ﷺ لعلي: «**مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعَقِّبَ معك فَلْيُعَقِّـبْ، ومن شاء فَلْيُقْبِلْ**» [البخاري]، ومكث علي ومن معه باليمن إلى أن قـدم حاجًـا إلى مكـة فوافى النبي ﷺ في حجة الوداع. [متفق عليه].

وقد ضرب علي رضي الله عنه أروع الأمثلة في أداء الأمانة التي أنيطت به، ومن أمثلة ذلك أن أصحابه عندما طلبوا منه أن يركبوا من إبل الصدقة ويُرِيحُوا إبلهم بحجة أن بـإبلهم خللًا وضعفًا، أبى عليهم ذلك، وقال: «إنما لكم منها سـهم كـما للمسـلمين». وعنـدما ذهب إلى الحج سأل أصحابه خليفته ما كان علي منعهم إياه، فوافق على ذلك، فلما جـاء علي عرف أن الإبل قد ركبت، فذم خليفته ولامه، وعد بعض أصحاب علي ذلـك منـه غلظة وتضييقًا، فشكاه أبو سعيد الخدري إلى النبي ﷺ، فوافق الرسـول ﷺ عـلى هـذا المسلك من علي، فندم الخدري على شكواه، وقال: «... والله لا أذكره بسوء أبدًا سرًا ولا علانية» [البيهقي: الدلائل، جيد]، وعندما اشتكى الجند عليًا بحجة اشتداده في معاملتهم، قال: «**أيها الناس، لا تشكوا عليًا فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سـبيل الله، مـن أن يشكى**» [ابن إسحاق، حسن]، وقال: «**من كنـت مـولاه فعـلي مـولاه**» [أحمـد، جيـد]، وفي

رواية: «**فمن كنت مولاه فإن عليًا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**» [النسائي، صحيح]، وكان ذلك عندما استرجع عليٌّ حللًا وزعها عليهم نائبه، فاشتكوه، فقام الرسول ﷺ خطيبًا في الناس في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة بغدير خُم حين منصرفه من الحج، وقال كلامًا فيه ثناء عليه.

[وللعلماء وقفات عند هذه الخطبة، بينوا ما ألحق بها من زيادات أراد واضعوها أن يثبتو الوصية لعلي رضي الله عنه في الخلافة بعد النبي ﷺ.]

لقد نجح علي رضي الله عنه في المهمة التي لم ينجح فيها خالد رضي الله عنه. فقد أقام خالد ستة أشهر يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجيبوه، وعندما قدم علي اليمن ودعا همدان إلى الإسلام أجابوه جميعًا، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدًا ثم رفع رأسه، فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**». [البيهقي: الدلائل، وأصله في البخاري].

المبحث الرابع: سرية جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه إلى ذي الخَلَصَة

كان لخثعم وبجيلة بيت في الجاهلية يقال له (ذو الخَلَصَة) و(الكعبة اليمانية) و(الكعبة الشامية). فعندما قدم جرير بن عبد الله البجلي في وفد قومه إلى الرسول ﷺ بالمدينة قال له الرسول: «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**». فشكا إليه جرير أنه لا يثبت على الخيل، فضرب ﷺ بيده على صدره، وقال: «**اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا**». فنفر جرير في مائة وخمسين راكبًا فكسروه وقتلوا من عنده، وأرسل جرير أبا أَرطأة حصين بن ربيعة الأَحْمَسِي بالخبر إلى النبي ﷺ، فدعا لهم عامة ولأحمس، إخوة بجيلة - رهط جرير - بصفة خاصة. [متفق عليه].

فوائد من هذه السرية:

١- إن في خبر هذه السرية ما يدل على مشروعية إزالة ما يفتن الناس من بناء وغيره. [ابن حجر: الفتح].

٢- ينبغي لأهل الخير أن يدعو بالثبات لمن لا يثبت على الخيل [نفسه]، أو غيرها من وسائل الجهاد، مثل استخدام الصواريخ وما يشبهها من أدوات الحرب في زماننا هذا أو غيره.

٣- وفيه إشارة إلى فضيلة ركوب الخيل والثبات عليها [نفسه]. ويمكن أن يقاس على ذلك فضيلة ركوب الدبابة والطائرة وغيرهما من وسائل الحرب في زماننا هذا.

٤- استمالة نفوس القوم بتأمير من هو منهم، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك كثيرًا، وكذلك الاستمالة بالدعاء والثناء والبشارة في الفتوح. [البداية].

المبحث الخامس: حجة الوداع

ذكروا أن الله تعالى فرض الحج في العام العاشر أو التاسع أو السادس، وقبل الهجرة، وهو غريب. وجزم ابن القيم بأن فرضه كان في العام العاشر لقوة الأدلة على ذلك، وهو اللائق بهديه في عدم تأخير ما هو فرض، لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران:٩٧]. وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع.

ولم يحج الرسول ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولًا وعملًا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣] [البخاري؛ البداية]

وعندما أعلن الرسول ﷺ عزمه على الحج في العام العاشر، قدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله. [مسلم].

وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة [ابن إسحاق، حسن]، ووقعت له في مسيره هذا ورجوعه أحداث كثيرة [البداية]، مكانها أبواب الحج من كتب فقه العبادات، وقد أفرد لها العلماء قديمًا وحديثًا كتبًا خاصة، تناولوا ما جاء فيها من مناسك الحج وأحكامه، ووصايا الرسول ﷺ للأمة. ومن أشهر خطبه في هذه الحجة تلك الخطبة التي ألقاها في وسط أيام التشريق، ومما قاله فيها: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - (كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل) - وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال اللهم اشهد**» - ثلاث مرات. [مسلم].

وقال ﷺ في خطبة خلال تلك الحجة: «**...ويلكم أو ويحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» [متفق عليه]، وقال: «**... إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاورون من**

أعمالكم، فاحذروا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنة نبيه، إن كل مسلم أخو المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس...». [الترمذي، حسن؛ ابن ماجه، أحمد، صحح؛ الحاكم، صحيح؛ دلائل البيهقي].

فائدة: روي أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: **«ذهبت لقبر أمي، فسألت الله أن يحييها لي، فأحياها، فآمنت بي»**. ضعف العلماء هذا الحديث كما جاء في تحقيق (حدائق الأنوار) [لمحمد بن بحرق].

قلت: وصح أنه زار قبر أمه وقال: **«استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فاستأذنته أن استغفر لها فلم يأذن لي»**. [مسلم].

المبحث السادس: أحكام ومبادئ وعبر من حجة الوداع

١- أراد الرسول ﷺ أن يتعلم الناس منه كيفية أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، الحج، بعد أن حرم التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام الحج من تصدية وصفير وعري أثناء الطواف، وقضى على الأوثان وطهر البيت الحرام منها.

٢- وأراد أن يلتقي في هذه الحجة بالمسلمين الذين تقاطروا إليه من كل حدب وصوب، ويلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة مختصرة، ويحملهم أمانة تبليغها إلى من لم تبلغه من البشر في كل أصقاع الدنيا في الحاضر والمستقبل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويؤدي فريضة الحج ليبين للناس عمليًا هذا الركن الخامس من أركان الإسلام. ولذا فقد تضمنت خطبه ﷺ في هذه الحجة لكل أحكام الحج، وأوصى الأمة بأهم مبادئ الإسلام وأسسه.

وأهم حديث وردت فيه أحكام حجة النبي ﷺ ووصاياه فيها، هو حديث جابر، الذي رواه مسلم، وقال عنه النووي [مسلم]: (وهو حديث عظيم ومشتمل على جمل

من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفـراد مسـلم؛ لم يـروه البخـاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم. قال القاضي -عياض- وقد تكلم الناس عـلى ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر ابن المنذر جزءًا كبيرًا، وخرج فيه من الفقه مائة ونيفًا وخمسين نوعًا، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه...).

أما أهم وأبرز المبادئ التي أكدها الرسول ﷺ وأوصى أمته بها، فهي:

١- الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض. [مسلم].

٢- الإعلان عن تحريم الظلم والربا، وكل عادات الجاهلية الضارة. [نفسه].

٣- الإعلان عن حقوق النساء، والأمر بالاعتراف بها وأدائها، وكذا حقوق الزوج على زوجته. [نفسه؛ الترمذي، حسن].

٤- تحـريم الوصـية للـوارث، وتقريـر قـانون التـوارث كـما في القـرآن الكـريم. [عبد الرزاق؛ أحمد].

٥- حرمة التبني والانتساب لغير الأب أو تولي غـير المـوالي، رغبـة عـنهم. [نفسـه؛ أبو داود؛ ابن ماجه].

٦- تقرير أن الولد ينسب إلى من ولد على فراشه، وأن العاهر لا حق له فيه وإنما لـه الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنى. [نفسها].

٧- أخبرهم أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه النـاس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسـه في طاعة الله تعالى. [ابن حبان]. وطلب ممن كانـت عنـده أمانـة فليؤدهـا إلى مـن ائتمنـه عليها. [أحمد؛ البزار].

٨- حذر من الكذب عليه، فقـال: **«مـن كـذب عـلي فليتبـوأ مقعـده مـن النـار»**. [ابن ماجه، صحيح؛ أحمد].

٩- وأوصاهم بالاعتصام بالكتاب والسنة، فقال: وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به: كتاب الله، وسنة نبيه. [مسلم].

١٠- وأوصاهم بأن المؤمنين إخوة، وأنه لا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. [مسلم].

١١- أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر مهما كان جنسهم أو لونهم أو وضعهم الاجتماعي، ما داموا يقيمون فيهم كتاب الله عز وجل. [الترمذي، حسن].

١٢- قرر أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى وليس بأي اعتبار آخر. [الطبراني، المجمع].

١٣- الوصية بالأرقاء. [أحمد، صحيح؛ البغوي، صحيح].

١٤- وأوصاهم بأن ثلاثًا لا يغل عليهن قلب المسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين.

المبحث السابع: سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الشام

رجع النبي ﷺ من حجة الوداع في أواخر ذي الحجة من العام العاشر، وفي أواخر صفر من العام الحادي عشر ندب الناس لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، وفيهم كبار المهاجرين والأنصار. [ابن حجر: الفتح، الواقدي]، ودعا ﷺ أسامة بن زيد، فأمره على هذا الجيش. فطعن بعض الناس في إمارته، فقام ﷺ فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايْمُ الله إن كان لَخَلِيقًا للإمارة وإنْ كان لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ**». [البخاري].

وكان سبب طعن بعض الناس في إمارة أسامة لكونه صغير السن، إذ كان ابن ثـمان عشرة سنة. [ابن إسحاق، حسن].

ومرض رسول الله ﷺ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين ولذا لم يتحرك هـذا الجيش، وظل معسكرًا بالجُرف، ورجع إلى المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ثـم أنفـذه أبـو بكـر رضي الله عنه عنـدما اسـتخلف، وكانـت عدتـه ثلاثـة آلاف. [ابـن إسـحاق، مرسل حسن].

عظات وعبر:

١- بيان فضل أسامة بن زيد وأبيه زيد رضي الله عنهما ومكانتهما عند الرسول ﷺ فلا صغر السن ولا الرق القديم الذي وقع على أبيه زيد منع رسـول الله ﷺ مـن أن يجعلـه أمـيرًا على جيش فيه عامة الصحابة في غزوة كبرى. وهكـذا حطمـت شريعـة الإسـلام قـيم الجاهلية ومقاييسها التي كانوا يتفاضلون بها.



الفصل السادس والعشرون
المرض والوفاة

اشتكى رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري. [ابن إسحاق].

وطلب يومئذ من مولاه أبي مُوَيهِبَة أن يصحبه في جوف الليل إلى البقيع، لأنه أمر أن يستغفر لأهل البقيع، وعندما وقف بين أظهرهم قال: «**السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى**»، ثم أقبل على أبي مويهبة قائلًا: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقال أبو مويهبة: «بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة**»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف. [ابن إسحاق، حسن] إلى بيت عائشة، وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى اشتد به وجعه في بيت ميمونة. [ابن إسحاق، حسن]، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها. [البخاري؛ ابن إسحاق، حسن]، واستغرق مرضه عشرة أيام. [الفتح: دلائل البيهقي صحيح]، ثم توفاه الله يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول. [نفسه]. وقد تم له من العمر ثلاثة وستون عامًا. [البخاري؛ أحمد، صحيح].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالمعوذتين والأدعية الكثيرة التي حفظتها من رسول الله ﷺ، وتنفث بذلك على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة. [متفق عليه].

ويوم زادت درجة حرارة جسمه، طلب أن يصبوا عليه سبع قـرب مـن مـاء حتـى يخرج للناس فيعهد إليهم، ففعلوا، حتى طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**»، وعنـد ذلـك أحس بخفة، فعصب رأسه ثم قام فدخل المسجد وجلس عـلى المنـبر، وخطـب النـاس قائلًا: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». وفي رواية: «**قاتل الله اليهود والنصارى...**». [متفق عليه]، وقال: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يعبـد**». [الموطأ]. وكانت هذه الوصية الخاصة بعدم اتخاذ القبور مساجد قبل أن يموت بخمس.

وعرض نفسه للقصاص قائلًا: «من كنت جلدت له ظهـرًا فهـذا ظهـري فليسـتقد منه» - أي يقتص -، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عـاد لمنـبره لمواصـلة حديثـة في الحقـوق وغيرها، فقال رجل: «إن لي عندك ثلاثة دراهم»، فقال: «أعطه يا فضل». وقال آخر إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: «خذها يا فضل». [البيهقي: الدلائل].

ثم أوصى الناس بالأنصار، قائلًا: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرْشِي وعَيبَتي، وقـد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا مـن مُحسـنهم، وتجـاوَزوا عـن مسـيئهم». وقال في رواية أخرى: «إن الناس يكثـرون، وتقـل الأنصـار، حتـى يكونـوا كـالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجـاوز عـن مسيئهم». [متفق عليه].

ثم قال في آخر خطبة له: «إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عنـد الله»، قال الراوي: «فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبوا لبكائه، فكان المخير رسول الله ﷺ وكـان أبو بكر أعلمهم بذلك»، فقال النبي ﷺ: «**لا تبـك يـا أبـا بكـر، إن أَمَـنَّ النـاس عـلي في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكـر خلـيلًا، ولكـن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر**». [متفق عليه].

وعندما حضرته الوفاة واشتد به الوجع، وذلك يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، قال للصحابة الذين كانوا حوله بالمنزل، وفيهم عمر: «**هلموا اكتب إليكم كتابًا لن تضلوا بعده**»، فقال عمر: «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله»، فاختلفوا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغط والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «**قوموا عني**». [البخاري].

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، ونسي الراوي الوصية الثالثة، ولعلها عامة وصيته حين حضره الموت وهي: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**». [أحمد، صحيح]، وفي لفظ: «**الله الله، الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، كان يتكلم به وما يكاد يفيض. [ابن ماجه، صحيح؛ الذهبي: السيرة، صحيح]، وفي رواية أحمد: حتى جعل يُغَرْغِرُ بها صدره، وما يكاد يفيض بها لِسَانُه.

وقبل الوفاة بثلاث أوصى قائلًا: «**أحسنوا الظن بالله** عز وجل». [الذهبي: السيرة، صحيح]، ثم أخذ يثقله المرض ويمنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، فقالت عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف - أي رقيق - وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر»، فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي**»، فقالت عائشة لحفصة: «قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى... فقال ﷺ: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس...**» ولما لم يكن أبو بكر موجودًا في تلك اللحظات، دعا عبد الله بن زمعة عمر ليصلي بالناس، فعندما سمع الرسول ﷺ صوته، قال: «**يأبى الله ذلك والمسلمون - مرتين -**» فبعث إلى أبي بكر، فجاء فصلى بالناس. [أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح].

وظل أبو بكر يصلي بالناس تلك الأيام، وفي أحدها وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، وعندما رآه أراد أن يتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر. [متفق عليه].

وقبل يوم من وفاته، أعتق غلمانه. [ابن سعد، يعتضد، شاهده البخاري]، وتصدق بدنانير - ما بين التسعة والسبعة - كانت عنده. [ابن سعد، يتقوى]، وقال: «**لا نورث ما تركنا صدقة...**». [البخاري]، وفي رواية: «**لا يقتسم ورثتي دينارًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة**». [نفسه]، ولذا لم يترك رسول الله ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة. [البخاري].

واستعارت عائشة ؓ في الليل الزيت للمصباح من جارتها. [ابن رجب: مجالس من سيرة النبي ﷺ]، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير. ولعل باقي هذه الثلاثين صاعًا هو ما ذكرته عائشة ؓ في قولها: «لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فأكلته ففني». [متفق عليه]. ولم تشر الروايات إلى ما تبقى من الثلاثين صاعًا في بيوت زوجاته الأخريات.

وكانت الأشياء مثل البغلة والحربة والكسوة والسلاح والسرير وقفًا يتجمل به الأئمة المسلمون بعده ويتبركون به كما كان يتجمل به، وكان ذلك في أيدي الأئمة واحدًا بعد واحد. [حماد بن إسحاق: تركة النبي ﷺ].

وفي اليوم الذي مات فيه، فاجأ الرسول ﷺ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم يصلون الصبح، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف،

ظنًا منه أن الرسول ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر. [البخاري].

وعند الضحى دعا إليه ابنته فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسئلت عن ذلك بعد وفاته ﷺ، فقالت: «سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه - يلحقه - فضحكت». [متفق عليه]، وفي رواية أن سبب ضحكها كان لقول الرسول ﷺ لها: **«يا فاطمة، أما تَرْضَيْنَ أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة...؟»**. [متفق عليه].

والحديث دليل من دلائل نبوته ﷺ لأن فاطمة رضي الله عنها كانت أول الناس لحوقًا به ﷺ من أهله.

ولما رأت فاطمة ما بأبيها من الوجع الشديد، قالت: «واكرب أباه»، فقال لها الرسول ﷺ: **«ليس على أبيك كرب بعد اليوم»**. [البخاري].

وكان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة أو علبة ماء، يدخل يده في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: **«لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»**. [البخاري].

وبعد هذا ثقل عليه المرض فأصبح لا يتكلم، ولذا فعندما دخل عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه دعا له بالإشارة. [ابن إسحاق، حسن].

ويبدو أن ذلك كان الوقت الذي لَدُّوه فيه، أي جعلوا في جانب فمه دواء بغير اختياره، وهو يشير إليهم بألا يفعلوا ذلك، وهم يظنون أن ذلك كان منه كراهية المريض للدواء. [البخاري]، ولكنه كان ينفي عنه تهمة الإصابة بمرض ذات الجنب الذي ظنوه. [عبد الرزاق؛ صحيح، ابن سعد، يتقوى] به، وهو نوعان: أحدهما ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، وهو المنفي عنه هنا، وثانيهما: ريح محتقن بين الأضلاع. [الفتح].

وقد روى أبو يعلى بسند فيه ابن لهيعة من وجه آخر عن عائشة أن النبي ﷺ مات من ذات الجنب. ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الجنب المعنية هنا هي الريح المحتقنة بين الأضلاع. [الفتح لابن حجر].

ثم بدأت اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ. فبينما كان في حجر عائشة، دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه الرسول ﷺ، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته ولينته له فاستاك به، وعندما فرغ منه رفع يده وأصبعه وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة، وهو يقول: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»، كررها ثلاثًا. [متفق عليه] وكان هذا آخر ما تكلم به، ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. [البخاري].

وكان ذلك حين اشتد الضحى. [ابن إسحاق] أو في منتصف النهار. [الطبري: التاريخ]، فقالت فاطمة: «يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه». [البخاري].

وأصح ما جاء في مدة مرضه الأخير عشرة أيام. [البيهقي: الدلائل، صحيح].

ولم يصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه نبأ وفاة الرسول ﷺ، فأخذ يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون - أو قال: يقولون - إن رسول الله ﷺ قد مات». [أحمد؛ عبد الرزاق؛ ابن إسحاق، وأسانيدهم صحيحة].

وجاء أبو بكر من السُّنح، فكشف عن وجه النبي ﷺ، ثم قبله وبكى وقال: «بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب عليك فقد متها»، ثم خرج

إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق، لهول الأمر، فرأى عمر وهو يكلم الناس منكرًا موت الرسول ﷺ، فطلب منه أن يجلس، فأبى، فأقبل الناس إلى أبي بكر وتركوا عمر، فحدثهم أبو بكر قائلًا: «أما بعد: من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤]. فهدأ الناس وكأنهم لم يسمعوا الآية من قبل، وقعد عمر على الأرض لا تحمله رجلاه لما علم بموت الرسول ﷺ. [البخاري].

وفي يوم الثلاثاء، وهو اليـوم التـالي لوفاتـه ﷺ، غسـلوا رسـول الله ﷺ في ثيابـه. [ابن إسحاق، حسن]، غسله العباس وعلي والفضـل وقُـثَم ابنـا العبـاس وشُـقْران مـولى رسول الله وأسامة وأوس بن خولي. [ابن إسحاق، حسن].

وكان ماء غسله مـن بئـر يقـال لـه: الغَـرْسُ، لسـعد ابـن خيثمـة، كـان يسـتعذب للرسول ﷺ منها. [ابن شبة، يعتضد].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن كيفية غسله: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيـه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع، أَنُجَرِّدُ رسـول الله ﷺ كـما نجـرد موتانـا أم نغسـله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السِّنَةَ حتـى والله مـا مـن القـوم مـن رجل إلا ذَقَنُهُ في صدره نائمًا، قالت: ثم كلمهم من ناحية البيـت، لا يـدرون مـن هـو، فقال: اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، قالت: فثاروا إليه، فغسلوا رسول الله ﷺ وهـو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص، وكانت تقول: لو اسـتقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه». [ابن إسحاق، حسن].

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة نقية أو من سـحول اليمنيـة مـن كُرْسُـفٍ، (قطن) ليس فيها قَمِيْصٌ ولا عمَامَة. [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن].

ثم حفروا له قبرًا في حجرة عائشة. [الطيالسي، صحيح؛ ابن إسحاق، حسن لغيره؛ ابن ماجه، يتقوى].

وصلى عليه الناس أرسالًا أرسالًا، يدخلون من باب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر، لا يؤمهم أحد. [أحمد، برجال الصحيح؛ ابن سعد، البداية]. وقيل صلى عليه أولًا بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الناس حتى فرغوا، ثم النساء، ثم الصبيان. [ابن سعد]، ثم العبيد. [الطبري: التاريخ].

ثم دفنوه في ليلة الأربعاء. [ابن إسحاق، حسن].

إنا لله وإنا إليه راجعون! إنا لله وإنا إليه راجعون!!.

ولا يملك المرء المسلم إلا أن يبكي مع حسان. [ابن هشام؛ ديوان حسان]، وهو ينشد:

فَبْكِيْ رسول اللهّ يا عينُ عبرةً ... ولا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ
وَمَا لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ التي ... على الناس منها سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ
فَجُودِي عليه بالدُّمُوع وَأَعْوِلِي ... لِفَقْدِ الذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ
وما فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ محمدٍ ... ولا مِثْلُهُ حتى القِيَامَةِ يُفْقَدُ

ونبكي مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين بكى منشدًا:

أرِقْتُ فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طولُ
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عُظمتْ مصيبتنا وجلت ... عَشِية قيل قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحيَ والتنزيل فينا ... يروحُ به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كادت تسيلُ



نبيٌّ كان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول

ويهدينا فما نخشى ضلالًا ... علينا والرسول لنا دليلُ

أفاطم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

[السهيلي].

ونقول باكين كما قالت ابنته وحبيبته فاطمة رضي الله عنها:

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران

فالأرض من بعد النبي كئيبة ... أسفًا عليه كثيرة الرجفان

فليبكه شرق البلاد وغربها ... ولتبكه مضر وكل يمان

وليبكه الطور المعظم جوه ... والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ... صلى عليك منزل القرآن

[السهيلي]

عظات وعبر وأحكام ووصايا:

١- كفى بالموت عظة وعبرة... لقد شاء الله تعالى أن يكون الموت نهاية كل إنسان مهما طال عمره، ومهما كان موقعه من الحياة، وتلك سنة الحياة كما عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء:٣٤-٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر:٣٠]. فها هو محمد بن عبد الله ﷺ خير البشر، يموت بعد أن عانى من سكرات الموت وآلام المرض... وإذا وعى الناس هذه الحقيقة استشعروا معنى العبودية والتوحيد، وخضعوا لله الواحد القهار، واستعدوا للموت بالإكثار من

العمل الصالح وطاعة الله ﷻ وإخلاص العبادة له في كل مجال مـن مجـالات الحيـاة، لا سيما عبادة الله ﷻ في تحكيم شرعه والجهاد في سبيل ذلك، لأن الله ﷻ يزع بالسلطان مـا لا يزع بالقرآن، لأن الله تعالى الذي خلق البشر خبير بما يصلحهم في الدنيا والآخـرة... ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك: ١٤].

٢- مشروعية الرقية - التعويذ - ما ثبت في ذلك في الصحيحين. وقد نقل النووي. [شرح مسلم] وابن حجر. [الفتح] وغيرهما الإجماع على مشـروعية الرقـي عنـد اجـتماع ثلاثة شروط: «أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وأن يكون باللسان العـربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى...». واللفظ لابن حجر.

٣- بيان فضل أبي بكر الصديق عندما أصر الرسول ﷺ على أن يؤم الناس.

٤- النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

قال العلماء عن تكراراه ﷺ عبارة «إلى الرفيق الأعـلى»: (لأن التخيـير لم يـزل يُعـادُ عليه، وهي كلمة تتضـمن لقـاء الله، الـذي هـو لُبَـابُ التوحيـد وسر الـذكر باللسـان والقلب، ومنه يستفاد أنه لا يشترط في نجاة المحتضـر أن يتلفظ بـ«لا إلـه إلا الله»، إذا مات وقلبه مطمئن بالإيمان. والله أعلم). [الأنوار: بحرق].

٥- لقد تضمن ما سقناه من أحاديث في خـبر مـرض وفاتـه ﷺ دروسًـا وعظـات وعبرًا وأحكامًا يستطيع المرء أن يستنبطها بيسر.



الفصل السابـع والعشرون
أمهات المؤمـنين رضي الله عنـهن

المشهور أن الرسول ﷺ تزوج خمس عشرة امرأة. [البيهقي: الدلائل، من مرسل قتادة]، دخل بثلاث عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشـرة، وقبض عن تسع. [ابن المثنى: تسمية أزواج النبي ﷺ]، فأما اثنتان منهن فأفسدتها النساء فطلقهما، وذاك أن النساء قلن لإحداهما: إذا دنا منك فتمنعي، فتمنعت فطلقها، وأما الأخرى فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبيًا ما مات ابنه، فطلقها، منهن خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم سَلَمة وسَوْدَة وأم حبيبة، ومن غير قريش: ميمونة الهلالية، وجُويرية الخزاعية، وزينب بنت جحش الأسدية وصفية الخيبرية. وهؤلاء التسع هن اللاتي قبض عنهن. [البيهقي: الدلائل]. وقد سبق الكلام عن زواجه من خديجة رضي الله عنها، وقد ماتت قبله بمكة كما ذكرنا وسأتناول هنا بإيجاز قصة زواجه من الثماني الباقيات، ومن تسرى بهن.

٢- سودة بنت زمعة بن قيس رضي الله عنها:

كانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله عز وجل. فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السَّكْرَان بن عمرو، ابن عم أبيها، فأغضب ذلك أهلها. وعندما عادت مع زوجها من هجرتها توفي زوجها السكران، وقيل توفي عنها في الحبشة. [الاستيعاب]. وتركها من غير عائل، فخشي الرسول ﷺ أن يبطش بها قومها، وكانوا أشداء وأعداء ألداء للإسلام، وأراد أن يجزيها على إسلامها ومصابها خيرًا، فلم يجد غير أن يتزوجها في

رمضان سنة عشر من النبوة. [ابن سعد]، بعد وفاة خديجة ﵂ بـلا خـلاف والـراجح زواجه بها في شوال بعد عائشة. [البداية].

وعندما طعنت في السن وذهبت حاجتها في الرجال، خشـيت أن يطلقهـا الرسـول ﷺ، وحرصت على أن تحشر في أزواجه، ولذا وهبت ليلتها لعائشة ﵂. [متفق عليـه]. ولذا كانت عائشة ﵂ تقول: «ما من امرأة أَحَبَّ إليَّ من أكونَ في مِسْلاخِها من سودة بنت زمعة، إلا أنها امرأة فيها حِدَّة، فلما كَبُرَتْ قالت: يا رسول الله! قـد جعلـت يـومي منـك لعائشـة». فكـان رسـول الله ﷺ يقسـم لعائشـة يـومين: يومهـا، ويـوم سـودة. [مسلم - والمسلاخ: الجلد].

وروي أن الآيـة الكريمـة: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾[النساء:١٢٨] نزلت في هذا السبب. [تفسير الطـبري، صـحيح؛ أبو داود والترمذي، صحيح].

والروايات التي تذكر أن النبي ﷺ طلقها ثم ردها عندما وقفـت في طريقـه تطلـب منه ردها؛ فهذه الروايات التي فيها مسألة وقوع طلاق، ضعيفة الإسناد، لا يحتج بهـا، وما في الصحيح أصح.

وكانت بدينة الجسيم ثقيلة الحركة، قالت ذات يوم للرسول ﷺ: «صـليت خلفـك البارحة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم»، فضـحك رسـول الله ﷺ من قولها. [ابن سعد، مرسل برجال الصحيح؛ الإصابة]. ولثقلها وكبرها أذن لها الرسول ﷺ ولمن في حالها أن يدفعوا ليلة مزدلفة قبل الناس. [البخاري]. وأصـح مـا روي في تـاريخ وفاتها أنها توفيت في خلافة عمر ﵁. [البخاري: التاريخ الأوسط، صحيح].

ولم نقف على رواية يحتج بها تحدد عمرها حين تزوجها النبي ﷺ. ومن تلك الروايات الضعيفة عن عمرها حين وفاتها، قول البلاذري. [أنساب الأشراف]: (ويقال إنها توفيت في خلافة عثمان رضي الله عنه ولها نحو من ثمانين سنة).

٣- عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها:

كانت لأبي بكر رضي الله عنه مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ، لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأحرجها من مسيرة الدعوة، فلعل الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين، ويوثق عرى المحبة بينه وبين أخيه في الإسلام أبي بكر، وذلك برباط المصاهرة، فتزوج من ابنته عائشة.

وكانت عائشة رضي الله عنها صغيرة السن عندما عقد عليها الرسول ﷺ، في شوال من السنة العاشرة للبعثة النبوية [مسلم]، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الثانية للهجرة. [مسلم؛ ابن سعد].

قالت عائشة رضي الله عنها: «تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة، قبل الهجرة وأنا بنت ست، وأدخلت عليه وأنا ابنة تسع سنين...». [متفق عليه]. وفي رواية أنه تزوجها وهي ابنة سبع. [مسلم].

ولقد رأى رسول الله ﷺ في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن رجلًا يحملها إليه في سَرَقَةٍ. [شقق بيضاء] من حرير، فيقول: «هذه امرأتك، فيكشف فيراها، فيقول: إن كان هذا من عند الله يمضه». متفق عليه. وهذا من فضائلها الكثيرة.

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها. [البخاري].

ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظمى تأخذه الدهشة لذكائها وفطنتها وغزارة علمها وفقهها وسمو أخلاقها، وسيعلم حينها، لماذا كانت بتلك المكانة الكبيرة عند رسول الله ﷺ. [الإصابة؛ كتب الحديث].

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵂:

لقد توفي عنها زوجها خُنَيس بن حُذَافَة السَّهمي المهاجري البدري، صاحب الهجرتين - الحبشة والمدينة. [البخاري؛ الإصابة] -، إذ أصابته جراحة يوم أحد، فمات منها. [الإصابة؛ الاستيعاب]. وروي أنه توفي بعد بدر. [ابن سعد].

وتزوجها رسول الله ﷺ للحكمة ذاتها التي تزوج من أجلها عائشة وسودة ﵄، إضافة إلى حزنها الشديد على زوجها المجاهد، وحزن عمر لحزنها، فعرض زواجها على حبيبيه أبي بكر وعثمان، لعل في الاقتران بهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها. فاعتذر عثمان بحجة عدم حاجته في النساء، وسكت أبو بكر، ولذا وجد عمر في نفسه عليه أكثر مما وجد على عثمان. وما لبث ليالي حتى خطبها رسول الله ﷺ، ولقيه أبو بكر وأوضح له سبب سكوته، وهو أن الرسول ﷺ كان قد ذكرها، فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال: «لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها». [البخاري؛ أحمد، صحيح]. وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بما تعانيه حفصة من تأيم، فأراد أن يواسيها، ويواسي أباها لمكانته عنده.

وروي أن الرسول ﷺ طلقها ثم راجعها [أبو داود، صحيح؛ ابن ماجه؛ الدارمي]. ودخل عليها عمر وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبدًا».

[الطبراني، برجال الصحيح؛ ابن إسحاق: السير، حسن؛ ابن حبان، صحيح].

وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه جبريل ﷺ فقال له: «راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة». [الطبراني، برجال الصحيح].

وفي هذه الأحاديث ما يكفي للدلالة على حكمة زواج الرسول ﷺ من حفصة.

٥- زينب بنت خُزَيمة الهلالية رضي الله عنها:

كانت زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فطلقها. [ابن سعد]، وقيل كانت عند جَهم بن عمرو بن الحارث. [ابن إسحاق]، فتزوجها بعده عُبيدة ابن الحارث، فقتل ببدر شهيدًا. [ابن سعد]، وقيل كانت تحت عبد الله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيدًا. [الاستيعاب، الإصابة]، وكانت تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. [ابن إسحاق، ابن سعد]. فقد روى الزبير بن بكار. [في المنتخب] أن الرسول ﷺ عندما تزوجها أَوْلَمَ عليها جزورًا، فكثر المساكين، فتركهم الناس والطعام..

وهي أخت أم المؤمنين مَيْمُونة بنت الحارث رضي الله عنها لأمها. [الاستيعاب، الإصابة]، هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة الحميرية. [المحبر].

إن امرأة تعاقب عليها هذا العدد من الأزواج، منهم شهيدان، وما عرف عنها من الصلاح والرأفة على المساكين، لجديرة بأن تحظى بعطف الرسول ﷺ وتقديره لظروفها، ولم يكن هناك أفضل من تكريمه لها بالزواج منها، فتزوجها الرسول ﷺ في رمضان، على رأس واحد وثلاثين شهرًا من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وثلاثين شهرًا من الهجرة. [ابن سعد]. ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة بنت خويلد.

وقيل إن عمرها كان نحو ثلاثين عامًا عندما توفيت. [ابن سعد]، ويستبعد ذلك، لأن امرأة كانت تدعى في الجاهلية بأم المساكين، ثم عاشت في الإسلام خمس عشرة سنة، لابد أن يكون عمرها عندما ماتت أكبر من ذلك بكثير.

وقد ذكر الصواف [زوجات النبي ﷺ] أنها بلغت الستين من العمر عندما تزوج بها النبي ﷺ، ولكنه لم يبين لنا مصدره، ولو ثبت ذلك لكان الأقرب إلى الصواب، والله أعلم.

ولم تهتم المصادر بسيرتها في بيت الرسول ﷺ، لا سيما علاقاتها بزوجاته: سودة وعائشة وحفصة، مما يدل على أنه لم يكن بها ما يدعو لغيرة النساء عليها، فلم يأبه بها أحد، ولم تأبه بأحد، ولعل قصر مدة إقامتها في بيت النبوة كان سببًا في ذلك.

٦- أم سلمة - هند بنت أبي أمية - المخزومية رضي الله عنها:

لقد حفظ التاريخ لهذه السيدة ذكرًا مجيدًا، إذ كانت من شهيرات المؤمنات، العاملات وراء صفوف المجاهدين في غزوة أحد، كما ذكرنا، وكان لها رأي سديد كما ذكرنا في قصتها مع النبي ﷺ يوم الحديبية. ومن أبرز مجاهداتها أنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد، ابن عمة النبي ﷺ وأخيه من الرضاعة.

وكان لزوجها بلاء حسن يوم أحد، حتى جرح جرحًا كبيرًا، اندمل بعد فترة، ثم عاوده واشتد عليه ألمه، وكان سببًا في وفاته كما ذكرنا.

لقد مات رضي الله عنه وخلف وراءه أربعة من الأولاد، هم: زينب وسلمة وعمر ودرة. [ابن سعد]. وقد حرص الرسول ﷺ على مواساتها عمليًا بأن يكرمها بضمها إلى نسائه والقيام بأمرها، لأنها من المهاجرات، ولم يكن لها أهل بالمدينة، غير أبنائها.

وروي عنها أنها قالت: «أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ بقول فسررت به، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أْجُرْنِيْ في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها إلا فعل ذلك به**»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أْجُرْنِيْ في مصيبتي وَأَخْلِفْ لي خيرًا منه، ثم رجعت إلى نفسي، قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ... وأذنت له... فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكني

امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل منك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرا منه، رسول الله ﷺ ». [مسلم؛ أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ ابن ماجه، صحيح؛ ابن سعد، صحيح].

وفي رواية أنه لما انقضت عدتها من أبي سلمة خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: «مرحبًا برسول الله ﷺ إني امرأة غيرى، وإني مُصْبِيَة. [ذات الصبيان]، وليس أحد من أوليائي حاضرًا، فبعث إليها رسول الله ﷺ: أما قولك إني مصبية فان الله يكفيك صبيانك، وأما قولك إني غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني، فقالت: «يا عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ...»[أحمد، صحيح].

وكان زواج الرسول ﷺ بها في شوال سنة أربع. [ابن سعد].

وكانت آخر من توفي من زوجات النبي ﷺ، كما في الإصابة وغيرها.

٧- جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها:

لقد سبق الكلام عن قصة زواجها في غزوة بني المصطلق.

أراد الرسول ﷺ إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات، فسوى بينهن وبين الحرائر، وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام. فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء، واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالكهن. فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية

صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومهن ورحمة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر. وقد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللائي تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء، وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة العظماء والعلماء، وتأمل في ذلك تاريخ خلفاء بني العباس. [زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ].

٨- زينب بنت جحش رضي الله عنها:

هي ابنة عمة الرسول ﷺ أُميمَة. وقد زوجها الرسول ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، الذي أعتقه وتبناه إلى أن أبطل الله عادة التبني. ونزل في قصة زواجها من زيد رضي الله عنه ثم الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الأحزاب:٣٧].. [البخاري]

فقد روى البخاري أن زيدًا جاء يشكو زوجته، فجعل النبي ﷺ يقول: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»، قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

لقد كان زواج الرسول ﷺ منها لهلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي بنت خمس وثلاثين. [ابن سعد] لحكمة، وهي إبطال عادة التبني كما هو واضح من آية سورة الأحزاب المذكورة.

وخلاصة ما ورد في تفسير هذه الآية أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه.

[الترمذي، صحيح]، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، وليس أبلغ في إبطاله من تزوج امرأة الذي يُدْعَى ابنًا، ووقوع ذلك أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم. [عبد الرزاق؛ الترمذي؛ تفسير ابن كثير؛ ابن حجر].

هذا الذي ذكرناه من الصحيح يغنينا عن مناقشة الروايات الكثيرة الساقطة التي نسجت حول قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، لا سيما روايات الواقدي، التي كانت مرتعًا خصبًا لأهل الأهواء في القديم والحديث، من زنادقة ومستشرقين ومن على شاكلتهم. وقد ألف د. زاهر الألمعي كتابًا في الرد عليهم.

٩- رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنَافة رضي الله عنها:

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت عمرو النضيرية. [الإصابة؛ الاستيعاب]، وقيل: القريظية. [نفسه]، سبيت يوم غزوة بني قريظة، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها. [الواقدي؛ ابن بكار]، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها. [ابن سعد].

وقالت طائفة: بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين، فهي معدودة عندهم في السراري. [ابن إسحاق]، واختلفوا في تاريخ وفاتها، هل كان قبل الرسول ﷺ أم بعده؟ ولم يرجحوا قولًا على آخر. [الواقدي]، والذي نميل إليه أنها ماتت في حياة الرسول ﷺ لقوة أسانيد القائلين بهذا، وهو ما جزم به ابن عبد البر. [الاستيعاب؛ ابن سعد].

١٠- أم حبيبة - رَملة بنت أبي سفيان بن حرب رضي الله عنها:

هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، ومات هناك.

وعندما علم الرسول ﷺ بارتداد زوجها وثباتها على الإسلام أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له، فزوجها إياه بصفته وكيلًا عن النبي ﷺ، فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص، ابن عم أبيها. وبعث بها النجاشي إلى المدينة مع

شُرَحْبيل بن حَسَنَة، وكان مهرها وجهازها مـن عنـد النجـاشي. [أحمـد، جيـد؛ أبـو داود؛ النسائي؛ ابن هشام، حسن؛ ابن سعد].

وكان ذلك سنة سبع، وكان لها بضع وثلاثون سنة. وولدت لابن جحش ابنته حبيبة، قيل بالحبشة وقيل بمكة. [ابن سعد].

وللأستاذ محمد بن عبد الله العوشن بحـث بعنـوان: (تحقيـق دعـوى ردة عبيـد الله ابن جحش)، نشـر بمجلـة: البيـان، العـدد ١٨٢، السـنة: (١٧)، شـوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م، صـفحة ٢٢-٢٤، خلـص فيـه إلى عـدم ثبـوت قصـة ردة عبيـد الله ابن جحش، رواية ودراية، ومما قاله في هـذا: (١- أنهـا لم تـرو بسـند صـحيح متصـل، فالموصول من طريق الواقدي - وهو متروك الحديث - والمرسل جـاء عـن عـروة بـن الزبير، ولا يمكن أن نحتج بالمرسل (عنـد مـن يـرى الاحتجـاج بـه) في مسـألة كهـذه عقدية؛ فيها الحكم على أحد الصحابة السـابقين الأولـين إلى الإسـلام رضي الله عنه بـالردة). (٢- أن الروايات الصحيحة في زواجه ﷺ بأم حبيبة لم تذكر ردة زوجهـا السـابق، كـما في رواية أحمد، وأبي داود، والنسائي...).

وحكمة هذا الزواج لا تخفى على أحد يعلم ثبات أم حبيبة رضي الله عنها على دينهـا عنـدما فقدت زوجها بالحبشة، وموقف والدها من الدعوة الإسلامية وقيادتـه لكـل حـروب قريش ضد المسلمين ما عدا غزوة بدر، لأنه كان صاحب القافلة التي جعلها الله سببًا في تلك الغزوة. ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها، وقطع الطريق أمام شماتة الأعداء، وفيه تخفيف من غلـواء عـداوة قومهـا بنـي أميـة للإسـلام ونبـي الإسلام، وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك كما هو واضح من موقفـة مـن أبي سـفيان يوم فتح مكة وعند تقسيم غنائم حنين، وغيرها من المواقـف، إلى أن هـداهم الله عز وجل إلى الإسلام، فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه.



١١- صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية رضي الله عنها:

عندما افتتح المسلمون خيبر، سبيت النساء، منهن صفية، فاصطفيت للرسول ﷺ بعد أن وقعت في سهم دِحْيَة، فعتقها رسول الله ﷺ وتزوجهـا. [متفـق عليـه]. ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري، خوفًا منه على الرسول ﷺ أن تغدر به. [ابن سعد]، ولكن اتضح أنه لم يكن في قلبها يومذاك أي حقد على الرسول ﷺ، لأنها آمنت بالرسول ﷺ من أول وهلة، يوم اصطفاها له أصحابه يوم خيبر، أو يوم اشتراها من دحيـة. ومـن أدلـة ذلك أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يدخل عليها وهم عـلى بعـد سـتة أميـال مـن خيبر، أبت عليه، وعندما وصل إلى الصَّهْبَاء، على بعد بريـد مـن خيـبر، وافقـت، فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى، فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة. [نفسه]. وقال لها الرسول ﷺ: «**لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله**»، فقالت: «يـا رسـول الله، إن الله يقـول في كتابـه العزيـز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»، فقال لها رسول الله ﷺ: «**اختاري، فإن اخـترت الإسـلام أمسكتك لنفسـي، وإن اخترت اليهوديـة فعسـى أن أعتقـك فتلحقـي بقومـك**»، فقالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبـل أن تـدعوني، حيـث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أَرَبٌ، وما لي فيهـا والـد ولا أخ، وخيرتنـي الكفـر والإسـلام، فـالله ورسـوله أحـب إلي مـن العتـق وأن أرجـع إلى قـومي». فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه زوجة.

كانت أمها إحدى نساء بني قينقاع، فتزوجها سَلَّام بن مِشْكَم النضيري، ثم فارقهـا فتزوجها كِنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خيبر. ولم يسمع النبي ﷺ ذاكرًا أباهـا بحـرف مما تكره.

لقد كان في زواج الرسول ﷺ منها ذات الحكمة من زواجه من جويرية رضي الله عنها. فهي ابنة زعيم من زعماء اليهود، مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضد الرسول ﷺ، فكان لابد من إكرامها لمكانها عند اليهود.

ودل هذا الزواج على أن تهمة العنصرية ضد اليهودية لم تكن واردة في قاموس الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي، وليفهم اليهود أن قضيتهم مع الرسول ﷺ والمسلمين ليست قضية عنصرية كما أشاعوا.

عاشت صفية رضي الله عنها في بيت النبوة معززة مكرمة. وكان الرسول ﷺ يلقنها الحجج عندما يقع بينها وبين بعض بقية نسائه ما يقع بين الضرائر. فقد أخرج الترمذي. [صحيح] من طريق أنس، قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيك؟**» قالت: قالت لي حفصة إني ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: «**وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك**»، ثم قال: «**اتقي الله يا حفصة**».

وهجر الرسول ﷺ زينب بنت جحش ثلاثة شهور، لأنها عيرت صفية باليهودية. ولما رفع الرسول ﷺ عنها الهجران أهدته جارية لها فرحًا بهذا العفو وندمًا على تلك الزلة. [أحمد، جيد]. وكان ذلك في حجة الوداع كما يفهم من سياق القصة في هذا الحديث الصحيح وفي غيره من الأحاديث.

١٢- ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها:

تكلمنا عن قصة زواجها عند الحديث عن عمرة القضاء. وما يمكن إضافته هنا هو أن مما رغب الرسول ﷺ في الزواج منها ما عرفه عنها من الصلاح والتقوى، فقد قالت عائشة عنها: «... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم». [ابن سعد، صحيح].

وقال رسول الله ﷺ عنها وعن أخواتها: «الأخوات مؤمنات ميمونة وأم الفضل وأسماء». [الإصابة؛ ابن سعد، صحيح].

وكان عمه العباس حريصًا على أن يقترن الرسول ﷺ بها، فقد قال له: «يا رسول الله، تأيمت ميمونة بنت الحارث.. هل لك في أن تتزوجها؟». [الاستيعاب، مرسلًا] ولا شك أن العباس رضي الله عنه كان من أعرف الناس بها، لأنها أخت زوجه أم الفضل.

وامرأة هذا شأنها لجديرة بأن يضمها الرسول ﷺ إلى بيت النبوة مواساة لها في فقدها زوجها واعترافًا منه بفضلها وتحبيبًا لقومها في الإسلام.

١٣- السراري:

لم يتسر رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي [البداية؛ أحمد؛ الزاد]، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش [أحمد، جيد]، وريحانة بنت زيد التي اختلف في أمرها، والراجح أنه كان يطؤها بملك اليمين، وروي أن الرسول ﷺ قال عن مارية عندما ولدت له إبراهيم: «**أعتقها ولدها**». [البداية، يعتضد].

ولو أراد الرسول ﷺ أن تكون له عشرات الجواري والسراري لما انتقص ذلك من حقه في مجتمع كان لا يرى بأسًا من التعدد في الزوجات واتخاذ السراري متى ما تيسر له ذلك ماديًا وجسديًا، وما سمعنا أن اليهود والنصارى قد جعلوا من كثرة زوجات وسراري سليمان ﷺ. [البخاري، ومسلم] قضية كما فعلوا مع تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ.. ولا شك أن الغرض الباطل هو المحرك لهذه القضية في زماننا هذا...

حكمة هذا التعدد:

وخلاصة القول: إن أمهات المؤمنين اللائي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية، وكن قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان، كما كان

الرسول ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق وطيب العشرة مع نسائه. فقد عاشرهن بالمعروف، وعدل بينهن وعلمهن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء. وسياسة النبي ﷺ في تعدد الزوجات هي السياسة الرشيدة التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الصعب أن تقوم زوجة واحدة بمهام تبليغ تلك الأحكام إلى الناس». [الصواف: زوجات النبي ﷺ].

ولم يكن هناك ما يغريهن بالبقاء في بيت الرسول ﷺ سوى هذه المهمة الجليلة، لأن الأخبار قد تواترت لتقطع بأن زوجات الرسول ﷺ كن يعشن في شظف من العيش إلى الحد الذي طالبنه فيه بزيادة النفقة عليهن، فخيرهن الرسول ﷺ بين الطلاق وبين قبول هذه المعيشة الصعبة معه. [متفق عليه]، وذلك في قصة طويلة وثابتة بنص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾[الأحزاب:٢٨-٢٩].

ويلحظ أن من بين زوجات الرسول ﷺ، الصغيرة التي ما تزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسنة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت على غيرها بكثرة الصيام والقيام... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومن خلالهن قدم رسول الله ﷺ للمسلمين تشريعًا فريدًا في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية.

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لم يكن أمر العداء قاصرًا على قريش، بل تعداها إلى غيرها من قبائل العرب، فاقتضت الحكمة أن يجمد الرسول ﷺ بعض أطراف هذا العداء، وذلك بالإصهار إلى قبائل شتى، لأن أعراف العرب كانت تقضي بأن يحمي أهل المرأة زوج امرأتهم، كما تفيد ذلك لغتهم، إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية -.

ولما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل استغلالًا سيئًا، نظرًا لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس اللاهثة، فقد جعل الله تعالى ذلك التعدد بتلك الكيفية خاصًا برسول الله ﷺ، وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع زوجات كحد أقصى. [رواس: قراءة جديد للسيرة].

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أن من دلائل سمو أهداف تعدد زوجات الرسول ﷺ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: **أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها سودة، فاعتذرت** [وهي غير سودة بنت زمعة أم المؤمنين، لم يعرف نسبها، ولذلك ترجمها الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٣٩) باسم سودة القرشية]، **وكانت مُصْبِيَة، لها خمسة صبية أو ستة، من بعل لها مات، فقال رسول الله ﷺ عندما اعتذرت: «ما يمنعك مني؟»، قالت: والله يا نبي الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحبَّ البَرِيَّة إليَّ، ولكني أكرمك أن يَضْغُوَ هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية، قال: «فهل منعك مني غير ذلك؟» قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُكِ الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صَالِحُ نساء قريش، أحناه على ولد في صِغَرٍ، وأرعاه على بَعْلٍ بذات يد»**. [أحمد، حسن] وقال ابن حجر. [الفتح] بعد سياقه هذا الحديث: (وأصله في البخاري من وجه آخر، لكن لم يسمها). وأشار كذلك إلى أصله عند مسلم.



الفصل الثامن والعشرون
بعض شمائل الرسول ﷺ

لقد تميز الرسول ﷺ بصفات خَلْقِيَّة وخُلُقية كثيرة. وأريد هنا أن أقف عند بعض صفاته الأخلاقية أو الخُلُقية بصفة خاصة وذلك لحاجة الناس الماسة إليها في كل زمان ومكان، لمعرفة هذه الصفات والاقتداء بها.

ولما كانت صفات الرسول ﷺ الأخلاقية انعكاسًا لما في قلب الرسول ﷺ من قيم ومبادئ، كان لابد لكل مسلم أن يعلم بها، ويتحلَّى بمحاسنه.

ومن أبرز هذه الصفات الخُلُقية أو الشمائل:

١- التقشُّف في الطعام:

قال أنس رضي الله عنه، خادم النبي ﷺ: «إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف». [الترمذي: شمائل؛ أحمد؛ ابن حبان، والأسانيد صحيحة]، وفي رواية عن مالك بن دينار رضي الله عنه، قال: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز قط ولا لحم إلا على ضفف». [الترمذي: الشمائل، صحيح].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ». [مسلم؛ أبو الشيخ، مرسلًا صحيحًا]. وفي رواية أخرى عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قبض». [متفق عليه].

وهناك روايات أخرى عند مسلم وأبي الشيخ [أخلاق النبي] بهذا المعنى. [وضفف: الضيوف].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا هو وأهلـه، لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير». [الترمذي: الشمائل، صحيح]. وذكـرت عائشـة رضي الله عنها أنـه كـان يأتيهـا، فيقـول: «**أعنـدك غـداء؟**» فتقـول: لا، فيقـول: «**إني صائم...**» [مسلم ١١٤٥].

٢- التقشُّف في الفراش:

قالـت عائشـة رضي الله عنها: «إنـما كـان فـراش الرسـول ﷺ الـذي ينـام عليـه، **أدَمًـا**. [الجلد المدبوغ] حَشْوُهُ لِيف». [متفق عليه].

٣- تواضعه ﷺ:

قال رسول الله ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عَبْدٌ، فقولوا عَبْدُ الله ورسُولُه**». [البخاري].

وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالـت: يـا رسـول الله، إن لي إليـك حاجة)، فقال: «**يا أم فلان، انظري أي السِّكَكِ شئت، حتى أَقْضِيَ لك حاجتك**»، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتهـا. [مسـلم؛ الترمـذي: الشـمائل]. وكانـت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت. [البخاري].

وكان يدعى إلى خبز الشعير والإِهَالة السَّنِخَة فيجيب. [البخاري؛ الترمذي: الشـمائل]. وقال: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبـت، ولـو أهـدي إليَّ ذراع أو كُـرَاع لقبلـت**». [البخاري؛ الترمذي: الشمائل].

وكان يشرب من القربة البالية. قالت أم المؤمنين سـودة رضي الله عنها: «ماتـت لنـا شـاة فـدبغنا مَسْكَهَا - أي جلدها - ثم ما زلنا ننبذ فيه حتى صار شيئًا - أي باليًا -». [البخاري ٦٦٨٦].

ومع أنه لم يكن شخص أحب إلى الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك. [الترمذي: الشمائل، صحيح؛ الأدب المفرد، صحيح؛ أبو الشيخ، صحيح].

وقال ﷺ في الثناء على التواضع وذم الاستكبار: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كُلُّ عُتُلٍ جَوَّاظ مستكبر**». [البخاري]. وقال: «... **وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**». [مسلم]. والكبرياء من صفات الله عز وجل، لذا حرم ذلك على المؤمنين. وقال ﷺ في هذا: «... **العِزُّ إِزَارُهُ، والكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ - أي الله عز وجل - فمن يُنَازِعُنِيْ عَذَّبْتُهُ**». [نفسه].

وكان ﷺ لا يستكبر عن خدمة أهله. [البخاري].

٤- خلقه:

كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أَشَرِّ القوم، يَتَأَلَّفُهُم بذلك. [الترمذي: الشمائل، حسن]. «خدمه أنس بن مالك رضي الله عنه نحو عشر سنين، فما قال له أُفٍّ قط، وما قال له لشيء صنعه: لِمَ صنعته، ولا لشيء تركه لِمَ تركته؟». [متفق عليه؛ الترمذي: الشمائل، صحيح].

«وما كان فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح». [الترمذي: السنن الشمائل، صحيح؛ أبو الشيخ، صحيح]. ويقول: «**خياركم أحسنكم أخلاقًا**». [البخاري].

وقال لعائشة رضي الله عنها: «إن شر الناس من تركه الناس - أَوْ وَدَعَهُ الناس - اتقاء فحشه». [متفق عليه].

ونهى عن اللعن، فقال: «**لا ينبغي لِصِدِّيقٍ أن يكـون لَعَّانًـا**». [مسـلم]. وقـال: «**ولا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يـوم القيامـة**». [مسـلم]. وعنـدما قيـل لـه: ادع عـلى المشركين، قال: «**إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة**». [مسلم].

أما من لعنه الرسول ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلا لذلك، كان ذلـك لـه زكاة وأجرا ورحمة؛ لأن الرسول ﷺ شارط ربه على ذلك كما في الحديث: «**اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا**» [مسلم: ٢٦٠٠-٢٦٠٤].

وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كـان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يـؤتى إليـه قـط، حتـى تنتهـك حرمـات الله، فينتقم الله.. [البخاري ٦٧٨٦].

وما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قـط بيـده ولا امـرأة، ولا خادمًـا، إلا أن يجاهـد في سبيل الله.. [مسلم: ٢٣٢٨].

وما سئل رسول الله ﷺ قط فقال: «لا». [مسلم ٢٣١١].

وقال أنس ﷺ: كان رسول الله ﷺ أحسن النـاس خُلُقًـا، وكـان لي أخ يقـال لـه أبو عُمَيْر، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمـير، مـا فعـل النُّغَـيْرُ؟» نُغَـرٌ كـان يلعـب بـه.. [بخ ٦٢٠٣] [والنغر: طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار]. فمات فدخل عليـه النبـي ﷺ يومـا، فوجد حزينًا لموته، فقال ما قال. [البيهقي: السنن الكبرى].

٥- شجاعته:

قال أنس بن مالك ﷺ: كان رسول الله ﷺ أَحْسَنَ الناس، وكان أَشْجَعَ النـاس، ولقد فَزِعَ أهلُ المدينة ذَاتَ ليلةٍ، فانْطَلَقَ ناسٌ قِبَـلَ الصـوت، فالتقـاهم رسـول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُـرْيٍ، في عنقـه السـيف، وهو يقول: «**لم تُرَاعُوا لم تُرَاعُوا**».

وقال عن الفرس: «وجدناه بحرًا، أو: إنه لبحر». قال الراوي: وكـان فرسًـا يُبَطَّـأُ. [متفق عليه].

وقال علي رضي الله عنه: «لما حضر البَأْسُ يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ، وكـان مـن أشـد الناس ما كان، أوَلم يكن أحد أقرب إلى المشـركين منـه». وعنـه مـن طريـق ثـانٍ، قـال: «رَأَيْتُنَا يَوْمَ بدر ونَحْنُ نَلُوذُ برسول الله ﷺ، وهو أَقْرَبُنَا إلى العدو، وكان من أَشَدِّ الناس بَأْسًا». [أحمد، صحيح].

وقد وقفت على موقفه يوم بدر وأُحد وحنين، حين امتحن الله المسلمين.

٦- حياؤه:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه». [البخاري]. وقـال ﷺ عـن الحيـاء: **«الحيـاء لا يـأتي إلا بخير»**. [البخـاري]. وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر على رجل وهو يعاتب أخـاه في الحياء، يقول: إنك لتستحي حتى كأنه يقول قد أضرَّ بك، فقال رسول الله ﷺ: **«دعه فإن الحياء من الإيمان»**. [نفسه]. وقال ﷺ: **«إن مما أَدْرَكَ الناسُ من كـلام النبـوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»**. [البخاري].

أما الحق فلم يكن الرسول ﷺ يستحي منه، لأن ذلك من التفقه في الدين. فقـد روت أم سلمة رضي الله عنها أن أم سليم رضي الله عنها جاءت إلى الرسول ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟، فقال: **«نعم، إذا رأت الماء»**. [نفسه].

٧- التيسير والرفق:

قال رسول الله ﷺ: **«يسّروا ولا تعسّروا، وسكنوا ولا تنفروا»**. [بـخ ٦١٢٥]. وعـن أبي هريرة رضي الله عنه أن أَعْرَابِيًا بَالَ في المسجد، فَثَارَ إليه الناس لِيَقَعُوا به، فقال لهـم رسـول الله ﷺ: **«دعوه، وَأَهْرِيْقُوا على بوله ذَنُوْبًا من مـاء - أو سَـجْلًا مـن مـاء - فـإنما بعثـتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**. [البخاري: ٦١٢١].

وقال في الرفق: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**» [م٢٥٩٢]، وقـال: «**إن الله رفيـق يحـب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه**». [م ٢٥٩٢]. وقـــال: «**وإن الرفـــق لا يكـــون في شيء إلا زَانَـــهُ، ولا يُنْـــزَعُ مـــن شيء إلا شَانَهُ**». [مسلم: ٢٥٩٤].

٨- الحذر من الغضب:

إن من أوصاف المؤمنين وسجاياهم الصفح والعفو عن الناس وعدم الانتقام عنـد الغضـب، وفي ذلـك يقـول تعـالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الشورى:٣٧]، ويقـول الرسول ﷺ «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملـك نفسـه عنـد الغضـب**». [البخاري: ٦١١٤، مسلم: ٢٦٠٩]. وعندما قـال رجـل للنبـي ﷺ: «أوصـني» قـال: «**لا تغضب**»، ورددها مرارًا. [البخاري: ٦١١٦].

٩- الحلم والأناة:

كان مما يحبه ﷺ هاتان الصفتان، وقد قال لأشج عبد القـيس: «**إن فيـك خصـلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم، والأناة**». [مسلم: ١٧-١٨].

١٠- الوصية بالجار:

قال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصـيني بالجـار حتـى ظننـت أنـه سـيورثه**». [البخـاري: ٦٠١٤، ٢٦٢٤- ٢٦٢٥].

وقال لأبي ذر رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**». [مسلم: ٢٦٢٥]. وفي رواية: «**... ثم انظر أهل بيـت مـن جيرانـك فأصـبهم منهـا بمعـروف**». [نفسه]. وقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**». [البخاري: ٦٠١٨]، وفي رواية: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره..**». [ابن ماجه.. صحيح].

١١- رحمته:

عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أخذ ولده إبراهيم فقبله وشمه». وذلك عندما زاره، وهو مُسْتَرْضَعٌ عند ظِئْرِهِ أبي سَيْفٍ. [متفق عليه]. وأخبر الرسول ﷺ: «**أن الله جعل الجنة لمن يموت وله ثلاث من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ، بفضل رحمته إياهم**». [البخاري].

وكانت تفيض عيناه لموتهم، وقد سَألهُ مرة سعد بن عبادة: «يا رسول الله ما هذا؟» فقال ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**». [البخاري]. وعندما ذرفت عيناه لوفاة ابنه إبراهيم، قال له عبد الرحمن بن عوف: «وأنت يا رسول الله؟»، فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة لمن اتبعها بأخرى**»، وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**». [البخاري].

وخرج ذات يوم على الصحابة رضي الله عنهم وأُمَامَةُ بنت ابن الربيع، ابنة ابنته زينب رضي الله عنها، على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها. [نفسه].

وَقَبَّلَ الحسن بن علي وعنده الأَقْرَعُ بن حَابِسٍ، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**». [نفسه].

وجاء أعرابي فقال: «أتقبِّلون الصبيان؟ فما نقبلهم»، فقال النبي ﷺ: «**أَوَ أَمْلِكُ لك أن نَزَعَ الله من قلبك الرحمة**». [نفسه].

١٢- رحمته بالمرضى:

عندما اشتكى سعد بن عبادة رضي الله عنه ذات مرة، عاده فوجده في غشاية أهله، فقال: «قد قضى؟، قالوا: لا يا رسول الله»، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا، فقال: «**إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يرحم**». [البخاري].

١٣- رحمته ﷺ بالإناث:

شبه النبي ﷺ النساء بالقوارير، إشارة إلى ما فيهن مـن الصـفاء والنعومـة والرقـة، وإلى ضعفهن وقلة تحملهن، ولذا فإنهن بحاجة إلى الرحمة والرفق. وله توجيهات كثـيرة ومواقف عملية في هذا المجال. ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

١- كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وكانت معه نساء منهن أم سُلَيْم، وغلام أسـود يقال له أَنْجَشَة يحدو، فقال له النبي ﷺ: «**يا أنجشة رُوَيْدَكَ، سَوْقًا بالقَوَارِير**». [البخاري].

٢- وقد عثرت ناقته ذات يوم، ومعه عليهـا زوجتـه صـفية رضي الله عنها، فطرحتهـا عـلى الأرض، فلحق بهما أبو طلحة رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ: «**عليك بالمرأة**». [البخاري].

٣- روى أنس أن النبي ﷺ قال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنـا وهو**»، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ. [مسلم].

٤- وقال عليه الصلاة والسلام: «**من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن لـه سِتْرًا من النار**». [متفق عليه].

٥- وكان عليه الصلاة والسلام يحب بناته حبًا جمًا. فقد روي أن ابنته فاطمة كانت عندما تأتيه يقوم لها، ويأخذ بيدها ويقبلها ويجلسها في مكانه الذي كان يجلس فيه. [أبو داود].

٦- وقال: «**إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه**». [متفق عليه].

١٤- رحمته بزوجاته:

كان ﷺ: كثيرًا ما يوصي بالزوجات خيرًا، ويقول: «**خـيركم خـيركم لأهلـه، وأنـا خيركم لأهلي، وما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم**». [أبو عسكر، والترمـذي، وابن ماجه، على شرط الشيخين]. وأوصى بهن خيرًا في حجـة الـوداع، كـما ذكرنـا ذلـك في

مكانه. وقال: «حبب إليَّ من الدنيا الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». [الحاكم، صحيح، وأحمد، حسن] دلائل شدة احترامه وحبه لزوجته خديجة رضي الله عنها، إن كان ليذبح الشاة، ثم يهديها إلى خلائلها. [صديقاتها] وذلك بعد مماتها. وقد أقرت عائشة رضي الله عنها بأنها كانت تغار من هذا المسلك منه. [بخاري: ٣٨٢١].

وقد روى أنه وضع ركبته لتضع عليها زوجه صفية رضي الله عنها رجلها حتى تركب على بعيرها.. [بخاري: ٤٢١١].

وأوصى ﷺ بالمرأة الزوجة، فقال: **«استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»**. [البخاري: ٥١٨٦، مسلم ١٤٦٨]. وقال: **«ألا واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنما هن عوان - أي أسيرات - عندكم..»**. [مسلم: ٨٨٩، أحمد، صحيح لغيره مقطعًا، والترمذي، ١١٦٣، حسن صحيح، وأبو داود ١٩٠٥]. وقال: **«بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها؟»**، وفي رواية: **«... جلد العبد...»**. [البخاري: ٦٠٤٢].

وقال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، خياركم خياركم لنسائهم»**.. [أحمد، حسن، والترمذي ١١٦٢، حسن صحيح]، وفي رواية: **«إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله»**. [الترمذي: حسن صحيح، وأحمد، صحيح لغيره].

وقال: **«إن من أعظم الأمور أجرًا النفقة على الأهل»**. [مسلم: ٩٩٤، ٩٩٥].

١٥- رحمته ﷺ بالضعفاء عمومًا:

لقد بُعِثَ الرسول محمد ﷺ رحمة. [مسلم؛ المفرد] لكل العالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧].

ويقول عن هذه الرحمة الإلهية المهداة إلى كل المخلوقات: «**ولما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**». [البخاري]. وشملت رحمته ﷺ الضعفاء حتى وهو في السقيم والضعيف والكبير، «**وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء**»، وفي رواية: «**إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبر وذا الحاجة**». [البخاري: ٧٠٤- ٤٦٨].

وشملت رحمته الخدم والأرقاء. وأهل الذمة، وفي ذلك قال:

١- على المسلم أن يعامل خدمه أو موالاه كأخ له. فقد روى أبو ذر أن الرسول ﷺ قال: «**هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**». [مسلم].

٢- روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به، وقد وَلِيَ حَرَّهُ ودُخَانَهُ، فليقعد معه، فليأكل، فإن كان الطعام قليلًا فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين**». - أي لقمة أو لقمتين. [مسلم].

وحث على كفالة الأيتام لضعفهم وحاجتهم للرعاية، فقال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة، هكذا، وقال - أي أشار - بأصبعه السبابة والوسطى**». [البخاري].

وحث على إعالة الأرامل والمساكين، فقال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل**». [البخاري]. وقال: «**اللهم إني أحرِّج - أي ألحق والحرج والأثم - بمن ضيع حق الضعفين: اليتيم، والمرأة**». [أحمد، حسن]. وقال: «**ابغوني الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**». [أبو داود؛ أحمد، صحيح].

وشملت رحمته حتى البهائم، قال: «**ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان صدقة**». [البخاري]. وقال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش**

فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**». [البخاري].

١٦- رحمته ﷺ بالأعداء في الحرب والسلم:

كان الرسول ﷺ يصلي الفجر مع المسلمين في الحديبية، فنزل سبعون أو ثمانون رجلًا من التنعيم يريدون الفتك بالمسلمين، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ دون عوض، ولا عقاب. [أحمد، صحيح].

وقد قبل الفداء من أسرى بدر، وعفا عن قريش وأهل مكة، يوم فتح مكة، وأطلق سراح أسرى حنين.. [سبق ذكره].

وعفا عن غَورث بن الحارث مع محاولته قتل الرسول ﷺ، فجاء غورث إلى قومه بعد هذا، فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس. [سبق ذكره].

روى البخاري [١٣١٢] أنه مر عليه بجنازة، فقام لها، فقالوا يا رسول الله ﷺ: إنها جنازة يهودي!! فقال: «**أليست نفسًا منفوسة؟**» ونهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان والأجير، ماداموا غير مشاركين في قتال المسلمين. [سبق ذكره]. فكان بعثا أو جيشًا أوصاهم قائلًا: «**لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**». [مسلم: ١٧٣١].

وكان له خادم يهودي، فكان إذا مرض عاده، فعاده مرة، فعرض عليه الإسلام، وأبوه حاضر، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقال الرسول ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**». [البخاري].

١٧- عدله ﷺ:

ذكرنا من قبل بمناسبة الكلام عن غزوة الفتح أن الرسول ﷺ رفض شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية التي سرقت، وأهم أمرَها قريشًا، وقال: «**والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

١٨- حثه ﷺ على صلة الأرحام:

لقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بأن من أحب الأعمال إلى الله تعالى بر الوالدين. [البخاري].

قال له رجل من الصحابة: **يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال:** «**أمك**»، **قال ثم من؟ قال:** «**أمك**». **قال: ثم من؟ قال:** «**أمك**»، **قال: ثم من؟ قال:** «**أبوك؟**». [البخاري].

وقال رجل للنبي ﷺ: «**أجاهد؟ قال: ألك أبوان؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد**». [البخاري].

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، قال لأصحابه: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالها ثلاثا**»، **فقال الصحابة: بلى يا رسول الله، قال:** «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...**». [البخاري]. وقال: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات...**». [البخاري]، وحث على صلة الوالدين المشركين والأقارب المشركين. [البخاري].

وقال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم، ويجهلون عليَّ، فقال: «**لئن كنت كما قلت، فإنما تسفهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**». [مسلم، والمل: الرماد الحار].

١٩- إعراضه ﷺ عما يكرهه:

روي عن أنس أنه ﷺ كان عنده رجل به أثر صفرة - وكان ﷺ لا يكاد يواجه أحدًا بشيء يكرهه - فلما قام الرجل، قال النبي ﷺ للقوم: «**لو قلتم له يدع هذه الصفرة**».

[أحمد، حسن، تر، د، صحيح]؛ لأن الصفرة من أثر طيب النساء، ويكره للرجل أن يتطيب بما له لون، بل يتطيب بما له رائحة فقط.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ، فقال: **«ائذنوا له، فبئس رجل العشير، أو بئس رجل العشيرة، فلما دخل ألان له القول. قال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من وَدَعَه - أو تركه - الناس اتقاء فحشه»**. [البخاري ومسلم].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل ما بال يقول كذا وكذا، ولكن يقول: **«ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»**. [أبو داود، صحيح].

٢٠- عدم ذكره عيب الطعام واستحبابه مدحه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه، تركه». [البخاري].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل أهله إدامًا، فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به، فجعل يأكل، ويقول: **«نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل»**. [مسلم].

٢١- من جامع صفاته وإرشاداته ﷺ:

روي عن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم أنهما قالا: «والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥]، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا». [البخاري].

وكان ﷺ لا يحب أن يمدح بما فيه انتقاص لغيره من الأنبياء، ويقـول: **«ولا تخيروا بين الأنبياء»**. [البخاري، مسلم].

وكان يحث على الصبر والشكر، وفي ذلك يقـول: **«إذا نظر أحـدكم إلى مـن فضـل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه»**. [البخاري].

وجعل مقياس القوة تملك أو ضبط النفس عند الغضب. [البخاري]. وكـان ينهـي عن سيء الخلق، وفي ذلـك يقـول: **«إيـاكم والظـن، فـإن الظـن أكـذب الحـديث، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»**.. [البخاري].

وفي وصف جوامع خُلقه وَخَلقه نورد جزءاً مـن الحـديث الـذي رواه الترمـذي في الشمائل[1] عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قـال: سـألت خـالي هنـد بـن أبي هالـة[2]، وكـان وصافاً، عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، فقـال: «كـان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلـة البـدر، أطـول مـن المربـوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجْلَ الشعر، إن انفرقت عقيقته[3] فَرقَهـا، وإلا فـلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللـون، واسـع الجبـين، أزج[4] الحواجـب

(١) (ص ١٨-٢٦)، وقال المحقق - الشيخ الألباني: (تفرد به المؤلف، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف، له علتان بينتهما في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٠٥٣)، وقد أخرجت فيه شاهداً لطرفه الأول، وقد رواه البيهقي في الدلائل من طريق أخرى، ولكن فيه علي ابن جعفر بن محمد، سكت عنه في الكاشف، وقال في الميزان: ما رأيت أحداً لينه، نعم ولا وثقه، وساق له حديثاً في فضل أهل البيت استنكره جداً، وكذلك خرجته في الضعيفة (٢١٢٢). قلت: رواه أبو نعيم في الدلائل مطولاً (٢٢٧) وابن سعد (١/ ٤٢٢) والبغوي في شرح السنة تاما برقم (٣٧٠٥).

(٢) هند هو أخو فاطمة أم الحسن والحسين من أمها خديجة، كما مر بك، قتل مع علي يوم الجمل.

(٣) العقيقة: شعر رأسه الذي على ناصيته، أي جعلها فرقتين.

(٤) أزج: أي مقوس الحاجبين.

سوابغ في غير قرن[1]، بينهما عرق يدرُّه الغضب[2]، أقنى العِرْنَين[3]، لـه نـور يعلـوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم[4]، مفلـج الأسـنان[5]، دقيق المسرُبة[6]، كـأن عنقـه جيـد دُميـة، في صـفاء الفضـة[7]، معتـدل الخلـق، بـادن متماسك[8]، سواء البطن والصـدر، عـريض الصـدر، بعيـد مـا بـين المنكبـين، ضـخم الكراديس[9]، أنور المتجرد[10]، موصول ما بين اللَّبَّةِ[11] والسرة بشـعر يجـري كـالخط، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أَشْعَرَ الذراعين والمنكبين وأعالي الصـدر، طويـل الزِّنْدَيْنِ، رَحْبَ الراحة، سَبْط القصَب، ششن الكفين والقدمين، [أي غلـيظهما] سـائل الأطراف، أو قال: شائل الأطراف[12]، خُمصان الأَخْمَصَين[13]، مَسِيحَ[14] القدمين ينبـو

---

(١) أي كاملات، والقرن: اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما.

(٢) يدره الغضب: أي يصيره الغضب ممتلئاً دماً.

(٣) أقنى العرنين: أي طويل الأنف مع دقة أرنبته، والعرنين: ما صلب من الأنف وقيل الأنف كله.

(٤) ضليع الفم: أي واسع الفم، وهذا عند العرب يدل على الفصاحة.

(٥) الفلج: انفراج ما بين الأسنان.

(٦) دقيق المسربة: أي دقيق الشعر الذي من الصدر إلى السرة.

(٧) الجيد: العنق، والدمية: الصورة المتخذة من عاج أو غيره.

(٨) البادن: المعتدل السمنة، ومتماسك: أي قوي ومعتدل الجسم.

(٩) الكراديس: رؤوس الأعضاء كالكتف والركبة والمرفق.

(١٠) أي نير العضو المتجرد عن الشعر أو عن الثوب.

(١١) اللبة: موضع الثغرة فوق الصدر.

(١٢) شك من الراوي. والسائل، والشائل: كذلك الطويل.

(١٣) الأخمص من القدم هو الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند التوطء أو الوطء، والخمصان المبالغ منه، والمراد أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض.

(١٤) مسيح: أي ملساوان، ليس فيهما تكسر ولا شقاق: أي تشقق.

عنهما الماء، إذا زال زال قلعاً يخطو تكفيا[١] ويمشي هوناً، ذريع[٢] المشية، إذا مشـى كـأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه[٣]، ويبدر[٤] مـن لقـي بالسـلام».

[وسبط القصب: السبط الممتد في استواء، يوصف به الشعر والأعضاء والجلـد، والقصـب: مفردهـا قصبة، وفي كل عظم أجوف مخ].

ومن الأحاديث الجامعة في وصفه ﷺ حديث ام معبد الخزاعية، الذي سبقت الإشارة إليه في أخبار الهجرة إلى المدينة المنـور، فعنـدما طلـب أبـو معبـد مـن أم الخزاعية أن تصف له الرسول ﷺ، قالت: «رأيت رجلاً ظـاهر الوضـاءة أبلـج[٥] الوجه لم تَعِبْه ثُجْلَه[٦]، ولم تُزْر به صَقْلَة[٧]، وسيم قسيم[٨]، في عينيه دعج[٩]، وفي أشفاره وطف[١٠]، وفي صوته صَهَل[١١]، وفي عنقه سطع[١٢]، وفي لحيته كثاثة، أزجٌ

(١) تكفيا أو تكفُّؤا كما في رواية، أي يمشي تقلصاً يخطو تكفُّؤا: مائلاً قليلاً إلى الأمام.

(٢) ذريع: واسع الخطا، والصبب، الأرض المنحدرة.

(٣) أي يمشون أمامه ويمشي هو خلفهم.

(٤) بدر: أي يسبق.

(٥) أبلج الوجه: يعني مشرق الوجه، يقال تبلج الصبح إذا أشرق.

(٦) لم تعبه ثجلة: الثجلة هي ضخامة البطن (النهاية).

(٧) لم تزر به صقله: أي لم يقصر، والصقل والصقلة: دقة ونحول (النهاية) والصقلة - أيضاً - جلدة الخاصرة. تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخاصرة. وهو اسم للأوصاف الحسنة.

(٨) وسيم: أي حَسُن والوسامة: الحسن.

(٩) الدعج: شدة سواد العين.

(١٠) والوطف: طول شعر أشفار العين.

(١١) وفي رواية صحل: تُريدُ أنه ليس بحاد الصوت.

(١٢) سطع: أي إشراف وطول.

أقرن[1]، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ[2]، كأن منطقه خرزات نظم يَتَحَدَّرْنَ[3]، رَبَعَة[4]، لا يأس[5] من طول، ولا تقتحمه عين من قصر. غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً. له رفقاء يَحُفُّون به، إن قال أنصتوا، وإن أمر تبادروا لأمره. محشود[6] محفود[7]، لا عابس، ولا مُفَنَّد...»[8].

وخلاصة القول: إن النبي ﷺ قد اتصف بصفات الكمال، ولا غرو فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، وخاطبه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم: ٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: «**كان خلقه القرآن**». [مسلم، وغيره].

---

(١) الكثافة: دقة نبات شعر اللحية، مع استدارة فيها، وقولها: أزج أقرن: الزج، دقة شعر الحاجبين مع طولها. والقرن أن يتصل ما بينهما بالشعر.

(٢) وفصل لا نزر ولا هذر: الفصل هو الكلام البين، والنزر الكلام القليل. والهذر الكلام الكثير.

(٣) يتحدرن: يتساقطن من فمه.

(٤) ربعة: أي الوسط وإلى الطول أقرب.

(٥) لا يأس: لا يؤيس من طوله، لأنه كان إلى الطول أقرب.

(٦) محشود: أي محفوف به.

(٧) محفود: أي مخدوم، والحفد: الخدمة، ويقال الرجل إذا خدمته.

(٨) في رواية البغوي: مفند. وفي رواية ابن إسحاق: معتد: أي غير ظالم.

هذا الخبر أخرجه البغوي في شرح السنة، الحديث رقم (٣٧٠٤)، وفي: الأنوار في شمائل النبي المختار، تحقيق إبراهيم اليقوبي، الجزء الأول، ص ٣٤٠، حديث رقم (٤٥٦٩)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣٠)، والحاكم في المستدرك (٩١٣-١٠)، وصححه وأقره الذهبي. وأخرج بعضه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق (٢/ ١٤٦-١٤٨) بإسناد حسن لذاته. وله شواهد والقصة مشهورة.

ومن أرادأن يقف على أكبر قدر من القيم التربوية في السيرة النبوية فليقرأ موسوعة: (نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)، في (١٢) مجلدًا ، الأخير في الفهارس، ومعظم المجلد الأول في أحداث السيرة النبوية العطرة.





الفصل التاسع والعشرون
بعض الخصائص التي فُضل بها النبي ﷺ

١- صاحب الرسالة العامة:

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ:٢٨].

وقول الرسول ﷺ: «... **كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**» [البخاري (١/ ٥٥٣/ الفتح؛ مسلم (٥٢١)]. وفي رواية: «... **كان كل نبي يبعث على قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود**» [مسلم (٥٢١)].

٢- في كتابه الناسخ والمنسوخ:

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾[البقرة:١٠٦].

وليس في سائر الكتب مثل ذلك، ولذا كان اليهود ينكرون النسخ، كما قال السيوطي [في تهذيب الخصائص، ص ٣٥٤]: «أن سائر الكتب نزلت دفعة واحدة، فلا يتصور أن يجتمع فيها الناسخ والمنسوخ، لأن شرط الناسخ أن يتأخر نزوله عن المنسوخ».

٣- أكثر الأنبياء تبعًا:

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة**». وفي رواية: «**لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمته إلا الرجل الواحد**» [مسلم (٣/ ٧٣) النووي].

٤- خاتم الأنبياء والمرسلين:

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠ ﴾[الأحزاب:٤٠].

وقال ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» [البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (١٩٤)].

٥- حماية كتابه من التحريف والتبديل وجعله من المعجزات:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾[الحجر:٩].

٦- جعله الله أمنة لأصحابه من العذاب والفتن في حياته:

قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» [مسلم (٢٥٣١)].

وقال: «... رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون؟» [أبو داود (١١٩٤)- صححه الألباني كما في الصحيحة (١٠٥٥)].

٧- إقسام الله بحياته، القسم إنما يقع بالمُعَظم:

قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾[الحجر:٧٢] والمعنى: القسم بحياته وعمره وبقائه في الدنيا. [ابن الجوزي: الوفا (ص٣٦٤)، السيوطي: تهذيب الخصائص (ص ٣٥٧)].

٨- يسأل عنه الميت في قبره:

قال عليه الصلاة والسلام: «فأما فتنة القبر فبي تفتنون وعني تسألون، فإذا كان الرجل الصالح، أجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف [مرعوب]، ثم يقال له: فبم كنت؟ فيقول: في الإسلام، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله



ﷺ، جاءنا بالبينات من عبد الله عز وجل، ثم يفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهوتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله» [أحمد (٢٥٠٨٩) - صحيح].

٩- النداء بوصف الرسالة والنبوة: زيادة في التكريم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنفال:٦٤].

١٠- نهى الله المؤمنين عن مناداته باسمه. زيادة في التكريم كذلك:

جاء ذلك في قصة وفد بني تميم، ونزول قول الله ﷻ فيهم: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

وخاطب كل نبي باسمه، ولم يخاطب نبيًّا ﷺ بالاسم تعظيمًا له، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزاب:١] و: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[المائدة:٤١]. وعندما ذكر اسمه للتعريف بذكر الرسالة، قال ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[آل عمران:١٤٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾[محمد:٢] [الوفا (٣٦٣)].

١١- تولى الله تبرئته عما ينسبه إليه أعداؤه. والرد عليهم بنفسه:

من ذلك قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾[القلم:٢] و﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢] وغير ذلك. [الوفا (ص ٣٦٤)].

وقد ذكرنا ذلك في مبحث أساليب المشركين في الصد عن سبيل الله.

١٢- اختصاصه بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾[الشرح:١-٤] [الوفا (ص٣٦٢)].

١٣- غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح:٢] [المصدر السابق].

١٤- خصه الله عز وجل بفاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، والسبع الطوال، والمفصل، والمئين:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أتاه ملك، فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة [مسلم (٦/ ٩١) - النووي].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل**» [أحمد (١٦٩٨٢)- حسن].

١٥، ١٦، ١٧، ١٨- ذكر ما فضل به عن باقي الأنبياء:

جاء في الحديث: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**» [مسلم (٥٢٣)].

١٩- أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه:

عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعده تشريفًا وتعظيمًا [الوفا ص ٣٦٨]، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[التغابن:١٢].

٢٠- أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض بيده:

قال عليه الصلاة والسلام: «**بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي**» قال الراوي - أبو هريرة -: وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتشلونها. [البخاري (٣٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)].

٢١- ذكر في القرآن بعض أعضائه:

قال تعالى في وجهه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة:١٤٤].

وقال في عينيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[طه:١٣١].

وقال في لسانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾[الدخان:٥٨].

وقال في قلبه: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[البقرة:٩٧].

٢٢- اختصه الله ﷻ بالإسراء والمعراج:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[الإسراء:١] [الوفا (ص ٣٦٧)، السيوطي: تهذيب الخصائص (ص١١٠)].

وذكرنا تفاصيل ذلك في أحداث الفترة المكية.

٢٣- الرؤية من خلفه كما يرى أمامه:

قال ﷺ: «**هل ترون قبلي هاهنا؟ فوالله ما يخفى عني خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري**» [البخاري (٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٢٤- اختص بصلاة العشاء عن سائر الأنبياء:

عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أخر صلاة العشاء يومًا، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «**أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة**» [البخاري (٥٦٦)، مسلم (٥/ ١٤٠ - النووي)].

٢٥- فضله الله تعالى بدرجة الوسيلة والفضيلة يوم القيامة:

والوسيلة: أعلى درجة في الجنة، والفضيلة: المرتبة الزائدة على سائر الخلق، ويحتمل أن يكونا بمعنى واحد، كما قال ابن حجر [في الفتح (٢/ ١١٣)].

٢٦، ٢٧- شرفه الله تعالى بالمقام المحمود والشفاعة يوم القيامة:

ذهب كل أهل العلم إلى أنه المقام الذي يقومه يوم القيامة للشفاعة للناس ليخفف عنهم الله من شدة ذلك اليوم، وعند ابن حجر أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي أعطيها الرسول ﷺ دون غيره من الأنبياء والرسل يوم القيامة [الفتح (٣/ ٣٩٨)].

٢٨، ٢٩- اختص بأنه أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة [مسلم]:

وأول من يفيق من الصعقة، وبأنه سيكسى في الموقف حله من حلل الجنة، ومقامه عن يمين العرش [الفتح (٣/ ٣٩٨)، الترمذي (٣٣٧٩) - صحيح].

قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسى الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري**» [المصدرين السابقين].

وقال: «**إن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق**» [متفق عليه].

٣٠- أول من يقرع باب الجنة:

قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة**» [مسلم (١٩٦)].

٣١- اختصاصه بأن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه:

عن جابر رضي الله عنه، أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول للناس حين تزوج أم كلثوم بنت علي: ألا تُهنوني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي**» [مجمع الزوائد (٤/ ٢٧١- ٢٧٢)، الحاكم (٣/ ١٤٢) - صحيح].

٣٢- أول من يمر على الصراط:

قال عليه الصلاة والسلام: «**يضرب جسر جهنم، فأكون أول من يجيز**» [متفق عليه].



٣٣- واختصه بأن يكون ما بين منبره وبيته روضة من رياض الجنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة»** [متفق عليه: البخاري (١٨٨٨)، مسلم (١٣٩٠)].

٣٤- يدخل من أمته الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، مع كل ألف سبعون ألفًا:

ولم يثبت ذلك لغيره من الأنبياء. [البخاري (٦٥٤١)، مسلم (٢١٦)].

٣٥- اخصته الله تعالى بالدعوة المستجابة:

قال ﷺ: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»** [البخاري (٦٣٠٤)، مسلم (١٩٩- ولفظه)].

٣٦- اختص في الدنيا بأن جعل الله أمته خير الأمم:

قال عليه الصلاة والسلام: **«فضلت على الأنبياء بست لم يعطهن أحد كان قبلي...»** وذكر منها: **«وجعلت أمتي خير الأمم»** [المجمع (٨/ ٢٦٩) جيد].

٣٧- تحريم التكني بكنيته، ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ **أن يجمع بين اسمه وكنيته، ويسمى محمدًا أبا القاسم»** [الترمذي (٢٦٤٤) - حسن، البخاري: الأدب المفرد (٨٤٤) - حسن].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»** [البخاري (٦١٨٧، ٦١٩٠)، مسلم (٢١٣١)].

٣٨- أحل الله عز وجل له الهدية بخلاف غيره من ولاة الأمور:

ذكرنا لذلك أمثلة في فصل الشمائل والمعجزات.



٣٩- تحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى آله وعلى مواليه وموالي آله:

قال ﷺ: **«إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد»** [مسلم (٧/ ١٧٩، ١٨١/ النووي)].

٤٠- إسلام قرينه:

قال عليه الصلاة والسلام: **«ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»** قالوا: وإياك يا رسول الله! قال: **«وإياي، ولكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»** [مسلم (٢٨١٤/ ٦٩)، أحمد (٣٦٤٨) - صحيح].

٤١- لا ينام قلبه:

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! تنام قبل أن توتر! قال: **«تنام عيني، ولا ينام قلبي»** [البخاري (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، مسلم (٧٦٣)].

٤٢- التجاوز لأمته عن حديث النفس والخطأ والنسيان:

قال ﷺ: **«إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها، ما لم يتكلموا أو يعملوا به»**. [البخاري (٦٦٦٤)، مسلم (١٢٧)].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن الله تجاوز لي عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»** [ابن ماجه (٢٠٤٣) - صحيح، الحاكم (٢/ ١٩٨) - صحيح].

٤٣- حفظ أمته من الهلاك والاستئصال:

قال عليه الصلاة والسلام: **«... وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسَنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من**

بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعض، ويسبي بعضهم بعضًا» [مسلم (٢٨٨٩)].

وفي رواية: أنه سأل ربه أن لا يهلك أمته بالغرق، فأعطاه ذلك [مسلم (٢٨٩٠)].

٤٤- عدم اجتماع أمته على ضلالة:

قال ﷺ: «**إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة**» [ابن أبي عاصم، السنة (٧٩) - صحيح].

٤٥- لا يعدم عصر من عصور أمته من جماعة ظاهرة على الحق:

قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك**» [البخاري (٣٦٤١)، مسلم (١٩٢٠) لفظه].

٤٦- اختص الله تعالى أمته بأنهم شهداء الله عز وجل في الأرض:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مروا بجنازة على النبي، فأثنوا عليها خيرًا، فقال: «**وَجبَت**»، ثم مروا عليه بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وجبت**» فقالوا: يا رسول الله: قولك الأولى والأخرى وجبت! فقال ﷺ: «**الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض**» [البخاري (١٣٦٧)، مسلم (٩٤٩)، النسائي (٤/ ٥٠)].

٤٧- ميز الله تعالى أمته يوم القيامة بالغرّ والتَّحْجيل من أثر الوضوء:

قال عن الحوض يوم القيامة: «**... وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه**» قالوا: يا رسول الله! أتعرفنا يومئذ، قال: نعم، لكم سيمًا [علامة] ليست لأحد من الأمم، تردون عليَّ غُرًّا محجلين من أثر الوضوء» [مسلم (٢٤٧)].

٤٨- أبيح له الوصال في الصوم دون غيره من أفراد أمته:

قال ﷺ: «**لا تواصلوا**» قالوا: إنك تواصل، قال: «**لست كأحـد مـنكم، إني أُطعَـم وأسقى**» [البخاري (١٩٦١)، مسلم (١٨٢)]. وفي روايـة: «**... إني لسـت كهيئـتكم، إني يطعمني ربي ويسقين**» [البخاري (١٩٦٤)، مسلم (١١٠٥)].

٤٩- اختص بإباحة الزواج له من غير ولي ولا شهود:

جاء في حديث زينب بنت جحش الذي ذكرناه في فصـل (أمهـات المـؤمنين)، أنهـا كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «**زوجكن أهليكن، وزوجنـي الله تعـالى مـن فوق سبع سموات**» [البخاري (٧٤٢٠)].

٥٠- أبيح له الزواج بأكثر من أربع نسوة بلا تقييد بعدد:

قال الله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾[الأحزاب:٥٠].

قالت عائشة ﵂: «**ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج مـن النسـاء ما شاء**» [البخاري (١٣٨)، مسلم (٦/ ٤٤- ٤٥/ النووي)].

٥١- لا يُنقصُ وضوؤه بالنوم مضطجعًا:

عن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ نام حتى نفـخ، ثـم صـلى ولم يتوضـأ. [البخـاري (١٣٨)، مسلم (٦/ ٤٤- ٤٥/ النووي)].

٥٢- يقبل شهادة من يشهد له والحكم لنفسه وولده. ويشهد لنفسه وولده:

ويشهد لهذا كله حديث خزيمة بن ثابت ﵁، وذلـك أن رسـول الله ﷺ اشـترى من أعرابي فرسًا، ثم أنكر الأعرابي أنه باعه، وطلب من الرسول ﷺ شاهدًا على البيـع، ولم يكن أحد قد شهد البيع، وجاء خزيمة وقال للأعرابي: أنا أشهد أنـك قـد بايعتـه.. فجعـل رسـول الله ﷺ شـهادة خزيمـة بشـاهدة رجلـين. [أبـو داود (٣٦٠٧)، النسـائي (٨/ ٣٠١) الحاكم (٢/ ١٧٧) صحيح].

٥٣- القضاء بعلم نفسه:

قالت هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما: إن أبا سفيان رجل مسيك [أي: شحيح] فهل عليَّ من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: «**لا حرج عليك**» [البخاري (٧١٦١)].

٥٤- أبيح له الاصطفاء من الغنيمة قبل القسمة:

ويعرف بسهم الصفي، كما جاء مصرحًا به في سنن أبي داود [(٢/ ١٢٨) صحيح]. والبيهقي [الكبرى (٦/ ٣٠٣)]. في حديث وفد عبد القيس. [انظر: ابن قدامة: المغني (٩/ ٢٩٢)].

٥٥- أبيح له دخول مكة بلا إحرام، وإباحة القتال فيها ساعة:

جاء ذلك في أحداث فتح مكة. [البخاري (٤٢٩٥)].

٥٦- أن أزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبدًا:

وفيمن فارقها في حياته أوجه، أصحها التحريم.

واستدلوا في هذا بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[الأحزاب:٥٣].

٥٦- وأن أزواجه أمهات المؤمنين:

استدلوا بالآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [الأحزاب:٥٣] [انظر: مغلطاي: الإشارة (ص ٥٤)].

٥٧- أن كذبًا عليه ليس ككذبٍ على غيره:

قال ﷺ: «**إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**». [البخاري (١٢٩١)، مسلم: المقدمة (٤)].

٥٨- من رآه في المنام فقد رآه حقًّا:

قال ﷺ: «**ومن رآني في المنام فقد رآني...**» [البخاري (١١٠)، مسلم (٢٢٦٦)].

٥٩- أن الأرض لا تأكل لحمه كسائر الأنبياء:

قال ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» [أحمد (١٦١٦٢) صحيح].

٦٠- من استهان به أو سبه كفر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[التوبة].

وقد روي أن رجلًا قتل أم ولد له كانت تشتم الرسول ﷺ، فينهاها فلا تنتهي. فطعنها بمغول - سيف قصير - فقتلها، فأهدر الرسول ﷺ دمها. [أبو داود (٤٣٦١) صحيح].

٦١- اختصه الله تعالى بالعصمة في الأقوال والأفعال:

قال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[النجم:٢، ٣] **فهو معصوم** من كل ذنب كبيرًا أو صغيرًا عمدًا أو سهوًا. [انظر: تهذيب الخصائص (٤٣٤)].

٦٢- حرم الله تعالى عليه خائنة الأعين:

يعني الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر ويشعر به الحال، ولا يحرم ذلك غيره إلا في محظور [السيوطي: الخصائص (٢/ ٤١٥)].

مثاله في قصة عبد الله بن أبي السرح حين أهدر الرسول ﷺ دمه فيمن أهدر يوم فتح مكة. [أبو داود (٤٣٥٩)، النسائي (٧/ ١٠٥- ١٠٦)؛ الحاكم (٣/ ٤٥) - صحيح].

٦٣- لا يورَّث كسائر الأنبياء فالأنبياء لا يورثون:

قال ﷺ: «**... وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم...**» [أبو داود (٣٦٤١)، الترمذي (٢٦٨٢)، أحمد (٥/ ١٩٦)، ابن ماجه (٢٢٣) صحيح].

وقال ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**» [البخاري (٦٧٣٠)، مسلم (١٧٥٨)].

٦٤- أخبر الله بغفران ذنب نبينا من غير أن يذكر له ذنبًا:

قال ﷻ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح:٢].

٦٥- اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليلًا:

فقال عليه الصلاة والسلام: «... **ولكن صاحبكم خليل الله**» [مسلم (٢٢٨٣)، وغيره].

٦٦- تقدم نبوته قبل نفخ الروح في آدم ﷺ:

ودليل هذا:

- عن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيًّا؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**» [أحمد (٢٠٥٦٩) صحيح، البخاري: الكبير (٧/ ٤٧) صحيح].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قاولوا: يا رسول الله! متى وجبت لك النبـوة؟ قـال: «**وآدم بين الروح والجسد**» [الترمذي (٣٣٧٧) صحيح].

- وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أن رسول الله قال: «**إني عند الله لخـاتم النبيـين، وإن آدم لمُنجَدِل في طينته**» [أحمد (١٧١٦٣) صحيح بشواهده].

٦٧- اختصه الله تعالى بالحكم والفتوى في حالة الغضب، لأنه مأمون منه:

ذكر هذا النووي في شرح صحيح مسلم عند حديث اللقطة، فإنـه أفتـى فيـه، وقـد غضب حتى احمرت وجنتاه» [تهذيب الخصائص (ص ٤١٧)].

٦٨- اختصاصه ﷺ بوجوب صلاة الليل:

ودليله قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾[المزمل: ١-٢].

٦٩- اختصاصه ﷺ بتحريم أكل ما له ريح كريهة:

وثبت هذا في الصحيح [البخاري (٧٣٥٦)، مسلم (٥٦٤- ٥٦٧)].

٧٠- اختصاصه ﷺ بتحريم الكتابة والشعر:

ومـن أدلتـه قولـه تعـالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[العنكبوت:٤٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[يس: ٦٩].

٧١- اختصاصه ﷺ بتحريم إمساك كارهته:

ودليله: أن ابنة الجون لما دخل عليها النبي ﷺ ودنا منها قالـت: أعـوذ بـالله منـك، فقال: «**لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك**» [البخاري (٥٢٥٤)].

٧٢- اختصاصه ﷺ بإباحة الصلاة بعد العصر:

ودليل هذا:

أ- عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عـن السـجدتين اللتـين كـان رسـول الله ﷺ يصليهما بعد العصر، قالت: «كان يصليهما قبل العصر، ثم إنه شغل عنهما فصلاهما بعـد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتها» [مسلم (٨٣٥)؛ البخاري (١٢٣٣)].

ب- وعنها أيضًا قالت: «ركعتان لم يكن رسـول الله ﷺ يـدعهما سِرًّا ولا علانيـة، ركعتان قبل الصبح، وركعتان بعد العصر» [البخاري (١٢٣٣، ٤٣٧٠)، مسلم (٨٣٥)].

٧٣- اختصاصه ﷺ بإباحة القتال بمكة المكرمة والقتل بها:

ومن أدلته، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ دخل مكة عـام الفـتح وعـلى رأسـه المغفر، فلما نزعه جاءه رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقـال: «**اقتلـوه**» [البخاري (٤٤٨٦)، مسلم (١٣٥٧)، وغيرهما].

وعن أبي شريح العدوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول يـوم الفـتح: «**إن مكـة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليـوم الآخـر أن يسـفك بهـذا**

دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». [البخاري (٤٢٩٥)؛ مسلم (١٣٥٣)؛ الترمذي (٧١٦)].

٧٤- ومن خصائصه أن له النكاح بلفظ الهبة وبلا مهر ابتداء وانتهاء:

ومن أدلته قول الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾[الأحزاب: ٥٠].

٧٥- ومن خصائصه ﷺ إباحة النظر إلى الأجنبيات والخلوة بهن:

ومن الأدلة على هذا:

قالت الرُّبيع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنها حين سألها خالد بن ذكوان: (جاء النبي ﷺ فدخل عليَّ غداة بُني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني) [البخاري (٥١٤٧)].

وجاء في الشمائل أن الأمة كانت تأخذ بيده ليقضي لها حاجتها في المكان الذي تختاره من سكك المدينة، وقصة دخوله على أم حرام بنت ملحان ونومه عندها وتفليتها رأسه، ولم يكن من محارمها. [البخاري (٢٨٧٧، ٢٨٧٨)].

٧٦- ومن خصائصه ﷺ أنه كان يزوج من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضا آبائهن:

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾[الأحزاب:٣٦] وقوله ﷺ: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة»**، وعندما عرضت امرأة نفسها عليه قال: «ما لي بالنساء حاجة» فقال رجل: يا رسول الله! زوجنيها، فقال: **«زوجتكها بما معك من القرآن»** وذلك بعد حوار معه اتضح فيه أنه فقير [البخاري (٥١٤٩)، مسلم (١٤٢٥)].

٧٧- ومن خصائصه ﷺ وجوب جلوس أزواجه من بعده في بيوتهن:

وتحريم خروجهن إلا لحاجة ضرورية أو طبيعية أو شرعية، كالمشي إلى المسـجد، أو عيادة مريض، أو زيارة قريب، ودليل هذا قولـه تعـالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[الأحزاب: ٣٣]، وقوله ﷺ لهن في حجة الوداع: «**هذه، ثم ظهور الحصر**» [أحمد (٢١٩١٠) - حسن لغيره].

٧٨- ومن خصائصه ﷺ أن تطوعه في الصلاة قاعدًا كتطوعه قائمًا:

ودليله أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: يا رسول الله! حدثت أنك قلت: صلاة الرجل قاعدًا نصف الصلاة، وأنت تصلي قاعدًا؟! قال: «**أجل. ولكني لست أحدكم**» [مسلم (٧٣٥)].

٧٩- ومن خصائصه ﷺ أن عمله كان له نافلة:

ودليله: عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن وصل صيام الرسول ﷺ قالت: «أتعملـون كعمله، فإنه قد غفر له ما تقدم وما تأخر، كان عمله له نافلة» [أحمد (٢٦١٥١) صحيح)].

٨٠- ومن خصائصه ﷺ أن المصلي يخاطبه بصلاته:

بقوله: (السلام عليك أيها النبي)، ولا يخاطب سائر الناس، وأنه يجب عليه أجابتـه إذا دعاه. ودليله من أحاديث التشهد المشهورة، وأما إجابته، فعن أبي سـعيد بـن المعلـى رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فصـلى، ثـم أتـاه فقـال: «**مـا منعـك أن تجيبنـي إذ دعوتك**» قال: إني كنت أصلي، فقـال: «ألم يقـل الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال:٢٤]»، ثم قال: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن**»، قال: فكأنه نسيها أو نُسِّي [وذلك عندما هم بالخروج]، قلت: يـا رسـول الله! قلـت لي: ألا أعلمـك... إلـخ، قـال: «﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، **هـي السـبع المثـاني والقـرآن العظيم**». [البخاري (٥٠٠٦)].

٨١- ومن خصائصه ﷺ أنه كان لا يجوز لأحد الخروج من مجلسه إلا بإذنه:

ودليلـه قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[النور: ٦٢].

٨٢- ومن خصائصه ﷺ وجوب محبته ومحبة أهل بيته وأصحابه:

ودليلـه مـن القـرآن قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة:٢٤].

ودليله من السنة: قول الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه عندما قال: يـا رسـول الله! لأنـت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**» [البخاري (٦٦٣٢)].

٨٣- ومن خصائصه ﷺ أن أولاد بناته ينسبون إليه بخلاف بنات غيره:

ودليله قوله في الحسين بن علي رضي الله عنه: «**إن ابني هذا سيد**» [البخاري (٣٧٤٦)].

٨٤- ومن خصائصه أن رؤياه وحي، وكل ما رآه فهو حق:

وقد ذكرنا أدلة هذا في مبحث إرهاصات النبوة قبل البعثة.

٨٥- ومن خصائصه ﷺ تشريفه بالصلاة عليه:

ودليــه قولــه تعــالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[الأحزاب].

وقوله ﷺ: «**من صلى عليَّ واحدة، صلى الله عليه عشرًا**» [مسلم (٤٠٨)].

٨٦- ومن خصائصه ﷺ أن أصحابه كلهم عدول بإجماع من يعتد به:

والأدلة على هذا كثيرة من الكتاب والسنة، أفرد لها بعض الكُتَّاب كتبًا أو أبحاثًا خاصة.

٨٧- اختصاصه ﷺ بالصلاة عليه حين موته أفرادًا بغير إمام وبغير دعاء الجنازة المعروف:

وقد ذكرنا ذلك في فصل: (الوفاة).

٨٨- اختصاصه ﷺ بدفنه في بيته حيث قبض:

وقد ذكرنا دليله في فصل الوفاة.

٨٩- إكرامه ﷺ بحياته في قبره واستغفاره لأمته:

وتوكيل ملائكة سياحين في الأرض يبلغونه من سلم عليه.

ودليله قوله ﷺ: «**إن لله ملائكة في الأرض سياحين، يبلغوني من أمتي السلام**» [أحمد (٣٦٦٦) صحيح على شرط مسلم].

٩٠- كان السواك في حقه ﷺ واجبًا:

ومن أدلة هذا قوله ﷺ: «**لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل علي به قرآن أو وحي**». وقال: «**لقد لزمت السواك حتى تخوفت أن يُدْرِدْني**». [البيهقي: الكبرى (٧/ ٤٩/ صحيح)، ويُدْرِدْني: يذهب بأسناني]. وقال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالسواك، حتى خشيت على أضراسي**». [المصدر السابق].

٩١- كان له ﷺ أن يُقبل وهو صائم بغير كراهة:

ودليله قول عائشة ﵂: (كان رسول الله ﷺ يُقبل وهو صائم، ويباشر وهو صائم، ولكنه أملككم لإربه)، وفي رواية: (كان رسول الله ﷺ يُقبلني

وهـو صـائم، وأيكـم يملـك إربـه كـما كـان رسـول الله ﷺ يملـك إربـه» [مسلم (٢/ ٧٧٧) النووي].

٩٢- وكان بوله ودمه يُتبرك بهما، ولم ينكر ذلك:

ودليل التبرك ببوله: عن حكيمة بنت أميمة عن أمها: كان النبي ﷺ يبـول في قـدح عيدان، ثم يرفع تحت سريره، فبال فيه، ثم جاء فأراده، فإذا القدح ليس فيه شيء، فقـال لامرأة يقال لها بركة، كانت تخدم أم حبيبة، جاءت بها مـن أرض الحبشـة: «**أيـن البـول الذي كان في القدح؟**» قالت: شربته فقال: «**لقد احتظرت من النـار بحظـار**» [الطبراني: الكبير (٢٤/ ١٨٩، ٢٠٥)، البيهقي: السنن (٧/ ٦٧) صحيح].

ودليل التبرك بدمه: فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: «**يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيـث لا يـراك أحـد**» فلـما بـرزت عـن رسول الله ﷺ عمدت إلى الدم فحسوته، فلما رجعت إلى النبي ﷺ قال: «**ما صنعت يـا عبد الله؟**» قال: جعلته في مكان ظننت أنه خاف على النـاس، قـال: «**فلعلـك شربتـه**». قلت: نعم، قال: «**ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويلك من الناس، وويـل للنـاس منـك**» [الحاكم (٣/ ٥٤٤)، أبو نعيم: الحلية (١/ ٣٣٠) - حسن].

٩٣- اختصاصه ﷺ بالغسل وعليه قميصه حين موته:

والدليل عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لمـا أرادوا أن يغسـلوا رسـول الله ﷺ قـالوا: مـا ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغلسه وعليه ثيابه؟ فلـما اختلفـوا ألقـى الله عليهم النوم، ثم كلمهم مكلِّم من ناحية البيت لا يـدرون مـن هـو: أن اغسـلوا النبـي وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص دون أيديهم». [أحمد (٦/ ٢٦٧/ حسن)، أبو داود (٣١٤١/ حسن)].

٩٤- اختصاصه ﷺ بأن لم يوجد له مثلما يخرج من أوساخ البطن عندما أرادوا غسله بعد موته:

ودليل هذا:

عن علي رضي الله عنه قال: «لما غسَّل النبي ﷺ ذهب يلتمس منه ما يلتمس من الميت فلم يجده، فقال: بأبي الطيب طبت حيًّا وطبت ميتًا». [ابن ماجه (١٤٦٧)، صحيح، الحاكم (٣/ ٦٠) وصححه].



تنبيه:

تجد في حواشي الفصل التالي بعـض اختصـار لأسـماء بعـض المصـادر أو المراجـع، وهي:

- بخ = البخاري.
- م = مسلم.
- د = أبو داوود.
- تر = الترمذي.
- ن = النسائي.
- مج = ابن ماجه.
- حم = الإمام أحمد.
- حك = الحاكم.
- بهد = البيهقي: دلائل النبوة.
- طب = الطبراني.
- طبك = الطبراني المعجم الكبير.

الفصل الثلاثون
بـعض المعجزات النـبوية (دلائل النبـوة)

المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، الـدال عـلى صـدق الأنبيـاء، والواقع على وفق دعوى المُتحدَّى بها، مع أمن المعارضة.

أما الأمر الخارق من غير تحد فهو الكرامة للولي.

وما جرى للأنبياء قبل الرسالة من خوارق فهي إرهاصات تمهد للرسالة والنبوة.

وقد أجرى الله ﷻ على يد ولسان نبيه محمد ﷺ معجزات كثيرة، تزيد عـلى الألـف ومائتين، نذكر أمثلة قليلة جدًّا منها:

١- القرآن الكريم: المعجزة العظمى الباقية:

تدرج القرآن في التحدي للعرب بأن يأتوا بمثله، أي الكل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[الطور:٣٤] ثم الإتيان بالجزء القليل منه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[هود:١٣] ثم الجزء الأدنى وهو سورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[يونس:٣٨] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة:٢٣-٢٤] وفشلوا في هذا التحدي إلى اليوم.

إن معجزة القرآن مستمرة إلى يـوم القيامـة، تحمـل في طياتهـا كـل أنـواع المغيبـات ودلائل الإعجاز والنبوة. ففيه أخبار ما قبله وما بعده، وإعجازات علمية وأدبية بلاغية وغيبية ولا تنقضي عجائبه، كلما درسه العلماء في كل زمان ومكان.

[يأتي ذكر نماذج من المعجزات العلمية في القرآن الكريم - الفصل الحادي والثلاثون].

٢- انشقاق القمر: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر:١-٢].

سأل جماعة من زعماء مكة الرسول ﷺ أن يريهم آية، وقالوا: إن كنت صادقًا فاشقق لنا القمر فرقتين: نصفًا على جبل أبي قبيس ونصفًا على جبل قُعَيْقُعَان. فقال لهم: «**إن فعلت تؤمنوا؟**»، قالوا: نعم. ففعل ما أرادوا، فلم يؤمنوا، وقالوا: سحر محمد أعيننا. وقال بعضهم لبعض: لئن كان محمد سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا السفار. فسألوهم، فأكدوا الحدث، بأنهم رأوا القمر قد انشق، فأنزل الله تعالى الآية المذكورة. [بخ (٣٨٦٨، ٣٢٥١، ٣٢٥٣، ٣٤٢٨)، م (٢٨٠٠)- وقبيس وقعيقعان: جبلان بمكة].

وقد أثبت العلم صدق القرآن والحديث في معجزة انشقاق القمر.

يقول داود موسى بيدكوك: (سبب إسلامي أني استمعت، أو حضرت مناظرة وقعت بين ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكان مع مجموعة من العلماء البريطانيين في التلفاز البريطاني...).

وخلاصة كلام بيدكوك أن الأمريكان اكتشفوا عند صعودهم إلى القمر أنه انشق ذات يوم إلى نصفين. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لفارس، ص: ١٥٨- من كلام الشيخ الزنداني في مقابلة قناة الجزيرة؛ محمد حسني يوسف: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (٢/ ٢٥٩- ٢٦٢)].

٣- استسقائه ﷺ ربه ﷻ لأمته حين تأخر المطر:

جاءه أعرابي وهو يخطب يوم الجمعة، فقال:... هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع ﷺ يديه، فنزل المطر على التو، حتى الجمعة القادمة، حين جاء الأعرابي ذاته وذكر تهدم البناء، فدعا: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» فكانت الإجابة من الله ﷻ. [بخ (٨٤٥، ٨٩١)، م (٨٩٧)].

٤- نبع الماء الطهور من بين أصابعه:

ذكر الشامي في سبله ثلاث عشرة رواية في هذا الشأن، منها:

كان ﷺ يومًا بالزوراء [قرب المسجد] وحانت صلاة العصـر، ولا مـاء بالمكـان، فـأُتِي ﷺ بوضوء، فوضع يده في فتحة الإناء، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأى أنس رضي الله عنه الماء ينبـع من بين أصابعه حتى توضؤوا عن آخرهم. وكانوا زهاء ثلاثمائة. [بخ (٢٣٨٠) م (٢٢٨٩)].

٥- تكثير ماء الآبار:

ومثال ذلك:

أ/ أن زياد بن الحارث الصُّدائي اشتكى إلى النبي ﷺ قلـة مـاء بئـر لهـم بـاليمن في الصيف، وكانوا قبل إسلامهم يتفرقون على مياه من حولهم، وأصبحوا أعداء لهـم بعـد إسلامهم، فطلب دعاء النبي ﷺ ليسعهم ماء بئرهم، ولا يتفرقوا.

فدعا ﷺ بسبع حصيات فعركهن بيده ودعـاء فـيهن، ثـم قـال ﷺ: «**اذهبـوا بهـذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوها واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل**».

ففعلوا، فما استطاعوا بعد أن ينظروا إلى قعرها [بهـد (٤/ ١٢٧)، أبـو نعـيم (٢/ ١٤٧)؛ حم (٤/ ١٦٩)، حسن].

ب/ تكثيره ماء بئر الحديبية:

فعندما نضب ماء بئر الحديبية، وعطش الناس، انتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالري، فارتووا جميعًا [بخ (٣٧٣١- ٢٧٣٢)] وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضـمض ومـج في بئـر. [بـخ (٣٥٣٣)] ويمكـن الجمـع بـين الروايتين بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر [الفتح (١١/ ١٦٤)].

٦- تكثيره ماء المزادتين [القربتين]:

اشتكى أصحابه العطش وهم في سفر، فوجدوا امـرأة معهـا قربتـان مـن المـاء، فأخذوها إلى النبي ﷺ، فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين، فمضمض من الماء، وأعاد في أفواه المزادتين، فسقى كل الناس، وبقي ماء المرأة كما هو، فكان ما شاهدته سـببًا في إسـلامها وإسـلام قومهـا. [بـخ (٣٢٧-٣٥٧١)، م (٦٨٢- ٣٠١٣)؛ حم (١٩٨٩٨)].

٧- تكثير اللبن في القدح:

سقى سبعين من أصحابه من قدح لبن أهدي إليه. [بخ (٦٤٢٥)].

٨- تكثيره السمن في العكة:

كانت البَهزية، أم مالك، تهدي إليه ﷺ سمنًا في عكة، فبينما بنوها يسألونها عن إدام وليس عندها شيء، فعمدت إلى العكة فوجدت فيها سمنًا، فما زال يقيـم لهـا إدام بنيهـا حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال: «**عصرتيها**» فقالت: نعم. قال: «**لو تركتيها ما زال ذلك قائمًا**»[م (٢٢٨٠)].

٩- تكثير الشعير:

سأل رجل النبي ﷺ طعامًا، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكـل منـه هـو وامرأته وضيف لهم حتى كـالوه، فـأخبر النبـي ﷺ، فقـال: «**لـو لم تكلـه لأكلـتم منـه ولقام لكم**»[م (٢٢٨١)].

وقالت عائشة ﵂: «مات رسول الله ﷺ وما بقي في بيتي إلا شطر مـن شـعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»[بخ في الرقاق (١٤/ ٥٨- ٥٩)، م: في الزهد (١٨/ ١٠٧/ النووي)؛ حم (٦/ ١٠٨) - صحيح].

وخبزت أم طلحة مد دقيق شعير، فدعا أبو طلحة النبي ﷺ ليأكلها معهم، ودعا الرسول ﷺ ثمانين من أصحابه فأكلوا وشبعوا وأهديت الفضلة للجيران [بخ (٣٥٧٨- ٤١٠٣)؛ م (٢٠٣٩- ٢٠٤٠)].

١٠- تكثيره التمر:

كان لجابر رضي الله عنه غرماء، لا يكفيهم حصاد نخله، فجلس ﷺ على أعظم كوم منها بعد أن طاف به ثلاث مرات، فبورك فيه، فوفى الغرماء، وبقي بعضه [بخ (٢١٢٧- ٢٣٩٥- ٢٦١٠)].

١١- تكثيره اللحم:

عن أبي عبيدة رضي الله عنه أنه طبخ للنبي ﷺ قدرًا، فقال له: «ناولني ذراعًا»، فناوله الذارع، وكرر الطلب، فقال بعد الثالثة: يا نبي الله، وكم للشاة من ذراع؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو سَكَتَّ لأعطيت أذرعًا ما دعوت به**» [الدارمي (٤٥) - صحيح].

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن ﷺ أُتِيَ بقصعة بن ثريد، فأخذ الناس يتعاقبون عليها إلى الظهر، فقال رجل لسمرة: أما كانت تُمَدُّ؟ فقال: «من أي شيء تعجب، ما كانت تُمَدُّ إلا ها هنا وأشار بيده إلى السماء. [الدارمي (٧٥) الترمذي (٣٢٩٤) حك (٢/ ٢١٨) - وكلها صحيحة].

عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أنه: « ﷺ اشترى شاة من أعرابي في أحد أسفاره، فَشُوِيَ سواد بطنها، فأكل منها مع أصحابه المائة والثلاثين حتى شبعوا، وفضل منها». [حك (٤/ ١١١) - صحيح].

١٢- تكثير حَيْس أم سليم -والدة أنس - [وهو: طعام من حليب مجفف وسمن]:

عندما تزوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها أهدته أم سليم حيسًا، دعا ﷺ واحدًا وسبعين أو اثنين وسبعين من أصحابه فأكلوا منه حتى شبعوا منه وضعه أنس قدام زينب. [م (١٤٣٣/ ٩٥)، (١٤٢٨)].

١٣- تكثيره فضلة أزواد أصحابه:

أراد أصحابه أيام سفرة غزوة تبوك أن ينحروا بعـض رواحلهـم عنـدما أصـابتهم مخمصة شديدة، فكانت مشورة عمر أن يجمع الناس فضلة أزوادهم ليدعو الرسول ﷺ فيها بالبركة، ففعل ﷺ، فشبع الجيش من هـذه الفضـلات وتـزودوا. [م (٢٧) و (٢٨)؛ حك (٢/ ٦١٨- ٦١٩) - صحيح، أحمد (٣/ ٤١٧- ٤١٨) - صحيح].

١٤- تسبيح الطعام والشراب بين يديه ﷺ:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا نأكل مع رسول الله ﷺ فنسـمع تسـبيح الطعـام وهـو يؤكل». [بخ (٣٥٧٩- ٣٣٨٦)، تر (٣٦٣٣) - حسن صحيح]

١٥- انقياد الشجر له ﷺ وسلامها عليه:

أ- دعا ﷺ شجرتين ليقضي حاجته بينهم، فانقادتا له كالبعير الذي يجر من حلقة في أنفه، ثم رجعتا بعد قضاء حاجته. [م (٣٠١٢)].

ب- دعا ﷺ عذقًا في شجرة [أي عرجونًا بما فيه من الشماريخ] فسقط إلى الأرض ينقرز حتى سجد بين يديه، ثم أمره بالرجوع، فرجع إلى شجرته.

فأسلم الأعرابي الذي طلـب منـه مـا يعرفـه بـأن محمـدًا ﷺ نبـي. [التـاريخ الكبـير (٣/ ١/ ٣)، أبو يعلى: المسند (٢٣٥٠) صحيح، ابن حبان (٢١١٠) - صحيح].

ج- عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: سألت مسروقًا: من أذَنَ (أعلـم) النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن، فقال: حدثني أبوك، قال: «أذنَـتْ بهـم شـجرة». [بخ (٥/ ٢٥٨)].

د- عن يعلى بن مرة رضي الله عنه، قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ، فنزلنـا منـزلًا، فنام رسول الله ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض، حتى غشيته، ثم رجعت مكانها، فلما

استيقظ، ذكرت ذلك له، فقال ﷺ: **«هي شجرة استأذنت ربها ﷻ في أن تسلم عَلَيَّ، فأذن لها»**. [حك (٢/ ٦١٧) - صحيح].

هـ- دعا ﷺ سَمُرَة كانت بشاطئ الوادي، فأقبلت تَجُدُّ الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها، فشهدت الشهادتين، ثم أمرها فرجعت إلى مكانها. [بهد (٦/ ١٤-١٥؛ المجمع (٨/ ٢٩٢)؛ ابن كثير التاريخ (٦٧٧٨)].

و- عندما أعان ﷺ سلمان الفارسي في زراعة ثلاثمائة من الفسائل [فراخ النخل - الوَدِيُّ] لسيده وينال حريته، لم تمت واحدة من التي وضعها بيده في الحفرة [ابن هشام (١/ ٢٨١) - حسن].

وفي رواية: أنها حملت من عامها، ما عدا واحدة غرسها عمر رضي الله عنه [بهد (٢/ ٢٨٢-٦/ ٩٧)، المجمع (٩/ ٣٣٥) - وعزاه لأحمد والبزار، وقال: ورجاله رجال الصحيح].

ز- تكثيره الذهب الذي دفعه لسلمان الفارسي رضي الله عنه: أُتِيَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من الذهب، فدفعها لسلمان رضي الله عنه لأداء مكاتبة تحريره من سيده اليهودي، فقال سلمان رضي الله عنه: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عَلَيَّ؟ فقال ﷺ: **«خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك»**، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم منها... [حم (٢٣٧٣٧)، حسن].

١٦- تحرك الجبل فرحًا به ﷺ:

رجف جبل أحد أو حراء عندما كان عليه ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال ﷺ: **«أثبت، عليك نبي وصديق وشهيد»**. وفي رواية بزيادة:... **«وعلي وطلحة الزبير...»**، فقال ﷺ: **«اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»** [م (٢٤١٧)]. وفيه أن الجبل حراء، وزاد ثامنًا، وهو: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

١٧- تحرك المنبر من أسفل شيء منه.

عندما كان يخطب ويذكر جبروت المولى عز وجل: [م (١٠/ ٣٠٧) النووي]. وفي رواية أنه رجف برسول الله ﷺ حتى قال الصحابة: «ليخرَّنَّ عنه». [حك (٢/ ٢٥٢، ٤٣٦) صحيح].

١٨- وسبق ذكره معجزة تنكيس الأصنام بمجرد الإشارة إليها يوم فتح مكة:

وذكرنا معجزة تفتت الصخرة يوم الخندق. وسلام الأحجار عليه وهو بمكة، ومن رواية مسلم.

١٩- قصصه المعجزة مع الحيوانات:

(أ) انقياد الحيوانات له ﷺ:

عندما عاند جمل أصحابه من الأنصار، رافضًا الخطام، استعانوا بعد الله تعالى بالنبي ﷺ، وناداه قائلًا: «تعال»، فجاءه مطأطئًا رأسه، حتى خَطَمَهُ، وأعطاه أصحابه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كأنه علم أنك نبي فقال ﷺ: **«ما بين لابتيها أحد إلا يعلم أني نبي إلا كفرة الإنس والجن»**. [حم (١٣٩٢٤) - حسن].

(ب) شكوى الحيوانات إليه:

دخل ﷺ ذات يوم لقضاء حاجته، فرآه جمل، فنحن الجمل وذرفت عيناه الدمع، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ وقال ﷺ: **«من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟»**، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله فقال ﷺ: **«أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليَّ أنك تجيعه وتدئبه»**. [د(٢٥٤٩) - صحيح].

ومر في سفر ببعير يستسقي عليه الماء، فلما رأى النبي ﷺ جرجر ووضع جِرَانِهِ، فقال ﷺ: **«إنه يشتكي كثرة العمل وقلة العلف»**. [حك (٦١٧١٢) - صحيح].

وأورد الشامي في (السبل) [(١/ ١٥٣- ١٦١)] أربع عشر قصة في هذا المعنـى، منهـا الضعيفة الإسناد، ومنها القوية الإسناد، عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(ج) بركته ﷺ في الحيوانات:

ذكرنا في أحداث غزوة ذات الرقاع قصة جمل جابر رضي الله عنه:

وجاء في أحداث غزوة تبوك أن الصحابة شكوا إليه ما برواحلهم من جهـد، فـأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخض ينفخها، ويقول ﷺ: «**اللهم احمل عليهـا في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف**»، فـما بلغـوا المدينـة حتـى جعلـت نـازعهم أزمتها. [حم (٢٣٩٥٥) صحيح].

عن جعيل الأشجعي أنه كان على فرس له عجفاء ضـعيفة تسـير في آخـر الركـب، فلحق به ﷺ فضربها بدرته وقال ﷺ: «**اللهم بارك فيهـا**»، فأصـبحت تسـابق النـاس، وباع من بطنها باثني عشر ألفًا. [طبك (٢١٧٢) بهد (٦/ ١٥٣) صحيح].

عن أنس أن أهل المدينة فزعوا مرة فركب ﷺ فرسًا لأبي طلحة، كان بطيء الحركة، فلما رجع قال لأبي طلحة: «وجدنا فرسك بحرًا فكان بعد هذا لا يجارى». [بخ (٦/ ٥٨) و (٥/ ٢٧٠) و (٦/ ١٠٨) أحمد (٣/ ١٤٧) صحيح].

(د) شهادة الحيوانات والطيور ﷺ بالرسالة:

شهادة الذئب له بالرسالة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «عدا ذئـب عـلى شـاة فأخـذها، فطلبـه الراعـي فانتزعها منه، فأقعى [جلس] الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقًا سـاقه الله إليّ؟، فقال: يا عجبي! ذئب يقعي على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الـذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق». [حم (٣/ ٨٨)

حك (٤٦٧) صحيح، بهـد (٦/ ٤٠) صـحيح، ابـن حبـان (٦٤٩٤) صـحيح]. وللقصـة طـرق أخرى وسياق بمعناه.

(هـ) شهادة الغزالة له بالرسالة واستنجاده به:

اصطاد رجل غزالة، فربطها بخيمته، فاشتكته إلى النبي ﷺ عنـدما مـر عليهـا في بعض سكك المدينـة، قائلـة: (إن لي خِشْـفَان [ولـدان] في البريـة، وقـد انعقـد اللـبن في أخلاقي [ضرعاي]، فلا هو يذبحني لأستريح، ولا هـو يـدعني فـأرجع إلى خِشْـفَيَّ في البرية...) فتوسط لها النبي فأطلقت بضمان النبي ﷺ على أن تعود، وعندما عادت خلى أصحابها عنها حين طلب الرسول ﷺ شراءها، فذهب وهي تضـرب برجلهـا الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ورآها زيد بن أرقـم في البريـة تشـهد الشهادتين. [بهد (٦/ ٣٤)، ند (٣٢٠)، طبك (٧٦٣) - طرقها ضعيفة، وشهرتها تدل عـلى أن لها أصل].

٢٠- معجزاته في الإنسان:

(أ) تحمل سفينة رضي الله عنه الأثقال:

قال سفينة رضي الله عنه مولاه: سماني رسول الله ﷺ سفينة حين خرج ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فحملوه على ظهري، فقال رسـول الله ﷺ: «**أحمـل فـإنما أنـت سـفينة**» قال: فلو حملت من يومئذ وقر بعيرين أو ثلاثة... أو سبعة ما ثقف عليَّ. [حم (٥/ ٢٢١) صحيح، بهد (٦/ ٤٧)، حك (٣/ ٦٠٦) صحيح].

(ب) إنبات الشعر:

دعا لعبد الله بن هلال رضي الله عنه بأن ينبت الله شعره، فاستجيب لـه [طبـك (٢٤/ ٢٠٩)؛ برقم (٥٣٧) - حسن].

(ج) **مسح على رأس أبي زيد الأنصاري** وقال: «**اللهم جمله**» فبلغ بضعًا ومائة سنة، وما في لحيته بياض، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتى مات. [تر (٥/ ٥٩٤) - حسن، بهد (٦/ ٢١١) - صحيح؛ حك (٢/ ٦٠٦)- صحيح].

(د) **ونفث ﷺ في يده الشريفة ووضعها على ظهر وبطن عتبة ابن فرقد** رضي الله عنه، وهو متجرد، فعبق به طيب أطيب من طيب زوجاته، ظل معه مدى الحياة. [طبك (١٧/ ١٣٣) رقم (٣٢٩، جيد].

(هـ) **تفل ﷺ على ذراع محمد بن حاطب** رضي الله عنه عندما انكفأ عليه قَدْر لأمه، فبرئت في حينها. [بخ (٤/ ١٨- ١٧- ٥٨)؛ م (٢١٩١)].

(و) **رش على جابر** رضي الله عنه **من ماء وضوئه**، فأفاق بعد أن كان لا يعقل لمرض ألم به. [بخ (٥٦٥١)؛ م (٢١٩١)].

(ز) **عن حمزة بن عمر الأسلمي** رضي الله عنه، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهورهم [رواحلهم]، وما سقط من متاعهم، وإن أصابعي لَتُنِير». [بخ (التاريخ الكبير) (١/ ٢/ ٤٦)، بهد (٦/ ٧٩)؛ تر (٣/ ٢٠٦)؛ طبك (٣٩٩٠)، السيوطي: الخصائص (٢/ ٨١) جيد].

٢١- معجزاته في الأشياء غير الحية:

(أ) كان ﷺ قبل أن يصنع له منبر للخطابة بمسجده، يخطب الناس وهو مستند إلى جذع عند مصلاه، فاستغنى بالمنبر عن الاستناد إلى الجذع، فخار الجذع وحن حنين النوع العشار [الحامل لعشرة أشهر]، لِمَا كان يسمعُ من خطبة ﷺ عنده، فرجع إليه ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت. [بخ (٣٥٨٤- ٣٥٨٥)].

(ب) عن أبي قتادة بن النعمان رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ أعطاه عرجونًا أضاء له الطريق مثل الشمعة...**» [ابن خزيمة: الصحيح (١٦٦٠) حسن بشواهده؛ حم (١١٦٢٤) - بعضه صحيح وبعضه حسن].

(ج) قال ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**».

٢٢- في إخباره بأمور غيبية:

(أ) أخبر بالسم الذي وضعته زينب الخيبرية في ذراع الشاة التي أهدتها للرسول ﷺ - سبق ذكره.

(ب) إخباره باستشهاد قادة سرية مؤته.. سبق ذكره.

(ج) استضافته مع أصحابه امرأة، فذبحت لهم شاة، لم يستسغ النبي ﷺ أول لقمة منها، وقال: «**هذه أخذت بغير إذن أهلها**»، فاعترفت المرأة بأنها أخذتها من جار لها بحجة أن تعاملها معهم لا يحتم الإذن، فأمر بإعطاء اللحم للأسارى. [د (٣٣٣٢- ٣٣٣٥) صحيح].

(د) إخباره بفتح مصر:

قال ﷺ: «**إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا**» [بهد (٦/ ٢٢٢)] وفي رواية: «**إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضي يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا**». [م (٢٥٤٣)].

(هـ) إخباره بأن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أول زوجاته لحوقًا به: قال ﷺ: «**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**» قالت عائشة رضي الله عنها: «**فكن** [أي زوجاته] **يتطاولن** [أن كن يرين المراد بالطول المعنى الظاهري، والواقع أن مراده خلاف، لأن سودة رضي الله عنها كانت أطولهن يدًا من حيث المقياس الظاهري] **أيتهن أطول يدًا؟)، فكانت زينب أطول يدًا، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق**». [مسلم (٨/١٦) النووي] **فكانت أولهن لحاقًا به في الموت.**

(و) إخباره بمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه على شط الفرات:

قال علي رضي الله عنه: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم، وعيناه تفيضان، فقلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك تفيضان؟ قال ﷺ: «**بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات؛ وقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا**». [حم (٦٤٨) - صحيح].

(ز) إخباره بأن الحسن بن علي رضي الله عنه سيكون سببًا في صلح بين المسلمين بعد فتنة:

قال ﷺ وهو يشير إلى حفيده الحسن: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**» [بخ (٣٧٤٦) وقد حدث عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، فوضعت الحرب أوزارها بين الطرفين..].

(ح) في إخباره بحال سهيل بن عمرو رضي الله عنه في فتنة الردة: سبق ذكره.

(ط) في إخباره عن مقتل علي رضي الله عنه:

قال ﷺ مخاطبًا عمار عليًا: «**ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟**» قالا: بلى يا رسول الله؟؛ قال: «**أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه** [يعني قرنه] **حتى تبتل منه** [يعني لحيته]» [حم (١٨٣٢١) - حسن لغيره].

(ي) في إخباره عن اقتتال علي والزبير رضي الله عنهما:

عن أبي حرب بن الأسود الديلي، قال: شهدت الزبير خرج يريد عليًا، فقال له علي: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت ظالم»، فقال: لم أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا عن القتال». [حك (٣:٣٦٦) صحيح].

(ك) إخباره بأن الحجر الأسود من الجنة:

قال ﷺ: «**الحجر الأسود من الجنة...**». [الطبري: التفسير (٣/ ٧٠) ح (٢٥٨) صحيح، تر (٨٧٧) صحيح].

أراد أعداء الإسلام الطعن في عقيدة المسلمين، فقالوا: (إنه من صخور البازلت الغامقة اللون، التي تنتشر حول الكعبة. فأعدت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية رجلًا لتلك المهمة، وهو الضابط الإنجليزي (رتشارد برتون) الذي تعلم العربية في ٨ سنوات، بلهجة المغاربة، وأرسل إلى مصر، ثم مكة باعتباره مسلمًا ينوي الحج...

وعندما اختلى بالحجر تمكن من كسر قطعة صغيرة منه، ما زالت محفوظة بمتحف العلوم الطبيعية بلندن إلى اليوم، وحللت هذه القطعة وثبت أنها ليست من أحجار الأرض، بل حجر نيزكي نادر!! وسيأتي إن شاء الله اليوم الذي لا يجدونه له شبيهًا من الأحجار، لأنه من الجنة، وأعلن برتون إسلامه، وألف كتابًا رائعًا من جزءين، اسمه (رحلة إلى مكة). [انظر: محمد حسني يوسف: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ٢٠٧- ٢٠٩)].

٢٣- المعجزات المتعلقة بعصمته من الاغتيال:

تصل إلى نحو الثلاثين، ذكرنا بعضها خلال أحداث بعض الغزوات والسرايا وحياته ﷺ في مكة والمدينة. [انظر: د. مهدي: السيرة النبوية (٢/ ٤٨٢- ٤٨١)] قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾[المائدة:٦٧].

نذكر في ضوء هذه الآية أمثلة له في الوعد الإلهي الإعجازي:

- كفاية الله له من المستهزئين الذين آذوه في مكة.[سبق ذكره]
- عصمته من أبي جهل حين أراد فضخ رأسه بحجر وهو يصلي. [سبق ذكره]

- عصمته من دعثور من الحارث الغطفاني.[سبق ذكره]
- عصمته من غورث بن الحارث المحاربي. [سبق]
- عصمته من يهود بني الضمير حين ذهب إليهم في دية الكلابين.[سبق]
- عصمته من مشركي مكة في أحداث الهجرة. [سبق]
- عصمته من عقبة بن أبي معيط عندما خنقه محاولًا قتله. [سبق]
- عصمته من عمير بن وهب، حين تآمر مع صفوان بن أمية لاغتياله. [سبق]
- عصمته من زينب بنت الحارث الخيبرية، التي دست له السم يوم خيبر. [سبق]
- عصمته من المشركين يوم أحد، خاصة من محاولة أبي بن خلف. [سبق]

أما ما لم نذكره من قبل في أحداث السيرة، **فمثل:**

(أ) عصمته من فضالة بن عمير الليثي حين أراد اغتيال النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة يوم الفتح. [ابن هشام (٤/ ٨٥)].

(ب) عصمته من رجل أراد الفتك به حين أعطاه ﷺ سيفه لينظر عليه، وكانت نيته اغتيال النبي ﷺ بسيفه ﷺ. [حك (١/ ٧) - صحيح].

(ج) عصمته من رجل استأجره كفار قريش لاغتياله، جعلوا له أواقي من ذهب ليقوم بالمهمة، فأطلعه الله ﷻ على ذلك فأمر به فصلب، وكان أول من صلب في الإسلام [ابن أبي شيبة: الأوائل (٨/ ٣٣٠) - مرسلًا قويًا].

(د) عصمته من غلبة ركانة بن عبد يزيد بن هشام بن عبد المطلب، الذي كان أشد مصارع في قريش عندما طلب ركانة مصارعته ﷺ، لتكون غلبته له آية يؤمن بها، فصرعه ﷺ. [حق (٢/ ٣٥) - جيد].

(هـ) عصمته من النضير بن الحارث حين أراد الفتك به يوم حنين. [الإصابة ٣/ ترجمة برقم ٨٧٢٠، الشامي: السبل (٥/ ٤٧٤/ من رواية الواقدي، وهذه المعجزة هي الثامنة



والعشرون كما في السيرة المطولة لنا (٢/ ٤٨٧) قصة أبي بردة لآية حفظه ﷺ ممن أراد الفتك بـه مـن حديث الواقدي (٣/ ٨٩١) كما في (السبل) (٥/ ٤٦٧) بمثل قصة الأعرابي يوم ذات الرقـاع. قصـة الآية التي حصلت لجواسيس المشركين في هـذه الغـزوة [السـبل (٥/ ٤٦٨)]، **وبـذلك اكتملـت المحاولات إلى ٣٠.**

المعجزات المتعلقة بالمكتشفات الطبية الحديثة

٢٤- التمر:

قال ﷺ: «خير تمراتكم البرني [أفضل أنواع التمر]**، يذهب الداء ولا داء فيه».** [صحيح الجامع الصغير (٣٣٠٣) جيد].

وقال ﷺ: **«العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم،...».** [المرجع السابق (٤١٢٦) صحيح].

كشف الطب الحديث عن القيمة الغذائية والعلاجية للتمـر، مـن ذلـك: أنـه ملـين للطبع، مقو للكبد، يزيد من القوة الجنسية، [د. السيد الجميـلي، إعجـاز الطـب النبـوي، ص: ٧٣]**، ولعل السم المذكور يقصد به المواد السامعة في الدم، مثل التسمم بالبولة [Urea] وغيرها؛ وذلك لأن سكاكر التمر مدرة للبول، فبالتالي تساعد في تنظيف الكبـد وتنقيـة الدم المواد السامة.**

ومن يتناول التمر باستمرار يحافظ على جهازه الدموي والعصبي أكثر ممن يتناولون اللحوم التي تترك فضلات ومواد سـامة تـتراكم وتسـبب تسـممًا بطيئًـا. [د. محمـد إيـاد الشطي: الطب النبوي في ضوء العلم الحديث، ص ١٣٠- ١٣١] **وعنـدما وقـف العلـماء عنـد قوله ﷺ: «يذهب الداء ولا داء فيه» وجدوا أن التمور لا تنقل الجراثيم الممرضـة، وإذا تعرضت إلى تلوث شديد، فإنها تصبح خالية من جرثوم الهيضـة خـلال ثلاثـة أيـام في الظروف الطبعية.** [المرجع نفسه، ص: ١٣١].

جاء في صحيفة الانتباهة السودانية، العدد (١٣٦١ - السبت ١٥ رمضان ١٤٣٠هـ ٥/ ٩/ ٢٠٠٩م) الآتي عن التمر تحت عنوان: (التمر باللبن يحمي جهازك الهضمي):

(أكدت الدكتورة عفاف عزت، أستاذة الكيمياء الحيوية بالمركز القومي للبحوث في مصر، أن التمر منقوعًا في اللبن يعتبر وجبة غذائية متكاملة، لما تحتويه من بروتين حيواني وكالسيوم وفيتامين (أ) الذي يعتبر من الفيتامينات الذائبة في الدهون، وله قيمته كمضاد للأكسدة، ويساعد على تقوية الإبصار وحماية العين من الإصابة بالمياه البيضاء، كما يحمي طبقة الجلد الخارجية والأغشية المبطنة للقناة الهضمية.

وأشارت د. عزت إلى أن التمر يعتبر وجبة غذائية متكاملة، حيث يحتوي على نسبة من الألياف تعرف باسم مادة اللجين، والتي لها القدرة على خفض الدهون بالدم، بالإضافة على احتواء التمر على مركبات فيتوكيميائية لها تأثيرات علاجية مضادة للأكسدة، وبالتالي فهو يقاوم العديد من الأمراض.

كما أن التمر يحتوي على نسبة من السكر يحتاجها الصائم بعد انخفاض نسبة السكر بالدم أثناء الصيام، وتنصح الدكتورة عفاف بعدم ترك التمر منقوعًا في الماء أو اللبن فترة طويلة حتى لا يحدث له تخمر ويسبب تقلصات وانتفاخات حتى في الأمعاء، وذلك نتيجة نشاط (الميكروفلورا) التي تسبب اضطرابات بالقولون العصبي) [صفحة الانتباهة الأخيرة].

٢٥- الحبة السوداء:

قال ﷺ: «**إن الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام**» قالت عائشة رضي الله عنها الرواية: [وما السام؟] **قال ﷺ: «الموت»** [البخاري ٥٦٨٧، واللفظ له، سنن ابن ماجه ٢٨٨٠، صحيح مسلم ٢٢١٥، سنن الترمذي ٢١٣ صحيح، المعجم الكبير للطبراني ٤٩١ صحيح].

والمقصود أنها شفاء من كل داء يقبل العلاج، وكلمة كل تفيد الأهمية، كما في قول الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف: ٢٥] وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[النحل: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٢٣].

وقد أثبت الطب الحديث أن من أهم الأمراض التي تدخل الحبة السوداء في علاجها، هي:

١- أمراض تنفسية، مثل نزلات البرد والسعال والربو.

٢- أمراض هضمية، مثل عسر الهضم، وغازات المعدة، والأمعاء، وضعف الشهية، والديدان الشريطية، وديدان الإسكارس.

٣- الأمراض البولية، والتناسلية مثل عسر البول والعِنَّةِ [عدم القدرة على الجماع] واضطرابات الطمث.

٤- الأمراض الجلدية، الجرب، والقوباء، والأكزيما، وحب الشباب، [د. الشطي: الطب النبوي، ص ١٣٨- ١٥٠].

٥- وأمراض أخرى مثل: تساقط الشعر، والصداع، والدوخة، وآلام الأذن الوسطى والقراع، والثعلبة، والتآليل، والبهاق، والبرص، والكدمات، والرضوض، والرماتزم، والكسور وارتفاع ضغط الدم، وإذابة الكلوسترول الضار في الدم، والحمى الشوكية وحصوة المرارة، وأمراض الطحال، والاستسقاء، والإسهالات، وأمراض العيون، والعقم والخمول، والكسل، [د. البدري محمد الهادي مطاوع: الحبة السوداء شفاء من كل داء...، مقال بمجلة منار الإسلام، عدد ٨، ١٨ شعبان ١٤١٣هـ/ فبراير ١٩٩٣م، ص ١١٤- ١١٩].

وأنها تشفي الجرحى، وتدر الحليب، وتنفع في حالات عقر الكلب الضال، وتنفع في حالات علاج لسع الهوام [د. الجميلي: إعجاز الطب النبوي، ص: ٨٠].

وتفيد في جلاء وصفاء الوجه وجماله، وتنشيط الذهن وسرعة الحفظ [د. مطاوع: الحبة السوداء.. ص: ١١٩].

وثبت أثرها كمقو للمناعة، تخفض من نسبة السكر في الدم مع خليط من أعشاب أخرى، وتخفض حمض البوليك الذي يحدث ارتفاعًا في ضغط الدم، وعلاج النقرس،

[عبد العليم غزي: حبة البركة إعجاز إلهي في خلقه، مقال بمجلة الأزهر، رجب ١٤١٩هـ/ نوفمبر ١٩٩٨م، جزء ٧، السنة ٧١، ص ١٠٩١- ١٠٩٥] **وانظـر:** [د. مهـدي رزق الله: السـيرة النبويـة ٢/ ٤٩٠- ٤٩٣].

٢٦- الحناء:

عن سلمى ﵂ وكانت تخدم بعض أزواج النبي ﷺ، قالت: «**وما نال رسـول الله ﷺ قرحة** [جراحة] **ولا نكبة** [حادث مثل إصابة الحجر للرجل أو الأصبع] **إلا أمرني أن أضع عليها الحناء**» [سنن الترمذي ٢٠٥٥- حسن].

أثبت الطب الحديث أن الحناء مطهر للجـروح والقـروح، وأنـه مـن أفضـل المـواد الصباغية، وينقي فروة الرأس من الميكروبات والطفيلات والإفرازات الدهنية الزائدة، ويقلل من إفراز العرق، ولا يسبب حساسية، ولذا أدخلته شركات التجميـل تجاريًـا في تركيب صبغات الشعر والشامبو. [د. الشطي، الطب النبوي، ص ١٥١- ١٥٣].

٢٧- الزيتون:

قال ﷺ: «**ائتدموا بالزيت، وادَّهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**» [سنن ابن ماجـه ٣٣١٩؛ المستدرك على الصحيح للحاكم ٤/ ١٢٢- حسن].

توصل الطب الحديث إلى أن زيت الزيتون مغذٍّ للأطفال، لأنه يحـوي النسـبة ذاتهـا تقريبًا من حمض الكتان التي يحويها حليب الأم، إضافة إلى سهولة هضمه وامتصاصـه، ويؤمن بذلك حاجات الطفل الرضيع من المواد الدهنية اللازمة لنمو العظام والـدماغ؛ وغني بفيتامين (ك) الضروري لنمو الأطفال والبالغين.

وأثبتت الأبحاث قدرته في علاج تصلب الشرايين والوقاية من أمراض الحموضـة والقرحة المعدية وقرحة الاثني عشر وعلاجها. ويقلل من نسبة الإصابات بالحصـيات المرارية، وخفض نسـبة السـكر مـن الـدم، ويعـالج الكثـير مـن الأمـراض الالتهابيـة

والكبدية، وإنقاص الـوزن، وهـو عنصـر معـد كـذلك للطـاعنين في السـنة لسـهولة امتصاصه وإثارته الشهية، ولا يسـبب زيـادة الكولوسـترول في الـدم، وبسـبب غنائـه بهرمون الأستروجين فإنه يفيد صحة المرأة في سن اليأس.

ويحافظ على نمو الشعر، ويحفظه من التساقط، ويقـي مـن أشـعة الشـمس الضـارة ويسـاعد في إزالـة تجاعيـد الوجـه والرقبـة، ويسـتخدم كـدهون في حـالات الخُـرّاج والدمامل، والقوباء وتشقق الأيـدي والأرجـل. [د. الشـطي: الطب النبـوي، ص: ١٥٨- ١٦٦]. ويقاوم سرطان الثدي. [جريدة الرياض السعودية، السبت ١١/ ٥/ ١٤٢٦ هــ الموافـق ١٨/ ٦/ ٢٠٠٥م، عدد ١٣٥٠٨، السنة ٤٢].

٢٨- التسوك بمسواك شجر الأراك:

قال ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتـي لأمـرتهم بالسـواك مـع كـل وضـوء**». [الألبـاني: صحيح الجامع الصغير، ٥٣١٧- صحيح].

وقال ﷺ: «**عليكم بالسواك فإنه مطيبة للفم مرضاة للرب**» [لقسمه ٤٠٦٨- صحيح].

أثبتت الأبحاث التي ذكرها الدكتور الشطي [الطب النبـوي، ص ١٦٧- ١٦٩- ١٧١- ١٧٢] أن مسواك الأراك يحوي كثيرًا من المواد المطهرة والمنظفة والقابضة والمانعة للنزف الدموي والقاتلة للجراثيم، وذكر تفاصيل وأسماء تلك المواد، والرسائل الجامعية التـي تخصصت في فوائد السواك بالأراك.

٢٩- العسل:

قال ﷺ: «**إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجـم، أو شربـة مـن عسـل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**» [البخاري ٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤].

وقال ﷺ: «**عليكم بالسنا** [نبت يكتحل به] **والسنوات** [العسل]**، فإن فيهـا شـفاء مـن كل داء إلا السام**» [سنن الترمذي ٢٠٨٣، سنن ابن ماجه، ٤٣٦١، صحيح].

أثبت الطب الحديث أن العسل يحتوي على معظم الفيتامينات الضرورية للجسم، أهمها: فيتامين (ب١، ب٢، ب٣، ب٥، ب٦، و أهـ.ويحتوي على بعض العناصر المعدنية، أهمها ما يساعد الهيموغلوبين على القيام بوظيفته، مثل الحديد والنحاس المنغنزيوم.

ويحتوي على المعادن التي تدخل في تركيب كروماتين الخلايا، والصوديوم الموجود في الدم والسوائل المختلفة، والكولسيوم الذي يدخل في تركيب العظام، والأسنان والدم، والكبريت الذي يدخل في بنية الجلد، والشعر، والأظافر، اليود الضروري لهرمونات الدرق، والبوتاسيوم، وعدد من الحموض، أهمها الفورميك، والسيتريك، وحمض الخل واللبن، والكتيك، والبوتريك، والتانيك، والأكساليلك، والطركريك) [د. الشطي: الطب النبوي: ص ٢٠٤].

وأدخل في صفات علاجية كثيرة لعلاج أمراض الأجهزة الآتية:

التنفسي، والهضمي والعصبي والبولي. واستخدم في علاج الجروح وأمراض الفم والجلد، والعين، ومخفض للحرارة.

وثبت أنه غذاء ليس فيه فضلات، سريع التمثيل والامتصاص، وغذاء للشيوخ والناقهين ويريح الكبد والكليتين، ويحتفظ بقيمته الغذائية من مرور الزمن، ولا يتعفن. [المرجع نفسه، ٢٠٤-٢٠٨].

٣٠- أبوال وألبان الإبل:

جاء في قصة سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين قول الرسول ﷺ: «**ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها...**» [انظر القصة في السيرة النبوية أو صفوة السيرة النبوية، كلاهما للبروفسير مهدي رزق الله أحمد].

لقد كشف عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السوداني، البروفسير أحمداني، في ندوة نظمتها جامعته، كشف عن تجربة علمية باستخدام بول الإبل

لعـلاج أمـراض: الاستسـقاء وأورام الكبـد، أثبتـت نجاحهـا لعـلاج المـرضى بتلك الأمراض.

وتحدث عن تجربة علاجية رائدة أخرى، وهي أثر حليب الإبل على معدل السكر في الدم، إذ أثبت انخفاض نسبة السكر في دم المرضى بدرجة ملحوظة.

وجاء في مقال بجريـدة الاتحـاد عـدد ٩٥١٥ في ٧/ ٤/ ٢٠٠١م: أن النتـائج الأوليـة للبحوث التي أجراها بعض الخبراء والعلماء أثبتت أن تركيب الأحماض الأمينية في حليب الإبل تشه في تركيبها هرمون الأنسولين الذي يستخدم في علاج مرض السكري.

أكدت مجموعة من العلماء بقسم علوم الأغذية بكلية الزراعة بجامعة الفاتح بليبيا، أن ألبان هي الأفضل من حيث ثرائها بمكونات الغـذاء، ومـن حيـث سـلامتها تمامًـا، فضلًا عن أنها تحتوي على مواد تقاوم السموم والبكتريـا، ونسـبة كبـيرة مـن الأجسـام المناعية المقاومة للأمراض، خاصة للمولودين حديثًا.

وقالوا: يمكن وصف حليب الإبل لمرضى الربو، والسـكري، والـدرن، والتهـاب الكبد الوبائي، وقرح الجهاز الهضمي، والسرطان.

والزبادي منزع الدسم مفيد لصحة طاعني السـن [حسـني، ص ٨٨] وكشـفوا عـن أسرار أخرى.

[انظر: موقع الخالدي بالانترنت. alkhaldi.[WWW.alkhadi.٨k.com

٣١- حديث الذباب:

قال ﷺ: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحـه، فـإن في أحـد جناحيه داء وفي الآخر شفاء**» [البخاري (٥٧٨٢)].



لخص الدكتور خليل ملا خاطر، في كتابـه: (الإصـابة في صـحة حـديث الذبابـة)، التقرير الذي نشرته مجلة الأزهر [عدد رجب ١٣٧٨هـ/ مجلد ٣٠]، بعنوان: (كلمة الطب الحديث في الذباب) برهن على صدق ما أخبر به ﷺ.

ودل ذلك على معجزة من معجزاته الكثيرة، وكان كالتالي:

أ- أن الذباب يحمـل الجـراثيم عـلى أطـراف أرجلـه وطـرف خرطومـه وأطـراف أجنحته وفي برازه.

ب- أن هذه الجراثيم هي عنصر المرض، خاصة الكوليرا والدوسنتاريا والتيفوئيد، وهو ما عبر عنه الحديث بـ[الداء] والجراثيم هي السبب العادي للمرض.

ج- الاكتشافات العلمية الحديثة للمضادات الحيوية مـن الـذباب، وهـذا كـافٍ في الدلالة على القطع بوجود عناصر (الشفاء) المذكور في الحديث.

د- تخرج هذه المضادات الحيوية من فتحات ومفاصل حلقات بطن الذبابة.

هـ- هذا المضاد الحيوي مأخوذ من الفطريات الموجودة ضمن خلايا جسم الذبابة، في الطبقة الدهنية، وهي القسم الأخير من الذبابة، بما في ذلك تحت الجناحين.

و- تخرج هذه الفطريات الحاملة للمضاد الحيوي بفعل ضغط على الخلية.

ز- إن هذا المضاد الحيوي الذبابي، يعتبر من أقوى المضادات الحيوية، وهو كاف للقضـاء على جراثيم غرام سالب وغرام موجب، بما في ذلك الجراثيم التي يحملها الذباب نفسه.

وكل هذا المذكور مطابق لمطوق الحديث الشريف، مما يدل على الإعجاز [المرجع نفسه].

وذكر دكتور خاطر نتائج أبحاث أخرى عديدة في هذا المجـال، خاصـة: الأبحـاث التسعة التي وصلته من جامعة لندن، والمتعلقة باستخراج السموم من الذباب، وهو ما يوافق الشطر الأول من حـديث وبحـث المسـتر دريـد، مـدير مصـلحة الكورنتينـات المصرية الأسبق، قبل نحو خمسين عامًا، في بحثه الذي يفيد بأن الـذباب إذا سـقط عـلى

شيء أكل منه استحال في جوفه إلى مادة تسمى (البكتريوفاج)، تستخدم في قبل الجراثيم، التي تتركها الذبابة بأطرافها. وقالوا: إن الذباب يقيأ هذه المادة إذا مات بأسفكيا الغرق. وإن هذا المادة استعملت مصلًّا، وعلاجًا للأمراض المتوطئة. [انظر: تفاصيل وأدلة أكثر في السيرة النبوية: د. مهدي رزق الله: ٢/ ٥١١].

٣٢- النخالة: [الرِّدة].

قال سهل بن سعد رضي الله عنه: «ما أرى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله...» [البخاري ٥٤١٠، ٥٤١٣؛ أحمد ٢٢٨١٤، سنن الترمذي ٢٣٦٤؛ سنن ابن ماجه ٣٣٣٥].

إن المعجزة في هذا الأثر هو تأكد الطب منذ عهد قريب من وجود علاقة بين نقص أو غياب النخالة من الطعام، وكذلك الألياف الموجودة في الخضروات والفواكه، وبين مجموعة من أمراض القناة الهضمية التي تصيب الإنسان.

ويؤدي بعضها إلى هلاكه، أهمها:

١- الإمساك المزمن، إلذي من مضاعفاته:

- البواسير - فتق جدار البطن - فتق الحجاب.

٢- الرَّدْب:

[عبارة عن ظهور نتوءات كثيرة في الأمعاء الغليظة]، وللردب مضاعفات خطيرة منها:

أ - الالتهاب الردبي.

ب - انسداد الأمعاء.

ج - النزيف الدموي المعوي.

د - الناسور.

٣- سرطان الأمعاء الكبير الخبيث:

وللوقاية من هذه الأمراض أو علاجها لا بد من وجود النخالة في الطعام [د. فاروق مساهل: الإعجاز الطبي في الحديث النبوي، النخالة، مقال بمجلة: الوعي الإسلامي، عـدد ٢٤٠، ذو الحجة ١٤٠٤هـ/ سبتمبر ١٩٨٤م، ص: ٦٣- ٦٥ باختصار شديد، وانظـر: د. مهـدي رزق الله: السيرة ١/ ٥١١- ٥١٣].

٣٣- الختان:

قال ﷺ عن ختان الرجال: «**الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقـص الشـارب، وتقليم الأظافر ونتف الإبط**». [البخاري ٥٥٥٢، واللفظ له، صـحيح مسـلم ٢٦١]. وعنـده أنهن عشرة وعددهن هنا.

كشف العلم الحديث أن عدم الختان للذكور له مضاعفات منها:

إن الإفرازات قد تتجمع خلف القلفة، مما يؤدي إلى الالتهابات المزمنة في الحشـفة.. وإلى تكوين أنسجة ليفية من شأنها أن تؤدي إلى ضيق فتحة البول، مما يـؤدي بالتـالي إلى احتباس البول، مما يؤدي بالتالي إلى احتباس البول، ويندر جدًا في المختونين.

ووجد أن سرطان القضيب من أسبابه عدم الختان.

وتكمن الجراثيم في القلفة وتنتهز الفرصة أثناء الاتصال الجنسي، فتـدخل للمهبـل، والرحم، والمبيض، وتعشعش فيها، مما يؤدي إلى تأخر الحمل، بل إلى العقم أيضًا. [محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام، السنة النبوية، ص ٣٨].

وطالبت منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز بإدراج ختان الرجال ضمن استراتيجيات الوقاية من نقل مرض الإيدز.

وتفيـد توصـيات خـبراء دوليـين في الصـحة العالميـة أن بالإمكـان إنقـاذ ملايـين الأشخاص، ولا سيما في إفريقية، في حال تعميم الختان، ولجنوبي أفريقية تجربة فيها.

٣٤- الاتصال الجنسي أثناء المحيض:

قال ﷺ عن العلاقة بين الرجل وزوجته أثناء المحيض: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» [صحيح مسلم: ٢٣٠٢].

أثبت العلم الحديث أن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء المحيض، ليس إلا إدخالًا للميكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم، كما أن وجود الدم في المهبل والرحم يساعد على نمو تلك الميكروبات وتكاثرها، وانتقال الأذى إلى الرجل إذا جامعها في هذه الحالة، وقد يكون الجماع أثناء المحيض سببًا في سرطان عنق الرحم. [عبد الصمد، ص: ٤٦].

٣٥- استخدام التراب في غسل سؤر الكلب:

قال ﷺ: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليُرقه ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب**» [البخاري ١٧٠، مسلم ٢٨٠، ٦٤٦، ٦٤٩]، وفي لفظ مسلم: «**وعَفروه الثامنة في التراب**».

كشفت الأبحاث العلمية الحديثة أن الكلب ينقل إلى الإنسان كثيرًا من الأمراض، منها: الجرب، وداء الكلب، وهو داء خطير، ومرض (كسيت إيداتيك) الذي يتولد بدخول بيوض الدودة المسماة: (تيتا أكنيا كوكس)، وتوجد بكثرة في أمعاء الكلب، وغيرها من الأمراض، [انظر: د.عبد الله المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي: ص٣٠٤].

وثبت أن التراب عامل كبير على إزالة البويضات والجراثيم، وكذلك لأن ذرات التراب تندمج معها، فتسهل إزالتها جميعًا.

كما قد يحتوي التراب على مواد قاتلة لهذه البويضات. [عبد الصمد، ص: ٥٠- ٥١].

وقام العلماء في العصر الحديث بتحليل تراب المقابر ليعرفوا ما فيه من الجراثيم، وكانوا يتوقعون أن يجدوا فيه كثيرًا من الجراثيم الضارة، وذلك لأن كثيرًا من البشر يموتون بالأمراض الإنتانية الجرثومية، ولكنهم لم يجدوا في التراب أثرًا لتلك الجراثيم الضارة

المؤذية، فاستنتجوا من ذلك أن للتراب خاصية قتل الجراثيم الضارة، ولولا ذلك لانتشـر خطرها واستفحل أمرها. [عبد الحميد طهماز: الأربعون العلمية - من الإنترنت].

٣٦- تحريم زواج الأخوة من الرضاع:

قال ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» [البخاري ٥٠٩٩، مسلم ١٤٤٤]، وفي لفظ مسلم: «**... من الولادة**».

أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة وجود أجسام في حليب الأم المرضعة الـذي يترتـب على تعاطيه تكون أجسام مناعية في جسم الرضيع بعد جرعات تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات، وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسـان، حتـى في حيوانات التجارية المولودة حديثًا، والتي لم يكتمل نمو جهازها المناعي، فعندما ترضـع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة مـن اللـبن الـذي ترضـعه، والتـي تكون مشابهة لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية.

ولقد وجد أن تكون هذه الجسيمات المناعية يمكن أن يؤدي إلى أعراض مرضية عند الإخوة في حالة الزواج. [عبد الصمد: ١٠٩].

٣٧- تحريم الخمر:

قال ﷺ لطارق بن سويد الجعفي رضي الله عنه عندما قال إنه يصـنعه للـدواء: «**إنـه لـيس بدواء، ولكنه داء**» [مسلم ١٩٨٤].

قال الطبيب (لا نسروا): (إن إدمـان الغـول [الخمـر] يحـدث ضـمور المبـيض عنـد المرأة). وقال الطبيب (برقوله): (شاهدت أثناء تشريح جثث مـدمني السُـكْر ضـمورًا وتصلبًا في الخصي، ولم أشاهد الحيوانات المنوية في ٨٦٪ من الحـوادث التـي شرحتهـا، وهذا يوضح لنا أسباب العقم والعنة المشاهدين عند كثير من مدمني الخمر).

٣٨- التدخين:

عن أم المؤمنين، أم سلمة رضي الله عنها قالت: «نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر» [مجمع الزوائد للهيثمي ٢٦٦٣٤- صحيح لغيره].

والمسكر كما هو معلوم: هو كل ما يذهب العقل من خمر أو مخدرات، والمفتر هو الدخان.

ولأن التدخين يضر بكل أعضاء الجسم، تبنت هيئة الصحة العالمية التحذير من أخطاره، وهو بالإحصاء (تجارة الموت الخاسرة). وهذا عنوان كتاب نشرته الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١٤١٤هـ.

وأصدر الأستاذ الكبير، المحامي الأمريكي (لاري وايت) كتابًا قدم له وزير الصحة الأمريكي بعنوان: (Merchants of Death)، أي (تجار الموت) ويعني بهم [تجار التدخين].

ومن الأمثلة على أضرار الدخان الصحية أن هيئة الصحة العالمية نشرت عام ١٩٨٦م تقريرًا مفاده: أن التدخين يتسبب في ٩٠٪ من حالات سرطان الرئة، ٩٠٪ من سرطان الحنجرة، و٧٥٪ من حالات الالتهاب الشعبي المزمن، وانتفاخ أسناخ الرئة، والتهاب الجيوب الأنفية، وحساسية الأنف، وأمراض الحساسية والربو.

ومن السرطانات التي يلعب التدخين دورًا رئيسًا فيها: سرطان الفم، والشفة واللسان، والحنك، واللثة، والبلعوم، والمريء، والبنكرياس، والكبد، والمثانة، والكلى، وعنق الرحم، والثدي، وغيرها.

٣٩- ماء زمزم:

قال ﷺ عن ماء زمزم: «**إنها مباركة، إنها طعام وطُعم**»، أي: تشبع كالطعام [مسلم ٢٤٧٣]، وقال: «**ماء زمزم لما شرب له**». [مسند ابن حنبل، حسن ١٤٨١].

قال الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، التركي الأصل، الروسي الجنسية، صاحب الرحالة المشهورة: (عالم الإسلام) إنه جربه لعلاج أمراض المثانة والعيون، فنجح فيها بحمد الله تعالى. [أحمد عبد الله الباتلي: ماء زمزم لما شرب لـه، مقالـة بمجلـة الحـرس الـوطني، السـنة ١٥، ع ١٤٢، ذو الحجة ١٤١٤ه/ مايو - يونيو ١٩٩٤م. ص: ٣٢].

وقال الباتلي: (وهناك سيدة مغربية ألفت كتابًا عنوانه: (فلا تـنس الله) ذكـرت فيـه أنها أصيبت بالسرطان، وقال لها الأطباء: لا علاج لهذا السرطان، فلما ذهبـت إلى مكـة، داومت على شرب ماء زمزم أيامًا، ثم قالت: وجدت أن الكريات الحمراء التـي كانـت تشوه جسدي قد اختفت نهائيًا).

وشفيت امرأة تدعى يسرية عبد الرحمن حراز من قرحة قرمزية في عينهـا اليســرى بعد استعمالها ماء زمزم. [محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة، نقلًا عـن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: م. نايف منير فارس، ص٥٠٣].

ويقول الدكتور فاروق عنتر إن حصاة في الحالب خرجت عندما شرب ماء زمـزم، ولم تخرج بالأدوية، ونصحه الأطباء قبل هـذا بعمليـة جراحيـة، فجربـت مـاء زمـزم، وكانت المعجزة التي تمثلت في نزول الحصوة مع أول بول بعد شرب ماء زمزم. [م. منير فارس، ص: ٥٠٤-٥٠٥].

ومن أحدث معجزات الشفاء بماء زمزم قصة امرأة سودانية تدعى إخـلاص مضـوي بركات - نحو الخمسين عامًا من العمر - ارتخت حبالها الصوتية، وبدأت رحلـة العـلاج إلى الهند، ترانزيت جدة، فكانت فرصة أداء العمرة. وعندما شربت من ماء زمـزم، كانـت المفاجأة أن ردت السلام على امرأة بالحرم بصوت واضح!! هكذا حكى لنا القصة قريبهـا عمر الشيخ الدبيبابي، جليسنا في حلقة تلاوة وتـدبر القـرآن الصـباحية بمسـجد الشـهيد محمد عبده بالخرطوم - حي المعمورة، مربع ٨١، في يوم الثلاثاء ١١/ ٣/ ٢٠١٤م.

وقد حكيت لنا مثل هذه الروايات، ولكن لم ندونها لضعف الأسانيد.

٤٠- الصيام:

قال ﷺ: **«عليك بالصوم فإنه لا مِثْل له»** [النسائي، السنن الكبرى ٢١٩٠- صححه الألباني].

أثر الصيام الإسلامي في الوقاية من الأمراض:

قال الباحثان: رياض البيبي وأحمد القاضي بنشر بحوثهما في هذا الخصوص، خاص إفرازات الأمعاء للسموم، وتناقص نسبة التخمر الذي يسبب دمامل وبثورًا مستمرة، أخضع الباحثان متطوعين للتجارب من مختلف الأعمار، ومن الجنسين، وهم في حالة الصيام الإسلامية، لمراقبة دقيقة، وفحوص طبية عديدة على مدى أيام متتالية في رمضان، وكانت النتيجة.

١- تخفيض الانفعالات النفسية على الرغم من الاستثارات المختلفة التي تعرض لها الصائمون.

٢- كان هناك انخفاض واضح في سُميات الجسم.

٣- مقارنة مع حالة نفس المجموعة عندما لم يكونوا صائمين، انخفضت الدهون الخفيفة [الضارة بالصحة] في فترة الصيام، مقارنة بها قبل وبعد الصيام.

كما أثبتت العديد من البحوث أن الصيام يقوي جهاز المناعة لدى الصيام، فيقي الجسم من أمراض كثيرة.

الصيام الإسلامي وأثره في كبح الرغبة الجنسية:

قال ﷺ: **«يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه وِجَاء»**.

وجد العلماء المحدثون أن الصيام الإسلامي مثبط للرغبة الجنسية وكابح لها.



الصيام الإسلامي وزيادة الخصوبة:

أجرى الدكتور سمير عباس، والدكتورة عبد الله باسـلامة، بكليـة الطـب، جامعـة الملك عبد العزيز، بالمملكة العربية السعودية - عام ١٩٨٦ - بدراسة نظرية في مسـتوى الخصوبة عند الرجال في الحياة الطبعية، ومدى تأثير الصيام بالطريقـة الإسـلامية عـلى ذلك، وكانت النتيجة أن الصيام الإسلامي يزيد الخصوبة عند الرجال.

ولاحظ الباحثان من إحصاءات المستشفى الجامعي بجدة، أن عدد حالات الحمـل تصل إلى معدل كبير في شهر شوال، مقارنة بشهور السنة الأخرى.

حصول التوازن بين آليات الهدم والبناء في الجسم أصبح واضحًا لدى علماء الطلب إذ أن إعطاء فرصته للجسم ليتوقف عن البناء وتخزين الطاقة أمر في غاية الأهمية لتجدد الخلايا، وذلك بالتخلص من الخلايا الهرمة، والإنزيمات المستهلكة.

علاج الصيام لبعض الأمراض:

جاء في بحوث منشورة أن الصيام الإسلامي يعالج عددًا من الأمراض الخطيرة، أهمها:

١ - الأمراض الناتجـة عـن السـمنة: كمـرض تصـلب الشـرايين وضـغط الـدم، وبعض أمراض القلب.

٢ - يعالج بعض أمراض الدورة الدموية الطرفية، مثل: مرض الرينود، ومرض برجر.

٣ - يعالج مرض التهاب المفاصل المزمن [الروماتويد].

٤ - يعالج ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب.

٥ - الوقاية من مرض داء الملوك [النقرس].

٦ - يساعد على عدم تكون بعض الحصيات الكلوية.



٧- تنشيط الذاكرة، كـما أكـد ذلـك بتجربتـه الخاصـة الصـحافي (تـوم برنـز، مـن مدرسة كولمبيا للصحافة).

[انظر: www.Khayam.com/ashab/tab-albadat-malfat/alsum-foued]

هل يؤثر الصيام الرمضاني المتكرر سلبًا على مرضى زرعت لهم كُلى؟

طرح هذا السؤال مجموعة من الباحثين بقسم طب الكلى وأمراضها وزراعة الكلى، بمستشفى الملك فهد وجامعة الملك سعود بن عبـد العزيـز للعلـوم الصـحية، ومدينـة الملك عبد العزيز الطبية، بالرياض - السعودية - وكانت الإجابة بعـد الأبحـاث التـي أجريت، أن الصيام لا يؤثر سلبًا على المرضى الذين زرعت لهم كلى. [المزيد من المعلومات، انظر: م. فارس: الإعجاز، ص: ٣٤٥- ٣٥٢].

ذكر اختصاصيون في الطب الباطني كانوا ضيوفًا على برنامج (صحتك) بالفضـائية السودانية، حلقة يوم الجمعة ٢٣شعبان ١٤٣٣هـ - ١٣/ ٧/ ٢٠١٢م، ذكروا حقـائق طبية عن هذا الموضوع، خلاصته:

- لا يصوم زارعي الكلى إلا بعد عام، وكذلك المنقول منه كلى.
- مصاب الكلى لا يصوم إلا بعد استشارة الطبيب، هذا هو الأمثل.
- من الناس من صام بعد أربعة شهور ولم يصبه شيء.
- بعد السنة من الزراعة، يجب على الزارع مراجعة الطبيب.
- الصيام ينفع مريض ضغط الـدم المرتفـع، والسـكري والقـات، والسـرطانات، وتصلب الشرايين، والروماتيزم، والقضاء على الخلايا السرطانية في بدايتها.

[كان الضيوف: د. محمد أحمد حسن عبد الجليل، ود. إبراهيم محمد المبارك، ود. هشام..].

٤١- لحم الخنزير:

قال ﷺ: «**من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**» [صحيح مسلم ٢٢٦٠].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (والنردشير هو النرد، فالنرد أعجمي معرب، وشير معناه حلو - نسبة إلى واضعها أردشير بابك، من ملوك الفرس - ومعنى صبغ يده في لحم الخنزير ودمه في حال أكله منهما، وهو تشبيه لتحريمه بتحريم أكلهما).
والنرد: هو ما يعرف الآن بلعبة الطاولة.

وعن أبي ثعلبة الخشني، أنه سأل رسول الله ﷺ، قائلًا: «إنا نجاور أهل الكتاب وهم يطبخون في قدورهم الخنزير، ويشربون في آنيتهم الخمر، فقال رسول الله ﷺ: **«إن وجدتم غيرها فكلوا فيها واشربوا»** [سنن أبي داود ٣٨٣٩].

فحديث مسلم وأبي داود صريحان في حرمة لحم الخنزير، أما ما جاء في تحريمه ضمنًا، فعند الإمام أحمد [١٧٧٥٢] صحيح، والبخاري [٥٤٨٨، ٥٤٩٦].

لقد وصف القرآن الكريم حيوان الخنزير بأنه رجس ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾[الأنعام:١٤٥]، والرجس: الشيء القذر، والأقذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة، لما فيها من جراثيم وطفيليات، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيرًا من الكائنات الخطرة.

يصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض الوبائية لا تقل عن [٤٥٠] مرضا ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من [٧٥] مرضًا وبائيًا للإنسان، غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه، مثل: تليف الكبد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية، علاوة على آثاره السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي.

ينقل الخنزير بمفرده [٢٧] مرضًا إلى الإنسان، وينتقل أكثر من [٦١] مرضا من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنتجاته؛ وأهم هذه الأمراض، هي

الحويصـلات الخنزيريـة، والحمـى المتموجـة، والـدودة الكبديـة، وداء وايـل، وداء المكبسات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء اليرقنات الشريطية الجوالـة، وداء الـدودة الوحيـدة المسـلحة، وداء المصـورات الذيفانيـة المقوسـة، وداء الشـعريات الحلوزونية، والديدان السـوطية، وداء السـل، وداء المبيضـات الفطريـة، والالتهابـات المعوية، وجراثيم السالمونيلا والشايجالا، وغير ذلك.

كما تنتقل عن طريق المخالطة والتربية الحيوانيـة أو التعامـل مـع منتجـات الخنزيـر ومخلفاته عدة أمراض لا تقل عـن [٣٢] مرضـا، وأكثـر النـاس إصـابة بها هـم عـمال الزرائب والجزارات والأطباء البيطريين، وأهـم هـذه الأمـراض، عـلاوة عـلى بعـض الأمراض السابقة، الجمرة الخبيثة، الكَلِب الكاذب، الزحام الزقـي، الحمـى القلاعيـة، الحمرة الخنزيرية، الديدان الرئوية الخنزيرية، الجرب الفائر السعار، داء النـوم، الديـدان الفنفزية، وغير ذلك.

كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن [٢٨] مرضًا، عن طريق تلوث الطعام والشـراب بمخلفات الخنزير. [أ.د عبد الله المصلح ود. عبد الجواد الصاوي وآخرون: الإعجـاز العلمـي في القرآن والسنة، ص: ٣٠١-٢٠٣].

٤٢- مفاصل الإنسان:

عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبر الله، وحمـد الله، وهلـل الله، وسـبح الله، واسـتغفر الله، وعزل حجرًا عن طريق الناس، أو شركة وعظمًا عن طريق الناس، وأمـر بمعـروف أو نهي عن منكر، عدَدَ تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذ وقـد زحـزح نفسه عن النار**». [صحيح مسلم ١٠٠٧].

قال بريدة ﵁: سمع رسول الله ﷺ يقول: «**في الإنسان ستون وثلاثمائـة مفصـل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة**» قالوا: فمن الذي يطيق ذلـك يـا رسـول

الله؟ قال: «**النخامة في المسجد تدفنها، أو الشيء تنحيه عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك**». [مسند الإمام أحمد ٢٢٩٩٨ - صحيح لغيره].

المفصل هو الالتقاء بين أي عظمتين أو عظمة وغضروف أو غضروفين، في أي موضع بجسم الإنسان، ما دام بينهما فاصل.

والإعجاز هنا: أثبت الطب الحديث أن عدد المفاصل الموجودة في الجسم البشري [٣٦٠] مفصلًا في زمن يستحيل فيه معرفة هذا العدد بهذه الدقة، حيث أن معظم هذه المفاصل دقيقة، وفي أماكن يصعب تحديدها بالملاحظة المجردة، ولم تحدد المفاصل بدقة إلا بعد تقدم علم التشريح وعلم الأنسجة. [د. المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٧٥- ٧٧].

والأعجب من ذلك إفادة الباحث عبد الباسط، رئيس المجمع العلمي في القرآن والسنة بمصر، حيث يقول: (إنه علميًّا كان معروف ٣٤٠ مفصلًا إلى غاية سنة ٢٠٠٦م، حينما توصل العالم الألماني شنين لاكتشاف مفصل مركب من ١٠ مفاصل بسيطة داخل الأذن على يسار الدماغ، مما يعني أن نفس العدد على الجهة اليمنى ليصبح المجموع ٣٦٠ مفصل).

وأكد عبد الباسط أنه بمجرد عرض الحديث النبوي على عالم التشريح الألماني شنين قال ثلاث جمل: (عشرين سنة وأنا أشرح المفصل وأنتم مكتوب في كتبكم، لماذا لم يكتشفه أحد منكم، منكم لله، إنكم تركتمونا في ضلال؟!!).

٤٣- معجزة عَجْبِ الذنب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي قال: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب**». [صحيح مسلم: ٢٩٥٥/ ٣ المختصر، ابن ماجه ٤٢٦٦ وغيرهما].



وفي لفظة آخر له: «**وليس من الإنسـان شيء إلا يـبلى إلا عظـمًا واحـدًا هـو عجـب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامـة**». [صحيح مسلم ٢٩٥٥/ ٢ واللفظ لـه، البخاري ٤٨١٤- فتح الباري].

وفي لفظ آخر لأبي هريرة أيضًا: «**إن في الإنسـان عظـمًا لا تأكلـه الأرض أبـدًا، فيـه يركب يوم القيامة، قالوا: أي عظم يا رسول الله؟ قال: عجب الـذنب**». [صحيح مسلم ٢٩٥٥/ ٤؛ أحمد (٨١٨٠) صحيح على شرط الشيخين].

عجب الذنب والحقيقة العلمية:

إن عجب الذنب في علم الأجنة هو: «الشريط الأولي، الذي يتكون إثر ظهور كافة طبقات الجنين، وخاصة الجهاز العصبي، ثم ينكمش ويندثر هذا الشـريط، ويبقـى منه أثر داخل الفقرات العصعصية الأخيرة، وهو ما يسمى بعظم العصعصي [عجب الذنب] [انظر: المصلح: الإعجاز العلمي، ص٧٠- ٧١].

إن من أبرز وجوه الإعجاز في الحديث، أن هذا الشـريط الأولي لا يتعـرض للفنـاء مهما تعرض للظروف القاسية، كالنيران الشديدة أو المواد الحارقة مثل حمض الكبريـت المركز، أو غيرها، وقد حفظه الله ﷻ دليلًا على صدق نبينـا محمـد ﷺ، فكـما خلـق منـه الإنسان في المرة الأولى يعاد تركيبه في المرة الثانية للبعث والنشور والوقـوف بـين يـدي الخالق ﷻ. [المرجع نفسه، ص:٧٤].

٤٤- الدباء، [القرع، اليقطين]:

أخرج البخاري بسنده إلى أنسب بن مالك رضي الله عنه قال: «إن خياطًـا دعـا رسـول الله ﷺ لطعام صنعه، فذهبت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يتتبع الدباء مـن حـوالي القصـعة، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ». [البخاري١٩٥٠]، وفي رواية ثانية: فقـرب إلى رسـول

الله ﷺ خبزًا ومرقًا فيه دباء وقديد. [البخاري ٥٣٧٩، ٦٥٧- ٦٥٨، ٣٨٠٣؛ سنن أبي داود، ٣٢٨٨، ٣٢١٣، الموطأ ١٠٠٣، الدارمي ١٩٦١، الشمائل ١٣٥].

وفي رواية عن أنس أيضًا ؓ: أن النبي ﷺ كان يعجبه القرع. [أبو الشيخ: الأخلاق ٦٥٤/ يتقوى ؛مسند الإمام أحمد ٣/ ١٦٠، و٣/ ١٧٤].

وفي رواية عن أنس ؓ أيضًا: كان رسول الله ﷺ يحب الدباء، فإذا كان عندنا منه شيء آثرناه به» [أبو الشيخ ٦٥٥، صحيح لما قبله].

وفي رواية عن أنس ؓ أيضًا: كان النبي ﷺ يكثر من أكل الدباء فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من أكل الدباء. قال: «إنه يكثر الدماغ ويزيد في العقل» [أبو الشيخ، ٦٦٣- ضعيف جدًا]. وعلى الرغم من ضعف إسناد هذا الحديث إلا أن الحقائق العلمية تدل على صحة معناه.

يقول أحد الاختصاصيين: ما أحب عليه الصلاة والسلام شيئًا إلا وجدت في ذلك سرًا عظيمًا، فماذا في اليقطين؟

تبلغ نسبة الماء فيه ٩٤.٥ ٪، يحتوي على كمية قليلة من السكر والألياف، وتعطي المئة غرام منه ٦٥ حريرة فقط، فهو غذاء جيد لمن أراد إنقاص وزنه، وهو فقير جدًا بالصوديوم، فهو يناسب المرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم، وغني بالبوتاسيوم الذي يلزم الذين يتناولون الحبوب التي تدر البول، كما أنه يحتوي على البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والفسفور والحديد والكبريت والكلور، وهو غني بالفيتامينات، وفي طليعتها فيتامين (أ). [فارس: الإعجاز...، ص: ٤١٨] وفيتامين (س) - بحسب إنعام اللوبائي - وهناك أدلة حديثة تشير إلى أن اليقطين يفيد في الوقاية من السرطان، وقد نشرت مجلة الأبحاث البيوكيمائية عام ١٩٨٥ دراسة أجريت في المعهد الوطني

للسرطان في الولايات المتحدة، أشارت هذه الدراسة على أن اليقطين فعلًا واقيًا من السرطان الرئوي عند سكان نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية [قبسات من الطب النبوي، باختصار] [فارس، نفسه، ص٤٨١].

وقد اكتشف العلماء الألمان حديثًا أن في القرع مواد ومركبات تعمل على تنشيط الخلايا الدماغية، وتنمي التلافيف المخية المسئولة عن الاستيعاب والذكاء، مثل مادة [Encephalic-stimulant] وهذا مصداقًا للحديث: (إنه يكثر الدماغ ويزيد في العقل). [وقد أصدر العلماء الألمان مؤخرًا قرارًا واجب التنفيذ في جميع المؤسسات المعنية لتعويد الطلاب والناشئين منذ باكورة أعمارهم على الإكثار من تناول القرع في وجبات غذائهم، كما يوصون كل العاملين في ميدان النشاط الذهني من مفكرين وخبراء ومدرسين ودارسين أن يركزوا على العناية بتناول هذه المادة الثمينة في غذائهم].

ويحتوي على عدد من المواد الفعالة، مثل: الكوركوبيتين - البيوتوزيد - حامض التروللين واللوسنين والبتروزين. ولبعض هذه المواد تأثير مقو لعضلة القلب ووظائف الكليتين، وتأثير ضد التهاب المجاري البولية، ويزيد من إدرار البول، وإزالة الشعور بالعطش، ويفتت الحصى والرمل في الكلى ويزيل التهاباتها.

وقد أعطى تناول القرع المسلوق مع السكر والحليب نتائج عظيمة في معالجة تضخم البروستات عند الشيوخ وكبار السن، كما أن بذور القرع تعمل على زيادة قدرة الإخصاب خصوصًا عند سحقها وخلطها مع بذور الشمام وبذور الخيار، وتفيد في تخليص الجسم من السوائل الزائدة، وتنصح به اللوباني للحمية [لأنه يحول هرمون تستستيرون إلى هرمون أقوى، وهو المؤثر بشكل قوي على البروستاتا ونمو الخلايا فيها، وهذا يمنع تضخمها، كما ترى اختصاصية التغذية إنعام اللوباني].

ويحتوي على كميات وافـرة مـن فيتامينـات: [أ، ب، ج] وبروتينـات سـهلة الهضـم والامتصاص، ودهون وعناصر معدنية كثيرة، مثل الحديـد والكالسـيوم والبوتاسـيوم والفسفور والمنجنيز، وقد سبق ذكر معظم هذه العناصر.

وحسب اللوباني، فهو ملين للمعدة، ومسكن للآلام ومريح للصدر، وتحتوي الثمار على مواد تتمتع بقدرة على تخفيف التقلصات، وكذلك طرد الديدان من الجسم، ومواد تتحد مع مستقبلات الكوليسترول في الأمعاء، فتحول دون امتصاصه في الدم، وبذلك يؤدي إلى خفض مستوى الكوليسترول في الدم.

وينشط الكبد، ويمنع اليرقان، ويزيل الصداع والشقيقة خاصة النوع النفسي، أكـلًا أو وضعًا على مكان الألم.

ومهدئ للأعصاب وأمراض النفس، ويزيل الحرارة والحمى، وينفع في أمراض الصـدر والسعال، وينشط اللثة، ويكافح أوجاع الأسنان، وملين للطبيعة، وبذره طارد للدود، خاصة الدودة الوحيدة، ويطرد الدودة الشريطية، ويعالج العجز الجنسي والأرق.

وتوصلت دراسة صينية إلى أن تناول اليقطين قد يعطي الفرصة لمرضى السـكر مـن النوع الأول بعدم أخذ حقن الأنسولين يوميًا، أو التقليل من هذه الحقن بشكل كبير.

وأوضحت الدراسة أن لب اليقطين يقلل من الخلل في خلايا البنكريـاس ويجعلهـا أكثر قدرة على إنتاج الأنسولين، مؤكدين أن هذه النتائج مهمة للغاية، وما زالت هنـاك حاجة لإجراء المزيد من الدراسات لمعرفة مدى إمكانية إصـلاح الخلـل في البنكريـاس لدى الإنسان عن طريق لب اليقطين.

وينقع كعلاج للحروق والالتهابات.

ومن طرق الاستعمال:

- لطرد الدود: يقشر ٣٠- ٥٠ جرامًا من البذور، وتدق حتى تصبح كالعجينة، ثم تمزج بمقدار من الحليب، وتشرب لمدة ثلاثة أيام، ويؤخذ بعدها مسهل قوي.

- لعلاج العجزي الجنسي: تؤخذ كميات متعادلة من بذور القرع والخيار والشمام وتقشر وتدق وتذاب في السكر، وتؤخذ ثلاث ملاعق كل يوم.

٤٥- التلبينة:

أخرج الأئمة: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي بأسانيدهم إلى عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال ﷺ: «**التلبينة مُجمّة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن**» لذا كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت، ثم صنع ثريد فصُبت التلبينة عليها، ثم قالت: كلن منها، فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «...الحديث» [البخاري ٤٩٩٧، مسلم ٤١٠٦، ابن ماجه ٣٤٣٧، مسند الإمام أحمد ٢٣٣٧١، ٢٤٠٣٦، ٢٣٣٦، ٢٣٣٦٠؛ الترمذي ١٩٦٢].

ومن ألفاظ أحمد [٣٤٣٧]: «... عليكم بالبغيض النافع: التلبينة، وقال: «وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهي أحد طرفيه - يعني يبرأ أو يموت».

وفي لفظ لأحمد [٢٤٠٣٦، ٢٣٣٦٠] قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانًا وجع لا يطعم الطعام، قال: «**عليكم بالتلبينة، فحسُّوها إياها، فوالذي نفسي بيده إنها لتغسل بطن أحدكم كما يغسل أحدكم وجهه بالماء من الوسخ**» ولفظ الترمذي [١٩٦٢]: قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه، وكان يقول: «إنه ليرقق فؤاد الحزين ويسرو عن فؤاد السقيم كما تسرو إحداكن الوسخ عن وجهها».

والتلبينة، حساء الشعير المطبوخ بنخالته، وسميت كذلك لشبهها باللبن الحليب بياضًا ورقة [د. زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ٢/ ٨٩].

ومعنى مجمة: مريحة لفؤاد المريض [نفسه].

يقول د. النجار: (وحساء الشعير قاطع للعطش، مدر للبول، سهل الهضم، نافع لحالات السعال وخشونة الحلق، وصعوبة التنفس، ولجلاء ما في المعدة، ولأمراض الكلى والمثانة، ولإطفاء حرارة الجسم بصفة عامة، ولتقوية الأجسام المضادة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة التي قام بها كل من الدكتور ماهر مهران محمد، والمهندسة سحر مصطفى كامل، والمهندس عبد الكريم التاجوري، من كل من وزارة الزراعة المصرية، وكلية الزراعة، جامعة القاهرة، والسيدة زينيا هاوريش من جامعة ألبرتا الكندية أن الشعير يحتوي على عدد من المركبات الكيمائية التي تساعد على خفض نسبة الكلويسترول في الدم من مثل مادة بيتاجلوكان، والفيتامينات [أ، ب، د] وأشباه فيتامين [هـ] [Tocotriends]، والمواد الضابطة لضغط الدم والمانعة للاضطراب، من مثل مركبات كل من البوتاسيوم والمغنسيوم، والكالسيوم، والفسفور، والناتريوم، والحديد، والنحاس، والكوبالت، والزنك، والمضادات للعوامل المؤكسدة في جسم الإنسان.

وهذه العوامل، مما يجعله سريع الغضب والانفعال ويملأ قلبه الاكتئاب والحزن. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن لهذه المركبات الكيمائية - منفردة ومجتمعة - تأثيرًا إيجابيًّا على المواصلات بين الخلايا العصبية، مما يعين على التخفيف من حالات الاكتئاب، والميل إلى الرضا، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، والتعبير الطبي (تخفيف حالات الاكتئاب): ويكاد يكون هذا مطابقًا لما جاء في حديث رسول الله ﷺ من قوله «يذهب ببعض الحزن).

رحالات الاكتئاب تشخص اليوم بالخلل الكيميائي في جسـم الإنسـان، وعلاجـه أساسًا يكون بالغذاء المعالج لهذا الخلل، من مثل حساء الشعير الغني بـالمواد النافعـة في مثل هذه الحالات.

٤٦- الحلبة:

قال ﷺ: «**لو تعلم أمتي ما في الحلبة لاشـتروا ولـو بوزنهـا ذهبًـا**» [الهيثمـي: المجمـع (٥/ ٤٧)، من إخراج الطبراني بسند فيه متروك - الخبابري] والمذكور عن فوائده يـدل عـلى أن متن هذا الحديث صحيح.

قال د. النجار [ص: ٩٤]: (وللحلبة فوائد عديدة، منها: أنهـا مـدرة للحليـب عنـد الأمهات المرضعات، وفاتحـة للشـهية، ومعاونـة جيـدة في حـالات الهضـم، ومضـادة للالتهابات، ولذلك تستخدم في علاج آلام المفاصل، وفي علاج الجروح المختلفة.

وللحلبة دور فعال في علاج أمراض البول السـكري، فقـد ثبـت أن جـرامين مـن الحلبة المطحونة يعادلان وحدة واحدة مـن عقـار الأنسـولين، وذلـك لاحتـواء بـذور الحلبة على سلاسل البيتيدات المرتبطة بالزنك، والتـي يعـزى إليهـا التـأثير عـلى نسـبة السكر في الدم؛ هذا بالإضافة إلى ما بها من الأحماض الأمينية والكبريتيـة التـي تسـاعد على تحويل السلاسل البيتدية في البنكرياس إلى بنسلين فعال، كما أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور عبد الباسط محمد سيد، أستاذ الفيزياء الحيوية الجزيئية والطبية بالمركز القـومي للبحوث - الدقي - القـاهرة، وذلـك في كتابـه القـيم (التـداوي بالأعشـاب والطـب النبوي)، حيث أكد أن مرضى السكر يعانون نقصًا في الرابطة الكبريتية التي تـربط بـين السلاسل البيتيدية لتعطي جزيء الأنسولين الفعال، لـذلك فـإن الكبريـت في صـورته العضـوية في نبـات مثـل نبـات الحلبـة يزيـد مـن فاعليـة البنكريـاس، ممـا يعـين في معالجة أمراض السكري).

(وتحتوي بذور الحلبة على ٢٩٪ من المواد البروتينية و ٦٪ من الزيوت الثابتة والطيارة، وعلى نسب عالية من فيتامينات ب١، ب٢، ومادة النياسين، وحمض البانتونين، والتريجونيللين، والكولين، والسابونين، ومادة الديوسجنين والأمينات ثلاثية الميثيل، وهي مواد لها تأثيرها على أعراض الدورة الشهرية عند البالغات. هذا بالإضافة إلى العديد من العناصر من مثل: الحديد، والفسفور، والأنزيمات، والهرمونات، والمواد الصمغية).

وجاء في صحيفة (أخبار اليوم السودانية) الثلاثاء ٣ شواء ١٤٣٠هـ/ ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٩م، العدد ٥٣٧٨، الآتي: (أكد الدكتور سعيد شلبي، أستاذ الباطنة والكبد بالمركز القومي للبحوث بمصر، أن احتساء مشروب الحلبة بعد تناول كعك العيد يجنب الإنسان الآثار الضارة له، لاحتوائه على مادة (الجلاكتوفتان) التي تخفض مستوى السكر والكوليسترول في الدم).

٤٧- العدس:

جاء في فيض القدير للمناوي [٤/ ٣٥] أن ابن السني أخرج فيما رواه عن أبي هريرة مرفوعًا: «أن نبيًا من الأنبياء اشتكى إلى الله قساوة قومه، فأوحى الله إليه وهو في مصلاه، أن مر قومك يأكلوا العدس، فإنه يرقق القلب ويدمع العينين ويذهب الكبر».

يقول د. النجار في ضوء هذا الحديث الذي ذكره: (وتحتوي حبوب العدس على نسبة عالية من البروتين ٣٤٪ والكاربوهيدات ٢٦٪ والدهون ١٠٤٪ بالإضافة إلى نسب متباينة من مركبات كل من الفوسفور، والمغنيسيوم، والكالسيوم، والناتريوم، والبوتاسيوم، والحديد، والمنجنيز، والزنك، والنحاس، ونسب متباينة كذلك من الفيتامينات: أ، ب١، ب٢، ب٦، ب١٢، ج، د، وأعدد من الهرمونات والأنزيمات المختلفة.

وحبوب العدس المطبوخة لها قيمة غذائية كبيرة، ونابتها يمثل علاجًا لكثير من الأمراض من مثل فقر الدم، وقشرها يعالج الإمساك، ويعمل على إدرار البول، وهو

مضاد لكثير من الفطريـات، ولـذا فإنـه يسـاعد عـلى حفـظ الأسـنان مـن التسـوس، ولصقات وكمادات معجون العدس المسـلوق تفيـد في عـلاج الالتهابـات، والجـروح، ودمامل مختلف القروح.

والعدس لم يكن شائعًا في جزيرة العرب على عهد رسول الله ﷺ، ولذا يعتبر وصفه له في هذا الحديث الشريف من معجزات الرسول ﷺ.

وجاء ذكره في القرآن: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾[البقرة:٦١]

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية: أن معنى الأدنى: الدنيئـة. قلـت: لمـاذا لا يكـون الأدنى بمعنى الذي في متناول اليد، أو متوفر أو يكثر وجوده، أو الأرخص سعرًا، أمـا المن والسلوى الـوارد في الآيـة ٥٧ مـن البقـرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[البقرة:٥٧] فنادر الوجود، فالمن: طعام أو شراب متميز، ينـزل عـلى شـجر الزنجبيـل، والسـلوى: طـير السمان أو ما يشبهه).

٤٨- التين:

جاء في تفسير القرطبي [٢٠/ ١٤٠] من حديث أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ قلت: التين: لأن فاكهة الجنة بلا عجم، كلـوا منه فإنه يقطع البواسير ونقع النقرس**» [بلا عجم: بلا نوى - بلا بذور صلبة].

وفي رواية لأبي ذر ﷺ قال: أُهدي للنبي ﷺ تسل تين، فقال: «كلوا». وأكل منه، ثم قال: «لو قلت.. الحديث».

قال دكتور النجار عن ثمرة التين: (... فإنها تعتبر غذاء منشطًا ومريحًا للأعصاب...

وقد ثبت بالتحليل الكيمائي الدقيق أن ثمرة التين تحوي كمية كبيرة من الألياف»، حوالي ١٨.٥٪، ونسبة عالية من الكربوهيدرات في حدود ٥٣٪ بما فيها من السكريات الأحادية والمركبات النشوية، ونسبة من البروتينات في حدود ٣.٦٪ وأملاح العديد من العناصر من مثل: البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والزنك، والكبريت، والصوديوم، والكلور؛ بالإضافة إلى العديد من الفيتامينات، والإنزيمات، والأحماض، والمواد المطهرة، والمواد الهلامية، ونسبة كبيرة من الماء.

وهناك أنزيم خاص للتين يعرف باسم أنزيم التين، أو أنزيم فيسين FiCin، ثبت أن له دورًا مهمًّا في عملية هضم الطعام، وقد تمكن اليابانيون من عزل مادة كيميائية أخرى من ثمرة التين، وهي مركب كيميائي من نوع البنزالها يدل Benzaldehyde، ثبت أن لها قدرة على مقاومة مسببات الأمراض السرطانية، وقد استعملت تلك المادة بالفعل في علاج بعض الحالات المتقدمة من هذا المرض، وقد شفيت بإذن الله شفاء تامًا.

وبثمرة التين مجموعة من المركبات النشوية التي ثبت لها دور فعال في حماية الدم من البكتريا والفيروسات والطفيليات العديدة التي تتسبب في كثير من أمراض الدم، مثل: فيروس، الالتهاب الكبدي، وتعرف هذه المركبات النشوية باسم مجموعة السورالينز، وهي موجودة بوفرة في ثمار التين وفي دبسه، وعصائره، وأنواع المربات المصنوعة منه.

كذلك ثبت للتين فوائد عديدة في علاج حالات البواسير والإمساك المزمن، والنقرس، وأمراض الصدر، واضطراب الحيض، وحالات الصرع، وتقرحات الفم، والتهابات اللثة، واللوزتين والحلق، وفي علاج البهاق، وإزالة الثآليل، واندمال الجروح والتقرحات؛ لأنه به مواد قاتلة للجراثيم، ومضادة لكل من البكتريا والفيروسات والديدان، وبه مواد كذلك تساعد على إدرار اللبن.

وكون التين يقطع البواسير راجع غالبًا إلى احتوائه على مكونات مسـهلة، وأخـرى قابضة، وأمنا نفعه في حالة النقرس، فراجع إلى ما يملكه مـن قـدرة عـلى إذابـة أمـلاح حمض البوليك المترسبة في المفاصل عن الإفراط في أكل اللحوم الحمـراء ممـا يـؤدي إلى خلل في تمثيل الأحماض في داخل خلايا الجسم

وهنا يعجب الإنسان من حديثه ﷺ عن فوائد التين في علاج البواسير والنقرس في زمن لم يكن لأحد حوله إدراك شيء من ذلك...) [النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ج٢، ص: ١٥٥ - ١٢٢].

وجاء في صحيفة الصحافة السودانية في ١/ ٢/ ٢٠١٣م، عدد ٧٠٠٥، الجمعة ٢٠/ ٣/ ١٤٣٤هـ، تحت عنوان: (علماء يعتنقون الإسلام بسبب سورة: التين والزيتون).

(أعلن رئيس فريق بحث ياباني إسلامه بعد أن تأكد من إشارة ذكر كل مـا توصـل إليه الفريق في القرآن الكريم منذ أكثر من ١٤٣٨ عامًا.

وتعود قصة الخبر كما ذكرت وسائل إعلام وصحف عربية إلى أن البحث عن مـادة الميثالويندز، وهي مادة بروتينية يفرزها مخ الإنسان والحيوان بكميـات قليلـة، تحتـوي على مادة الكبريت، لذا يمكنها الاتحاد بيسر مع الزنك والحديد والفسفور.

وتعتبر هذه المادة مهمة جدًّا لجسم الإنسان، حيث تعمل على خفض الكوليسترول، والتمثيل الغذائي وتقوية القلب وضبط التـنفس، ويـزداد إفـراز هـذه المـادة مـن مـخ الإنسان تدريجيًا بداية من سن ١٥ - ٣٥ سنة، ثم يقـل إفرازهـا بعـد ذلـك حتـى سـن الستين عامًا، لذلك لم يكن من اليسير الحصول عليها من الإنسان.

وبالنسبة للحيوان فقد وجـدت بنسـبة قليلـة جـدًّا، لـذا اتجهـت الأنظـار إليهـا في النباتات، حيث قام فريق من العلماء اليابانيين بالبحث عن هذه المادة السحرية التي لهـا

أكبر الأثر في إزالة أعراض الشيخوخة، فلم يعثروا عليها إلا في نوعين من النباتات: هما التين والزيتون. وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾[التين].

وبعد أن تم استخلاصها من التين والزيتون، وجد أن استخدامها من التين وحده، أو من الزيتون وحده، لم يعط الفائدة المرجوة لصحة الإنسان، إلا بعد خلط المادة المستخلصة من التين والزيتون معًا.

قام بعد ذلك فريق العلماء الياباني المذكور بالوقوف عند أفضل نسبة من النباتين لإعطاء أفضل تأثير علاجي، فكانت نسبة [١] من التين إلى نسبة [٧] مقادير من الزيتون هي النسبة الأفضل.

ومن جانبه قام الدكتور السعودي طه إبراهيم خليفة بالبحث في القرآن الكريم، فوجد أنه ورد ذكر التين مرة واحدة، أما الزيتون فقد ذكر ست مرات صراحة، ومرة واحدة بالإشارة ضمنيًا في سورة «المؤمنون»: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠﴾[المؤمنون]. وقام دكتور خليفة بإرسال كل المعلومات التي حصل عليها وجمعها من القرآن الكريم إلى فريق البحث الياباني المذكور، وكانت النتيجة أن أعلن أفراد فريق البحث إسلامهم بعد هذا البحث).

٤٩- الرمان:

قال ﷺ: «**ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة**» [السيوطي: الجامع الكبير ١/ ٧١٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يأخذ الحبة من الرمان فيأكلها، قيل له: يا ابن عباس، لم تفعل هذا؟ قال: «أنه بلغني أن ليس في الأرض رمانة إلا تلقح بحبة من حب الجنة، فلعلها هذه» [الطبراني: الكبير ١٠٤٦٦، برجال الصحيح كما قال الهيثمي].

وعن ربيعة بنت عياض الكلابية، قالت: «سمعت عليًّا ﵁ يقول كلوا الرمان بشحمه، فإنه دباغ المعدة [أحمد: ٢٢١٥٣؛ المجمع ٥/ ٤٨، وقال الهيثمي: رجاله ثقات].

يقول د. النجار بعد إيراد هذا الحديث والأثرين:

(ويستخرج من كل من قلف شجرة الرمان وغلاف ثمرتها صبغة تحتوي على مركبات القانين والبلليترين، وهي بالإضافة إلى فوائدها الصبغية، فإنها كذلك مواد قلوية قابضة تستخدم في دباغة الجلود، وفي تلوين العجائن التي تستخدم في صناعة الأسنان المستعارة.

ويبلغ وزن المادة الصالحة للأكل من ثمرة الرمان حوالي ٥٦ ٪.هذا بالإضافة إلى نسب ضئيلة من الدسم، ونسب متفرقة من أملاح البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنيسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس والكبريت، والكلور، بالإضافة إلى عدد من الفيتامينات - خاصة (ج)، والأحماض - خاصة حمض البوريك.

ولقد لاحظ الدارسون أن لكل من ثمرة الرمان وقشرتها خواص تساعد على سهولة هضم الطعام بصفة عامة، والدهون بصفة خاصة، كما أن لها فعلًا قابضًا مضادًا لكل من الجراثيم والطفيليات، ولذلك استخدما بكفاءة في معالجة حالات الإسهال، والزحار - الدسنتاريا -، كما استخدما كمسكنات لآلام المعدة، وكمركبات طاردة للديدان، خاصة نقيع قشرة الرمان بعد غليه وتبريده.

كذلك فإن لب ثمرة الرمان يهدئ من السعال، ويستخدم كمادة صابغة تتميز بالثبات وعدم تغير اللون».

ومن الفوائد المعروفة لكل من قشرة وشحم ثمرة الرمان استخدامها بعد تجفيفها في علاج حالات الزيادة في حموضة المعدة، وما قد ينتج عنها من قرح الجهاز الهضمي

ويستخدمان كذلك في علاج قروح الإضجاع [القرح السريرية] التي كثيرًا ما تصـيب قعيـدي الفراش، وينصح كل من الحوامل والمرضعات بعدم التداوي بنقيع قشر الرمان أو نقيع قلفه.

وصدق الرسول الكريم ﷺ، وجل جلال من هداه إلى هذا الإعجاز!).

٥٠- الحجامة:

لقد وردت عدة أحاديث في فضل الحجامة، بلغت نحو العشرين، نذكر منها باختصار:

أ- «**إن كان في شيء من أدويتكم خير، ففي شرطة محجـم أو شربـة عسـل أو لذعـة بنار، وما أحب أن أكتوي**». [البخاري ٦٥٨٣، ٥٠٧٣- مسلم ٢٢٠٥].

ب- «**إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري**»،أي: العود الهندي [البخاري ٥٢٦٣].

ج- «**خير ما تداويتم به الحجامة**» [المرجع نفسه ١٩٣٤].

د- «**إن من خير دوائكم الحجامة**». [المرجع نفسه ١٩٣٤٠].

هـ- «**خير الدواء الحجامة والفصد**» [البخاري ٦٥٨٣].

و- «**إن يكن في شيء شفاء ففي مصة الحجام ومصة العسل**» [البخاري معلقًا ١٠/ ١١٦].

ز- «**إن كان دواء يبلغ الداء، فإن الحجامة تبلغه**» [الموطأ ٢/ ٩٧٤، من بلاغات الإمام مالك].

ح- «**الحجامة تنفع من كل داء إلا الهرم، فاحتجموا**». [الديلمي ٢٧٨٢، الطبراني:الصغير ٢٣٦].

ط- «**إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة، لا يتبيَّغ الدم بأحدكم فيقتله**». [الحاكم، ٧٥٩٠].

ي- «**نعم الدواء الحجامة، تذهب الدم، وتجلو البصر، وتخفف الصلب**». [الحاكم ٨٢٥٨].

ك- «**نعم العبـد الحجـام، يـذهب الـدم، ويخفـف الصـلب، ويجلـو عـن البصـر**» [سنن الترمذي، ١٩٧٨، سنن ابن ماجه ٣٤٦٩].

ل- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كـان رسـول الله ﷺ يحتجم في الأخـدعين وبـين الكتفين**» [مسند الإمام أحمد ٢١٥٥، ٢٩٨١، ٣٠٧٨- صحيح].

م- أن ابـن عبـاس رضي الله عنه قـال: «احـتجم النبـي ﷺ وأعطـى الحجـام أجـره» [البخاري(١٠/ ١٢٤)، ك. الطب، ب، السعوط؛ صحيح مسلم (١٢٠٢)].

وقد وردت عدة أحاديث وآثار في وقت ومكان الحجامة.

ذكر الدكتور يحيى بن ناصر خواجي في بحثه الموسوم بـ:(الحجامة في ضوء الحديث النبوي والممارسة الطبية). والذي قدمه لندوة: (عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية) في الفترة من ١٥- ١٧ / ٣/ ١٤٢٥هـ الموافق ٤-٦/ ٥/ ٢٠٠٤م، ذكر التفسير العلمي المحتمل لتأثير الحجامة، فاستعرض خلاصة النظريات القديمة لتأثيرها، وهي: نظرية (القنوات الكهرومغناطسية)، وهي أن الجسم يحتوي على قنوات تجري فيها الطاقة المغناطيسية، وهي تحدد صحة الإنسان وعافيته، فكلما كانت تسير هذه الطاقة وبدون عوائق يكون الإنسان صحيحًا؛ وإلا فإنه يصبح عرضة للأمراض، فالحجامة تعمل على تصحيح مسار الطاقة وتقويتها في قنوات الطاقة. وهذه النظرية - كما قال - فرعونية، انتقلت إلى آسية، ثم يذكر النظريات الأخرى الشرقية والغربية والإسلامية.

ولخص ميكانيكية عمل الحجامة في الآتي:

أ- تنشيط النقاط الواقعة على المسارات المغناطيسية للجسم بهدف ما، مثل: مفعول مسكن، أو رفع المقاومة المناعية للجسم، أو معالجة الأخطاء المناعية في الجسم.

ب- تنشيط الدورة اللميفاوية للجسم الذي يؤدي إلى سرعة تنقية سوائل الجسم.

ج- تنشيط الدورة الدموية للجسم، فيغلب على ضعف التروية الدموية في أجزاء الجسم المختلفة، التي ينتج عنها مشاكل في بعض أجزاء الجسم.

ومن فوائد الحجامة التي ذكرها د. خواجي: [ص: ٤٣- ٤٤].

أ- امتصاص الأخلاط والسموم التي توجد تجمعات دموية بين الجلد والعضلات [منطقة الفاشية].

ب- تنشيط الدورة الدموية موضعيًّا.

ج- تقوية المناعة العامة في الجسم، وذلك بإثارة غدد المناعة.

د- تسليك العقد والأوردة الليمفاوية المنتشرة في كل أجزاء الجسم، فيمكنها تخليصه أولًا بأول من الأخلاط ورواسب السموم.

هـ- تنشيط أماكن ردود الفعل بالجسم.

و- تسليك مسارات الطاقة الحيوية التي تقوم على زيادة حيوية الجسم [اكتشفها الصينيون القدماء].

ز- العمل على مواءمة الناحية النفسية.

ح - تنشيط الغدد الصماء، خاصة الغدة النخامية.

ط - تنشيط مراكز المخ، والحركة، والسمع والإدراك، والذاكرة.

ي- دفع الضغط عن الأعصاب.

ك- امتصاص الأحماض الزائدة في الجسم.

ل- تحسين وتنشيط وظائف الجسم، كما أثبتت البحوث العلمية عن الحجامة، وهي:

- زيادة نسبة الكورتيزون في الدم - تحفيز إثارة المواد المضادة للسموم - تقليل نسبة الكولسترول في الدم - تقليل نسبة البولينا في الدم - زيادة نسبة المورفين الطبيعي في الدم.

- وذكر د. خواجي [ص: ٤٤-٤٧] الحالات المرضية التي عولجت بالحجامة، ومصدره كتاب: (الدواء العجيب) لمحمد أمين شيخو، وكتاب: الطب الصيني التقليدي» لزهيني إهيرالي. ومن هذه الأمراض التي ذكرها:



١ - أمراض الدم سرطان الدم - الرعاف - الناعور - [عـرق لا يرقـأ دمـه] - خلـل عوامل التخثر - احمرار الدم - فقر الدم -جلطات دموية.

٢ - الجهاز الدوري: نقص تروية قلبية - احتشاء العضلة القلبيـة - ارتفـاع ضـغط الدم وهبوطه - الدوالي - آلام الصدر - تصلب الشرايين - ارتفاع توتر شرياني مزمن.

٣ - الجهاز التنفسي: الربو - التهاب رئوي - ارتشاح رئوي - السعال المزمن.

٤ - الجهاز البولي: التهاب مجرى البول - قصـور كلـوي - التبـول غـير الإرادي - تضخم البروستاتا - هبوط المثانة.

٥ - الأمراض السرـطانية: سرطـان الـدم - سرطـان الثـدي - سرطـان الـرحم - سرطان البروستاتا - سرطان القناة الكبدية الجامعة - كتل سرطانية تحت الجلد.

٦ - الجهاز الهضمي: الإمساك - آلام البطن.

٧- أمراض الكبد: - تليفه - التهابه الأنتاني - اليرقان.

٨- أمراض الطحال: تضخمه.

٩ - الأمراض المعدية: الخراجات الجلدية - الحمى المالطيـة - تقرحـات معديـة - الإيدز - الزكام - الرشح - النكاف.

١٠ - الأمراض المناعية: مرض متلازمة بهجت - تحسس الجلد.

١١ - العقم عند الرجال: نتيجة نقص عدد أو زيادة عدد الحيوانات المنوية.

١٢ - أمراض العظام: الروماتيزم - تضييق القنـاة الشـوكية - فتـوى نـواة لبيـة في فقرات العمود الفقري - الانزلاق الغضروفي - آلام الظهر - تمزق أربطة المفاصل.

١٣ - سكر الدم وارتفاعه.

١٤ - زيادة الشحوم الثلاثية والكولسترول.

١٥- الجهاز العصبي: الشلل - احتشاء دماغي نازف - صرع - ضمور الدماغ - الشقيقة - الصداع - ضعف الرؤية - عرق النسا - شلل العصب الوجهي.

١٦- الوهم العام: اعتلال عضلي - الأرق - تدمع العين بسبب عيب خلقي أو خلل عصبي.

١٧- عسر الحيض وهبوط الرحم.

قال د. خواجي [ص٤٦]: (وتأكيدًا لما سبق فإن هناك بعض الحالات المرضية التي عولجت بالحجامة وتحسنت حالتها، وهي كما يلي): ذكر عشر حالات، ثم ذكر محظورات الحجامة، [ص٤٨] والضوابط اللازمة لاتخاذها لممارسة الحجامة بالطرق الآمنة.[ص٥٠- ٧٠].

ويقول الباحث د. خواجي في آخر عناوين بحثه: (أوجه الإعجاز العلمي والطبي في بعض أبحاث الحجامة):

(بعد الإطلاع على الأبحاث التي تناولت الحجامة كما ورد في كتاب (الدواء العجيب) لمحمد أمين شيخو، والذي جمعه عبد القادر يحيى الشهير بالديراني، والذي أضاف إلى عنوان الكتاب معجزة القرن العشرين الذي شفى منه مرضى القلب القاتل: ومرضى الشلل والناعور [عرق لا يرقأ دمه]، والشقيقة، والعقم، والسرطان، والذي قام على أبحاث هذا الكتاب فريق طبي سريري مكون من ثمانية أساتذة طب سريري، وسبعة أساتذة في الطب المخبري ينتمون لجامعة دمشق بسوريا.

وقامت وكالات الأنباء العالمية والسورية والفضائية والإذاعات الدولية وبعض صحف العالم بالاهتمام بنشر هذا الفتح الطبي الوقائي والشافي من الأمراض التي عجز عن شفائها الطب الحديث في هذا العصر الحاضر؛ مما دفعني لدراسة هذا الكتاب الذي

يحوي خمسمائة صفحة مليئة بـالبحوث السـريرية والمختبرية، وعرضـه عـلى فئـة مـن الاختصاصين في مجال الطب السـريري والمختـبري لمناقشـة بعـض الحـالات وبعـض التحاليل التي ظهر فيها الإعجاز العلمي والطبي كشفاء لبعض الأمـراض المستعصـية على الطب الحديث، مثل: الشلل النصفي، أو مرض الناعور، والسرطان، وغيرهـا مـن الأمراض المزمنة التي في مفهوم الطب الحديث ليس لها علاج، وهنـا يـتجلى الإعجـاز العليم والطبي في الحجامة، التي حث عليها الرسول ﷺ، ومارسـها صـائمًا ومعتمـرًا، ومن سياق هذه الأحاديث نجـزم بـأن الحجامـة لهـذا فوائـد كثـيرة سـواء اسـتطاعت الأبحاث والدراسات اكتشافها أم لا، ففوائدها محتمة، فهو ﷺ لا ينطـق عـن الهـوى، علمه من علمه، جهله من جهله...).

٥١- الخل:

قال ﷺ: «**نعم الأدم، أو الإدام الخل**» [مسلم ١٠٥١/ ١٦٤].

وفي لفظ: «**نعم الأدم الخل**» [مسلم ٢٠٥١/ ١٦٥]، وفي لفظ: «**نعم الأدم الخـل، نعـم الأدم الخل**» [مسلم ٢٠٥١/ ١٦٥].

ورواه غير مسلم. جاء في كتاب (الأربعون العملية) لعبد الحميد محمود طهـماز، أن الخل يحتوي على كمية قليلـة مـن البروتـين والنشـويات، كـما يحتـوي عـلى الصـوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والفسفور والحديد والزنك والكلور.

ويقول الدكتور سيريل سكوت وموريس هانسن في كتابهما عن فوائد خل التفاح، أنه:

١- يمنع الإسهال، لاحتوائه على مادة قابضة.

٢- ينشط عملية الهضم والاستقلاب في الجسم.

٣- يمنع نخر الأسنان.

٤- يقتل الطفيليات في الأمعاء.

٥- يمكن استعماله لتحسين الهضم عند أولئك الذين لديهم نقص في حمض المعدة.

كما يقوم بفعل مطهر للأمعاء، وبعض الناس ينصح باستعماله لغرغرة الفم والحلق، فيطهر الفم من الجراثيم (قبسات من الطب النبوي) باختصار، نقلًا عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة ك: م. فارس].

٥٢- نهي النبي ﷺ عن النفخ في الشراب والطعام:

عن أبي المثنى الجهني، قال: كنت جالسًا عند مروان بن الحكم، فدخل أبو سعيد ؓ، فقال له مروان: «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النفخ في الشراب؟ قال: نعم. فقال له رجل: إني لا أرتوي بنفس واحد، قال: أمط الإناء عن فيك ثم تنفس، قال: فإن رأيت قذى؟ قال: أهرقه». [الحاكم ٧٢٠٨ وصححه ووافقه الذهبي].

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب [الألباني. صحيح الجامع للسيوطي].

قال ﷺ: «**إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء**» [البخاري (١٤٩)].

وعن ابن عباس ؓ: «**أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب**» [الألباني: صحيح الجامع للسيوطي].

قال ﷺ: «**إذا شرب أحدكم، فلا يتنفس في الإناء**» [البخاري (١٤٩)].

ماذا يقول الطب الحديث عن هذا الهدي النبوي؟

يقول الطب الحديث: في الإنسان تعيش بكتريا يكون عددها أكثر من عدد خلاياه، ولكنها بفضل الله تعالى ورحمته نافعة للجسم وغير ضارة، بحيث أنها تقوم بعمليات تنشيط التفاعلات اللازمة للهضم.



توجد بعض من هذه البكتريا بالملايين في الفـم، ويسـمى نـوع مـن هـذه البكتريـا: (Helicobacter pylori). لكن تلك البكتريا عند خروجها من الفم تكـون ضـارة بدرجة كفيلة بأن تقتل ذلك الإنسـان في بعـض الأحيـان، وأن تصـيبه بمـرض خطـير في أحيان أخرى.

تقوم تلك البكتريا عندما تخرج من الفم بوسـاطة الـنفخ بالتحوصـل، ثـم يتنـاول الإنسان ذلك الطعام حيث تتواجـد البكتريـا فيـه بشـكل كبـير جـدًّا، وتكـون في أتـم الاستعداد للدخول إلى داخل الجسم، تخيـل كـم مـرة يقـوم الإنسـان بـالنفخ في ذلـك الطعام، وكم هي الكمية من البكتريا المتواجدة فيه!! تبدأ الرحلة من الفم ومـن المرئـي إلى أن تصل إلى المعدة، فتقوم تلك البكتريا بالتنشيط وإفراز إنـزيم اليوريـا (Usease enzyme). الذي يسبب التهاب الأغشية المبطنة للمعدة، مسببًا بذلك خرقًا في جـدار المعدة، حيث تبدأ المعدة بهضم نفسـها وحـدوث تآكـل بجـدار المعـدة، مما يـؤدي إلى هضم المعدة لنفسها.

تسبب تلك البكتريا أيضًا ضـعفًا في إفـراز الأنسـولين بالبنكريـاس، مما يـؤدي إلى ارتفاع نسبة السكر بالدم، وحدوث مرض السكري.

وكما يقول المثل العربي: الوقاية خير من العلاج، و: درهـم وقايـة خـير مـن قنطـار علاج، فإن الوقاية من ذلك كله تتمثل في الحفاظ على نظافة الفم واستعمال السـواك أو الفرشاة والمعجون، أو حتى المضمضة كما يحدث عند الوضوء.

٥٣- معجزات الحجر الأسود الحسية والمادية:

عندما وقف أعداء الإسلام في أوروبة على حديث النبي ﷺ: «**الحجر الأسـود مـن الجنة**»، ظنوا أنهم قد وجدوا دليلًا على أن الإسلام دين خرافات، فسعوا للحصول على



قطع منه لتحليلها مختبريًّا ليقولوا أنه مجرد حجر مـن أحجـار البازلـت المنتشـرة حـول البيت الحرام، أو قطعة من حجر نيزكي، وكانت الخطة أن جندوا رجلًا بريطانيًّا يـدعى برتون ليقوم بسرقة قطع من الحجر الأسود، فأرسل إلى المغـرب العـربي، حيـث درس اللغة العربية على اللهجة المغاربية لمدة ثماني سنوات، ذهب بعد ذلك إلى مصـر، فانضـم إلى الحجاج المصريين بصفته حاجًّا مسلمًا مغربيًّا، وعندما وصـل الكعبـة اغتـنم فرصـة الساعات التي تسبق الفجر؛ لأن الإنسان في ذلك الزمان، قبل (١٠٠) سنة، يمكنـه أن يطوف وحده في تلك الساعات، فتمكن من قطع ثلاث قطع صغيرة بقطعة ليزر، وطار بها إلى القنصلية البريطانية بجدة، فاحتفوا بهذا الإنجاز، وحجزوا له على سفينة ليصـل إلى بريطانيا، وهناك بدءوا في إجراء التحاليل اللازمة، ولم يصلوا إلى مبتغاهم، وصـدق الله العظـيم القائـل في محكـم التنزيـل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾[سبأ: ٥٤]، فأرسلوا ثلاثة قطع منه إلى أمريكا، الواحدة مثل حبة الحمـص، أجريـت عليها التجارب الدقيقة اللازمة، وكانت المفاجأة أن الحجر الأسود لـيس مـن حجـارة الأرض أو نيازك السماء، ولم يبق إلا الاحتمال الثالث، وهـو أنـه مـن الجنـة!! وأن مـن صفاته: أنه لا يغطس في الماء، ولو سخن على لهب أو كسيتيلي (خاص بقطع الحديد) لا يسخن، وأنه من أشباه الموصلات، وأنه يطلـق (٢٠) إشـعاعًا غـير مرئـي في اتجاهـات مختلفة بموجة قصيرة، وكل إشعاع واحد يخترق (١٠) آلاف رجل مصطفون.

وعندما وقف برتون على هذه الحقـائق أعلـن إسـلامه، وكتـب كتابًـا مـن جـزأين بعنوان: (رحلة إلى مكة)، حكى فيه قصته مع الحجر الأسود.

وعقب إسلام كارنار - عالم الفضاء الأمريكي الذي سبق ذكره- قام بتفسير ظاهرة تقبيل الحجر الأسود أو حتى الإشارة إليه، وقف على حقيقة أخـرى مذهلـة، وهـي أن

الحجر الأسود يسجل اسم كل من قبَّله أو أشار إليه، بل يسجل اسم الأم كذلك، وقد سبق إلى هذه الحقيقة الإمام الشافعي رحمه الله، فقال: إضافة إلى هذا الحجر الأسود يسجل الاسم مرة واحدة فقط، ويضع علامات بعدد المرات التي حج أو اعتمر فيها الشخص!! [انظر أقرب المراجع: النت، مع إضافات من المؤلف من مراجع أخرى مختصة في الإعجاز العلمي].

٥٤- اللبن (الحليب):

قال ﷺ: «**من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن**» [أحمد (١٩٧٨)- حسن؛ الترمذي (٣٤٥٥) - حسن، أبو داود (٣٧٣٠)، البيهقي (الشعب) (٥٩٥٧)، ابن ماجه (٣٣٢٢) - حسن، وغيرهم].

لقد تمثل الإعجاز العلمي الحسي في هذا الحديث في الحقائق العلمية الغذائية المعجزة التالية:

أن الحليب (اللبن) هو الوحيد من بين الأغذية الذي يحتوي على جميع المواد الغذائية - كما أثبت الطب الحديث - حيث يحتوي على:

١- المواد البروتينية: وهي على نوعين:

الأول: (كازيونوجين) (Caseinogen)، وهو فسفور بروتيني.

والثاني: (لاتكواليومين) (Lacto allumine).

٢- المواد الدهنية: حيث يتركب دهن اللبن من: الكسرايد - (Eylyceride)، وهو موجود في اللبن بشكل قطرات مستديرة، وتوجد في اللبن صبغة صفراء تسمى (Lipacherome)، تكسبه صفرته المعروفة، ويفقد اللبن كثيرًا من خواصه الغذائية عندما تنزع قشدته.

٣- المواد النشوية.

٤- المعادن: وأهمها: الصوديم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والماغنيزيوم.

٥- الفيتامينات: جميعها: أ، ب١، ب٢، د، هـ، وأكثرها خاصة: أ، د، أما ج، فقليلة.

واللبن غذاء أساسي لمرضى القرحة المعوية، أو قرحة الإثني عشر، لما له من خاصية معادلة أحماض المعدة وحماية جدارها من الإصابة بالأمراض، فضلًا عن فوائده الغذائية الأخرى، سهل الهضم.

وهو غذاء وعلاج لمرضى الكبد، حيث يتكون اللبن من مادة (اللاكتوز) - أي: نشا اللبن - الذي لا يمتص، وإنما يتحلل وينتج عنه حامض يمنع امتصاص بعض المواد الأخرى بالأمعاء التي قد تكون سببًا في حدوث الغيبوبة الكبدية؛ لذلك يعد اللبن وقاية لمريض الكبد من حدوث الغيبوبة الكبدية، وخاصة إذا كان مريض الكبد يحدث له إسهال نتيجة تناول اللبن.

وقد تبين أيضًا أن المواد البروتينية الموجودة باللبن وما بها من أحماض أمينية لا تتوافر إلا في البروتين الحيواني، وما بها من خاصية عظيمة لتواجد مادة (الأمونيا)، مما جعل لبروتين اللبن ميزة دون سواه، وقد ثبت أن الامتناع عن تناول المواد البروتينية لمدة عشرة أيام يؤدي إلى اضطراب ميزان بروتينات الدم، ويؤدي إلى اضطراب الهرمونات والصحة العامة.

ومما هو جدير بالذكر: أن للبن صلة وثيقة بقوة الرجل الجنسية.

وقد اكتشف العلماء الاختصاصيون في الكيمياء وعلم التغذية، أنواعًا من الأحماض في اللبن تساعد على عدم تجلط الدم أو الإصابة بالذبحة الصدرية. [حسيني: الإعجاز العلمي (١/ ٨)]، كما يفيد الأعصاب بصورة عامة.

وقد أدرك الرياضيون في شـمالي أوروبـة أهميـة اللـبن، فأصـبحوا يتخذونـه غـذاءً ضروريًّا يعينهم على ممارسة الرياضة، ولا سيما رياضة المصارعة.

ولم يعرف الغرب عادة شرب اللبن إلا بعد الحـروب الصـليبية، ويسـتهلكون الآن أضعاف استهلاك العرب، خاصة بعد أن أثبـت العلـم والطـب الحـديث مـدى أهميـة الحليب كغذاء بشري، وهو ما سبق به الرسول ﷺ العلم والطب الحديث!!

قـال الباحـث المهنـدس فـارس [الإعجـاز العلمـي في القـرآن الكـريم والسـنة النبويـة (ص ٤٥٧)]: (يعتبر الحليب أكثر غذاء متكامل وجـد عـلى سـطح الأرض، حيـث أنـه صمم ليكون غذاءً لكل مولود للحيوانات اللبونة، كالأبقار والماعز والضأن، والإنسان (المرأة)، وبذلك فإنه يؤمن كميات كافية من الغذاء، ومع ذلك فإنه فقير بفيتامين (C٢) والحديـد، إلا أن الأطفـال يولـدون وفي أجسـامهم كميـة مـن الحديـد وفيتـامين (C) تكفيهم لعدة أسابيع.

والجدير بالذكر: أن الرسول ﷺ اختار اللبن يوم المعراج.

أما حليب الإبل فقد سبق ذكر ما فيـه مـن المعجـزات الطبيـة والغذائيـة في فقـرة: ألبان وأبوال الإبل).

٥٥- معجزة التوجيه النبوي في (النهي عن زواج الأقارب):

ذكر ابـن قتيبـة [في مؤلفـه: (غريـب الحـديث)، بـدون إسـناد] أن رسـول الله ﷺ قـال: «**اغتربوا لا تضووا**». **ومعنى الحديث**: أن التزاوج بين الأقارب يخشى منه أن يأتي النسل ضعيفًا في بدنه وعقله.

وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبني السائب: «يـا بنـي السـائب، إنكـم قـد أضويتم، فانكحوا في الغرائب» - أي: تزوجوا مـن النسـاء الغريبـات. [ابـن عبـد ربـه: العقد الفريد (٦/ ١١٧)].

فعلى الرغم من ضعف الحديث والأثر من ناحيـة الإسـناد، إلا أن الطـب الحـديث يثبت صحة المتن.

وممن شهد بهذا البروفسير/ ميونخ آرنولد، أستاذ علم الوراثة الفرنسي.

٥٦- معجزة الاستشفاء بإلية الشاة الأعرابية:

قال الرسول ﷺ: «**شفاء عرق النسا، إلية شاة أعرابية، تذاب ثم تجزأ ثلاثـة أجـزاء، ثـم يشرب على الريق، في كل يوم جزء**» [ابن ماجه (٣٤٦٣)، صححه الألباني في الصحيحة (١٨٩٩)].

قام بالتجربة العلاجيـة السـريرية الـدكتور: زهـير رابـح - اختصـاصي أمـراض الروماتويد والروماتيزم، ورئيس قسم العلاج الطبيعي بأحـد المستشـفيات الخاصـة - أثبت أن هذه الإلية تحتوي على مجموعة من الدهون، منها نوع مفيد جدًّا في هذا المجال، اسـمه: (Omega Three) وشـفع بحثـه بشـهادات بعـض الـذين شـفوا نتيجـة هذه الوصفة النبوية!

٥٧- الإعجاز العلمي الطبي في (الإثمد):

قـال الرسـول ﷺ: «**علـيكم بالإثمـد، فإنـه يجلـو البصـر، وينبـت الشـعر**». [ابن ماجه (٣٤٩٥) صحيح].

وفي لفظ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير أكحالكم الإثمـد، يجلو البصر وينبت الشعر**» [أحمد (٢٠٤٧) - قوى محققوه إسناده على شرط مسلم، وغيره].

ولابد أن يُلفت النظر إلى أن الإثمد كثيرًا ما يغـش بسـلفايد الرصـاص، بـدلًا عـن سلفايد الأنتموني - الخرصين - (Antimony) (sb٢٥٣) (Sulphide).

لقد أظهرت التجارب العملية في الأحياء الدقيقة قدرة الكحل عـلى إبـادة الجـراثم والطفيليات التي تمرض العين وتعيق البصر ونمو الشعر.

كما وأن للكحل قدرة على تثبيط الالتهابات في العين ومناطق الجلد المختلفـة، لقدرتـه على منع تصنيع الموثينات واللبوكوترايينات التي تعتبر من أهم وسائط الالتهابات.

ومن ناحية أخرى عامة: فللكحل أيضًا قدرة على إبـادة طفيليـات البلهارسـيا (داء المنشقات) والليشمانيا [البروف كمال الدين حسين الطاهر: معجـزات الطـب النبـوي المحمـدي: الترسيخ على ضوء علم الأدوية الحديث، (ص ٢٤١)، ط (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)].

٥٨- الإعجاز الطبي في الاضجاع على الشق الأيمن:

عن البراء بن عازب ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتيت مضـجعك، فتوضـأ وضوءك للصلاة، ثم اضجع على شقك الأيمـن، ثـم قـل: اللهـم إني أسـلمت وجهـي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليـك، لا منجـا منـك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن آخـر كلامـك، فإن مت مت على الفطرة**» [البخاري (٦٩٣٤)، مسلم (٤٨٨٤)، وغيرهما].

يقول د. ظافر العطار: (حين ينام الشـخص عـلى بطنـه يشـعر بعـد مـدة بضـيق في التنفس، لأن ثقل كتلة الظهر العظمية تمنع الصدر من التمدد والـتقلص عنـد الشـهيق والزفير؛ كما أن هـذه الوضـعية تـؤدي إلى انثنـاء اضـطراري في الفقـرات الرقبيـة وإلى احتكاك الأعضاء التناسلية بالفراش، مما يدفع إلى ممارسة العادة السرية، كـما أن الأزمـة التنفسية الناجمة تتعب القلب والدماغ.

ولاحظ باحث استرالي: ارتفاع نسبة موت الأطفال الذين لا ينامون على أحد الجانبين.

كما نشرت مجلة التايم اللندنية دراسة بريطانية مشـابهة، تؤكـد ارتفـاع نسـبة المـوت المفاجئ عند الأطفال الذين ينامون على بطونهم.

ومن المعجز حقًّا: توافق هذه الدراسات الحديثة مع ما نهى عنه معلـم الخـير محمـد ﷺ، فيما رواه أبو هريرة ﭬ، قال: رأى رسول الله ﷺ رجلًا مضـطجعًا عـلى بطنـه،

فقال: «**إن هذه ضجعة يبغضها الله ورسوله**» [أبو داود (٤٣٨٣)؛ أحمد (١٤٩٩٣)، الترمذي (٢٦٩٢) - صحيح].

ويقول العطار: أما النوم على الظهر فإنه يسبب التنفس الفموي، لأن الفم ينفتح عند الاستلقاء على الظهر لاسترخاء الفك السفلي، لكن الأنف هو المهيأ للتنفس لما فيه من شعر ومخاط لتنقية الهواء الداخل، ولغزارة أوعيته الدموية المهيأة لتسخين الهواء.

وهكذا فالتنفس من الفم يعرض صاحبة لكثرة الإصابة بنزلات البرد والزكام في الشتاء، كما يسبب جفاف اللثة، ومن ثم يؤدي إلى التهابها الجفافي، كما أنه يثير حالات كامنة من فرط التصنع أو الضخامة اللثوية، وفي هذه الوضعية أيضًا فإن شراع الحنك واللهاة يعارضان فرجات الخيشوم، ويعيقان مجرى التنفس، فيكثر الغطيط والشخير، كما يستيقظ المتنفس من فمه ولسانه مغطى بطبقة بيضاء غير اعتيادية إلى جانب رائحة فم كريهة، كما أنها تضغط على ما دونها عند الإناث فتكون مزعجة كذلك، وهذه الوضعية غير مناسبة للعمود الفقري، لأنه ليس مستقيمًا، وإنما يحوي على انثناءين: رقبي وبطني، كما يؤدي عند الأطفال إلى تفلطح الرأس إذا اعتادها لفترة طويلة.

أما النوم على الشق الأيسر، فهو غير مقبول أيضًا؛ لأن القلب حينئذٍ يقع تحت ضغط الرئة اليمنى، والتي هي أكبر من اليسرى، مما يؤثر في وظيفته ويقلل نشاطه، وخاصة عند المسنين. كما تضغط المعدة الممتلئة عليه، فتزيد الضغط على القلب والكبد الذي هو أثقل الأحشاء لا يكون ثابتًا، بل معلقًا بأربطة، وهو موجود على الجانب الأيمن، فيضغط على القلب وعلى المعدة، مما يؤخر إفراغها.

وقد أثبتت التجارب التي أجراها غالتيه وبوتسيه: إن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء يتم في فترة تتراوح بين ٢- ٤ ساعة إذا كان النائم على الجانب الأيمن، ولا يتم ذلك إلا في ٥- ٨ ساعات إذا كان على جنبه الأيسر.

كما يعتبر النوم على الجانب الأيمن من أروع الإجراءات الطبية التي تيسـر وظيفـة القصبات الرئوية اليسرى في سرعة طرحها لإفرازاتها المخاطية، هكـذا ينقـل الـدكتور الراوي؛ ويضيف قائلًا: إن سبب حدوث توسع القصبات للرئة اليسـرى دون اليمنـى هو لأن قصبات الرئة اليمنى تتدرج في الارتفاع إلى الأعلى، حيث إنها مائلة قليـلًا، مما ييسر طرحها لمفرزاتها بوساطة الأهداب القصبية؛ أمـا قصـبات الرئـة اليســرى فإنهـا عمودية، مما يصعب معه طرح المفرزات إلى الأعلى، فتتراكم تلـك المفـرزات في الفـص السفلي، مؤدية إلى توسع القصبات فيه، والذي من أعراضها كثرة طرح البلغم صباحًا. هذا المرض قد يترقى مؤديًا إلى نتائج وخيمة، كالإصابة بخراج الرئة والـداء الكلـوي، وإن من أحدث علاجات هؤلاء المرضى هو النوم على الشق الأيمن.

٥٩- الإعجاز العلمي الطبي في لحوم الأسماك وزيوتها:

أخرج البخاري [(٣٦٤٥)] من رواية أنس ﷺ : أن عبد الله بن سلام بلغـه مقـدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سـائلك عـن ثـلاث لا يعلمهـن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بـال الولـد ينـزع إلى أبيه أو إلى أمه. قال النبي ﷺ: «**أخبرني به جبريل آنفًا**» قال ابن سلام: ذاك عدو اليهـود من الملائكة، قال الرسول ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشـرهم مـن المشـرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد: فإذا سـبق مـاء الرجل ماء المرأة نـزع الولـد، وإذا سـبق مـاء المـرأة مـراء الرجـل نزعـت الولـد**» قـال ابن سلام ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله...

والإعجاز العلمي الطبي الذي يعنينا في هذا الحديث الشـريف، أن خـبراء التغذيـة وأطباء القلب في العالم، يوصون بتناول وجبتين مـن لحـوم الأسـماك في الأسـبوع عـلى الأقل، وقد لفت الرسول ﷺ النظر إلى نعمة لحوم الأسماك، كما في الحديث المذكور.

والسمك والحوت سيان... وزيت السمك الذي ينصح بـه الأطبـاء علاجًـا لارتفـاع القليسريدات الثلاثية (Triglyceries)، وهي إحدى دهون الـدم، يسـتخلص مـن كبـد الحوت، وتناول السمك لا يفيد في الوقاية من مرض شرايين القلب وارتفاع دهـون الـدم فحسب، بل إن له فوائد أخرى في علاج صداع الشقيقة، ومرض المفاصل نظـير الرئـوي، وغيرها كثير. [م. منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، (ص ٢٩٧)].

٦٠- الإعجاز العلمي في أخطار الإعلام الفضائي:

ورد في الأثر من حديث حذيفة ﷺ: «ليوشكن أن يُصَبَّ عليكم شر مـن السـماء حتى يبلغ الفيافي». قيل لأبي عبد الله حذيفة بن اليمان ﷺ الراوي -: ومـا الفيـافي يـا أبا عبد الله؟ قال: «الأرض القفر» أي: الصحراوية [ابن أبي شيبة: المصنف: (١٩٢٤٦) بسند صحيح، موقوفًا على حذيفة ﷺ].

ويمكن أن نتأمل في ضوء هذا القول ما تبثه الإذاعات والتلفزيونات والفضـائيات التنصيرية والإباحية والجوالات المحمولـة ومـا شـابه ذلـك.. وقـد أعـدت الرسـائل الجامعيـة وألفـت الكتـب في هـذا الجانـب، خاصـة المؤلفـات التـي وضـحت الآثـار السالبة للإعلام الفضائي.

ومن الأمثلة على البرامج التلفازية ذات الآثار السالبة على الشباب المسـلم برنـامج (إستار أكاديمي)؛ الذي صاحب فكرته الدكتور الإسرائيلي (مالخوم أخنوف).

ويمكن الحصول على الحوار الذي أجرته معه قناة إسرائيليـة في إبريـل (٢٠١٤م)، موجود على الشبكة العنكبوتية.

ومـن الأمثلـة عـلى الآثـار السـالبة للجـوال المحمـول برنـامج بـلاك بـيري (Black Berry)، ويعني التوت الأسود، وهو نوع من الهواتـف الذكيـة التـي تـدعم

خط البريد الإلكتروني. وتم تطويره من قبل شركة (Research in motion) الكندية. ويمكن الحصول على معلومات كافية موجودة على الشبكة العنكبوتية.

ومن أخطار البلاك بيري الشريرة التي يتحقق فيها مفهوم الحديث المذكور، فقد جاء في مجلة الصحة والطب عن البلاك بيري وأخطاره ما يلي:

(لقد أعلن رسميًّا في مجلة الصحة والطب الصادرة عن طريق مؤسسة دبي للإعلام، بأن ملاك البلاكبيري الذين يستخدمونه أكثر من خمس ساعات يوميًّا سيعانون من اختلال في الأعصاب، بحيث تقلل من قدرتهم على التركيز، وستؤثر على الجهاز المناعي، بحيث سيكون الشخص قليل المناعة، وكثير الإرهاق. وجاء هذا الخبر بعد تصريح من الحكومة الألمانية بمنع بيع البلاك بيري للأشخاص الذين تقل أعمارهم عن الحادي والعشرين سنة، وبيعه لما هم دون ذلك.

وقد جاء هذا التصريح وفقًا للدراسة التي أجريت بجامعة ميونخ لألفي شخص من ملاك البلاك بيري قبل وبعد امتلاكهم للبلاك بيري وأثبتت الدراسة علميًّا أن صغر حجم الهاتف واستخدامه لفترات طويلة تقلل عمل وظائف حدقية العين المتصلة بالأعصاب، وتؤثر على الجهاز المناعي، فأرجو منكم جميعًا نشر هذا الخبر، وعدم الاستهانة بهذا الأمر، لأن صحة الإنسان أهم من أي شيء آخر. فلنحاول التقليص من استخدام البلاك بيري، تجنبًا لأي أضرار مكن أن تضر بصحتنا).

وعن أخطار البلاك بيري بالذات على الأطفال المراهقين، نقول: نعم الجهاز يقدم محتوىً مرئي وصوتي كالذي يقدمه الكومبيوتر، ويحدد المستخدم ما يريد، ولكن الإشكالية التي تواجه البلاك بيري هي مدى الحرية فيه، وبُعد المستخدم المراهق عن رقابة الأهل، يعني: أنه يستطيع استخدامه داخل البيت وخارجه، بينما الكومبيوتر لن

يستخدمه إلا في البيت أمام أعين الوالدين والأخوة الأكبر سنًّا. فإن حرية استخدام هذا الجهاز + ضعف الرقابة + مراهق + (ماذا قد تكون النتيجة المتوقعة؟!).

وهذا بالإضافة إلى احتمالية وجود من يتصيد هؤلاء المراهقين من الجنسين عن طريق هذا الجهاز، وذلك ليسر الوصول لمجموعات المحادثة، والوصول إلى كل ما ينشر فيها. [انظر: النت].

٦١- الإعجاز العلمي الطبي في العطاس والتثاؤب:

قال ﷺ: «**إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فليرده ما استطاع، فإذا قال ها، ضحك منه الشيطان**». [البخاري (٦٢٢٣)، أحمد (٩١٦٥)، الترمذي (٢٦٧٠)، أبو داود (٤٣٧٣) - كلها صحيحة].

يقول الأطباء: التثاؤب دليل على حاجة الدماغ والجسم إلى الأوكسجين والغذاء، وعلى تقصير جهاز التنفس في تقديم ما يحتاجه الدماغ والجسم من الأوكسجين، وهذا ما يحدث عن النعاس والإغماء وقبيل الوفاة.

والتثاؤب: هو شهيق عميق يجري عن طريق الفم، وليس الفهم بالطريق الطبعي للشهيق، لأنه ليس مجهزًا بجهاز لتصفية الهواء كما هو في الأنف، فإذا بقي الفم مفتوحًا أثناء التثاؤب تسرب مع هواء الشهيق إلى داخل الجسم مختلف أنواع الجراثيم والغبار والهباء والهوام؛ لذلك جاء الهدي النبوي برد التثاؤب على قدر الاستطاعة، أو سد الفم براحة اليد اليمنى أو بظهر اليسرى.

والعطاس هو عكس التثاؤب. فهو قوي ومفاجئ يخرج معه الهواء بقوة من الرئتين عن طريقي الأنف والفم، فيجرف معه ما في طريقه من الغبار والهباء والهوام والجراثيم التي تسربت إلى جهاز التنفس، لذلك كان من الطبعي أن يكون العطاس من الرحمن؛

لأن فيه فائدة للجسم، وأن يكون التثاؤب من الشيطان، لأن فيه ضررًا للجسم، وحق على المرء أن يحمد الله عز وجل على العطاس، وأن يستعيذ به من الشيطان في حالة التثاؤب).

[انظر: (الحقائق الطبعية في الإسلام) (ص١٥٥)، (الأربعون العلمية): لعبد الحميد طهماز].

٦٢- الإعجاز العلمي الطبي في مرض الطاعون:

قال ﷺ: «**الطاعون شهادة لأمتي، ووخز أعدائكم من الجن، غدة كغدة الإبل تخرج من الآباط والمراق، من مات فيه مات شهيدًا، ومن أقام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فرَّ منه كان كالفار من الزحف**». [أحمد (١٨٧٠٧) صحيح، والمراق: أسفل البطن، الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في فوائد أبي بكر بن خلاد، حسنه السيوطي].

وإن سبب الطاعون هو ميكروب صغير يبلغ طوله ميكرون ونصف [والميكرون: واحد من مليون من المتر].

وقد اكتشف ميكروبه عام (١٨٩٤م) في الوباء الذي اكتسح الصين، وقد اكتشفه العالمان: يرسن وشيبا سابور، وكيتاستو، في هونغ كونغ كلًا منهما على حدة.

وفي عام (١٨٩٨م) أكد العالم الفرنسي بول لويس سيمون: أن الذي ينقل ميكروب الطاعون برغوث الفئران، وعادة ما يعيش الميكروب على الحيوانات القارضة، فإذا ما ابتدأ الوباء انتقل بوساطة البراغيث والحشرات إلى الفئران المنزلية، ومنها إلى الإنسان، كما قد ينتقل الميكروب بوساطة جرذان البواخر التي تعيش في مخازن السفن.

ويتكاثر هذا الميكروب في معدة البرغوث حتى يسدها، فيزداد إحساس البرغوث بالجوع، ويزداد عندئذ نهمه وقرصه وعضه، فيمص الدم، فتدخل محل الوخذة والقرصة، وينتقل الميكروب بوساطة الأوعية اللمفاوية الموجودة في أطراف المنطقة الأربية -أي: أسفل البطن- أما إذا كانت العضة في اليد أو الذراع، فتنتقل الميكروبات

إلى غدة الإبط الليمفاوية، فإذا كانت العضة في الوجه أو العنق انتقلت الميكروبات إلى غدة في العنق. [فارس، الإعجاز (ص ٢٨٠-٢٨١)].

تأمل الوصف النبوي لهذا الداء: «**غدة كغدة الإبل، تخرج في المراق**». أليس هذا وصفًا دقيقًا وبليغًا كل البلاغة؟!

أما النوع الثاني: الطاعون الرئوي، فهو أشد فتكًا من الغددي -أي: النوع الأول- ولا يكاد ينجو منه أحد.

٦٣- إعجابه ﷺ بأكل البطيخ بالرطب:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب. [الترمذي (١٨٤٣)؛ أبو داود (٣٨٣٦)؛ أبو الشيخ: أخلاق النبي ﷺ (ص٦٨٨) وكلها صحيحة]. وفي لفظ: «إن النبي ﷺ كان يعجبه البطيخ بالرطب» [أبو الشيخ (٦٧٣)- صحيح]، وفي لفظ: «إن النبي ﷺ كان يجمع بين الرطب والبطيخ» [أبو الشيخ (٦٧٨)- صحيح؛ أحمد (٣/ ١٤٢-١٤٣)- صحيح].

لقد أثبت الطب الحديث أن من فوائد البطيخ:

١- يحتوي على كمية من مضادات الأكسدة.

٢- مصدر ممتاز لفيتامين سي، ومصدر جيد جدًا لفيتامين أ، ب، ج، ب١، ب٦.

٣- جاء على شبكة الإعلام العربية (Moheet.com) أن في البطيخ مادة أقوى من الفياجرا والزينيكال [عقار لإزالة البدانة - مضاد]. وهذا ما أكدته دراسة طبية نشرت على موقع (العلم يوميًا-Science Daily) العلمي الإلكتروني. حيث أكدت أن الفياجرا مهمتها تنحصر في تنشيط الدورة الدموية في عضو واحد، أما البطيخ فينشط كل الجسم وبدون آثار جانبية. وأكدت ذلك أيضًا دراسة في جامعة (A& M) بتكساس الأمريكية.

٤- يحتوي على كمية كبيرة من الحديد والماغنيزيوم، يمتصها الجسم بيسر.

٥- مفيد في علاج أمراض التهاب الكبد والحويصلة الصفراوية.

٦- يعالج الإمساك والسمنة لوجود حمض أميني فيه.

٧- مدر للبول، ولذا يقي من تكوين الحصى بالكلى.

٨- يفيد في علاج الأمراض الطفيلية.

٩- تساعد أليافه العالية النسبة على مقاومة السرطانات.

١٠- مع قشره وبذوره مفيد لعلاج حصى الكلى والمثانة.

١١- يزيد في إدرار الحليب عند الأمهات المرضعات.

١٢- ملطف للأنسجة المخاطية.

١٣- به مواد طبعية تعزز مناعة الجسم البشري.

١٤- يقي عصيره من حمض التايفود.

١٥- يفيد في علاج الروماتيزم.

١٦- لقشره فعالية كبيرة لعلاج خمسة أمراض طبقًا لدراسة صينية، وهي:

أ- ارتفاع ضغط الدم المزمن.

ب- التهاب الكلى.

ج- احتباس البول.

د- الاستسقاء.

هـ- الإمساك المزمن. [انظر طريقة التحضير في كتابنا: مختصر السيرة النبوية]

وخلاصته:

- لعلاج الضغط: تجفيف قشر البطيخ، ثم طحنه حتى يتحول إلى مسحوق، ثم يؤخذ منه عشرون غرامًا، ويقلب جيدًا في الماء حتى الغليان، ثم يشرب يوميًا لمدة لا تقل عن شهر بلا توقف.

- لعلاج الكلى: تقطيع قشره بأحجام صغيرة جدًا، ووضعها في الماء، وتقليبها على النار حتى تصبح عجينة. تحفظ في وعاء زجاجي محكم الإغلاق. يتناول المريض منه ملعقة على الريق لمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع.

- ولعلاج احتباس البول، والاستسقاء، والإمساك، فيقطع قشره قطعًا صغيرة ثم وضعها في الماء، مع إضافة شرائح رقيقة من البندورة أو بياض بيضة واحدة بعد فصله عن الصفار، ويتم أثناء ذلك تقليبه على النار لمدة خمس دقائق، ثم يشرب باردًا يوميًا لمدة خمسة أسابيع. [ومن المراجع: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، طبعة الرشد، (ص ٨٦١-٨٦٤)].

٦٤- الكمأة:

والكمأة: نبات طفيلي صحراوي بلا ساق أو أوراق أو أزهار، ينمو في باطن الأرض، ويكثر في الخريف، ويعرف بـ: الفقع.

قال ﷺ عنها: «**الكمأة من المَنِّ، وماؤها شفاء للعين**» [البخاري (٤٤٧٨)، مسلم(٢٠٤٩)] يعني: ممنون بها علينا من الله ﷻ، لأن الإنسان لا يبذل فيها أي جهد؛ وفشل من حاول استزراعها، لتبقى معجزة نبوية إلى قيام الساعة!!

أثبت العلم الحديث أن الكمأة غنية بالفيتامين (ب٢)، الذي يعالج عدة أمراض، مثل: التهابات الجلد الدهني، ونوع معين من التهاب اللسان؛ إضافة على ما أشار إليه الحديث من علاجها للعين؛ حيث اتضح خلوها من الصادات الحيوية، وأن ماءها يمنع حدوث التليف التالي لمرض التراخوما، عن طريق التدخل في تكوين الخلايا المولدة للألياف. ولما كان معظم مضاعفات التراخوما هي اضطرابات التليف، لذا فإن ماءها يقوم بدور أساس في منع حدوث مضاعفات التراخوما. [انظر: د. الشطي: الطب النبوي، (ص ١٨٥)، ومصدره: العوضي: الطب النبوي، (ص ١٨٥)، ومصدره: العوضي: الطب الإسلامي، (ص ٤١٣- ٤١٧)].

٦٥- الصبر:

عن نبيه بن وهب، قال: خرجنا مع أبان بن عثمان، حتى إذا كنا بمَلَل اشتكى عمر ابن عبيد الله عينيه، فلما كان بالروحاء اشتد وجعه، فأرسل إلى أبان بن عثمان يسأله، فأرسل إليه أنْ أضْمِدْها بالصبر، فإن عثمان ﵁ حدَّث عن رسول الله ﷺ: «في الرجل إذا اشتكى عينيه وهو محرم، ضمدها بالصبر»[مسلم(١٢٠٤)].

بعد أربعة قرون من قول الرسول ﷺ عن الفائدة الطبية للصبر، قال ابن سينا في كتابه (القانون في الطب): (إنه ينفع من قروح العين وجربها وأوجاعها، ومن حكة المآق... ويخفف رطوبتها، وله قوة قابضة مجففة للأبدان منومة. والصبر الهندي كثير المنافع، مجفف بلا لذع، وفيه قبض يسير). [د. حسان شمس باشا: نبات الصبر بين الإعجاز النبوي والطب الحديث، مقال بمجلة التضامن الإسلامي، مكة، السنة (٤٨)، (ج٧)، محرم (١٤١٤هـ/ يوليو ١٩٩٣م)، (ص ٣٢-٣٣)].

وقال فيه الرازي: (... وهو أيضًا نافع للعين مجفف للجسد) [المصدر السابق].

وقال داود الأنطاكي: (والاكتحال به يحد البصر، ويذهب الجرب والحرقة، وغلظ الأجفان) [المصدر السابق].

واعترفت الأبحاث الحديثة من أمريكا بصحة هذه الوصفة الطبية النبوية. فقد نشرت مجلة (Cutis) الأمريكية الشهيرة مقالًا عن الصبر عام (١٩٨٦م)، جاء فيه: (... لقد تبين من خلال الدراسات السريرية الحديثة، أن للصبر دورًا في معالجة الالتهابات الجلدية الشعاعية، وسحجات الجلد السطحية، وفي تقرحات قرنية العين، وفي قروح الرجلين...) [المصدر السابق].

وقد اكتشف العلماء وجود أربع مواد كيميائية فعالة في الصبر، وهي:

أ. برادي كينيار: مادة تزيل الألم والحكة والاحتقان، ولها فعل مقبض للشرايين، مما يخفف الانتفاخ والاحمرار الحاصل مكان الالتهاب، ولذا ترى شركات التجميل تدخل مادة الصبر في المستحضرات التي تعالج حرق الشمس.

ب. لاكنات المغنزيوم: مادة تمنع تشكل الهيستامين (وهي المادة التي تسبب الحكة في الجلد). ويفسر لنا هذا فاعلية الصبر في علاج لدغات الحشرات.

ج. مضاد البروستانلاندين: مادة مخففة أيضًا للألم والالتهاب، مثلما تفعل حبوب الأسبرين.

د. مادة الأنتراكينون: يعزى لها الفعل المسهل للصبر.

وأثبتت الأبحاث الطبية الحديثة: أن الصبر يفيد في علاج التهاب المفاصل الرثواني. وهو مرض مؤلم جدًا، قد يؤدي إلى حدوث تشوه في المفاصل، وإعاقة شديدة في حركتها، ويصيب المفاصل الصغيرة في اليدين والقدمين بشكل خاص. [د. حسان: نبات الصبر... نفسه، (ص ٢٣)].

٦٦- عدم الاتكاء أثناء الأكل:

قال ﷺ: «**لا آكل متكئًا**» [البخاري ٥٠٨٣].

ثبت علميًا أن سير الطعام عبر المريء، واستقبال المعدة له في حالة انتصاب الجسم جلوسًا، يساعد على عمليات الهضم في سهولة ويسر، بخلاف الأمر عند الاتكاء أو الوقوف أو السير أثناء الأكل. [مجلة العلم والإيمان، عدد (١٧ سنة ١٩٧٧م)، (ص ٢٤)].

٦٧- تحريم أكل لحم الجوارح وكل ذي ناب:

قال ﷺ: «**حرم على أمتي كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع**» [مسلم (٤٩٧٠) وغيره].

ولقد أثبت علم التغذية الحديث: أن الشعوب تكتسب بعض صفات الحيوانات التي تأكلها، لاحتوائها على سميات ومفرزات داخلية تسري في الدماء، وتنتقل إلى

معدة البشر، فتؤثر في أخلاقهم [عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام (ص ٨٣-٨٤)].

٦٨- الإعجاز العلمي الطبي في الاستنشاق والاستنثار في الوضوء:

قال ﷺ: **«أسبغ الوضوء، خلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائمًا»** [الترمذي؛ أبو داود؛ النسائي؛ ابن ماجه؛ أحمد (٤/ ٣٣) - صحيح].

إن هذه الطريقة في الوضوء فوائد طبية كثيرة، منها: أنه يزيل المفرزات المتراكمة في جوف الأنف؛ والغبار اللاصق على غشائه المخاطي، كغبار المنزل والطلع وبعض بذور الفطريات والعفنيات المتناثرة في الهواء. يرطب جوف الأنف للمحافظة على حيوية الأغشية المخاطية داخله، كما أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به.

ولقد أثبتت الدراسات والبحوث: أن أنوف من لا يصلون، وبالتالي لا يتوضؤون، تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة من الجراثيم العنقودية والمكورات الدموية والمزدوجة (والدفترويد والبروتيوس والكلبسبيلا)، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أي مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم، ما لبث أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح.

كما أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق، وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خاليًا تمامًا منها، لذا فقد وصى النبي ﷺ بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثًا، ليتم بهذا القضاء على مخزن من مخازن الكائنات الدقيقة في هذا المكان المهم والحيوي، إذ هو المدخل للجهاز التنفسي [يوسف الحاج: الإعجاز

(٢/ ٧٣٤)؛ مجلة المعجزة، عدد (٨- جمادى الآخـرة ١٤٣٢هـ/ مـايو ٢٠١١م) - (ص ٤٩-٥٤)، بتفاصيل مهمة].

٦٩- الإعجاز العلمي الطبي في نضح بول الصبي الرضيع الذي لم يأكل الطعام، وغسيل بول الصبية الرضيعة قبل أن تأكل الطعام:

جاءت أحاديث من رواية أم الفضل [متفق عليه؛ أحمد؛ أبو داود]، وأم الفضـل [أحمـد، وأبو داود، والحاكم. صحيحة]، ولبابة بنت الحارث، وعلي بن أبي طالب [الحاكم، والترمـذي حسن، وصححه على شرط الشيخين]، وغيرهم.

استخدم الطب تقنية البروف: هانز كريستيان جرام، الذي اكتشف عن طريقهـا في عام (١٨٨٤م) الصبغ البكتريا وتصنيفها إلى النوعين المعروفين إلى اليوم في كافة المعامل العالمية: جرام سالب (حمراء اللون)، وجرام موجب (بنفسجية اللون).

ومنها تمت التجربة، فإذا ما في بول الذكور والإناث من البكتريا إنما هي مـن النـوع الأحمر (سالبة الجرام)، ولا أثر ألبتة للون البنفسجي.

وتقطع الفحوصات الطبية المجهرية: أن بول الرضيعات الإناث يحمل من الجـراثم نسبة تزيد (٩٥٪) على جراثيم الرضع الذكور.

وأثبتت التجارب تزايدًا مضطردًا في عدد الميكروبـات في بـول الـذكور مـع تقـدم العمر، بينما تتناقص في بول الإناث، مما يوجـب غسـيل الثـوب مـن بـولها دون تفرقـة عقب الفطام، هكذا أخبر المعمل، شاهدًا للنبي ﷺ بالرسالة!!.

وتقـول المجـاهر الحديثـة: إن هـذا النـوع مـن البكتريـا لا يوجـد إلا في فضـلات المراحيض، وهو السبب في الرائحة العفنة للبراز بالذات، وهو من أشرس وأشد أنـواع الجراثيم العدوانية فتكًا، والمتسبب الرئيس في سائر التهابات المثانـة والكليـة والحالـب

والجهاز البولي؛ واسمه: بكتريـا المرحـاض (القولـون). وسـبحان الله العظـيم القائـل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾[الأعراف:١٨٥].

٧٠- الإعجاز العلمي الطبي في الثُّفاء:

قال ﷺ: «عليكم بالثُّفاء، فإن الله جعل فيه شفاءً من كل داء» [ابن السني: عمل اليوم والليلة- الطب، ضعفه الألباني؛ وأبو نعيم: في الطب من دلائل النبوة - ضعيف؛ السيوطي: الجامع الصغير - ضعيف]؛ وفي رواية: **«ماذا في الأمرَّين من الشفاء: الصبر، والثُّفاء»** [أبو داود: المراسيل (٤٧٧) - قلت: ومعناه صحيح لكثرة فوائده؛ البيهقي «السنن» (٩/ ٣٤٦)، ونقله عنهما السيوطي في الجامع الصغير (٧٩٠٦)، وضعفه حمدي الدمرداش محمد، والألباني في ضعيف الجامع (٥٠٦٧)، والسلسلة الضعيفة (٤٤٤٢)].

يعرف الثفاء بـ: حب الرشاد. ومن فوائده الطبية: تناوله ساخنًا يلين البطن، ويخرج الدود، ويحرك شهوة الجماع، وإذا طبخ مع الحساء أخرج الفضول من الصدر، ويمسك تساقط الشعر؛ وإذا تضمد به مع الماء والملح أنضج الدمامل؛ ينفع الربو وعسر التنفس؛ وينقي الرئة، ويدر الطمث.

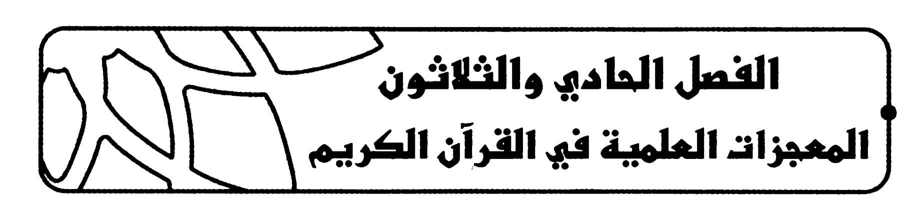
وإن شرب منه بعد سحقه وزن خمسة دراهم بالماء الحار أسهل الطبيعة، وحلل الرياح، ونفع من وجع القولنج البارد؛ إذا سحق وشرب نفع من البرص، وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض نفع منهما، ونفع من الصداع الكائن من البرد والبلغم، يؤكل من غير طبخ، ويجب ألا يضاف إليه الملح للاستفادة من خواصه الطبيعية.

وتفيد مادة اليخضور الموجودة فيه امتصاص الروائح من الجسم، كما أن أوراقه مدرة للحليب عند المرضعات.

غني بمادة اليود، مما يجعله سهل الهضم، كما يحتوي على الحديد والكبريت والكلس والفوسفور والمنغنيز والزرنيخ، وغني بفيتامين (ج، C). ويحتوي على عنصر من

المضادات الحيوية المبيدة للجراثيم، مفيد لعلاج فقر الدم، خافض للضغط، كما يرى د. جان فالينه [يوسف الحاج: الموسوعة، (ص ٨٤٤-٨٤٥)، ومن مراجعه: الكحال بن طرخان: الأحكام النبوية في الصناعة الطبية... إلخ].





الفصل الحادي والثلاثون
المعجزات العلمية في القرآن الكريم

القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى، والدليل على صدقه وعلى وجود الله تعالى، أما الأمثلة التي يمكن ذكرها باختصار، والخاصة بالحقائق العلمية التي يثبتها الطب الحديث فهي كثيرة، وسنتحدث عنها في المبحث التالي:

المعجزات الخاصة بالحقائق العلمية التي أثبتها الطب الحديث:

الأول: أوصاف الجنين في رحم أمه:

يقول المولى عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون:١٢-١٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[الحج:٥] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج:٦] ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج:٥-٧].

ولقد كتبت الأبحاث والكتب في هذه المعجزة، وخاصة تناولها في كتب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وكانت هذه المعجزة سببًا في إسلام كثير من كبار العلماء المستشرقين، أو غيرهم من كبار العلماء في أوروبة وآسية وإفريقية.

ومثال ذلك: شهادة بوشي ردي كوزار - مدير مرصد طوكيو - الذي قال: (إنني لا أجد صعوبة في فهم أن القرآن كلام الله، فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع الميلادي، والاستنتاج الوحيد المعقول، هو أن تلك الأوصاف قد أوحيت إلى محمد بن عبد الله نبي الإسلام) [انظر: أ.د مهدي رزق الله، جهود المنصفين من المستشرقين في الإشادة برسول الإسلام محمد ﷺ يأتي ذكره].

أما فيما يتعلق بالإعجاز العلمي عمومًا وإثباته وجود الله ﷻ وصدق رسالة محمد ﷺ، فيمكن التمثيل لذلك من شهادات رجال عظماء أسلموا بسبب ذلك.

أ- الطبيب الفرنسي علي سلمان بنوا: الذي قال في سبب إسلامه: (بدأت قبل أن أسلم في دراسة القرآن بالعقلية الغربية المفكرة الناقدة، وإني مدين بالشيء الكثير للكتاب العظيم الذي ألفه السيد مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية)، فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحي من عند الله، وإن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحي إليه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ما يحمل النظريات نفسها التي كشفت عنها الأبحاث العلمية).

ب- حامد مرقص - ماركوس - الألماني، الصحفي والمؤلف، الذي قال عن الأسباب التي رغبته في اعتناق الإسلام: (إن الإسلام لم يدعو إلى مبادئ أو عقائد تتنافى مع العلم الحديث).

ج- الطبيب الفرنسي الكبير موريس بوكاي، صاحب كتاب (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، والذي كان الملك فيصل رحمه الله سببًا في حفزه على قراءة القرآن بلغته الأصلية، فتعلم اللغة العربية، وقرأ القرآن، ووقف على أسراره المعجزة في كافة المجالات العلمية، فأسلم، وكتب كتابه المذكور، الذي ترجم إلى عدة لغات، منها العربية والإنجليزية.

قال بوكاي هذا: إن من أسباب اعتناقه الإسلام: (اتفاق نص القرآن مـع معطيـات العلم الحديث -أي: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم).

د- الدكتور جرينييه، الذي كان عضوًا في مجلس النواب الفرنسي قال عنـدما سـئل عن سبب إسلامه: (إني قد تتبعت كل الآيات القرآنيـة ذات الارتبـاط بـالعلوم الطبيـة والصحية والطبيعية، التي درستها منذ صغري، وأعلمها جيدًا، فوجدتها متطابقـة كـل التطابق مع معارفنا الحديثة. فأسلمت، لأني تيقنت أن محمدًا ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل أكثر من ألف سنة، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشـــر؛ ولـو أن كـل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بـما تعلـم جديًا، كما قرأت أنا أيضًا، لأسلم بلا شك، إن كان عاقلًا وخاليًا من الأغـراض) [انظـر التبشير والاستشراق، أحقاد وحملات، لمؤلفه الشيخ د. عبد الحليم محمود، نقلًا عن: أسـاليب الغـزو الفكري، للدكتور علي جريشة؛ والزيبق، (ص٢٩)].

هـ- البروفسير بروسو يوشاديكروزاي، أحد مشاهير العلماء الاختصاصـيين في علـم الفلك، وقد شغل منصب مدير مرصد طوكيو الفلكي في اليابان، زار السعودية، وأجريت معه مناظرة علمية كبـيرة بجامعـة الملـك عبـد العزيـز، شـهدها حشـد كبـير مـن العلـماء المتخصصين في علوم الفلك والجيولوجيا، وإلى جانبهم بعض علماء المسلمين مثـل الشـيخ الدكتور عبد المجيد الزنداني، وبعد أن طرحـت علـيهم مفـاهيم القـرآن العلميـة في علـم الفلك والحقائق الكونية، وبعد أن تفهمها كروزاي بعمق، شرح الله تعالى صدره للإسلام، وكتب بخط يده قائلًا: (بعد أن قدمت إلى هنا، وجدت أن في القرآن حقائق علمية كثـيرة، والكون وما يحويه من كل شيء مشروح ومفسر في القرآن من أعلى نقطة في هـذا الوجـود، حتى أن كل شيء فيه أصبح مفهومًا، وإني أعلن إسلامي).

الثاني: ومن الأمثلة على الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، والدالة على وجود الخالق وصدق نبوة محمد ﷺ، علم البصمات.

مثل:

- **بصمة البنان البشري:** قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[القيامة:٤]. فقد أثبت العلم الطبي الحديث عدم تشابه بصمات البشر، ولذا يلحظ استخدام البصمات في التحقيق الجنائي لمعرفة مرتكبي الجرائم الذين يتركون وراءهم بصماتهم على الأشياء التي يمسونها بأيديهم.

- **بصمة الرائحة:** كما في قصة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، ومكان الشاهد قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾[يوسف: ٩٤].

- **البصمة الصوتية:** ومثالها قصة النملة مع سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾[النمل: ١٨].

وهكذا النملة تتعرف على صوت سليمان ﷺ من بصمة صوته؛ وقد أثبت العلم الحديث صحة هذه المعلومة، ولذا أصبحت البنوك في أوربا وأمريكا تخصص لبعض العملاء خزائن لا تفتتح إلا ببصمة الصوت، لأن بصمات البشر الصوتية لا تتشابه.

- **بصمة الشفاه:** لقد ثبت علميًا أن للشفاه بصمة مميزة، لدرجة أنه لا يتفق فيها اثنان في العالم!! تؤخذ حتى من أعقاب السجائر.

- **بصمة العين:** أثبت العلم التجريبي أنه لا يوجد تشابه بين العيون، وقد صُنع جهاز لهذا الغرض، يستفاد منه في التحقيق الجنائي.

- **البصمة اللونية:** قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾[الروم: ٢٢].

انطلاقًا من تفسير وتدبر هذه الآيـة الكريمـة، قـام البروفسـور اللـواء الطبيـب عمـر عبدالعزيز وفريقه بجامعة الرباط الوطني السودانية بدراستها، فوجدوا بعد تجارب علمية عميقة أجريت على ثلاثمائة توأم، بدا في الظاهر تشابه كل توأمين من حيث اللـون، ولكـن في الحقيقة يختلفون في ألوانهم، وقد أجريت مع الدكتور عمـر حـوارات تلفازيـة سـودانية عن هذا الكشف الإعجازي، الدال على أن القرآن الكريم يحمل في طياته وصـدقه إثبـات صحة نبوة الرسول محمد ﷺ، ووجود خالق لهذا الكون ومن فيه وما فيه.

وواصل الدكتور عمر أبحاثه في تفسير تدبر الآية السابقة، وتوصل إلى أن اخـتلاف الألسن يعني الاختلاف في بصمات الألسن مثلما هو في بصمات اليد البشـرية، وعرفـت بالبصمة اللسانية، وقد عرضت التجربة على إحدى القنوات السودانية.

- **البصمة الرحمية**: قال الدكتور عبد الباسط محمد السـيد، أسـتاذ التحاليـل الطبيـة بالمركز القومي بمصر، واستشاري الطب التكميلي: (إن العـالم روبـرت غـيلهم [زعيم اليهود في معهد إنشتاين الأمريكي، والاختصاصي في علم الأجنة] أعلن إسلامه بمجرد معرفـة الحقيقة العلمية والإعجاز القرآني في سـبب تحديـد عـدة الطـلاق للمـرأة بمـدة ثلاثـة شهور، والآية المعنيـة هنـا: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ﴾[البقرة:٢٢٨]. حيث أفاد المتحدث أن اقتناع العالم إليهم كان بالأدلة العلمية، التي مفادهـا أن اتصـال الـزوجين ينـتج عنـه تـرك الرجـل لبصمته الخاصة لدى المرأة، وأن كل شهر من عدم الاتصال البيولوجي يسـمح بـزوال نسبة معينة تتراوح ما بين (٢٥ إلى ٣٠٪)، وبعد الأشهر الثلاثة تزول البصمة كليًـا؛ ممـا يعني أن المطلقة تصبح قابلة لتلقي بصمة رجل آخر.

وتلك الحقيقة العلمية دفعت عالم الأجنة اليهودي للقيام بالتجربـة في حـي أفارقـة مسلمين أمريكان، تبين له أن كل النساء يحملـن بصـمات أزواجهـن فقـط، فـيما بينـت التجارب العلمية على نساء -متحررات وغير مسلمات-، أنهن يحملن بصمات متعـددة

من اثنين إلى ثلاث، مما يوضح أنهن يمارسن العملية الجنسية خارج الأطر الشرعية الزوجية، وأجرى التجارب على زوجته، وكانت الحقيقة المذهلة أن زوجته تحمل ثلاثة بصمات!! وأن واحدًا فقط من ثلاثة أبناء هو ابنه من صلبه! وعلى إثر ذلك اقتنع أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن للمرأة الحصانة، وأن المرأة المسلمة أنظف امرأة على وجه الأرض).

الثالث: اللبن [الحليب]:

وقد سبق ذكر الإعجاز في الحليب - حديث النبي ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[النحل:٦٦]. وقال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[المؤمنون: ٢١].

تشير آية النحل [٦٦] إلى أن مراحل تكوين الحليب مجملة في أربعة مراحل:

أ- مرحلة الهضم.

ب- مرحلة الاستخلاص من بين الفرث.

ج- مرحلة الاستخلاص من بين الدم.

د- مرحلة تصنيع الحليب في الضرع.

لقد خلص مؤلفو (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) -الزنداني ورفقاؤه - إلى وجه الإعجاز في هذا، قائلين (... ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح - وظائف الأعضاء- في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان، ووظائف ذلك الجهاز المعقد وعلاقته بالدورة الدموية ومراحل تكوين اللبن -الحليب- في بطون الأنعام، فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية

عبر قرون، عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث وتجري مع مجرى الدم، لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الإناث، التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن تبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغًا للشاربين.

كانت هذه الأسرار محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من التجارب والبحوث العلمية التي استغرقت قرونًا، واستخدمت فيها أجهزة صنعت لأول مرة على أيدي الباحثين لم يكن لها وجود عند البشر قبل ذلك، ولكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة.

فمن عَلَّم محمدًا ﷺ من بين سائر البشر في ذلك الزمن أسرار الجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز الدوري، ودقائق ما يجري في غدد اللبن، إلا الذي يعلم السر في الأرض والسماء، ويعلم أسرار ما خلق من الكائنات، فيكون ذلك شاهدًا على أن القرآن نزل بعلم الله العزيز الحكيم الخبير، وأن محمدًا ﷺ رسول الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[النساء:١٦١]).

الرابع: أثر القرآن الكريم في شفاء الأمراض:

قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الزمر:٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾[فصلت:٤٤].

إن من الدراسات الأبحاث العلمية التي أجريت في هذا المجال: ما قام به الـدكتور أحمد القاضي، رئيس مجلس إدارة معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث في أمريكـا، ومستشار عيادة (بنما سيتي) بولاية فلوريدا الأمريكية من تجـارب علميـة حـول تـأثير القرآن الكريم على الإنسان فيزيولوجيًا ونفسيًا على مرحلتين.

المرحلة الأولى: وهدفها إثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسم، وقياس هذا الأثر إن وجد، فكانت النتـائج أن (٩٧٪) ممـن أجريـت علـيهم البحـوث سواء كانوا مسلمين أم غير مسـلمين، وسـواء كـانوا يعرفـون العربيـة أم لا يعرفونهـا، ظهرت عليهم تغيرات وظيفية تدل على درجة التـوتر العصـبي التلقـائي، حيـث كـان للقرآن الكريم أثر مهدئ للتوتر، تم تسجيله بأحدث أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالحاسب الآلي لقياس أي تغيير في فيزيولوجية وظائف أعضاء الجسم.

ومن المعروف: أن التوتر يؤدي إلى نقص المناعة في الجسم، ممـا يتسـبب في إحـداث خلل في التوازن الداخلي الوظيفي للجسم، وبذلك فـإن الأثـر القـرآني المهـدئ للتـوتر يمكن أن يؤدي إلى تنشيط وظائف المناعة في الجسم لمقاومة الأمراض، أو الشفاء منها.

المرحلة الثانية: وهدفها معرفة ما إذا كـان الأثـر المهـدئ للتـوتر ومـا يصـحبه مـن تغييرات في وظائف الأعضاء، عائدًا إلى الكلمات القرآنية في حد ذاتها بغض النظـر عـما إذا كانت مفهومة أو غير مفهومة لدى السامع، فتم تلاوة آيات قرآنية وقراءات باللغـة العربية على متطوعين غير مسلمين، ومن غير الناطقين بالعربية، بحيث تكـون مطابقـة للقراءات القرآنية من حيث اللفظ والصورة والواقع على الأذن، ولم يكـن في اسـتطاعة المتطوعين أن يميزوا بينها لجهلهم بالعربية، فكانت النتائج ايجابية كالتالي:

نسبة الأثر المهدئ للتوتر للقرآن الكـريم عـلى المتطـوعين (٥٦٪)، في حـين كانـت النسبة في القراءات غير القرآنية المقاربة في اللفـظ (٥٣٪)، وقـد قـدمت هـذه النتـائج

للمؤتمر السنوي السابع عشـر للجمعية الطبيـة في [سـانت لـويس] بولايـة ميسـوري.
[موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة: يوسف الحاج أحمد (ص ٥٩٨-٥٩٩). وانظر: تفاصيل طرق الوصول إلى هذه النتائج، (ص٥٩٩-٦٠١)].

الخامس: أثر القرآن الكريم في الصلاة الخاشعة على الجسم:

لقد توصلت الأبحاث العلمية الطبية الحديثة إلى أن الخشوع في الصـلاة يـؤدي إلى تنشيط واضح في المراكز التي لها علاقة بالمشاعر الإيجابية كالرحمة والشفقة.

عرضت هذه النتيجة في البرنامج الذي يقدمه أحمد الشقيري، بعنـوان: (خـواطر)، في رمضان عام (١٤٣٥هـ). وخلاصة التجربة كالتالي:

وضع مادة: [Radio active] في الدم. تسـير هـذه المـادة في الـدورة الدمويـة إلى المخ، يتم بعد هذا عمل صورة للمخ، ثم يوضع في جهاز لمدة ساعة أو (٤٥) دقيقة، ثـم تؤخذ صورة للمخ، وبعدها يصلي المتطوع صلاة بدون خشوع، وبعدها تؤخـذ صـورة للمخ، والنتيجة لا يوجد تغيير، وبعدها قام المتطوع بأداء صـلاة خاشـعة، ويـتم عمـل صورة للمخ، وهنا كانت المفاجأة بوجود تغير جذري في المخ، يتمثل في الآتي:

١- قل النشاط في الجزء المخصص للتفكير، أي أصبح أقل حيوية.

٢- قامت وظائف الجسم بالاستسلام للنشاط الـذي تقـوم بـه -وهـو الصـلاة-.

فقراءة الآية: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بخشوع، عنيت الاستسـلام النفسيـ والروحـي لمالك هذا اليوم، وهـو الله ﷻ، وقـراءة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾: استسـلام المصلي لله تعالى أثناء الصلاة الخاشعة. ويدعو: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ دعوة: يا الله بعدما أخرج من الصلاة وأعيـد تنشـيط الجـزء الأسـاسي مـن حيـاة الإنسـان، وهو التفكر.

وعندما أرجع وأفكر في أمور حياتي والمشاكل: أهدني الصراط المستقيم. فالخشوع يؤدي إلى تنشيط واضح في المراكز التي لها علاقة بالمشاعر الإيجابية كالرحمة والشفقة.

إن تكرار الاسمين: الرحمن، الرحيم، من أسماء الله الحسنى، في كل ركعة، يجسد مفهوم الرحمة الإلهية، وبالتالي إذا صلى الإنسان بخشوع تتجسد هذه الرحمة في دماه، وهذا مؤشر إلى أن الإنسان الخالي من الرحمة، والذي يصلي خمس مرات على الأقل في اليوم، ليسال نفسه قائلًا لها: ماذا فعلت صلاتك لهذا الجزء من دماغك، لِمَ لَمْ تنشطه؟!

ويؤدي الخشوع أيضًا إلى الانخفاض الواضح في نشاط الجزء السفلي، والذي يتناسب مع مشاعر الاستسلام.

إن التواصل والصلة تزيد في الصلاة، تزيد الصلة بالله، ويقل الجزء المسئول عن الاستقلالية في الدماغ، فتزيد صلة العبد بربه. إن ما يحدث في الدماغ ووظائف العقل، هو تمامًا ما تعنيه أول سورة في القرآن، وهي الفاتحة.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[العنكبوت:٤٥].

وهناك تجربة عملية عن أثر الدعاء -الابتهال إلى الله تعالى-، وتلاوة القرآن، والصلاة الخاشعة -صلاة الحاجة- في شفاء مريض السرطان.

(طبيب مسلم يكتشف سرًا هامًا في لندن لعلاج مريض من سرطان الدم)، تحت هذا العنوان نشرت مجلة الاعتصام [عدد صفر (١٤٠٦هـ/ نوفمبر وديسمبر ١٩٨٥م)]، قصة فحواها: أن أحد مرضى السرطان -باكستاني- في بريطانيا، كشفت التحليلات المختلفة عن انتشار مرض سرطان الدم في جسمه بشكل ملحوظ، مما دعا الاستشاري البريطاني بالمركز العالمي إلى استبقاء المريض بالمركز وإعطائه العلاج المناسب للحد من انتشار



المرض، ومحاولة السيطرة عليه، وعندما علم المريض بحقيقة مرضه ومدى خطورته التي تكمن في عدم إمكان السيطرة على المرض، وأن وفاته ستكون خلال فترة محدودة، عندما علم المريض بهذه الحقائق الطبية، اتجه إلى الله تعالى بالدعاء وتلاوة القرآن والصلاة الخاشعة، مؤمنًا بأن شفاءه في القرآن: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢].

ومن العجيب -والكلام هنا للدكتور سالم اليافعي، مساعد الاستشاري البريطاني- أن أحد المرضى، وهو بريطاني الجنسية، كانت لديه الحالة نفسها تقريبًا، وعندما علم بتفاصيلها انهار تمامًا، ونقص وزنه، وضعف بدنه حتى مات بعد ستة شهور، في حين أن المريض المسلم المؤمن بربه، كانت التحليلات الأسبوعية تثبت وقف انتشار المرض وانتهاءه بعد أقل من ستة أشهر، خرج بعدها من المستشفى متوجهًا إلى بيت الله الحرام ليؤدي عمرة الشكر لله تعالى.

فالدعاء واللجوء إلى الله تعالى بصدق ويقين وإيمان يثير ويفجر قوى سرية في جسم الإنسان تقوى بها مناعته، وذلك بفرز هرمونات ومواد كيميائية داخلية تضفي عليه حيوية عجيبة، وهذا مما دفع د. اليافعي إلى تقديم بحث بعنوان: (القرآن والسرطان)، في المؤتمر العالمي الثالث للطب الإسلامي، الذي عقد في تركيا، في أكتوبر (١٩٨٤م)، تناول فيه تأثير القرآن في المعالجات الطبية للأمراض، لاسيما السرطان [د. محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية، (ص ١٥٥-١٥٦)].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي [في كتابه: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان، (ط٥)، (ص ٣٧٠)] عند كلامه عن (العبادات شفاء من أمراض كثيرة): (ولا أنسى أن امرأة ذهبت إلى بلد غربي لتعالج من مرض، ألا وهو داء الشقيقة -الصداع النصفي-، آلام مستمرة في الرأس، طبيب لا يعرف الله عز وجل سألها:

من أين أنت؟ فقالت: من سورية، قال: أتصلين؟ قالت: لا، فقال: صلي يذهب ما بك! فعجبت وانزعجت، عجبت من أنها ركبت الطائرة، ودفعت آلاف الليرات ليقال لها: صلي، ولكنها لم تعجب حينما بين لها الطبيب أن أحد أسباب الشقيقة ضعف في تروية الشرايين في الدماغ، وأن السجود يوسع هذه الشرايين، ويجعل الدم يتدفق نحو الرأس، فبهذا السجود، وذاك الركوع، وهذا الوضوء، هذا كله في أصله عبادات، وقربات، واتصال بالله، ولكن لو درسه علماء اختصاصيون، وعلماء في التربية البدنية، وعلماء في أمراض الأوعية والشرايين لوجدوا العجب العجاب).

ويذكر د. النابلسي [المرجع السابق، (ص ١١٩)]: أن ثمة دراسة أجريت في جامعة أمريكية عن أثر الصلاة والدعاء في تخفيف الآلام، والدراسة موضوعية (١٠٠٪)، والتعليل الطبي: هناك بوابات للألم، والألم له مسار من النهايات العصبية إلى النخاع الشوكي، على البصلة السيسائية، إلى قشرة الدماغ، هذا طريق الآلام، وعلى هذه الطريقة بوابات.

هذه البوابات تتحكم بها الحالة النفسية للمريض، فإذا كان مؤمنًا، وراضيًا بقضاء الله وقدره، أغلقت هذه البوابات، فلم يصل من الألم إلى قشرة الدماغ إلا النزر اليسير، وهذا شيء ثابت، فالذي يتمتع بإيمان قوي تكون آلامه الحسية الناتجة عن بعض الأمراض أقل بكثير، لأن بوابات الألم مغلقة عنده، وهذا ما أكدته هذه الدراسة، فالعلاج عن طريق الصلاة والدعاء يخفف الآلام التي يتحسسها المريض العادي، وتأثر إيجابيًا (٥٧٪) ممن شارك في التجربة.

السادس: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم اللواط:

قال الله تعالى في تحريم اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

النظرة العلمية:

يرى علماء الاجتماع، أن هذه الفاحشة المنكرة التي تنفر منها الطباع الكريمـة، هـي أسوأ ما ينزل الإنسان إلى أحط الحضيض من الكرامة الآدمية، وأن إشـاعتها وتفشـيها وتعودها يؤدي إلى تعطيل سنة الزواج التي هـي سـنة الله تعـالى في خلقـه، والتـي هـي طريقة التناسل الطبيعية والتكاثر الذي عليه عمارة الأرض وإصلاحها.

ثم إن علماء الطب: يرون في جريمة اللواط من الأخطار الصحية لفاعلها مثلما يصيب الزناة، من أمراض جنسية خبيثة يصعب البرء منهـا، مثـل: الزهـري والسـيلان والقرحـة والجرب، كما أنه يفقد الإنسان السيطرة على عملية التبرز، فيحدث منه عن غير إرادة، وقد يفضي الأمر بالمجني عليه في هذا الفسق أن يصبح مخنثًا إذا لزمته هذه العـادة منـذ صـغره، ويفقد بذلك رجولته [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ١٢١)].

ومن أخطر الأمراض التي اتضح أن اللواط ينقلها بين الشواذ، وهو مرض الإيـدز -نقص المناعة المكتسبة- طاعون العصر!!.

السابع: براءة اختراع دولية لقطرة عيون قرآنية:

قال الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[يوسف:٨٤].

هذا هو المرض الذي أصاب يعقوب، المياه البيضاء.

والحزن من بين مسببات هذا المرض، حيث أنه يسبب زيادة هرمون (الأدرينـالين)، ويعتبر هذا مضادًا (للأنسولين)، وبالتالي فإن الحزن الشديد أو الفرح الشـديد، يسـبب زيادة مستمرة في هرمون (الأدرينالين)، الذي يسبب بدوره زيادة في سكر الـدم، وهـو أحد مسببات العتامة، هذا بالإضافة على تزامن الحزن مع البكاء.

وكان ما فعله يوسف ﷺ بوحي من الله تعالى، أن طلب من إخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[يوسف:٩٣]

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[يوسف:٩٤-٩٦].

من هنا كانت بداية بحث د. عبد الباسط محمد سعيد -الباحث بالمركز القومي للبحوث بمصر-، إلى أن توصل إلى قطرة من العرق تشفي هذا المرض، نال بها براءة اختراع أوروبية عام (١٩٩١م)، وأمريكية (١٩٩٣م).. [فارس].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء:٨٢].

الثامن: من الأسرار المعجزة في صلاة المسلمين:

يقول الدكتور عمر عبد الكافي -على اليوتيوب-: اجتمع اثنا عشرة عالمًا من شتى التخصصات، منذ أربع سنوات في سويسرا، وأخذوا يفكرون في كيفية معالجة الآثار السالبة والضارة بصحة الإنسان من جراء استخدام الهواتف النقالة ومشاهدة التلفاز، إذ أن هذه الأجهزة تخرج منها موجات كهرومغناطيسية ضارة بصحة الإنسان، اجتمعوا وقرروا -وليس من بينهم عالم مسلم-، أن التخلص من هذه الموجات يكون بممارسة حركات رياضية عدة مرات في اليوم، وتشبه حركة السجود في صلاة المسلمين، **ولكن بشروط ثلاثة، هي**:

١- أن تكون هذه الحركة على الأرض.

٢- أن تكون على أعظم سبعة: الوجه - اليدين - الركبتين - القدمين.

٣- أن يتجه إلى كعبة المسلمين برأسه، لأنها مركز مغناطيس الكرة الأرضية. وإذا انصرف رأسه في غير اتجاه مركز الطاقة -أي: الكعبة- فلن تنصرف منه هذه الطاقة الضارة!!

لم يقرأ هؤلاء كتبًا في فقه العبادات الإسلامية!! ولكن الله تعالى قادهم إلى هذه الحقيقة المدهشة حقًا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨].

التاسع: الاستعاذة من شر القمر في أيامه البيض:

قــال تعــالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق:١-٣].

وقال الرسول ﷺ - وهو آخذ بيد عائشة رضي الله عنها -: «يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا -وأشار إلى القمر-، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» [صحيح الجامع (٧٩١٦)، وجاء في تفسير معنى (الغاسق إذ وقب): الليل إذا أقبل].

وقال قدامة بن ملحان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام الأيام البيض الثلاثة -١٣و ١٤و ١٥- ويقول: «هن صيام الدهر».

والسؤال الذي يطرح نفسه في ضوء الآية الكريمة المذكورة والحديثين النبويين المذكورين، هو: ما الشر الكامن في القمر في أيامه البيض، وما حكمة صيام الأيام البيض بالذات؟!

لعل الجواب عن هذا السؤال هو نتائج أبحاث الدكتور ليبر [اختصاصي علم النفس بميامي الأمريكية]: (التأثير القمري) و(الجنون القمري)، وخلاصتها: إن أخلاط الجسم تكون هائجة في منتصف الشهر القمري، لتزايد النور في جرم القمر، وحتى هيجان البحر يكون في هذه الأيام، وقمة المد البحري، ولأن (٨٠٪) من مكونات الجسم من الماء، فكذلك هيجان النفس البشرية.. والعلاج: الصيام الذي تقل فيه المياه في الجسم.

وأخذ الباحث ملفات دوائر الشرطة في الأيام التي تقابل الأيام البيض، فوجد أن نسب الحوادث أعلى بكثير من بقية الأيام، خاصة بين مدمني الكحول، والميالين إلى الحوادث، وذوي النزعات الإجرامية، وأولئك الذين يعانون من عدم الاستقرار العقلي والعاطفي.

وقد سبق ابن سينا في كتابه: (القانون) ليبر في مسالة وقت هيجان الأخلاط، إذ قال عند كلامه عن الحجامة: (ويؤمر باستعمال الحجامة، لا في أول الشهر، لأن الأخلاط لا

تكون قد تحركت وهاجت، ولا في آخره، لأنها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر، حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها، لتزايد النور في جرم القمر...) [بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى، العدد رقم (٥٠)، رجب (١٤٣١هـ)، بعنوان: (الإعجاز الرقمي والزمني في السنة النبوية)، د. محمد بن ظافر بن عبد الله الشهري]، وقد تصدى د. محمود عبد الله نجار في مقال له على النت - مخطئًا ليبر وغيره على النتائج والأقوال المذكورة.

العاشر: أهمية الرضاعة الطبيعية وفوائدها:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

تذكر منظمة الصحة العالمية، أن عشرة ملايين طفل، يتوفون في العالم الثالث سنويًا؛ نتيجة أمراض الجهاز الهضمي والإسهال، وأغلب هذه الوفيات ناتجة عن تغذية الأطفال بالألبان المصنعة بواسطة القارورة، حيث لا يتم التعقيم كما ينبغي، وتكون الكمية من اللبن مخففة بالماء، وتسبب إصابة أكثر من تسعة ملايين طفل بنقص شديد في التغذية، مما يؤدي إلى إصابتهم بالعديد من الأمراض والوفيات المبكرة.

ولذا ترى المنظمات الصحية العالمية التي تعنى بشؤون الأطفال وصحتهم، مثل: اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية، أن إرضاع المواليد من أمهاتهم لمدة عامين، سينقذ بإذن الله تعالى أكثر من عشرة ملايين طفل يتوفون سنويًا بسبب الإسهال وسوء التغذية، وأمراض أخرى كثيرة.

وتذكر مجلة (اللانسيت) الطبية البريطانية المشهورة، في افتتاحيتها عام (١٩٩٤م)، أن الرضاعة تنقذ مليونًا من الأطفال، بما توفره من تحسين جهاز المناعة، وهذا الرقم غير الملايين العديدة الذين يمكن أن تنقذهم الرضاعة، والذين يتوفون نتيجة الإسهال والأمراض المعدية الأخرى. [يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة (٢/ ٧٣٩)].

وقد أوجز يوسف الحاج أحمد في موسوعته المذكورة [٢/ ٧٩٤-٧٩٦] فوائد الرضاعة الطبيعية، في ثماني عشرة نقطة فيما يتعلق بالطفل الرضيع، وفي إحدى عشرة نقطة تتعلق بالأم والمجتمع.

ومن الفوائد المتعلقة بالطفل الرضيع من حيث حليب الأم:

١- أنه جاهز التعقيم، بينما ألبان القارورة تحتوي على العديد من الميكروبات، خاصة في العالم الثالث؛ والتعقيم يخفض حدوث الالتهابات الميكروبية.

٢- يحتوي على مضادات الأجسام، والبروتينات المناعية، ومجموعة كبيرة من خلايا الدم البيضاء المقاومة للأمراض؛ إضافة إلى أكثر من مائة إنزيم.

٣- يحتوي على بكتيريا مفيدة تدعى العصية اللبنية المشقوقة، تقوم بوقاية الطفل من كثير من أمراض الجهاز الهضمي.

٤- يحتوي على مادة الإنترفيرون المهمة التي تقاوم الفيروسات.

٥- يحتوي على مواد مضادة للسموم، خاصة سموم بكتريا (ضمات) الكوليرا.

٦- لا يسبب أية حساسية للطفل، بينما (٣٠٪) من متناولي الألبان المجففة يصابون بالحساسية.

٧- فقير في الحامض الأميني فينايل الآنين، مما يقلل أية مضاعفات خطيرة عند الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي يسمى (بيلة فينايل كيتون).

٨- غني بالزنك، الذي تختفي معه أية مظاهر للأمراض الوراثية.

٩- تكثر وفيات المهد بين الأطفال الذين يتغذون على غير لبن الأم.

١٠- يندر الإمساك بين أطفال الرضاعة الطبيعية.

١١- تساعد الرضاعة الطبيعية على سلامة الفك، وحسن نمو الأسنان.

١٢- تحمي الرضاعة الطبيعية من مجموعة خطيرة من الأمراض، مثل سكري البول (النوع الأول)، وتصلب الشرايين، وبعض أنواع السرطانات، والسمنة، وتخفف من

وقع أمراض وراثية كثيرة وخطيرة، مثل: التليف الكيسـي، ومـرض سـبلياك (المـرض الجوفي) الذي يصيب الجهاز الهضمي، والأمراض التي سبق ذكرها.

١٣- يحتوي حليب المرضعة على كمية ذائبة من فيتامين (د)، يسهل امتصاصها، فيقي من مرض الكساح، الذي يحدث بنسبة غير قليلة بين الأطفال متناولي الألبان المجففة.

١٤- يحتوي حليب الأم على مادة (لاكتوفرين) التي تساعد على امتصاص الحديـد بصورة أفضل، مقارنة بمن يتغذون على لبن الماشية.

١٥- تؤدي الرضاعة غير الطبيعية إلى زيادة في عدد من الهرمونات في جسم الطفل، مثل: الأنسولين، والموتولين، والنيوروتنسين.

١٦- يحتوي حليب الأم على أحماض دهنية غـير مشـبعة وحيـدة ومتعـددة، وهـي مهمة لبناء الجهاز العصبي، بينما يحتوي لبن الأبقار على أحماض دهنية مشبعة لها علاقـة فيما بعد بتصلب الشرايين والسمنة، كما توجد في لبن الأم خمائر خاصة تساعد على تحلل الدهون ويسر امتصاص الكالسيوم.

١٧- يحتوي حليب الأم على المعادن المطلوبة بكميات متناسـبة ومتناسـقة يتيسـر امتصاصها، أما لبن الأبقار فيحتوي على كميات أكبر غير مفيدة، بـل ترهـق الكليـة في محاولة طردها، وهذا مما يعرض الكلى للأمراض.

١٨- يكـون الأطفـال الـذين يحرمـون مـن الرضـاعة الطبيعيـة، أكثـر عرضـة للاضطرابات النفسية والسلوكية والانحراف.

أما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للأم:

١- لا يحتاج حليب الأم على تحضير ومعاناة، فهو جاهز ومعقم.

٢- تنبه عملية الرضاعة أثناء مص الثـدي الغـدة النخاميـة الخلفيـة لتفـرز هرمـون الأوكسيتوسن، المهم جدًا لإعـادة الـرحم المتضـخم بعـد الـولادة إلى حجمـه ووضـعه

الطبيعي، وبالتالي يمنع النزف الشديد أثناء النفاس، كما أنه يقـي الأم مـن حمـى النفـاس الخطيرة.

٣- يعود جسم المرضعة إلى وضعه الطبيعي كما كان قبل الحمل.

٤- تقوم الرضاعة الطبيعية بدور وقائي للحماية من سرطان الثدي والرحم.

٥- تقي الرضاعة الأم من الجلطات التي تحدث أثناء فترة النفاس.

٦- تعتبر الرضاعة التامة خلال الشهور السـتة الأولى، مـن أهـم وأفضـل وسـائل منع الحمل.

وأما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للمجتمع:

١- توفير ثمن الألبان المجففة التي تبلغ آلاف الملايين من الدولارات سنويًا.

٢- توفير آلاف الملايين من الدولارات التـي تنفـق سـنويًا عـلى عـلاج الأمـراض الخطيرة، الناتجة عن التغذية بالقارورة.

٣- إنقاذ حياة ملايين الأطفال الذين يتوفون بسـبب عـدم التعقـيم والإسـهالات والإنتانات المختلفة.

٤- إنقاذ اليافعين والشباب من الانحرافـات النفسـية والسـلوكية، ولهـذا مـردود اجتماعي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنويًا.

٥- تقلل من إصابة البالغين بأمراض عديـدة خطـيرة، مثـل: تصـلب الشـرايين، والبول السكري، وسرطان الثدي والرحم، ولكل هذه مردود صحي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنويًا.

الحادي عشر: الإعجاز العلمي الطبي في أن أقل مدة للحمل ستة أشهر:

قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف:١٥]؛ وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]؛ وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[البقرة: جزء من الآيـة:٢٣٣]. فـإذا حذفنا مدة الإرضاع الكاملة وهي حولين، أي (٢٤) شهرًا من (٣٠) شهرًا، التـي هـي

مدة الحمل والإرضاع معًا، فإذن يبقى ستة أشهر، وهي مدة الحمل التي يمكن للجنين أن يبقى حيًا إذا ولد بتمامها.

وقد اعتمد الصحابة ﷺ هذا الفهم الذي أفتى به ابن عباس، وذلك عندما هم عثمان بن عفان ﷺ بتطبيق حد الزنا على امرأة ولدت لستة أشهر، ظنًا منه أن بداية حملها قبل الزواج، فقال ابن عباس ﷺ: «أما أنها لو خاصمتكم بكتاب الله لخاصمتكم، قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر»، فبرئت المرأة.

والإعجاز هنا: أن الطب الحديث قرر أن أقل مدة للحمل يمكن أن يبقى بعدها الجنين حيًا إذا ولد بتمامها هي ستة أشهر، فالولادة قبلها تسمى إسقاطًا، والجنين فيها غير قابل للبقاء حيًا، والولادة بعدها وقبل تمام الحمل لتسعة أشهر تسمى خِداجًا أو ولادة مبكرة؛ والخديج قابل للبقاء حيًا، لكن الطب يوصي بعناية خاصة به، خاصة إذا ولد لسبعة أشهر، فإنه يعيش بإذن الله تعالى، وهكذا سبق القرآن الكريم وفهم الصحابة ﷺ الطب الحديث!! [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ١٢٧)، ومرجعه: أبحاث الدكتور محمود ناظم النسيمي: مدة الحمل من الناحية الطبية والفقهية والقانونية - رسالة جامعية].

الثاني عشر: الإعجاز العلمي الطبي في (الناصية):

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾[العلق:١٥-١٦]؛ وقال تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾[هود:٥٦]؛ وقال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾[الرحمن: ٤١]. وفي الحديث النبوي الشريف: «... **ناصيتي بيدك**» [أحمد: المسند (١/ ٣٩١)، وصححه الألباني ومحققو الموسوعة الحديثية]. والناصية منبت الشعر في مقدم الرأس، أو مقدمة الرأس. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة.

ووجه الإعجاز في الآيات المذكورة والحديث الشريف: هو أنها أشارت بدقة علمية متناهية إلى أن القشرة الجبهية الأمامية المختفية في عمق ناصية الإنسان، هي مركز القرار عنده لضبط تصرفاته من حيث الصدق والكذب والخطأ والصواب والاتزان والانحراف، وهذا ما كشفت عنه الدراسات العلمية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين [التفاصيل في موسوعة يوسف الحاج ومجلة المعجزة عدد (٨)].

يقول عالم كندي مشهور في علم المخ والتشريح والأجنة -في مؤتمر طبي عقد بالقاهرة -: (منذ خمسين سنة فقط تأكد لنا أن المخ الذي تحت الجبهة مباشرة، الذي في الناصية، هو الجزء المسؤول عن الكذب والخطأ، وهو المكان الذي يصدر منه الخطأ، وأن العين ترى بها والأذن تسمع منها، فكذلك كان هذا المكان الذي يصدر منه القرار، هذا مصدر اتخاذ القرار، فلو قطع هذا الجزء من المخ الذي يقع تحت العظمة مباشرة، فإن صاحبه في الغالب لا تكون له إرادة مستقلة؛ لا يستطيع أن يختار أجلس.. أجلس.. قم.. قم.. امش.. يفقد سيطرته على نفسه، مثل واحد تقلع له عينه فإنه لا يرى..) [وانظر هنا مجلة المعجزة، عدد (٨)، (ص ٥٩)].

(واليوم في دول الغرب يتحدثون عن جهاز يوضع حول ناصية من أرادت الدولة استجوابهم، ليدل على صدقه أو كذبه، بإشارات تطلقها الناصية عند الخبر الصادق، بخلاف الخبر الكاذب) [وغدًا عصر الإيمان؛ الزنداني؛ موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ١٦٣-١٦٤)].

الثالث عشر: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾[البقرة:١٧٣]. وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة:٣].



أ. تحريم الميتة:

لقد تحقق ضرر أكل الميتة علميًا، وظهر خطرها على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقها المتشعبة إلى أنسجتها، ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة، سامة التأثير؛ كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين، فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه، وقد تهلكه، كما في مرض السل، والجمرة الخبيثة، وجراثيم السلمونيلا، وداء الكلب.

وقد حرم الله ﷻ أيضًا الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرَّض، سواء كان ذلك الرض بالوقذ أو التردي من مكان عال، أو بواسطة النطح من حيوان آخر، كذلك ما أكل السبع؛ لأن تلك الأنواع إضافة إلى أن دماءها محتبسة في أنسجتها وما ينتج عن ذلك من الأخطار المذكورة في الميتة، إلا أن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرَّض يسبب انتشارًا للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به سجحات وجروح تسهل دخول جراثيم الهواء إلى الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه، مما تجعله يشكل خطرًا داهمًا على حياة الإنسان حينما يؤكل لحمه. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: بروف المصلح وآخرون، (ص٢٩٩-٣٠٠)].

ب. تحريم الدم:

كان الإنسان غافلًا عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنيًا على أهمية خاصة بالنسبة للصحة؛ فالتحليل يثبت أن

الدم يحتوي على كمية كبيرة من (حمض البوليك)، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت كغذاء.. وهذا هو السر في طريقة الذبح الإسلامي التي أمرنا الله بها، إذ أنها تركز على الوريد الرئيس في العنق ليخرج أكبر قدر ممكن من الدم، ويصبح بذلك اللحم أقل ضررًا. [موسوعة الإعجاز العلمي.. يوسف الحاج (١/ ٥٩)].

بل يعتبر الدم من أصلح الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها، وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه ينعزل عن الأوعية الدموية، وتفقد كريات الدم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم، وتموت خلايا جهاز المقاومة والمناعة، وتنهدم آلياته، فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتفرز سمومًا (Toxins) فتاكة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: بروف المصلح وآخرون، (ص ٣٠٠)].

الرابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في إشارة القرآن الكريم إلى دور الجلد والأمعاء في الإحساس بالألم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾[محمد: ١٥].

لقد وجد علماء التشريح أن الجلد هو الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة، واثبتوا أن المصاب باحتراق الجلد كاملًا لا يشعر بالألم كثيرًا نتيجة تلف النهايات العصبية الناقلة للألم، بخلاف الحروق الأقل درجة (الدرجة الثانية)، حيث يكون الألم على أشده نتيجة لإثارة النهايات العصبية المكشوفة.

كما أثبتوا أيضًا: أن الأمعاء خالية من الداخل من المستقبلات الحسية، بينما توجد بكثافة عالية في منطقة المساريقا التي تقع بين الصفاق الجداري والطبقة الخارجية للأمعاء المغلفة بال: الرَّض صفاق الحشوي، ويوجد في هذه المنطقة عدد كبير من

جسيمات باسيني الناقلة للحرارة والألم، ويبلـغ حجـم الصـفاق الجـداري (٢٠٤٠٠) سمك مكعب، وهو يساوي نفس حجم الجلد الخارجي للجسـم. [الإعجـاز العلمـي في القرآن والسنة: المصلح وآخرون، (ص ٨٠-٨١)].

وأوجه الإعجاز باختصار:

أ. بين الله تعالى أن الجلد هو محل العذاب؛ فربط بـين الجلـد والإحسـاس بـالألم في الآيـة الأولى، وأنـه حينما ينضـج الجلـد ويحـترق ويفقـد تركيبـه ووظيفتـه، يتلاشـى الإحساس بألم العذاب، فيستبدل بجلد جديد مكتمل التركيب، تام الوظيفة، تقوم فيـه النهايـات العصـبية المتخصصـة بالإحسـاس بـالحرارة وبـآلام الحريـق، بـأداء دورهـا ومهمتها؛ فتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله تعالى يذوق عذاب الاحتراق بالنار.

ولقد كشف العلم الحديث: أن النهايات العصبية المتخصصة للإحسـاس بـالحرارة وآلام الحريق لا توجد بكثافة إلا في الجلد، وما كان بوسع أحد من البشر قبـل اخـتراع المجهر وتقدم علم التشريح الدقيق، أن يعرف هـذه الحقيقـة التـي أشـار إليهـا القـرآن الكريم منذ أكثر من (١٤) قرنًا...!!

ب. هدد القرآن الكريم الكفار بالعذاب بماء حميم يقطع الأمعاء، كما في الآية الثانيـة [محمد: ١٥]. ثم اتضح السر في التهديد أخيرًا باكتشـاف أن الأمعـاء لا تتـأثر بـالحرارة، ولكنها إذا قطعت خرج منهـا المـاء الحمـيم إلى منطقـة المساريقا، الغنيـة بمسـتقبلات الحرارة والألم والنهايات العصبية الناقلة لهـما إلى المـخ، فيشـعر الإنسـان عندئـذٍ بـأعلى درجات الألم!! وهكذا يتجلى الإعجاز!!..

الخـامس عشـر: الإعجـاز العلمـي فـي آيـة ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يرى العلم الحديث في هذه الآية حقيقة علمية تؤكد وجود الضغط الجوي، الذي اكتشفه أحد العلماء الإيطاليين المسمى تورشيلي في منتصف القرن السابع عشر، فقد قاس هذا الضغط وقدره بما يساوي وزن (٧٦ سم٣) من الزئبق، وقد اجتهد بعد ذلك علماء الطبيعة في دراسة الغلاف الجوي وغازاته وارتفاعه ومقدار وزنه وتخلخله، وأن الإنسان على سطح الأرض يتحمل قدرًا معينًا من هذا الضغط على جسمه، فإذا ارتفع الإنسان بالصعود على جبل أو ركوب الطائرة، فإن هذا القدر من الضغط يقل تدريجيًا بحسب مقدار الارتفاع، ويؤثر ذلك في تنفسه، ويشعر بضعف، حتى إذا وصل إلى ارتفاع (١٢٠٠٠ قدم) فوق سطح البحر، يحس بصعوبة شديدة في التنفس، وضيق في الصدر، يجعل مجرد الكلام متعذرًا عليه، فهل بعد ذلك برهان على أن هذا القرآن كلام الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى؟!. [محمد إبراهيم إسماعيل: الإعجاز...، (ص ٨٩)].

ومن علماء الطبيعة الذين أثبتوا هذه الحقيقة العلمية (بليز باسكال)، عام (١٦٤٨م). [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٣٤٧)؛ وانظر: التفاصيل العلمية لهذه الحقائق في (ص ٣٤٨-٣٤٩)].

السادس عشر: الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥-٧].

ظهر من الدراسات الطبية الحديثة: أن الصلب هو منطقة العمود الفقري للرجل، وأن الترائب هي عظام الصدر للمرأة، كما أظهرت التحاليل الكيميائية: أن الماء الدافق، هو سائل الرجل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات الحية في المنطقة، وقد سمي دافقًا؛ لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحدون، دون الأنثى التي لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلي وترطيبه. [محمد إسماعيل: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: يوسف الحاج (١/ ١٢٣-١٢٤)].

السابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في العلاقة بين القلب والعقل (المخ):

لقد احتل القلب مكانة محورية في الفكر الديني والأخلاقي منذ فجر التاريخ وفي جميع الحضارات، وأنه ليس مجرد عضلة تضخ الدم في شرايين الإنسان، بل مركز الشعور والفكر والخير والشر.

وجاءت الديانات السماوية لتؤكد هذا المفهوم؛ وإذا أحصينا عدد ذكر لفظ القلب بهذا المفهوم في القرآن، لوجدنا أنها قد وصلت إلى (١٣٧) مرة، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[الحج:٤٦]، و: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦].

وجاء كذلك هذا المفهوم في الحديث النبوي الشريف الصحيح: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» [البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩)، أحمد (١٨٣٧٤) - صحيح على شرط الشيخين؛ أبو داود (٣٣٣٠)، الترمذي (١٢٠٥)، ابن ماجه (٣٩٨٤)، البزار (٣٢٦٧) وكلها صحيحة].

وخلال الربع الأخير من القرن العشرين، حدث انفجار معرفي في علوم القلب، فقد توالت الاكتشافات التي أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة، وأن علاقته بالمخ ليست علاقة العبد بالسيد، بل إن السيادة تبادلية.

ويمكن تلخيص تلك الاكتشافات في النقاط التالية:

١- يعمل القلب كمغناطيس قوي ومولد كهربائي فعلًا، ويؤثر المجال الكهرومغناطيسي للقلب على نشاط المخ الكهربائي، ويمتد هذا التأثير ليصل إلى جذع المخ (مركز التحكم في الجهاز العصبي اللاإرادي)، ولوزة المخ (مركز الوظائف

الانفعالية)، والمهاد (المحطة الأولى للأحاسيس)، وأخيرًا إلى القشرة المخية المسؤولة عن نشاطنا الفكري والشعوري والسلوكي.

ومن خلال هذا التواصل يؤثر القلب على وظائف المخ المختلفة، وتحمل هذه الموجات الكهرومغناطيسية الكثير من المعلومات، مثلها مثل موجات التليفونات والراديو والتلفزيون والفضائيات والنت، ويعتقد الباحثون الكهرومغناطيسيون في حدوث تبادل للمشاعر بين الأشخاص بشكل سلبي أو إيجابي، من خلال تداخل هذه المجالات.

٢- للقلب مخ صغير! وهو قادر على تنظيم عمله بمعزل عن تحكم مراكز المخ (الكبير)، بل ويشارك هذا المخ الصغير في توجيه النشاط الكهربائي لأمخاخنا.

٣- يعمل القلب كغدة صماء تفرز عددًا من الهرمونات التي تشارك في توجيه عمل المخ (بالإضافة لوظائفها الأخرى)، وأهمها هرمون التعاطف (الأكسيتوسين).

يشير اكتشاف هذه الوظائف، إلى أن للقلب دورًا هامًا في الشعور وفي التفكير. [رحلة عقل: د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية، (ط٦/ ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م)، (ص ٢٧٧-٢٧٨)، (ص ١٩٢)؛ مجلة المعجزة، عدد (٤)، (ص ٤١)].

وقد توصل العاملون في حقل تغيير القلوب، إلى أن القلب الاصطناعي لا تكون فيه أية عواطف ولا انفعالات. [موسوعة الإعجاز العالمي في القرآن والسنة: يوسف الحاج (١/ ١٥٣)؛ مجلة المعجزة، جامعة الحمد - العدد الرابع - (جمادى الأولى ١٤٢٩هـ/ مايو ٢٠٠٨م)، (ص ٤٠،٣٦)].

ويقول العلماء: أن النتائج التي توصلوا إليها، والخلل الكبير في الإدراك والفهم الذي يعاني منه صاحب القلب الاصطناعي، يؤكد بأن القلب له دور أساسي في الفهم والإدراك، وأن القلب هو أكثر من مضخة. [مجلة المعجزة، العدد نفسه، (ص ٤٢)].

لقد أجرى العالم بول بيرسال - المتخصص في علم المناعة، ومؤلف كتاب: (شـفرة القلب) بحثًا شهيرًا عام (٢٠٠٢م)، تحت عنوان: (تغيرات في شخصيات المزروع لهم توازي شخصيات المتبرعين)، شمل (٧٤) شخصًا تم زرع أعضاء لهم، منهم (٢٣) زرع القلب خلال (١٠) سنوات، وكانت النتائج: إن شخصية الإنسان تتبدل جذريًا بمجرد انتزاع قلبه [المرجع نفسه، (ص ٤٣)].

ومن البحوث المهمة في هذا الموضوع، بحث الأستاذة الدكتورة: آمنة محمد صالح الفكي، والبروف عمر عبد العزيز موسى، والأستاذ يوسف عفيفي، السودانيون.

وقد قدم البروف عمر بحثه إلى مؤتمر الهيئة العالمية للإعجاز العلمي، الذي عقد بالسودان عام (١٤٣٣هـ)، بعنوان: (كيف نثبت أن العقل في القلب).

أما البروف آمنة الفكي -مستشارة طب الأطفال، ومديرة عام منظمة علوم الوعي والجهاز العصبي- فقد قالت في مؤتمر علوم الوعي الأول حول فرضية (الوعي بين القلب والدماغ): إن العلوم والأبحاث الطبية كانت تجزم بأن الحركة الإرادية تصدر من خلايا الدماغ فقط، وفندت هذه الفرضية، وأبانت أن الأبحاث أثبتت أن المخ وقاع المخ هما مصدر الحركة اللاإرادية فقط (مثال ذلك: حركة اليدين أثناء السير التي تتم بدون تحكم الإنسان)، أما في حالة الحركة الإرادية فالدماغ يستجيب لأوامر القلب، ويقوم بالتنفيذ الفوري بوساطة إشارات مردودة إلى العضو المراد تحريكه؛ ونوهت إلى أنها بهذه الحيثيات، قدمت فرضيتها في مؤتمر (نحو تفسير علمي لظاهرة الوعي والحركة اللاإرادية) بالسويد، حيث وجدت قبولًا كبيرًا، مما دفعها للمشاركة في مؤتمر علوم الوعي الدوري الأخير بجامعة أريزونا الأمريكية؛ وأضافت: بأن مركز دراسات علوم الوعي بالجامعة منحها براءة الملكية الفكرية، مقرًا بأن القلب هو مصدر اتخاذ القرار، ومنشأ النية والوعي لحدوث أية حركة إرادية ومصدر القرار والإرادة الحرة..

واتفق معها البروفسور مالك بدري -استشاري علم الـنفس - الـذي أكـد دور القلب في الوعي والتفكير، وقال: إن الغـرب توصـل إلى دور القلـب وتـأثيره عـلى الدماغ والجهاز العصبي، إلا أنهم أخفـوا هـذه الحقـائق، وتوقـع أن تواجـه فرضـية الدكتورة آمنة حربًا خاصة من (الماديين)، وقال عـن الفرضـية الجديـدة: سـتحدث نتائج خطيرة في الأبحاث الطبية...

وخالف الشيخ عبد الجليل النذير الكاروري الفرضية، وقال: إن القيادة في الـرأس وليس القلب، وإنه في المخ، والحبل الشوكي يتخذ القـرار، وبالتـالي توجـه الأوامـر إلى الأعضاء بما فيها القلب. [انظر النت].

أما فيما يتعلق بالمجموعة الثانية: الحقائق القرآنية العلمية التي يثبتها القرآن الكـريم وتؤيدها الحقائق العلمية التاريخية، فيمكن التمثل لها بالآتي:

الثامن عشر: قصة إرم ذات العماد:

قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: ٧-٨].

ظن الباحثون من غير المسلمين إلى عهد قريب، أن قصة إرم ذات العماد وعـاد مـن الخرافات، استنادًا إلى أن المنطقة التي ذكر بأنه هذه الحضارة قد عاشت فيها هي منطقـة الربع الخالي، ولكن أراد الله تعالى أن يكشف زيف هذا الظن، فسخر علماء غير مسلمين لتصوير هذه المنطقة بالأقمار الصناعية على مرتين، فوجدوا آثـار نهـرين، أحـدهما كـان يجري إلى الشرق، ويجري الآخر إلى الغرب، ووجدوا آثار بحيرة وبقايا آثار مدينـة، لهـا قلعة تقوم على أعمدة عظيمة، وهكذا كشفت الآثار التاريخية القديمة صحة ما جـاء في القران، وأنه وحي من الله عزّ وجلّ خالق الوجود، [انظر م. فـارس، الإعجـاز العلمـي في القـرآن الكريم والسنة النبوية، (ص ٢٦) وما بعدها].

التاسع عشر: قصة أهل الكهف:

قال الله تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الكهف:٢٢].

لقد أثبت علم الآثار مكان الكهف الذي ذكر في القرآن الكريم، وهو قرية الرجيب، ذلك الاسم الذي حرف من (الرقيم): ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾[الكهف: ٩-١٠]، وتقع القرية المذكورة شرقي الأردن.

ويكفي دلالة: على أن هذا الأثر التاريخي من الآثار التي يقصدها من يزور الأردن.

ويرجح: أن حادثة أصحاب الكهف قد وقعت في عهد الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م)، وفي قصتهم عظة وعبرة وإعجاز تاريخي دل على وجود الخالق صاحب القدرة على البعث وإعادة الخلق، ودل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[الكهف:١٨] على حقيقة علمية طبية، وهي أن الرقاد على السرير لمدة طويلة دون تقلب يحدث ما يسمى بالقرحة السريرية. [انظر محمد حسني، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ١٠٤-١٠٩)].

العشرون: تكوين سطح القمر وسطح الأرض:

عندما وقف العلماء عند الآية القرآنية الكريمة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠]، توصلوا إلى حقيقة علمية أثرية بعد إجراء تحاليل مختبرية للصخور التي جلبها الإنسان من على سطح القمر، أن تكوين مواد القمر هي نفس تكوين مواد الأرض!! [محمد حسني، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ٢٦٢-٢٦٣)].

ويكفي هذا دلالة على أن وراء هذا الكون إله خالق، وكل عاقـل يعلـم أن محمـدًا ﷺ لا يملك أدوات الوصول إلى مثل هذه المعلومات التي لم تُعرف إلا في أواخر القرن العشرين!!!

الحادي والعشرون: قصة فرعون موسى ﷺ:

جاءت الإشارة إلى فرعون موسى -منفتـاح بـن رمسـيس الثـاني- في الآيـة مكـان الشـاهد: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[يونس:٩١-٩٢].

اتفقت الكتب السماوية على حدوث واقعة غرق فرعون موسى في البحـر، وانفـرد القـرآن بـذكر نجـاة بـدن الفرعـون، وسـكتت الكتـب السـماوية الأخـرى -التـوراة والإنجيل- عن مصير الجثة، وبعد مضـي ثلاثـة آلاف سـنة، وجـدت جثـة الفرعـون منفتاح محنطة في المقابر الملكية المصرية، وجرى عليها التحليل الطبي المناسـب، وتحقـق من أن الجثة له، وعندما بدأت تتغير قام العلماء الأطباء بتجديد التحنيط لتظـل باقيـة في المتحف المصري، وقد شارك الطبيب بوكاي في هذا العمل الكبير، ومـن دلالات هـذا الانفراد دحض مزاعم القائلين بأن القرآن الكريم يستقي معلوماته من الكتب المقدسـة السابقة، وغيرها من الأساطير. [انظر: حسني، (ص ٢٢٥)].

وهناك إعجاز آخر يتعلق بفرعون موسـى ﷺ، وهـو: (أنـه عنـدما أعلنـت نتـائج الفحوصات التي أجرتها لجان علمية عالمية متخصصة، مصـرية وأوروبيـة وأمريكيـة، نصت على أن جميع المومياءات المصـرية قد بدأت تظهر عليها آثـار التحلـل بتـأثير أنـواع فريدة من البكتريا (ما عدا جثة الفرعون منفتاح) فرعـون موسـى!!. [موسـوعة يوسـف الحاج (١/ ٤٤)، ومرجعه: (الإعجاز العلمي في الجغرافية)].

الثاني والعشرون: قصة الاسم: (هامان) في القرآن الكريم:

ورد ذكر هامان في القرآن الكريم كوزير لفرعون مصر، وأن من مهام وظيفته تنفيذ أوامر الفرعون، التي منها أوامر البناء المعماري، أي الرئيس المشرف على مهندسي وعمال مقالع الأحجار والتشييد في دولة الفرعون، بل الوزير الأول، بدليل أن رسالة موسى ﷺ وجهت له مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[غافر: ٢٣-٢٤]؛ وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾[القصص: ٨].

إن هذا الاسم المشهور (هامان) في القرآن الكريم لا ذكر له البتة في التوراة والإنجيل وغيرهما، وهذا مما آثار فضول العالم الفرنسي المسلم وعملاق التشريح - الذي سبق ذكره- الدكتور موريس بوكاي، فقام بالبحث في سر هذا الاسم، فذهب إلى أحد المختصين في تاريخ مصر القديمة، وعرض عليه الاسم، وطلب منه ترجمة معنى هذا الاسم باللغة الهيروغليفية -لغة مصر القديمة- فأتى له الخبير بكتاب: (قاموس أسماء لأشخاص أعلام في الإمبراطورية الجديدة)، وفتحا القاموس، وكانت المفاجأة أكبر من أي تصور، كان معنى الاسم (هامان)، أنه الرئيس المشرف على مهندس وعمال مقالع الحجر والبناء! هنا قال بوكاي للخبير: (لو قلت إني قد وجدت مخطوطة عمرها أكثر من (١٤٠٠) سنة، كتب فيها أن هامان كان وزيرًا لفرعون، ورئيسًا للمهندسين المعماريين والبنائين، ماذا تقول في ذلك؟ هنا انتفض الخبير من مكانه، وصرخ قائلًا: مستحيل!، لم يرد ذكر هذا الاسم إلا على الأحجار الأثرية لمصر، وبالخط الهيروغليفي، أحدهما موجود في متحف (هوف) بفينا، عاصمة دولة النمسا، ولا يذكر هذه المعلومة إلا شخص قام بفك رموز اللغة الهيروغليفية، أي: معنى كلمة (هامان)، ولم يتم هذا

العمل إلا عام (١٨٢٢م)، أين هذه المخطوطة؟!) وحينئذ فتح بوكاي المصحف وقال للخبير، وهو يشير بأصبعه إلى الآيات مكان الشاهد، والتي هي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[القصص:٣٨]، والآية التي نصها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[غافر:٣٦-٣٧].

وهكذا كان الإعجاز التاريخي الذي لا ينكره إلا مكابر، ودل على أن وجود الله تعالى حق، وأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الرسول ﷺ نبي ورسول من الله ﷻ، وأن القرآن أصيل.

والإعجاز العلمي التاريخي الآخر في قصة هامان، وفي ضوء الآية ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وهو كما يقول السيد عبد الله السر علي: (في هذه الآية دليل على طريقة صنع الأهرامات من قبل الفراعنة، فهي عبارة عن طين مكون من رمل الصحراء ومياه النيل بعد تسخينه، فيتصلب، وهذه هي طريقة رفع الحجارة العملاقة التي أعجز فهمها العلماء، فإن الفراعنة لم يرفعوا صخورًا، إنما رفعوا طينًا ثم سخنوه ليصبح صخرًا، وقد أثبت تحليل هذه الصخور كيميائيًا ذلك). [صحيفة الانتباهة السودانية، الجمعة (١٥/ ٢/ ١٤٣١هـ، ٢٨/ ٢/ ٢٠١٢): مقال للبروفسير محمد عبد الله الريح، في عموده (غيبونة الدخول في غيبوبة بسبب الغبينة)] ولم يتم التوصل إلى هذه الحقيقة العملية إلا بشرح الآيات المذكورة!!.

رحم الله تعالى الشيخ الطنطاوي -المفسر المصري- القائل: إن نحوًا من (٧٥٠) آية قرآنية ترتبط بالقضايا العلمية، بينما لم تتجاوز آيات الأحكام في القرآن (٤٠٠) آية! [انظر: الإنترنت].



الثالث والعشرون: قصة سفينة نوح عليه الصلاة والسلام:

يقول الله ﷻ في قصة نوح ﷺ مع الطوفان: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾[القمر ١٣-١٥] و﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

إن الإعجاز العلمي التاريخي في قصة سفينة نوح ﷺ ورسوها على جبل الجودي، هو ما كشفت عنه الأبحاث العلمية الأثرية الحديثة. يقول الأستاذ حسني: (فمن الأبحاث العلمية في هذا الصدد، تلك الحملات التي يقوم بها علماء الجيولوجيا والتاريخ: الكشف عن سفينة سيدنا نوح ﷺ فوق جبل الجودي بتركيا، إذ يقول جون موريس، الباحث العلمي الذي قاد حملتين كشفيتين متتاليتين في هذه المنطقة التي يقع فيها جبل الجودي في تركيا عام (١٩٧٢ و١٩٧٣م): أخذت هذه المشاهد الغريبة لسفينة سيدنا نوح تظهر على الجبال منذ سنة (١٩٤٠م)، عقب هزة أرضية عنيفة حدثت في ذلك العام، ومنذ ذلك الحين أخذ مئات من الناس يؤكدون رؤية هذا المنظر في كل عشرين سنة أو نحو ذلك حين يتراجع الجليد ويتضاءل وتظهر هذه المشاهد، وبعد ذلك تعود الثلوج لتغطيتها في أسابيع قليلة).

وكان غنام عجوز يدعى جورج هاجوبيان قدر رأى عندما كان يرعى الغنم بصحبة عمه في عام (١٩٠٤م)، بقايا سفينة خشبية غريبة في أعلى جبل الجودي، وكان ذلك بعد أربع سنوات من الجفاف، حيث أخذت الثلوج في الذوبان بشكل كبير، مما أدى إلى بروز ما يسميه هاجوبيان بالفلك المقدس، ولقد تسلق هاجوبيان السفينة الضخمة وصعد إلى السطح بمساعدة عمه، ثم نظر من الشبابيك وصرخ بأعلى صوته، فترددت أصداء الصوت بين جنبات السفينة.

ويقرر العلماء أن الجبل قد ارتفع من جراء انفجارات بركانية إلى ثمانية عشر ألف قدم بفعل فيضانات مدمرة، وأن وجود بلورات ملحية على عمق ستة آلاف قدم في الجبل يعتبر شاهدًا ماديًا على وجود فيضان ارتفعت به المياه عن معدلها بقدر اثني عشر ألف قدم.. وأن الفيضان حمل السفينة إلى أعلى الجبل.. وبقيت كذلك لمدة عام تقريبًا، فلما بدأت المياه في الانخفاض ظلت السفينة ملتصقة بقمة الجبل.

ولقد أكدت الدراسات العلمية التي قام بها المهندس الفرنسي فونانفارا عام (١٩٥٥م) على قطعة خشبية من هذه السفينة، وأنها بقايا بلوط أبيض قديم مصممة يدويًا، وأن تاريخ صنعها يرجع إلى أكثر من (١٠٠) ألف سنة تقريبًا مضت، مما يجعلها متزامنة مع عهد سيدنا نوح ﷺ، وأيدتها دراسات أجريت عام (١٩٩٩م) على قطعة من خشب هذه السفينة.

إن هذه السفينة ظلت محفوظة في الجبل.. مستورة عن البصر لأكثر من (١٠٠ ألف) سنة تقريبًا، ثم جاءت هزة أرضية محسوبة ومقدرة.. من مائة عام أو يزيد قليلًا لتخرج بها السفينة من الخفاء إلى العلن، وهذه آية، وأن الجليد ليحيط بالسفينة إحاطة تامة، فيغطيها تغطية شاملة لمدة سنة كاملة، ثم تتكشف للناس بضعة أسابيع لتكون آية، وأن الجليد بدرجته المنخفضة يعتبر من أفضل طرق الحفظ، وما به من بلورات ملحية أشد حفظًا وأعمق أثرًا.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود:٤٩].

جاءت خاتمة الآية: ﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فهي إشارة إلى أنها حقيقة لن تظهر إلا متأخرًا، وكان النصر لمحمد ﷺ وأتباعه ودين الإسلام، ولكن أراد الله تعالى أن يحفظ السفينة من الهلاك حتى تشهد بصدق الرسول ﷺ والرسالة ووجود المرسل.

لقد كان هذا الكشف الأثري التاريخي العظيم ضربة موجعـة لمصـداقية الإنجيـل، الذي يقول: إن السفينة قد رست على جبال أراراط أو أرارات [سفر التكـوين: (٨-٤)]، ومما زادهم غضبًا أن القرآن الكريم لم يخطـئ في تحديـد موقـع سـفينة نـوح ﷺ، جبـل الجودي، وسبحان الله تعالى الذي أثبت لدينا أنه معجزة من الله ﷻ، وأنه الـدين الحـق، وغيره الباطل، وأن وجود الله يثبته التاريخ والعقل.. [حسني، الإعجـاز العلمـي في القـرآن والسنة، قصة نوح ﷺ].

وللإجابة عن سؤال: هل كان الطوفان عامًا لكل الكـرة الأرضـية؟ فـالجواب: لا، والدليل على هذا:

لقد أثبت العالم السـير (ليونـارد وولي)، رئـيس البعثـة التـي شـارك فيهـا المتحـف البريطاني وجامعة بنسلفانيا الأمريكية عام (١٩٢٠م)، والتي قامت بالحفريات في (تـل العبيد) شمالي مدية (أور العراقية)، لقد اكتشفت هذه البعثة طبقات عميقة مـن الطمـي طمرت فيها الأواني والتماثيل الفخارية، وأجزاء من الطين لا تزال منطبعـة عليهـا آثـار أعواد القصب (البوص) المضغوط عليها.

وقد استدل (ليونارد) من الفحص المجهري لكميات الطمي، أنه يتكون مـن مـواد جرفتها المياه (دفعة واحدة) من المنطقة الوسطى لنهر الفرات، في شكل فيضـان عظـيم ارتفاعه لم يكن أقل مـن خمسـة وعشـرين قـدمًا [وقـد ورد في نصـوص التـوراة أن ارتفـاع الطوفان (٢٦) قدمًا].

واستقر رأي (ليونارد) على أن الطوفان لم يشمل الدنيا كلها، ولكنه كان سيلًا عرمًـا طغى على وادي دجلة والفرات، وأغرق كل المنطقة المأهولة بين الجبال شرقًـا والهضـبة الصحراوية غربًا، وهي المنطقة الآهلة بسكان الدنيا وقتئذ:

وقد سجل سكان الوادي بعد الطوفان قصة الطوفان على اثني عشر لوحًا من الفخار؛ وذكروا فيه غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل تقي ورع بنى سفينة وأخذ معه فيها أفراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب، وهؤلاء وحدهم كتبت لهم النجاة [من كتاب: الأرض التي نعيش عليها: تأليف (روث مور) وترجمة إسماعيل حقي] وينطبق هذا مع نصوص الآيات القرآنية التي نزلت بعد الطوفان؛ وبتطابق هذه المكتشفات الأثرية مع الآيات القرآنية نرى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ لأن الآيات القرآنية دلت على أن الطوفان كان شاملًا لقوم نوح ﷺ فقط، وهذا لا يقضي أن يكون عامًا للأرض، إذ لا دليل على أن البشر المعنيين، وهم قوم نوح ﷺ كانوا يقطنون الأرض كلها، بل كانوا منحصرين في منطقة معينة طغى عليها الطوفان. [موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (١/ ٤١-٤٢)؛ والإعجاز العلمي في الجغرافيا هو مرجعه].

الرابع والعشرون: قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر:

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأعراف: ١٦٣].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره [تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان] لهذه الآية: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تذهب في البحر فلا يرون



منها شيئًا ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، [قال المحقق الشيخ اللويحق، كذا في ب. وفي أ: يبليهم]. وأن تكون لهم هـذه المحنـة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلـوا عـلى الصـيد، فكـانوا يحفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك، ثم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فـيهم ذلـك، وانقسـموا ثـلاث فـرق: [كما في الآيـة ١٦٤ مـن الأعـراف] معظمهم اعتدوا وتجرؤوا وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم... [وجـاء في خـبر الفرقـة الأولى الآيـة (١٦٦) مـن الأعـراف]: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: قسـوا فلـم يلينـوا ولا اتعظـوا. ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قـولًا قدريًا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله مـن رحمتـه، ثـم ذكـر ضرب الذلة والصَغار على من بقي منهم، فقـال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلـم إعلامًـا صريحًا: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يهينهم ويذلهم.

وجاء ذكر هذا العذاب كذلك في سورة البقرة (١٦٦): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾، وجاء ذكر مثل هذا العذاب في سورة المائدة (٦٠): ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

قال محمد حسني يوسف [الإعجاز العلمـي في القـرآن والسـنة النبويـة (٢/ ٧٢)]: (هـذه الآيات ستقطع بأن الله ﷻ قد شاء فأمر، فتحول بعض العصاة لأمره، المخالفين لما قدره في حينهم، وفي زمانهم، إلى قردة، قردة فعلًا، وإلى خنازير فعلًا.

بالإضافة إلى المفاجأة الكبرى والقنبلة التي تفجرت، وهي: أنه تم اكتشاف مـوطن القرية التي كانت حاضرة البحر التي سكنها من القديم بعـض صـيادي اليهـود الـذين

عصوا الله ﷻ، فمسخهم قردة وخنازير، وتم العثور على هذه الموميات في تاريخ (٢/ ١/ ٢٠٠٢م)، حيث يقول الذين عثروا على الموميات في رسائل لهم للأستاذ محمد عيسى داود ما نصه: نحن مجموعة من الشباب، فينا عالم الآثار، وفينا عالم الجيولوجيا، وفينا عالم الأحياء، وبعض طلبة العلم في دراسات الآثار، وأصول الدين؛ مكن الله ﷻ لنا الأمر، ووفقنا للعثور على موطن القرية التي كانت حاضرة البحر، التي سكنها من القديم بعض صيادي اليهود الذين عصوا الله ﷻ، فمسخهم قردة وخنازير، ومرسل لمعالكيم مندوبنا عن طريق غزة، عمل لكم الشريط المصور لمومياتهم المحنطة تحنيطًا بدائيًا لتبعية بلاد الشام وقتئذ لمصر، وتأثر أهلها بعادات المصريين؛ وكذلك مرسل لكم الصور الفوتوغرافية. وقد تأكد لنا أنهم بشر أنبت الله لهم ذيولًا وأذنابًا، وأبقى أشكالهم البشرية لمزيد عذابهم النفسي، حيث يرى بعض علمائنا أنهم وإن حل عليهم العذاب هنا قرب طبرية وأماكن أخرى بجوارها، إلا أن بعضهم لم يتحمل هذا الوضع، فهرب إلى صحراء مصر وغيرها من بلاد الشام).

إن هذا الأثر التاريخي المادي من أوضح الأدلة على أن القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ كما يزعم أعداء الإسلام، بل هو وحي من الله تعالى الموجود حقًا.

الخامس والعشرون: آثار قوم صالح ﷺ (ثمود):

هم الذين قتلوا ناقة صالح ﷺ، على الرغم من تحذير النبي صالح لهم بعدم الإقدام على هذا الفعل: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾[هود: ٦٤-٦٩].

إن الإعجاز في قصة هلاك ثمود هـو بقـاء آثـارهم إلى يومنـا هـذا، وهـذه شـهادة للتاريخ على صدق الرسول ﷺ عندما عاد من غزوة تبوك يقود جيشه المنتصـر، مـر في الطريق على الحجر من ديار ثمود، الذين غضب الله تعالى عليهم لعصيانهم أمـره بعـدم ذبح ناقة نبي الله صالح [البخاري (٢٢٧٧)، مسلم (٢٩٨٠)]. وعنـدما سـارع النـاس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسـول، وقـال لهـم: «**لا تـدخلوا مسـاكن الـذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابتهم، إلا أن تكونوا بـاكين**» [أحمـد، المسـند (٤/ ٢٣١)، وحسَّن ابن كثير إسناده كما في البدايـة (٥/ ١٣)]، ثـم قنـع رأسـه وأسرع السـير حتـى أجـاز الوادي [البخاري (٢٣٨٧)، مسلم (٢٩٨١)]، وعنـدما نزلـوا الحجـر اسـتقوا مـن آبارهـا وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عـن ذلـك، وأمـرهم بطـرح ذلـك العجـين للإبـل ويريقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئـر التـي كانـت تردهـا الناقـة [البخـاري (٢٣٨٧-٢٣٧٩)، مسلم (٢٩٨١)].

وما زالت آثار ثمود باقية شاهدًا على صدق رسالة النبي ﷺ ونبوته، وعـلى صـدق القرآن، وعلى وجود الله ﷻ الذي أوحى قصة ثمود إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ.

وسبحان الله العظيم القائل في آثار عاد ثمود: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

السادس والعشرون: ظلمة الفضاء

أكد الدكتور عبد الباسط محمد السيد، الباحث ورئيس المجمع العلمي لهيئة الإعجـاز في القرآن الكريم والسنة بمصر، أن العالم (كارنار)، من أبرز علـماء الفضـاء، أسـلم وفقـد وظيفته بوكالة ناسا الأمريكية بسبب اعتناقه الإسلام، وكان ما يعـرف بشـباك (وان ألان)

الذي من خلاله تصعد سفينة الفضاء والموجود في القرآن الكريم، سببًا لهداية كارنار لطريق الحق، لقد اهتدى العلماء إلى هذا الشباك بعد أبحاث طويلة لتخطي عقبة أن الأشعة الكونية أشد من الأشعة النووية، وتعرض السفينة الفضائية إلى الحريق في حال الصعود في الفضاء بشكل عشوائي، والحل لهذه المعضلة هو اكتشاف الشباك المذكور.

قال عبد الباسط: أن ذات الشباك الذي تسير فيه سفينة الفضاء موجود في القرآن الكريم في الآية: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر:١٥]. وأفاد عبد الباسط: أنهم أعطوا دليلًا لكارنار بأن الكون كله ظلمة بعد مرور الشباك، وقوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ تعني: الظلمة، مضيفًا: وقوله: ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ كأنما لديك النهار يكسو الليل وبعد سلخه كسلخ الذبيحة لا يبقى سوى الظلام، وعلى إثر ذلك أسلم العالم كارنار.

السابع والعشرون: انشقاق القمر

لقد أسلم داود موسى بيدكوك -رئيس الحزب الإسلامي البريطاني- عندما علم من علماء أمريكان، وذلك عام (١٩٧٨م) صحة قصة انشقاق القمر الذي ورد في القرآن الكريم، عندما استمع إلى حوار تلفازي على قناة الـ(BBC) عن رحلات الفضاء، وكان ضيوف البرنامج ثلاثة من العلماء الأمريكيين، وأدار الحوار معهم المذيع البريطاني المشهور: جيمس بيرك. تقول القصة باختصار شديد:

(أُهدي لبيدكوك نسخة مترجمة من القرآن الكريم، وعندما وقف عند الآية: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر:١-٢]، وضع القرآن جانبًا بحجة أن مثل هذه الخرافات هي التي جعلتهم يكذبون القرآن، ودارت الأيام، وكان موعده مع الهداية عندما قدر له أن يشاهد تلك الحلقة التلفازية مع رواد الفضاء الأمريكيين، وعندما استنكر المحاور

صرف أموال طائلة على رحلات الفضاء، وهناك من يموت من الجوع في بعض الـبلاد المتخلفة، فرد أحد الرواد بأنهم وقفوا على حقيقة علمية لا تقدر بثمن، وهي اكتشـافهم أن القمر قد انشق ذات يوم، وقد وقفوا على آثـار الانشـقاق، وهنـا قفـز بيـدكوك مـن كرسيه ونطق بالشهادتين!! ثم تعمق في دراسة القرآن والسنة وحضارة الإسلام، حتـى أصبح رئيسًا للحزب الإسلامي البريطاني). [انظر الأحاديث الواردة في قصة انشـقاق القمـر في كتاب السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للمؤلف: دكتور مهدي رزق الله].

الثامن والعشرون: الإعجاز العلمي التاريخي في حروب الروم والفرس:

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[الروم:١-٦].

إن سبب نزول هذه الآيات هو وقوع معركة بين مملكتي فـارس والـروم في منطقـة بين أذرعات وبصرى، قرب البحر الميت، حيث انتصر فيها الفرس سنة (٦١٩م).

وحزن المسلمون لهزيمة الروم، لأنهم مثلهم أهل كتاب سماوي، بينما الفرس مجوس يعبدون النار، فأنزل الله عز وجل قرآنًا يواسي به المؤمنين ويـرد فرحـة الكـافرين، فوعـد الله تعالى المسلمين بأن الفرس ستغلب في المعركة الثانية بعد بضع سنوات، وأن نصر الروم سوف يتزامن مع نصر المسلمين على المشركين، والبضع: هو رقم بين الخمسة والسـبعة، أو بين الثلاثة والتسعة، كما يقول أهل اللغة العربية، وقد تحقق ما وعد به القرآن الكريم بعد سبع سنوات، حيث وقعت معركة أخرى بين الفرس والروم عام (٦٢٦م)، انتصر فيها الروم، وتزامن ذلك مع انتصار المسلمين على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى، فكانت الفرحة فرحتين، وهكذا تحقق وعد الله تعالى المعجز: نصر وفرح، نصر استبعده

مشركو مكة؛ لأن قوة الفرس كانت ضاربة، مما حدا بأحد المشركين أن يقول معبرًا عن رأي جماعته: (محمد عاقل وما هو بمجنون، لقد جعل دينه كله ومستقبله كله والإسلام كله مرهون بانتصار دولة مهزومة، إنه حدد زمنًا قريبًا يكون في حياته؛ فلو أنه مرت عشر سنوات ولم تنتصر الروم راح الإسلام والقرآن ومحمد...).

وعندما تحقق ما قاله الله تعالى في القرآن، قالوا: لا يمكن أن يكون هذا من عند بشر! هذا صنع الذي يحكم البشر، فأسلموا! هذا هو الإعجاز العلمي التاريخي الأول، أما الإعجاز الثاني في هذه الآيات الكريمة:

أنها قررت حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، حيث أخبرت أن الروم خسروا المعركة الأولى مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض، ولكلمة (أدنى) معنيين: أقرب وأخفض؛ فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ إنها تنخفض عن مستوى سطح البحر بـ(١٣١٢) قدم، (حوالي ٤٠٠متر)، كما جاء في الموسوعة البريطانية، [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: أ. د. عبد الله المصلح وآخرون، (ص ١٩٣-١٩٨)؛ الموسوعة: يوسف الحاج (١/ ٢٦٩-٢٧٢)].

التاسع والعشرون: ملك مصر زمن يوسف عليه الصلاة والسلام:

جاء في الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني للدكتور سمير عبد الحليم: (إن القرآن يذكر حكام مصر القدامى بلقب فرعون، وقد وردت كلمة (فرعون) في (٧٤) موضعًا، لكن في سورة يوسف لم يذكر القرآن لقب فرعون بل الملك! قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾[يوسف:٤٣].

وفي أواخر القرن التاسع توصل (شامبليون) -عالم الآثار الفرنسي- إلى حل رموز الكتابة (الهيروغليفية)، وأثبت العلم أن النبي يوسف عليه الصلاة

والسلام عاش في مصر أيام الملوك الرعاة (الهكسوس) من عام (١٧٣٠ إلى ١٥٨٠ قبل الميلاد).

أما المجموعة الثالثة: المعجزات الكونية

فيمكن تلخيصها في التالي:

الثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس:٣٨].

يقرر علم الفلك بأن الشمس لها مجموعة من الكواكب والأقمار والمذنبات تتبعها دائمًا وتخضع لقوة جاذبيتها، وتجعلها تدور من حولها في مدارات متتابعة بيضاوية الشكل، وجميع أفراد هذه المجموعة تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية.

والخلاصة: أن المجموعة الشمسية تجري في الفضاء بسرعة محدودة، وفي اتجاه محدود، وتبلغ هذه السرعة حوالي (٧٠٠ كلم) في الثانية، وتتم دورتها حول المركز في مدى (٢٠٠) مليون سنة ضوئية، ولم يتوصل علماء الفلك إلى معرفة هذه الحركة واتجاهها إلا في أوائل القرن العشرين، فأين هذا من وقت نزول القرآن، حيث لم يكن محمد النبي الأمي ولا قومه يعرفون شيئًا من ذلك، إنه الإعجاز!! [محمد إبراهيم، الإعجاز العلمي...، (ص ٧٢)].

الحادي والثلاثون: الإعجاز العلمي في ذكر بروج السماء والقسم بها:

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان:٦١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الحجر:١٦]. وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾[البروج:١].

(البروج): تكوينات نجمية جميلة تراها كل يوم في السماء في أماكن وأوضاع شتى، ليس من الضروري أن تربطها أية علاقة فيزيائية... تمر أمامها الشمس أثناء دورانها الظاهري من حول الأرض، فالبروج كأنها منازل الشمس في دورانها أثناء السنة؛ وعدد

هذه البروج اثني عشر، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

إن بعض نجوم البرج الواحد قد تكون قريبة نسبيًا من الأرض، بينما يقع البعض الآخر على مسافة بعيدة نسبيًا، كل ما نعرفه عن نجوم البرج الواحد أنها تبدو من الأرض في نفس الاتجاه. [موسوعة الإعجاز العلمي... يوسف الحاج (١/ ٣٠٣)؛ محمد إسماعيل إبراهيم: الإعجاز العلمي...، (ص ٧١)].

الثاني والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قسم الله تعالى بـ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾.

تشير الآية القرآنية الكريمة إلى أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع؛ فما معنى الرجع، وما إعجازه؟

الرجع في اللغة كما يقول ابن منظور في معجم لسان العرب: هو محبس الماء. وقال اللحياني: سميت السماء بذات الرجع لأنها ترجع الغيث.

وهي مشتقة من الرجوع، وهو العودة والعكس.

ومعنى الآية: أن السماء تقوم بوظيفة الإرجاع والعكس، وقد جاء العلم الحديث ليؤكد هذا التفسير، فقد كشف علماء الفلك أن طبقة التروبوسفير التي هي إحدى طبقات الغلاف الجوي للأرض، تقوم بإرجاع ما تبخر من الماء على شكل أمطار إلى الأرض من خلال دورة دائمة سميت بدورة تبخر الماء.

كما اكتشف علماء الفلك أيضًا: أن طبقة التروبوسفير، وهي التي تضم طبقة الأوزون تقوم بإرجاع وعكس الإشعاعات الضارة المافوق بنفسجية إلى الفضاء الخارجي، وبالتالي فهي تحمي الأرض من كميات كبيرة من ضوء الشمس وحرارتها إلى الأرض، كما نصت على ذلك الموسوعة البريطانية.

أما طبقة التيرموسفير، فإنها تقوم بعكس وإرجاع موجات الراديو القصيرة والمتوسطة التردد (AM وSW) الصادرة من الأرض، وهذا ما يفسر إمكانية استقبال هذه الموجات من مسافات بعيدة جدًا، وقد ذكرت ذلك بالتفصيل الموسوعة البريطانية.

يتضح مما تقدم: أن أهم صفة للسماء كشف عنها العلماء في القرن العشرين هي أنها ذات رجع! ووجه الإعجاز في الآية هو دلالتها الواضحة على أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع، وهذا ما كشفه العلم الحديث في القرن العشرين.

الثالث والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قسم الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١٢].

سبحان الله عز وجل الذي وصف الأرض من قبل (١٤٠٠) سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض، بعمق يتراوح بين (٦٥ و١٥٠ كم)، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض، إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض، وكأنها صدع واحد.

وسبحان الله العظيم الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة تفخيمًا لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهارًا للعلماء، وأشدها لزومًا لجعل الأرض كوكبًا صالحًا للحياة وللعمران؛ لأنه بدونها لم يكن ممكنًا للأرض أن تكون صالحة لذلك؛ فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض؛ ولا يزالان يتجددان؛ وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولى للأرض، فتكونت القارات والسلاسل والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات، وثارت البراكين

لتخرج قدرًا من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكـن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصـدوع العملاقـة؛ وخرجـت كميـات هائلـة مـن المعـادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مـع هـذه الثـورات البركانيـة، ونشـطت ديناميكيـة الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

ومن هنا: كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل (١٤٠٠) سنة. والعمل الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائـل السـبعينات مـن القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقـرون متطاولـة مـن بعـده، إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو بإدراك لشـيء من جوانبهـا؛ ولا يمكـن لعاقـل أن يتصـور مصدرًا لها قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة، ولكن الله تعالى الخالق هو الـذي أخـبر بـذلك. [أ. د. المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي...، (ص ٢٠٤-٢٠٥)].

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقـة الأرضـية وإلى غيرهـا مـن الحقـائق الكونية، هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الخالق.

الرابع والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠].

إن مسألة نشأة الكون من القضايا التي تكلم فيها الفلاسفة والعلماء، ولكنها كانـت خبط عشواء، فلقد تعددت النظريات والتصورات إلى أن تحدث عالم الفلك البلجيكـي (جورج لوميتر George Le Maitre) سنة (١٩٢٧م) عـن أن الكـون كـان في بـدء نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، أسماها البيضة الكونية.

ثم حصل في هذه الكتلة، بتأثير الضغط الهائل المنبثق مـن شـدة حرارتهـا، انفجـار عظيم فتتها وقذفها مع أجزائها في كـل اتجـاه؛ فتكونـت مـع مـرور الـزمن الكواكـب

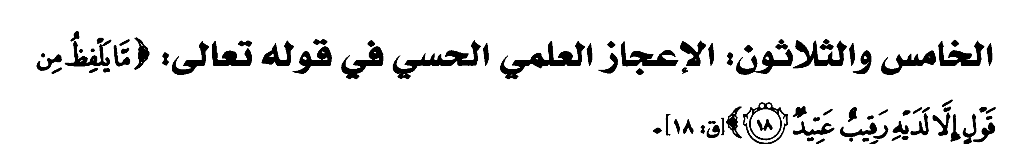
والنجوم والمجرات، وقد سمى بعض العلماء هذه النظرية بـ(الانفجار العظيم - Big Bang).

وفي عام (١٨٤٠م) أيد عالم الفلك الأمريكي (من أصل روسي) جورج غاموفGeorge Gamov نظرية الانفجار العظيم، مما مهد الطريق لكل من العالمين: (بنزيازPenziaz) و(ويلسون) سنة (١٩٦٤م)، اللذان التقطا موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون، لها نفس الخصائص الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، لا تتغير مع الزمن أو الاتجاه، فسميت (النور المتحجر)، أي: النور الآتي من الأزمنة السحيقة، وهو من بقايا الانفجار العظيم الذي حدث في الثواني التي تلت نشأة الكون!!

وفي سنة (١٩٨٩م) أرسلت وكالة ناسا قمرها الاصطناعي (Gobe Explorer)، والذي قام بعد ثلاث سنوات بإرسال معلومات دقيقة إلى الأرض تؤكد نظرية الانفجار العظيم، وسمي هذا الاكتشاف باكتشاف القرن العشرين.

ومعنى الآية: أن الأرض والسموات بما تحويه من مجرات وكواكب ونجوم، والتي تشكل بمجموعها الكون الذي نعيش فيه، كانت في الأصل عبارة عن كتلة واحدة ملتصقة. وقوله تعالى: ﴿رَتْقًا﴾ أي: ملتصقين، إذ الرتق هو: الالتصاق، ثم حدث لهذه الكتلة الواحدة (فتق) أي: انفصال وانفجار تكونت بعده المجرات والكواكب والنجوم، وهذا ما كشف عنه علماء الفلك في نهاية القرن العشرين.

أوليس هذا التوافق مدهشًا للعقول؟! يدعوها للإيمان بخالق هذا الكون مسبب الأسباب؟! قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[البقرة:١٤٧]. [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٣٧٧-٣٨١)].



الخامس والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

لقد أثبت العلم الحديث أنه ما من صوت ولا حركة من الحركات إلا وهو موجود ومسجل في الكون، لا يتلاشى أو يزول نهائيًا؛ فالقول الذي أخبر الله ﷻ عنه بقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾، ما هو إلا موجات صوتية باقية في الأثير، يمكن سماعها مرة أخرى، غير أنه ليس لدينا الأجهزة الملائمة لاسترجاع هذه الأصوات وتمييزها، وهذا لا ينفي وجود المَلَكُ الرقيب العتيد، الذي يدون ما ينطق به الإنسان.

وكذلك الأعمال مرسومة بكافة أحوال المرء بما تشيعه من موجات حرارية معلقة في الهواء يمكن تجميعها إذا توفرت الأجهزة القادرة على ذلك لإعادة تحركات وأحوال الإنسان، غير أن البشر عاجزون عن ذلك.

هذا ما أثبتته نظريات العلوم الحديثة في إمكانية استرجاع أقوال وأعمال الناس لمحاسبتهم، ولقد جاء كتاب الله ﷻ قبل هذا بقرون ليخبر الناس أنه في الآخرة سيعطى كل امرئ سجلًا لأعماله. [كيف ولماذا اعتنقوا الإسلام: د. محمد إبراهيم الحسن و: إبراهيم ابن صالح المعتاز، (ط١)، مكتبة الخريجي، (ص ٤٤)، الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان].

السادس والثلاثون: الإعجاز العلمي في جعل الله تعالى الجبال أوتادًا للأرض:

قال الله ﻷ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ:٦-٧].

عندما خلق الله ﷻ القارات، بدأت في شكل قشرة صلبة رقيقة تطفو على مادة الصهير الصخري، فأخذت تميد وتضطرب، فخلق الله تعالى الجبال البركانية التي كانت تخرج من تحت تلك القشرة، فترمي بالصخور خارج سطح الأرض ثم تعود منجذبة إلى الأرض، وتتراكم بعضها فوق بعض، مكونة الجبال؛ وتضغط بأثقالها

المتراكمة على الطبقة اللزجة، فتغرس فيها جزرًا من مادة الجبل، الذي يكون سببًا لثبات القشرة الأرضية واتزانها.

وجه الإعجاز:

في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال، والذي ظل حتى منتصف القرن التاسع عشر، جزم القرآن الكريم في هذه الآية بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلًا ووظيفة، وتبين حديثًا صدق هذا التشبيه الدقيق، فبما أن للوتد جزء ظاهر فوق سطح الأرض وجزء منغرس في باطن قشرة الأرض، ووظيفته تثبيت ما يتعلق به، فكذلك الجبال لها جزء ظاهر فوق قشرة الأرض، وجزء منغرس في باطنها يتناسب طردًا مع ارتفاعها وعلوها؛ ووظيفة الجبال هي تثبيت ألواح قشرة الأرض ومنعها من أن تميد وتضطرب بفعل الطبقة المنصهرة تحتها...

ولقد وصف الله تعالى وظيفة الجبال، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل:١٥]، وهنا الإشارة إلى الطريقة التي تكونت بها الجبال البركانية بإلقاء مادتها من باطن الأرض إلى الأعلى، ثم عودتها لتستقر على سطح الأرض.

إن من ينظر إلى الجبال على سطح الأرض لا يرى لها شكلًا يشبه الوتد أو المرساة، وإنما يراها كتلًا بارزة ترتفع فوق سطح الأرض، كما عرفها الجغرافيون والجيولوجيون. ولا يمكن لأحد أن يعرف شكلها الوتدي، أو الذي يشبه المرساة إلا إذا عرف جزءها الغائر في الصهير البركاني في منطقة الوشاح، وكان من المستحيل لأحد من البشر أن يتصور شيئًا من ذلك حتى ظهرت نظرية السير (جورج ايري) عام (١٨٥٥م).

فالجبال أوتاد بالنسبة لسطح الأرض، فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت، كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض، وكما تثبت السفن

بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية.

فمن أخبر محمد ﷺ بهذه الحقيقة الغائبة في باطن القشرة الأرضية وما تحتها على أعماق بعيدة تصل إلى عشرات الكيلومترات، قبل معرفة الناس لها بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا؟! ومن أخبره بوظيفة الجبال... وهي الحقيقة التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عام (١٩٦٠م)؟!

وهل شهد خلق الأرض وهي تميد؟ وتكوين الجبال البركانية عن طريق الإلقاء من باطن الأرض وإعادتها عليها لتستقر الأرض؟!

إنها البينة العلمية المعجزة المحسوسة الشاهدة بأن مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال، وعالم أسرار السموات والأرض، القائل: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان:٦].

السابع والثلاثون: معجزة أن السماء كانت دخانًا في بدء خلق الكون:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[فصلت:٩-١١].

يصرح القرآن الكريم هنا أن السماء كانت في بدء خلق الكون دخانًا، ويأتي العلم الحديث اليوم مصدقًا لما جاء به القرآن!!

فالعالم الفلكي (جيمس جينز) يقول: (الراجح أن مادة الكون بدأت غازًا منتشرًا خلال الفضاء بانتظام، وإن السدائم خلقت من تكاثف هذا الغاز).

إن تشبيه مادة خلق السموات بالدخان دون الهباء أو البخار أو الهواء يشير إشارة مدهشة رائعة إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه



صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران... كانت مادة مظلمة بذاتها، مفككة الأجزاء، خفيفة، ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما، وهي كالدخان العادي؛ كانت حاوية لرقائق أنواع المادة الثلاثة الصلبة والسائلة والغازية [م. فارس، (ص ١٦٥)].

الثامن والثلاثون: معجزة أن القمر كان في القديم كوكبًا مشتعلًا:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء:١٢].

تشير الآية الكريمة إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا في القرن العشرين، وهي أن القمر كان في القديم كوكبًا مشتعلًا ثم أطفأ الله تعالى نوره.

وقد ورد هذا الكشف العلمي على لسان حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حيث يقول: (كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل، فمحي؛ فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المحو) [الإعجاز العلمي في القرآن: محمد سلامة محمد علي].

إن هذا الاستنباط لابن عباس رضي الله عنهما من القرآن الكريم، كان منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة، فماذا يقول علماء الفلك؟ لقد اكتشفوا أن القمر كان مشتعلًا في القديم ثم مُحِي ضوؤه وانطفأ، فقد أظهرت المراصد المتطورة والأقمار الاصطناعية الأولى صورًا تفصيلية للقمر، وتبين من خلالها وجود فوهات لبراكين وارتفاعات وأحواض منخفضة، ولم يتيسر للعلماء معرفة طبيعة هذا القمر تمامًا حتى وطئ رائد الفضاء الأمريكي (نيل آرمسترونق) سطحه عام (١٩٦٩م)، ثم بوساطة وسائل النظر الفلكية الدقيقة، والدراسات الجيولوجية على سطحه، وبعد أن تم تحليل تربته، استطاع علماء الفضاء القول -حسب ناسا- بأن القمر قد تشكل منذ(٤،٦ سنة)، وتعرض خلال تشكله لاصطدامات كبيرة وهائلة مع الشهب والنيازك، وبفعل درجات الحرارة الهائلة

تم انصهار حاد في طبقاته، مما أدى إلى تشكيل الأحواض التي تدعى ماريـا (Maria)، وقمم وفوهات تدعى كرايترز (Criaters)، والتـي قامـت بـدورها بـإطلاق الحمـم البركانية الهائلة، فملأت أحواضـه في تلـك الفـترة، ثـم بـرد القمـر، فتوقفـت براكينـه وانطفأت حممه، وبذلك انطفأ القمر، وطمس بعـد أن كـان مشـتعلًا. [فـارس: الإعجـاز العلمي...، (ص ١٧٩)].

لقد فرق الله تعـالى بـين الضـياء والنـور في الشـمس والقمـر، فقـال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس:٥].

وفي أكثر القواميس: لا فـرق بـين النـور والضـياء، ولكـن الله تعـالى فـرق بينـهما، فالأشعة التي تأتي من مصدر ضوئي غـير مبـاشر سـميت بـالنور، فقـد كشـف العلـم الحديث أن الشمس هي مصدر الضياء، والضياء ينعكس على القمـر فيعطـي نـورًا..!! [فارس، (ص ١٩٤)].

التاسع والثلاثون: الإعجاز العلمي المحسوس في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾[الطور: ٦]:

من معاني كلمة (مسجور) المسخن.

لقد ثبت علميًا وجود براكين نارية تخرج مـن قـاع البحـر، ولم يعـرف ذلـك إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد أمكن تصوير هذه البراكين وقياس حرارة الماء الموضعية حول النار الخارجية من قاع البحر.

وتدل كلمة المسجور -أي: المسخن- تدل على وجـود نـار تحـت البحـر فتسـخنه، وهي نار البراكين المكتشفة حديثًا، وقد تكلم عنها القرآن قبل عشرات القـرون، وهـذا دليل قاطع على أنه وحي الله تعالى أنزله على محمد ﷺ.

وهنا نشير إلى ما ورد على لسان البروفسير (شرويدر)، وهو من أكـبر أسـاتذة علـم البحار الألمان، قال في ندوة عقدت بجامعة الملك عبد العزيز السعودية بعد أن عرضت عليه هذه الحقائق عن علم البحار، وبعد أن سمع معنى الآيات القرآنية، ووجهت إليـه عدة أسئلة؛ قال بالحرف الواحد: (إن ما سمعته في هذه الندوة، وما وجه إليّ من أسـئلة ليثبت أن كل ما نكتشفه نحن العلماء كان مذكورًا من قبل الله الخالق المجيد، مما يعني أن هنالك علمًا واحدًا وحقيقة واحدة، وإلهًا واحدًا؛ وإنني أطالب بنشر هذا العلم في مثـل هذه المجامع العلمية، ومن خلال العالم كله).

من المؤكد إن هذا العلم ليس من عند محمـد ﷺ؛ لأنـه عـاش في عصـر لا يمكـن للإنسان أن يغطس لمسافة عميقة في البحـر إلا بوسـاطة معـدات وأوكسـجين وأدوات غطس حتى يصل إلى هذه الحقائق العلمية التي تؤكد صـدق رسـالته، ووجـود خـالق يعرف أسرار ما خلق. [م. فارس، (ص ١٠١)].

الأربعون: الإعجاز العلمي في القسم الإلهي بـ(الجوار الكنس):

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾[التكوير: ١٥-١٦].

ولفظة: (خَنَسَ): تعني في اللغة: اختبأ واختفى، وهي صيغة مبالغـة: تعنـي أجـرام مبالغ في اختفائها.

لقد أقسم الله ﷻ بحقيقة لم يعرفها العلماء إلا منـذ سـنوات قليلـة، وهـي الثقـوب السوداء، وهي هالة من النجوم العملاقة تتركز عادة في قلب المجرات، وتعتـبر مراكـز ثقل للمجرات، وهي هالة كثيفة جدًا للمادة، لا يكـاد العقـل البشـري أن يتصـورها، تتكدس فيها المادة، بحيث تتلاشى المسافات البينية بين مكونـات الـذرات، لأن الـذرة أغلبها فارغ، وحجم المادة فيها ضـئيل للغايـة، فـإذا تلاشـت المسـافات بـين اللبنـات

الأساسية للذرة تضاءل حجمها تضاؤلًا شديدًا حتى لا تكاد تدرك؛ وبتكديس المادة في داخل النجم العملاق تصبح له جاذبية فوق التصور، تحول دون انفلات الضـوء منـه، وحينئذ يختفي هو ومركز ثقل المجرة؛ لأن كل ما في المجرة من أجـرام تـترابط بجاذبيـة الثقب الأسود كمركز للثقل لها.

ولكي يتكون ثقب أسود لا بد أن تنضبط كتلته، وهي تعـادل السـرعة الكونيـة أو سرعة الضوء؛ وعلى سـبيل التشـبيه فـإن نجـمًا في حجـم الشـمس التـي يبلـغ قطرهـا (١٣٩٢٠٠٠) كيلومترًا، تحتاج إلى الانضغاط حتى يصبح قطرها (٣) كيلومترات فقط كي تتحول إلى ثقب أسود.

أما الجوار الكنس... قالوا: الكنس في اللغة مثل (خـنس) بمعنـى اختبـأ واختفـى أيضًا؛ ولكن التكرار هنا ما معناه أنه ليس للتأكيد، ولذلك خلصت إلى أن الكنس هـن من الكَنْس، بمعنى مسح صـفحة السـماء، وليسـت مـن الاختفـاء. [موسـوعة الإعجـاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٤٠٠)، ومرجعه: من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، للدكتور زغلـول النجار، (ص ٢٦٢) – الثقوب السوداء].

وصدق الله العظـيم القائـل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٥٣].

الحادي والأربعون: الإعجاز العلمي في مصدر الحديد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد:٢٥].

قال أشهر علماء العالم في مجاله، البروفسير استروخ، مـن وكالـة الفضـاء الأمريكيـة ناسا: (لقد أجرينا أبحاثًا كثيرة على معادن الأرض، وأبحاثًا معمليـة... ولكـن المعـدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد، فذرات الحديد لها تكوين مميـز، إن الإلكترونـات

والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد فهي محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية، ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض، ولا بد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها).

[م. فارس: الإعجاز العلمي.. (ص ٥٣)؛ يوسف الحاج: موسوعة الإعجاز العلمي...، (١/ ٢٢٨)؛ والزنداني: وأنزلنا الحديد، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - العدد (٢٣)؛ د. زغلول البخار: موسوعة الإعجاز العلمي - جريدة الأهرام - يوليو (٢٠٠١م)؛ أ. د. علي الطاهر شرف الدين: تأصيل العلوم الطبيعية بين مستلزمات النهضة وتحديات العولمة - مجلة التعليم العالي والبحث العلمي - العدد (٣)، عام (٢٠٠٤م)؛ د. مبارك ضرار عبد الله: المعادن والعناصر الكيميائية في القرآن الكريم - مجلة أبحاث الإيمان - العدد (٢٠)، (رجب ١٤٢٧هـ/ أغسطس ٢٠٠٦م)، (ص ١٥٧-١٥٨)؛.. إلخ].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء الكيمياء قد وجدوا أن معدن الحديد هو أكثر المعادن ثباتًا، ولم يتوصل العلم إلى الآن من اكتشاف معدن له خواص الحديد في بأسه وقوته ومرونته وشدة تحمله للضغط، وهو أيضًا أكثر المعادن كثافة، حيث تصل كثافته إلى (٧٨٧٤كم٣)، وهذا يفيد الأرض في حفظ توازنها، كما يعتبر الحديد الذي يشكل (٣٥٪) من مكونات الأرض، أكثر العناصر مغناطيسية وذلك لحفظ توازنها. [يوسف الحاج (١/ ٢٢٦)].

وتجدر الإشارة كذلك إلى حديث نبوي عن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح».

وقد أخرج هذا الحديث: الديلمي [مسند الفردوس؛ والسيوطي: جمع الجوامع؛ وابن كثير: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف؛ والعجلوني: كشف الخفاء؛ والقرطبي: التفسير].

وعلى الرغم من صحة متن هذا الحديث في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة، إلا أن علماء الحديث قد حكموا عليه بالوضع، لأن فيه سيف بن محمد بن أخت سفيان

الثوري، الذي عدوه من الكذابين الوضاعين للحديث، ومن أولئك العلماء: ابن الجوزي، والإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو داود وزكريا الساجي، والنسائي، والدارقطني.

وجاء في حديث آخر فيه: أن الملائكة عندما عجبت من شدة الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: «**نعم، الحديد...**» [الترمذي (٣٣٦٦)؛ أحمد (١٢٢٥٣)، ضعفه محققو الموسوعة الحديثية، وخرجوه].

الثاني والأربعون: الصورة التي أذهلت العالم:

تقول الدكتورة أميرة الشنواني -دكتوراه في العلوم السياسية- في صحيفة الأهرام المصرية (٢/ ٣/ ٢٠٠٤م) ما خلاصته:

(... وبينما كنت أشاهد برنامج (صباح الخير يا مصر)، رأيت الإعلامي المتميز تامر أمين يطلعنا على صورة وخبر في إحدى الصحف، نقلًا عن بعض وكالات الأنباء، قائلًا: (إن علماء الفضاء يقولون إن الكرة الأرضية عندما تلتقط لها صور من الفضاء دائمًا تبدو في ظلام دامس، أو كأنها مجموعة من الصخور المظلمة، ولكن في آخر رحلة فضائية أطلقت فيها وكالة الفضاء الأمريكية قمرها الاصطناعي، ظهرت الأرض كالمعتاد كلها ظلمة، ما عدا بقعتين اثنتين ظهرتا مضيئتين بنور ساطع واضح، وهما الكعبة والمسجد النبوي!!) [وانظر: عرس، م. عبد الوهاب، مقال بعنوان: (نور الحق)، جريدة الجمهورية، بعددها الصادر يوم الخميس (١١/ ٣/ ٢٠٠٤م)؛ و: د. السيد فتحي عبد الشافي وسعد المنسوب محمد الشيخ: الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآن الكريم، (ص ٣٠٩- ٣١٩)].

يقول الأستاذ الشيخ **محمد عبد الجواد محمد** [في مقال له بمجلة المجاهد، عدد (٢٨٧)، (ربيع أول ١٤٢٥هـ/ مايو ٢٠٠٤م): (إن هذه الصورة... هي تفسير علمي محسوس، وتصديق

لكل ما ذكره القرآن الكريم عن الإسلام والقرآن والنبي ﷺ، وهو أن كل واحد من الثلاثة نور، بل تصحيح لفهمنا لمعنى النور كلما أطلق على الإسلام والقرآن وصاحب الرسالة ﷺ، فكنا نقره بأنه نور معنوي وليس محسوسًا تسجله الكاميرات وتشاهده العين.. فإذا بوكالة ناسا تكشف لنا أن أنوارهم حقيقية محسوسة تصورها كاميرات وكالة الفضاء الأمريكية ناسا). [انظر: الحقائق العلمية..: عبد الشافي والشيخ، (ص ٣١١-٣١٢)]. والحمد لله تعالى.

الثالث والأربعون: إعجاز القرآن في وصف ظلمات البحار العميقة وأمواجها الداخلية:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

لقد اكتشف العلم التجريبي خلال القرون الثلاثة الماضية، وبعد توفر الأجهزة الدقيقة، وبتضافر جهود أعداد كبيرة من الباحثين وعلماء البحار، الحقائق التالية:

وجود ظلمات في البحار العميقة، ووجود أمواج داخلية فيها مخالفة للأمواج السطحية، وأن هذه الظلمات متراكبة بعضها فوق بعض، حيث تزداد بالتدرج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تمامًا، وهذا ما قررته الآية المذكورة [النور: ٤٠].

لقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميقة، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، ولم يتمكن الإنسان من معرفة هذه الظلمات إلا بعد عام (١٩٣٠م)، وأخبر القرآن عن وجود موج داخلي في البحار لم يعرفه الإنسان إلا بعد عام (١٩٠٠م)، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين؛ كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات البحار العميقة، وهو

أمر لم يعرف إلا بعد تقدم العلم في القـرون الأخـيرة، كـما أن الأسـماك في تلـك الأعماق السحيقة ليس لها عيون، بل مجهـزة بأعضـاء منـيرة خلقهـا الله تعـالى في جسمها ينير طريقها!!

من أخبر محمدًا ﷺ بهذه الأسرار في أعماق البحار في وقت كانـت وسـائل البحـث العلمي التجريبي فيه معدومة، والخرافة والأسطورة هي الغالبة على سـكان الأرض في ذلـك الزمـان، خاصـة في مجـال البحـار؟! إنـه الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفرقان:٦]. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -منهج التـدريس الجـامعي-: أ.د. عبـد الله المصلح، ود. عبد الجواد الصاوي، بالاشتراك مـع أحـد عشر عالمًا، عـلى رأسـهم الشـيخ الـدكتور عبد المجيد الزنداني، (ص ٢٢٧-٢٢٨)، وانظر التفاصيل في (ص ٢١٦-٢٢٧)، وهي مهمـة جـدًا. وانظـر كـذلك: موسـوعة الإعجـاز العلمـي للعلامـة يوسـف الحـاج (١/ ٤٣٩-٤٤٤) بعنـوان: (ظلمات البحار، وحركة الأمواج)].

كان البروفسير (شرايدر) [وهو من أكبر علماء البحار بألمانيـا الغربيـة] يقـول: (إذا تقـدم العلم فلا بد أن يتراجع الدين...)، لكنه عندما سمع معاني آيـات القـرآن بهـت وقـال: (إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر!!). [انظر الموسوعة ليوسف الحاج (١/ ٤٤٤)].

الرابع والأربعون: الإعجاز العلمي في القسم بـ(مواقع النجوم):

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[الواقعة: ٧٥-٧٦].

إن القسم بمواقع النجوم يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حـدودًا لا يتصورها الخيال، فمثلًا نجد أن أقرب نجـم إلينـا في مجرتنـا وهـي الشـمس تبعـد عنـا بمقدار (٥٠٠) ثانية ضوئية، بينما النجم الذي يليها في القرب يبعـد عنـا بمقـدار أربـع سنوات ضوئية تقريبًا، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التـي يقطعهـا الضـوء في

مدة سنة كاملة، علمًا بأن سرعة الضوء تساوي (٣٠٠٠٠٠ كم) في الثانية؛ ثم إن هنـاك مدلولًا علميًا آخر عن مواقع النجوم، وهو أن موقع الشمس بالغ الدقة في وضعه لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضي، لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالي لاحترقـت الأرض من شدة حرارتها، ولو تأخرت عن موضـعها لـبردت الأرض وتجمـدت فيهـا البحار والمحيطات، وتصبح غير صالحة لحياة البشر عليها. [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ٦٢)].

قال مراجع كتاب: (الله يتجلى في عصر العلم: د. محمد جمال الدين الأفنـدي، (ص ١٦٤)): (... ويحدث علماء الفلك بأن المسافات بـين النجـوم تبلـغ حـد الخيـال، فـإن مجموعات النجوم التي تُكَوِّن أقرب مجرات السماء منا تبعد عنا بنحو (٧٠٠) ألف سـنة ضوئية، والسنة الضوئية تعادل عشرات الملايين من الكيلومترات).

الخامس والأربعون: الإعجاز العلمي الاجتماعي في بيت العنكبوت:

قال تعـالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾[العنكبوت: ٤١].

ما دلالة قوله تعالى: (اتخذت)، بالتأنيث وليس التـذكير؟ ومـا دلالـة قولـه تعـالى: (بيت العنكبوت)، ولم يقل: خيط العنكبوت؟!

جاء في كتاب: (العلوم في القرآن) للدكتورين: محمد جميـل الحبـال ومقـداد مرعـي الجواري [بتصرف من فارس، (ص ٦٥)]: (هنـا معجـزة، (اتخـذت) دلالـة عـلى الأنثـى، فالأنثى هي التي تصنع البيوت، وتفرز مادة البناء، وفي الآيـة إعجـاز علمـي اجتماعـي هائل، فأولًا: من ناحية المتانة فقد ثبت أن خيط العنكبوت كخيط من أقوى المـواد، بـل أقوى من الحديد والألمنيوم كخيط من الناحية العلمية الميكانيكيـة، وإنـما هنـا المقصـود

ببيت العنكبوت: الوهن الاجتماعي، ففي دراسة علم الحشرات وتصرفات وسلوك الحشرات وجدوا أن بيت العنكبوت من أوهن البيوت اجتماعيًا؛ فالأنثى عندما يلقحها الذكر تقوم بقتله!! وعندما تفقس البيوض وتنتج العناكب، تقتل العناكب بعضها البعض، ويحدث الأكل فيما بينها، فهي إشارة إعجازية رائعة على وهن البيت اجتماعيًا، فالذي يتخذ من دون الله تعالى أولياء فهو في وهن اجتماعي شديد كحال سلوك العناكب في محيطها الاجتماعي...).

السادس والأربعون: موت الوليد بن المغيرة وأبي لهب وزوجته أم جميل والعاص بن وائل السهمي على الكفر:

قال الله تعالى عن الوليد: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾[المدثر:٢٦]. وقال عن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾[المسد:٣]. وقال عن أم جميل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾[المسد:٤-٥]. وقال عن العاص بن وائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[مريم:٧٧-٨٠].

والإعجاز هنا: كان من الممكن أن يدّعوا الإسلام نفاقًا، ولكن لم يحدث ذلك، فماتوا على الكفر!! ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾[الأعراف:١٨٥]؛ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[يوسف:١١١]؛ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[الجاثية:٦]؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النساء:٨٦].

ومع وجود الآلاف من مثل هذه المعجزة البينة لم تخل حتى مجتمعات المسلمين من الكفر والنفاق، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾[الأنعام:٧].

السابع والأربعون: التفسير العلمي لقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾[ص:٣٣]:

لقد فُسرت هذه الآية قديمًا بأن النبي سليمان ﷺ عندما عُرضت عليه الخيل في وقت صلاة العصر، شغلته وألهته عن الصلاة، فتملكه الغضب، وأخذ يقطع سيقان هذه الخيول وأعناقها بالسيف، وينافي هذا التفسير ما جاء في الآية من أن سليمان ﷺ كان نعم العبد الأواب، فكيف يصدر عن نبي أثنى عليه القرآن الكريم هذا الثناء أن يكون قاسيًا إلى حد قتل الخيول البريئة التي هي عدة المؤمنين في قتال أعداء الدين والذود عن حياض الأوطان بغير ذنب جنته، وقد فُسرت الآيات بعد ذلك تفسيرًا معقولًا أقرب إلى الواقع المفهوم، وهو أن سليمان ﷺ عُرضت عليه بعد الظهر الخيل الأصيلة التي تسكن حين وقوفها وتسرع حين سيرها، فقال سليمان ﷺ: إني أُشربت حب الخيل لأنها عدة الخير، وهو الجهاد في سبيل الله، وأن حبها نشأ عن ذكري لربي، وما زال مشغولًا بعرضها حتى غابت عن ناظريه؛ ثم إنه أمر بردها عليه ليتعرف على أحوالها، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها ترفقًا بها وحبًا لها واستئناسًا لها.

وبعد أن تقدم العلم كثيرًا نجد أن الإنسان قد توصل في مجال الطب البيطري إلى أن ما فعله سليمان ﷺ كان هو الأسلوب الأمثل في معاملة الحيوانات، واستئناسها، بإدخال الطمأنينة والهدوء عليها، بأن يربت على رؤوسها ورقابها وظهورها عندما يريد فحصها أو استخدامها، ومن ذلك يتضح ما بين التفسيرين من فرق شاسع. [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ٤٥-٤٦)].

الثامن والأربعون: توسط مكة اليابسة:

يقول الأستاذ: محمد حسين يوسف [في كتابه: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ١٩٧-١٩٨)]: (أما عن توسط مكة لليابسة فقد أشار إلى ذلك العلم

الحديث على يد البروفسور: حسين كمال الدين، أستاذ المساحة بجامعة القاهرة ﷺ، حيث بيَّن أن زاوية الانحراف المغناطيسي عند مكة تساوي صفرًا؛ ولذا فإن خط الطول الأساس المار بمكة هو خط مستقيم؛ في حين أن خط جرينتش خط مائل منحني، وعنده تكون زاوية الانحراف المغناطيسي كبيرة، ولو استبدل خط جرينتش بخط مكة لاستقام مقياس الزمن العالمي، وبعبارة أخرى: لو اختير خط الطول الأساس المار بمكة المكرمة، ورسمت خطوط الطول الأخرى موازية له، لانتظم شكل الخرائط.

وخلاصة القول:... ولا يستطيع أحد أن يفسر لماذا لا يوجد انحراف مغناطيسي كبير في خط طول مكة، علمًا بأنه موجود مثل الخطوط الأخرى، ولكن هي آية من آيات الله العلي القدير، وكرامة من كرامات هذا المكان لتشهد على أنه بيت الله تعالى القديم).

التاسع والأربعون: اتساع الكون:

في أواخر الستينات اكتشف (هابل) أن الكون يتسع ويتباعد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات:٤٧] مما حير (أينشتاين) الذي وضع نظرية ثبوت الكون، وجعله يزور (هابل) في مرصده ليرى هذا الكشف المذهل، ولو قرءوا تفسير ابن زيد لهذه الآية، وجدوا أنه يصل إلى طرف من هذا الكشف.

ومما يجدر ذكره القول: إن استخدام اسم الفاعل (لموسعون) يفيد الاستمرار، ويعني أننا وسعنا السماء ونوسعها وسنوسعها، ولو أردت أن تتحقق من توسع الكون، فانظر إلى السماء في يوم مظلم لترى الكم الهائل من النجوم في هذا الكون. [يوسف الحاج: سبق ذكره (١/ ٣٢١)].

الخمسون: ذكر السمع قبل البصر في آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

عظم الله تعالى حاستي السمع والبصر عندما وصف ذاته العلية في أول سورة الإسراء، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾، وقد خص الله تعالى هاتين الحاستين بالذكر

في العديد من الآيات لأنهما أدوات التلقي والإيمان وقبول الهداية، وقد جاء ذكر السمع قبل البصر في كثير من الآيات، ولكن في حالة سلب النعمة يوم الحساب كما قال علماء الدين: (يأتي ذكر البصر مقدمًا على السمع)، ومن هذا المنطلق بدأت فكرة البحث في مراحل النمو الجنيني، ولأن خلق السمع والبصر مقام إنشاء فقد توقعت [الكاتبة البروف: سوسن أحمد عبد الرحمن، أستاذ علم التشريح والأجنة، كلية الطب، جامعة عين شمس، مصر]، أن يرد ذكر السمع قبل البصر في آيات الخلق، وفعلًا جاء خلق السمع والبصر في خمس سور في القرآن الكريم: [النحل: ٧٨؛ المؤمنون:٧٨، السجدة: ٧-٩؛ الملك:٢٣؛ الإنسان:٢]، وكلها جاء فيها ذكر السمع قبل البصر، وكذلك في الحديث الصحيح جاء ذكر السمع قبل البصر.

قال حذيفة بن أسد الغفاري: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا مرَّ بالنطفة ثنيان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها...**» [مسلم (٢٦٤٥)].

وبالبحث في مراجع علم الأجنة وجدنا أن المسميات التي وضعها العلماء الغربيون في القرن العشرين ترجمتها الحرفية، هي ما جاء في الحديث الصحيح منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة، فقد جاءت كلمة (شق) في رواية الإمام مسلم المذكورة: [٢٦٤٥] (خلق). أما شق السمع ففي رواية: عن عائشة ﵂، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن: «**سجد وجهي لمن خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين**» [الترمذي (٣٤٢٥) - صحيح؛ أحمد (٢٤٠٢٢) - صحيح؛ الحاكم (١/ ٢٢٠) - صحيح] فكلمة شق سمعه وبصره فائقة الإعجاز؛ لأن شق البصر يوجد في الأنبوبة العصبية قبل إطلاقها، ثم تبرز من الشق حويصلة البصر، أما شق السمع فإن الأذن الخارجية تتكون حول شق في العنق يسمى الشق الأول، ثم تنمو لأعلى حتى

تحاذي العينين، أما تصـوير الوجـه وتعـديل وضـع العينـين فجـاء مصـداقًا للحـديث الشريف بعد اليوم الثاني والأربعين لكي تتضح معالم الآدمية ويتم نمـو جهـاز السـمع [الأذن الخارجيـة وتـتعظم العظـيمات الـثلاث الموجـودة في الأذن الوسـطى [المطرقـة والسـندان والركاب]، وتتعظم قوقعة الأذن الداخلية فتصبح كلهـا مثـل عظـام الشـخص البـالغ، وكذلك تتم إحاطة ألياف السمع العصبية إحاطة تامة بغمد الميلـين في الحيـاة الجنينيـة، لأن الجنـين في ظلـمات ثلاثـة: ظلمـة جـدار الـبطن وجـدار الـرحم والأغشـية المحيطة بالجنين – المشيمة.

ويكون الوليد ضعيف البصر، ولا يتم نمو البقعة الصفراء المسـؤولة عـن الإبصـار المركزي إلا في وجود الضوء، وتحاط ألياف العصب البصري إحاطة تامة بغمـد الميلـين بعد ثلاثة أو أربعة شهور من الولادة، وتزيد شدة الإبصار تدريجيًا حتى تصل إلى خُمس إبصار البالغ في ستة شهور، ولكن حاسة السمع تسود على حاسـة البصـر حتـى هـذا العمر، أما ما يترتب على حاسة السمع فهو الكلام؛ لأن السمع نوع من الإحساس يـتم تحويله إلى لغة قبل أن يتم تخزينها في المخ؛ ولذلك فإن الطفل الذي لا يسـمع لا يـتكلم أبدًا، أما من يتكلم بلسان الأم فمن السهل عليه بحاسة السمع أن يحاكي لغات أخـرى وبدون أن يعلم كيف تكتب هذه اللغات.

الواحد والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى (الأغشية حول الجنين): الظلمات الثلاث:

قال الله عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[الزمر:٦].

يقول علم الأجنة الحديث: إن الجنين في بطن أمه يكون محاطًا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضـوء ولا الحـرارة، وهـي الأغشـية التـي تعـرف باسـم المنباريـة

والأمنيونية، والخوربونية؛ هذا الغشاء الذي لا ينفذ منه الضوء والحرارة ولا الماء، ألا يسمى باللغة العربية ظلمة؟! وقالوا بتعبير يفهمه العوام: هي: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة!!.

الثاني والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى حقيقة نقصان الأرض من أطرافها:

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[الرعد:٤١]. وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾[الأنبياء:٤٤].

نلحظ أن الآية التي تبدأ بـ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ تلفت نظرنا إلى أن الإنسان في يوم من الأيام بعد أن تتقدم العلوم وتتقدم الاكتشافات التكنولوجيا، سوف يرى الأرض رأي العين من الفضاء، وفي هذا الوقت سوف يتأكد من وصف الأرض الذي ذكرته الآية، وهكذا تخبرنا الآية القرآنية بوصف دقيق لشكل الأرض، ثم تخبرنا أيضًا بأن الإنسان في يوم من الأيام سوف يرى ذلك بعينه من الفضاء!!

ويمكن إجمال آراء العلماء في تفسير ظاهرة إنقاص الأرض من أطرافها على النحو التالي:

١- أن الأرض تنكمش بسبب هروب ملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والمواد السائلة والصلبة من فوهات البراكين، مما يؤدي إلى إنقاص الأرض من أطرافها.

٢- نتيجة دوران الأرض حول محورها؛ فقد انبعجت قليلًا عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلًا عند القطبين حتى أصبح الفرق بين القطر القطبي والقطر الاستوائي للأرض هو (٤٢ كم)، وهذا إنقاص للأرض من أطرافها؛ وهذا الرأي هو ما ذكره

أصحاب التعليق العلمي في تفسير المنتخب، (ص ٣٦١، ٤٧٩) [المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: المنتخب في تفسير القرآن، (ط١٨/ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)].

٣- تأكل عوامل التعرية من قمم الجبال، وتلقي بها في المنخفضات، وهذا إنقاص للأرض من أطرافها.

٤- إن في طغيان البحار على اليابسة إنقاص للأرض من أطرافها. [د. السيد فتحي عبد الشافي والأستاذ سعد المنسوب محمد الشيخ: الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآن الكريم، (ص ١٨٠-١٨١). وانظر: آراء المفسرين القدامى في تفسير الآيتين؛ ومن المحدثين صاحب الظلال...].

الثالث والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى البرازخ المرئية وغير المرئية بين مياه الأنهار ومياه البحار والمحيطات:

يقول الله عز وجل: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾[الرحمن: ١٩، ٢٠]؛ و: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾[الفرقان:٥٣]؛ و﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[النمل: ٦١].

يقول الأستاذ حسن يوسف، في كتابه: العلم يقول: القرآن هو الحق [ص ٥٠]: (قد أثبت العلم الحديث بالعديد من القياسات والاستشعار عن بعد بالأقمار الصناعية، اكتشاف كتل جبلية على هيئة سلاسل في قيعان البحار والمحيطات، تسمى (الجبال البحرية)، وهذه الجبال توجد في الحد الفاصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي عند مضيق جبل طارق، كما توجد أيضًا سلسلة من الجبال بين شمالي الأطلنطي وجنوبه، وذلك في صورة حزامين عرضيين من الجبال، يفصلان بين أمريكا الجنوبية من جهة الجنوب، وبين كندا وأوروبا من جهة الشمال، كما توجد سلسلة أخرى بين

البحرين الأبيض والأسود. وجميع هذه السلاسل الجبلية تساعد بدرجة معينة على ألا يطغى ماء البحرين على الآخر).

والعامل الآخر: اختلاف خصائص كل من مياه البحرين عن الآخر، من حيث درجة الملوحة والحرارة ومقدار الكثافة، وأنواع الأحياء المائية فيه، وقابلية ذوبان الأكسجين في مياهه، وغير ذلك من الخصائص الأخرى، وجميعها تقوم بدورها كبرزخ وحاجز غير مرئي بين البحرين يمنع طغيان أحدهما على الآخر.

((والحجر المحجور): مكان تنزل به مياه الأنهار، فحجرها الله ﷻ على البحر، وجعلها شيئًا منفصلًا تمامًا عن البحر، أي مكانًا معزولًا حسب قوة اندفاع مياه النهر، وسمي علميًا: (عصب النهر)، أو: (مصبات الأنهار).

والمحجور: أي محجور على حياة أسماك خاصة لا تعيش في مياه البحار، ولا تعيش في مياه الأنهار، فهي محجورة في منطقة مصب الأنهار، وهذا الحجر المحجور أو منطقة (مصب الأنهار)، هي المنطقة الفاصلة أيضًا بين نهاية مجرى النهر والحاجز الذي وضعه الله ﷻ خلف الحجر المحجور الذي يفصل بين مياه النهر والبحر). [ماهر أحمد صوفي: آيات الله في البحار، دار البيان، (١٩٩٦م)، (ص ٦٦)].

(ومن أمثلة هذه الظاهرة البحرية عيون الماء العذب التي تفيض قرب البحرين وقطر) داخل مياه الخليج العربي المالحة، ونهر النيل الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط، ومياه نهر الأمازون الذي يصب في المحيط الأطلنطي، وكذلك يوجد هذا (برزخ) عند ملتقى نهر الكنجوالجامونة في مدينة (الله آباد). [د. أحمد فؤاد باشا: الإسلام والعولمة - مفاهيم وقضايا، كتاب الجمهورية عدد (يوليو ٢٠٠٠م)، (ص ١٢٢)].

ويضيف د. زغلول النجار بوجود هذه الظاهرة عند مصبي دمياط ورشيد بمصر، وفي دولة البحرين [كتابه: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، (ص ٢١) وما

بعدها]. وانظر كذلك تفاصيل كلامه عنـد د. عبـد الشـافي والمنسـوب [سبق ذكـره، (ص ٢٢٥) وما بعدها].

الرابع والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى منازل القمر:

قال المـولى ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾[يونس:٣٩].

فالمنازل المشار إليها هنا: فأول ما يبدو القمر صغيرًا، ثم يتزايد نـوره وجرمـه حتـى يكون بدرًا، ثم يتناقص حتى يرجع إلى حالته في تمام شهر في شـكل العرجـون القـديم، سباطة النخلة إذا شاخت ويبست واعوجت، لتشبه الهلال الذي ينتهي إليه القمر.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ ﴾، منازل القمر: أوضـاعه المختلفـة بالنسبة للأرض والشمس، وهي التي تنتج منها أوجه القمـر، ومـن ثـم يمكـن تحديـد الشـهر القمري، وهو العلامة الفلكية الظاهرة لتحديد الشهر، ويتم القمر دورته حول الأرض في (٢٩) يومًا، و(١٢) ساعة، و(٤٤) دقيقة، و(٢.٨) ثانية [المنتخب، (ص ٢٨٥)].

ويقصد بـ (وقدره منازل): جعله ينزل كل ليلـة منـزلًا مـن النجـوم، وهـي (٢٨) منزلًا كل شهر، وتسمى هذه المنازل (البروج).

فبالشمس تعرف الأيام، وبدوران القمر تعرف الشهور والأعوام، وبهذا يعرف الإنسـان الأعوام والشهور والأيام. [د. السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن، (ص ٢٠)].

وقد انتهت بحوث الفلكيين إلى أن القمـر أول الشـهر يكـون (المحـاق) لانمحـاق نوره ولاختفائه، ثم بعد سبعة أيام يصير إلى (التربيع الأول)، ثم يصـير (بـدرًا) وسـط الشهر، ثم يتحول إلى (التربيع الثاني) بعد الأسبوع الثالث، ثـم يكـون في المحـاق آخـر الشهر، وهكذا دواليك. [نفسه، (ص ١٩)].



أما الحديث عن تفاصيل هذه المنازل، فليرجع إليها عند: د. محمد أحمد سليمان [سياحة فضائية في آفاق علم الفلك، (ص ٥١-٥٢)]، كما نقلها عنه د. عبد الشافي والمنسوب [الحقائق العلمية المعاصرة، (ص ٢٤١-٢٤٢)].

الخامس والخمسون: الإعجاز العلمي في: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ①﴾ [الطارق:١]:

يقول الأستاذ حسن يوسف [العلم يقول: القرآن هو الحق: (ص ١٢)]: (يقول علماء الفلك وعلماء الفيزياء الكونية: إن هناك نوعًا من النجوم تمر بمرحلة من عمرها تتكدس فيها المادة، وتتعادل فيها الشحنات الكهربية، بحيث لا يوجد بها شحنات موجبة أو سالبة.. وتحدث هذه النجوم نبضات تشبه نبضات القلب، وقد سماها العلماء من أجل ذلك: (النجوم النابضة). وهذه الأصوات التي تحدثها هذه النجوم هي أقرب ما تكون إلى أصوات الطرقات على الأبواب، وقد سجل العلماء أخيرًا هذه الطرقات لهذه النجوم، وهكذا نرى دقة التسمية، عندما سمى القرآن هذا النجم بأنه النجم الطارق، هذا السر الغريب من أسرار هذا الكون العجيب). [وانظر تفصيل هذه الظاهرة عند: د. زغلول: من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، (ص ٥٥)؛ ونقل ذلك عنه: د. عبد الشافي والمنسوب: الحقائق العلمية المعاصرة...، (ص ٢٦٣-٢٦٥)] وكما قال د. زغلول: (فإن [سماع أصوات للنجم مسجلة على (CD)، وهي وثيقة علمية معترف بها] سماع صوتين: صوت يشبه نبضات القلب، وصوت يشبه الطرق بسرعة على الباب، فالطرق على الباب حينما يكون قريبًا منا، وكلما يبتعد يقل فيشبه نبضات القلب، طرق يتسارع، كالطرق على الباب، سجل في ناسا). [نفسه].

السادس والخمسون: الإعجاز العلمي في ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾:

قال المولى عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ [الطارق: ١-٣].

يقول علم الفلك الحديث: (النجوم النيوترونية تزداد كتلتها عن كتلة الشـمس بـما يقارب (٤.١)، بداية عندما يبدأ النجم بالانهيـار عـلى نفسـه يـنكمش بســرعة ويزيـد الضغط على ذرات مواده فتتحطم الذرات، ويتكون المائع الإلكتروني، ويـزداد سـمكه فيبقى عاجزًا عن تحمل الضغط الناتج من ثقل الـنجم وجاذبيتـه، وتكـون النتيجـة أن تُسْحق جاذبية النجم (المائع الإلكتروني) كما سحقت من قبل قشــرة الـذرة، ويسـتمر انهيار العملاق الأحمر على نفسه، فتلتصق الإلكترونات بالبروتينـات، ثـم تتحـد معهـا مكونة نيوترونات جديدة، وتبدأ طبقات النجم وهي تنهار في التطلع إلى منقـذ ينقـذها من براثن هذا الوحش المسمى بقوة ثقل النجم والذي يسحق كل مـا يجـده أمامـه؛ وفي النهاية تتحد كل الإلكترونات بالبروتونـات، فيصـبح الـنجم عبـارة عـن نيوترونـات منضغطة على بعضها بدون وجود أي فراغ، فتصل كثافة النجم إلى رقم قياسي يصـعب تصوره، ويتقلص العملاق الأحمر إلى ما يسمى بالنجم النيوتروني (Pulsars)، فالكُرَة من المادة النيوترونية في حجم كرة القـدم يبلـغ وزنهـا خمسـين ألـف بليـون طـن، فـإذا وضعت هذه الكرة على الأرض أو على أي جرم سماوي آخر فلن يتحمل سـطحه هـذا الوزن الهائل، فتسقط الكرة خلال الأرض أو خلال الجرم السـماوي تاركًـا وراءه ثقبًـا يتناسب مع حجمه...). [يوسف الحاج: موسـوعة الإعجـاز العلمـي في القـرآن والسُـنَّة، (ص ٣٣٢-٣٣٣)؛ وانظر تفاصيل أخرى (ص ٣٣٣-٣٣٤)، ومرجعه: د. يحيى المحجري: آيات قرآنيـة في مشكاة العلم].

السـابع والخمسـون: الإعجـاز العلمـي فـي الإشـارة إلـى انشـقاق السـماء كالوردة الحمراء المدهنة:

قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ ﴾[الرحمن: ٣٧].

فسر المفسرون القدامى والمحدثون أن هذا المشهد سيحدث يوم القيامة من شدة الهول، ولكن الدكتور زغلول النجار [من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، (ص ٦٥-٦٦)] ساق حقيقة حدثت بالفعل تمثل هذا المشهد الكوني البديع، فيقول: (ولكن من رحمة الله تعالى بنا أنه أبقى لنا من الشواهد الحسية والظواهر المرئية في صفحة الكون ما يؤكد على إمكانية حدوث كل ما أخبر عنه في كتابه الخاتم عن مظاهر الآخرة، ومنها تصدع السماء وانشقاقها حتى تصير وردة كالدهان.

ومن أمثلة ذلك: ما أرسله إلينا تليسكوب هابل الفضائي من صور لعدد من النجوم عند انفجارها؛ ففي (٣١/ أكتوبر/ ١٩٩٩م) قامت مؤسسة الفضاء الأمريكية ناسا بنشر عدد من الصور التي بثها هذا التليسكوب الفضائي لنجوم في مرحلة الانفجار في سديم يعرف باسم (سديم عين القط)، وهذه النجوم على مسافة منا تقدر بحوالي ثلاثة آلاف من السنين الضوئية، وكل نجم من تلك النجوم المنفجرة يبدو في الصورة على هيئة وردة حمراء عملاقة، لها من صفاء اللون ما جعل العلماء يصفونها بالتعبير الذي ترجمته (وردة حمراء مدهنة)، وكأنه التعبير القرآني بدقته اللفظية والدلالية).

الثامن والخمسون: المؤيدات العلمية المادية المحسوسة على وجود أحياء على الكواكب الأخرى:

قال الله ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[الشورى:٢٩].

يقول الدكتور السيد الجميلي في كتابة [الإعجاز العلمي في القرآن، (ص ٩٤)]: (إن هناك اتفاق بين العلماء على ما يؤكد وجود حياة على المريخ والزهرة، وذلك لأنهما يحتويان على ذرات النيتروجين والكربون التي تعد هي أصل الحياة.

وقد اتفقت آراء العلماء على أن المريخ والزهرة هما أكثر الكواكب ملائمة ومواءمة ومناسبة للحياة، وهذا أمر مجمع عليه من غير نكير....)، ويسرد الأستاذ عبد الرازق

نوفل في كتابه [الله والعلم الحديث، (ص ٢١٢) وما بعـدها] عدة أحداث حدثت عـلى الأرض تؤكد على وجود أحياء على الكواكب العلوية الأخرى، وأهمها السفن الفضـائية الغريبـة، والأطباق الطائرة، والأجهزة التكنولوجية المتقدمة جدًا، والتي تهبط على الأرض، والتي تتكون من عناصر معدنية يستحيل وجودها عـلى الأرض في صـورتها التـي عليهـا مثـل الكوبالت الخالص، فيقول تحت عنوان (سكني الكواكب): أشار القرآن الكـريم في أكثـر من موضع، إلى أن في السماء أحياء عقلاء يسبحون له، وأن القرآن الكريم هو أول كتـاب تعرض لوجود أو وصل إلى شواهد وأدلة تعتبر فتحًا جديدًا في العلم الحديث.

جاء في كتاب للميجور (دونالد كيهو)، القومندان في سلاح البحرية الأمريكية، أنه في (٣٠/ ٦/ ١٩٠٨م)، حدث في وسط سيبيريا أن سـقط مـا سـمي في ذلـك الوقـت، شهابًا جبارًا، وقد بلغ الدمار الذي أحدثه، أنه اعتبر من أعظم الكوارث الطبيعية التـي حلت بكوكبنا، وقد أثبت عالم روسي هو البروف (ليابونوف) عام (١٩٥٣م)، أي: بعد دراسة (٤٥) عام، أن ذلك الحدث لم يكن جرمًا سماويًا إطلاقًا، وإنما سفينة كوكبية آتية من كوكب الزهرة، وأن من مات من الأهـالي بسـبب الحـادث كـان مـوتهم بـأعراض مرض غامض ينطبق على من يمـوت بالإشـعاع الـذري، وأن الحديـد البـاقي لا يشـبه حديد النيازك ولا حديد الأرض إطلاقًا.

وفي ربيع (١٩٥٣م) وجد في (كونكتكت) الأمريكية كرة معدنية غريبة قطرها متر، وفي داخلها أسطوانة تدور بسرعة كبيرة، وقد نقلت هذه الكـرة الغامضـة في الحـال إلى المعامل لتحليلها، ونزلت نتيجة التحليل كالصاعقة على علماء الطبيعة والكيمياء، الذين استولى عليهم الذعر والذهول، فقد ثبت أن ذلك المعدن كان مـن الكوبالـت في حالتـه الطبيعية الخالصة، ليس له وجود على الكرة الأرضية، وكان القـرار الـذي اتخـذ بشـأنه وهو أنه من كوكب آخر.

ويقول الفلكيون في الوقت الحـاضر: إنـه مـن المؤكـد أن هنـاك ملايـين الكواكـب مسكونة بمخلوقات ذكية، وقد أبدت هذه النظرية بعض الوقائع التي لوحظت خـلال السنوات الثلاث الأخيرة، وأهم هذه الأدلة هـو بـلا شـك الانفجـار الغـامض الـذي حدث في المريخ عام (١٩٤٩م)، وقد لحظ هذه الظاهرة فلكـي يابـاني مشـهور اسـمه: (تسوينوساهيكلي)، ويرى أن هذا الانفجار قد حدث بوسـاطة مخلوقـات عـلى درجـة هائلة من الذكاء، أطلقت من مكانها قذيفة على المريخ للبحث والدراسة والاختبار.

ومما أذيع في (١٥/ ١/ ١٩٥٧م) أنه قد تكونـت جمعيـة في مدريـد تضـم مائـة عضـو، وتطلق على نفسها جمعية (أصدقاء الزائرين من عالم الفضاء)، وذلك لدراسة الظواهر غـير العادية التي تؤكد بأن الأرض يزورها رجال الفضاء، أو على الأقل من كواكب أخرى.

وذكر نوفل شواهد أخرى في هـذا المجـال في التـواريخ التاليـة: (نـوفمبر١٩٥٤)، (١٧/ ١/ ١٩٥٧م)، أوائـل عـام (١٩٦٤م، ١٩٦٧م، ١٤/ ٢/ ١٩٦٩م). [انظـره: في المرجـع المـذكور، ونقلـه عنـه: د. عبـد الشـافي والأسـتاذ المنسـوب: الحقـائق العلميـة المعـاصرة، (ص ٢٩٢-٢٩٤)].

التاسع والخمسون: الإشارة العلمية الإعجازية في عدم استطاعة الإنسان إنقاذ ما يسلبه الذباب:

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[الحج: ٧٣-٧٤].

يقول علم الأحياء الحديث: عن الـذباب إذا وقـف عـلى أي طعـام، بحيـث تعلـق بأرجله جزيئات منه، فإنـه يصـب في الحـال عـلى هـذه الجزيئـات عصـارات هاضـمة

بوساطة خرطوم، فتزيد ما علق بأرجله، ثم يمتصه الذباب، بحيث لا يستطيع أحد أن ينقذ أو أن يسترد ما سلبه الذباب.

معلومة دقيقة في غاية الغرابة، تخبرنا بها الآية القرآنية عن هذه الحشرة الصغيرة، معلومة لم يكن يعلمها أحد في العالم كله وقت نزول القرآن!! [حسين يوسف: العلم يقول: القرآن هو الحق، (ص ٩٧). وانظر: تفاصيل شرح الجهاز الهضمي للذبابة عند د. عبد الحميد محمد عبد العزيز: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، (ص ٨٨-٨٩). نقلًا عن: د. عبد الشافي والمنسوب: الحقائق العلمية المعاصرة، (ص ٢٩٩-٣٠٠)].

الستون: الإعجاز الغيبي في كفاية الله عز وجل نبيه محمد ﷺ المستهزئين:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[الحجر:٩٥].

نقف وقفتين عند هذه الآية:

الأولى: ما هي صور الاستهزاء التي مارسها الكفار ضد الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، خاصة في العهد المكي.

والوقفة الثانية: عند مصير زعماء من المشركين استهزءوا بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

الوقفة الأولى: هو ما حكاه القرآن الكريم، كما في الآيات القرآنية الآتية:

١- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[الأنعام:٥٣].

٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾[المطففين:٢٩-٣١].

٣- ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[الأنفال:٣٢].

روى البخاري [ح ٤٦٤٨] أن هذه الآية نزلت في أبي جهل -أحد كبار المستهزئين-.

ومما جاء في أحداث السيرة من صور الاستهزاء:

٤- قول الوليد بن المغيرة -أحد كبار المستهزئين: «أينزل القرآن على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما الفريقين؟! -يعني بالقريتين: مكة والطائف». فنزل فيه قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[الزخرف:٣١].

٥- قول أبي جهل، عندما أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[الدخان:٤٥]، تخويفًا للمشركين بها، قال: «يا معشر قريش: هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها، لنتزقمن منها»، وزعم أنه سيطأ رقبة الرسول ﷺ إذا غبر وجهه بين ظهراني قريش -أي: صلى أمامهم-، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

وشجرة الزقوم من أخبث الشجر المر بتهامة، نبتها في الجحيم، وطعام الأثيم: أي طعام ذوي الإثم الكبير أمثال أبي جهل وزمرته من المستهزئين.

٦- أما عن الاستهزاء الجماعي [فانظر: المطففين: ٢٩-٣١؛ والأنعام: ٥٢، ١٠].

٧- وضع عقبة بن أبي معيط -من كبار المستهزئين- سلا جزور بين كتفي الرسول ﷺ وهو ساجد في صلاته، وشيعته يتمايلون بعضهم على بعض ويضحكون، فلما قضى صلاته دعا عليهم، يقول ابن مسعود رضي الله عنه -راوي الخبر-: «فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق، لقد رأيت الذين سمى، صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر» [البخاري (٢٩٣٤)؛ مسلم (١٧٩٤)].

٨- وكان أبو الأصداء، أو ابن الأصداء، يقول للرسول ﷺ: إنما يعلمك أهل الكتاب أساطيرهم؛ ويقول للناس: هو مُعَلَّمٌ مجنون. [البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٥٠)].

٩- كان الأسود بن عبد يغوث الزهري -أحد كبار المستهزئين- إذا رأى المسلمين قال لشرذمته: «قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر»، ويقول للنبي ﷺ: «أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد!!» [نفسه].

١٠- وللعاص بن وائل -أحد كبار المستهزئين- قصة مشهورة مع خباب رضي الله عنه، يقول خباب: «كنت قينًا [أي: حدادًا] بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[مريم: ٧٧-٧٨]- [البخاري (٤٧٣٣)؛ مسلم (٢٧٩٥)].

١١- وكان الحارث بن عيطلة يقول مستهزئًا بالبعث: «لقد غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث». وفيه نزلت الآية: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

١٢- عتبة بن أبي لهب، من سفهاء المستهزئين:

روى البيهقي [الدلائل (٢/ ١٩٦)]، وأبو نعيم [الدلائل، (ص ٣٨٩- ٣٩٠)]، وابن عساكر [التاريخ (١١/ ٦٥)]، وابن كثير [التاريخ (٧/ ٤٢١)] قصة استهزائه، فقالوا: (وكان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، وتجهز معهما هبار بن الأسود، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد فلأذينه في ربه، فانطلق حتى آتى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد: أنا أكفر بالذي دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى؛ فقال ﷺ: **«اللهم سلط**

عليه كلبًا من كلابك»، وأبو طالب حاضر، فوجم منها، وقال: «ما أغناك عن دعوة ابن أخي»، ثم انصرف عنه، فرجع إلى أبيه، فقال له: أي بُني، ما قلت له؟ قال: كفرت بالإله الذي يعبد، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**». فقال أبو لهب: أي بني، والله ما آمن عليك دعوة محمد. وخرجوا إلى الشام، قال هبار: فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهي مأسدة [أي مكان أسود]، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، وإنها مسرح الضيغم؟ [أي: الأسود]. فقال لنا أبو لهب: يا معشر قريش إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي. فقلنا: أجل يا أبا لهب، فقال: إن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وأفرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها، ففعلنا، فجاء الأسد، فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد، تقبض، ثم وثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه، ثم هزمه هزمة، ففضخ رأسه، فقال: سيفي يا كلب (قتلني)، فلم يقدر على غير ذلك (ومات مكانه)، ووثبنا، فانطلق الأسد، وقد فضخ رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد). [انظر القصة أيضًا محققة في: صحيح السيرة النبوية للشيخ محمد بن رزق طرهوني (٢/ ٢٢٩-٢٣٠)، حاشية (٩٤٠)، (ص ٦٦٥) وما بعدها].

١٣- أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ:

وقصصه في إيذاء الرسول ﷺ ومحاولات صد الناس عن دعوته مشهورة، ومما سجله القرآن الكريم: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾... [المسد:١-٣]؛ وذلك يوم صدع الرسول ﷺ بالدعوة علنًا من على جبل الصفا، واجتمع إليه الناس، فقال لهم: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم**»، قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام منصرفًا. فنزلت: ﴿تَبَّتْ﴾ [البخاري (٤٩٧١-٤٩٧٢)؛ مسلم (٢٠٨)].

١٤- أم جميل -العوراء، أو أروى- بنت حرب بن أمية، زوجة أبي لهب، وأخت أبي سفيان.

حاولت الاعتداء على الرسول ﷺ بحرج، فحماه الله ﷻ منها. [البيهقي: دلائل النبوة (٢/ ١٩٦)، بإسناد حسن لغيره]، وكانت تحمل الحطب ذي الشوك لتضعه في طريقه، كما حكاه القرآن الكريم: [المسد: ٤].

والوقفة الثانية: عند مصير زعماء المستهزئين:

ولبيان الوعيد الإلهي لنبيه ورسوله محمد ﷺ -أي: كفايته له من المستهزئين-: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، نذكر الأمثلة التالية:

روى البيهقي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما [الدلائل (١/ ٨٥)] في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن عبد المطلب -أبو زمعة، من بني أسد بن عبد العزى-، والحارث بين عيطل السهمي، والعاص بن وائل السهمي، فأتاه جبريل ﷺ، فشكاهم إليه ﷺ، فأراه الوليد أبا عمرو بن المغيرة، فأومأ جبريل ﷺ إلى أبجله [عرق غليظ في اليد أو الرجل إذا قطع نزف حتى الموت، ومثله الأكحل]، فقال ﷺ لجبريل ﷺ: «ما صنعت به؟! قال جبريل ﷺ: كفيته»، ثم أراه الأسود بن عبد المطلب، فأومأ جبريل إلى عينيه، فقال: «ما صنعت؟ قال: كفيته»، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فأومأ جبريل إلى رأسه، فقال ﷺ: «ما صنعت، قال: كفيته»، ثم أراه الحارث بن عيطل السهمي، فأومأ إلى رأسه أو إلى بطنه، فقال ﷺ: «ما صنعت؟ قال: كفيته»، ومر به العاص بن وائل فأومأ إلى أخمصه، فقال: «ما صنعت؟ قال: كفيته».

فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش [يبري] نبلًا له، فأصاب أبجله فقطعها. [وفي رواية أن جبريل مر به فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله، كان قد أصابه قبل ذلك بسنتين، فانتفض به فقتله].

وأما الأسود بن عبد المطلب فعمي، ومنهم من يقول: نزل تحت سمرة [شجرة طلح] فجعل يقول: يا بني! ألا تدفعون عني؟ قد قتلت. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا، وجعل يقول: يا بني! ألا تمنعون عني؟ قد هلكت، ها هو ذا أُطعن بالشوك في عيني، فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. [وفي رواية أن جبريل دحى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي]، وفي رواية للبلاذري أنه كلم رسول الله ﷺ بكلام شق عليه، فدعا عليه أن يعمي بصره ويثكل ولده، فذكر العمى، وقتل ولداه زمعة وعقيل يوم بدر [البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٤٨-١٤٩)]. [وفي رواية بزيادة: مقتل ابنه الحارث أيضًا].

وأما الأسود بن عبد يغوث الزهري، فخرج في رأسه قروح، فمات منها [وهو ابن خال الرسول ﷺ]. [وفي رواية أن الأسود بن عبد يغوث الزهري هذا، مر به جبريل ﷺ، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات من ذلك]. وقال البلاذري في الأنساب: أنه خرج من أهله فأصابته السَّمُوم فاسود وجهه حتى صار حبشيًا، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب، فرجع متلددًا [أي: يتلفت يمينًا وشمالًا تحيرًا] حتى مات عطشًا. وذكر رواية أخرى -أي البلاذري- ويقال إن جبريل أومأ إلى رأسه فضربته الأكلة فأمتخض رأسه قيحًا، ويقال: أومأ إلى بطنه، فاستسقى بطنه، ومات حَبَنًا -أي: بعظم البطن- ويقال: إنه عطش فشرب الماء حتى انشقت بطنه [أنساب الأشراف (١/ ١٣١-١٣٢)]. [ورواية فعل جبريل ﷺ ههنا عند: الطبراني والضياء في المختارة، بسند صحيح].

قال الشامي [السبل (٢/ ٦٠٦)]: وروى ابن أبي حاتم والبلاذري بسند صحيح عن عكرمة أن جبريل حنى ظهر الأسود حتى احقوقف صدره، فقال ﷺ: «**خالي خالي، فقال جبريل: دعه عنك يا محمد، فقد كفيته**». قال الشامي [(٢/ ٦٠٦)]: (ولا تعارض بين هذه الروايات لاحتمال أن جميعها حصل له).

وأما الحارث بن عيطل، ويقال الحارث بن قيس السهمي، وهو ابـن العَيْطَلَـةِ، فأخـذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج من فمه فمات منها. [وفي رواية: أن جبريـل مـر بـه، فأشـار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله]. قال الشامي في السبل: (فأكل حوتًا مملوحًا، فلم يزل يشـرب عليه الماء حتى انقد بطنه. ويقال: إنه أصابته الذبحة. وقال بعضهم: امتخض رأسه قيحًا.

وأما العاص بن وائل: فبينما هو كذلك يومًا إذ دخل في رأسه شِبْرِقة [نوع من الشوك] حتى امتلأت منها. فكان هلاكه.

وفي رواية: أن جبريل ﷺ مر به، فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به حماره على نبات خفيف، فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته).

وفي رواية البلاذري: (... ركب حمارًا له، ويقال: بغلة بيضاء... وأن رجله انتفخت من هذه الشوكة حتى صارت كعنق البعير، وقال: ويقال: إنه لما ربض به حماره أو بغلته لدغ فمات مكانه!).

أما أبو جهل -عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي- فقد كان مصيره القتـل كـافرًا يوم بدر. [انظر: قصته في أحداث غزوة بدر عند البخاري (٣١٤١)؛ ومسلم (١٧٥٢)؛ وغيرهما].

أما النضر بن الحارث -أحد زعماء المستهزئين- الـذي كـان عـلى رأس وفـد كفـار قريش إلى المدينة ليأتي من اليهود بأسئلة تعجيزية لتطـرح عـلى محمـد ﷺ، فقالـت لهـم يهود: سلوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، ولكن الله ﷻ أبطل كيدهم وأنـزل قرآنًا في الإجابة عن هذه الأسئلة [انظـر: أحمـد: الفـتح الربـاني (١٨/ ١٩٦-١٩٧)، وإسـناده صـحيح]. وذهب إلى فارس ليجمع قصص ملوكهم، وجلس يحدث بهـا، ويقـول: إنهـا أفضل من قصص قرآن محمد [انظر في كتب التفسير: لقمان: ٦؛ القلم:١٥].

وكان مصيره القتل صبرًا من بين أسرى بدر، لأنهم من مجرمـي الحـرب [ابـن هشـام (٢/ ٣٤٧)، من حديث ابن إسحاق، بإسناد منقطع].

أما أمية بن خلف -أحد كبار المستهزئين- الذي أنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾[الهمزة:١] [انظر: التفاسير، والسبل للشـامي (٢/ ٦١٢)]، فقد قتل يوم بدر كافرًا على يد بلال رضي الله عنه -فقد كان من أشـد النـاس تعـذيبًا لـبلال، لأنـه كـان سـيده حينـذاك. [البخاري (٢٣٠)؛ ابن هشام (٢/ ٣٢٩) من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وأما أبي بن خلف -أحد كبار المستهزئين- فقد قتله النبي ﷺ بحربة يوم أحد [ابـن هشـام (٣/ ١٢٢-١٢٣)، من حـديث ابـن إسـحاق بسـند منقطـع؛ ابـن كثـير: البدايـة (٤/ ٣٢)، مـن روايـة أبي الأسود عن عروة، ومن رواية الزهري عن ابن المسيب، وكلاهما مرسلًا، ومراسيل ابن المسيب قوية].

وأما عقبة بن أبي معيط، فقد أُسر يوم بدر، وأمر النبي ﷺ بضرب عنقه، لأنه كان من مجرمي الحرب [ابن هشام (٢/ ٣٤٧) من حديث ابن إسحاق، بدون إسناد؛ وانظر ما جاء عنه في كتب التفسير: ابن كثير (٦/ ١١٦) حاشية ٥] عند قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾[الفرقان: ٢٧-٢٩]، [الطبري: التفسير (١٧/ ٤٤٠)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي].

وأما مصير عتبة بن أبي لهب فقد ذكرناه في قصة استهزائه بالرسول ﷺ والقرآن الكريم.

وأما مصير أبي لهب فقد أهلكه الله بداء العَدَسة [بثرة تخرج بالبدن فتقتل]. وهو مـرض كانت العرب تتشاءم به وتفر ممن ظهر عليه، فلما أصابه هذا الداء تركه أهلـه حتـى مـات، ومكث مدة لا يدفن حتى خافوا العار، فحفروا له حفرة فرموه فيها. وفي رواية: أنهم رموا على جثته أحجارًا من السطح فغطته وصارت قبرًا له. [انظر الشامي: السبل (٢/ ٦١٠)].

وأما مصير أم جميل، فبينما هي ذات يوم تحمل حزمة من الحطـب أعيتهـا، فقعـدت على حجر لتستريح، أتاها ملك فجذبها من خلفها بالحبل الذي كـان في عنقهـا فخنقهـا به، فهلكت من ساعتها. [السبل (٢/ ٦١٠)].

وأما مصير أبي الأصداء؛ فقد روي أن الرسول ﷺ دعـا عليـه، فعنـدما كـان عـلى جبـل اجتمعت عليه الأروَى [أنثى الوعل] فنطحته حتى قتلته. [انظر: أنساب الأشراف (١/ ١٥٠)].

ولقد كفى الله عز وجل كل المستهزئين، غير الـذين ذكرنـا أمثـال: عتيـب [حفيـد الأسـود ابن عبد يغوث]؛ وحارث بن زمعة [ابن عم عتيب]؛ والأخنس بـن شريـق؛ وطعيمـة بـن عدي، الذي قتل صبرًا وهو أسير يوم بـدر، لأنـه كـان مـن مجرمـي الحـرب [البخـاري ٤٠٧٢]؛ والعاص بن منبه، الذي مات بسم شوكة هو في طريقه إلى الطائف؛ ومنبـه بـن الحجاج، الذي عمي ثم هلك متألمًا؛ وزبير بن أمية، الذي مات موبـوءًا. [انظـر: أنسـاب الأشراف (١/ ١٢٤-١٥٦)، فقد ذكر قصص المستهزئين ومصيرهم. تحقيق د. محمد حميد الله].

وحتى الكلاب ردت بطريقتها على من اسـتهزأ بالرسـول ﷺ بعـد وفاتـه بقـرون، وذلـك بـدليل القصـة التـي رواهـا ابـن حجـر [في: الـدرر الكامنـة في أعيـان المائـة الثامنـة (٣/ ٢٠٢)]، ونصها: (كـان النصـارى ينشـرون دعـاتهم بـين قبائـل المغـول طمعًـا في تنصيرهم، وقد مهد لهم الطاغية هولاكو سبيل ذلك بتأثير من زوجته النصـرانية ظفـر خاتون.. وفي حفل بمناسبة تنصر أحد أمراء المغول، شتم أحد المتحدثين الرسـول ﷺ، فزمجر كلب كان مربوطًا وهاج، ثم وثـب عـلى الشـاتم، فخلصـوه منـه. فقـال بعـض الحضور للشاتم: هذا بكلامك في حق محمد ﷺ، فقال: كـلا، بـل هـذا الكلـب عزيـز النفس، فعندما رآني أشير بيدي ظن أني أريد ضربه، ثم عاد للاستهزاء والسـب المقـذع للنبي ﷺ، عندها قطع الكلب رباطه ووثب على عنق المستهزئ، فقلـع زوره في الحـال، فمات المستهزئ من فوره؛ عندها أسلم نحو أربعين ألفًا من المغول).

وانتقم الله عز وجل كذلك بالذين استهزءوا بسنة الرسـول ﷺ، ومثـال ذلـك مـا ذكـره ابن خلكان [في وفيات الأعيان (٣/ ٣١٧)]: (... بلغنا أن رجـلًا يـدعى أبـا سـلامة، مـن ناحية بصرى، كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة، فقـال:

والله لا أستاك إلا في المخرج -يعني: دبره- فأخذ سواكًا فوضعه في مخرجه ثم أخرجـه، فمكث بعد تسعة أشهر وهو يشكو من ألم في البطن والمخرج، فوضع ولـدًا عـلى صـفة جرذان، له أربعة قوائم ورأسه كرأس السمكة، وله أربعة أنياب بارزة، وذنـب طويـل، وأربعة أصابع، وله دبر كدبر الأرنب. ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صـيحات، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأس الحيوان الغريب، وعـاش ذلـك الرجـل بعـد وضعه له يومين ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي).

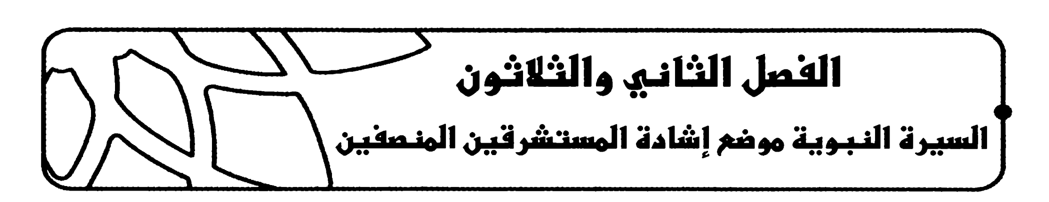
قال ابن كثير [في البداية ١٣/ ٢٦٣]: (وقد شاهد ذلك جماعة من أهـل تلـك الناحيـة وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيًا، ومـنهم مـن رآه بعـد موتـه).
[وانظر: مجدي الشـهاوي: دعـوات المظلـوم وعجائـب قـدرة الله في الظـالمين؛ والنـووي في بسـتان العارفين، ص ٥١].

ومثـال آخـر ذكـره ابـن القـيم [في مفتـاح السـعادة ومنشـور ولايـة أهـل العلـم والإرادة (١/ ١٠٦-١٠٧)، تحقيق: عصام الدين سيد الصبابطي]، ونصـه: (وقـال أحمـد بـن مـروان الملايك في كتاب المجالسة له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري. قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنـا عنـد بعـض المحـدثين بالبصـرة، فحـدثنا بحـديث النبـي ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العمل رضًا بما يصنع» وفي المجلس معنا رجـل مـن المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث، فقال والله لأطرقن غدًا نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه جميعًا، ووقعت فيهـا الآكلـة [داء يأكـل الأعضاء] [قلت: أخرج هذا الحديث: أبـو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢) - وصـحـحه الألبـاني؛ الترمـذي (٢٦٨٣)، وقـال: حسـن صـحيح؛ ابـن ماجـه (٢٢٣)؛ البيهقـي: الأدب (١٠٤٥، ١٠٤٦)، وفي الشعب (١٦٩٦، ١٦٩٧)، حسن - كما قال محققو ترغيب المنذري (ح ١٠٦)].

وقال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي، قال: كنـا نمشـي ومعنـا رجل ماجن متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحـة الملائكـة لا تكسـروها، كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط.

ومثال ثالث: أن أعين بن ضـبيعة المجاشـعي اطلـع في هـودج عائشـة، ﵂ أيـام موقعة الجمل، يريد أن ينظر إليها، وكان من أرباب الفتن، فقالـت ﵂ : «إليـك عنـي لعنك الله»، فقال: والله ما أرى إلا حمـيراء، فقالـت: «هتـك الله سـترك، وقطـع يـدك، وأبدى عورتك». فقتل بالبصرة وسلب، وقطعـت يـده، ورمـي عريانـًا في خربـة مـن خرابات الأزد. [ابن كثير: البداية ٧/ ٢٤٥].





الفصل الثاني والثلاثون

السيرة النبوية موضع إشادة المستشرقين المنصفين

إن الإشارة إلى شهادات منصفة لعدد من أعلام المستشرقين أو أعلام غير مسلمين، بعظمة النبي محمد ﷺ ورسالته، لم تلجئنا إليها الحاجة أو الضرورة، ولكن لكونها شهادة من أناس ينتمون إلى ملل مخالفة للإسلام ونبي الإسلام، وتعطي بعدًا يتمثل في أن ذلك المستشرق أو هذا لو لم ير الحقيقة سافرة يستحيل عليه وأمثاله طمسها، لذا فلا يجد بدًا من إبدائها ولو مكرها، على الرغم من أن كتب بعضهم تطفح بالعديد من الدس الصليبي عمدًا، أو بمعلومات غير صحيحة جهلًا أو بسوء فهم أو اغترار بآراء آخرين لهم أهداف وأغراض لا تمت للحقيقة بصلة.

لقد تركز معظم ما اقتبسناه من كتابات هؤلاء الأعلام من غير المسلمين أشادوا بالنبي محمد ﷺ من حيث خُلقه العظيم الذي أشاد به الله ﷻ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم:٤]، وما دعا إليه من هذه الأخلاق العظيمة وطبقه في حياته من القيم الحضارية، التي قادت بعضهم إلى الاعتراف بسبق وأصالة الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان على غيره من المواثيق والإعلانات العالمية قديمًا وحديثًا، بل قادت بعضهم إلى اعتناق الإسلام والدعوة إليه بحماس يلفت الأنظار، وهي قيم العقلانية في العقيدة والفكر، والقيم الإنسانية التي على رأسها قيمة الرحمة ومعانيها مثل: الشفقة، والعطف، واللطف، والفضل، والتسامح، واللين، والغفران، والعفو، والقيم الأخرى الكثيرة مثل: العدل، والمساواة، والتوازن، والحقانية (حقوق الإنسان)، والمرونة، ونبذ القومية، والعصبية، والعنصرية، والقبلية، والظلم، والفساد الخلقي، والفرقة، والتكبر، والغلو،

والجفاء، وحقوق المرأة، والطفل، والضعفاء، مثـل المسـنين والمعـوقين، والمـرضى، وغـير المسلمين، والجيران، والأرحام، وكل الكائنات ذات الكبد الرطب، وأسرى الحرب.

وأشاد بخصائص الإسلام التي مصدرها القرآن الكريم الذي هو مصـدر أخـلاق النبي ﷺ، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما سـئلت عـن خلقـه: «**كـان خلقـة القرآن**». وتصدرت قيمة الرحمة كل القيم، ولا غرابة في ذلـك؛ لأن الله ﷻ بعثـه رحمـة للعـالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧]، وقـال ﷺ عـن نفسـه: «**أنا الرحمة المهداة**». والدليل عـلى ذلـك: تكـرار مفـردة الرحمـة ومترادفاتهـا ومعانيهـا (٩٧٠) مرة في القرآن الكريم.

أما تكرار هذه القيم في السنة والسيرة النبوية، فهي بلا شك أكـبر مـن هـذا العـدد بكثير، وسوف تتضح لنا هذه الحقيقة من أقوالهم.

أقوال الفئة الأولى الذين أسلموا، منهم:

١- أصحمة النجاشي:

الملك الحبشي الذي أسلم في زمـان الرسـول ﷺ، بعـد هجـرة المسـلمين الأولى إلى الحبشة، وكان من أسباب إسلامه ما علمه من المسلمين عن صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به لا يختلف عما جاء به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

٢- اللورد هدلي (البريطاني):

الذي تسمى بـ: (الحاج اللورد هدلي الفاروق) (مهندس من أغنى البريطانيين وأعلى حسبًا).

يقف مندهشًا عند معاملة النبي ﷺ للأسرى من المشركين في معركة بـدر الكـبرى، ملاحظًا فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل: (أفـلا يـدل هذا على أن محمدًا لم يكن متصفًا بالقسوة ولا متعطشًا للدماء كما يقـول خصـومه؟ بـل كان دائمًا يعمل حقن الدماء قدر المستطاع).

٣- محمد أسد (النمساوي):

[سياسي وصحفي ومؤلف]، قضى خمسة أعوام بالحجاز ونجد، وأغلبها بالمدينة المنورة، كان اسمه ليوبولدفايس، له كتابان هامان هما: (الإسلام على مفترق الطرق)، و(الطريق إلى مكة).

وأصدر جريدة شهرية أسمها (عرفات)، يترجم فيها معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية: يقول عن محمد ﷺ: (... لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير المملوء رحمة، وخيرًا، وحنانًا، وحكمة، وحجىً، ونهى، وأفكارًا غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه...) ويقول أيضًا عن محمد ﷺ: (ولم يكن متكبرًا).

٤- لين بول:

[مستشرق بريطاني]، له (رسالة في تاريخ العرب)، قال فيها: (إن محمدًا كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة، كاللطف، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، فقد كان رسولًا من الله...) إلى أن قال: (إن ما أتصف به محمد من الصبر، واحتمال المكاره، والعفو عند المقدرة، لبرهان لنا واضح على أنه كان صادقًا، إذ يقول كما قال الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، فمحمد ذو يقين راسخ وقوة عزيمة هائلة).

يذكر فهمي عبدالوهاب في كتابه (محمد رسول الله في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتّابه): أن لين بول قد اعتنق الإسلام عام (١٩١٤م)، ويبدو أن مما دعاه لاعتناق الإسلام هو ما ذكرناه من أقواله.

٥- السير جلال الدين لودربرنتون (البريطاني):

[من رجال الدولة وبارون] يقول: إنه درس سيرة الرسول ﷺ فأدرك أنه من المستحيل أن يتطرق الشك إلى حديثه وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله، وأنه ناقش العقائد

المسيحية السائدة واحدة تلو الأخرى، فانتهى إلى تعظيم الإسلام، واقتناعه به، وإيمانه بأنه دين الحق، والصدق، واليسر، والتسامح، دين الإخلاص في الحب والأخوّة.

٦- يوسف إسلام -سابقًا كان استينفنس- (البريطاني):

[المغني الشهير]. من أسباب اعتناقه الإسلام: عظمة سيرة الرسول ﷺ في كافة جوانب الحياة [الحلبي (ص١١٥)].

٧- إبراهيم خليل (المصري):

[كان قسيسًا ومنصرًا قبطيًا، درس اللاهوت في جامعة برينستون الأمريكية، له كتاب (بشارات محمد في التوراة والإنجيل)].

من أسباب اعتناقه الإسلام:

أ- عظمة السيرة النبوية في كافة المجالات.

ب- سعة المغفرة والرحمة والعفو في السيرة النبوية [العشي، ص ١٠٧، الحلبي، ص١٠٥، ١١١].

٨- مريم جميلة:

أمريكية يهودية، أسلمت، وكان من أسباب إسلامها صفة الرحمة للعالمين في كتاب الله ﷻ وسيرة محمد ﷺ وألفت كتاب بعنوان: (Islam Versus AHl -Elkitab، past and present)، ومعناه: موقف الإسلام من أهل الكتاب قديمًا وحديثًا.

ولها مكاتبات مع الشيخ أبي الأعلى المورودي، فأسلمت على يديه، وتزوجت باكستانيًا مسلمًا.

الفئة الثانية: الذين أشادوا برسول الله ورسالته ولم يسلموا

٩- آرلونوف:

[باحث وكاتب روسي، كتب عن محمد ﷺ في مجلة الثقافة الروسية، المجلد السابع، العدد التاسع]. أشاد بدور النبي ﷺ في توحيد العرب تحت مدنية وحضارة راقية.

١٠- كارلين آرمسترونق:

كاتبة بريطانية وأستاذة في جامعة Baeck للدراسات اليهودية، مؤلفة أفضل كتاب بعنوان: (The Battle for God)، الذي ترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة، ولها كتاب عن الإسلام، وكتاب عن بوذا، وكتاب عن سيرة الرسول محمد ﷺ.

قالت: إن محمدًا ﷺ جاء بتوحيد سليم وبسيط، وهو عندها ما فشلت فيه الديانات السابقة، واستأصل جذور العنف عند العرب، وجعلهم مستعدين للانطلاق في مرحلة جديدة من تاريخهم، وإنه كان محبذًا للحوار والصلح مع أعدائه، ولذا قالت متسائلة عن أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر): (كيف يمكن أن نجد علاقة بين ما جرى ومحمد؟).

١١- السير توماس آرنولد:

المستشرق البريطاني المشهور، صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام. أشاد بروح الأخوّة في الإسلام وتميز نظام الإسلام السياسي، وسماحة الإسلام، وقال: (إن محمدًا يعد نموذجًا للداعية الإسلامي، ومنبع الرحمة) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ١٧٥، ١٧٩)].

١٢- أندرو ولیامز:

المستشرق الأمريكي، قال في كتابه (أمريكي في البلاد العربية): (إن محمدًا ترك رسالة ضخمة لنشر الدين وإقامة الحضارة، ودعا إلى أخوّة جديدة بين المسلمين، تقوم على المساواة بينهم) [نفسه، (ص١٨٣)].

١٣- واشنجطون أيرفينج:

الأمريكي والقصصي وكاتب السير المشهور، أبو الأدب الأمريكي، ومخترع الأقصوصة، من كتبه (محمد وخلفاؤه)، الذي فيه: (والرسول ﷺ كان عادلًا يحب العدل...).

وفي مؤلفه (حياة محمد)، أشاد بروح العفو والرحمة والشفقة التي أبداها محمد تجاه مواطنيه عند فتح مكة، وتوج بها انتصاره [حياة محمد ﷺ (٧٢)].

وفي كتابه (محمد وخلفاؤه)، أشاد بقدراته العقلية، وحبه العدل، ونفى الأهداف الدنيوية في دعوته ودأبه لإيصال الناس إلى التوحيد الصافي والصحيح، وأنه لم يسع للحرب من أجل الحرب وسفك الدماء، بل فرض عليه الواقع الحرب، فكان لابد من مواجهة القوة بالقوة، فهي من صنع الظروف لا التخطيط المسبق، وهاجم من أساءوا فهم الرسول محمد ﷺ، ويقول: (وأكثر من ذلك وجه هذه القوى التي كانت تفتك ببعضها البعض نحو الأخوّة الإسلامية في إيمان واحد، وجعلها أهلًا لأن تحمل رسالة سلام إلى أمم الأرض، لا لهدف حربي توسعي يهدف إلى التوسع والسيطرة العمياء، بل لهدف جهادي يهدف إلى توعية شعوب الأرض بالمعنى المطلق لله الواحد، ليرتفع بالفكر الإنساني إلى مصاف (الوعي) الجدير بإنسانية الإنسان، وهذا ما يميز الرسول ﷺ، ولم يكن مجرد عبقرية حربية كغيره من الفاتحين) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ١٨٥، ١٩٠)].

١٤- ريدي بارت:

العالم الألماني الكبير، والأستاذ الجامعي الكثير التصانيف، التي منها: ترجمته للقرآن الكريم، وكتاب في سيرة النبي ﷺ، له رسالة (محمد والقرآن)، قصد بها تفهيم رسالة محمد ﷺ، وكان شديد التعاطف مع الإسلام، وهذا واضح في قوله: (كان من بين ممثلي

حركة التنوير من رأوا في النبي العربي ﷺ أدلة الله، ومشرعًا حكيمًا ورسـولًا للفضـيلة، وناطقًا بكلمة الدين الطبعي الفطري، ومبشرًا به) [نفسه، ص ١٩٢].

١٥- بوسورت سميث:

عالم فيزيائي ومفكر إنجليزي كبير، من كتبه: (محمد والإسـلام)، و(حيـاة محمـد)، قال في كتاب (محمد والإسلام): (لا نستطيع أن نقول في حقه إلا إنه رجل عظيم بعقله، وعلمه، وأخلاقه، وبلاغته وتدينه).

وقال في كتاب (محمد والمحمديـة): (كانـت مهمـة محمـد إنسـانية، أن يرتقـي بالإنسـان ويعلمه ويحضره، فقد كان أكثر من مخلص صادق وأمين، كان محمد ﷺ إنسانًا حتى العظم).

١٦- مارسيل بوازار:

المفكر والقانوني الفرنسي المشهور، كان دبلوماسيًا، وخاصة لدى الأمم المتحدة، لـه أربعون كتابًا، يقول في كتابه (إنسانية الإسلام) [ص٤٦]: (وكما يظهر التاريخ الرسـول ﷺ قائدًا عظيمًا مِلء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قـوي الشـكيمة، لـه سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة، وتعطي كل ذي حق حقه... لابد أن محمدًا ﷺ الذي عرف كيف ينتزع رضا الجماهير به إنسان فوق مستوى البشـر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله)، ويقول: (لقد كان محمد نبيًا قبل أن يكون مصلحًا اجتماعيًا) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص١٨٥، ١٩٠)].

وقال: (وعلى الرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان محمد ﷺ يعفـو عنـد المقـدرة). [نفسه، (ص ٢٠١)- معدي، (ص ١١٤، ١١٥)].

يعد ما كتبه في إنسانية الإنسـان مـن الكتابـات العميقـة والمنصـفة للرسـول ﷺ في جانب الأخلاق الإنسانية.

١٧- الكولونيل ر.ف بودلي (الإنجليزي)؛ من كتبه (حياة محمد).

أنحى في كتابه المذكور بالأئمة على المتعصبين من الكتاب وما راحوا يرجونه من أباطيل عن الإسلام منذ الحروب الصليبية، وعزا ذلك إلى أنهم لم يفهموا محمدًا وشريعته، وأشاد بوضوح سيرة محمد ﷺ في كتابه المذكور، قائلًا: (إننا لا نجد بين أيدينا ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا، ولا نعرف شيئًا عن الثلاثين سنة التي مهدت الطريق للسنوات الثلاثة من حياة عيسى، التي بلغ فيها أوجه، ولكننا نجد أن قصة حياة محمد ودعوته موجودة بين أيدينا وواضحة كل الوضوح....).

وفي شأن فرية إصابة محمد ﷺ بالصرع يذكر ويقول: (وهل يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد ﷺ قبل مماته بأسبوع... وقد ذخر عقله بأفكار لامعة، وما كان الله ليجعل من أحد نبيًا مصابًا بالصرع، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو بلا شك محمد ﷺ). وأشاد بقيمة المساواة التي جاء بها محمد ﷺ [ولنا دراسة نقدية لكتابه المذكور، انظر النت].

١٨- واصف بطرس غالي:

[مفكر مصري نصراني]. عينه سعد زغلول وزيرًا لخارجية مصر في حكومته، ومع هذا عارض سعد زغلول في مسألة خلع الحجاب، عندما بدأ سعد في الخلع بزوجته صفية زغلول، ووقف مع معارضه علي الشمسي، ومما جاء على لسانه: (لقد عمل محمد جهد طاقته لتحرير النساء، وكذلك بالقدوة الحسنة التي استنها).

ويعد من أكبر أنصار المرأة، إذ كان عظيم الاحترام والتكريم للنساء [انظر: مجلة المنار ومجلة البيان، والإنترنت].

وقال: إن المعاصرين يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة التي حققها محمد أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا

إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٣٨)].

ومن الأعمال الباهرة التي أشاد بها: وضع الرسول ﷺ أساس الحضارة العربية الإسلامية والأمة العربية والإسلامية.

١٩- الكونت هنري دي بولا نفيلييه: المؤرخ الفرنسي.

ألف العديد من الكتب، منها: (حياة محمد).

كان أول مؤرخ أوروبي ينصف النبي محمد ﷺ في هذا الكتاب، وأبدى فيه إعجابه به وبالإسلام ومبادئه، خاصة عقيدة التوحيد الصافية، وأنكر على من أتهم محمدًا بالنقائص [نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١].

٢٠- إميل درمنغهم:

من كبار رجال الفكر الفرنسيين، من مؤلفاته العديدة: (حياة محمد)، عَرَّض بالأب لامنس الفرنسي، قائلًا: (إنه من أشدهم تعصبًا، وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته لشدة تحامله على الإسلام ونبيه).

أشاد بخلق النبي ﷺ في السلم والحرب، فقال (.... كان حكيمًا رقيق القلب، عظيم الإنسانية)، وأشاد بالقيم الحضارية في معاملة المدنيين أثناء الحرب، وفي النفس والأموال: الأجراء والمسنين والأطفال والنساء والرهبان، وعدم هدم المنازل وإتلاف الزرع والضرع، إلا لضرورة حربية قاهرة [انظر كتابه المذكور، ترجمة زعيتر، (ط٢/ ١٩٨٨م)، (ص ٣٥٠)].

وأشاد بعدم اغتراره بالمال والجاه، وتفضيله إسلام رجل واحد على أعظم الغنائم [نفسه، ص٣٦٠، معدي، ص١٢١].

٢١- دوزي:

المستشرق الهولندي الكبير، صاحب المؤلفات الكثيرة، التي منها: (تاريخ المسـلمين في أسبانيا)، قال فيه: (... لقد جاء محمد بتعاليم رفعت مستوى البشر إلى عـالم الكـمال) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، ص ٢٥٢].

٢٢- جارسان دي تاسي:

أحد أبرز المستعربين الفرنسيين، ومن أقواله المنصفة: (محمد نبي حقيقي بكل معنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أنه هو المرشد القائد إلى طريق النجاة) [نفسه، ص٢٥٣].

٢٣- فردريك ديتريسي:

المستشرق الألماني، صاحب الإنتاج الغزير.

قال في كتابه: (مقولات أرسطو طـاليس): (إن علـوم الطبيعـة والفلـك والفلسـفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر الميلادي مقتبسة من قرآن محمد، بـل أن أوروبا مدينة للإسلام الذي جاء به محمد) [نفسه، ص٢٥٤].

وقال: إننا لو أنصفنا الإسلام لاتبعنا ما جاء به من تعـاليم وأحكـام، لأن كثـيرًا منهـا ليس في غيره... ويظهر من حياة محمد أن دعوته لهذا الدين لم تكن إلا عن سـبب سـماوي، إننا نقول هذا لو أنصفناه فيما دعا إليه ونادى به، وإن من اتهم محمدًا بالكذب فليتهم نفسـه بالوهن والبلادة، وعدم الوقوف على ما صدع به من حقائق. [نفسه، ص ٢٤٥].

٢٤- جون دي قنبرت:

المستشرق السويسري: قال في كتابه (محمد والإسلام): (كلما ازداد الباحث تنقيبًا في الحقائق التاريخية الموثقة المصادر فيما يخص الشـمائل المحمديـة ازداد احتقـارًا لأعـداء محمد، مثل ماركس و....).

٢٥- رينيهديكارت:

عالم الرياضيات والفيزياء، والفيلسوف الفرنسي المشهور، قال في كتابه الذي أشتهر به (مقالة الطريق): (ولو أنصفنا المسلمين لكنا معهم جنبًا إلى جنب، لأن رسـالتهم فيهـا مـا يتلاءم مع كل زمان، صاحب شريعتهم محمد لم يأت التاريخ برجل هو أعظم خلقًا منه).

٢٦ - الكسندر ديما الأب:

[الروائي والكاتب المسرحي الفرنسي الكبير، أحد أغزر الفرنسيين إنتاجًا]، قال في (الفرسـان الثلاثة): (كان محمد معجزة الشرق، لما في دينه من معـالم، وفي أخلاقـه مـن سـمو، وفي صفاته من محامد)، ويقول عن محمد ﷺ: (إنه المعلم الرحيم). [نفسه، ص٢٦٤].

٢٧- ول ديورانت:

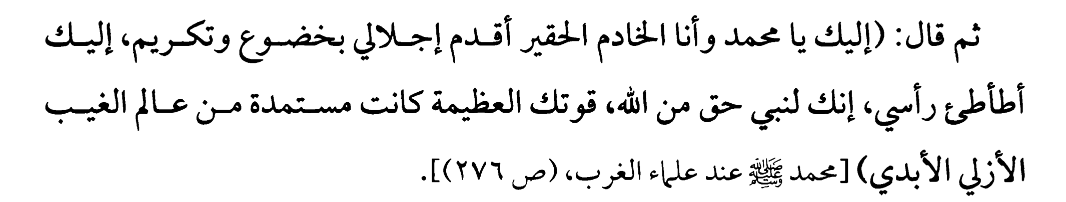
الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي المشهور، لـه سلسـلة مؤلـف (قصـة الحضـارة) مـع زوجته آربيل وفي (٤٢) مجلدًا، ألفاه في (٥٠) عامًا!!

نفى تهمة الإصابة بالصرع عن النبي ﷺ، ووصفه بأنه كان من أعظم عظـماء التـاريخ، وموجه الأمة العربية، وكبح جماعة التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهوديـة والمسـيحية ودين بلادة القديم، دينًا سـهلًا واضـحًا وقويًـا، وصرحًـا خلقيًـا قوامـه البسـالة والعـزة والقومية. [نفسه، (ص٢٦٦-٢٦٧)، ومصدرهما: (قصة الحضارة) (١٣/ ٢١/ ٢٢/ ٤٧)].

وقال: (كان محمد الحاكم المتسامح والحكيم المشرع) [مهـدي، (ص ١٢٩)، ومصـدره: (تراث الإسلام)، تصنيف شاخت وبروزت (١/ ٦٧/ ٦٨)].

٢٨- ريتين:

المستشرق الأسباني الكبير، قال في كتابه: (تاريخ سوريا ولبنان): (دين محمد قد أكد إذًا من الساعة الأولى لظهوره، وفي حياة النبي أنه عام، فـإذًا هـو صـالح لكـل جـنس، وكان صالحًا بالضرورة لكل عقل، ولكل درجة من درجات الحرارة).



ثم قال: (إليك يا محمد وأنا الخادم الحقير أقـدم إجـلالي بخضـوع وتكـريم، إليـك أطأطئ رأسي، إنك لنبي حق من الله، قوتك العظيمة كانت مستمدة مـن عـالم الغيـب الأزلي الأبدي) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٧٦)].

٢٩- جاك ريسلر:

المستشرق الفرنسي المعاصر، الحاصل على جائزة الأكاديميـة الفرنسـية عـلى كتابـه: (الحضارة العربية)، لكونه دراسـة أساسـية وأصـيلة لمعرفـة الإسـلام، يقـول في كتابـه المذكور: (لزامًا على محمد أن يبرز في أقصر وقت ممكن تفـوق الشـعب العـربي، عنـدما أنعم عليه بدين سام في بساطته ووضـوحه، وكـذلك بمذهبـه الصـارم في التوحيـد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية الأخرى، وإذا ما عرفنـا أن هـذا العمـل العظـيم أدرك وحقق في أقصر أجل، أعظم أمل لحياة إنسانية، فيجب أن نعترف أن محمدًا يظـل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديـان) [نفسـه، (ص ٢٧٦)، الحضارة العربية، (ص ٣٢)].

ويقول في الكتاب ذاته عن النبي ﷺ: (إنـه يسـعى عـلى الأخـذ بيـد المستضـعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة..) [الحضارة العربية، (ص ٥١)؛ نقـلًا عـن محمـد ﷺ عنـد علـماء الغرب، (ص ٢٧٦)].

٣٠- آرنست رينان:

مستشرق ومفكر فرنسي كبير، تعددت مؤلفاته، التي منها: (مستقبل العلـم)، أحـد كبريات كتب القرن التاسع عشر.

هاجم في كتاباته الأخيرة موقف (فولتير) من الرسول ﷺ بقولـه: (دلتنـي تجربتـي العلمية والتاريخية أنه لا صحة لما أريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافـتراء، مصـدره

بعض العادات القومية التي أراد بعض المحتالين كفولتير أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة، وتعصبهم الذميم، كقوله: إنه يميل إلى التسيد والسيطرة، مع أن محمدًا كما أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكبر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك، بريئًا من روح الكبرياء، متواضعًا، صادقًا، أمينًا، لا يحمل المقت لأحد، وكانت طباعه نبيلة، وقلبه طاهر، رقيق الشعور) [الإسلام والثقافة العربية: أنور الجندي، (ص ٢٣٧)]. قلت: انظر العَلَمَ رقم (٣٥) إذ لفولتير شهادة منصفة أيضًا.

٣١- برتملي سانت هيلر:

مستشرق ألماني: قال في كتابه: (المستشرقون وعقائدهم): (... فكان النبي محمدًا داعيًا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه، وإن في شخصيته صفتين من أجمل الصفات التي تحملها النفس البشرية، وهما: العدالة والرحمة) [نفسه، (ص ٢٣٤)؛ محمد النبي العربي: عمر أبو النصر، (ص ٢١)].

وقال في كتابه (مع الشرق): (لقد كان محمد أذكى العرب في عهده، وأكثرهم تقوى وتدينًا، وأرحبهم صدرًا، وأرأفهم بأعدائه وخصوم دينه، وإن دينه الذي دعا إلى اعتقاده كان جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته) [الجندي - نفسه، (ص ٢٣٤)؛ أبو النصر، (ص ٢١)].

٣٢- لوثروبستودارد:

كاتب اجتماعي، ومؤرخ أمريكي؛ من أهم كتبه: (العالم الإسلامي)، الذي يشيد فيه بدور محمد ﷺ في توحيد العرب، ونقلهم من العداوة إلى الأخوة، وفي رأسه نور للناس وهدى للعالمين. [نقلًا عن محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٨٦- ٢٨٧)].

ويقول أيضًا: (إن البشرية تفتخر بانتساب رجل كبير كمحمـد إليهـا، إذ أنـه رغـم أميته استطاع قبل أربعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون، نحن الأوروبيـين أسـعد مـا نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة) [نفسه، ص ٢٨٧].

٣٣- سينرستن:

مستشرق سويدي، أستاذ اللغات السامية، أسهم في دائرة المعارف الإسلامية، له عـدة مؤلفات، منها: (القرآن الإنجيل المحمدي)، و: (تاريخ حياة محمد)، وقال في هذا الأخير: (إننا لن ننصف محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصـفات وحميـد المزايـا [ص ١٨]. فلقد خاض محمد معركة الحياة الصـحيحة في وجـه الجهـل والهمجيـة... شريعتـه أكمـل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ) [نقلًا عن: محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٩٢)].

٣٤- برنارد شو:

مستشرق إنجليزي، فيلسوف وروائي ساخر، وكاتب مسرحي يعـد الأعظـم منـذ شكسبير. قال: (إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمـد، هـذا النبـي العـربي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنـه أقـوى ديـن عـلا هضـم جميـع المدنيات، خالدًا إلى الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي، قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة -يعني أوروبا-) [نفسه، (ص ٢٩٦)].

ويقول: (وإذا أراد العالم النجاة مـن شروره فعليـه بهـذا الـدين، إنـه ديـن السـلام والتعاون والعدالة، في ظل شريعة متمدينة محكمة، لم تنس أمرًا من أمور الـدنيا... وقـد ألفت كتابًا عن محمد، ولكنه صودر لخروجه عن تقاليد الإنجليز) [نفسه، ص ٢٩٦].

ويقول: (... ولذلك يمكنني أن أأكد نبوءتي فأقول: إن بـوادر العصـر الإسـلامي الأوروبي قريبة لا محالة، وإني أعتقد أن رجلًا كمحمد لو تسلم زمام الحكـم المطلـق في

العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة).

ويقول: (لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلًا وإما تعصبًا... فعندهم أن محمدًا كان عدوًا للمسيح، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب، وفي رأيي أنه بعيد جدًا أن يكون عدوًا للمسيح، إنما ينبغي أن يدعى منقذ البشرية) [نفسه، (ص ٢٩٦)].

ويقول: (كان محمد روح الرحمة...) [كتابه: عظمة الإسلام، (م١)].

ويقول: (إنه إذا سنحت الفرصة لديانة بالسيطرة على إنجلترا أو حتى أوروبا في السنوات المائة القادمة، فقد يكون الإسلام) [محمد ﷺ عند علماء الغرب (ص ٣٧٦)].

وقال: (... وكان الأولى أن يوصف بأنه مخلص الإنسانية) [نقلًا عن علي الجرجاوي: حكمة التشريع (١/ ٦٦)].

٣٥- آن ماري شيمل:

كبيرة علماء الإسلام الألمان.

مما قالته عن محمد ﷺ: (لقد كان محمد إنسانًا بما فيه الكفاية ليعرف نقاط الضعف في البشر بمن فيهم النساء...) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٩٦)].

٣٦- فرنسوا فولتير:

الفيلسوف والروائي والكاتب الفرنسي المشهور، دافع على لسان الكون تبولان دي فيليه عن الإسلام فقال: (إن أقل ما يقال عن محمد: أنه جاء بكتاب، وجاهد، أما عيسى فلم يترك شيئًا مكتوبًا، ولم يدافع عن نفسه، ولقد امتلك محمد شجاعة

الإسكندر وحكمة توما، أما عيسى فقد نزف دمًا بمجرد أن أدانه قضـاته، والإسـلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة).

وقال عن محمد ﷺ: (... لقد كان بالتأكيد رجلًا عظيمًا جـدًا... وقـام بـأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على وجه الأرض)، ويقول في كتابه (محمد ﷺ): (والواقع أن المزايا التي كان يتصف بها محمد تمحق الانتقاد محقًا ولا تـترك مكانـه إلا الإعجـاب بـه والتقدير لشخصيته...) ويقول: (.... من بين كل المشرعين والفاتحين ليس مـنهم أحـد سجلت سيرته بموثوقية وتفاصيل دقيقة من قبـل معاصريـه، كـما هـو الحـال في سـيرة محمد...) [نفسه، ص ٣٠٦]، [وانظر العَلَمَ رقم (٢٩) من هذا البحث].

٣٧- كوسان دي برسفال:

مستشرق فرنسي، وكاتب معروف، ومؤرخ مشهور.

قال في كتابه (تاريخ العرب)، عن محمد ﷺ: (ذلـك الرجـل الـذي جـاء إلى قومـه بدين جديد بعد أن توفرت دواعي النبوة، وإن دينه خال مـن الشـكوك والضـلالات، وقد جاء بالمعجزات دليلًا على دعوته المباركة، ثم ارتحل إلى المدينة، وبعد فتح مكة عفـا عن أعدائه فيها فآمنوا) [نفسه، (ص ٣٠٧- ٣٠٨)].

٣٨- توماس كارليل:

كاتب اسكتلندي، وفيلسوف ومؤرخ وعالم أخلاق.

قـال في كتابـه (محمـد رسـول الهـدى والرحمـة) [ص٤]: (.... ويـزعم المتعصـبون والملحـدون أن محمـدًا لم يكـن يريـد بدعوتـه إلا الشـهرة الشخصـية ومفـاخر الجـاه والسلطان، كلا وأيم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن الغفـار والفلـوات،

المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمةً وحجىً وإربة ونهىً، أفكار غير دنيوية ونوايا خلاف طلب الجاه والسلطان...).

وقال في كتابه المذكور [ص ٧]: (من العار أن يصغي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب، وإن محمدًا لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجًا منيرًا أربعة عشر قرنًا من الزمان لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة أو خديعة مخادع؟! ولو أن الكذب والتضليل يروجان عنده هذا الرواج الكبير، لأصبحت الحياة سخفًا وعبثًا، وكان الأجدر بها أن لا توجد، هل رأيتم رجلًا كاذبًا يستطيع أن يخلق دينًا ويتعهده بالنشر بهذه الصورة! إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبني بيتًا دعائمه هذه القرون العديدة، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس!!

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمدًا رجلًا كاذبًا متصنعًا متزرعًا بالحيل والوسائل لغاية أو طمع، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

وبعد أن ذكر تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم، قال: (وإني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع... وهو رجل عظيم...) [نفسه، (ص ٣٠٨-٣١١)].

٣٩- البارون برناكارا ديفو:

مستشرق فرنسي، ومؤلف مكثر، متعصب ضد الإسلام، أسهم في تحرير دائرة (المعارف الإسلامية). قال عن النبي ﷺ في كتابه (مفكرو الإسلام): (وكان حليمًا تقيًا،

حسن الأخلاق...)، وقال: (إن محمدًا كان هو النبي والملهم، لم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التي كان عليها، إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية، كان يطبق تطبيقًا عمليًا حتى على النبي نفسه) [نقلًا عن: هذا هو الإسلام، (ص ٨٧) نفسه، (ص ٣١١- ٣١٣)].

٤٠- بول كازانوفا:

أحد كبار علماء فرنسا، له كتابًا: (حضارة الشرق) و: (الإسلام بين الإنصاف والجحود). قال في الكتاب الأول [ص٢٣]: (يهمني أن أجهر بأني لا أسلم أصلًا بكل نظرية يفهم منها الريب بصدق محمد، إن سيرة النبي العربي من بدايتها إلى نهايتها تدل على أنه ثابت رصين أمين...).

ويقول: (... إن كل تاريخ النبي العربي يدل على أن خلقه جدي عملي محمود..) [نفسه، (ص ٣١٣-٣١٤)].

٤١- أوغستون كرستان:

رجل فكر إيطالي، قال في كتابه (الكياسة الاجتماعية): (وإنك لتجد في كل موضع من القرآن الذي جاء به محمد إلى العرب آيات تحث على فعل الخير، وأما هو فقد كان أمينًا وأعدل رجل، ولا يسعنا إلا أن نقدر له جهوده في سبيل دينه وعقيدته).

ثم يقول: (لقد جعل محمد الإخاء والمحبة ركنين للمجتمع الإسلامي، وهذا لعمري تقدم باهر إذا قارنا عهد الإسلام بعهد الجاهلية أيام كان أرباب الثروة والسيادة يزدرون بصلفهم المساكين ويسومونهم الخسف...) [نفسه، (ص٣١٧)].

٤٢- إيفلين كوبولد: شاعرة بريطانية.

قالت في كتابها (الأخلاق) [ص ٦٦]: (... وكان يعمل في سبيل الله والإنسانية)، وقالت في كتابها (البحث عن الله): (بعث -أي: محمد- هذه الأمة

بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات، فغلبت العالم وحكمت فيه آجالًا وآجالًا...).

وتقول فيه: (إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة، فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية).

٤٣- القس لوازون:

مستشرق فرنسي. قال عن محمد ﷺ في كتابه: (الشرق) [ص ٦١]: (... ومهما تحدثنا عنه فليس بالكثير في حقه، لأنه جاء إلى العالم بدين جمع فيه كل ما يصلح للحياة...) [نفسه، (ص ٣١٧- ٣١٨)].

وقال في إحدى محاضراته، [كما جاء في مجلة: (المقتطف)، المجلد الرابع، العدد السابع]: (وكان على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحسان، وكان على خلق عظيم، وشيم مرضية، شغوفًا على الأطفال، مطبوعًا على الإحسان، غير متمشدق في نفسه، ولا صلف في معاملته مع الناس...) [نفسه، (ص ٣١٩-٣٢٠)].

٤٤- غوستاف لوبون:

من أعظم فلاسفة فرنسا في القرن العشرين.

قال في كتابه: (الحياة)، عند حديثه عن العرب في الشرق [ص ٤٣]: (إن محمدًا على الرغم مما يشاع عنه على وجه عام، قد ظهر بمظهر الحلم الوافر ورحابة الصدر الفسيحة إزاء أهل الذمة، وحرر بلادًا واسعة من الروم والفرس، وترك أهلها في طليعة الأمم).

وقال في كتابه: (الدين والحياة) [ص ٦٧]: (.... وقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة، ورقة قلب، ورأفة، ورحمة، وصدق، وأمانة... إذا ما قيست قيمة الرجال

بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله...) [نفسه، (ص ٣٢٠-٣٢٢)].

٤٥- فلور أندريه:

مستشرق ألماني، قال: (كان محمد رحيمًا بالضعفاء، بشوشًا، سهل المعاملة، طاهر القلب...) [انظر الشبكة العنكبوتية (النت)].

٤٦- جان ليك:

مستشرق أسباني. قال في كتابه: (العرب) [ص ٤٣]: (... حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله ﷻ بألفاظ قليلة، بين بها سبب بعث النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]).

ويقول: (... وقد برهن لنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمة حقيقية لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق لأصلي عليه وعلى أتباعه) [ما قبله، ص ٣٢٦].

٤٧- جول لابوم:

عالم فرنسي. قال عن محمد ﷺ في: (الفهرس) المترجم إلى اللغة العربية، الذي وضعه للقرآن الكريم [ص ٦٣]: (... وإذا بالعالم يتسع لأضواء هداه، فكأن بالعالم وقد خلق من جديد، وفتح عينيه على مبادئ عالية سامية) [نفسه، ص ٣٢٩].

٤٨- المركيز دي لابلاس:

من مشاهير علماء الفلك الفرنسيين. رياضي وفيزيائي.

قال: (ولكن دين محمد وشريعته اجتماعيان لحياة البشر، فنحن نعترف لمحمد بأنه عظيم بدينه ومبدئه وعقليته، فلا محيص عن الأخذ بتعاليمه) [نفسه، ص ٣٢٩].

٤٩- الفونس دي لامارتين:

من أشهر الشعراء الفرنسيين. يقول في كتابه: (تاريخ الأتراك) [بالفرنسية، (٢/ ٢٧٦-٢٧٧)] بعد أن ذكر دور محمد ﷺ في حركة التاريخ: (... هو ذا محمد، على كل المستويات، حيث تقاس العظمة الإنسانية، أي رجل هو الأكبر....) [نفسه، ص ٣٣١].

وبعد أن أشاد بجهاد محمد ﷺ وصبره وحميته في الدعوة التي جاء بها، قال: (كل هذا لأعظم دليل على أنه لم يكن يضمر خداعًا أو يعيش على باطل أو مين، بل كان وراءها عقيدة صادقة...) [من كتاب: السفر إلى الشرق، ص ٨٤].

وقال [ص ٤٧]: (إن محمدًا فوق البشر ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعجزات تعضد ذلك، وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته، فكشف فيها عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمة العرب دينًا سماويًا، وسرعان ما اعتنقوه، وهو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر... أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، أدركت ما فيها من عظمة وخلود...). ويقول: (... أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثلما بلغ، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ وساطة بين الخالق والمخلوق) [نفسه، (ص ٣٣٢)، وانظر كتابه: تاريخ الأتراك -بالفرنسية- (٢/ ٢٧٦-٢٧٧)، باريس، (١٨٤٥م)].

٥٠- لايتنر:

باحث إنجليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، يقول: (بقدر ما أعرف من دين اليهود والنصارى، أقول بأن ما علمه محمد

ﷺ ليس اقتباسًا، بل قد أوحي إليه به، ولا ريب في ذلك، طالما نـؤمن بأنـه قـد جاءنـا وحي من لـدن عزيـز علـيم...) [مـن كتـاب: ديـن الإسـلام، (ص ٤-٥)، نقـلًا عـن نفسـه، (ص ٣٣٦)]. ويستطرد قائلًا: (إن الديانة النصرانية التي ود محمد ﷺ إعادتهـا لأصـلها النقي كما بشر بها المسيح، تخالف التعاليم السرية التي أذاعهـا بـولس، والأغـلاط التـي أدخلها عليها شيع النصارى....).

(.... ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هـذا الـدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجيـة، ولمـا كـان لهـم هـذا الإخـاء المعمـول بـه في ديـن الإسلام). [لايتنر: دين الإسلام، (ص ٢٥)، نقلًا عن: نفسه، (ص ٣٣٦)].

يقول عن تعدد أزواجه: (... فلا ريب أن لزواجه في مرحلة الكبر أسـباب حقيقيـة غير التي يتمشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا تـرى؟ لا ريب أنها شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا...) [نفسه، ص ٣٣١].

ويقول: (... إني لأجهر برجائي بمجيء اليـوم الـذي بـه يحـترم النصـارى المسـيح احترامًا عظيمًا، وذلك باحترامهم لمحمد ﷺ، ولا ريب في أن المسـيح المعـترف برسـالة محمد ﷺ وبالحق الذي جاء به، هو المسيح الصادق) [نفسه، (ص ٦)، نقـلًا عـن: محمـد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٣٣٧)].

ويصف النبي ﷺ نفسه بأنه المتسامح الأكبر، وأن صفة التسامح كانت ومـا زالـت إحدى المميزات والسـمات الراقيـة للـدين الإسـلامي، ذكـر هـذا في كتابـه: (أخـلاق المسلمين وعاداتهم). وقال: (بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدتـه في النبي محمد ﷺ).

٥١- فريد فون بسمارك:

صحفي ألماني. يعمل رئيسًا لمجلس شورى الصحافة الألمانية.

قال في تقرير نشرته الأنباء العالمية في أعقاب نشر الصور المسيئة للرسول ﷺ عام (٢٠٠٧م): (إني أدعي أن حضرة محمد قدوة ممتازة، وليس بالإمكان إيجاد قدوة كمحمد ثانية).

٥٢- ماسنيون:

مستشرق فرنسي شهير. قال السيد سليمان الندوي، في كتابه (الرسالة المحمدية) [ص ٦٧]: (وقد قال لي يومًا، وأنا في فرنسا، مستشرق اسمه ماسنيون: يكفي لتعرف أوروبا محاسن الرسول ﷺ ومحامده، أن ينقل كتاب (الشفاء) للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوروبية).

٥٣- وليام موير:

مستشرق ومنصر إنجليزي، من المتعصبين ضد الإسلام، جمع كتاباته في السيرة بعنوان (حياة محمد وتاريخ الإسلام)، هدفه مساعدة البعثة التنصيرية التي عمل معها، يقول في هذا الكتاب: (لقد امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل نبي الإسلام محمد).

ويقول: (وباختصار، فإنه مهما ندرس حياة النبي ﷺ نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع بقاء سريرة وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان، في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل) [الوحي المحمدي، (ص ١٠٥)].

ويقول في كتابه (حياة محمد ﷺ)، [ص ١٤]: (... ومن صفات محمد ﷺ الجليلة والجديرة بالذكر والحرية بالتنويه: الرقة والاحترام... فالسماحة والتواضع والرأفة

والرقة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبته عند كـل مـن حولـه، وكـان يكـره أن يقـول: لا...)، وعدد بعض أخلاقه، وذكر في صفحة (٨٠) من الكتاب المذكور: إن من عقيدة الإسلام، أن الإنسان أخو الإنسان، وأشاد بسماحته في عفوه عن ألد أعدائـه يـوم فـتح مكة [حياة محمد، ص ٨٨].

نقل عنه راما كريشنار أو (ك.س): رئـيس المجلـس الهنـدي للبحـوث والفلسـفة، ورئيس قسم الفلسفة في جامعة (مايزوري) في الهند: (إن فحوى موضوعي هو الكتابـة عن تاريخ الديانة، وعن الرسول الذي يعتبر شخصية تاريخية)، حتـى أن السـير وليـام موير، الذي يعتبر ناقدًا عدائيًا، يقول عن القرآن الشريف ما يلي:

(ليس هناك على الأرجح من كتاب آخر استطاع الحفاظ على نقاء نصـه عـلى مـدى (١٢) قرنًا، إن حياة النبي محمد وأعماله بتفاصيلها ليست غامضة، وهي باقية للأجيـال القادمة، لقد تم تشويه صورة الإسلام لأسباب سياسية وغيرها).

٥٤- إدوارد مونته:

مستشرق فرنسي، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، قال في كتابـه: (حـاضر الإسلام ومستقبله): (أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة...).

وقال في كتاب (محمد والقرآن)، [ص ٢٢]: (لقد منع محمد الذبائح البشـرية، ووأد البنات، والخمر، والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق، بحيث يجب أن يعد محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية، وأن الانقياد لإرادة الله تتجلى في محمـد والقرآن بقوة لا تعرفها النصرانية) [نفسه - محمد عند علماء الغرب (ص ٣٤٦- ٣٤٧)].

وقال: (...ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد ﷺ، وإن ما قام بـه من إصلاح وأخلاق وتطهير المجتمع، يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية).

وقال في كتابـه (العـرب): (... وبالجملـة: كـان محمـد ﷺ أذكـى وأديـن وأرحـم عرب عصره...).

٥٥- جوهان، دافيرميخائيلس:

لاهوتي ألماني شهير، ومستشرق.

أشاد في كتابه (العرب في آسـيا) بـإخلاص محمـد ﷺ وعقيدتـه وصـفات الكـمال فيه.... وقال: (ولم نعرف عن دينه إلا ما يتلاءم مع العصور مهـما تطـورت... وحـري بكل الشعوب أن تأخذ بتعاليمه). [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٣٥٢)]

٥٦- د/ تيو دور نولدكه:

شيخ المستشرقين الألمان، يقول في كتابه: (تاريخ القرآن): (نزل القـرآن عـلى محمـد نبي المسلمين، بل نبي العالم، لأنـه جـاء بـدين عظـيم، وشريعـة كلهـا آداب وتعـاليم، وحري بنا أن ننصف محمـدًا في الحـديث عنـه، لأننـا لم نقـرأ عنـه إلا صـفات الكـمال، فكان جديرًا بالتكريم).

وكرر اعترافه بصحة نبوة محمد ﷺ، مثل قوله: (لا بد لنا من الاعتراف بـأن محمـدًا كان في الحقيقة نبيًا...) [نفسه، ص ٣٤٥].

٥٧- مايكل هارت:

مستشرق أمريكي، صاحب الكتاب المشهور (المائة الخالـدون)، الـذي اختـار فيـه محمدًا ﷺ على رأس القائمة، وقال في تبريره: (إن اختياري لمحمد ليكون رأس القائمـة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء... ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجـل الوحيـد في التـاريخ الـذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي) [نفسه، ص ١٥٦].

٥٨- مونتغمري وات:

مستشرق بريطاني، من أشهر كتبه: (محمد في مكة)، و: (محمد في المدينة)، استنكر الطعـن في محمد ﷺ من قبل إخوانه المستشرقين المتعصبين. [محمد في مكة، ص ٢٥].

وأشاد بأمانته وقوة عزيمته، إلى أن قال: (فلو لم يكن نبيًا وْرجل دولـة وإرادة، ولم لم يضع ثقته في الله ويقتنع بشـكل ثابـت أن الله أرسـله، لما كتـب فصـلًا مهـمًا في تـاريخ الإنسانية، ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد ﷺ يمكنهـا أن تسـاعد عـلى إثـارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم). [نفسه، محمد في مكة (ص ٥١٢)].

وأشاد بالعدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه، ورحمته لأهل الذمة.

٥٩- هربرت جورج ولز:

كاتب وأديب بريطاني. له (معالم تاريخ الإنسانية)، و: (موجز تاريخ العـالم)، وممـا قالـه: (... إن ديانة محمد كان فيها روحًا حقيقية من العطـف، والكـرم، والإخـاء، وعلـو الـنفس، والمعاني التي يشغف بها أهل البادية). [شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي (ص ٣٩)].

ويقول: (إن محمدًا يستحق كل إعجابنا وتقـديرنا كمصـلح عظـيم، بـل ويسـتحق أيضًا لقب النبي، ولا يصغى إلى أقوال المغرضين وآراء المتعصبين، فإن محمدًا عظـيم في دينه وفي شخصيته، ومن تحامل على محمد فقد جهله وغمطـه حقـه). [محمـد عنـد علـماء الغرب، ص ٣٧٠].

قال في (معالم تاريخ الإنسانية) [٣/ ٦٤٠- ٦٤١]، عن رسالة محمد ﷺ: (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامـل العـادل الكـريم، وإنهـا لتـنفخ في النـاس روح الكـرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية...)، وقـال: (محمد أعظم من أقام دولة العدل والتسامح).

٦٠- أدموند بيرك:

فيلسوف إنجليزي. يقول: (إن رسالة محمد إلهية، لم تسبق ولن تلحق). [محمد فهمي عبد الوهاب: محمد ﷺ رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه، (ص ٥٩)].

٦١- الجنرال آيزنهاور:

رئيس أسبق لأمريكا. قال في خطاب له بذكرى مرور عشر سنوات على إنشاء الأمم المتحدة: (إن محمدًا رسول العلم والحضارة). [نفسه، ص ٦٤].

٦٢- شبلي شميل:

النصراني، والطبيب، والعالم الطبيعي، والمصطلح الاجتماعي اللبناني الشهير: يقول (إن محمدًا نبي الإسلام -عليه الصلاة والسلام- أكمل البشر من الغابرين والحاضرين، ولا يتصور مثله في الآتين).

نماذج لأقوال نصارى عرب منصفة :

لقـد أفتخـر شـعراء عـرب نصـارى بـالانتماء إلى حضـارة الإسـلام والإشـادة بشمائل الرسول ﷺ.

ولنقف قليلًا مع بعض هؤلاء الشعراء الذين منهم:

٦٣- مارون عبود: [انظر : محمد صلى الله عليه وسلم عند علماء الغرب، ص ٤٥٥]

شاعر وأديب كبير، ونقادة عنيف، كثير التصانيف، سمى ولده محمدًا، وعرف بـأبي محمد، كما سمى ابنته فاطمة، تقلد منصب رئيس الجامعة الوطنية في عالية (لبنان)، لـه من قصيدة: (النبي محمد):

طَبعتْـكَ كـفُ الله سـيفَ أمـان   كمـنَ الـرّدى في حـدِه للجـاني
العـدلُ قائمـهُ وفي اِفْرَنْـدهِ   سـورُ الهـدى نُزلّـت بسـحر بيـان
وعليـك أمـلى الله مـن آياتـه   شـهبًا هـتكْنَ مـدارع البُهتـان
لـولا كتابـك مـا رأينـا معجـزًا   في أمـةٍ مرصوصـة البنيـان
حملـت إلى الأقطـار مـن صـحرائها   قـبسَ الهـدى ومطـارفَ العمـران
هـادٍ يُصـوَّر لي كـأنّ قَوامـه   متجمـر مـن عنصـر الإيـمان
لـك في السـماء منصـةٌ قدسـيةٌ   قامَـتْ عـلى التوحيـد والميـزان
مـا كنـتَ سـفاحا ولم تسـفك دمًـا   إلا بحـق العـادل الـديان
لـو كنـتَ في قـوم تسـيغ عقـولهم   وحيًـا لكنـت كـأودع الحمـلان
لـولا اعتـداؤهم عليـك وجـورهم   مـا خضـت حربًـا طاعنًـا بسـنان

٦٤- إلياس نصل:

سوري، هاجر إلى البرازيل، له عدة دواوين، قال من قصيدة له في النبي ﷺ:

إني ذكرتك يا محمد ناشرًا روح الأخوة في بني الإنسان
يا من يثير حماستي بكماله عذرًا إذا شاهدت ضعف لساني
هي باقة تهدى إليك زهورها من خير ما يزهو به بستاني

[من قصيدة بها (٨٣) بيتًا: محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٤٥٨-٤٥٩)]

٦٥- عبد الله يوركي حلاق:

السوري، ومؤسس مجلة (الضاد) الحلبية. يقول عن محمد ﷺ في قصيدته (قبس من الصحراء):

أمحمد والمجد نسج يمينه مجدّت في تعليمك الأديانا
إني مسيحي أجل محمدًا وأراه في سفر العلى عنوانا
ولأنه داس الجهالة وانتضى سيف الجهاد وحطم الأوثانا

٦٦- جاك صبري شماس:

الشاعر السوري، يقول في قصيدته (أوراق اعتمادي):

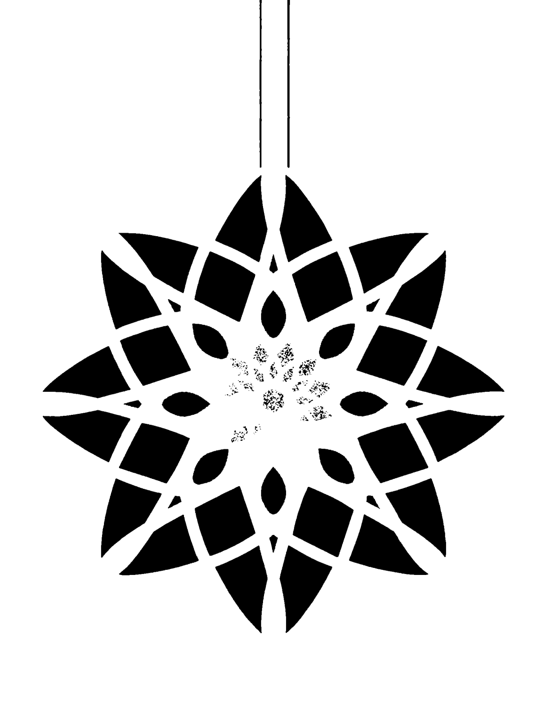
إني مسيحي أجل محمدًا وأجل ضادًا مهده الإسلام
وأجل أصحاب الرسول وأهله حيث الصحابة صفوة ومقام
كحلت شعري بالعروبة والهوى ولأجل طه تفخر الأقلام
وأودعت روحي في هيام محمد دانت له الأعراب والأعجام

[انظر -هداك الله- هذه النقول من مقال بقلم الشاعر جاك صبري شماس، بعنوان: (شخصية الرسول ﷺ في عيون الشعراء العرب النصارى)، منشور بمجلة: (منار الإسلام) الإماراتية، العدد (٣٦٣)، السنة (٣١) ربيع الأول ١٤١٦هـ / أبريل-مايو ٢٠٠٥م، (ص ٦٦-٦٧)].

ونقول في الختام: إن خصائص الإسلام، التي هي خصائص نبيه محمد ﷺ، كانت وراء اعتناق أولئك الأعلام الإسلام أو الإشادة به ونبيه ﷺ من قبل من لم يسلم لأسباب يعلمها.

ويتضح لنا جليًا أن تناول السيرة النبوية تأليفًا وتدريسًا يجب أن ينطلق من خصيصة الشمولية للسيرة النبوية، وليس فقط الوقوف عند أحداث الغزوات والسرايا وإهمال الجوانب الأخرى للسيرة، كما جاءت في موسوعة: (نضرة النعيم...)، وفي مؤلفات، مثل: حقوق الإنسان، والإعجاز العلمي في السنة والسيرة النبوية، والقرآن الكريم، معجزة الرسول ﷺ العظمى. وقد تضمنت شهادات الأعلام الذين ذكرناهم كنماذج الإشادة بهذه الشمولية، مما يعني أن واجب الدعوة إلى الإسلام يقتضي تقديم الإسلام لكل البشرية بمن فيهم المسلمين وفق هذه الرؤية الشمولية المهمة جدًا، وهذا ما يحاول أن يقوم به مؤلف هذاالكتاب، خلال مسيرته الأكاديمية والدعوية، بل تفرغ لها حاليًا. وكان هدفي من اختيار موضوع هذا الكتاب: تنبيه أساتذة السيرة إلى هذا الجانب.





الفهارس

أولاً: فهرس المصادر والمراجع

أ- المصادر القديمة:

* القرآن الكريم.

* ابن الأثير: علي بن محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ).

- أسد الغابة في معرفة الصحابة: دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٩م.

* الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت ٢٥٠ هـ).

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة، بيروت ومكة المكرمة، ط ٣، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

* ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١ هـ).

- السير والمغازي: تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* بحرق: محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي (ت ٩٣٠هـ).

- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، المنسوب خطأ إلى ابن الديبع: اعتنى به: محمد غسان تصوح عزقول، دار الحاوي، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

* البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ).

- التاريخ الكبير: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن - الهند، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، ودار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- الأدب المفرد: حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، مستفيداً من تخريجات وتعليقات الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

- الجامع الصحيح: المكتب الإسلامي، استانبول، تركيا، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

* البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ).

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

* البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).

- أنساب الأشراف: تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، د. ت.

* البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعة جي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- السنن الكبرى: دائرة المعارف النظامية، حيد آباد، الدكن - الهند، ط١، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م.

- شعب الإيمان: تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، وتحقيق آخر لمحمد العيد بسيوني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ.

* الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ).

- سنن الترمذي: أشرف على التعليق والطبع عزت عبيد الدعاس، دار مكتبة دار الدعوة، حمص - سورية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

- مختصر الشمائل المحمدية: اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية بالأردن ومكتبة المعارف بالرياض، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

- زاد المسير في علم التفسير: المكتب الإسلامي بيروت، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- الوفا بأحوال المصطفى: تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ).

- الجرح والتعديل: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٢٧٢هـ - ١٨٥٥م، ودائرة الكتب العلمية، بيروت.

* الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥هـ).

- المستدرك على الصحيحين: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د. ت.

* ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت ٣٥٤هـ).

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: تصحيح وتعليق الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ).

- المحبَّر: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت. وطبعة دائرة المعارف الإسلامية، حيد آباد، الدكن، سنة ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م.

* ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد الكناني (ت ٨٥٢هـ).

- الإصابة في تمييز الصحابة: مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعد (ت ٤٥٦هـ).

- الفصل في الملل والأهواء والنحل: المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م.

* الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ).

- معجم البلدان: دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٦م.

* الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير (ت ٢١٩هـ).

- مسند الحميدي: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، من سلسلة منشورات المجلس العلمي، كراتشي - باكستان، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

* ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

- المسند: تحقيق أحمد محمد شاكر، لم يذكر الناشر، مصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

- المسند (الموسوعة الحديثية): تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- فضائل الصحابة: تحقيق وصي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* ابن خياط: خليفة بن خياط العصفري (ت ٤٦٣هـ).

- تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت ٢٥٥هـ).

- سنن الدارمي: طبع بعناية محمد أحمد دهمان دار إحياء السنة النبوية، القاهرة، د. ت.

* أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ).

- سنن أبي داود مع معالم السنن للخطابي: أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، إعداد وتعليق عبيد الدعاس، نشر وتوزيع محمد علي السيد، سورية، ط١، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

- المراسيل: تحقيق عبد العزيز السيرواني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* أبو داود: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ).

- مسند الطيالسي: ترتيب أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، المنيرية بالأزهر، مصر، ط١، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ).

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: مؤسسة شعبان، بيروت، والمطبعة الوهبية، مصر رجب، ١٢٨٣هـ ١٨٦٦م.

* الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ).

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: مجلد قسم السيرة ومجلد قسم المغازي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* ابن زبالة: محمد بن الحسن بن زبالة (ت ١٩٩هـ).

- المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ، رواية الزبير بن بكار: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (ت ١١٢٢هـ).

- شرح المواهب اللدنية للقسطلاني: أحمد بن محمد بن أبي بكر، شهاب الدين، أبو العباس (٩٣٢هـ)، دار الطباعة الأميرية، مصر، ١٢٨٧هـ - ١٨٦١م.

- شرح موطأ الإمام مالك بن أنس: مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٤م.

* الزركشي: محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ).

- إعلام الساجد بأحكام المساجد: تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

* ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ).

- الطبقات الكبرى: دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

* السمهودي: علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني (ت ٩١١هـ).

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

* السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي (٥٨١هـ).

- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية: لابن هشام، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* ابن سيد الناس: محمد بن محمد أبو الفتح اليعمري المصري (ت ٧٣٤هـ).

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: دار المعرفة، بيروت.

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).

- تهذيب الخصائص النبوية الكبرى: هذبه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبدالله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.

* ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢هـ).

- تاريخ المدينة المنورة: تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، دار الأصفهاني، جدة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

* ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ).

- كتاب المغازي: تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمرين دار إشبيليا، السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- المصنف في الأحاديث والآثار: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م وله طبعات أخرى.

* أبو الشيخ: عبد الله بن محمد جعفر بن حيان الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ).

- أخلاق النبي ﷺ وآدابه: تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- أخلاق النبي ﷺ وآدابه: دراسة وتحقيق عصام الدين سيد الصَّبابطي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

* الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي (ت ٩٤٢هـ).

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ).

- المعجم الكبير: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي، العراق، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- المعجم الكبير: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.

* الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (ت ٣١٠هـ).

- تاريخ الرسل والملوك: دار المعارف، مصر، ط٤، د.ت.

* طرهوني: الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني.

- صحيح السيرة النبوية المسماة: السيرة الذهبية: دار ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.

* ابن طولون: محمد بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣هـ).

- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين: تحقيق محمود الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* ابن أبي عاصم: أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني (ت ٢٨٧هـ).

- كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

* ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (ت ٤٦٣هـ).

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: بهامش الإصابة لابن حجر.

- الدرر في اختصار المغازي والسير: تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

* عبد الرزاق: بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني (ت ٢١١هـ).

- المصنف: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* أبو عبيد: القاسم بن سلام البغدادي اللغوي (ت ٢٢٤هـ).

الأموال: تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ودار الفكر، القاهرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

* عروة: بن الزبير بن العوام (ت ٩٣هـ).

- المغازي: برواية أبي الأسود عنه، جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي (ت ٥٧١هـ).

- تاريخ مدينة دمشق: قسم السيرة النبوية تحقيق نشاك عزاوي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري (ت ٢٧٦هـ).

- المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

* ابن قم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥٢هـ).

- زاد المعاد في هدي خير العباد: تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* ابن كثير: ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ).

- البداية والنهاية: تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ويطلب من مكتبة الفلاح بالرياض، د.ت.

- البداية والنهاية: تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- تفسير القرآن العظيم: تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه، كتاب الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

* ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ).

- سنن ابن ماجه: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

* مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشري النيسابوري (ت ٢٦١هـ).

- صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* المنذري: أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ).

- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: تحقيق الشيخ مصطفى محمد عمارة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* النسائي: أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ).

- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.

- عمل اليوم والليلة: تحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

* النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ).

شرح صحيح مسلم: دار الفكر، بيروت، د.ت.

* أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ).

- دلائل النبوة: تحقيق الدكتور محمد رواس قلعة جي، وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ).

- السيرة النبوية: تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

* الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت ٨٠٧هـ).

- كشف الأستار عن زوائد البزار: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٦٧م.

- موارد الظمآن على زوائد ابن حبان: تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ت.

* الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ).

- أسباب النزول: مطبعة هندية، مصر ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م.

* الواقدي: محمد عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ).

- كتاب المغازي: تحقيق الدكتور مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

* اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢هـ).

- تاريخ اليعقوبي: دار صادر، بيروت ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

ب- المراجع الحديثة:

* آرثر كريستنسن:

- إيران في عهد الساسانيين: ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

* الألباني: محمد ناصر الدين الألباني.

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تخريج أحاديث فقه السيرة: للغزالي، بحاشية فقه السيرة للغزالي.

- حجة النبي ﷺ: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات الدكتور البوطي في كتاب (فقه السيرة): مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- صحيح سنن الترمذي: مكتب التربية العربي لدولة الخليج، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- صحيح سنن ابن ماجه: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

* الآلوسي: محمد شكري.

- بلوغ الأرب في أحوال العرب: تحقيق بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.

* الباكري: حسين أحمد الباكري.

- مرويات غزوة أحد: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* باوزير: أحمد محمد العليمي باوزير.

- مرويات غزوة بدر: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، مكتبة طيبة، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* أبو بكر الجزائري:

- هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب: مكتبة لينة، دمنهور، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* البلادي: عاتق بن غيث.

- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: دار مكة، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* البوطي: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

- فقه السيرة النبوية: دار الفكر، دمشق، ط٧، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

* حامد عبد القادر.

- زرادشت الحكيم: نبي قدامى الإيرانيين، حياته وفلسفته، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

* حسن شحاتة سلطان.

- كونفرشيوس: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

* ابن حميد: صالح بن عبد الله بن حميد.

- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

* الحكمي: حافظ بن محمد عبد الله الحكمي.

- مرويات غزوة الحديبية: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الدوم: محسن أحمد الدوم.

- مرويات غزوة فتح مكة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي.

- إظهار الحق: إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* أبو زهرة: الشيخ محمد أبو زهرة.

- الديانات القديمة: دار الفكر العربي، مصر، ١٣٨٥هـ - ١٩٥٦م.

* زهير سالم.

- عثرات وسقطات في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية: دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* الساعاتي: أحمد بن عبد الرحمن البنا.

- الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني مع بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني: دار الشهاب، القاهرة، د.ت.

* السامرائي: عبد الله سلوم.

- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية: رسالة ماجستير منشورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* السعود: سليمان بن علي السعود.

- أحاديث الهجرة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* السندي: أكرم حسين علي السندي.

- مرويات تاريخ يهود المدينة في عهد النبوة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* السندي: عبد القادر حبيب الله السندي.

- الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الشامي: صالح أحمد الشامي.

- من معين السيرة: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

* أبو شهبة: محمد محمد.

- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

* الشهري: عوض أحمد سلطان الشهري.

- مرويات غزوة خيبر: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* الصوري: الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق (مترجم).

- التوراة السامرية: نشر وتعريف الدكتور حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* الصوياني: محمد.

- السيرة النبوية الصحيحة: قراءة جديدة - مؤسسة الريان، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ.

- القصيمية: دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، دار طيبة، ط١١٤٠٩هـ.

* عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون.

- محمد رسول الله ﷺ - منهج رسالة -: دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* العمري: الدكتور أكرم ضياء العمري.

- المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين -: لم يذكر الناشر ومكان النشر، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.



- المجتمع المدني في عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى -: المجلس العلمي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إحياء التراث الإسلامي، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق - دراسة مقارنة في العقد المكي - رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* الغضبان: منير محمد.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية: مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* عمير: إبراهيم بن محمد عمير.

- مرويات غزوة الخندق: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* عون: الدكتور عون الشريف قاسم.

- دبلوماسية محمد ﷺ: رسالة دكتوراه منشورة، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، د.ت.

* قريبي: الدكتور إبراهيم بن إبراهيم قريبي.

- مرويات غزوة حنين: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- مرويات غزوة بني المصطلق: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، د.ت.

* المباركفوري: الشيخ صفي الرحمن المباركفوري.

- الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

* محمد رواس قلعة جي: الأستاذ الدكتور.

- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة: دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* مهدي رزق الله أحمد: الأستاذ الدكتور.

السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

* الندوي: أبو الحسن علي الحسني.

السيرة النبوية: دار الشروق، جدة، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مطابع علي بن علي الدوحة، ط١٠، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

* هارون رشيد محمد إسحاق.

- صحيفة المدينة: دراسة حديثية وتحقيق، رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الملك سعود بالرياض للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* الندي: علي بن حسام الدين الهندي.

- كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

ملاحظة: المصادر والمراجع التي ورد ذكرها أقل منها ثلاث مرات، أو كانت الاستفادة منها قليلة جداً لم نذكرها هنا، واكتفينا بذكرها في حواشي الكتاب.



ثانيًا: فهرس الموضوعات





















